

رحلتي عبر زوابع الشرق والغرب

الدكتور لؤي صافي

دار الفكر المعاصر
بيروت - دبي

الدكتور

لؤي صافي



رحلتي عبر زوابع الشرق والغرب

دار الفكر المعاصر

بسم الله الرحمن الرحيم

خيارات

رحلتي عبر زوابع الشرق والغرب

خـــــــــــيارات

رحلتي عبر زوابع الشرق والغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة تمنحنا سلسلة من الخيارات، تتعاقب واحدة تلو الأخرى لتخطَّ طريقنا، وتصنع هويتنا، وتعطي لوجودنا معنى، وتحدِّد موقعنا ضمن خريطة الخيارات الإنسانية المتاحة.

كل خيار نتخذه يضعنا على مسار معيَّن، ويبعدنا عن مسارات أخرى. وتتعاقب الأحداث والخيارات لتؤكد المسار الذي اخترناه أو تعدله أو تغيره، ولتقودنا أخيراً إلى المصير الذي ينتهي المسار إليه.

حياة كل منا ليست سوى الحصيلة المتراكمة لمجمل خياراته!

المحتويات

مقدمة

كتاب (**خيارات**) جهد لاسترجاع لحظات عشتها وخيارات صنعت حياتي. أهمية هذا الاسترجاع لا ترتبط باستعراض زمني لتلك اللحظات، ولكن في وضعها في سياق التحديات الثقافية والاجتماعية التي ساوقتها، وحددت الإطار العام لمواقفي وخياراتي. الأيام التي عشتها ارتبطت بحركة جذرٍ ومدٍّ، تراجع خلالها الإسلام وقيمه التي صنعت الثقافة العربية والإسلامية عبر القرون، ليعود من جديد لبدء رحلة الرجوع إلى مركز الحياة ودائرة الفعل التاريخي. الجذر والمدّ، والتراجع والتقدم، لم يحدث عبر حركة خطية بسيطة، بل من خلال هزات ثقافية واجتماعية معقدة لا زال رجعها يتفاعل مع الأحداث التي نعيشها اليوم، وربما سيستمر في الفعل والتأثير لعقود قادمة. فرحلة العودة الفاعلة للإسلام على المستوى الثقافي والحضاري ستأخذ بعض الوقت وستساهم فيها أجيال قادمة.

ارتبطت حياتي منذ مرحلة مبكرة بالجهود الإصلاحية، واتَّصف جهدي بسعي حثيث لتأكيد القراءة الحضارية لرسالة الإسلام وقيمه، وتكريسها على امتداد حركتي الجغرافية التي نقلتني بين بلدان الشرق والغرب، وامتداد حركتي النفسية التي نقلتني بين تردُّدات الفكر وإشراقات الروح وتناقضات الشعور، وامتداد العمل الاجتماعي والحوار الثقافي والصراع السياسي على أرض الواقع. عشت منذ تشكل وعيي الأول في دمشق حالة الانقسام الثقافي، الذي ظهر في حياتي من خلال الازدواجية الثقافية التي خبرتها من حولي واستشعرتها في كياني. وعانيت لسنوات في محاولات متكررة لإيجاد التوازن بين نبضات الروح ومتطلبات المجتمع، والتراث والمعاصرة،

والإسلام والغرب. هذه الثنائيات، ومحاولات تحقيق حالة من التصالح بينها، طبعت كتاباتي الفكرية، ولكنها بدت في حياتي العملية على شكل تناقضات تحتاج إلى توليف وتوفيق. وبالتالي فإن الكتاب الحالي يستهدف لقارئ المهتم بفهم ثنائيات الوجود والواقع، في تجلياتها الفكرية على مستوى الوعي والشعور، وتجلياتها الاجتماعية في محيطي القريب والبعيد. ثنائيات التراث والمعاصرة، والإسلام والغرب، ليست ثنائيات تاريخية تنتمي إلى عهدٍ ماضٍ وحسب، بل واقع يعيشه الشرق ويتحكم بسياقه الاجتماعي والسياسي منذ قرنين، وواقع انتقل خلال العقود الماضية إلى المجتمع الغربي، وبدأ في التفاعل مع الحياة الاجتماعية والسياسية هناك، وسيبقى تأثيرها ممتداً لعقود قادمة.

رؤيتي للإسلام التي عكستها كتاباتي على مدى ثلاثة عقود لا تقتصر على الجانب الديني التعبدي، بل تمتد إلى ربط رسالة الإسلام بالقيم الإنسانية التي أكَّدتها نصوصه التأسيسية، والتي سمحت ببروز مجتمع حضاري تعددي، يحترم الإنسان بوصفه إنساناً، ويزود المجتمعات التي التزمت به بقواعد للسلوك والتعامل؛ سمحت لها بالارتقاء بسلوكها وعلاقاتها إلى مستوى الانضباط الأخلاقي والفاعلية الحضارية؛ التي تجلت بمظاهر الإبداع والابتكار والتنظيم. هذه المظاهر الحضارية عكست قيماً أكدت عليها رسالة الإسلام، وفي مقدمتها قيم: العلم، والإحسان، والعدل، والرحمة، والأمانة، والكرامة. هذه الرؤية الفكرية ارتبطت بخبرة عملية حياتية سعيت إلى نقلها بأمانة وصراحة ومكاشفة ودون إسفاف.

اجتهدت في مشاركة قارئ هذا الكتاب بتفاصيل دقيقة من حياتي، واتخذت منحىً متوسطاً بين الإسفاف في الوصف والاختصار المخلّ بالسياق والمعنى. وسعيت قدر الإمكان إلى رسم صورة متكاملة، كاشفاً جوانب رخوة وطرية في حياتي، يتردَّد كثير منا في طرحها أمام الملأ في الحوار اليومي. ولكنني رغم تردُّدي شعرت بأهمية تقديم صورة صادقة عن المؤثرات

العمليــة التــي واجهتنــي، والتجــارب الحياتيــة التــي مــررت بهــا، والانفعــالات النفســية المرافقــة لهــا. فعلــت ذلــك لقناعتــي بالأثــر العميــق للحظــات المعانــاة والضعــف والفشــل في تشــكيل وعيــي، ومســاعدتي عــلى تحقيــق تــوازن نفــسي وفكــري انعكــس في كتابــاتي ونشــاطاتي، ولإيــماني أن لا قيمــة تعليميــة وتثقيفيــة لحيــاة عرضــت بنقــاء مفتعــل يذهــب جوانــب الضعــف والفشــل والمعانــاة، وبالتــالي يســلبها حقيقتهــا الإنســانية. فالظــرف الإنســاني مجــال تتلاقــى فيــه عطالــة الجســد وتســامي الــروح، وثبــات القيــم واضطــراب العاطفــة والتجربــة. حرصــت كذلــك عــلى مشــاركة القــارئ بجوانــب تتعلــق بــإشراق الــروح، وكفاح مســتمر للبحــث عنهــا وتلمــس حقيقتهــا وتأكيــد معانيهــا. ســعيت لنقــل بعــض الإشراقــات الروحيــة، بالقــدر الممكــن، رغــم إدراكــي صعوبــة عــرض الجانــب الروحــي بلغــة سرديــة بســبب خصوصيتــه وطبيعتــه الذاتيــة. وبالتــالي فــإن قــدرة القــارئ عــلى استشــفاف المعــاني الروحيــة المعروضــة في الكتــاب تتوقــف إلى درجــة كبــيرة عــلى إمكانيــة ربــط الكلــمات والمعــاني بتجربتــه الروحيــة الشــخصية.

ثمــة جانــب آخــر أرجــو أن يتجــلى في اســتعراض الأحــداث والانفعــالات النفسـية معهـا؛ لأنـه جانـب شـغل الفكـر الإنسـاني عـبر التاريخـي؛ ولأنـه جانـب يؤثــر في الحيــاة الشــخصية لــكل مــن كُتــب لــه (أو عليــه) الســير في دروب الحيــاة. هــذا البُعــد يتعلــق بالعلاقــة بــين الخيــارات والأقــدار. حيــاة كل منــا تتلخــص بسلســلة مــن الخيــارات الشــخصية التــي نتخذهــا كل يــوم، والتــي تتعاقــب لتشــكل مســار نمونــا الروحــي والنفــسي والاجتماعــي، وتحــدِّد عــبر مســارنا هــذا هويتنــا المتجــدِّدة والمتبدِّلــة. هــذه الخيــارات ترتبــط عــادة بأحــداث وســياقات اجتماعيــة ليســت مــن اختيارنــا، بــل فرضــت علينــا نتيجــة انتمائنــا إلى أسرة محــددة وزمــن محــدد، وظــرف اجتماعــي وســياسي محــدد.

ترتبـط خياراتنـا التـي تصنـع حياتنـا بأحـداث محـددة؛ هـي في حقيقتهـا محصلة لخيــارات وأفعــال اتخذهــا وقــام بهــا مــن ســبقنا في الوجــود الزمنــي وفي الفعــل التاريخـي. أفعـال السـابقين التـي شـكلت البنـى الاجتماعيـة والقوانـين والأعـراف

تتحـول إلى إطـار عـام يحـدد خياراتنـا، ويفـرض علينـا مواقـف تـتراوح بـين الرضـوخ والقبـول بالقواعـد والأعـراف الموروثـة، أو التمـرد عليهـا أو عـلى جوانـب منهـا، والسـعي لصنـع أعـراف وقواعـد جديـدة مـن خـلال الخيـارات الصعبـة التـي تشـكل حياتنـا. تحـول خياراتنـا إلى واقـع جديـد مؤثـر يتـم مـن خـلال تلاقيهـا مـع خيـارات معاصرينـا في حـركات فكريـة ودينيـة واجتماعيـة، تسـاهم في تغيـير المـوروث وصنـع مسـتقبل جديـد. بهـذا المعنـى فـإن قـدرة الإنسـان عـلى الاختيـار، واختـلاف الخيـارات التـي يتخذهـا الأفـراد في مواجهـة أقدارهـم، هـي سرُّ الوجـود الإنسـاني وتطـور الحيـاة الإنسـانية عـبر التاريـخ. هـذا مـا يجعـل العلاقـة بـين الخيـارات والأقـدار تتصـف بالتبـادل والتكامـل، ويحيـل خيـارات المـاضي إلى أقـدار تسـتدعي خيـارات الحـاضر، لتعـود الخيـارات الأخـيرة لتتحـول إلى أقـدار تولـد خيـارات المسـتقبل!

امتـلاك الإنسـان لإرادة حـرّة هـو مـا يولـد الاختلافـات الكبـيرة في خيـارات النـاس، والاختلافـات الواضحة في نمـوِّ المجتمعـات، والاختلافات العجيبـة في قـدرة الأفـراد عـلى التأثـير في وجهـة المجتمعـات. بيـد أن خياراتنـا الفرديـة لا تعـود إلى رغبـات تطفـو عـلى سـطح الأحـداث بصـورة عشـوائية؛ بـل تخضـع لمنظومـة مـن القيـم التـي توجـه الفعـل وتحـدد طبيعـة الخيـار. منظومـة القيـم تعطـي الإنسـان أولويـات الحيـاة التـي اختارهـا بمحـض إرادتـه. المـال قيمـة، والأمانـة قيمـة؛ وهمـا قيمتـان تلوحـان أمـام أي منـا في كل لحظـة مـن لحظـات الاختيـار. فـإذا ارتفعـت قيمـة المـال عاليـاً في منظومـة القيـم وتجـاوزت قيمـة الأمانـة، فالخيـار الحاكـم للأفعـال يعطـي الأولويـة لتحصيـل المـال دون الاكـتراث بتضييـع الأمانـة أو خيانتهـا. في حـين يصبـح الخيـار عنـد ارتفـاع قيمـة أداء الأمانـة وإعطائهـا أولويـة هـو رفـض الثـراء السريـع؛ إذا قـام عـلى الاختـلاس والحصـول عـلى منافـع ذاتيـة بتضييـع حقـوق الآخريـن. وبالمثـل، ارتفـاع قيمـة الشـجاعة والـشرف والوفـاء فـوق قيمـة السـلامة واللـذة عنـد الجنـدي، تفسر استبسـاله في الدفـاع عـن الوطـن، كـما تفـسر تخاذلـه في مواجهـة العـدو، وهروبـه مـن أمامـه عندمـا

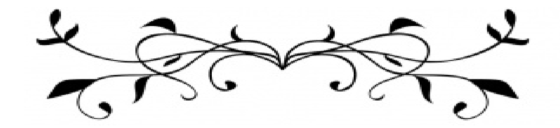
ترتفـع قيمـة السـلامة والمنفعـة الشـخصية فـوق قيـم الصمـود والتضحيـة والتفـاني.

يناقـش كتـاب (خيـارات) مواقـف وأحـداث ونشـاطات ارتبطـت بفـترات التنميـة والتطـور والـصراع التـي حكمـت حيـاة المجتمعـات العربيـة والإسـلامية، خـلال نصـف القـرن المـاضي، ويقدمهـا مـن خـلال رؤيـة داخليـة، سـاهم صاحبهـا مسـاهمات متواضعـة عـلى مسـتوى الفكـر والفعـل في نشـاطات صنعـت تلـك الأحـداث والتطـورات. سـعيت مـن خـلال فصـول الكتـاب إلى تقديـم قـراءة تحليليـة وتوصيفيـة ونقديـة لمشـاركتي في مشـاريع تركـت آثارهـا عـلى سـاحة العمـل الفكـري والأكاديمـي والحركـة الاجتماعيـة والفعـل السـياسي، وتوفـير مشـاهد داخليـة لتلـك المشـاريع والأعـمال، تصـف صعوباتهـا وتظهـر أثـر التجاذبـات والتوتـرات والتناقضـات في دفعهـا إلى الأمـام، أو إبطـاء مسـيرتها، أو دفعهـا نحـو الهاويـة وتغيبهـا كليّـاً عـن الوجـود.

الأحـداث التـي تـم اسـتعراضها، واللقـاءات التـي جـرت، والتجاذبـات التـي ولّـدت مواقـف مختلفـة، تمثِّـل عينـة مـن النشـاطات التـي أخـذت مـن وقتي وتفكـيري وجهـدي، اخترتهـا مـن قاعـدة أوسـع مـن الأحـداث والنشـاطات لأهميتهـا في عـرض التحديـات والفـرص، وإظهـار السـياق الاجتماعـي والتاريخي، ولأنهـا قدمـت، بخصوصياتهـا وتفاصيلهـا، مـادة للتأمـل والتحليـل لنقـد الثقافـة السـائدة، والقـوى السياسـية الفاعلـة، والأحـداث المهمـة التـي تفاعلـت معهـا وشـكلت مسـيرتي الذاتيـة. بالمثـل فإن أسـماء الأشـخاص الذيـن التقيتهـم وعملت معهـم، وتَأثـرتُ وأثَّـرتُ بهـم، أسـماء مختـارة؛ إمـا لأهميتهـا في حيـاتي، أو لأهميـة الحـدث الـذي ظهـرت فيـه، والحاجـة إلى ذكرهـا لتوثيـق ذلـك الحـدث، ووضعـه في سـياقه الاجتماعـي والتاريخـي. حاولـت قـدر الإمـكان ضبـط التواريـخ، لكننـي لم أتقيـد دائـماً بالتسلسـل التاريخـي للأحـداث، فقـد وجـدت ضرورة في حـالات قليلـة إلى اسـتعراض اللحظـات التاريخيـة وفـق تقاربهـا في المعنـى، وارتباطهـا بأحـداث مشـابهة، لا تسلسـلها الزمنـي.

أخيراً، حاولت قدر الإمكان إغفال الأسماء التي ارتبطت بأوصاف ومشاهد سلبية، وأبقيت على أسماء ارتبطت في دائرة وعيي بحضورها الإيجابي، وأسماء قليلة جداً بحضورها السلبي في خبرتي ووعيي، لكنني سعيت قدر الإمكان إلى رسم صورة متوازنة عن حضورها العام، بحيث تظهر الجوانب الإيجابية من ذاك الحضور، جنباً إلى جنب مع الجوانب السلبية. وسواء وُفِّقت في نقل صورة متوازنة أو عجزت عن ذلك بسبب تحيزاتي الذاتية، فإن الحكم على الأشخاص الذين عبروا حياتي حكم جزئي، يعكس المساحة من أفعالهم وأخلاقهم التي تقاطعت مع مساحة وعيي، وهو بالتأكيد حكم لا يعكس الحقيقة الكلية لشخصيتهم ومساهماتهم في الحياة. تلك الحقيقة خاضعة لحكم آخر، ومراجعة نقدية في زمن آخر ودائرة مختلفة تماماً عن دائرة الرؤية الذاتية المحدودة التي هي مدار حكم البشر. رجائي أن يركز القارئ على المواقف والخيارات، والدروس والعبر، ويدرك أن النقص والخطأ أصيل في البشر، وأن الإنجاز الحقيقي في الحياة يكمن في الضوء الناجم عن الفعل والتفاعل، لا الاحتراق الناجم عن الاحتكاكات الضرورية لتوليد النور وإضاءة الدرب وتحقيق الأمل.

وعلى الله قصد السبيل.. ومنها جائر.. ولو شاء لهداكم أجمعين!



1

طفولة قلقة وأحلام سامقة

(1955 - 1969)

العـودة إلى اللحظـات الأولى مـن الوعـي عـودة إلى زمـن مفقـود؛ لأنهـا استرجاع لذكريـات خـارج التسلسـل الزمنـي الـذي يـزداد وضوحـاً مـع تنامـي الوعـي وترابـط الذكريـات. اللعـب بدميـة صغـيرة عـلى رصيـف في مـكان غـير محـدد وغـير واضـح المعـالم.. الوقـوف عـلى شرفـة في بنـاء مجهـول.. الاسـتيقاظ ليـلاً والتسـلل إلى منـزل الجـيران بحثـاً عـن والدَيـن خرجـا مـن البيـت واثقـين مـن اسـتغراق طفلهـما في نـوم عميـق. ولحظـات خاطفـة طُبعـت في الذهـن، وخواطـر تتلاحـق مثـل الومضـات، ومشـاهد تتابـع عـلى شاشـة عـرض سـحرية. الطريـف في اسـتعادة لحظـات المـاضي أن المشـاهد تـتردد بـين عدسـة ذاتية وعدسـة خارجيـة، تمامـاً كـما يحـدث عندمـا ينظـر أحدنـا إلى تمثيليـة مصـورة أخرجهـا فنـان مبـدع. العـودة إلى المـاضي تشـكل لحظـات تنفصـل خلالهـا الـروح عـن الجسـد لـترى المشـاهد مـن خارجهـا، تمامـاً كـما تبـدو لمصـور أتقـن فـنَّ التصويـر. مـا يعطـي المشـاهد المتتاليـة في الذهـن بُعـداً شـخصيّاً هـو قدرتهـا عـلى اسـترجاع المشـاعر النفسـية والانفعـالات الوجدانيـة التـي تأججـت في النفـس في لحظـات المـاضي الغابـر.

لحظـات وعيـي الأولى تعـود غالبـاً إلى السـنة الثالثـة مـن عمـري، فمشـهد الشرطـي الدميـة يركـب دراجـة ناريـة، ويصـدر صوتـاً شـبيهاً بصفـارة الإنـذار كلـما حركتـه بيـدي الصغيرتـين عـلى طـرف الرصيـف، تعـود إلى رحلـة بصحبـة

أسرتي الصغيرة، أخبرتني أمي لاحقاً أنها رحلة إلى مدينة طرابلس عندما بلغت الثالثة من العمر؛ وهي بالتأكيد أقدم الصور التي بقيت عالقة في ذهني. الأُم هي السجل الأول لحياتنا، فهي لا تحتضن وجودنا الخارجي وحسب، بل تحتضن أيضاً في ذاكرتها اللحظات الأولى من وعينا الغائب، تعيدها إلينا بشغف المحب الذي بذل روحه لتنموَ أرواحنا وتتشكل من دفقات حنانها الفياض. فقدان الأم هو أيضاً فقدان للحظات تشكل وعينا الأول. والدتي - رحمها الله - التي أهدتني ذكريات طفولتي، ومشاهد انطبعت في خيالي من لحظات آفلة، تنحدر من أسرة دمشقية عريقة هي أسرة العيطة، ومن حي الشاغور الذي واجه أبناؤه الجيش الفرنسي بشجاعة، خلال معركة الشاغور التي قادها الشهيد حسن الخراط. محيط أمي الأول كان في اعتقادي سبباً في تكوين شخصيتها التي اتصفت بالطموح والجرأة والحزم.

ولدتُ في مدينة دمشق، وفي المشفى العسكري في حي الروضة؛ إذ كان والدي آنذاك ضابطاً في الجيش السوري برتبة نقيب. ولم تلبث والدتي أن حملتني معها عائدة إلى مدينة القنيطرة؛ حيث كانت تقيم في منزل صغير، قريباً من مكان عمل والدي على الجبهة السورية التي تفصل سورية عن الأرض المحتلة. كان والدي مهندساً عسكرياً تخرج من الكلية العسكرية وأمضى فترة تدريب فني في فرنسا استمرت سنتين. ثم كرس سنين من حياته في بناء التحصينات العسكرية على الجبهة السورية - الإسرائيلية، وهي التحصينات التي تخطاها العدو في حرب الأيام الستة عام (1967)، دون مقاومة تذكر بعد صدور أوامر الانسحاب من قيادة الجيش. ذاكرتي الأولى عن والدي أنه كان رجلاً قليل الكلام، حازماً، شديد الإصرار على احترام الآداب والأصول. لا أذكر أني سمعته يتلفظ بكلمة نابية واحدة، رغم أن بعض أصدقائه الضباط كانوا لا يتورعون عن استخدام كلمات (سوقية). بل أذكر أنه نهرني يوما بشدة لأني بدأت جملتي بكلمة «لُك» (بضم اللام وتسكين الكاف)، وهي مفردة عامية مستخدمة كثيراً آنذاك في الشام بمعنى «أُف»؛ ويُبدأ بها الكلام عادة تعبيراً عن الضيق والتأفف. وكان ذلك آخر عهدي باستخدام تلك الكلمة. وكان - رحمه الله - رجلاً مبدئياً، لا يعرف

الكذب ويكره التزلف والنفاق. تراجع عن تقديم هدية إلى صديق يتقدمه برتبة عسكرية، هو اللواء عبد الكريم زهر الدين، أحضرها له خلال مهمة إلى أوربا الشرقية بعدما علم بأمر تعيينه وزيراً للدفاع عام (1962). يبدو أنه خشي أن يُساء فهم الهدية، فتلتبس بمعنى الرشوة بعد أن أصبح الصديق في مركز قيادي متميز.

الدخول من الباب الشرقي

ذكريات الطفولة الأكثر وضوحاً تبدأ مع دخولي المدرسة الابتدائية. كانت مدرستي الأُولى في أحد أحياء دمشق البعيدة عن منزلنا في حي الروضة. فمدرسة (البطريركية) التي أمضيت فيها السنوات الدراسية الثلاث الأولى كانت تقع في الجهة الشرقية من دمشق، في الطرف الأقصى من المدينة بالقرب من الباب الشرقي؛ أحد أحياء المدينة القديمة. وكنت أتنقل بين البيت والمدرسة بواسطة حافلة مدرسية تابعة للمؤسسة العسكرية مخصصة لأبناء الضباط. كانت المسافة طويلة ولكن الزمن الذي كنا نقضيه في الحافلة لم يكن كذلك، فعدد الطلاب الذين تقلُّهم الحافلة قليل، ويقيم معظمهم في القسم الغربي الحديث من المدينة. أمضيت في تلك المدرسة ثلاث سنوات، وبقي في ذاكرتي من تلك الحقبة لمحات قليلة ومتقطعة. أذكر مثلاً موجه الابتدائي المهيب، وكنا نناديه الأستاذ حبيب. كان رجلاً متيناً، في أواخر الثلاثينيات، أو ربما بداية الأربعينيات، من عمره. وكان مصدر خوف لجميع الطلاب، بسبب العصا المبسوطة الغليظة التي كان يحملها أينما حلَّ وارتحل، ويستخدمها لتأديب الطلاب حال استدعائه من قِبَل المدرسين. عقوبة الإخلال بالانضباط وتجاهل التعليمات كانت موحدة.. عشر ضربات يتلقاها الطالب على كفه، ويعدُّها بصوت مسموع بينما يكيلها الأستاذ حبيب ضربة تلو الأخرى. وفي كثير من الأحيان يتخلل العدَّ صراخ الطالب وبكاؤه من ألم الضربات الموجعة، فالأستاذ حبيب كان على ما يبدو من المؤمنين بالقول المأثور عن عمر بن الخطاب، أو ربما بالشطر الأخير منه: «إذا أطعمت فأشبع، وإذا تكلمت فأسمع، وإذا ضربت فأوجع». ولم تكن

العقوبـة المصحوبـة بالعـدِّ تخلـو في معظـم الأحيـان مـن بعـض الطرافـة. فمشـهد الطالـب وهـو يتلقـى الضربـات ثـم يجتهـد في عدِّهـا وهـو يـصرخ ويتلـوى كان غريبـاً وطريفـاً وحزينـاً معـاً في آن.

كانـت الاسـتراحة، أو الفرصـة بـين الفصـول، مـن أسـعد لحظـات المدرسـة. فقـد كنـا نتنـاوب عـلى بائعـي حلـوى كانـوا يقفـون خلـف بـاب حديـدي مغلـق أثنـاء الاسـتراحات للتكسـب. وكنـا نعطيهـم القـروش مـن فتحـة صغـيرة في البـاب، ويعطوننـا الحلـوى التـي اخترناهـا بالمقابـل. كان ألذّهـا وأحبهـا إلى نفسي بسـكوتة عـلى شـكل قمـع صغـير مملـوء بحلـوة الناطـف، وهـو سـكر أبيـض مائـع يشـبه في قوامـه البوظـة. وكذلـك أقـراص العجـوة الطريـة.

مـن الذكريـات التـي لا زلـت أحملهـا مـن تلـك الفـترة شـعوري بلحظـات مـن الانفصـال عـن الكثـير مـن أقـراني في المدرسـة أثنـاء درس الديـن الأسـبوعي. فقـد كان معظـم الطلبـة مـن أتبـاع الديانـة المسـيحية، نظـراً لوقـوع المدرسـة في حـي مسـيحي. وكانـت المدرسـة تابعـة لكنيسـة الـروم الأرثوذكـس. كان الطلبـة المسـلمون معفـون مـن حضـور درس الديانـة الـذي يعلـم الطلبـة التعاليـم المسيحية. وكان الفصـل بالنسـبة لنـا فرصـة للعـب في باحـة المدرسـة. أذكـر أننـي تعلمـت أثنـاء مكوثـي في المدرسـة الصـلاة الربيّـة؛ وهـي صـلاة تتـلى خاصـة في الكنائـس الأرثوذوكسـية، وتعتـبر عنـد المسـيحيين بمثابـة سـورة الفاتحـة، وتحاكيهـا في بعـض معانيهـا. الصـلاة تتكـون مـن عـشر جمـل قصـيرة تنتهـي بكلمـة (آمـين): «أبانـا الـذي في السـموات، ليتقـدَّس اسـمك، ليـأتي ملكوتـك، لتكـن مشـيئتك، كـما في السـماء كذلـك عـلى الأرض، أعطنـا خبزنـا كفـاف يومنـا، واغفـر لنـا ذنوبنـا وخطايانـا، كـما نحـن نغفـر أيضـاً لمـن اخطـأ وأسـاء إلينـا، ولا تدخلنـا في التجربـة، ولكـن نجنـا مـن الشريـر؛ لأن لـك الـمُلك والقـدرة والمجد إلى أبـد الدهـر، آمـين».

لا أذكـر كيـف تعلمـت هـذه الصـلاة، ولعـلي سـمعتها مـن بعـض الطلبـة المسـيحيين مـن حـولي. أو لعلهـا تكـررت أمامـي في مناسـبات لا أسـتحضر

تفاصيلها. ولكنني أذكر أني زرت عدة مرات الكنيسة المجاورة للمدرسة، وتسمى «كنيسة النياح»، وسمعتها تُقرأ هناك قراءة جهرية. وأذكر أنها كانت تقرأ في الكنيسة في حالة «الركوع» المعروفة لدى المسيحيين، حيث يرتكز المرء على ركبتيه بدلاً من قدميه، ويحني رأسه أمام صليب كبير ويرفع كفيه المتلامستين إلى مستوى الذقن، ثم يغمض عينيه ويتلو جمل الصلاة. الصلاة تكرر معاني قريبة من تلك التي يؤمن بها المسلمون، من تقديس وتمجيد وخضوع ومغفرة، باستثناء لفظ واحد هو لفظ «أبانا». أذكر أن هذا اللفظ أثار انتباهي، على الرغم من حداثة سني. فقد كنت أعلم بطريقة ما أن علاقة المسلم بالله علاقة مخلوق بخالقه، لا علاقة ابن بأبيه. لكن معاني هذه الدعاء المسيحي يحاكي معاني الأدعية الإسلامية؛ التي تؤكد أن جوهر الدين هو التسليم بمحدودية الوجود الإنساني، وحاجة الإنسان للتواصل مع مصدره الروحي والتسليم له، والتأكيد على إنسانية الإنسان وانفتاحه على احتمالات التخاذل والخطأ، وطلب العفو والرحمة والمغفرة.

من الذكريات التي لا زلت أستحضرها من ذلك الزمن البعيد، وتبدو لي اليوم كأنها تنتمي إلى حقبة أخرى، حادثة حزينة، لا زالت محفورة في مخيلتي بعمق؛ كان الباص العسكري المخصص لنقلنا ينتظرنا على مسافة تقدر بـ (10) دقائق سيراً على الأقدام، قرب باب آخر من أبواب دمشق القديمة هو باب توما، وكنت أنتقل سيراً بين الباب الشرقي وباب توما لركوب الحافلة. وأذكر أن رفيقاً مسيحيّاً لي في المدرسة، اسمه رياض زيتون، دعاني للسير معه بين الحارات الفرعية، مؤكداً لي أن ثمة طريقاً مختصراً للوصول إلى الحافلة يمرُّ عبر أزقة البلدة الضيقة، وسرت معه دقائق قبل أن يتحول المشوار القصير إلى كابوس، وليصبح خبرتي الأولى في مواجهة غير المألوف؛ فقد قرر رياض الذي كان يسكن في تلك الأزقة التي عبرناها الاستعانة برفيق آخر له والدخول معي بمصارعة امتدت وقتاً طويلاً، تعاقب خلالها رياض وابن حيّه على مصارعتي. وبعد انجلاء المعركة التي لم أُصب خلالها بأذى يذكر، امتلأت غضباً وغيظاً من هذا الصراع المفاجئ

الـذي لم يكـن بالحسـبان. الكابـوس الحقيقـي لم يبـدأ مـع المصارعـة، ولكـن عنـد اكتشـافي أن الحافلـة العسـكرية التـي كانـت تنتظـر الطـلاب لنقلهـم إلى منازلهـم قـد غـادرت المـكان.

انتظـرت قليـلاً في مـكان وقـوف الحافلـة أمـلاً في عودتهـا لنقـلي إلى البيـت، ولكننـي أدركـت بعـد دقائـق أن انتظـاري غـير مجـدٍ، وأن عـلي تلمـس طريقـي إلى البيـت بنفسـي. لم يكـن لـديَّ نقـود للبحـث عـن وسـائل نقـل، ولم أكـن قـادراً عـلى معرفـة خـط النقـل المناسـب للوصـول إلى البيـت حتـى لـو توفـرت النقـود. كانـت تلـك المـرة الأولى التـي أواجـه مسـؤولية البحـث عـن حـلٍّ لمشـكلةٍ بـدت آنـذاك عويصـة وهائلـة لطفـل لم يتجـاوز الثامنـة مـن العمـر، وجـد نفسـه بـلا موجِّـه أو دليـل عـلى رصيـف في طـرف المدينـة، وهـو يعلـم أن عليـه أن ينتقـل إلى الطـرف الآخـر للوصـول إلى بيتـه. وهـذا هـو بالتحديـد مـا فعلـت؛ قـررت أن أذهـب مشـياً عـلى الأقـدام إلى البيـت. لا أدري كيـف تذكـرت معـالم الأحيـاء التـي كنـت أعبرهـا، وكيـف اخـترت الطريـق الـذي قـادني بعـد سـاعات طويلـة ومرهقـة إلى منـزلي. التفسـير الوحيـد الـذي أملكـه اليـوم يتعلـق بخصلتـين لازمتـاني عـبر سـنوات حيـاتي، ومـع تعـدد أسـفاري ومقامـي في مـدن كثـيرة؛ الأولى: البوصلـة العضويـة التـي أملكهـا؛ والتـي تمكننـي – غالبـاً وليـس في جميـع الأحـوال – مـن استشـعار موقعـي في المـكان الـذي أقـف فيـه بالنسـبة إلى الجهـات الأربـع، وملاحظتـي للنقـاط الرئيسـية في المـدن التـي أتجـول فيهـا. أمـا الخصلـة الثانيـة: فهـي ميـلي إلى الصمـت والتأمـل، ولعـلي كنـت في مـرات كثـيرة أجلـس قـرب النافـذة وأتابـع معـالم الطريـق الـذي يقـود مـن البيـت إلى المدرسـة.

بعـد سـاعات مـن السـير عـبر شـوارع المدينـة وصلـت إلى البيـت بعـد أن خيـم الظـلام؛ لأتلقـى عقابـاً مـن والـدي الـذي لم يسـألني مـاذا جـرى قبـل أن يوبخنـي بغضـب، ويصفعنـي تأديبـاً لي لتأخُّـري في العـودة إلى البيـت. تركـت هـذه التجربـة أثـراً عميقـاً لـدي حـول مـرارة ظلـم الرفـاق والأقـران، كـما تركـت لـدي قناعـة بأهميـة التواصـل والتفاهـم وطـرح الأسـئلة وتبـين حقيقـة الأمـر قبل الـشروع بفعـل بنـاء عـلى ظنـون وسـوء فهـم أو تقديـر. والـدي أصرَّ عـلى تحميـلي

المسـؤولية كاملـة دون النظـر إلى التفاصيـل التـي أدت إلى تأخـري بالعـودة. عندمـا أحـاول فهـم سـلوكه، بعـد سـنوات طويلـة، أرى أنـه أراد أن يعلمنـي تحمُّـل المسـؤولية كاملـة عـما جـرى، بغـضِّ النظـر عـن التفاصيـل والملابسـات. فهمـي لموقفـه لا يعنـي موافقتـي عليـه؛ لأني أعتقـد أن واجـب الوالـد فهـم الحيثيـات، واتخـاذ الموقـف المناسـب لتوجيـه الطفـل والوقـوف إلى جانبـه في حـال تعرضـه إلى عـدوان مـن رفـاق المدرسـة. لا أسـتطيع أن أخطـئ والـدي عـلى فعلـه، كـما لا أسـتطيع نفـي أني مسـؤول بشـكل أو بآخـر عـما حـدث، وأن التأمـل في التجربـة كاملـة يمكـن أن يـؤدي إلى تأكيـد أهميـة تشـكيل وعـي الطفـل بحيـث يتحمـل هـو مسـؤولية فعلـه. فاختيـاري الذهـاب في طريـق آخـر مسـؤوليتي دون شـك، ولكننـي شـخصيّاً أعتقـد أن مثـل هـذه النتيجـة صحيحـة إذا حصلـت بعيـداً عـن معرفـة المـربي، وأن الموقـف الأفضـل هنـا معرفـة التفاصيـل، ثـم الذهـاب إلى المدرسـة والمطالبـة بمعاقبـة الطالـب المعتـدي الـذي تسـبب في ذلـك التأخـير.

لزوم المعرفة وخيار اللهو والترفيه

كان والـدي صارمـاً ولكنـه لم يكـن قاسـياً. كان يـصرُّ عـلى إلزامـي بجملـة مـن القواعـد والأعـراف التـي يراهـا صحيحـة وضروريـة، ولكنـه كان دائـماً محبّـاً دون أن يظهـر حبَّـه بالكلـمات، حريصـاً دون أن يظهـر حرصـه بعبـارات واضحـة. كان بالتأكيـد حريصـاً عـلى حصـولي عـلى التعليـم المناسـب الـذي يقـودني إلى فـرص أفضـل في الحيـاة. أمـا أنـا فكنـت أكـره النظـام المـدرسي، ولا أُعطـي كثـير اهتـمام للمحـاضرات التـي يلقيهـا الأسـاتذة. وبقـي هـذا ديـدني حتـى مراحـل دراسـية متقدمـة. أذكـر أن أحـد المهندسـين العاملـين في مكتـب هنـدسي عمـل فيـه والـدي بعـد خروجـه مـن الجيـش، اختـبرني في جـدول الـضرب وبعـض المهـارات الرياضيـة، وعندمـا لم أتمكـن مـن الإجابـة عـن أسـئلته، وكنـت في نهايـة المرحلـة الابتدائيـة، بـدت عليـه علامـات التعجـب والاسـتياء، وذهـب لوالـدي يخـبره بحصيلتـي العلميـة الضئيلـة بعـد سـنوات مـن الدراسـة. ويبـدو أن هـذا الحديـث نبَّـه والـدي إلى ضرورة متابعتـي والاهتـمام بدراسـتي، وقـرر أن يسـتقطع وقتـاً لمسـاعدتي في دروسي والإشراف عـلى وظائفـي وواجبـاتي المدرسـية. لم يكتـفِ

بذلك بل اقتادني إلى دار ابن خلدون لبيع الكتب، وطلب مني البحث عن كتاب لقراءته، وبعد دقائق من التجوال بين الكتب أخبرته بأني لم أجد كتاباً يثير اهتمامي، فما كان منه إلا أن اختار بنفسه كتاباً من جزأين لطه حسين عنوانه (**على هامش السيرة**). وبقي الكتاب على الرَّف سنوات قبل أن أقرأه عندما بلغت المرحلة الجامعية.

كنت أميل إلى مشاهدة الأفلام والمسرحيات عبر شاشة التلفزيون، أو من خلال دور السينما. كنت في السادسة من العمر عندما أحضر (عتّال) إلى منزلنا صندوقاً كبيراً في داخله جهاز تلفزيون. كان التلفزيون غير معروف في دمشق، فكان المذياع هو الوسيلة الوحيدة للتسلية وسماع الأخبار حتى قيام الوحدة بين مصر وسورية. تأسست هيئة الإذاعة والتلفزيون في دمشق عام (1960). والتلفزيون الذي وصل إلى منزلنا كان من أوائل الدفعات التي تم استيرادها لضباط الجيش. وكانت الشائعات التي يتناقلها الناس تحذر من مخاطره، وضرورة التعامل معه بحذر شديد، نظراً لاحتمال انفجاره حال حدوث خطأ! وكانت ساعات البثّ قليلة ومحدودة، لا تزيد على الساعات الخمس يومياً، وتمتد يوم الجمعة قليلاً لتصبح ثماني ساعات. وكان لدي وقت محدد لمشاهدة التلفزيون لا يزيد على الساعة، ويقتصر على برامج الأطفال، ومسلسلات دريد لحام ونهاد قلعي الفكاهية. كان مسلسل (غوار الطوشة) الأسبوعي من أهم إنتاجات التلفزيون السوري؛ بسبب أداء بطلَيْه دريد ونهاد المتميزين، وحوار بديع لكاتبه محمد الماغوط. كان الحوار النقدي يظهر العيوب الاجتماعية، ويقدمها للمشاهد بقالب فكاهي خفيف على القلب. وبالمثل كانت مسرحيات دريد الساخرة، الجذابة بحوارها ومواقفها محطّ اهتمامي. أذكر أني شاهدت مسرحية (ضيعة تشرين) التي عكست بصدق ونقد لاذعَيْن حال السوريين في مطلع السبعينيات، وكنت معجباً بالتمثيل والإخراج والحوار الذي أظهر نضجاً فنيّاً مقارنة بما سبقها من أعمال. وتفاجأت كما تفاجئ الكثيرون بالنقد اللاذع للسلطة ورموزها، الذي سُمح بعرضه ضمن دولة أمنية لم تكن تترك أي مجال للنقد السياسي. ولعل عرض الحاضر في ثوب الماضي أعطى مسافة كافية سمحت بتمرير

مشاهد المسرحية. فكان أنصار السلطة ينظرون إليها بوصفها نقداً للماضي الإقطاعي الذي أرهق حياة أهل القرى، بينما كان أهل المدن الذين كانوا يعانون تسلط أبناء القرى يقرؤون المشاهد على أنها نقد بلبوس رمزي للواقع الذي كانوا يعيشونه. وكان الطرفان محقَّين في تفسيرهما!

كنت أذهب إلى السينما لمشاهدة الأفلام مع أصدقائي، باستثناء مرتين رافقت فيهما والدي لمشاهدة فلمَين. الأول في سينما الكندي المتخصصة آنذاك بتقديم أفلام جادة، والآخر في بيروت، وكان بعنوان (الاختيار). وعلى غير العادة فقد استسلمت إلى النوم خلال الفلمَين، ربما لأن الموضوع كان جاداً وعميقاً بعض الشيء. كنت أميل إلى أفلام البطولة والصراع بين الحق والباطل، خاصة الأفلام التاريخية منها، والتي كان لها وقعاً أكبر علي من الأفلام المعاصرة. كنت بشكل خاص أكره مشاهدة الأفلام التي تعكس الحياة في حقبة الأربعينيات والخمسينيات، وأتجنب حضورها. الفيلم الذي حضرته مع والدي في بيروت حصل أثناء رحلة خاصة أخذني فيها استجابة لرغبتي وإلحاحي، وكانت فرصة لي لقضاء وقت ممتع معه، لا زالت بعض تفاصيله راسخة في ذاكرتي. هذه الرغبة التي لم يكن مضطراً لتلبيتها تعكس حبَّ الأب الذي لم يكن قادراً على نقله إلي قولاً ومشافهة، ولكنه كان ظاهراً واضحاً من خلال المواقف والأفعال. صعوبة مشاركة المشاعر بين الأب والابن ليست حالة خاصة بوالدي، بل أعتقد أنها جزء من الثقافة الشامية في القرن الماضي. لم تكن الثقافة المحلية خلال فترة طفولتي تسمح للآباء بإظهار عواطفهم تجاه أبنائهم بعبارات مباشرة، ولعل أكثر العبارات تعبيراً عن حبِّ الآباء لأبنائهم تتجلى في إظهار رضاهم؛ فعندما يقول الأب لابنه: "الله يرضى عليك"؛ فهو يقول له أيضاً: "أحبك يا ولدي".

دمشق القديمة وحي الشاغور

من الذكريات الجميلة التي لا زالت عالقة بذهني منزل جدي لأمي، في حي الشاغور، في المدينة القديمة. نشأت في حي الروضة الحديث، في شقة ضمن بناء مؤلف من ثلاثة طوابق، على بُعد أمتار من المشفى الذي

ولـدت فيـه. وكنـت أرى الأبنيـة مـن حـولي كيفـما تلفـتُّ وأنـا جالـس في غرفتـي. ولم يكـن يربطنـي بالطبيعـة سـوى قطـاع صغـير مـن جبـل قاسـيون يظهـر بعيـداً بـين الأبنيـة، وأشـجار الزنزلخـت المزروعـة في شـوارع البلدة، وأشـجار الياسـمين الغضـة التـي تتعربـش عـلى جـدران الأبنيـة الدمشـقية. وكنـت أشـعر بالسـعادة عنـد زيـارة بيـت جـدي والمكـوث هنـاك بضعـة أيـام أسـتمتع فيهـا بالمسـاحة المفتوحـة وسـط البيـت والتـي يسـميها الدمشـقيون "أرض الديـار"، والتـي تتوسـطها بحـرة ونافـورة مائيـة صغـيرة. واعتـاد الدمشـقيون أن يزرعـوا في تلـك المسـاحة التـي تتوسـط الـدار وتنفتـح عـلى السـماء شـجرة ليمـون حلـو وشـجرة كبـاد وشـجرة ياسـمين، وأحيانـاً شـجرة نارنـج. ويبـدو أن هـذا التقليـد قديـم؛ إذ لا تـكاد تجـد في بيـوت الشـام القديمـة بيتـاً يخلـو مـن هـذه الشـجرات. والبيـت الدمشـقي القديـم (وأصبـح يعـرف بعـد انتشـار نـماذج البنـاء الأوربيـة بالبيـت العـربي) يتألـف عـادة مـن ثلاثـة طوابـق. الطابـق الأول يتضمـن (الليـوان) الـذي هـو امتـداد مسـقوف لسـاحة الـدار المفتوحـة، ويطـلُّ مبـاشرة عـلى البحـرة. ثـم القاعـة؛ وهـي غرفـة كبـيرة مخصصـة لاسـتقبال الضيـوف. وغرفـة الطعـام والمطبـخ. بينـما يخصـص الطابقـين العلويـين لغـرف النـوم. ويحتـوي الطابـق الثالـث أيضـاً عـلى شرفـة تسـتخدم عـادة لتجفيـف الملابـس تحـت حـرارة الشـمس تسـمى (المشرقيـة).

دمشـق القديمـة مـكان عجيـب سـاحر. التجـوال في المدينـة بأزقتهـا الضيقـة وحاراتهـا الملتويـة تجـوال عـبر الزمـان، يوقـظ في النفـس الإحسـاس بالتاريـخ والـتراث، ويربـط الحـاضر بالمـاضي، ويشـعر مـن يسـير في طرقهـا بعبـق التاريـخ يحيطـه مـن كل مـكان. طـراز عـمارة المدينـة القديمـة يعـود بتاريخـه إلى مئـات السـنين، وفي بعـض الأماكـن الخاصـة إلى آلاف السـنين.

أحببـت دمشـق القديمـة منـذ بدايـة وعيـي؛ عندمـا كنـت طفـلاً صغـيراً يتنقل يوميـاً بـين بابـين مـن أبوابهـا السـبعة التاريخيـة؛ البـاب الشرقـي الـذي دخـل منـه خالـد بـن الوليـد فاتحـاً، وبـاب تومـا المنسـوب إلى أحـد حواريـي المسـيح الاثنـي عـشر؛ الذيـن يسـمون في الإنجيـل بالرسـل. اسـتمر حبـي للمدينـة عـلى مـدى السـنين، فكنـت أزورهـا شـاباً يافعـاً بشـكل دوري، لأتجـول بـين أحيائهـا

القديمة وأعبر أسواقها، فلا يكاد يمضي شهر دون ارتياد المدينة القديمة مرة واحدة أو مرتين. وبقيت على حالي هذا حتى بعد اغترابي بعيداً عن الوطن. فكنت حريصاً على زيارة المدينة القديمة كلما عدت من غربتي لأتجول في حاراتها وأزقتها، وأتنفس عبق التاريخ في أجوائها المحببة. آخر زيارة قمت بها قبل اندلاع الثورة بعامين، حيث نزلت إليها سيراً على الأقدام من بيت والدي في الروضة عبر طريق الصالحية ثم المرجة لأدخلها من مدخل سوق الحميدية المشهور، والذي ينتهي بالجامع الأموي. ثم أعبر ساحة النافورة باتجاه القيمرية وصولاً إلى حي القصاع والباب الشرقي. وقفت أمام المدرسة البطريركية التي أصبحت تسمى "المعونة"، وأمام كنيسة "النياح"، ولكن المنظر بدا باهتاً حزيناً. ماذا جرى، سألت نفسي؟ هل تغير المكان واضمحل؟ أم هي مشاعري التي تغيرت، فتناقضت مشاعر الحاضر والماضي السحري الجميل؟

دمشق القديمة محاطة بسور له سبعة أبواب تعود إلى العصر الروماني، لكنها رُممت مرات عديدة عبر التاريخ. فبالإضافة إلى الباب الشرقي وباب توما، هناك باب الجابية على الطرف الآخر المقابل للباب الشرقي في الجهة الغربية من المدينة القديمة. ويصل بينهما شارع طويل عرف تاريخياً باسم الشارع المستقيم، ويشتهر اليوم باسم شارع مدحت باشا نسبة إلى الوالي العثماني لدمشق، والذي أصبح لاحقاً الصدر الأعظم قبل أن ينفيه السلطان عبد الحميد إلى السجن العثماني في مكة المكرمة، ليفارق الحياة هناك. مدخل شارع الحميدية القريب من باب الجابية، والذي يعتبر اليوم أكثر المداخل المطروقة للمدينة القديمة، لم يكن باباً رسمياً بل أضيف لاحقاً بهدم السور الملاصق له. أما الأبواب الأربعة الأخرى؛ اثنان منها من الجهة الجنوبية؛ هما: الباب الصغير وباب كيسان، واثنان من الجهة الشمالية؛ هما: باب السلام وباب الفراديس (يعرف أيضاً باسم باب العمارة). أحياء دمشق القديمة الكبرى ستة، ثلاثة منها كان يسكنها المسلمون وهي: أحياء الشاغور والعمارة والقيمرية وساروجة، إضافة إلى حي النصارى وهي المنطقة التي يقطنها المسيحيون بين باب شرقي وباب توما، وحي الأمين الذي سكنه

اليهود إلى فترة قريبة قبل هجرتهم خلال حكم حافظ الأسد، وحملة البعث المعادية لليهودية عقب هزيمة حزيران (1967). إضافة إلى هذه الأحياء التي تقع داخل السور هناك أحياء قديمة أخرى خارجه؛ أشهرها حي الصالحية؛ الذي يقع إلى شمال مدينة دمشق بالقرب من حي الروضة الذي ترعرعت فيه. وفيه أيضاً مسجد الشيخ محيي الدين بن عربي حيث ضريحه، وحي الميدان جنوب المدينة، وحي القنوات الذي يقع غرب المدينة مباشرة.

أحاطت بمدينة دمشق خلال سنوات الطفولة والشباب التي عشتها بساتين ممتدة على امتداد النظر؛ هي بساتين (الغوطة) المشهورة بأشجارها المثمرة، خاصة أشجار المشمش والدراق والكرز والزيتون والتفاح السكري ذي المذاق الحلو المميز. الغوطة التي وصفها ابن بطوطة في مذكراته المعروفة بإحدى عجائب الدنيا السبع تكاد تختفي اليوم، ولم يتبق منها إلى النذر اليسير في جنوب وشرق البلدة؛ إذ تراجعت بساتين الغوطة مع توغل أعمال البناء إليها وتحولها إلى غابة من البيوت الإسمنتية. هذا التوسع العشوائي في أجمل سهول المدينة يعكس سوء الإدارة والتخطيط. توسع دمشق نحو الغوطة الخضراء الساحرة بدلاً من التوسع باتجاه المناطق الجرداء في غرب وشمال المدينة خطأ إداري فاحش، حصل خلال سنوات الاستبداد وغياب المساءلة، وانتشار الرشوة وتقديم مصالح ضيقة خاصة على المصلحة العامة.

الجيش ومسلسل الانقلابات

بدايات الفساد وسوء استخدام السلطة الذي تجلى في انتشار الرشوة، وفي ضياع بساتين الغوطة الخلابة تعود إلى بداية السبعينيات، عقب الانقلاب الأبيض الذي تولى خلاله حافظ الأسد مقاليد السلطة، وزجَّ برئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والأمين العام لحزب البعث في السجون؛ حيث قضوا أيامهم المتبقية فيها. الانقلاب الذي قاده الأسد لم يكن الأول في تاريخ سورية الحديث، وبالتأكيد لم يكن الأعنف؛ فقد سبقه سلسلة من الانقلابات العسكرية؛ بدأها حسني الزعيم في عام (1949)، ثم تتالت بمعدل انقلاب كل ثلاث سنوات (أديب الشيشكلي 1951، وسامي

الحناوي 1954، وعبد الكريم النحلاوي 1961، وزياد الحريري 1963، وصلاح جديد 1966، وحافظ الأسد 1970). انقلاب (1963) الذي قادته فعلياً اللجنة العسكرية في حزب البعث، والتي تكونت بصورة أساسية من محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد، وجميعهم من الطائفة العلوية، والتي استخدمت أمين الحافظ لتطهير الجيش من النخبة المؤسسة من الضباط، خاصة أبناء المدن، وأدت إلى خروج والدي من الجيش وهو في قمة عطائه في الأربعين من عمره. والدي ذو الطبيعة المسالمة لم يخرج ضمن الدفعة الأولى الكبيرة التي سرحت عقب الانقلاب؛ فقد استهدفت التسريحات الأولى قادة القطعات المقاتلة، وكان والدي آنذاك رئيس معامل الدفاع، وهو تكليف فني يتناسب مع تخصصه الهندسي. خروج معظم أصدقائه من الجيش، ومنهم عبد الكريم العابد وعبد الغني دهمان وهاشم آغا ونزار غزال، وضع والدي في ظرف حرج ومقلق. سعي هيئة الأركان الجديدة التي هيمن عليها صلاح جديد، وأجرى من خلال صلاحياتها تغييرات كبيرة، لم ترضِ الوالد رحمه الله، فقدَّم استقالته في السنة التالية للانقلاب، وتم قبولها فوراً. وبدأ مع خروجه رحلة التقاعد الطويلة التي رافقته حتى وفاته في صيف عام (1992).

والدي كان رجلاً عصاميّاً، اختار الخدمة العسكرية وخدم خلال العشرين سنة التي أمضاها في الجيش السوري بأمانة وتفان. كان - رحمه الله - رجل مبادئ يحترم القانون والأصول الاجتماعية. خرج من الجيش وهو لا يملك إلا المنزل الذي كنا نقيم فيه. وكان نزيهاً مستقيماً يكره الاستفادة من منصبه أو علاقاته لتحقيق مكاسب شخصية. لم يكن يستخدم سيارة الجيش الرسمية إلا أثناء عمله، وكان يقود في تحركاته الشخصية سيارته الخاصة. أذكر أنني ركبت مرة واحدة سيارة الجيش برفقة السائق، لا أعرف سببها وملابساتها، ولكن السائق بقي يذكرني طوال المشوار القصير بالبقاء بعيداً عن النافذة؛ خوفاً من ملاحظة الشرطة العسكرية وجود شخص مدني في سيارة عسكرية؛ لأن القانون يمنع ذلك. هذه الاستقامة في طبعه وشخصيته، وصرامته العسكرية، وعزة نفسه الشديدة، حالت بينه وبين النجاح في الحياة

التجاريـة. فقـد عمـل مرتـين شريـكاً في مكاتـب لأعـمال الإنشـاء والمقـاولات المعمارية، وانتهـت الشراكتـان بعـد فترتـين قصيرتـين؛ لأنـه كان يرفـض اسـتخدام علاقاتـه الخاصـة داخـل الجيش للحصـول عـلى مشـاريع إنشـائية. لكنـه اسـتمر في محاولاتـه للقيـام بمشـاريع في سـورية وخارجهـا، دون أن يحالفـه الحـظ بـأي منهـا. عملـه في الجيش في مقتبـل حياتـه شـكل شـخصيته، التـي تميـل في الأصـل إلى الجديـة والصمـت والاسـتقامة، وحـال بينـه وبـين تطويـر المهـارات الضروريـة للتبـادلات التجاريـة، خاصـة وأن ريـاح الفسـاد الإداري وشراء الذمـم والتعويـل عـلى الوسـاطات بـدأت تغـزو الحيـاة العامـة والتجاريـة في البـلاد.

نشـأ والـدي في بيـت محافـظ، وكان جـدي متدينـاً مواظبـاً عـلى الصلـوات، لكـن والـدي لم يكـن متدينـاً مثلـه في فـترة شـبابه، ولم يكـن ملتزمـاً بالصلـوات الخمـس. كان محيطـه العسـكري بعيـداً كل البعـد عـن البيئـة التـي نشـأ فيهـا؛ فالنخبـة العسـكرية تأثـرت كثـيراً بالعـادات والتقاليـد الفرنسـية، وأنـماط الحيـاة الغربيـة التـي تغلغلـت في طبقـات المجتمـع العليـا. لم أتعلـم في المنـزل الصـلاة وقـراءة القـرآن، ولكننـي كنـت أشـارك والـدي الصيـام الـذي كان حريصـاً عليـه، بـدءاً مـن تجـارب الصيـام التدريجـي الـذي يشـجع عليـه الأولاد، والمعـروف في الشـام بـ "درجـات المادنـة" أي درجـات المئذنـة، نظـراً لأن الأطفـال يشـجعون قبـل البلـوغ عـلى صـوم أجـزاء مـن اليـوم تتصاعـد تدريجيـاً عامـاً بعـد عـام. لم أكـن أرى مناسـك الصـلاة في البيـت، ولكنـي كنـت أراهـا عنـد زيـارة جـدي، فقـد كان مواظبـاً عـلى صلواتـه. أذكـر أننـي رأيتـه مـرة جالسـاً بعـد الصـلاة يسـبح مسـتخدماً مسـبحة ذات حبـات خشـبية، وكنـت آنـذاك في العـاشرة مـن عمـري، فسـألت والـدي:

- ماذا يفعل جدي؟

فقال لي، وأظنه قالها معلماً لا جهلاً بها:

- لا أعلم.. اسأل جدك يخبرك.

وفعلاً سألت جدي مستغرباً:

– ماذا تقول وأنت تمرر السبحة بين أصابعك؟

فأجابني معلماً بالتسبيحات المأثورة بعد الصلاة:

– أقول سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر.

فتركته وشأنه ومضيت وأنا سعيد بمعرفتي سرّ التمتمات الخافتة! كان عمي عبد الكريم، شقيق والدي الذي يليه سنّاً، أستاذاً ثانوياً للغة العربية، وكان رجلاً ملتزماً بالصلوات، يحضر صلاة الجمعة دون انقطاع. طلبت منه يوماً أن أصحبه لصلاة الجمعة، بعدما علمت خبرها من ابن عمي إياد الذي يقاربني عمراً، وكنت في زيارته للاستئناس واللعب. اتصل عمي هاتفياً بوالدي الذي يكبره بسنة واحدة ودعاني إلى الاستئذان منه، وجاء الإذن على الفور، وذهبت للمرة الأولى لصلاة الجمعة. كانت تجربة جديدة فتحت آفاقي على عالم لم أره من قبل.. اجتماع الرجال وجلوسهم متقاربين بوقار وسكينة للاستماع إلى خطبة الإمام.. وصلاتهم بانتظام جنباً إلى جنب. هذا النظام والتناغم، إضافة إلى الأذان والإقامة والابتهال والدعاء، ترك في نفسي أثراً محبباً، وكان الخطوة الأولى في جملة من الخطوات التي لم تخلُ من العثرات لمقاربة الجانب الروحي؛ الذي بقي خاوياً دهراً من الزمان قبل أن تتحرك الروح الساكنة من مكامنها بعد سنوات عديدة، وبعد تذبذب متكرر بين حالَتَي التشدد والتراخي، في حركة تشبه حركة النواس المتباطئة ذهاباً وإياباً قبل سكونه في الوسط.

الانقلاب العسكري الذي ترك أثراً مباشرة في نفسي، لأني شهدت بعضاً من تفاصيله، جرى عام (1966)، عندما قررت اللجنة العسكرية لحزب البعث الانقلاب على أمين الحافظ، بعدما شعرَتْ بأنه بدأ بالتحرك بعيداً عن الدور الذي رسم له، وبعدما بدأ بإعادة بعض الضباط الذين سرحوا سابقاً، أذكر منهم عبد الكريم عابد، وهو رجل كريم هادئ وحكيم، تم إبعاده عن الجيش عقب انقلاب (1963)؛ الذي أحضر أمين الحافظ للسلطة. قاد الانقلاب ضابط درزي برتبة نقيب اسمه سليم حاطوم، واستخدم خلالها للمرة الأولى قصفاً مدفعياً من إحدى الدبابات التي

أحاطت بمنزل أمين الحافظ القريب من بيتنا. قاوم أمين الحافظ الانقلاب لساعات وهو في منزله، ولم يتمكن الانقلابيون منه إلا بعد أن قتلوا أفراد حراسته الخاصة وقصفوا منزله. وأدت المعركة إلى إصابة ابنته الصغيرة بطلقة نارية أفقدتها إحدى عينيها. ذهبت في اليوم التالي للمعركة لرؤية منزل أمين الحافظ، وكانت آثار القصف والرصاص ودم الحرس الخاص في كل مكان. كان حرس أمين الحافظ من فرقة الهجانة، وتتألف من مقاتلين ينتمون إلى بدو الجزيرة في الشمال السوري، وكانوا يعرفون بصلابتهم وجسارتهم في القتال وولائهم لقيادتهم العسكرية.

انقلاب (1966) حدث عندما كنت في الصف السادس، آخر صفوف المرحلة الابتدائية، التي أمضيت نصفها الأول في المدرسة البطريركية في المدينة القديمة، بينما أمضيت النصف الثاني في مدرسة (التطبيقات المسلكية) التي تقع في حي (أبو رمانة) أحدث أحياء دمشق الحديثة. مدرسة (التطبيقات المسلكية) أُسست في مطلع الستينيات لتشكل نموذجاً جديداً من المدارس التعليمية. انتقالي للمدرسة تم بناء على رغبتي، فقد طلبت من والدي نقلي إلى تلك المدرسة بعدما علمت أن صديقي المقرب في المدرسة الابتدائية، سامي الوظائفي، على وشك الانتقال إليها. واستجاب والدي لهذا الطلب، وانتقلت إليها عقب العطلة الشتوية، وهو توقيت غير مناسب عادة للانتقال إلى مدرسة جديدة؛ لأن الانتقال في منتصف العام الدراسي يثير حفيظة الطلبة بعد أن اعتادوا على رفاقهم في الصف؛ فيؤدي حضور طالب جديد إلى تركيز اهتمام الجميع عليه، وليتحول إلى حقل تجارب للطلبة القدماء للكشف عن طبيعته ومعدنه، وبالتالي تحديد موقعه داخل "الخريطة الاجتماعية" لطلاب صفه. كنت في ذلك العمر خجولاً مسالماً، أتجنب الاحتكاك مع الأولاد المشاغبين. الأمر المهم في هذه النقلة بالنسبة لي أنني تخلصت من رحلات (الباص) الطويلة إلى الطرف الآخر من المدينة، وكانت المدرسة تبعد حوالي الربع ساعة سيراً على الأقدام، وهي مسافة تزيد قليلاً عن المسافة التي كان علي اجتيازها بين المدرسة البطريركية ومكان وقوف الباص العسكري في باب توما.

تنامي الجسد واختلاج الروح

بعد إتمام المرحلة الابتدائية انتقلت إلى مدرسة (جودت الهاشمي)، وهي مدرسة اخترتها بنفسي وساعدني والدي على الانتقال إليها؛ لأن المدرسة التي أرسلت إليها ورفاقي في الصف بعد انتهاء المرحلة الابتدائية كانت تقع في حي المالكي؛ وهو حي جديد كان في تلك الفترة قيد البناء. كانت مدرسة (الثقفي) التي فُرزت إليها من أوائل المنشآت التي أقيمت في ذلك الحي. مدرسة (جودت الهاشمي)، من ناحية أخرى، كانت مدرسة عريقة نجمت عن تقسيم أول مدرسة ثانوية في دمشق، مدرسة التجهيز الأولى، إلى مدرستين: إحداهما (جودت الهاشمي) حيث درست المرحلة الإعدادية، والثانية (ابن خلدون) حيث درست الثانوية. وكان لجودت الهاشمي سمعة جيدة بين مدارس دمشق، لكفاءة مدرسيها. انتقالي إلى مدرسة (جودت الهاشمي) جمع بيني وبين ابن عمي إياد، وكنا من مواليد الشهر نفسه، وكان يكبرني بيومين، وكنت أنافسه عندما كنا صغاراً بالمهارات الجسدية؛ كالمصارعة والركض وتسلق الجدران، وأتفوق عليه فيها، في حين كان يتفوق علي في المهارات العلمية والمعرفية. وبقيت صحبتنا وزمالتنا مستمرة حتى نهاية المرحلة الإعدادية، وبدأت بعد ذلك تتراجع ببطء بسبب نشاطي الاجتماعي المتنامي، وتفضيله الانكباب على الدراسة في البيت، وميله إلى العزلة والابتعاد عن مخالطة الأقران الذي يتطلبه التحصيل المدرسي. لعل من أسباب تراجع العلاقة تباعد مزاجينا تدريجياً في مرحلة المراهقة؛ فقد بدأت أميل مع تقدم المرحلة الإعدادية إلى المغامرة والتمرد والمشاكسة وبناء صداقات عديدة، وكان يميل إلى الحذر والهدوء والاكتفاء بصديق واحد مشترك بيننا هو رصين عبد الهادي. وكان رصين شاباً طويلاً نحيلاً، ينتمي إلى أسرة الهادي الفلسطينية، التي أنجبت فخري عبد الهادي؛ أحد زعماء المجموعات المقاتلة في فلسطين في ثلاثينيات القرن الماضي، وجدُّ رصين. اشتهر فخري في حياته بالقسوة والجبروت، في حين تميَّز حفيده رصين باللين والدماثة وميل إلى العلوم والفنون. كان رصين يحدثني بأسلوبه الحيوي في الكلام عن قسوة

جده، وعدم تورُّعه عن قتل من يخالف أمره أو يفشل في تنفيذ توجيهاته. ويبدو أنه سمع عن ممارسات جدِّه من والده حفظي، الذي عرفته وهو في سنٍّ متقدمة، وكان رجلاً عصاميّاً خلوقاً أديباً، وكان أستاذاً متمرِّساً في اللغة الإنكليزية.

الانتقال لمدرسة جودت الهاشمي رافق بلوغي سن الحلم وبدء سنوات المراهقة التي تتشكل خلالها الخيارات الأولى التي تواجه المرء وهو يسعى لمعرفة معنى حياته وتحديد مسارها. في جودت الهاشمي تعرفت على العديد من الأصدقاء من خلفيات اجتماعية مختلفة وأحياء دمشقية متنوعة، استمرت بعض تلك الصداقات إلى يومنا هذا. أذكر منهم مازن هاشم الذي تجددت صداقتي معه بعد التقائنا في الولايات المتحدة. ومنهم: زياد جلنبو، ونور درويش جانو، ورصين عبد الهادي، ونبيل شهبندر، ونبيل خانكان. كان زياد جلنبو من الطلبة النابهين، وكان يجلس في المقاعد الأولى المخصصة للمتفوقين إلى جانب نور درويش ومازن هاشم، بينما كنت أجلس في المقاعد الخلفية إلى جانب رياض الكردي ورصين عبد الهادي. ذاكرتي عن زياد جلنبو خلال سني الدراسة ترتبط بمقالة إنشائية أعجب الأستاذ بها، فطلب منه قراءتها، واستخدم فيها كلمتي "شتان" و "سيان" في توظيف طباقي شدَّ انتباهي. وكانت تلك المرة الأولى التي سمعت أحداً يستخدمها، فالتصق في ذاكرتي اسم زياد بكلمتي "سيان" و "شتان". التقيت بزياد جلنبو مرة أخرى في الولايات المتحدة حيث يعمل هناك، وكان آخر عهدي بنور درويش في سنوات الجامعة في كلية الهندسة، كان آنئذ ناشطاً في التدريس والدعوة ضمن جماعة زيد، وكان يلبس الثوب الطويل إلى الجامعة، واعتقلته قوى الأمن، ثم قيل إنه قتل في سجن تدمر. وكان نور درويش طالباً ذكياً نابهاً، واحتفظ خلال المرحلة الإعدادية بالمرتبة الأولى في الصف دون منازع.

سنوات المرحلة الإعدادية وجودت الهاشمي رافقت أولى محاولاتي لتنمية الجانب الروحي لدي، والتي انتهت بالفشل الذريع والاندفاع بالاتجاه

المعاكس. نعم كانت تلك السنوات بداية حركتي المضطربة والمتذبذبة بين طرفي التشدد والتساهل. نمت في جودت الهاشمي مشاعري المتمردة تجاه السلطة ورموزها، ربما لأن ممارسة السلطة في مؤسساتنا المجتمعية قامت على أُسس اعتباطية ومزاجية، واعتمدت وسيلة وحيدة هي الشدة والعقاب لضبط السلوك. أذكر أنني استدعيت مرة إلى مكتب الموجه من قِبَل مدير المدرسة. كان المدير رجلاً ضخماً بديناً، ذو وجه عبوس وصوت غليظ، وكان الطلبة يخافونه ويتجنبونه. عندما دخلت إلى الغرفة فاجأني بصفعة شديدة على وجهي بيده الثقيلة الغليظة دون سؤال أو بيان لسبب العقاب، ودون توجيه أي إنذار. وتكرر هذا الأمر مرة أخرى مع موجه لطمني بين كتفي بقوة لسبب غير واضح أيضاً. وكانت هاتين المرتين نهاية عهدي بالسماح لأعضاء السلك التعليمي باستخدام أساليب العنف معي، فقد اتخذت بعد ذلك عهداً على نفسي بمنع وردع أي استخدام للقوة ومن أي مصدر كان!

العديد ممن التقيت خلال المرحلة الإعدادية تركوا أثراً في نفسي، ولكن الرجل الذي ترك أثراً خاصّاً كان أستاذ اللغة الإنكليزية محمود العلبي. لم تكن مهارة العلبي مرتبطة بتعليم اللغة الإنكليزية، بل بحثِّ تلامذته على الالتزام بأركان الإسلام وآدابه. كان يغتنم كل فرصة يجدها للحديث عن الدين والأخلاق وهو يؤدي مهمته الأساسية في تعليم اللغة الإنكليزية لطلابه. كانت شخصيته محببة تجمع بين الحدة واللطف والتواضع، وكان يزور طلابه في بيوتهم لتذكيرهم بواجباتهم الدينية، ودعوتهم إلى حضور حلقات تنظمها جماعة زيد؛ وهي جماعة دعوية مشهورة في دمشق، أسَّسها الشيخ عبد الكريم الرفاعي، وتولاها من بعده ولداه الشيخان أسامة وسارية. لم يكن العلبي فقيهاً عالماً في الدين، ولم يكن خطيباً مفوَّهاً أو متكلِّماً نحريراً، لكنه كان يتحدث عن معتقداته بحرارة وحماس وإيمان؛ لذلك تمكن من جمع العديد من التلاميذ حوله وتحفيزهم على أداء الصلوات واعتياد المساجد. قد تكون البيئة المحافظة التي أحاطت بأسرتنا، خاصة من جهة جدي لأبي، لعبت دوراً لتفاعلي مع أحاديثه وتوجيهاته؛ إذ لم تكن أسرتي

الصغيرة تهتم بأمور الدين. لكني أرجح أن الخواء الروحي الذي كنت أستشعره ولا أجد هادياً يرشدني إلى طريقة ملئه السبب الرئيسي. وبدأت فعلاً بأداء الصلوات الخمس في منزل لا تقام في الصلاة أبداً. واستمر بي الحال لشهر، أو ربما شهرين، إلى أن خرجت مع فرقة الكشافة التي انتميت إليها برحلة إلى حلب واللاذقية لم أُصَلِّ خلالها، لعدم وجود من يؤدي الصلاة بين الطلبة والأساتذة، وخوفاً من الظهور أمام الأصدقاء على حال مخالف لسلوك الجميع. خجلي الشديد وحداثة سني لم يسمحا لي بالاستمرار فيما بدأت في أجواء غير مشجعة، فما كان مني إلا أن تركت الصلاة وعدت إلى سابق عهدي، ومرت سنوات عديدة قبل العودة إليها بعد دخولي في تجربة روحية أخرى في المرحلة الثانوية.

المرة الأخيرة التي التقيت فيها محمود العلبي كانت في منتجع بلودان على مسافة (50) كيلو متراً غرب مدينة دمشق، عندما كنت أتسكع صيفاً في شوارع البلدة مع ثلَّة من الأصدقاء. جاءني ليسلِّم علي ويسأل عن أحوالي، ثم يطلب مني المساعدة قائلاً:

- أبحث عن الفندق الكبير، هل تعرف مكانه؟

أجبته وأنا أشعر بشيء من الحرج؛ لأني لم أكن مع الصحبة التي تمناها لتلامذته:

- نعم أعرف المكان، سآخذك إليه.

سرنا باتجاه الفندق، فبادرني يشرح همه الذي قاده إلى منتجع بدا واضحاً أنه يزوره للمرة الأولى:

- ثمة مساق جامعي لازمني لسنوات، ولم أتمكن رغم المحاولات من تحقيق درجة النجاح فيه. علمت أن الأستاذ الذي يدرسه مقيماً في الفندق الكبير لبضعة أيام فأتيت طالباً نصيحته.

وصلنا إلى الفندق الذي يبحث عنه، فتركته يمضي لشأنه بعد أن تمنيت

لـه التوفيـق والنجـاح. مـضى الرجـل إلى عالمـه وشـأنه وهمومـه، وعـدت أنـا إلى عالمـي الخـاص بي، وإلى رحلـة البحـث عـن الـذات والغايـة والطريـق!

الكشـافة والرياضـة البدنيـة والموسـيقا كانـت هوايـاتي المفضلـة منـذ نعومـة أظافـري. انتسـبت إلى الكشـافة في سـنٍّ مبكـرة، ربـما لأنـني كنـت ميّـالاً للحيـاة العسـكرية، فكانـت الكشـافة بزيهـا (الخاكـي) الموحـد، والانضبـاط الـذي تفرضه التقاليـد الكشـفية، والتراتـب العسـكري، وتبـادل التحيـة الكشـفية النظاميـة؛ تذكـرني بتلـك الحيـاة. كنـت معجبـاً بـزي والـدي العسـكري والنظـام العسـكري الصـارم، وكان طموحـي الأول الالتحـاق بالكليـة العسـكرية ومرتبـات الجيـش السـوري. كنـت أنتمـي إلى نـادي كشـفي في حـي المزرعـة القريـب مـن بيتـي عندمـا كنـت طالبـاً في المرحلـة الابتدائيـة. كان قائـد الكشـافة في فرقـة المزرعـة شـاب اسـمه تحسـين الفقـير، وكنـا نسـميه القائـد تحسـين. تحسـين كان بالنسـبة لي نموذجـاً للشـهامة والفاعليـة. كان في مطلـع الشـباب، ولعلـه كان في المرحلـة الثانويـة آنـذاك عندمـا كنـت في الابتدائيـة. بالإضافـة إلى الانطبـاع العـام عنـه مـا يعلـق في ذاكـرتي وقوفـه إلى جانبـي مسـاعداً، عندمـا أصبـت بالتسـمم في رحلـة طويلـة أخذتنـا إلى حلـب واللاذقيـة مـروراً بحمـص وحمـاة وإدلـب. فـكان يهتـم بي ويهـدئ مـن روعـي كأخ كبـير. غـادر دمشـق بعـد تخرجـه مـن الثانويـة، ورحل إلى السـويد وبقـي فيهـا إلى اليـوم. اجتمعـت بـه قبـل بضـع سـنوات عندمـا زرت اسـتوكهولم مـع وفـد مـن المجلـس الوطنـي السـوري؛ تلبيـة لدعـوة مـن وزيـر الخارجيـة السـويدي. تناولنـا العشـاء سـوياً، وذكرتـه بالأيـام الخـوالي، وكانـت المعلومـة مفاجـأة بالنسـبة إليـه، لأنـه عرفنـي ناشـطاً في صفـوف الثـورة، ومتحدثـاً باسـم المجلـس الوطنـي، وأخـاً لصديقـة أختـه الصغـيرة، وكان يجهـل لقاءنـا قبـل نصـف قـرن في صفـوف الكشـافة.

تابعـت نشـاطاتي الكشـفية في مدرسـة جـودت الهاشـمي، وشـاركت في عـدد مـن الرحـلات الكشـفية التـي كنـت أسـتمتع بهـا؛ لأنهـا تسـمح لي بالحيـاة في أحضـان الطبيعـة، خـارج المدينـة التـي كانـت تشـعرني بالحيـاة المصطنعـة المغلقـة بعيـداً عـن جمـال الطبيعـة وهوائهـا العليـل وألوانهـا المريحـة السـاحرة. واسـتمرت

رحلاتي الدورية لإقامة مخيمات في الجبال وعلى شواطئ البحار حتى بعد ابتعادي عن الحياة الكشفية في المرحلة الثانوية والجامعية؛ فكنت أخرج صيفاً إلى مخيمات نقيمها على شاطئ البحر الأبيض في منطقة رأس البسيط القريبة من الحدود التركية. وكان رأس البسيط آنذاك منطقة مهجورة لا يوجد فيها سوى بضعة أكواخ صغيرة رخيصة الأجر، يأتيها عدد قليل من المصطافين. وكنت أستقل مع أصدقائي حافلتين للوصول إليها؛ واحدة من دمشق إلى اللاذقية، وحافلة ثانية صغيرة من اللاذقية إلى رأس البسيط. وكنا نحضر معنا خيمة كبيرة نستأجرها، ومواد غذائية تكفي لبضع ليال نمضيها على الشاطئ. أذكر من الأصدقاء الذين رافقوني في تلك الرحلات على مدى سنوات: رياض الكردي وخلدون ذو الغنى وحسن أوضاباشي ويمان فرعون، ورافقني ابن عمي إياد مرة وحيدة. كانت منطقة رأس البسيط آنذاك من أجمل بقاع الأرض، ولا أعتقد أنني رأيت بحراً يشابه بجمال ألوانه وزرقة مياهه لون مياه شاطئ رأس البسيط المتدرجة الخلابة، رغم تجوالي في مدن ساحلية كثيرة عبر قارات خمس. إضافة إلى اللون الأزرق الخلاب، كنا نشاهد من تلك البقعة جبال صلنفة الخضراء الجميلة المحاذية للبحر، ونتمتع بالنسمات العليلة المنعشة، تتوالى لتحرك الأشجار بلطف من حولنا، وتحرك معها مشاعر الدعة والسكون والاسترخاء في نفوسنا الفتية.

اهتمامي بالموسيقا والفنون لم يترجم إلى مهارات عملية، ربما لأن البيئة الدمشقية المحافظة لم تكن توفر احتراماً كافياً للفنانين. أو ربما لأنني كنت أعطي أهمية أكبر للحياة الفكرية والعملية. أو لعل السبب هو خجلي وخوفي من الظهور في الحفلات العامة، والوقوف في بقعة الضوء أمام جماهير من المتفرجين؛ لذلك انتهت جميع محاولاتي المترددة لاكتساب المهارات الفنية بالفشل. أذكر أنني التحقت بفرقة جودت الهاشمي الموسيقية، وتعلمت العزف على آلة (الترامبيت) أو (الطبل الجانبي) التي تعتمد على استخدام عصاتين خشبيتين، تقرعان عند اصطدامهما المتلاحق بالطبل، فتصدران لحناً حماسياً يحرك في النفس مشاعر القوة والإصرار. ولكنني بعد تدريب

استمر لأشهر قليلة غادرت الفرقة دون الوصول إلى مرحلة المشاركة في النشاطات الاحتفالية. كذلك انتهت محاولتي للانضمام إلى فرقة الدبكة بفشل ذريع. فبعد المشاركة في تدريبات تحضيرية استُبعدت بعد العروض الاختبارية لاختيار أعضاء فرقة الدبكة التابعة لمدرسة جودت الهاشمي، بينما تم اختيار صديقي طريف القهوجي الذي دعاني إلى لقاءات الاختبار تلك.

بدأ اهتمامي الحقيقي بالموسيقا في المرحلة الإعدادية، وارتبط بالسماع والانفعال مع الكلمة واللحن. كان صديقي المقرَّب لي في الصف الثامن والتاسع هو رياض الكردي، وكان يسكن في منطقة هادئة من حي (أبو رمانة). كان من أسرة تشتغل بالصرافة ويتنقل والده بين بيروت ودمشق. وكان والده يحضر له من بيروت أحدث الأغاني الغربية مسجلة على أسطوانات بلاستيكية، فنستمع إليها سوياً. كان اللحن الحزين المميز في نمط الموسيقا الغربية يجذبني أكثر من موسيقا الطرب العربية. وكانت الكلمات الغربية لا تتعامل فقط مع معاني العشق والغرام والظلم والإحباط، بل كان العديد منها يحمل معاني ترتبط بالبحث عن الذات، والثقة بالنفس، والصبر على الألم، والأمل في المستقبل، والوفاء للذكرى، والصمود أمام التحدي، وغيرها من المعاني التي كنت أفتقدها في الأغاني العربية، باستثناء بعض أغاني فيروز.

رحلات البحر والأغوار

من الذكريات المتبقية لدي من سنين الطفولة، في الفترة التي واكبت خدمة والدي في الجيش السوري، رحلات إلى مدينة اللاذقية في الشمال على ساحل البحر الأبيض، وأخرى إلى الجنوب إلى منتجع الحِمّة، الواقع في الأغوار المجاورة لهضبة الجولان، والذي استولت عليه إسرائيل في حرب الأيام الستة عام (1967). كان والدي يأخذنا إلى ساحل اللاذقية بين الحين والآخر لنقيم في أكواخ الاستجمام الخاصة بالضباط. كان البحر يمتد أمامي على امتداد النظر نحو آفاق بعيدة، ويمنحني شعوراً خاصّاً بالانطلاق

والانشراح، ويحرِّك لدي مشاعر الرهبة والغموض. لا شيء يهزُّ الإحساس بالاستقرار والثبات، الناجم عن العيش على سفح جبل قاسيون الصخري المحيط بمدينة دمشق، مثل التأمل في حركة مياه البحر الممتد على امتداد البصر في طرطوس واللاذقية. منظر مياه البحر ترتفع وتنخفض ببطء وهدوء، في حركة تحاكي حركة الصدر في لحظات التنفس العميق، تشعر المتأمل بأن الهدوء الذي يحيط بنا يمكن أن يتحول في لحظات إلى غضب عارم يذهب السكينة، ويضع نهاية لأوهام الأمان! هذه الأفكار التي كانت تهيج في لحظات تأمل عميق لا تلبث أن تتلاشى كالفقاعات مع عودة النسمات اللطيفة العليلة؛ لتضفي على اللحظة مشاعر الراحة والدعة. مشهدان من مشاهد البحر خلال صحبتي لوالِدَيّ لا زالا منطبعين في ذهني ومخيالي. مشهد أحد أصدقاء والدي، هو عبد الكريم عابد، يحمل أبناءه ويدفعهم إلى جوف البحر لتختفي رؤوسهم تحت سطح الماء، ثم ترتفع بعد لحظات قليلة ويرتفع معها أصوات ضحكاتهم المدوية. اللحظة الضاحكة لديهم تحولت إلى كابوس عندما أمسكني عبد الكريم بيديه القويتين، بعد أن رآني أنظر مندهشاً لمنظر غير مألوف، ودفع برأسي تحت الماء كما فعل بأبنائه، فكانت تلك أولى تجربة غطس حالت للحظات بيني وبين الهواء الذي كنت أتنفسه قبل دقائق بسهولة وأمان! وما كدت أستنشق الهواء بعد لحظات غير مسبوقة من الانقطاع الكامل، حتى أخرجته من صدري مصحوباً بصرخات الاستنكار. وتتالت بعد ذلك ذكريات الغوص تحت الماء الذي مارسته لاحقاً في مسابح دمشق، وفي الشواطئ العديدة التي زرتها. وأصبح الغوص عندي نموذجاً رمزياً للخبرات الجميلة التي تتفتح أمام الإنسان عندما يروض جسده ويعلمه فنّ الانضباط. أما المشهد الآخر فهو لصياد على شاطئ اللاذقية عرض علينا استبدال أخطبوط كبير التقطته بصحبة أطفال كنت ألعب معهم بأخطبوط صغير بحجم أكفنا الصغيرة لكل واحد منا. قبلنا العرض وحمل كل منا الأخطبوط الصغير الذي التصق بكفه إلى الطاولة التي التف حولها آباؤنا، فما كان من والدتي وبعض صديقاتها إلا أن صرخن مستنكرين اقترابنا منهن، فركضنا بعيداً عنهن ضاحكين مسرورين.

المكان الآخر الذي كان محبباً إلى قلبي خلال طفولتي المبكرة منتجع الحِمّة، الواقع في جنوب البلاد على نهر الأردن؛ حيث تلتقي حدود سورية والأردن وفلسطين. كان منتجع الحمة تحت سيطرة الحكومة السورية قبل انتقاله إلى السيطرة الإسرائيلية عقب حرب حزيران في عام (1967). انتهت الحرب التي استمرت ستة أيام بهزيمة القوات السورية، واندحارها بعيداً عن حدود فلسطين، ليتحوَّل خط الجبهة الجديد من مرتفعات الجولان إلى شرق القنيطرة على بُعد (60) كيلو متراً غرب دمشق. تقع الحمة في أسفل هضبة الجولان، وكان الطريق الضيق الذي يقود إليها من المرتفعات المحيطة بها يتعرج مثل الأفعى في حركة ذهاب وإياب لتحقيق هبوط متدرج ينتهي كل منها بكوع حاد. كنت أتابع بدهشة جدتي وهي متسمرة إلى مقعدها أثناء الهبوط، تتمتم بالأدعية دون انقطاع مع بدء الهبوط من أعلى المرتفعات وحتى وصولنا إلى قاع الوادي السحيق. تتميز الحمة بينابيعها المعدنية وجوها الدافئ في الشتاء لوقوعها في منطقة الأغوار القريبة من بحيرة طبريا. كنا نمضي بضعة أيام في السنة في مساكن للاستجمام قرب الينابيع، ونمضي جزءاً من النهار في الأحواض الممتلئة بالمياه المعدنية الدافئة. كانت الأحواض مبنية فوق ثلاثة ينابيع تختلف في درجة حرارتها؛ أكثرها برودة يسمى "الريح"، وتتميز مياهه بالدفء المريح، وكان لذلك مكاني المفضل. أما الحوض الساخن فهو اسم على مسمى، ويدعى "المقلى"، كان شديد الحرارة لا يمكن تحمل حرارته لفترة طويلة من الوقت. وبينهما حوض "البلسم" الذي تتوسط حرارته الحوضين الآخرين.

الكون الفسيح وجمال الشهود

جمال البحر وروعة الجبال لم تكن أروع المناظر التي رأيتها في شام الطفولة، بل شهدت منظراً آخر لم أرَ مثيلاً له منذ ذلك الحين؛ منظر درب التبانة في إحدى ليالي الصيف في منتجع بلودان. كنت عائداً في وقت متأخر من لقاء مع أصحابي، في إحدى ليالي الصيف المعتدلة، في مطلع السبعينيات. كانت سماء الشام في تلك الأيام نقية صافية قبل التزايد الكبير

في عدد السيارات في فترة التسعينيات. كانت ليلة شديدة السواد غاب فيها القمر، ولم أكن أشعر بالنعاس، وكانت البلدة نائمة ساكنة لا يكاد يسمع فيها حسّ سوى أصوات الخنافس الخافتة، القادمة من الغابات القريبة. خرجت إلى فضاء مكشوف خلف المنزل الصيفي الذي كنا نقيم فيه، ثم استلقيت على ظهري على أريكة في منتصف الفناء المفتوح على السماء. كان منظراً مفاجئاً لم أره من قبل، ولم أرَ منظراً شبيهاً به من بعد، رغم محاولات عديدة لاحقة في أماكن نائية، بعيداً عن التلوث الضوئي الذي حلَّ في معظم أرجاء المعمورة. رأيت في وضعية المستلقي الذي يواجه عنان السماء، في ليلة شديدة السواد، أنوار النجوم تتلألأ أمامي في لوحة رائعة، وتمتد النقاط المضيئة بصورة لافتة من طرف السماء إلى الطرف الآخر كدرب ساحر في قلب السماء تناثرت فيه النجوم. كانت النجوم تملأ السماء بكثافة في وسطها، فتبدو أكثر إشعاعاً وضياء، ثم تتناثر تدريجياً، وتزداد المسافات بينها كلما انتقل النظر من مركز السماء إلى أطرافها. لا أدري كم مكثت أتأمل في المشهد الخلاب على تلك الحال، ولكنني شعرت في وضعي ذاك، بعد تأمل طويل، كأنني معلَّق في مكان شاهق أحدِّق منه إلى فضاء سحيق غير ذي قرار، وتملأ ذاك الفضاء النجوم المتلألئة في كل مكان. لم أكن يومذاك قد قرأت في كتب الفلك عن المسافات الشاسعة التي تفصل بين النجوم، ولم أكن أدري أن الكثافة النجمية في وسط السماء شكَّلت مقطعاً جانبياً للمجرة التي ننتمي إليها، والتي يسميها الفلكيون درب التبانة، وأن هذه المجرة الساحرة تمتد مسافة مئة ألف سنة ضوئية، من طرفها الأقصى إلى طرفها الأقصى في الجانب الآخر. كنت أجهل أيضاً أن بعض تلك النجوم المنثورة في درب التبانة الساطع لم تكن نجوماً منفردة، بل مجرات بعيدة؛ يحتوي كل منها على ملايين النجوم، وأن عدد تلك المجرات الضخمة الممتدة في الفضاء الكوني يزيد عن مليارات المجرات التي تشغل الكون المرئي، وأن قطر الجانب المرئي من الكون يقارب أربعة عشر مليار سنة ضوئية، وهو رقم خيالي يستطيع أحدنا أن ينطقه ولكنه لن يتمكن من استشعار معناه

الحقيقي. دراسة الفلك ومتابعة اكتشافاته كانت ولم تزل من أكثر قراءاتي متعة، ويبدو أن الشغف انتقل بطريقة ما إلى ابني الصغير مكين، الذي تحول إلى خبير في موضوعاته ولم يكمل بعد دراسته الثانوية.

أول قراءاتي ارتبطت بعلم النفس، لا بالفلك. والفضل في ذلك يعود لأمي الحبيبة، رحمها الله تعالى، التي كانت مغرمة بالقراءة، على خلاف والدي الذي لم يكن شغوفاً بها، بل كان يكتفي بقراءة المجلات؛ وفي مقدمتها مجلة (**العربي**) الثقافية التي كان يشتريها بوتيرة منتظمة كل شهر. من أول الكتب التي قرأت كتاباً في علم النفس، خطته الكاتبة الأمريكية هيلين شاكتر، بعنوان (**كيف تتكامل الشخصية**). وقرأت من مكتبة الوالدة أيضا كتاب (**دع القلق وابدأ الحياة من جديد**) للكاتب الأمريكي ديل كارنيجي. القلق كان رفيق والدتي منذ إصابتها بانهيار عصبي بعد وفاة جدي، وكان كذلك سمة لي وأنا أجهد في تلك السنين الغضّة لفهم هذا العالم الغامض المترامي، وأتأمل في مرحلة مبكرة آفاق المستقبل المجهول، وأستشعر مسؤوليات الحياة في سنٍّ يخلو عادة من مشاعر المسؤولية. من قراءاتي الأولى روايات عالمية مترجمة كنت أجدها في مكتبة والدتي الصغيرة، مثل رواية (**ذهب مع الريح**) ورواية (**الحرب والسلم**). لكنني كنت ميّالاً أكثر للكتابات الفكرية منها للروايات. ولعل من الروايات العربية التي أثارتني روايات: نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، وطه حسين، ومصطفى لطفي المنفلوطي. كنت أيضاً مولعاً بقراءات السير الذاتية لمشاهير القادة والسياسيين، فقرأت كتباً عن حياة عدد من القادة والزعماء الأوربيين؛ مثل الزعيم السياسي تشرتشل، والقائد الفرنسي نابليون، وأمير البحر البريطاني الشهير ويلسون، والقائد البريطاني مونتغمري، وغيرهم ممن وقعت يداي على سيرهم. ثم انتقلت في مرحلة لاحقة إلى قراءة عبقريات العقاد؛ مثل عبقرية محمد والفاروق وخالد بن الوليد، كما قرأت قصة حياة عبد الرحمن الداخل ونور الدين الزنكي وصلاح الدين الأيوبي، وغيرها من الأعمال المتعلقة بسير القدماء.

كانت والدتي مغرمة بالقراءة، كما كانت مغرمة بالموسيقا والغناء. وكانت امرأة نشيطة تمتلك طاقة هائلة مكَّنتها من القيام بمسؤولياتها الأسرية، إضافة إلى عملها مدرِّسة ثم موجِّهة في ثانويات دمشق. كانت امرأة جريئة تحمل صفات الحي الذي نشأت فيه؛ حي الشاغور. كانت تنتقد الممارسات السياسية التي تنطوي على الفساد والانحراف، ومجافاة أصول العدل والمصلحة العامة. دعاها سلوكها ذاك إلى مواجهة المحقق الأمني في المكتب الثاني؛ وهو مكتب أمني تابع للجيش، عندما كان التحقيق الأمني أقرب إلى عمل مفتشي الشرطة منه إلى أشكال التعذيب الوحشي التي انتشرت لاحقاً. وكان والدي عسكريّاً احترافيّاً لا يتدخَّل في الشؤون السياسية، ويغضب من سلوكها ذاك وانتقاداتها المتكررة للنظام السياسي، ويذكرها دائماً بضرورة الابتعاد عن انتقاد السلطة. وكانت محبة للأسفار؛ تنقلت في رحلاتها بين فرنسا ومصر وروسيا واليابان وإسبانيا واليونان واسكندنافيا وأمريكا وماليزيا، بالإضافة إلى دول الجوار مثل: لبنان والعراق والأردن ومصر والسعودية. وانتهى بها الترحال في الكويت؛ حيث يمكث ضريحها هناك. كانت تقف إلى جانبي وتحاول أن تلين مواقف والدي التي كانت تميل إلى الشدة. وكانت امرأة حازمة، لا تتردد بعد اتخاذها القرار، وهادئة لا أذكر أني رأيتها يوماً في حالة غضب. كان لديها قدرة عجيبة على إخفاء الغضب وإخضاع مشاعرها إلى ضوابط العقل والقرار المناسب. وكانت تطيل التأمل والصمت، والتحليق في عالم الخيال. رحيلي من سورية إلى السعودية كان من تدبيرها؛ فقد كانت تخشى من أن تؤدي صداقاتي الكثيرة، وبعض الحلقات النقاشية التي كنت أعقدها في البيت وخارجه، خاصة مع تزايد الملاحقات الأمنية للشباب مع حلول عام (1980)، وكثرة الاعتقالات العشوائية، وتململ الناس من السياسات الإقصائية، والتي بدأت نتائجها تظهر بوضوح في تلك الآونة. لذلك اتفقَتْ مع عمي بسام؛ الذي كان يعمل في شركة مقاولات في مكة، على دعوتي لزيارته، ثم ساعدتني على الحصول على جواز سفر بإقناع والدي بدفع كفالة كبيرة لتحقيق ذلك. وفعلاً شجعتني

زيارتي للشركة التي يعمل فيها عمي، وأجواء السكينة والهدوء والبساطة التي ميزت الحياة بمكة، على اتخاذ قرار السفر للعمل في السعودية.

غرامي بالقراءة كان ينمو متوازياً مع غرامي بسماع الموسيقا، خاصة الأغاني الغربية ذات الطابع الحزين. تلك الأغاني التي كانت تثير مشاعر الحزن والأسى العميقة في النفس، وتملأ للحظات فراغاً روحيّاً في نفسي. كانت تلك الأغاني بأنغامها الشجية تحرِّك مكامن عميقة في روحي، وتنقلني إلى أجواء نفسية تبعدني عن حدود الزمان والمكان، وكأنها تأخذني برحلة كونية في فضاء عميق منفتح على مساحات الكون الشاسعة، وتسمعني أنين روحي الباحثة عن معنى وهدف في ذاك الفراغ الكوني الهائل. كان شعوري وأنا أستمع إلى الأغاني الغربية الحزينة شبيه بشعوري وأنا أقرأ في كتب الفلك، وأستغرق في الأبعاد المذهلة للفضاء الكوني الذي يحيط بنا، ويغمرنا من كل جانب. بقي هذا الشعور بالخواء الروحي يخالجني خلال سنوات شبابي، ولم يملأه سوى قراءاتي في المرحلة الثانوية والجامعية للكتب الفكرية والفلسفية والدينية؛ التي ساعدتني تدريجياً وبصورة تراكمية؛ في تحديد رسالتي ومعنى وجودي وعلاقتي بهذا الكون الفسيح الممتدّ في فضاءات غير محدودة، على خطوط الأزل المتموجة في حركة أبدية نحو المجهول. هذه المشاعر الأولى ساعدتني بعد عقود على فهم العلاقة بين الروح والكلمة واللحن والمعنى، تلك العلاقة التي تربط الروح الإنسية المنبتة من أصولها والمحدودة في حدود الجسد، بمصدر وجودها وغاية آمالها ومصير أعمالها.

حبي للموسيقا دفعني إلى الانضمام إلى الفرقة الموسيقية التي أسسها الأستاذ محمود الصوفي، وكان أستاذي في الصفَّين الرابع والخامس. وكان يقضي العديد من الحصص بالتحضير لدروسه الجامعية وتكليفنا بنقل الدرس المقرر في الكتاب المدرسي إلى الدفتر، أو مشاركتنا ببعض النظريات التي تعلمها في الجامعة مثل نظرية الوراثة! ولعله قام بمراجعتها على السبورة أمامنا لتثبيت المعلومات التي قرأها توّاً في كتابه الجامعي. ولكنه كان

أيضاً مهتمّاً بالموسيقا. اخترت آلة اسمها "الميلوديكا"؛ وهي آلية موسيقية تتألف من لوحة مفاتيح شبيهة بمفاتيح البيانو، ولكنها لا تصدر الأصوات من خلال الأوتار؛ بل من خلال خروج الهواء من فتحات مختلفة، عندما يضغط العازف على المفاتيح تصدر أصواتاً ذات أوزان متنوعة، ويتولد الهواء نتيجة النفخ في فتحة شبيهة بفتحة المزمار في أعلى الآلة المستطيلة ذات اللون الفستقي. تعلمت بعض الألحان التي كنت أشترك بها مع الفرقة في المناسبات، ولكنني لم أبلغ درجة الإتقان، ولم يتحول العزف الموسيقي إلى هواية محببة لدي، مثل هواية القراءة، والرياضة البدنية التي تطورت أكثر خلال المراحل الإعدادية والثانوية والجامعية، وبقيت الموسيقا والغناء أمراً أستمتع بسماعه أكثر من الاستمتاع بأدائه.

أسرة ممتدة واهتمامات متعددة

جمال اللحن والكلمة والمعنى وارتباطهم بسرِّ الوجود وتطلعات الروح، كان يتماثل أمامي ويختلج في نفسي وأنا أستمع إلى جدتي لوالدتي؛ السيدة جُنَية، رحمها الله، وهي تعزف على العود وتقرأ الأشعار أمامي. اسمها لم يكن مألوفاً وشائعاً، ولمعرفتي به قصة طريفة.. لم أكن أعلم عندما كنت طفلاً اسم جدتي، كنت أناديها دائماً "تيتا"، وهي كلمة فارسية شائعة بين الدمشقيين لمخاطبة الجدة. عثرت يوماً على بطاقة هويتها الشخصية، وكنت على ما أذكر في بداية المرحلة الإعدادية. تفاجأت باسمها، فحملت إليها الهوية وسألتها:

- أنت اسمك جنِّية؟

لفظت الاسم بتشديد النون وكسرها. سحبت بطاقة هويتها من يدي ضاحكة وقالت:

- يا ضربان! أين عثرت على الهوية؟

ثم نظرت إلي لتبين خطئي في نطق اسمها قائلة:

- اسمي جُنَيّة وليس جنِّية!

كانت جدتي امرأة حنون، تحب المرح والطبيعة والجمال. وكانت ملجئي أثناء العواصف بيني وبين والدي؛ بسبب تمردي، وشغبي الذي بدأ يظهر خلال المرحلة الإعدادية، وازداد بعد انتقالي إلى الثانوية. كنت ألجأ إليها وأقيم عندها بعض الليالي إلى أن تهدأ الأمور والأحوال؛ لأعود بعد ذلك إلى بيتنا في حي الروضة. وكانت تقف دائماً إلى جانبي، وتقنع الوالدة بضرورة بقائي عندها حتى تنجلي العاصفة. كانت امرأة بسيطة، ولكنها شديدة الذكاء، قامت بتربية ثمانية أبناء؛ سبع بنات وصبي. وكانت الخيط الذي ضمَّ أبناءها وأسرهم كما يضم خيط المسبحة حباتها، وكانت الأسرة تلتقي عندها في المناسبات، وخاصة مناسبتي عيد الفطر والأضحى. فكنت ألتقي عندها بأبناء وبنات خالاتي، نتسامر ونلعب سوياً، ونشعر بأننا أخوة لأم واحدة. مثل هذه الاجتماعات كانت تتكرر عند جدتي لأبي؛ فقد كانت الأسرة المكونة من خمسة أبناء وأربع بنات وأبنائهن تلتقي أيضا في مناسبات الفرح، وفي الولائم التي كانت تتكرر على مدار السنة. هذه الأسرة الممتدة بين العموم والعمات، والخال والخالات، كانت حبيبة إلى قلبي، وكنت أسعد بلقاء العدد الكبير من أبنائهم، بل وأغتنم الفرص لزيارتهم في فترات متقاربة. كنت قريباً من أبناء عمومي وعماتي، وكنت كذلك قريباً من بنات خالاتي وأبنائهن. وبقيت علاقة الأخوة هذه قائمة بعد اغترابي عن البلاد، وغيابي إحدى عشرة سنة قضيتها بعيداً عن الأسرة في المرحلة الأولى من غربتي الطويلة؛ فقد عاد الشمل والْتَأم في أول زيارة قمت بها، وكانت الولائم واللقاءات وزيارات الأهل تعيد الآصرة التي جمعتنا ونحن أطفال صغار.

أيام العيد كانت من أحبِّ الأيام إلى قلبي، وكانت تجمعني بأقراني في العائلة الصغيرة والكبيرة، بأختي لينا وليلى، وبأبناء عمومتي. كان العيد موسماً لثراء أطفال الشام؛ إذ جرت العادة على أن يتلقى الأطفال "العيدية" خلال العيدين الكبير والصغير. والعيدية مبلغ من المال يعطيه

الكبار من أفراد الأسرة الكبيرة للأطفال. فكنت أتلقى العيدية من والديّ وجديّ وجدتيّ وأعمامي وعماتي وخالاتي، كل على حدة. وفي نهاية اليوم يتجمع لدي مبلغ كبير أنفقه في ساحات العيد؛ حيث يجتمع الأطفال لشراء الحلوى، وركوب الأرجوحة والقلابة، والخيل والحمير والبغال، وشراء المفرقات المنتشرة بكثرة في تلك الآونة. والمفرقعات هي ألعاب نارية صغيرة الحجم، يمكن للأطفال شراؤها وإشعالها في النهار والليل دون قيود. ولم تكن تخلو من الخطر، فكانت تُلحق بين الفينة والأخرى الأذى بأطفال أساؤوا استخدامها. وكان صبيان الحي ينقسمون إلى مجموعات، ويستخدمون المفرقعات في صراعات طفولية مفتعلة، تحاكي ما كنا نشاهده على شاشة التلفزيون من معارك تعيد تمثيل الحروب، خاصة معارك الحرب العالمية الثانية التي كانت تملأ الأفلام التلفزيونية. كنت أيضاً أغتنم تلك الفرص لركوب الخيل والمطاردة؛ فمع تكرار استئجار الخيل ضمن الأعياد ازدادت مهارتي تلك، واحتفظت بها كما احتفظت بمهارات السباحة وركوب الدراجة على مرِّ السنين، وكنت أمارسها بين الحين والآخر في مراحل لاحقة.

في وسط هذه الأسرة الكبيرة التي أضافت لحياتي الشخصية أبعاداً مهمة، افتقدتها كثيراً بعد خروجي من الشام، انتظمت حياتي اليومية حول الأسرة الصغيرة المؤلَّفة من: أبي وأمي وأختي لينا وليلى، ثم أخي عامر الذي جاء إلى الدنيا بعد أن بلغت العشرين من عمري، وقبل سنوات أربع من مغادرتي البلاد للعمل في مكة، كانت لينا تصغرني بخمس سنوات، وليلى بسبع سنوات. وكان وجودهم يملأ حياتي. كنا نمضي أوقاتاً طويلة سوياً، خاصة أثناء المشوار الأسبوعي الذي نقضيه معاً، وخلال الرحلات الترفيهية إلى المدن والمنتجعات السورية، ومدن الجوار مثل لبنان والأردن. كنت في الصيف آخذهما معي إلى المسبح للاستجمام، ولأعلمهما السباحة، وهما لا زالتا في المرحلة الابتدائية، بينما كنت في بداية المرحلة الثانوية. وكان المسبح فسحة لي ولهما للخروج لساعات من الغابة الإسمنتية التي تسمى

دمشق الحديثة، حيث تتقارب الأبنية وتتراكب في طوابق تعلوها طوابق، فتحول بين المرء ورؤية البساتين بأشجارها الجميلة، وفضائها المفتوح الذي كان يشعرني دائماً بالراحة والحرية. حبُّ السباحة جمعني بأصغر أعمامي وأصغر خالاتي. عمي بسام يكبرني بتسع سنوات، وكان يدرس أثناء فترة مراهقتي بكلية الهندسة في جامعة تركية، ويقيم بعيداً في اسطنبول، وكان يصحبني معه إلى المسبح عندما يزور دمشق. وكان أكثر الكبار قرباً مني ومحبة إلى قلبي. كنت أسعد بقدومه من أسفاره الطويلة، وأحرص على رؤيته وصحبته كلما سنحت الفرصة. أما خالتي نهى التي كانت تكبرني بسنوات خمس؛ فكانت تأخذني كلما حانت الفرصة إلى مسبح قرب قرية داريا، وكانت داريا آنذاك قرية صغيرة قرب دمشق يمكن الوصول إليها عبر طريق ضيق متعرج، وكان المسبح مخصصاً للسيدات، ويسمح لي بدخوله بسبب سني الصغير.

كانت العلاقة بيني وبين شقيقاتي طريفة بعض الشيء؛ إذ كانت السنوات المعدودة التي تفصل بيننا كافية في تلك المرحلة إلى منحي سلطة أبوية، أو قريبة منها، وتحيلني إلى ولي أمر يتولى مهمة التوجيه وإعطاء الأوامر حيناً، وإلى شقيق يتبادل الأحاديث اليومية والنكت المتداولة أحياناً. كنت عندما أتمادى أحياناً في استخدام سلطة الأخ الكبير التي منحني إياها فارق العمر، وأتجاوز الحدود في سعيي إلى التحكم المزاجي في سلوكهما وخياراتهما، أواجه بتدخل أبي الذي لم يكن يتردد بتذكيري بأن السلطة التي أملكها سلطة محدودة، وأن الرأفة والرفق يجب أن يكونا المحرك الأساسي لتعامل الأخ مع إخوته؛ لذلك كنت غالباً ما أتقمص دور الحامي لهما من إساءة المتحرشين؛ الذين كانوا يظهرون على فترات متباعدة. المسافة العمرية التي أعطتني دور الموجه لم تلبث أن استبدلت بها مشاعر الأخوة الخالصة والمتخلصة من أبعادها السلطوية، والمتجلية بالنصح والمحبة والتعاون عندما بلغتا المرحلة الجامعية، هذه الروح التي لا زالت تجمعنا إلى يومنا هذا، رغم تطاول الغربة وتباعد المسافات التي تفصل بيننا.

السيارة كانت موضع اهتمامي منذ نعومة أظفاري. كنت أرقب بشغف والدي وهو يقود السيارة، وأشعر بسعادة كبيرة وأنا جالس على مقعد ثابت داخلها، أرى المسافات الطويلة تتلاشى أمامي بسرعة. كنت أجلس في مقعدي أثناء أسفارنا أتأمل معالم الأرض الممتدة حولي، وأستمتع برؤية الطبيعة الجميلة الخلّابة، وأنظر بعيداً إلى التلال والهضاب والجبال والوديان والبوادي والأحراش والغابات؛ تظهر وتختفي مع تحرك السيارة إلى غايتها. وكان المشوار الأسبوعي بالسيارة إلى وادي بردى وسهل الزبداني ومصايف مضايا وبُقّين وبلودان القريبة من دمشق من أجمل لحظات طفولتي. العديد من مشاهد الطفولة العالقة في ذهني ترتبط بالسيارة. لا زلت أذكر بوضوح استلقائي في المصطبة اللصيقة بشباك السيارة الخلفي، في أول سيارة اشتراها والدي من نوع "سيمكا" فرنسية الصنع. وكانت السيارة صغيرة الحجم، والمصطبة الخلفية غاية في الصغر، لا يمكن أن تحتوي على طفل يزيد في عمره عن سنوات قليلة، ومع صغر سني آنذاك فاستلقائي في هذا المكان المحشور حاضر في ذاكرتي بكل تفاصيله. من المشاهد التي أستحضرها أيضاً حادث جرى على منعطفٍ حادٍّ قرب منطقة التكية على طريق الزبداني، وقع الحادث عندما التفت السيارة بنا التفافاً كاملاً حول محورها مرتين، وكنت في المقعد الأمامي أجلس بين أمي وأبي، وتمسكت بفتحات التدفئة الأمامية تجنباً للوقوع، وتركت أطراف الفتحات الحادة علامات واضحة على أناملي استمرت لعدة أيام. اهتمامي بالسيارة لم يكن محصوراً بركوبها بل بقيادتها. وتعود أولى محاولاتي لتحريك السيارة إلى الصف السادس الابتدائي؛ حيث حاولت سواقتها على طريق منحدر دون تشغيل المحرك، فقمت بحلِّ المكبح اليدوي ووضع عامود السرعة في الوضع الحرّ، وفعلاً تحركت السيارة إلى أسفل المنحدر، ولكنني لم أتمكن من توجيه عجلة القيادة لأنها كانت مقفلة، كما لم أتمكن من إيقافها لأن المكابح كانت بعيدة عن قدمي، ولم يسمح لي قصر رجلي بالضغط بقوة على المكابح، من لطف الله وحسن حظي، لم تتجه السيارة إلى الوادي السحيق، بل إلى طرف تلة أجبرتها على التوقف لدى ارتطام عجلاتها بحجارتها.

هـوسي بقيـادة السـيارة دفعنـي إلى قيادتهـا دون علـم والـدي، في نهايـة سـن الرابعـة عـشر وبدايـة الخامسـة عـشر. كنـت ألتقـط نسـخة مفاتيـح السـيارة التـي تحتفـظ بهـا والـدتي قبـل ذهـاب والـدي للنـوم، ثـم أدعـو أصدقائـي إلى جولـة في شـوارع دمشـق الخاليـة مـن السـيارات والمشـاة ليـلاً. كانـت تلـك بدايـة سـنوات التمـرد وتجاهـل قواعـد السـلامة وقوانـين السـير. واسـتمر بي الحـال عـلى هـذا المنـوال لعـدة أسـابيع، أقـوم بالتجـوال في السـيارة مـع أصدقـاء الدراسـة في سـاعات متأخـرة مـن الليـل، بعـد سـهرة طويلـة كنـا نعكـف خلالهـا عـلى التحضـير لفحـص الكفـاءة؛ الـذي يفصـل بـين المرحلـة الإعداديـة والثانويـة؛ ثـم ننهـي دراسـتنا بمغامـرة قيـادة السـيارة ليـلاً. لكـن الوالـد مـا لبـث أن اكتشـف الأمـر، وعلـم مـن الحـارس الليـلي أني كنـت أقـود السـيارة ليـلاً بعـد ذهابـه إلى النـوم، فترصـدني في ليلـة مـن تلـك الليـالي، وواجهنـي بغضـب، وانتهـى بي الأمـر في منـزل جـدتي لبضعـة أيـام لتهدئـة الأجـواء وتجـاوز عاصفـة الغضـب. وبعـد محـاولات لاحقـة قـرر والـدي بيـع السـيارة لشـعوره أن هـذا هـو الحـل الناجـع الوحيـد لوضـع حـدّ لتلـك المحـاولات. قـرار والـدي في التخـلي عـن السـيارة؛ لمنعـي مـن ارتـكاب حماقـة كانـت يمكـن أن تـؤدي إلى عواقـب وخيمـة؛ كان قـراراً صائبـاً بعـد أن تحـول هـوسي بقيـادة السـيارة إلى جنـون. إحـدى المـرات التـي تحولـت فيهـا متعـة القيـادة إلى موقـف خطـر جـرت في بلـودان، عندمـا كنـت في صحبـة الأهـل يـوم الجمعـة لتنـاول الغـداء في أحـد مطاعمهـا. غـادرت المطعـم عـلى حـين غفلـة مـن والـدي، وتحصلـت عـلى نسـخة مـن مفاتيـح السـيارة كانـت في حـوزة والـدتي، وانطلقـت أقـود السـيارة بصحبـة بعـض الأصدقـاء في طـرق بلـودان الجبليـة. ويبـدو أننـي بالغـت باسـتخدام المكابـح ممـا أدى إلى ارتفـاع حـرارة الزيـت الـذي يغذيهـا، وربـما تسربـه خـارج حجـرة التخزيـن، ممـا أخـرج المكابـح عـن العمـل وأنـا أقـود السـيارة في طريـق منحـدر ينتهـي في تقاطـع مزدحـم بالسـيارات، وتمكنـت - بلطـف الله - مـن إيقـاف السـيارة في اللحظـة الأخـيرة بعـد تكـرار ضغطـي عـلى دواسـة المكابـح عـدة مـرات، ممـا أعـاد ملء أسـطوانة الزيـت بالهـواء، وسـمح بوقوفهـا قبـل حـدوث المحـذور. وسـلم الله تعـالى كـما سـلم في حـوادث لاحقـة بعـد حصـولي عـلى شـهادة القيـادة.

إشراقات الروح

اهتمامي بالسيارة لم يقتصر على هوس القيادة في سنٍّ مبكرة، بكل ما يحمل هذا الهوس من محاذير وتجاوزات وأخطاء وأخطار، بل ارتبط ببداية تنامي مشاعري الروحية! إشراق الروح تجلى في تحول مشهد السيارات المتحركة من أمام منزلنا في الروضة من مشهد عادي إلى ظاهرة مثيرة لفضولي في إحدى الأمسيات.. في تلك الأمسية برز دون سابق إنذار سؤال: ما العلاقة بين المادة والروح عبر مفارقة لطيفة وملاحظة عجيبة. تأملي في حركة السيارات المتلاحقة في إحدى ليالي الصيف أدى إلى "إشراقة روحية" ربطت هذه الحركة اليومية المتكررة؛ التي لم تكن تثير أي اهتمام في أمسيات سابقة، بمعنى روحي متعال عن جزئية الحركة الآلية للسيارة. الإشراقة المفاجئة ولدت داخلي إحساساً عميقاً بإرادة مهيمنة تيسر للإنسان وسيلة نقل قائمة على آليات طبيعة مستقلة تماماً عن دائرة التأثير البشري المحدود. أنى لهذه الآلة المعقدة أن تتحرك وتتحول إلى وسيلة مناسبة لركوب الإنسان، سألت نفسي؟ وأنى للطاقة الكامنة في الطبيعة الجامدة أن تتحول إلى تيار كهربائي يسمح بإضاءة الشوارع والمحلات الممتدة أمامي على جانبي الطريق؟ لم يكن شعوري في تلك اللحظة ناجم عن جهل بالمبدأ الطبيعي، ولكن عن دهشة للعلاقة بين الطبيعة وحاجات الإنسان المتنامية، وبين الفكرة الطارئة في عقل بشري واستجابة الوجود الطبيعي لها. الأمر المدهش الذي تجلى لي في مشهد عادي؛ هو العلاقة بين الفكرة النظرية التي لمعت في ذهن المخترع واستجابة الطبيعة للفكرة، وانفتاحها على الابتكار. والأمر المعجز بدا في توافق الفكرة والحاجة مع قوانين الطبيعة التي تفاعلت مع الحاجة واستجابت للفكرة!

هذه الإشراقات الروحية تكررت كذلك لدى تأملي الطائرات تتحرك عالياً في الجو، وتقلع بهدوء حاملة على متنها عشرات الأطنان من الركاب والبضائع. ورغم إدراكي لآليات تحرير الطاقة الكامنة في الوقود المشتعل، وتحويل الحركة الدورانية إلى خطية، ومعرفتي بالقوانين الطبيعة التي تفسِّر تلك الظواهر، إلا أن حالة "التسخير" و "التيسير" كانت تتجلى أمامي بارزة

لتملأ كياني بالدهشة، كما امتلأت في تلك الليلة المشهودة من ليالي بلودان، وأنا أحدق في الكون الفسيح، وأشعر بأني مشدود إلى مركب صغير يسبح في فضائه الأزلي. ثمة شيء متعال عن ظواهر الطبيعة، كنت أردد في نفسي، يجعل آليات الحركة التي تحول المادة الجامدة إلى وسيلة متحركة على الأرض وفي الجو أمراً خارقاً ومذهلاً، ويجعل استجابة الطبيعة لاحتياجات الإنسان المتنامية شيئاً رائعاً يقارب في روعته ظاهرة "الإعجاز".

الشعور بالروعة والإعجاز بمظاهر الوجود أشعرني بحضورٍ روحيٍّ كامن خلف مظاهر الوجود. بدت مظاهر الروعة والإعجاز متناثرة حولي في كل مكان.. كنت أرقبها في أبسط مظاهر الحياة اليومية، مثل عمليات التنفس والهضم التي تجري بعيداً عن وعينا المباشر برتابة واضطراد، يجعلنا غافلين عنها على مدار الساعات والأيام والسنوات، فلا نستشعر أهميتها ودقّتها وتعقيدها إلا عندما تبدأ هذه العمليات التي تجري بعيداً عن وعينا وإرادتنا بالاضطراب بسبب أمراض صحية طارئة على أجهزة الهضم والتنفس، أو الجهاز السمعي أو البصري أو العصبي. معجزة الحياة كانت بالنسبة لي هي ذاك التاج الخفي الذي نحمله على رؤوسنا، ونحن نستمتع في كل حين بالهواء الذي نستنشقه بسهولة، والطعام الذي نستسيغه بيسر، دون أن نراه أو يراه غيرنا من الأصحاء، حتى إذا حلَّ المرض وفقدنا نعمة الصحة، تجلى التاج الخفي بوضوح أمامنا، وأدركنا النعمة التي أخفاها اضطراد وجودها اليومي. الشعور بمعجزة الحياة هو الأصل الذي غيَّبه الاضطراد والعادة، سواء نظرنا إليها من خلال الوعي بالقوى الفطرية الكامنة في وجودنا النفسي المعقد، أو تأملنا فيها على صعيد الشروط الطبيعة والعضوية، أو خبرناها على مستوى القوى الاجتماعية والظروف التاريخية التي تتراكب لتسمح بنمو الحياة الفردية والجمعية نحو مستوى أعلى من الأداء والتحكم يتوافق مع تزايد الحاجات والتحديات.

مع بلوغي الحلم بدأ سؤال آخر يعاودني بين الفينة والأخرى: سؤال الموت وما بعده. الموت بدا لي في مراحل طفولتي وضعاً عجيباً، لا يقل في

حجمه وأثره عن حجم الحياة التي نشعر بلحظاتها فجأة بعد أن كنا في عالم الغيب وخلف مظاهر العدم. رغم صغر سني في تلك المرحلة، وانعدام الخبرة والقدرة على التحليل والتركيب الدقيق؛ فقد كان الموت أمراً عجيباً ومحيِّراً. لحظات مختلفة دفعتني لتأمل الموت مرات عديدة قبل دخولي المرحلة الجامعية. اختبرته يوم توفي جدِّي لأمي، وعلمت بموته مصادفة من ابن عمي. دفعني فضولي يومئذ إلى الذهاب إلى بيت جدي القريب، صعدت درج البناء بسرعة لأرى جثمانه مسجى في وسط المنزل، وخالاتي جالسات من حوله موشحات بالسواد.. واختبرته عندما عدت من مخيم صيفي ليعلمني والدي أن جدي قد توفي أثناء غيابي، فأعانق والدي وأجهش بالبكاء حزناً على فقدان الرجل الهادئ الوديع؛ الذي كان يغمرني بعطفه وحنانه.. ثم اختبرته عند وفاة خالة والدي التي يقع منزلها على الجانب الآخر من الشارع الذي نقطنه.. دخلت الغرفة التي تمدد فيها جثمانها، بفضول الفتى اليافع الذي أدهشه موت إنسان امتلأ بالأمس حياة.. وجلست إلى جوارها لحظات مودعاً، أتأمل محياها بعد أن فارقت الحياة، وأتساءل في حيرة: ما الذي تغيَّر؟ هي مسجاة أمامي على أريكة وكأنها تغطُّ في نوم عميق، ولا يشعرني بموتها إلا أزهار الياسمين تغطي فمها الساكن، وبكاء من أحبتهم وأحبوها وألفتهم وألفوها يتصاعد من الغرفة المجاورة. نعم ما الذي تغير؟ وأين ذهبت الحياة المفعمة التي عاشتها؟ أين مضت تلك الحياة تاركة وراءها جسداً لا زال يحمل ملامحها، ولكنه يفتقد العنصر الجوهري والأساسي الذي يجعل لهذا الجسد قيمة ومعنى؟

تأملت الموت مرة أخرى عندما عملت أميناً للمستودع، خلال العطلة الصيفية للسنة الدراسية التاسعة، في صيف عام (1969)، في مشروع تعهدته الشركة الهندسية التي كان والدي شريكاً فيها، شركة صافي وقطمة وعيسى، تأملي للموت في هذه المرة كان في سياق مختلف تماماً، سياق الصراع الدموي بين سورية وإسرائيل، وسياق الغارات الإسرائيلية على سورية التي تكررت منذ حرب حزيران (1967)، وحتى بدء عملية السلام عام (1973). كان

الموقـع الهنـدسي قريبـاً مـن معسـكرات قطنـا العسـكرية، ووقعـت الغـارة عـلى حـين غـرة؛ إذ لم تكـن هنـاك حـرب رسـمية مشـتعلة بـين سـورية وإسرائيـل. حـوالي منتصـف النهـار سـمعت صـوت طائـرة عسـكرية غريبـة غـير معتـادة، وتابعتهـا بنظـري وهـي تمـرُّ فـوق المهاجـع العسـكرية؛ التـي لم تكـن تبعـد عنـي أكثـر مـن ميـل واحـد في وسـط واد ممتـد تحـت أنظـاري، ثـم تلتـف وتعـود في حـال الانقضـاض، وتلقـي بصورايـخ موجهـة أشـعلت المهجـع الممتـد أمامـي في بطـن الـوادي، وانتشـرت مـع حطامـه جثـث جنـود تطايـرت نحـو عنـان السـماء.. قفـزت في حفـرة مخصصـة لأساسـات البنـاء ومكثـت فيهـا لحظـات حتـى توقفـت الانفجـارات المتلاحقـة، وعندمـا رفعـت رأسي رأيـت مشـهد الجنـود الناجـين مـن جحيـم القصـف يركضـون بعيـداً في كل اتجـاه، خـلال دقائـق حـضر والـدي إلى مـكان عمـلي ليحملنـي معـه بسـيارته عائـداً إلى المنـزل، وليكـون ذاك اليـوم نهايـة عمـلي الصيفـي لـذاك العـام.

لكـن اللحظـة المتميـزة لتأمـلي في المـوت جـرت بعـد سـنوات ثلاثـة مـن تلـك الحادثـة، لـدى سـماعي خـبر وفـاة الشـيخ عبـد الكريـم الرفاعـي.. لم أكـن أعـرف الشـيخ شـخصياً، ولعـلي رأيتـه مـرة واحـدة مـن بعيـد وهـو يلقـي درسـاً في مسـجد زيـد بـن ثابـت؛ الـذي أسَّسـه، وإليـه ينسـب أتباعـه فيسـمون جماعـة زيـد. سـمعت بخـبر وفاتـه بعـد حياتـه الطويلـة المليئـة بالجـد والعمـل في خدمـة الرسـالة التـي آمـن بهـا، فشـعرت بـشيء مـن الغبطـة عـلى مـا أعطـاه الله مـن فرصـة للتقـرب منـه. وأذكـر أننـي تأملـت في العمـر الـذي تـوفي فيـه، والعمـر الـذي وصلـت أنـا إليـه، ووجـدت أن الحيـاة تمتـد سـنوات طويلـة بـدت في ذاك العمـر اليافـع دهـراً.. شـعرت في تلـك اللحظـة بشـوق عجيـب لاختبـار المـوت والانتقـال إلى حيـاة أبديـة خالـدة بعيـداً عـن تحديـات الحيـاة وتنغيصاتهـا. لا أذكـر الآن سـياق اللحظـة التـي كنـت أمـر فيهـا، ومـا الـذي دفعنـي في تلـك اللحظـات إلى اسـتعجال المـوت، وأنـا في ريعـان شـبابي لم أختـبر مـن الحيـاة إلا القليـل؟. لا أسـتطيع الجـزم الآن، فلعلـه لم يكـن تعجـلاً، بـل رغبـة في تجـاوز تحديـات الحيـاة جميعـاً في لحظـة ذهنيـة تضعنـي في نقطـة النهايـة. مـا أسـتطيع أن

أجـزم بـه اليـوم هـو أنني كنـت أستشـعر المسـؤولية الوجوديـة التـي تحملتهـا يـوم أدركـت طبيعـة رحلـة الحيـاة التـي كنـت أختبرهـا كل يـوم. كنـت أتـوق في تلـك المرحلـة المبكـرة إلى الوصـول إلى نهايـة الرحلـة بأمـان، بعيـداً عـن فتـن الحيـاة والمسـالك التـي يمكـن أن يسـلكها الفـرد فتـودي بـه إلى نهايـة لم يمكـن يتوقعهـا أو يرغـب بهـا. نعـم كنـت أستشـعر في تلـك المرحلـة المبكـرة بثقـل المسـؤولية وعظـم التكليـف، وكنـت كذلـك أدرك مخاطـر الرحلـة وتقلبـات الطريـق، وتتابـع العثـرات والمطبـات. كنـت أدرك بحـدس النفـس الغضـة مخاطـر الانقيـاد وراء الأوهـام والأمـاني والنـزوات، في رحلـة تمتـد امتـداد العمـر، ويتحـدد خلالهـا مصيرنـا الأبـدي بنـاء عـلى خيـارات نلتقطهـا تحـت ضغـوط الرغبـة والخـوف والكسـل والغفلـة والنـزوة.

في لحظـة مـن لحظـات إشراق الـروح، واسـتشراف التحديـات والمخاطـر، واستشـعار الرغبـات والمخـاوف والمعوقـات، في تلـك المرحلـة الغضـة مـن حيـاتي، المتميـزة بالـبراءة والصـدق والعفويـة، توجهـت إلى الله بقلـب ملـؤه التسـليم والرجـاء، ودعـوت دعـوة صـادرة مـن القلـب ومتجهـة إلى العليـم الحكيـم. لا أذكـر بالتحديـد متـى كانـت تلـك اللحظـة التـي أصفهـا اليـوم عـلى هـذه الصفحـات، كانـت بالتأكيـد في لحظـات بـدء الرحلـة، وبـدء وعـي الـذات، وبـدء الشـعور بالمسـؤولية. وأغلـب الظـن أنهـا كانـت خـلال محـاولاتي الجديـة الأولى للبحـث عـن الـروح والمعنـى، والسـعي لبـدء رحلتـي الفكريـة والوجدانيـة والوجوديـة. مـا أذكـره بوضـوح أن اللحظـة كانـت لحظـة رجـاء وعهـد، انطبعـت عميقـاً في نفسـي، ولازمتنـي عـلى امتـداد الطريـق. كانـت لحظـة رجـاء بالعـون عـلى تحقيـق الرضـا وإتمـام الرحلـة بصـدق وإحسـان، ولحظـة عهـد عاهـدت خلالهـا العليـم اللطيـف الدَّيـان عـلى تسـليمي بالقسـمة التـي اختارهـا، ورضـاي بالأقـدار التـي كتبهـا، واسـتعدادي لتحمـل الصعـاب والآلام طالمـا انتهـت بي السـبيل إلى تحقيـق الرجـاء بالقـرب منـه، وبحيـاة الحريـة المطلقـة التـي يتوافـق فيهـا الهـدف والطريـق، والرغبـة والواقـع، التـي وعـد بهـا المقربـين بعـد انتهـاء الرحلـة الأرضيـة وبـدء الرحلـة الأبديـة!

2

عنفوان الشباب وأنين الروح

(1970 – 1980)

كانت سنوات الدراسة الثانوية مفعمة بالحركة والنشاط والبحث عن الذات والمعنى، وكانت كذلك سنوات الاضطراب والصدام والتقلب بين الفشل والنجاح، وبين الخيبة والأمل، وبين التشدد والتساهل، وبين التجربة والخطأ. بعد حصولي على شهادة الكفاءة في نهاية المرحلة الإعدادية انتقلت إلى مدرسة ابن خلدون الملاصقة لجودت الهاشمي. كانت المدرستان تشغلان مبنى واحداً هو مبنى مدرسة التجهيز الأولى، ويفصل بينهما جدار صغير. ورغم وجود دراسة ثانوية في مدرسة جودت الهاشمي إلا أنني آثرت الانتقال إلى المدرسة المجاورة نظراً لسمعتها في توفير تعليم أفضل.

في الصف العاشر تعرفت على أصدقاء جدد ربطتني بهم صداقة امتدت لسنوات طويلة. من الأصدقاء الجدد الذين التقيتهم في ثانوية ابن خلدون يمان فرعون وخالد ذو الغنى وخلدون صبري. جمعتنا المدرسة ولكن لم تجمعنا الاهتمامات الدراسية، بل لحظات اللهو والاستجمام. فكنا نمضي أوقاتاً طويلة معا نتسكع في الطرقات والمطاعم، ونذهب برحلات إلى المنتجعات المحيطة بدمشق كالزبداني وبلودان. وكنا نغادر المدرسة أحياناً لتناول الإفطار في مطاعم قريبة لنعود قبل انتهاء الدوام. وكنا نستفيد من علاقات شخصية بالبواب الملقب بأبي الريح. وكان يقطن في منطقة عين الكرش قريباً من منزل صديقي رئيف شكري. وكان رئيف من أقرب

الأصدقاء إلي لفترة طويلة، وكان يدرس في مدرسة خاصة، ويقيم مع والدته وأخويه في قبو صغير في حي عين الكرش. كان والده رفيق شكري مطرباً مشهوراً في دمشق، توفي عندما كان رئيف طفلاً صغيراً، فشب برعاية أمه في قبو صغير مع ثلاثة إخوة. وكان رئيف كوالده يحب الموسيقا، وأجاد بعد سنوات العزف على آلة الطبل المركب، والتي تتألف من عدد من الطبول الصنجات التي يعزف الموسيقي عليها بالتوازي.

المرحلة الثانوية كانت فترة اختبار لجوانب متعددة من جوانب الحياة، ومرحلة تكوين شخصيتي وتطوير اهتماماتي التي رافقتني في المراحل اللاحقة من حياتي. ومرحلة تمرد على القواعد الاجتماعية والأعراف الدمشقية التي كانت تقدم الشكل على المضمون، وترفع التزلف والمجاملة والشطارة على الصدق والصراحة والعطاء، وترجح الخضوع لسلطة "المعلم" (بالمعنى الواسع لاستخدام السوريين للكلمة، والمكافئ لصاحب الأمر والسلطة) على العمل بالقناعات الذاتية. ميلي لتحدي الممارسات السلطوية العشوائية، سواء ارتبطت بسلطة الأب أو المدرِّس أو الموجِّه، وجرأتي على التصريح برأيي ومواجهة من يخالف قناعاتي، حمل الموجِّه في صف العاشر على تكليفي بأن أكون عريفاً للصف! فتوظيف ذوي الشكيمة في مسائل ضبط السلوك العام ينطوي على شيء من الغرابة، لكنه أمر حاصل ومألوف. وكانت مهمة العريف مساعدة الموجِّه على ضبط سلوك الطلبة، وإبقاء الصف هادئاً بين الحصص الدراسية. وكنت أجيد تلك المهمة بامتياز، ولكن تغيبي عن الصف، وخروجي المتكرر من المدرسة دون إذن، واعتمادي على نائب عريف اخترته ليقوم بمهمتي أثناء تغيبي، أدى في النهاية إلى عزلي من تلك المهمة. ولعل السبب الأهم لعزلي من مهمة قيادية في المدرسة يعود لرفضي الالتحاق بشعبة اتحاد الطلبة التابعة لحزب البعث الحاكم.

صداقات متعددة

ترتبط المرحلة الثانوية بذكريات عديدة متداخلة وصداقات متعددة، وانتماءات متباينة إلى مجموعات من الأصدقاء ينتمون إلى طبقات اجتماعية

مختلفـة، وإلى أحيـاء دمشـقية متباعـدة. كان لـدي شـلة مـن الأصدقـاء ينتمـون إلى العائـلات الدمشـقية الميسـورة المقيمـة في أحيـاء الروضـة وأبـو رمانـة والمالكـي، أذكـر منهـم: معـن الخجـا وبـشر الخرسـا ومحمـد الموصلـلي ومنـار الحجـار. وشـلة مـن حـي بـاب مُصـلى الشـعبي أذكـر منهـم خلـدون ذو الغنـى وحسـن أوضابـاشي. ومجموعـة مـن أصحـاب الحـرف المقيمـين في حـارة قـبر عاتكـة. ومجموعـات أخـرى مـن الأصدقـاء في مناطـق الميـدان والشـيخ محـي الديـن والمـزة والحلبـوني. وشـلة أخـرى تلازمنـي في بلـودان خـلال العطلـة الصيفيـة. بالإضافـة طبعـاً إلى شـلة الحـارة، والتـي كانـت تمـضي أوقاتهـا في مجالـس السـمر وتبـادل الأحاديـث، ومشـاوير ترفيهيـة إلى المصايـف والمنتجعـات، وبعـض الصراعـات مـع شـلل مـن حـارات أخـرى. كان زعيـم شـباب الحـارة دون منـازع رافـع الصـواف، وهـو شـاب متـين الجسـم جـريء مقـدام، وكان يتقـدم الجميـع عنـد قيـام خلافـات مـع شـباب مـن حـارات مجـاورة. وكانـت المجموعـة تضـم عـشرة شـباب منهـم عـماد الصـواف، الأخ الأصغـر لرافـع، وأيمـن الصـوفي وعدنـان أبو قـورة وناظـم الأيـوبي وعبـد القـادر الشيشـكلي، وآخريـن لم أعـد أذكـر أسـماءهم.

بعـض أصدقائـي كانـوا ينتمـون إلى أُسر متحـررة والبعـض الآخـر إلى أسر محافظـة. كانـت لقـاءاتي مـع بعـض الأصدقـاء تتصـف بتبـادل الحديـث عـن آخـر التقليعـات وأحـدث السـيارات والأغـاني الغربيـة وقصـص البنـات والشـباب، في حـين كانـت لقـاءات أخـرى ترتبـط بنقاشـات دينيـة وأخلاقيـة وتاريخيـة، وأخـرى تـدور حـول قضايـا الفلسـفة والسياسـة والفكـر. هـذا التداخـل العجيب والتنـوع الكبـير كان يتتابـع عـلى فـترات مختلفـة تميـزت بالتناقـض والتقلـب مـن حـال إلى حـال، خـلال دراسـتي الثانويـة وسـنوات الجامعـة الأولى، قبـل أن تأخـذ الحركـة المكوكيـة الشـبيهة برقـاص السـاعة منحـى متوسـطاً، وبعـد جهـد للبحـث عـن الوسـط المعتـدل المتـوازن في نهايـة سـنوات الجامعـة، ثـم بعـد انتقـالي إلى الولايـات المتحـدة في منتصـف الثمانينيـات مـن القـرن المـاضي.

بدايـة سـنوات الدراسـة الثانويـة ترافـق مـع التحـرر مـن كل الممنوعـات والمحظـورات التـي تعكـس الحيـاة الدمشـقية التقليديـة، في تحـدٍّ كامـل للأعـراف التـي فرضتهـا البيئـة الاجتماعيـة، وللحـدود التـي وضعتهـا الأسرة الصغـيرة.

هـذا التمـرد كان انعكاسـاً لغيـاب التوجيـه الأخلاقـي العميـق، والإصرار على اتباع التقاليد الاجتماعية المتوارثة. شكّل سلوكي في تلك الفترة تمرداً على كل موروث لا يقوم على قناعة واضحة. ولكنه من ناحية أخرى كان - كما أعتقد اليوم حين أتأمل تلك اللحظات - جهد للتغلب على الخجل والخوف من مخالفة المألوف، وتمرد على الرغبة في إرضاء الناس المغروسة في وعي الأجيال المتعاقبة من أبناء الشام. كنت في تلك المرحلة؛ مرحلة بناء الشخصية؛ أسعى إلى التخلص من جملة من المثالب والعيوب، في مقدمتها الخجل والخوف. وهذا ما دفعني أيضاً إلى الزج بنفسي في مواقف تتطلب الدفاع عن الذات، ومواجهة الشباب المتنمِّر الساعي إلى التسلط على الآخرين. ودفعني أيضاً إلى تطوير لياقتي الجسدية، وتحصيل مهارات وفنون القتال الحرّ مثل (الجودو) و (الكراتيه). بدأت بتعلم (الكراتيه) في الصف الحادي عشر، وأتقنت اللعبة إتقاناً كبيراً، ثم مارست رياضة (الجودو) بالتوازي معها، وبقيت أمارس تلك الرياضة خلال السنوات الجامعية، ولم أتوقف إلى بعد سفري للعمل في السعودية.

تعلم فنون الدفاع عن النفس كان ضرورياً بالنسبة لي، على الرغم من طبيعتي المسالمة وكرهي للمواجهة خلال سنوات طفولتي، وهي طبيعة ورثتها عن والدي. ولكن أجواء دمشق، وغياب النظام ودولة القانون، وجنوح شباب الشام إلى الصراع لحل الخلافات الشخصية دفعت بي إلى اكتساب المهارة الضرورية لمنع تسلط الأقران. قدراتي على التغلب على الخصوم ومهاراتي في فنون القتال أدخلت رهبة في قلوب المتنمرين في الجوار، وكان لها أثر واضح في تجنيبي الكثير من المواجهات، بعد عدد قليل من التجارب أقنعت أقراني بأن التنمر والتهديد بالعنف طريق مسدود، كما جنبت إخوتي المضايقات والتحرشات التي كانت مألوفة في شوارع دمشق. المبدأ الذي ألزمت نفسي به هو مبدأ مزدوج في ألا أسعى إلى المواجهة، وأتجنب العدوان، وألا أتهرب في الوقت نفسه من المواجهة إذا فرضت علي مهما كان شأن الخصم. العديد من المواجهات والصدامات التي خضت فيها ارتبطت بتجاوزات القواعد والحقوق والأصول الاجتماعية المعروفة، مثل حالات

تجاوز الدور عند الأفران والمراكز التموينية المنتشرة، حيث بدأت الشام في تلك الآونة تعاني من سعي بعض العاملين في المؤسسات العسكرية والأمنية إلى توظيف موقعهم للحصول على امتيازات شخصية. كانت المواجهات لا تخلو من الخطورة، وكانت تستدعي في بعض الأحيان تدخلاً من الأجهزة الأمنية المتراخية. لكن استعدادي للوقوف في وجه المتجاوزين كان مجدياً وفعالاً؛ لأن كثيراً من المتنمرين كان يتراجع أمام شكيمتي وإصراري، ظنّاً منهم أني أحتمي بمنصب أو أنتمي لأسرة أحد المتنفذين في الدولة. في حين لم أكن أتسلح آنذاك سوى بمبادئ آليت على نفسي اتباعها، وشعور عميق بتساوي الناس في الكرامة، ويقين بضرورة مواجهة المتسلطين والمتنمرين حفاظاً على احترام الذات، ورفضاً للخضوع والخنوع.

لازمني في الصف العاشر والحادي عشر صديق يسكن في منطقة الحلبوني الشعبية اسمه خلدون صبري، وكان يشاركني المقعد الدراسي الذين كنت أجلس فيه في مؤخرة الصف، كما شاركني التسكع كل يوم في شارع أبو رمانة القريب من المدرسة. كنا نخرج يومياً من المدرسة من نافذة علوية في الصف، وأحياناً من الباب الرئيسي بوساطة البواب (أو الآذن كما كنا نسميه)، الذي كان مكلفاً بمنع دخول وخروج الطلاب أثناء دوام المدرسة الرسمي. كنا نذهب لتناول الإفطار في أحد المطاعم القريبة من المدرسة خلال بعض الحصص الدراسية "المملّة"، لنعود بعد ساعة أو اثنتين إلى المدرسة لحضور حصص أخرى. كان خلدون يلازمني في تلك الجولات دون انقطاع، وكان سعيداً بالخروج من المدرسة في أي لحظة أدعوه فيها للخروج، وكان قليل الكلام لا يحدثني في أغلب الأوقات إلا إذا حدثته، وكثير التبسم فلم تكن الابتسامة تفارق شفتيه. وكان يشاركني ضعف الاهتمام بالدراسة، والرغبة في مغادرة المدرسة كلما سنحت الفرصة. وكنا أحياناً نعود إلى منزلي في الروضة؛ الذي يبعد عن المدرسة مسافة عشرين دقيقة سيراً على الأقدام. وكان المنزل خالياً أثناء أوقات الدوام، وكانت الوالدة تعمل موجِّهة في ثانوية للبنات قريبة من بيتنا. فكنا نتناول الطعام ونشرب الشاي ونستمع إلى الأغاني، قبل أن نعود أدراجنا إلى المدرسة، دون أن تقف بيننا وبين

الدخول عوائق كثيرة؛ فكنا ندخل كما خرجنا من الباب الرئيسي أو من النوافذ العلوية خلال فترات الاستراحة وبين الحصص الدراسية. كان المقعد الأخير من الفصل هو مقعدي المفضل، ولا أذكر أنني جلست في مقعد في مقدمة الفصل طوال حياتي الدراسية. كانت المقاعد الأخيرة تخصص لأكثر الطلاب طولاً وأقلهم مشاركة وأكثرهم شغباً.

لم أكن كثير الاهتمام بالعلم والدراسة خلال مراحل التعليم الأولى، على الرغم من أنني كنت شغوفاً بالقراءة والاطلاع على مواضع شتى خارج دائرة المدرسة والواجبات المدرسية. لم تكن المناهج المدرسية تربط المعرفة بالواقع، وكانت المواد تعرض بصورة آلية رتيبة دون تقديم تطبيقات عملية إلا في القليل النادر. ولم يكن أسلوب التدريس شيقاً، فكان الأستاذ يكتفي بالمحاضرة وتكليف الطلاب بكتابة بعض الواجبات. كان عدد الطلاب في الفصل الواحد كبير، بمتوسط الخمسين طالباً في المرحلة الثانوية و(600) طالباً في السنوات الجامعية. وكنت أشرد كثيراً أثناء إلقاء المحاضرة، وأستغرق في التفكير وإطلاق العنان للخيال، لأجد الأستاذ قد قطع شوطاً في المحاضرة يحول بيني وبين المتابعة، فأعود إلى شرودي وخيالي. الكتاب المدرسي كان متواضعاً، يكاد يخلو من الصور التوضيحية والجداول البيانية. الاستثناء الوحيد كان كتاب في الصف العاشر، خصص لاستعراض التاريخ الأوربي خلال عصرَي النهضة والأنوار؛ كان الكتاب على غير العادة مليئاً بالصور الملونة والخرائط المتقنة، وسرد ممتع يجمع بين الرواية التاريخية والتحليل النفسي للقادة والعلماء والفنانين الأوربيين. كانت أيضاً تراودني في تلك المرحلة فكرة طريفة حولَ قِصَر الحياة، وشعور عميق لدي بأن الحياة العملية والفعلية تنتهي في سن الرابعة والثلاثين إلى الأربعين، وبالتالي قناعتي بأنه لا معنى لإضاعة الحياة خلف الكتب وداخل الغرف! تبدو اليوم هذه الفكرة سخيفة ومضحكة؛ لأن أكثر لحظات حياتي أثراً وتأثيراً ارتبطت بأحداث جاءت بعد بلوغي الرابعة والثلاثين. وهي طريفة طبعاً اليوم عندما أتذكر المثل الأمريكي الذي تعلمته بعد انتقالي إلى الولايات المتحدة الذي يقول: "تبدأ الحياة بعد سنِّ الأربعين"!

التمرد على القيود والأعراف

وبغضِّ النظر عن شعوري اليوم، فقد ازددت قناعة مع انتقالي إلى الصف الحادي عشر بأن الدراسة عبث، وأنها غير ذات جدوى، وبدأت فكرة البحث عن عمل بعيداً عن الدراسة تداعب خيالي. ويبدو أن والدي شعر أيضاً بإهمالي لدروسي، فدعاني عند اقتراب نهاية العام الدراسي للجلوس معه للحديث عن دراستي ومستقبلي، وأعلمني أنه لا يتوقع نجاحي في هذا العام، وأن تغيبي عن المدرسة وإهمالي لواجباتي سيحولان بيني وبين النجاح في المدرسة. ويبدو أنه تواصل مع أساتذتي وموجهي، وتلقى منهم بعض المعلومات عن أدائي المتهافت في المدرسة. ومن المحتمل أن نائب المدير؛ الأستاذ شفيق السادات، قد أبلغه شخصيّاً بوضعي الدراسي، وكان أحد المربين القديرين، وكانت تجمعنا به قرابة، فآل السادات من أخوال والدتي، وقد سبق أن التقى بوالدي في المدرسة عندما استدعي للتوقيع على تعهد في مسألة خلاف بيني وبين الملازم المسؤول في المدرسة. وكان خلافي هذا يتعلق ببرنامج تدريب "الفتوة" شبه العسكري؛ الذي أدخله حزب البعث إلى المدارس. فكنا نذهب إلى المدرسة بلباس (خاكي) موحَّد شبيه بلباس الجيش، وكنا نتلقى حصة تدريب أسبوعي على أساليب الانضباط من وقوف وسير واستخدام للبندقية؛ تفكيكاً وتركيباً وتصويباً. المشكلة مع الملازم حصلت في يوم بارد كنت أرتدي فيه سترة عسكرية (خاكية)، ولكنها مختلفة قليلاً عن تلك التي كانت توزع على الطلبة. طلب مني الملازم عندما رآني أرتديها في باحة المدرسة خلعها وتسليمها له، وعندما اعترضت على أوامره لأن السترة عسكرية لا تختلف كثيراً في لونها عن اللباس الموحَّد، وأن اليوم بارد جداً أحتاج فيه إلى معطف سميك لتجنب البرد، طلب مني الملازم الحضور إلى مكتب مدير المدرسة، تيسير الرفاعي. وبعد نقاش قصير مع المدير، رفضت خلاله تسليم المعطف، طلب مني مغادرة المدرسة وعدم العودة إلا بصحبة والدي.

لعل من أسباب تمردي على الرموز السلطوية بكل أشكالها، سواء منها السياسي أو التربوي أو حتى الأسري، هو غياب القواعد والقوانين الواضحة، وكثرة الاستثناءات في الأنظمة الإدارية. كانت القواعد والقوانين تطبق على الأفراد العاديين، ويستثنى منها أصحاب النفوذ والسلطة ومن لفّ بهم من أقارب وأصدقاء. هذا التطبيق الانتقائي للقوانين والقواعد جعلني أشعر بأن الأوامر عشوائية غير مقنعة، ولا تستحق لذلك التنفيذ. هذا الوعي المبني على تناقض الواقع والمثال لا زال موجوداً في المجتمع السوري، وهو سبب أساسي في تمرد السوري على السلطة وتجاهله للقواعد والقوانين. السوريون أيضاً أكثر الناس تهرباً من تطبيق القوانين الإدارية، وأشدهم إصراراً على أن يكون القانون مفهوماً ومقنعاً ومرتبطاً باحتياجاتهم. أنا بطبيعة الحال لا أبرر هذا السلوك لأني مقتنع اليوم بأهمية تطبيق القانون لتطور المجتمع حتى في حال حدوث تجاوزات محدودة، ولكنني مقتنع أيضاً بأن القانون يجب أن يتوافق مع الأعراف السليمة، وأن يطبق دون خوف أو تفضيل لفئة من الناس. أنا مقتنع كذلك أن خروج البعض العلني عن القوانين التعسفية استنكاراً لها، وسعياً لتغييرها، ضرورة أخلاقية.

لم أنتقل في نهاية العام إلى الصف الثاني عشر مع بقية زملائي تماماً، كما تنبأ والدي. لم أنجح لأنني لم أدرس ولم أتقدم إلى الامتحانات الأخيرة، وحققت بذلك نبوءة أبي. نعم أعطاني والدي الرخصة بعدم النجاح لأنه تنبأ بسقوطي في الامتحان وتوقع فشلي. ما لم يخطر على باله آنذاك أن الأولاد يسعون دائماً لتحقيق آمال والديهما فيهم، وأنهم يرتفعون غالباً إلى مستوى التوقعات، وأن انخفاض مستوى التوقع إلى درجة الصفر سيؤدي إلى انخفاض الجهد المبذول إلى نفس المستوى. لا أشك بطبيعة الحال بأن أبي أراد تحفيزي على الدراسة بتخويفي من الرسوب، ولكنه لم يتنبه، رحمه الله وأجزل له العطاء، إلى العلاقة بين سلوك الأبناء وتوقعات الآباء. سنوات من الدراسة والتجربة والأبوة علمتني بأن التأكيد على الجوانب الإيجابية، ورفض التفكير السلبي في علاقة الآباء بأبنائهم ضروري لرفع أداء الأبناء، وأن توقع النجاح والتفوق يشكل حافزاً أساسياً للأبناء لمجاراة آمال الآباء

وتوقعاتهم. هذه القناعة لا تتوقف على تجربتي الذاتية، أو تجربتي مع أبنائي، ولكنها أيضاً تستند إلى مبادئ علم النفس، وما دلت عليه الدراسات من العلاقة بين السلوك والتوقعات، وما كشفته الأبحاث حول نظرية "النبوءة ذاتية التحقق". تجاهل الامتحان النهائي للصف الثاني الثانوي، واختيار الرسوب على النجاح عكس موقفي النفسي وقناعتي التي تشكلت في وعيي آنذاك بأن الدراسة وتحصيل العلم ليس أمراً أساسياً، وأن اختيار مهنة عملية لكسب العيش خيار أفضل من متابعة التحصيل العلمي. وفعلاً فكرت جديّاً بترك الدراسة، وأعجبت بفكرة العمل على جلب سيارات من ألمانيا وبيعها في سورية؛ لأنها جمعت بين أمرين محببين لي: السفر وقيادة السيارات. ثم تراجعت عن تلك الفكرة لأسباب تتعلق بقيود السفر في تلك المرحلة لفئة الشباب، وصعوبة الحصول على جواز سفر لمن لم يؤدِّ الخدمة العسكرية. وساهمت نصائح الأهل والأقارب والأصدقاء في إعادة التفكير في خياراتي. إحدى النصائح التي تلقيتها جاءت من خالتي نهى، في إحدى زياراتي إلى منزل جدتي، رحمها الله تعالى، كنت جالساً على مقعد في غرفة الجلوس، فأثير موضوع مدرستي وتحصيلي العلمي ومتابعة دراستي، فنظرَتْ إلي خالتي نهى وهي جالسة على المقعد المقابل وقالت:

- يؤسفني أن أرى شابّاً متميزاً مثلك يضيع مستقبله!

لم يعجبني كلامها، ولكنني شعرت بالتحدي، فقلت لها:

- مستقبلي لا يتوقف على التعليم. هناك فرص كثيرة لصنع المستقبل.

لم تتفق مع منطقي المتهرب من مواجهة المسؤولية الراهنة، فأجابت:

- لديك اليوم فرصة لاكتساب شهادة علمية.. اغتنمها ثم ابحث عن الفرص العملية.

لم أظهر اكتراثاً بالكلام الذي سمعت، ولكنه بقي محفوراً في ذاكرتي إلى هذه اللحظة، رغم مضي عقود عديدة. أرجح أن خالتي ربما نسيت العبارة تلك، كواحدة من العبارات المقتضبة التي تقال ثم ينساها قائلها، ولكنها تبقى راسخة في عقل من سمعها وتفاعلت معها نفسه، وبقيت تلامس

مشاعره أسابيع وشهور قبل أن تبدأ بالتأثير في تفكيره وسلوكه. النصيحة العابرة التي تقال بحرص وصدق تفعل فعلها بعد أن تحتضنها النفس كبذرة تنمو ببطء؛ لتثمر وتؤتي أُكلها بعد حين. نسيت خالتي الجملة ولكن معانيها بقيت محفورة في ذهني، بما حملته من ظلال رقيقة نفذت إلى أعماق الروح، وما تضمنته من معانٍ حيوية حركت مكامن الذات، معاني الشباب والمستقبل والتميز والضياع.

ليس لدي تفاصيل أستحضرها لأحداث السنة التي أعدت فيها دراسة مقررات الصف الحادي عشر، ولكنها كانت بالتأكيد من السنوات التي عشت فيها حالة ضياع وغياب الهدف الواضح. ولعل مشاعر الحزن التي رافقتها أبعدت العديد من تفاصيلها من ذاكرتي. أذكر حدثاً واحداً وقع لي في شتاء ذاك العام، وتحول إلى صدمة أخلت بتوازني النفسي، بعد لقاء فاشل مع فتاة أعجبت بها من أب سوري وأم روسية، من سكان حي أبو رمانة القريب من منزلنا. لم تكن محاولة التقرب من تلك الفتاة مرتبطة بمشاعر عاطفية، بقدر ما كانت رغبة لاكتشاف قدرتي على التواصل مع فتاة غريبة، والتغلب على مشاعر الخجل والارتباك من صداقات لم أعتدها مع الجنس الآخر. لم تكن البيئة الدمشقية المحافظة التي نشأت فيها تُشجِّع على تقارب الشباب والفتيات ضمن مؤسسات اجتماعية عامة كالمدرسة أو النادي، بل كان الفصل بين الجنسين هو العرف السائد. ولم تكن الصداقة بين الشاب والفتاة مقبولة عموماً في المجتمع الدمشقي، باستثناء الأسر التي نشأت على محاكاة أنماط الحياة الأوربية، بعيداً عن الأعراف والتقاليد الموروثة. وكانت تلك الفتاة تنتمي إلى النخبة الصغيرة من الأُسر السورية التي كانت تسمح بزيارات مختلطة. وانتهت المحاولة بالفشل بعد تجوال قصير في أحد أزقة أبو رمانة تبادلنا خلاله آراء وعبارات لم أعد أذكر مضامينها، لكنني أذكر أنها تركت أثراً سلبياً وشعوراً بالفراغ الشديد، وشيء من القلق نتيجة عدم وضوح أسباب العجز عن كسب ودِّ الفتاة وإعجابها. مع انتهاء الشتاء وقدوم الصيف انتهت السنة الدراسية، واجتزت الصف الحادي عشر إلى الصف الذي يليه دون صعوبة تذكر، ودون بذل جهد إضافي لزيادة تحصيلي

العلمـي. فكانـت غايتـي في التحصيـل العلمـي في تلـك الآونـة النجـاح، وتجـاوز السـنوات الدراسـية دون أن أعـير التفـوق الـدراسي كثـير اهتـمام.

مـررت في صيـف ذاك العـام بتجربـة غريبـة، بـدأت في إحـدى ليـالي الصيـف بشـعور بضيـق النفـس والاختنـاق أثنـاء استنشـاق دخـان سـيكارة، بعـد دقائـق مـن إطفـاء السـيكارة التـي اعتـدت عليهـا منـذ بـدء المرحلـة الثانويـة؛ حيـث كان التدخـين آنـذاك رمـزاً للنضـج والرجولـة وبلـوغ سـنّ الرشـد. هـذا الشـعور بالاختنـاق عـاودني مـن جديـد في الأيـام التاليـة، وتقاربـت حـالات الشـعور بالاختنـاق، ممـا أرغمنـي عـلى تخفيـف التدخـين. التحاليـل الطبيـة لم تظهـر أي خلـل عضـوي وراء حـالات الضيـق والاختنـاق، ممـا دفـع الطبيـب إلى اسـتنتاج أن ثمـة حالـة نفسـية أتعـرض لهـا. وبالفعـل لم تلبـث الأعـراض الجسـدية حتـى تحولـت بعـد أشـهر إلى حالـة نفسـية مـن الارتبـاك والشـعور بالضعـف وافتقـاد الثقـة بالنفـس. الاضطرابـات النفسـية اسـتمرت لأشـهر عديـدة دون تشـخيص واضـح ودون وجـود عـلاج ناجـع، بـدأت بعدهـا أميـل إلى الانطـواء وأشـعر بالقلـق وعـدم الراحـة عنـد التنقـل في الأماكـن العامـة. وتزايـدت حـالات التهاب اللوزتـين، فقـررت بعـد مراجعـة الطبيـب الخضـوع لعمليـة جراحيـة لاسـتئصالهما. وتمـت العمليـة بنجـاح، وبـدأت حـالات ضيـق التنفـس والشـعور بالاختنـاق تـزول، كـما بـدأت أسـتعيد بالتدريـج القـدرة عـلى التحـرك في الأماكـن المزدحمـة.

مـن النتائـج الإيجابيـة التـي نجمـت عـن تلـك الفـترة الصعبـة إقلاعـي عـن التدخـين، وهـو أمـر لا أظـن أني كنـت سـأفعله لـولا الأزمـة الصحيـة التـي مـررت بهـا. كان التدخـين قـد بلـغ مـن الإسراف حـده، وأصبحـت في الفـترة التي سـبقت ظهـور حـالات الضيـق أدخـن السـيكارة تلـو الأخـرى. التدخـين الكثيف بـدأ يؤثـر في صحتـي سـلباً؛ ففـي الصيـف السـابق لحادثـة الشـعور بضيـق النفـس شـعرت بالأثـر السـلبي للتدخـين عندمـا اضطـررت للركـض مسـافة طويلـة في بلـودان، بعـد مناوشـات كلاميـة تحولـت إلى صـدام، بـين أفـراد شـلة الشـباب الدمشـقيين التـي أنتمـي إليهـا وشـباب مـن أهـالي بلـودان، تـم خلالهـا تبـادل اللكـمات، وسـارعت مجموعتنـا إلى الهـروب مـن بلـودان نحـو الزبـداني عـبر

الطرق الجبلية بعد إصابة أحد أفراد المجموعة المناوئة بجروح عديدة في الوجه تسبب بها صديق لنا استخدام مقبض معدني كان بحوزته.

حنين الروح والتجربة الفاشلة

في خريف ذاك العام شعرت برغبة شديدة في زيارة المسجد، وحنين إلى إعادة التجربة الأولى التي بدأتها مع دخولي المرحلة الإعدادية بالمواظبة على الصلوات الخمس. وتواصلت مع جار لي من عمري اسمه حسان الزين، كان بيننا صداقة قديمة، بردت عندما تحول هو إلى حضور الدروس الدينية. اهتم بي حسان وقدم لي العديد من الكتب الدينية التي أثارت اهتمامي، وبدأت أقرأ كل ما تقع عليه يدي من كتابات قديمة وحديثة. كانت من عادتي عندما أهتم بأمر أن أعكف على دراسته والبحث عن مصادر معلوماته رغبة في فهم تفاصيله والإحاطة به. فعندما تعلمت رياضة بناء الأجسام بحثت عن الكتب الخاصة بها لدراسة تفاصيلها. وعندما شغلت اهتمامي رياضة (الجودو) اشتريت كتباً خاصة بها، وعكفت على دراسة مهاراتها نظرياً بالتوازي مع التمارين العملية. فهم تفاصيل الدين الإسلامي كان أمراً آخر مختلفاً تماماً. فالمكتبة الإسلامية التاريخية تمتلئ بمئات بل آلاف المجلدات. وفهم الكتابات العقدية كان يتطلب فهم مسائل فلسفية. هذا الكم الهائل من الكتب المتوفرة في المواضيع الفقهية والكلامية لم يثبطني عن التبحر لمعرفة حقيقة التعاليم الإسلامية، وأصل الخلافات الكلامية والفقهية، وأسباب تضارب الآراء. بل قادني هذا تدريجياً إلى النظر في الكتابات الفلسفية لفكِّ معاني المفاهيم النظرية المستخدمة في كتب الكلام، وفي آراء المفكرين الإسلاميين في تصدِّيهم لشبهات معاصرة تطعن في الدين، وتشكُّك في مناسبة الإسلام لتوجيه الحياة المعاصرة. رحلة البحث المعرفي هذه، التي بدأت في منتصف المرحلة الثانوية، استمرت عبر سنوات الدراسة الجامعية في كلية الهندسة المدنية في جامعة دمشق، ثم تطورت إلى اهتمام بالدراسات السياسية والفلسفية خلال تحضيري لشهادة الماجستير، ثم الدكتوراه في العلوم الاجتماعية والسياسية.

بدأت أتردد كذلك على مشايخ دمشق لاكتساب العلم الشرعي منهم، فالتزمت بحلقة الشيخ البوطي في جامع السنجقدار مدة من الزمن، أستمع إليه وهو يحاضر في كتابه الشهير (**كبرى اليقينيات الكونية**)، لكن الموضوع لم يشدني. ثم ترددت حيناً آخر على حلقته التي كان يعقدها في مسجد والده ملا رمضان البوطي في حي ركن الدين، ولكن طريقته في التعليم؛ والتي تعول على مرجعية الشيخ؛ لم تجذبني أيضاً، فتوقفت عن الحضور. هذه الطريقة التي لا تقوم على منهجية علمية ظهرت في أحد الأيام بعد انتهاء البوطي من خطبة الجمعة، وبينما كان يقف معنا في مجموعة صغيرة قبيل بدء درس التفسير، اقترب منه شاب صغير من عمري وسأله سؤالاً لا أتذكر الآن مضمونه، فلما أجابه البوطي عن سؤاله طلب منه الشاب الدليل الذي اعتمده أساساً لرأيه، فغضب الشيخ غضباً شديداً لسؤال الشاب عن الدليل، ونهره طالباً منه أن لا يعود لمثلها. ولعل غضب البوطي ارتبط برفضه للمنهجية السلفية التي كانت تصرُّ على ربط الحكم بدليل إما من كتاب أو حديث. أتفهم شخصيّاً اليوم رفض البوطي لهذا المنطق؛ لأن الدليل لا يعود دائماً إلى نصٍّ واحد من قرآن أو حديث، بل غالباً ما يعود إلى نظر في العديد منها، وإلى محاكمة تهدف إلى ربط الواحد منها بالآخر. ولكنني مع ذلك أعتقد أن من واجب العالم توضيح الأساس الذي اعتمده دون الدخول بتفاصيل الأمر، ودون الانتفاض غضباً لسؤال من طالب علم.

وترددت أيضاً على الشيخ هاشم المجذوب المعروف ببساطته وورعه، وكان يدرس الفقه الشافعي، ويدرس في مصلى صغير في سوق ساروجة، لا يتسع لأكثر من عشرة أشخاص. وكان يلقب في دمشق بالشافعي الصغير لغزارة علمه، وتمكنه في الفقه الشافعي. علمت بعد سفري من دمشق باعتقاله، حيث بقي في سجن تدمر لأكثر من عقدين، وتوفي العام الماضي في بيته. وحضرت أيضا دروساً للشيخ ناصر الدين الألباني، كان يلقيها أسبوعياً في مسجد صغير في حي المهاجرين. وكان قريباً لي من جهة الوالدة، اسمه فؤاد السادات، من رواد مجلسه فدعاني لحضور دروسه. كان يقرأ يوم التحقت بمجلسه نصوصاً من كتاب (**الترغيب والترهيب**) للمنذري، الذي

يتضمن الكثير من الأحاديث الضعيفة. وكان الألباني لا يرى بأساً من تدارس ضعيف الحديث في مسائل الترهيب الترغيب. وكان يذكر رواد مجلسه بتلك القاعدة كلما سألوا عن درجة صحة الحديث. وترددت حيناً على الشيخ عبد الغني الدقر، وكنت أزوره مع بعض الأصدقاء لسماع درس في الفقه في بيته الواقع في نهاية حي المهاجرين قرب مسجد الحمد. ورغم ترددي على بعض علماء دمشق إلا أن وسيلتي الرئيسية في فهم العلوم الفقهية والشرعية كانت بالرجوع إلى المصادر الرئيسية لها في أُمهات كتب الفقه والحديث والتفسير. درست العديد من كتب مصطلح الحديث، وعلوم القرآن والتفسير، واهتممت بدراسة علمَي الأصول والكلام.

تولدت عندي نزعة للتشدد نتيجة القراءات الغزيرة في فترة قصيرة، وافتقاد المنهجية المناسبة لاستنباط المفاهيم والأحكام، وغياب الموجه الحكيم. ولعل الأجواء الدينية السائدة آنذاك في دمشق، والتناقضات الهائلة بين الثقافة العامة والكتابات الفقهية والدينية، دفعتني إلى اتخاذ الجانب المتشدد في أجواء التفلت والابتعاد عن الدين، بل ومحاربته من قبل رواد حزب البعث المتشربين بالفكر الماركسي المعادي للتدين. فكانت أجواء التحلل ومحاربة التدين، والتضييق على الملتزمين بالصلوات، وشيوع الكفر، والإساءة للمقدسات الدينية السنية بعد تمكن العلوية السياسية في السبعينيات، تدفع الشباب إلى التشدد بعيداً عن التوجيه المعتدل. وشاعت في تلك الآونة الدعوات من الموجهين والمشايخ إلى الشباب للمواظبة على مجالس الذكر، وضرورة الابتعاد عن مجالس الغناء واللهو. فتركت أثراً سلبياً دفع بي إلى الابتعاد عن الأصدقاء القدامى، ومصاحبة الملتزمين بمظاهر الإسلام ومجالس الذكر وتدارس الكتب الدينية. هذا الاندفاع الشديد في الاتجاه الآخر، بعيداً عن حياة التساهل والتفلُّت من القيود التي عشتها سابقاً، جعلني أبتعد حتى عن مجالسة أسرتي عند وجود برامج تلفزيونية يغلب عليها المرح واللهو والغناء، وغيرها من المشاهد التي كنت أرى فيها خروجاً عن تعاليم الدين والتقاليد المحافظة العريقة. هذا التشدد في فهم الدين، والعزلة التي فرضتها على نفسي حتى عن الأهل والأصدقاء،

أتعبنـي مـع تتابـع الشـهور وامتـداد الوقـت، كـما أتعبنـي حـرص بعـض المشـايخ والموجهـين الدينيـين عـلى فـرض الـرأي الواحـد والتفسـير الواحـد في حلقاتهـم ومجالسـهم، ورفـض الكتابـات المعـاصرة الناقـدة للتقليـد الأعمـى، وحرصهـم أن تكـون لقـاءات في حلقـات خاصـة خشـية مـن بطـش نظـام البعـث الـذي لم يكـن يسـمح بمثـل هـذه اللقـاءات، ويلاحـق بعـض هـؤلاء المشـايخ والموجهـين.

بعـد عـام ونيـف مـن تبنـي نمـط حيـاة متشـدد في الملبـس والسـلوك ونوعيـة الأصدقـاء، شـعرت بخـواء روحـي، وأحسسـت بانفصـام كامـل عـن الحيـاة الفاعلـة في المجتمـع والمؤثـرة في مجرياتـه. شـعرت فجـأة، وبعـد شـهور مـن الجدّ والاجتهـاد، أن الحيـاة الدينيـة التـي أعيشـها تقـوم عـلى أشـكال خاليـة مـن المعـاني، وشـعائر خاليـة مـن الـروح. وتضافـر عامـلي غيـاب السـمو الروحـي والانفصـام عـن الحيـاة العامـة ليدفعـا بي أخـيراً إلى الهـروب مـن حالـة التشـدد هـذه. اتخـذت قـراراً في يـوم مـن أيـام الصيـف باسـتئناف الحيـاة الاجتماعيـة والأسريـة التـي اعتـدت عليهـا قبـل بـدء رحلـة الغـوص في المفاهيـم الروحيـة والدينيـة قبـل سـنة ونيـف. وأخـبرت والـدي عـن رغبتـي في ملازمـة الأسرة والالتحـاق بهـم في منتجع بلـودان. كان قـراري مفاجئـاً لوالـدي وللجميـع، فقـد كنـت أرفـض عـلى امتـداد السـنة والنصـف الماضيـة مرافقتهـم في كل نزهاتهـم إلى المصايـف والمنتجعـات.

دوران وتأرجح بحثاً عن الذات

قـراري الذهـاب إلى مصيـف بلـودان كان إعلانـاً لانتهـاء فـترة صعبـة اضطرتنـي إلى معاكسـة ثقافـة التحـرر ونمـط الحيـاة في محيطـي الأسري. ولم يكـن الخيـار سـهلاً، ولكننـي تعـودت في عمـر مبكـر عـلى قبـول الخيـارات الصعبـة التزامـاً بقناعاتي.كانـت بلـودان آنـذاك محطـة لأبنـاء الطبقـة الدمشـقية المنعمـة، ومتنزهـاً لشـبابها وصباياهـا، ومكانـاً لاسـتعراض أحـدث التقليعـات وقضـاء أوقـات خفيفـة مـن المـرح بعيـداً عـن الهمـوم والقيـود والمسـؤوليات. ولم يكـن في بلـودان مـا يذكـرني بنمـط الحيـاة الدينيـة التـي اخترتهـا خـلال السـنة والنصـف الماضيـة، وبالتـالي لم يكـن خيـاري الجديـد يتطلـب سـوى بضعـة أشـهر لعـودتي

إلى حياتي الماضية، ونسياني حياة "التعفف" والالتزام بتوجيهات الإسلام وتعاليمه! وفعلاً حصل انقلاب جديد في حياتي. فقد ابتعدت عن الأصدقاء الجدد المحافظين على تقاليد الدين، وعدت من جديد لإحياء صداقات قديمة، والتواصل مع أصدقاء نبذتهم وابتعدت عنهم لوقت طويل نسبياً. كان تحولي الجديد مفاجئاً للجميع، من أهلي إلى أصدقائي القدامى إلى أصدقائي الجدد. حاول بعض أصدقائي المحافظين التواصل معي، وزارني وفد منهم في مصيف بلودان لفهم حقيقة ما جرى، وحاولوا استرجاعي إلى جانبهم، ولكني كنت حزمت أمري، واتخذت قراري بعد طول تأمل ونظر. ولم تمض سوى أشهر قليلة حتى عدت شيئاً فشيئاً إلى عهدي القديم. حتى الصلوات الخمس التي واظبت عليها تلاشت ولم يبق سوى صلاة الجمعة.

مع انتهاء عام (1974) وبلوغي سن التاسعة عشر، أنهيت دورة كاملة من التخبط النفسي والشعوري أعادتني إلى حيث بدأت، وأنجزت نقلة تامة بين طرفين متناقضين: التحرر من التقاليد وتحدي الأعراف في الجهة الأولى، والتدين والتمسك بالتراث الإسلامي في الجهة المقابلة. هذا الانتقال الكامل والمذهل كان واضحاً وحقيقيّاً للمراقب الخارجي، ولكنه لم يكن كذلك على مستوى الشعور الداخلي. شيئاً ما تغير في وعيي ووجداني، لم أكن قادراً عندئذ على تحديده ومعرفة حقيقته، ولكنني كنت أشعر بتغيير داخلي حقيقي وعميق. التجربة التي بدأت في منتصف عام (1973) وانتهت مع نهاية عام (1974) تركت بالتأكيد أثراً عميقاً في نفسي وفي كياني وفي شخصيتي. ثمانية عشر شهراً من الصراع مع الذات بمخاوفها وأوهامها وآمالها، والصراع مع المحيط بتناقضه وتخبطه، ومن القراءة والنظر والتأمل والبحث عن معنى الحياة وغاية الوجود، أعاد ترتيب الكثير من الأفكار، وأثار كثيراً من القضايا، وسمح لي بمعرفة أعمق لنفسي وقدراتي ومخاوفي وآمالي وطموحاتي. خرجت من التجربة بشيء من خيبة الأمل لأني لم أجد الطمأنينة الروحية التي كنت أبحث عنها، ولكنني خرجت بالمقابل أكثر تصميماً على تحقيق الذات واختبار الحياة، وأقل خوفاً من تجربة المجهول

أو تحقيق إرادتي الذاتية، ورفض الخضوع لأي متطلبات خارجية غير مفهومة وغير مقنعة. وخرجت من التجربة المزلزلة كذلك وأنا أشدّ مراساً، وأكثر قدرة على ضبط النفس وضبط الوقت، ومواجهة الصعوبات والعقبات، والصبر لتحقيق الأهداف واتباع القناعات.

أولى ثمرات تجربة البحث عن الروح تجلت سريعاً برغبتي في اكتساب المعرفة العلمية، وانخرطت في صيف ذاك العام في دورات تحضيرية لامتحانات الشهادة الثانوية العامة، آتت ثمارها في صيف (1975). ركزت في دراستي خلال الأشهر التسعة السابقة لامتحانات الثانوية العامة على مواد الرياضيات والفيزياء واللغة العربية. واكتشف خلال هذا الجهد المركّز أنني لم أتعلم حلَّ معادلة الدرجة الثانية، والتي كان من المفترض أنها من معلومات الصف التاسع. كان اكتشافاً طريفاً ولكنه عكس أيضاً مثالب العملية التعليمية. أتقنت حلَّ معادلة الدرجة الثانية، ثم حلَّ معادلة الدرجة الثالثة، وأبليت بلاء حسناً في مادة التحليل الرياضي، ومعادلات التفاضل والتكامل الأساسية. وساعدتني عمتي رجاء مدرسة اللغة العربية في إتقان الإعراب، فكنت أتردد إليها بانتظام كل أسبوع للتدرب على قواعد النحو والصرف. أما المواد النظرية كالسياسة والديانة فكانت سهلة بالنسبة لي بعد قراءاتي الواسعة والعميقة في القضايا الاجتماعية والسياسية والفلسفية خلال العامين السابقين. وزادت قدرتي على تلخيص القراءات النظرية وتحديد المفاهيم المحورية. وكالعادة أمضيت الشهرين الأخيرين من العام الدراسي معتكفاً على الدراسة ليل نهار بصحبة صديقي يمان فرعون. كنا نسهر الليل حتى ساعات الصبح نتدارس المواد. ولم يكن يتخلل هذا النشاط الدراسي المركز إلا لحظات قليلة من الترفيه، وبعض المغامرات الصبيانية التي كانت تؤكد بأن سِنِي المراهقة لم يتم تجاوزها بعد.

بعد الانتهاء من امتحانات شهادة الثانوية العامة، والتي استمرت على مدار شهر كامل، عاودت مع الأهل والأصدقاء اللقاءات والزيارات والنزهات الترفيهية. وكانت بلودان كالعادة المنتجع المفضل لي ولأسرتي

للاستجمام والهروب من جوِّ الصيف الحار. وفي إحدى أمسيات ذاك الصيف وصل الخبر المفاجئ حول نجاحي في امتحان الثانوية، وحصولي على المعدل الضروري لدخول كلية الهندسة المدنية. كان المعدل الذي حصلت عليه توفيقاً من الله، وثمرة جهد عام كامل من الإعداد. وأدخلت النتيجة السرور إلى قلب والدي ووالدتي، بعد أن أضنتهم سنوات من إهمالي لمدرستي ودروسي. وللمرة الأولى بعد سنوات حققت جهودي رضاهم، خاصة وأن نتائج معظم أصدقائي كانت دون المستوى المطلوب. ابن عمي إياد المتميز دائماً باهتمامه ومتابعته لواجباته المدرسية، لم يحقق رغبته في دراسة الطب، فاختار التخصص بالرياضيات والفيزياء؛ لأن مهاراته في المواد العلمية كانت دائماً متميزة. تمكن إياد من تحقيق معدلات عالية في هذه المواد، ولكن ضعفه في المواد الاجتماعية واللغوية، وضعف اهتماماته وتحضيره لها أثر سلباً على معدله العام. بالمثل لم يحالف الحظ رفيقي في التحضير للشهادة العامة يمان، وكانت تربطني به قرابة. وترك التفاوت الكبير بين معدلاتنا أثراً سلبياً على علاقاتنا؛ فتوقفت عن زيارة منزله الذي كنت أرتاده دائماً بسبب موقف والدته السلبي تجاهي، وتحميلها لي مسؤولية هذا التفاوت بناء على أوهام وظنون. وساهم تباعد أماكن دراستنا إلى إضعاف العلاقة بيننا قليلاً، فكنا نلتقي في أوقات متباعدة بعد أن كنا لا نفترق خلال الدراسة الثانوية.

مقاربة علمية لبناء الشخصية

انتقلت في خريف عام (1975) من المدرسة إلى الجامعة، وكانت النقلة تلك كبيرة بالنسبة لي، أخلت توازني من جديد، ووضعتني في حالة من الضياع والتساؤل عن قيمة سنوات الدراسة. كانت سنة التحاقي بالجامعة سنة تحولات كبيرة في نظام التعليم الجامعي، وبدء سياسة جديدة فرضها حافظ الأسد على الجامعات بعد استتباب السلطة، ونجاحه في إنهاء مسلسل الانقلابات الدورية. السياسية الجديدة التي طبقت هي سياسة "الاستيعاب"، والتي رفعت أعداد طلبة السنة الأولى في كلية الهندسة من (200) إلى (600) طالب بشكل مفاجئ، ودون زيادة في عدد الأساتذة أو المختبرات. كانت

تلك السياسية تهدف إلى توفير فرص جامعية لأبناء القرى عموماً، والطلبة المنتسبين لحزب البعث بصورة خاصة. فقد أصدر الأسد مرسوماً رئاسياً يمنح الطلبة المتطوعين في دورات عسكرية، عرفت بدورات المظليين، (20) درجة إضافية إلى جانب معدلاتهم في الثانوية العامة. هذا التحول السريع غير المدروس، أخلَّ بالنظام التعليمي وأضعف مستواه، وحوَّل الجامعة إلى حقل تجارب، وعقّد المهمة الإدارية؛ فكانت سنة مليئة بالمشاكل والصعوبات.

المرحلة الجامعية شهدت جهداً مركزاً لتطوير شخصيتي. وسيلتي الأساسية كانت مراجعات يومية وأسبوعية لمواقفي وأفعالي، واجتهاداً مستمراً لتحقيق جملة من الأهداف عبر برنامج سلوكي طورته والتزمت بتنفيذه. كنت أتأمل باستمرار مواقفي والحالة النفسية المرتبطة بها، مستعيناً بجملة من النظريات والأفكار تراكمت عندي نتيجة قراءات في كتب علم النفس والأخلاق، وتأمل طويل في مذكرات شخصيات تاريخية مؤثرة، والنظر في سيرهم الذاتية. نظرة سريعة في مفكرة تعود إلى تلك المراحل المبكرة من عمري، لا زلت أحتفظ بها، تظهر قائمة من الصفات الإيجابية التي سعيت للوصول إليها، وقائمة أخرى من الصفات السلبية عزمت على تجاوزها والتخلي عنها. الجدول أدناه منقول دون أي تعديل من مفكرتي القديمة، والتي تعود إلى نهاية المرحلة الثانوية وبداية المرحلة الجامعية:

الإيجابي	السلبي
الجرأة	الخجل
الشجاعة	الخوف (الجبن)
الصراحة	التملق
الثقة بالنفس	إرضاء الآخرين
الصدق	الكذب
الحزم	التردد

وفي أسفل الصفحة، مباشرة عقب ذكر الصفات الإيجابية وأضدادها من سلبيات، دوَّنت صفات أربع على النحو التالي:

1- الحكمة أو الفطنة

2- العدل

3- الشجاعة

4- التواضع

من الواضح أن الصفات الأربعة الأخيرة المذكورة في المفكرة هي الفضائل الأربعة التي حددها الفلاسفة الإغريق في كتاباتهم عن الأخلاق، وناقشها أرسطو في أعماله الفلسفية. وكنت في تلك الفترة قد بدأت قراءاتي المتعمقة في كتب الفلسفة، بدءاً من الفلسفة الإغريقية. الفرق الوحيد هو صفة "التواضع" التي اخترتها، والتي تقابل عند أرسطو صفة "التوسط". لا أدري اليوم هل هذا الاختلاف عكس سوء فهم لما كتبه أرسطو أم استبدال متعمد، يرتبط بمزاجي في تلك الفترة الذي لم يكن يرى في "التوسط" فضيلة، بل مساومة بين موقفين أساسيين وهروب منهما نحو الوسط!

المفكرة الصغيرة القديمة، التي لا زلت أحتفظ بها بين أوراقي، رغم تطاول السنين وكثرة التنقل، تحتوي على نقولات مختارة من أقوال مشاهير من الشرق والغرب، كما تحتوي على بعض الملاحظات التي كتبتها لبيان الخطوات التفصيلية لتأكيد الإيجابي وتجاوز السلبي. النقول كثيرة؛ لذلك أكتفي بذكر بعضها هنا؛ لأنها تعكس هواجسي ورغبتي في تطوير شخصيتي لمواجهة حياة قادمة، كنت أشعر أنها ستكون مليئة بالتحديات. فيما يلي جملة من الحكم والمبادئ التي نقلتها إلى مفكرتي من قراءاتي العديدة، ويعود بعضها لمفكرين وكتاب شاركوا قراءهم الحكمة التي اكتسبوها من تجارب الحياة، مثل مصطفى السباعي وميخائيل نعيمة وهيلين شاكتر وجبران خليل جبران، وبعضها الآخر لحكم التقطها من مدونات لم تذكر مصدرها:

* «احذر الزهو بعلمك عند المناقشة، والفخر بعملك عند الذين يعرفونك، والتقصير بالخير حينما تسنح الفرصة».

* «بين الخوف والجرأة أن تخطوَ الخطوة الأولى».

* «لا تتأخر بكلمة الحق بحجة أنها لا تسمع، فما من كلمة طيبة إلا ولها تربة خصبة».

* «توقع المصيبة أشدُّ هولاً من وقوعها».

* «كثير التشكي عدو نفسه وعدو الله وعدو الناس».

* «خير للمرء أن يواجه الخطر من أن يبقى دائماً في خوف».

* «رأيت نفسي تسمو بالآلام ولكن من يطيق استمرارها».

* «خلقت المصاعب لتجعلنا نفكر لا لتجعلنا نقلق».

بعض الحكم وقواعد السلوك كنت أضعها تحت زجاج طاولتي، لأتذكرها كل يوم، بدلاً من وضعها في مفكرة أعود إليها بين الفينة والفينة، أذكر منها الحكمتين الآتيتين:

* «الجبان يموت مئة موتة والشجاع يموت موتة واحدة».

* «لا يرهقك الجبل تستقبله، بل الحصاة تكون في نعلك».

كنت أحتفظ بطبيعة الحال بنصوص قرآنية ونبوية، وأتخير بعض الآيات والأحاديث التي شكلت جزءاً أساسياً من وعيي، حتى بعد ابتعادي عن الحياة الدينية الضيقة التي عشتها بزخم كبير خلال المرحلة الثانوية. من الآيات التي كنت أضعها على جدار غرفتي، ولا زلت أحتفظ بها على جدار منزلي إلى اليوم؛ الآية الثالثة من سورة الطلاق:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 65 / 2-3].

ومن الأحاديث التي اكتسبت منها حكمة بالغة ووجهت حياتي؛ الحديث الآتي الذي رواه الترمذي عن رسول الله ﷺ: «لا يكن أحدكم إمَّعة،

يقـول: إن أحسـن النـاس أحسـنت، وإن أسـاؤوا أسـأت، ولكـن وطِّنـوا أنفسـكم إن أحسـن النـاس أن تحسـنوا، وإن أسـاؤوا أن تجتنبـوا إسـاءتهم».

بعـض الملاحظـات التـي دوَّنتهـا في مفكـرتي في مرحلـة مبكـرة صيغـت بأوصـاف عامـة عـلى شـكل قواعـد سـلوكية، ولكـن القـراءة بـين السـطور تظهـر أنهـا تعكـس مشـكلة شـخصية كنـت أعـاني منهـا، وأسـعى إلى التغلـب عليهـا مـن خـلال وصفهـا، ثـم تحديـد طريقـة التعامـل معهـا والتغلـب عليهـا. وفيـما يـلي بعـض الأمثلـة عـلى تلـك القواعـد والتوصيفـات، التـي طورتهـا عـبر التأمـل في سـلوكي وسـلوك مـن حـولي:

* «إن احـترام الإنسـان لذاتـه يجعلـه يبتعـد عـن التهويـل والإسـفاف في الحدة المفتعلـة، ويسـتبدل بذلـك: الصراحـة والصـدق التام مـع ذاته».

* «إن اللجـوء إلى مغـادرة المنـزل، أو الامتنـاع عـن طعـام، أو الانفعـال؛ هـي ردود فعـل تصـدر عـن إنسـان غـير ناضـج، وهـي هـروب مـن المشـكلة وليسـت حـلّاً لهـا. والحـلُّ الصحيـح يكـون بالمجابهـة السـليمة للمشـكلة دون انفعـال، ودون إدخـال الأنانيـة والذاتيـة في الأمـر المـراد معالجتـه، والعمـل عـلى الوصـول إلى الحـلِّ الأفضـل عـن طريـق المناقشـة إن أمكـن، أو السـلب إن لم يمكـن».

* «إن المناقشـة المجديـة والمؤثـرة هـي تلـك التـي لا يحـاول الإنسـان فيهـا أن يطعـن في شـخص غريمـه، أو يقلـل مـن شـأنه، أو يذكـره بنقـاط ضعفـه وسـقطاتها، بـل هـي التـي يحـاول فيهـا الرجـل الوصـول إلى الحقيقـة دون تشـبث بالفكـرة، أو الغضـب لعـدم قبـول خصمـه لفكرتـه».

الملاحظـات الآنفـة تظهـر طرفـاً مـن الـصراع النفـسي الـذي كنـت أمـر بـه، والخصـال التـي كنـت أسـعى إلى تغييرهـا، خاصـة خصـال الانفعـال والغضـب والانسـحاب، وذلـك بالتأكيـد عـلى ضرورة ضبـط النفـس والتركيـز عـلى الإيجـابي؛ كالشـجاعة والصراحـة، والتغلـب عـلى السـلبي؛ كالخـوف والخجـل، مـن خـلال إقحـام النفـس في مواقـف وحـالات اجتماعيـة تسـاعدني عـلى تجـاوز المواقـف السـلبية للآخريـن، والتركيـز عـلى الفعـل الإيجـابي الـذي أحتـاج للقيـام بـه. وسـبيلي للتغلـب عـلى النواقـص والمثالـب اعتمـد - بالإضافـة إلى القـراءة

والمطالعة والنظر في الكتابات النفسية والسير الذاتية - على ممارسة الرياضة، واكتساب مهارات الدفاع عن النفس، وزيادة النشاط الاجتماعي، والتعرف على زملاء ورفاق جدد؛ لذلك مارست أنواعاً عديدة من الرياضات من السباحة التي كنت أمارسها في المسبح البلدي، وأتدرب مع فريق الشباب التابع له. ماء حوض السباحة الذي كنا نتدرب فيه كان شديد البرودة لعدم وجود تدفئة للمياه، وبسبب ملء حوض السباحة من مياه نبع الفيجة شديدة البرودة حتى في أشهر الصيف. كنت أستمر بالتدرب على السباحة في فصل الخريف البارد نسبياً في الشام، دون أن أعبأ بالبرودة، وأرى في مقاومة الرغبة الطبيعة بتجنب الماء شديد البرودة وسيلة لي لتطوير الانضباط الذاتي. كذلك تابعت في الجامعة التدريبات شبه اليومية على (الكراتيه) و (الجودو)، بعد أن أصبحت متقناً لمهارات الدفاع عن النفس بعد سنوات طويلة من الممارسة في نادي "الشباب" في المزرعة، وفي حالات قليلة في الشارع للتصدي لبعض المتنمرين.

حبٌّ عارم وعاطفة غامرة

السنة الأولى من الجامعة شهدت أيضاً "سقوطي" في علاقة عاطفية، كانت الأبرز خلال سني شبابي. الفتاة كانت تسكن في حارة قريبة من بيتنا، وتمرُّ يومياً من أمام البناء الذي أقطن فيه. اللحظة التي وقع عليها ناظري للمرة الأولى كانت كافية لتحريك مشاعري في حالة شبيهة بما يصفه الكتاب والروائيون بـ «الحب من أول نظرة». كانت الفتاة تصغرني ببضع سنوات، ونشأت بيننا علاقة حبّ عارم استمرت ثلاث سنين، ثم اندثرت بالسرعة التي نشأت فيها. قد يبدو الحب العارم في سني الشباب طريفاً ومفتعلاً للمراقب الخارجي الذي عجنته السنين، ولكن تعلق المحب بمن أحب، وتواصل القلوب واتحادها في قلب واحد، وآلام الفراق بين روحَين ظنتا أنهما لن تفترقا، مشاعر حقيقة صادقة. مشاعر الحب العارم الذي يأتي على حين غفلة، يُصاحب مراحل الشباب حين تكون النفوس غضّة والمشاعر مرهفة، والدفاعات الداخلية ضعيفة، والقلب أكثر استعداداً للانقياد للعواطف

والأحاسيس التي تنتابه دون تفكير أو تدقيق. مشاعر الحب العارم مشاعر جميلة ولكنها صادمة. الحب الأول الذي تولده عاطفة غامرة في سني الحياة المبكرة حالة فريدة وعفوية قلما تتكرر في مراحل لاحقة مع نضج التجربة الشخصية، وإدراك الإنسان خطورة الانقياد الأعمى خلف العواطف، في عالم ناقص قلما يتطابق فيه الأمل والواقع، وقلما يصمد الحلم الجميل أمام تحديات الحياة ومتطلباتها. ولعل هذا التناقض هو ما يجعل قصص الحب العاطفي العارم التي تتناقلها الأجيال؛ كقصة جميل وبثينة، وقيس وليلى، وروميو وجولييت، قصصاً فريدة، تثير اهتمام الناس وتقديرهم بقدر ما تدفعهم إلى تجنب الوقوع فيها، وتثير في أنفسهم الشفقة على تداعيات ذاك الاندفاع العاطفي الغامر!

بعد ثلاث سنوات من العيش لحظات خيالية، شبيه بالأحلام الجميلة، انتهى التقارب الوجداني والعاطفي، وتلاشى الحب كما بدأ بصورة مفاجئة، كالقدر المحتوم الذي تراه ماثلاً أمامك، ولكنك لا تستطيع منعه أو تأجيله. أذكر أنها دعتني قبل لحظات الفراق بفترة وجيزة إلى التقدم إلى والدها وطلبها للزواج. راودتني الفكرة وقلبتها لأيام قبل الوصول إلى النتيجة الصادمة؛ وهي أنني لم أكن أملك القدرة على القيام بأعباء الزواج ومتطلباته العملية، وكأن السؤال العملي تحوَّل إلى إبرة حادّة لامست غلاف فقاعة الخيال العاطفي الرقيق، فتحوّل في لحظات سريعة إلى ذكرى حلم جميل. وكما يبدو الحلم الجميل في لحظات النوم العميق حقيقة ثابتة، فإذا بلحظة اليقظة تحيله في ثوان إلى خيال فارغ وسراب بعيد، كذلك الحب العفوي، يحلّق بنا في فضاء العاطفة الجارف، حتى إذا عاد من عليائه إلى مستوى الحياة العملية ولامس سطحها الصلب القاسي، تكسر واختفى وتلاشى، تاركاً ندباً في أرواحنا تذكرنا بآلامه بعد اختفائه في غيابة الماضي الغابر. كان والدي في تلك الفترة يعيش لحظات مالية صعبة بعد سنوات من التقاعد وتناقص في الدخل الحقيقي؛ نتيجة التضخم المعيشي المستمر، وتزايد تكاليف أسرته المتنامية. كان البيت يكفي الأسرة، ولكنه لم يكن يتحمل إضافة أسرة جديدة. ولم تكن

توقعات البيئة الاجتماعية والكلفة المادية لاكتراء بيت جديد، وتغطية نفقاته، تسمح لي ببدء حياة زوجية. كان أمامي بضع سنوات للحصول على شهادتي الجامعية، وبضع سنوات للقيام بالخدمة الإلزامية، وبضع سنوات أخرى من ممارسة عمل يمنحني الدخل المادي الضروري للقيام بأعباء الزوج. صارحتها بالظروف الحالية وطلبت منها الانتظار حتى أنهي دراستي الجامعية، ولكنها لم تلبث أن غادرتني لتختفي من حياتي فجأة، ولا أدري اليوم هل أقدمت على قرارها هذا مختارة أم مرغمة؟ ما أعلمه يقيناً أن العلاقة توقفت فجأة ودون سابق إنذار، وأن أخطائي وسوء تقديري كان لهما دور واضح في دفعها إلى القيام بالخطوة التي بدت مستحيلة قبل أشهر قليلة، واتخاذها القرار "المزلزل" لمن عاش حيناً من الدهر حالة حبٍّ بدا بحجم الوجود، ليراه يتلاشى أمامه في ثوان كالسراب. ولعل والدتها التي علمت بتفاصيل العلاقة كان لها دور في توجيهها لهذا المنحى، ربما خوفاً على ابنتها من آثار الانتظار وبناء المستقبل على وعود. التقيت بوالدتها بعد الفراق بأشهر لا أذكر اليوم عددها، ودار حديث طويل بيننا حول مصير الحلم الضائع، وعن حديث ابنتها لها وتوصيف مشاعرها نحوي، وتقديرها لخصالي ومعاملتي. وبغض النظر عن ملابسات هذا الفراق المفاجئ وغير المتوقع، فقد وقعت "الكارثة"، على الأقل هكذا بدت لي آنئذ. ابتعدت عني الفتاة التي ملأت حياتي حيناً من الدهر، وتركتني في حالة نفسية يرثى لها. حاولت أن أشغل نفسي بالرياضة والأصدقاء والقراءة بعض الوقت، ولكن ألم الفراق فعل فعله في نهاية المطاف، ووجدت نفسي بعد أشهر قليلة في حالة اكتئاب شديد.

الاكتئاب حالة نفسية مذهلة ومروعة؛ لأنها تسلب من يُصاب بها كل المشاعر المصاحبة للحياة. الاكتئاب غياب كلي لمعنى الحياة وغايات الوجود، يتحول الإنسان خلاله إلى كتلة عضوية خالية من الآمال والرغبات، بل من المخاوف والهواجس. وتتحول أشياء الحياة إلى موجودات خالية من المعنى والقيمة. لا شيء يحمل معنى لدى الإنسان المكتئب، فكل الأشياء تبدو وأنها تعوم في فضاء كبير، وتتحرك في كل الاتجاهات بلا هدف ولا غاية ولا قيمة، ودون أن تمتلك أي إثارة أو تأثير. تفقد الأطعمة لذّتها،

والألـوان بهاءهـا، والروائـح زكوتهـا، والمناظـر جمالهـا، والمسـتقبل بريقـه. ويتحـول الإنسـان إلى شـاهد غـير مكـترث بـما يجـري حولـه، وغـير منفعـل مـع الأحـداث والأشـخاص والأشـياء. لا أدري بدقـة كـم اسـتغرق هـذا الحـال، لكنه اسـتغرق أوقاتـاً بـدت طويلـة، ولعلهـا امتـدت أشـهراً عديـدة يصعـب عـلي الآن اسـترجاع أمدهـا. لم تكـن تلـك لحظـة الاكتئـاب الوحيـدة، فأنـا أسـتطيع اليـوم أن أسـتعيد لحظـات اكتئـاب أخـرى في حيـاتي، ولكنهـا لحظـات لا تضاهـي مجتمعـةً تلـك التـي واجهتهـا في صيـف (1978)؛ مـن حيـث الحـدّة أو المـدّة. عمـق الهـزّة النفسـية وحدتهـا أعطيـاني درسـاً جديـداً مـن دروس الحيـاة، درسَ ضبـطِ العواطـف والتحكـم بهـا وربطهـا بقيـود العقـل. تولـدت لـدي دفاعـات نفسـية تمنعنـي مـن الاستسـلام التلقائـي والعفـوي للعواطـف. شـعوري بالحـبِّ نحـو قريـن الـروح والحيـاة لم يختـفِ بطبيعـة الحـال، بـل عـاد بعـد سـنوات عديـدة، ولكنـه عـاد مصحوبـاً بنبـض العقـل وضوابطـه، وعـاد محاطـاً بحصـن الـزواج وروابـط الأبنـاء. نعـم لم يختـفِ الحـبّ مـن حيـاتي، بـل عـاد ليتألـق مـن جديـد في لحظـات لاحقـة. الـذي اختفـى دون رجعـة هـو ذاك الاندفـاع العاطفـي المتأجـج بـلا حـدود، والذيـن نسـميه «الحـب مـن النظـرة الأولى».

عـدت بعـد أشـهر مـن الاكتئـاب تدريجيـاً إلى حـالي، واسـترجعت همتـي ونشـاطي، وتجـاوزت الصدمـة النفسـية الهائلـة دون عـلاج نفسي أو دوائـي، بـل ودون أن أشـاطر ألمـي ومعانـاتي لقريـب أو صديـق. كان العديـد مـن المهتمـين بي يشـعرون بعمـق حـزني وقلـة كلامـي. وكانـت والـدتي تسـألني إذا كنـت بحاجـة إلى مسـاعدة. ولعـل مـن كان قريبـاً منـي مـن أهـل وأصدقـاء أدرك دون شـكٍّ مصـدر هـذا الهـدوء والحـزن الـذي أصابنـي، فابتعـادي عـن الفتـاة التـي أحببـت لم يكـن سرّاً، بـل أمـراً جليّـاً معروفـاً لمـن حـولي. لكنـي بعـد أشـهر مـن المعانـاة عُـدت مندفعـاً نحـو الحيـاة بقـوةٍ وهمـةٍ وإصرار عـلى المـضي في الرحلـة إلى النهايـة المقـدرة لهـا بجـدٍّ وإقـدام، وأدركـت حينئـذ أبعـاد معـاني القـول المأثـور: «الضربـة التـي لا تقتلنـي تزيـدني قـوة». الصدمـة العاطفيـة التـي تلقيتهـا لم تدمـرني ولم تَفُتَّ في عضـدي، بـل وجـدتُ نفـسي عقـب انتهائهـا يحـدوني أمـل جديـد ورغبـة متجـددة بالحيـاة، وقـد بلغـت منتصـف السـنة الثالثـة مـن الدراسـة الجامعيـة،

ولم يَعُد يفصلني عن التخرج سوى سنة ونيف من الجهد والدراسة والتحضير. شعرت بالسعادة لأني قطعت الشوط الأكبر من دراستي الجامعة واقتربت من لحظة التخرج، بعد سنوات من التجاذبات النفسية حول أهمية الحصول على شهادة في الهندسة المدنية، التطورات الاجتماعية والسياسية المتتابعة حولي، وتزايد الوساطات والفساد الإداري، وأعداد خريجي الهندسة، ومحدودية الفرص والمشاريع، ومحدودية الدخل أيضاً، كانت تلقي بثقلها وتدفعني للتساؤل عن الجدوى. ضعف المستوى التدريسي بسبب تزايد عدد الطلاب كان يلقي بمزيد من الأسئلة حول مستقبل المهنة. ثم إن العديد من أصدقائي الذين اختاروا العمل التجاري بدلاً من دراسة الهندسة كانوا في حالة مالية أفضل بكثير من حالة الخريجين. كل هذه العوامل شكلت عقبات ومطبات في الطريق، وبدت الهندسة المدنية لي آنذاك وسيلة للكسب لا رسالة حياة. لكن خطأ تلك النتيجة الفادح يبدو جلياً عندما أنظر إليها اليوم من مكاني المتقدم، وأتأمل دلالات تلك اللحظات الأساسية، والخيارات الحاسمة، على ما تبعها من لحظات. كانت الهندسة مرحلة مهمة في تكويني النفسي والعقلي، زوَّدتني دراستي المتعمقة في الرياضيات المتقدمة، والتفاضل والتكامل، والهندسة التحليلية والوصفية والفراغية، بقدرات معرفية تركت أثراً مهمّاً في دراساتي المنهجية وأعمالي الفكرية.

الفوضى الثقافية وحدود الخيارات العلمية

كنت أرى منذ بدء دراستي الجامعية أن الهندسة المدنية كانت الخيار الأمثل لي بين خيارَي الطب والهندسة المتاحين! فالأُسر متوسطة الدخل في الشام كانت تحثُّ أبناءها على اختيار أحد هذين التخصصين؛ نظراً لأن الدخل المتحصل من هاتين المهنتين كان مناسباً للحياة المتوسطة التي اعتادها أبناء تلك الطبقة، ولأن المكانة الاجتماعية لخريجي الطب والهندسة كانت مرموقة. اخترت الهندسة لأنها أقصر مدة، ولأني أكره زيارة المشافي، فضلاً عن العمل فيها. وكنت رغم ذلك أشعر بطول المدة اللازمة للتخرج والمقدرة بخمس سنوات، وكانت بالنسبة لي مدة مكافئة تقريباً

لتلك التي أمضيتها في الدراسة الإعدادية والثانوية. كان الوقت يمر ببطء في وعيي الذاتي في تلك الأيام، وهو شعور تلاشى بعد مغادرة سورية. وكنت لذلك أملأ وقتي في القراءة الفكرية والفلسفية، وأشعر بسعادة غامرة وأنا أكتشف جوانب الطبيعة الإنسانية والكونية. وكانت القراءات الفلكية من القراءات الممتعة التي تنقلني في رحلة خيالية عبر أبعاد الكون العجيبة والملكوت الهائل، لأستفيق مع الانتهاء من القراءة من عالم سحري وأعود لعالم الواجبات والتحديات والقيود الجغرافية والثقافية. هذا الكون الذي يحيط بنا ويحتضننا، يتمتع بأبعاد هائلة وأجرام عظيمة تتقلص أمامها أبعاد الأرض والمجموعة الشمسية. وكنت أمضي أوقاتاً طويلة في مخازن الكتب أستعرض فيها الجديد من الإصدارات، وأنفق من "الخرجية" الشهرية التي كنت أحصل عليها من الوالد في شراء الكتب. كانت "خرجيتي" في ذاك الزمان بحدود الستين ليرة. وكانت تكفي لشراء الكتب العديدة التي أنتقيها كل أسبوع، فلم تكن أسعار الكتب تزيد على الليرتين والثلاث ليرات للكتاب. وكنت أنفق قسماً آخر على شراء الأطعمة وتكلفة المقاهي والمطاعم التي كنت أرتادها بشكل دوري مع الأصدقاء للترفيه والسمر.

كانت الهندسة خياري الأمثل ضمن الظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بي، ولكنها لم تكن خياري الأول. أذكر أنني ناقشت مع الوالد دراسة الحقوق في جامعة دمشق ودراسة السياسية والاقتصاد في جامعة القاهرة. وفي كلتا المرتين جاء جواب الوالد مثبطاً لي، ومحذراً من المضي في هذين المجالين؛ لأن فرص العمل الشريف ضعيفة فيهما! فمع انتشار ظاهرة الرشاوي، ورشوة كبار موظفي الدولة والتي لا تستثني القضاة، كان نجاح المحامي لا يرتبط بالتحصيل العلمي وتطبيق القانون في أحيان كثيرة، بل "بشطارة" المحامي وقدرته على توظيف المال لتحقيق النتائج المطلوبة. هذا ما جعل فكرة دارسة الحقوق وممارستها في دمشق خارج مجالي النفسي والأخلاقي الذي نشأت فيه واعتدت عليه. كذلك لم يكن ثمة فرص للعمل السياسي بعيداً عن العمل الحزبي البائس في زمن حكم

الحزب الواحد والرأي الواحد. وكان السياسيون يُعدون في مدرسة الإعداد الحزبي، ولم يكن هناك كلية للعلوم السياسية في جامعة دمشق عند التحاقي بالجامعة. وبعد تقليب الأمور اخترت الهندسة خياراً مهنيّاً، والتحقت بها في خريف عام (1975).

سنوات الجامعة عرفت مغامرات من نوع آخر، مثل التدريب العسكري الصيفي. كان يفترض في هذا التدريب أن يعلم الطلبة الانضباط، ويعدَّهم لاحقاً للخدمة الإلزامية. لكن حقيقة الأمر كانت غير ذلك، فكان التدريب الصيفي إضاعة كاملة للوقت والجهد والمال: سوء في التنظيم، وغياب للمدربين القديرين، وغياب لأدوات التدريب. هذا ما دفع الكثيرين إلى التغيُّب لأيام طويلة عن المعسكر التدريبي، وأخذ إجازات طوعية، لم تكن تكلفنا سوى ركوب سيارات الأجرة والاتجاه إلى المنازل. أمضيت ثلاثة معسكرات: الأول في المزة، والثاني في الديماس، والثالث في ببيلا. لم يعلق في ذاكرتي إلا بعض المشاهد المتناثرة من هنا وهناك، لعل أهمها معسكر "ببيلا" لغزارة الزواحف القارصة والسامة التي كانت تسرح وتمرح بين الخيم والمرافق. فقد كانت منطقة المعسكر صحراوية مليئة بالعقارب والأفاعي وحشرات أخرى سامة، وكنت معتاداً على المعسكرات الكشفية، والمخيمات الخاصة مع الأصدقاء منذ نعومة أظافري. وكنت على معرفة بطبيعة جميع هذه الحشرات القاتلة وعاداتها، وكيفية التخلص من سمومها وتجنب التعرض لها والقضاء عليها. أذكر أنني أفقت قبيل الفجر في إحدى الليالي على صراخ زميل لنا في الخيمة لدغته حشرة "الحريشية"، وتعرف في الشام باسم "أم أربع وأربعين" لكثرة أرجلها، وبلوغ عددها في بعض الأنواع الأربعين أو يزيد. والنوع المنتشر في تلك المنطقة كبير الحجم يبلغ طوله شبراً أو يزيد قليلاً، وله جسد مفلطح بني اللون وأرجل بيضاء. كان منظر الحشرة جميلاً لكن قرصتها شديدة السمومية. لم تكن الحريشية حشرة قاتلة للإنسان البالغ سليم البنية، ولكن سمّها يولّد تورُّمات كبيرة ويسبب إعياء شديداً. وكانت الحشرة قد دخلت تحت قميص زميلي المجاور لي ووصلت إلى وسطه وهو نائم، ويبدو أنها لسعته بعدما شعر بها وحاول إخراجها

وهو في حالة ارتباك. قمنا بنقله إلى مستوصف المعسكر حيث عولج بإبرة مضادة للسموم. الحيوان الأكثر خطراً كان العقرب والأفعى الصحراوية السامة. عثرنا في المعسكر في أحد أيام الصيف شديد الحرارة على أفعى ضخمة، بلغ طولها خمسة أمتار، كانت مختبئة قرب دورات المياه، ولعلها أرادت الحصول على الماء في تلك الصحراء الجرداء القاحلة.

من اللحظات التي بإمكاني استرجاعها بشيء من الارتياح؛ يوماً أمضيناه في السير الطويل في صحراء قريبة من دمشق خلال معسكر الديماس. وكنت أتمتع بتسلُّق الهضاب والجبال والسير في الصحراء مسافات طويلة. تسلُّق الجبال هواية اكتسبتها عندما كنت طفلاً يافعاً أمضي عطلتي الصيفية في منتجع بلودان الجبلي. كنت أمضي أوقاتاً طويلة فيتسلق مرتفعات جبل بلودان باتجاه قرية هريرة، أو أهبط إلى وادي الزبداني لأعود إلى تسلق الجبل عائداً إلى بلودان من جديد. أذكر أني اتفقت مع صديقيّ حسان وخالد على الذهاب سيراً على الأقدام من دمشق إلى الزبداني، في إحدى ليالي الصيف الجميلة في سنة (1978). وبعد مسيرة ساعتين أوقفتنا دورية أمنية كانت ترصد الطريق في منطقة الديماس. كان قائد الدورية شابّاً في مقتبل العمر لا يزيد عمره عن أعمارنا، أخبرنا أنه يدرس التاريخ في جامعة دمشق، ويبدو أنه لم يصدق روايتنا، وظنَّ أننا متجهين إلى لبنان عبر الجبال، وكانت الحرب اللبنانية في نهاياتها، خاصة بعدما اكتشف أننا كنا نحمل خناجر وبلطة، كنا نحتفظ بها للدفاع عن النفس من الذئاب والضباع المنتشرة في الجبال المحيطة بدمشق. لكنه رفض السماح لنا رغم إصرارنا، وأوقف سيارة أجرة متجهة إلى دمشق، وأمر سائقها بإنزالنا عند مدخل المدينة في ساحة الأمويين، وانتهت محاولة السير مسافة (60) كيلو متراً على الأقدام بالفشل.

أذكر حادثة أخرى تظهر طبيعة الثقافة التي سادت في تلك المرحلة من تاريخ الشام، والتي ازدادت سوءاً مع مرور الوقت. كنت وصديقي خلدون وحسان عائدين إلى بيتي ذات مساء، فوجدنا جمهرة من الناس تحيط بسيارة خاصة، توقفت قرب المنعطف الذي يقود إلى البناء الذي

أقيم وصديقي حسان فيه. كان الناس يتحدثون فيما بينهم ويشيرون إلى ثلاثة أشخاص؛ أحدهم شاب في مقتبل العمر، لعله كان في منتصف العشرينيات، ملقى على الأرض، غارق في دمائه، بينما يستلقي شاب وفتاة داخل سيارة بيضاء اللون صغيرة في حالة نزيف شديد. استغربت هذا المشهد، ولكنني أدركت ضرورة نقل المصابين إلى مشفى قريب يعرف بمشفى الطلياني، فطلبت من صديقي التعاون في حمل المصابين، وطلبت من بعض الشباب المتجمهر المساعدة لحمل المصابين إلى المشفى. وفعلاً وصلنا المشفى خلال دقائق، لكن الراهبات المسؤولات رفضن بدءاً إدخال المصابين لعدم وجود أطباء، وطلبن منا الذهاب إلى مشفى بعيد، أصريت على إدخالهم نظراً لحالتهم الخطرة، وطلبت من بعض الممرضات الاتصال بالطبيب المناوب وإحضاره فوراً من منزله. وفعلاً حضر طبيب في زمن قصير، ولكن لم يتمكن من تقديم الكثير من العون؛ فكانت الإصابات عميقة، وغرفة الطوارئ غير مجهزة لمثل تلك الحالات. وحضر رجال الشرطة للتحقيق، وغادرت وصديقيّ المشفى بعد ساعة من الزمن إلى البيت، وتوقفنا جميعاً في منزل حسان. علم والد حسان بالحادث وبتدخلنا لإنقاذ الجرحى، فدخل إلى الغرفة مستاءً غاضباً، وكان دركيّاً في قوات الجمارك. تكلم لعدة دقائق عن خطورة العمل الذي قمنا به، ثم قال:

–لم يكن ضرورياً القيام بمثل هذا العمل الجنوني.. هذا تهور، كان من الممكن أن يحوِّلكم إلى متَّهمين في حادثة قتل.

تحدثت محاولاً إيضاح ما اعتبرته واجباً إنسانياً:

– ألا ترى أن إنقاذ حياة هؤلاء أهم من أي اتهام محتمل دون دليل.. أليس من واجب الإنسان إنقاذ حياة الآخرين؟

أجابني موضحاً وجهة نظره عن حدود مسؤولياتنا الأخلاقية:

– يصطفلوا.. هذا واجب رجال الإسعاف وليس واجبكم!

"يصطفلوا" هذه الكلمة التي كانت شائعة بين أهالي دمشق؛ وهي كلمة عامية تعني "هذا شأنهم"، وبالتالي هذا ليس من شأن أي شخص آخر سواهم. والمقصود بالكلمة نهي السامع عن التدخل في موضوع هو ليس من شأنه. ولكن استخدامها في هذا السياق، أو في أي سياق يتعلق بمساعدة الآخرين، يعكس المخاوف المحلية من التدخل في شأن يتعلق بآخرين خشية الوقوع في مشاكل. هذا التوجيه الذي كان منتشرا في الثقافة المحلية ناجم – على الأغلب – عن تجارب عديدة سابقة حصلت في مجتمع لا تبدو فيه القوانين واضحة ولا الحقوق مكفولة. وقد تعكس خشية من التعامل مع المؤسسات الأمنية، وجنوحها إلى التصرف حسب تقديرات رجل الأمن لا وفق قوانين فاعلة. ومهما يكن سبب انتشار هذه القناعة فإن نتيجتها العملية هي تفكك المجتمع، وغياب التضامنات الداخلية الضرورية لحفظ الحقوق والتراحم والتعاضد بين أبناء المجتمع الواحد.

خطوات لتجاوز ثنائية الدين والحياة

ابتعادي عن الواجبات الدينية كان شبه كامل عقب التجربة الروحية القصيرة التي قادتني إلى متاهات التشدد والانكفاء إلى النموذج الديني التقليدي الذي يدفع الشباب إلى رفض المجتمع الحديث، والسعي للانعزال عنه في أجواء مستقاة من تعاليم فقهية تعود إلى مرحلة تاريخية منصرمة. السياق الاجتماعي الذي صاحب فترات طفولتي وشبابي كان دائماً يوحي إلي بالتناقض الكامل بين ما هو ديني ودنيوي، وبين ما هو روحي وعملي، وبين الالتزام الإسلامي والفاعلية الاجتماعية. ثنائية الديني والدنيوي هذه، بكل تداعياتها على مستوي الفعل والوعي، كانت واضحة في وجداني، وكأني أنظر إلى عالمين لا يلتقيان بأي شكل من الأشكال، بحيث أن العيش في دائرة الروحي تتطلب الخروج الكامل من دائرة الحياة الاجتماعية. هذا الشعور النفسي نجم على الأغلب من واقع الحال، ومن التميزات الاجتماعية التي كنت أراها؛ فالمثقفين والفاعلين في الحياة العملية الذين تعاملت معهم لم يكونوا من الملتزمين بالواجبات الدينية، أو المهتمين بالثقافة والتاريخ

الإسلامي. في حين كان المتدينون في تلك الآونة من الضعفاء المتمسكنين. شكَّل هذا الانفصام عائقاً كبيراً لإيجاد توازن ضروري ومصالحة أساسية بين متطلبات الروح من جهة، والفاعلية الاجتماعية من جهة أخرى، وجعلني أسيراً لمنطق الثنائيات المتناقضة: "إما هذا أو ذاك"، ومنطق التفكير الحدّي: "كل شيء أو لا شيء". لكن هذه الحالة من الوعي العدمي الإقصائي بدأت بالتغير فجأة إثر دعوتي إلى حفل شبابي، أقامه أبناء أسرة متنفذة في حي المالكي الجديد. وكان من بين الحضور شاب لطيف اقترب مني في نهاية الحفل معرفاً بنفسه، ومنوهاً إلى معرفته بنشاطاتي السابقة، كان الشاب هو معن الخجا، وكنت أعرف أخاه بشار الذي كان زميلاً لي في الصف في المرحلة الإعدادية. استغرب معن بعض الممارسات التي يبدو أنها بدرت مني أثناء الحفل، وتساءل عن هذا الاختلاف الكبير بين حالي اليوم وحالي قبل بضع سنوات، متذكراً أنني كنت أؤم الصلوات أحياناً في جامع العفيف.

أعاد هذا الحديث السريع ذاكرتي إلى الوراء، إلى فترة قريبة كانت تنتابني تجاهها مشاعر متضاربة. فقد كانت فترة نهلت فيها من المعارف والعلوم الاجتماعية والدينية والفلسفية، وقادتني في دروب البحث المعرفي والقراءة المستمرة، لكنها كانت أيضاً فترة من الانعزال بعيداً عن أسرتي وأصدقائي ونشاطي في دائرة المجتمع الأوسع. إمامة الصلاة في مسجد العفيف كانت من المشاهد التي أعادت إلى ذاكرتي الشعور بالمسؤولية؛ الذي تولد عندي خلال تلك المرحلة؛ فقد طلب مني بعض الأصدقاء الذين كانوا يترددون على المسجد حضور صلوات الجماعة هناك، وكان إمام المسجد شابّاً في الثلاثين من عمره، تزوج حديثاً وأُعطي غرفة صغيرة في المسجد، ومرتَّباً لم يكن يكفي ليسد رمقه، فكان المسكين يعمل أثناء النهار في أماكن بعيدة ويؤم الناس في صلوات العشاء والفجر. فكنت وبعض الأصدقاء نتناوب أحياناً على القيام بمهمة الإمامة، رغم صغر سننا. وكان ذلك يثير أحياناً حفيظة بعد كبار السن الذين لم يعتادوا الصلاة خلف فتيان صغار لم يبلغوا بعد سنَّ المسؤولية القانونية.

كان ذلك اللقاء من صيف (1979) بداية صداقة مع معن، ومع شلة من التجار الشباب، تعرفت عليهم من خلال معن، ومن خلال ابن خالتي رؤوف السادات، ضمت بشر الخرسا ومنار الحجار ومحمد الموصللي وسامر الملاح، وعدداً آخر من الأصحاب لا تحضرني أسماؤهم اليوم. معظم أفراد هذه المجموعة جمعت بين الالتزام بالصلوات والنشاطات الترفيهية واللحظات الخفيفة من حفلات، ومشاوير لتناول الغذاء في مطاعم دمشق والمصايف القريبة منها. استمرت علاقتي بهذه المجموعة، أو الشلة، كما كنا نسميها، حتى مغادرتي دمشق إلى المملكة السعودية. وكنا نلتقي غالباً يوم الجمعة بعد الصلاة في مسجد الروضة؛ لنخرج سوياً لتناول الغداء في منتجعات خارج مدينة دمشق، وقضاء أوقات خفيفة. معظم أعضاء المجموعة، باستثناء معن ورؤوف، كانوا من أبناء التجار الميسورين الذين تركوا الدراسة بعد الحصول على الثانوية، وبدؤوا حياتهم العملية. وكان بشر ومنار يملكان سيارات خاصة بهما، كنا نستقلّها في مشاويرنا الأسبوعية. كانت تلك الشلة واحدة من عدد من الشلل التي كانت تربطني بهم لقاءات دورية.

صداقتي مع معن قادتني إلى التعرف على إمام شاب يتولى الخطبة في بعض المساجد، وكان آنذاك يخدم في الجيش اسمه عبد الله دك الباب. تحول اللقاء العابر إلى صداقة جمعتنا فترة من الزمن، واستمرت بعد مغادرتي لدمشق. وكنا نجتمع أحيانا لنتدارس مسائل عامة حول الدين والحياة، وكان يحضر بعض لقاءاتنا الدورية شاب اسمه زياد. كان زياد شابّاً جادّاً محبّاً؛ ذا شخصية حيوية وحضور متميز. كان صريحاً واضحاً يقارب الأمور والمسائل المطروحة بصورة مباشرة وواقعية، وبعفوية ملحوظة بعيداً عن التملق والتجمل. انقطعت علاقتي بزياد، ولكنها بقيت مع عبد الله ردحاً من الوقت. استقبلته بمكة في حجه الأول برفقة زوجته، وأمضينا بعض الأوقات، قبل أن أقلَّه بسيارتي إلى مطار جدة؛ ليعود بعدها إلى دمشق. وليتحول خلال سنوات إلى منظم لرحلات الحج، ومطوِّف لوفود الحجيج القادم من الشام. ثم أصبح مديراً لأوقاف دمشق. كان يكنُّ لي احتراماً واضحاً لا يخفيه، واستمر بزيارتي في بيت أهلي بعد سنوات الغربة الطويلة

كلما عرجت على دمشق في وقفات قصيرة خاطفة. ولكني فوجئت في إحدى الزيارات بخبر اعتقاله بتهمة الاختلاس عندما كان مديراً لأوقاف دمشق. أمضى بعد ذلك أعواماً في السجن، وأرسل إلي عبر قريب نسخة من كتاب يحمل عنوان (ازدواجية المعايير)، نشره ليشرح فيه ظروف اعتقاله، وينفي التهمة التي وجهت إليه، مؤكداً أنه ضحية مؤامرة طرفها الآخر الشيخ سعيد رمضان البوطي وبعض المتحالفات معه من جماعة القبيسي المعروفة. بقيت الحقيقة مطمورة تحت سيل من الادِّعاءات وادِّعاءاتٍ مضادَّة يصعب تلمس حقيقتها. حاولت تتبع خيوط القضية المتوفرة لدي ولكنني لم أتمكن من تحديد المسؤولية، أو فهم أبعاد المشكلة بالدقة التي تقطع الشك. القضاء الذي يملك السلطة للحصول على تفاصيل الدعوى والأدلة الجنائية يفترض أن يكون الحكم في تحديد المسؤولية. ولكنني لا أستطيع الوثوق بقضاء خاضع لتأثيرات مراكز القوى والمصالح المهيمنة. هذا ما يجعل ضياع الحقوق واختلاط الحقائق هو الثمن الذي يدفعه أبناء المجتمع الذي غاب القانون عن مؤسساته، وتحولت الحقيقة فيه إلى روايات متناقضة بين خصوم متحيزين في فضاء همومهم وآمالهم ومخاوفهم وأوهامهم.

كان عبد الله يمتلك شخصية طريفة محببة. وكنت أحضر خطبه بعد تعيينه خطيباً لجامع الشمسية القريب. كنت أُكبر فيه تدينه المتوازن المنفتح على أطياف الناس على اختلاف أمزجتهم وأساليب حياتهم، وتزعجني سلاطة لسانه واستخدامه كلاماً (سوقيّاً) في مجالسنا الخاصة؛ الذي كان يدفع ثمنه بين الفينة والأخرى بحركات مفاجئة تنقله من حالة الوقوف إلى الاستلقاء عندما أطبق بعض مهاراتي عليه. كان رجلاً حاذقاً شديد الذكاء فصيح الخطاب، وكانت خطبه قصيرة تعالج قضايا اجتماعية، وتسعى لتصحيح أخطاء في الفهم والوعي الديني. وكان كثير القراءة في كتب التراث، يستفيد من مكتبة كبيرة في بيته ويفخر باقتنائها. صداقتي مع معن وعبد الله ساعدتني قليلاً على تجاوز ثنائية الروحي والاجتماعي، ولكنها بطبيعة الحال لم تحلّ المشكلة. فقد بقيت حقيقة "الروحي" غائبة عن وعيي. كان السؤال الذي يتردد في ذهني كلما قرأت صفة "الروحي" تنسب إلى النشاط الإنساني، "ما هو

الروحي؟"، وكيف يمكن معرفته والوصول إليه؟ بقي "الروحي" لغزاً محيراً عصيّاً على التحليل، رغم تماهيه الكامل في دائرة وعيي الذاتي التي يصدر منها السؤال! كنت أقترب منه وجدانياً دون أن أدركه على مستوى البحث النظري والفكري. لم أتمكن من تجاوز السؤال، فكرياً على الأقل، إلا بعد بلوغي المراحل الأخيرة من التحضير لشهادة الدكتوراه في الولايات المتحدة. وحاولت أن أكشف جوانب مهمة منه في كتابي (**الإنسان وجدلية الوجود والوجدان**)؛ الذي صدر عام (2016) عن دار الفكر المعاصر.

لعل الشلة التي زودتني بذخيرة روحية كانت تلك التي جمعتني بصديق عرفته في المرحلة الثانوية، ولكن لم تتوطد صداقتنا إلا بعد بلوغي نهايات المرحلة الجامعية، هو فايز البلبل. كنا نلتقي أسبوعياً لنتدارس قضايا عديدة، ثم انضم إلى لقائنا الصديق أمجد العظمة. وكان يحضر لقاءنا الأسبوعي أصدقاء آخرون لا أستحضر اليوم أسماءهم. كان فايز البلبل من رواد حلقة الشيخ جودت سعيد منذ أمد طويل. وأذكر أنه دعاني إلى حضورها في فترة التشدد التي عشتها في المرحلة الثانوية؛ فحضرت جلسة وتوقفت بعد ذلك نظراً للتضارب الهائل بين محاضرات جودت الجريئة عن الإسلام، والأفكار التقليدية التي كانت شائعة آنذاك. زارني فايز بعد أعوام من الانقطاع بصورة مفاجئة، ولعله رآني أتردَّد على صلوات الجمعة في سنوات دراستي الجامعية الأخيرة، وكنت أؤم بعض صلوات الجماعة في مصلى جامعة الهندسة المدنية. كان المصلى في الطرف المقابل لمكتب خاص بالشبيبة التابع لحزب البعث، وكان "الرفاق" البعثيون يجتمعون في ذاك المكتب أثناء الصلوات ويراقبون الداخل والخارج من المصلى، ولعلهم كانوا يرفعون تقارير عن الحضور بطلب من قيادات شُعبهم؛ التي كانت رديفاً للأجهزة الأمنية في سورية، كما كان حال كل المؤسسات والمنظمات الحكومية الأخرى. لم أكن أخفي معارضتي ورفضي لممارسات السلطة والحزب الحاكم، وكنا نخوض نقاشات مع بعض المنتمين للحزب، وكان بعض أولئك من الطلبة العرب غير السوريين. أذكر أن أحد زملائي الناشطين في الدوائر الحزبية أتاني يوما محذراً بوجود تقارير تحمل اتهامات ضدي، وأرجح أن

بعض هذه الأخبار وصلت إلى أبوي؛ فقد بدأت ألحظ في سنوات دراستي الجامعية الأخيرة مخاوفهم المتزايدة.

لقاءاتي مع فايز انصبَّت على قراءة كتب جودت سعيد، وكان مغرماً بفكره، في حين كنت متردِّداً لا أرى في كتاباته فائدة كبيرة. أذكر أنه أحضر إلى منزلي يوماً كتاباً صدر حديثاً لجودت سعيد بعنوان **(العمل قدرة وإرادة)**، وطلب مني قراءته معه ومساعدته على فهمه! تردَّدت قليلاً، وشعرت أنه يتحاذق علي، ثم قبلت دعوته رغبة مني بتفنيد الكتاب وإظهار تناقضاته، وكانت المفاجئة السارة التي حطمت فهمي التقليدي للإسلام ورسالته وأحالته إلى ركام، ووضعت قواعد جديدة ورؤية مختلفة، نقلتني إلى آفاق رحبة من التفكير حول طبيعة الدين، ودوره في الحياة، كانت غائبة عني مغيبة نتيجة مئات من الكتب والدراسات التي أغرقت المكتبة الإسلامية، وقدمت قراءات تبريرية ساهمت في تكريس رؤية سلبية للوعي الديني. حدثت المفاجأة مع الدخول في الفصل الثاني أو ربما الثالث من الكتاب. وفي لحظة غير متوقعة تغيرت نظرتي القديمة، وتشكلت نظرة جديدة دفعت الإطار الضيق المحيط بمعاني الوحي والرسالة والتدين بعيداً إلى آفاق رحبة، وشعرت خلال دقائق قليلة بلحظة التحرر وزوال الغشاوة عن عيني التي كانت تحجب الآفاق الواسعة. التقيت بجودت منذ ذلك الحين مرات عديدة، وحضرت بعض جلسات درسه الأسبوعي الذي كان يعقده في منزله الواقع في ركن الدين. وكان يقيم بعيداً في قرية بئر عجم في مرتفعات الجولان قرب الحدود مع إسرائيل، ويأتي خصيصاً للالتقاء بمجموعة من الطلبة الذين لازموه لعقود. كان الشيخ جودت يحمل رؤية ناقدة ترفع القدسية عن جيل الصحابة وتخضع سلوكهم لعملية نقد منهجي. وكان ديدنه القيم الإسلامية والخطاب القرآني والنظرة العقلانية الناقدة. كتابات جودت واللقاءات القليلة التي حضرتها في حلقته تركت أثراً عميقاً في نفسي، ووقعت مني موقعاً حسناً؛ لأنها أكدت عندي أولوية النظر العقلي وضرورته فهم الإسلام فهماً خالياً من الشوائب العديدة التي خيمت على فهم المسلمين مع تقادم العصور وتراكم العلوم والمعارف والكتابات والشروحات.

قربتني كتابات جودت إلى كتابات مالك بن نبي، المفكر الجزائري الذي أمضى سنة في دمشق، وتزوج من دمشقية. كان مالك يلقي دروساً في جامع الشمسية عندما كان جودت خطيب الجمعة المكلف بإلقاء الخطبة الأسبوعية هناك. كتابات مالك بن نبي تركت أثراً كبيراً في فكر جودت، كما تركت أثراً في فكري. وكان مالك ناقداً شديداً ومتمكناً للخطاب الإسلامي الإحيائي الذي حوَّل مشكلة العالم الإسلامي إلى علاقة بين الكفر والإيمان، في حين كان مالك بن نبي يراها مشكلة ثقافة بحاجة إلى إصلاح، وإلى مشكلة انفصام كامل بين الخطاب والفعل. التقيت جودت في عدد من زياراتي خلال هجرتي الطويلة، والتقيته بعد ذلك في مكاتب المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي عملت فيه في أمريكا، وكان آنذاك بصحبة عفراء الجلبي، ابنة أخته ليلى، وابنة أشهر تلامذته خالص الجلبي. عفراء التي تربت في كندا تكنُّ لخالها مودة خاصة تجتمع فيها آصرة الدم والفكر. وهي كخالها وكأبيها تحمل فكراً ناقداً، كما تحمل الجرأة في النقد والطرح، وهو أمر لا شك اكتسبته، إضافة إلى أيادي عمها البيضاء، من أبيها خالص الجلبي، الناقد الديني والسياسي المعروف بجرأته وصراحته.

لعل أبرز أفكار جودت سعيد وأكثرها جدلية، فكرة اللاعنف، والتي تعكس موقفاً وجودياً مطلقاً لا يقبل التغيير والتبديل مهما تغير السياق الاجتماعي وتبدل. هذا الموقف بيَّنه في مقالة صغيرة نشرت ضمن كتيب بعنوان (**مذهب ابن آدم الأول**). بالنسبة لجودت موقف هابيل المسالم الذي نقله لنا الكتاب الكريم موقف نهائي لا خروج عنه، ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 5/ 28]. كنت أرى موقف جودت تعبيراً عن رؤية «مسالمة» ترفض العنف واستخدام القوة بكل أشكالها، حتى دفاعاً عن النفس، تماماً كموقف هابيل من أخيه قابيل. ورغم أني أومن بالسلام بوصفه الموقف الأصيل والنهائي تجاه الاختلافات البشرية، والصراعات الاجتماعية والدينية والفكرية والعقدية، إلا أني أرى مشروعية مواجهة العنف بالقوة الرادعة الضرورية لإيقافه عندما تعجز السبل الأخرى عن منعه أو ردعه. العنف ليس وسيلة مقبولة لإنهاء

الخلافات السياسية والدينية، واستخدامه بدءاً جريمة يجب أن يعاقب عليها مرتكبه. ولكنني أومن بحق الأفراد والمجتمعات السياسية بردِّ العدوان المسلح واللجوء إلى السلاح دفاعاً عن النفس.

الخروج من القمقم

ترافقت سنوات دراستي الجامعية مع تزايد الصراع المسلح الذي بدأته جماعات دينية سعت إلى مواجهة جهود حافظ الأسد، وقيادات حزب البعث، على فرض رؤية كلية للمجتمع تتعارض مع التقاليد المحافظة للأغلبية السورية. وأظهر والديّ مخاوفَ من الانسياق إلى دائرة الصراع المتزايد. المخاوف كانت متضخمة وغير مبررة في تقديري، ولكن الأجواء الصعبة التي خيمت على البلاد، وإدراكهم للأخطاء الكبيرة التي وقع فيها النظام لأخذه الناس بناء على شبهات أو تقارير كاذبة، جعلتهم في حالة قلق مستمر. أذكر أن والدي اقتحم مجلساً كان يحضره فايز وأمجد وجلس بيننا دون أن ينبس ببنت شفة. وكنا نقرأ في كتاب من كتب جودت سعيد. فاستغربت سلوكه، وتوقفت عن الحديث، وطلبت منه أن نتكلم عن أسباب وجوده في الغرفة بهذه الطريقة غير المعتادة.

بدأت الوالدة التفكير جديّاً بضرورة سفري للعمل خارج سورية في السنة الأخيرة من دراستي، وتجنيبي أداء الخدمة العسكرية؛ خوفاً من دخولي في صدام مع ضباط الجيش؛ الذي تحول عمليّاً إلى جيش يهدف إلى «تكسير النفوس» وترويض خريجي الجامعات. فقد سبق أن دخلت في عراك بالأيدي مع ضابط خلال معسكر الديماس بعد خلاف بيننا؛ حاول خلاله دفعي بيديه خارج الصف الذي كنت أقف به، فتلقّى دفعاً أكبر، وأسرع زملائي في المعسكر إلى التفريق بيننا. وتم تطويق الحادثة وانتهت دون تداعيات تذكر. تواصلت أُمي مع عمي وأقنعته بدعوتي لزيارته في مكة، مكان عمله مع شركة إنشائية متخصصة ببناء الجسور والطرقات. وسافرت إلى مكة في العطلة الفصلية، وأديت العمرة، وأمضيت أسبوعا بصحبته، عدت بعدها وأنا بغاية الشوق للانتقال إلى السعودية والعمل هناك. وبدأت التحضير للسفر مع نهاية العام الدراسي، وحصلت على جواز سفر بعد وضع كفالة

مالية، وبذلت الوالدة جهدها لمساعدتي في الحصول عليه، وحصلت على كشف بعلاماتي قدمته للشركة الهندسية التي كان عمي بسام يعمل بها.

جاء المودعون من أصدقائي وأقاربي في الأسبوع الأخير قبل موعد السفر. وكنت على علاقة ممتازة مع أسرتي الكبيرة من جهة أبي وأمي. وأبدى ابن عمي إياد استياءه لأنني احتفظت بمادتين دراسيتين قبل سفري ولم أُنهِهما. كما أبدى خشيته أن لا أتمكن من إنهائهما إذا طال سفري وابتعدت طويلاً عن الجامعة. كنت عازماً على السفر، راغباً في بدء حياة جديدة في بلاد شعرت لدى زيارتي القصيرة لها أنها ستوفر لي فسحة نفسية وعملية أكبر من تلك التي يمكن أن توفرها لي ظروف الشام الضيقة وآفاقها المحدودة.

حان وقت الوداع، وذهبت برفقة الأسرة الصغيرة إلى المطار، بعد أن ودعت الأسرة الكبيرة في اليوم السابق. جلست بجانبي في المقعد الخلفي أختي لينا وليلى، كما جلس أخي الصغير عامر الذي لم يتجاوز آنذاك السنوات الخمس من العمر. كان حزيناً وجلاً، مستشعرا رغم صغره بأن سفري هذا له طبيعة خاصة، وأنه فراق طويل، أو ربما هكذا بدت لحظات الفراق لي! كنت ألاعبه دائماً، وأصحبه معي في بعض المشاوير وأشتري له الألعاب والحلوة. وكنت له بمقام الأب كما كان بالنسبة لي بمنزلة الابن، فالسنوات العشرون التي فصلت بين مولِدَينا فرضت علينا علاقة لا تشبه تماماً علاقة الأشقّاء، خاصة في تلك المرحلة مع تفاوت واضح في الحجم والخبرة والوعي. ركبت الطائرة وأنا أشعر بمرارة الفراق بعد اختفاء أحبِّ الناس إلى قلبي خلف جدران المطار. كانت تلك المرة الأولى التي أرحل فيها بعيداً عن الأسرة التي تربطني بها علاقة حميمة. شعرت للحظات أنني أسافر إلى مكان إقامتي الجديد بجسدي، بينما تتهرب روحي من السفر وتصرُّ على البقاء في مرتع الصبا والشباب، وترفض المغادرة إلى مكان جديد وحياة مختلفة لم تتضح بعد معالمها. جلست على مقعدي داخل الطائرة تملؤني مشاعر مختلطة من الحزن والترقب والأمل. وتحركت الطائرة ببطء على المدرج، ثم تسارعت، قبل أن تحلق في السماء بعيداً عن المكان الذي اختلط هواؤه وماؤه بدمي، وانطبعت معالمه في روحي، لتعلن انتهاء مرحلة من حياتي، وبدء مرحلة جديدة وزمن مجهول.

3

وقفات في مهبط الوحي

(1981 – 1983)

حطَّتِ الطائرة في مطار جدة في مطلع شهر تموز بعد رحلة قصيرة. خرجت من الطائرة ونزلت على درجات سلمها بحذر وهدوء، ونسمات من الهواء الساخن تلفح وجهي، ذكرتني بالهواء الساخن المنبعث من الفرن المجاور لبيتنا؛ الذي كنت أستشعره كلما حاذيته وأنا أرقب الخباز يضع رقائق العجين على صفيحة معدنية، ثم يدخلها بعد ذلك إلى حجرة النار لتتحول إلى أرغفة الخبز الشهية. حرارة الهواء كانت مفاجئة؛ إذ لم يسبق لي أن أحسست بمثل هذه الحرارة من قبل، حتى في أشدِّ أيام صيف دمشق حرارة. لم أشعر بمثل هذه الحرارة في زيارتي الماضية لجدة؛ لأنها جرت خلال أيام الربيع قبل اشتداد الحر في مدن الخليج. انتقلت مع عمي بسام في سيارته من مطار جدة إلى منزله في حي العزيزية في مكة، وكانت الرحلة تلك قصيرة لا تتجاوز نصف الساعة. لم تكن طرق المملكة مزدحمة آنذاك، بل تميزت بالاتساع والانسياب، على عكس طرق الشام الضيقة المكتظة.

ذهبت يوم وصولي برفقة عمي رياض لأداء العمرة، وكان مقيماً في منزل أخيه بسام الذي يصغره بسنوات. وكان يهيئ نفسه لفتح مخزن تجاري في أحد أحياء مكة. ذهبنا في المساء وكان الحرم مضاءً بأنوار كاشفة قوية أحالت الليل إلى نهار. بعد الطواف ذهبنا إلى السعي، لكن عمي الذي كان حديث عهد في مكة لم يكن متأكداً أي التلَّتَين المتقابلتَين هي الصفا، وبعد

سؤال أحد زوار البيت العتيق شرعنا بالسعي سبعة أشواط؛ لنكتشف في نهاية سعينا أننا بدأنا بالمروة بدلاً من الصفا. تتميز الصفا، وهي تلة صغيرة إلى الجنوب الشرقي من الكعبة، بارتفاع صخورها الكبيرة البادية للعيان عن صخور المروة التي تم تبليطها فاختفت تحت الممرات المخصصة لمشي الساعين، وأصبح من الصعب تمييز التلة من محيطها. قمنا بتصحيح الخطأ بإضافة شوط أخير لننتهي بالمروة، ونقصر شعرنا ونختم مناسك العمرة، ونعود بعد ذلك إلى البيت للتحلل من الإحرام.

الانطباع الأول

انطباعي الأول عن الكعبة كان مفاجئاً. كان حجم مبنى الكعبة في مخيلتي أكبر من الحجم الذي بدا لي وأنا أتحرك نحوها بعد دخولي إلى الصحن الواسع المحيط بها. ولعل مكانتها الكبيرة في نفسي، بوصفها "بيت الله الحرام"، جعلني أربط عظمة حجمها بعظمة ما تمثل. رؤيتها أمامي بحجمها الذي لا يزيد على بناء صغير ثلاثي الطبقات من أبنية مدينة دمشق الحديثة أعاد إلى وعيي رمزية البناء. الكعبة رمز ومركز لمناسك الحج يتوافد إليها الناس من كل حدب وصوب. أما البناء فهو جهد بشري قامت به أجيال متتالية، وهو محدود في حجمه بالحدود البشرية التي سعت إلى إتمام القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل قبل آلاف السنوات. ضعف الإمكانيات جعلت البناء الحالي دون القواعد التي وضعها إبراهيم لبناء الكعبة، والتي كانت تشمل حجر إسماعيل. لكن عجز قريش عن ضمِّ الحجر إلى بناء الكعبة، أعطى الحجر اسماً آخر هو "الحطيم" لتحطم البناء حوله. إقرار الرسول عليه الصلاة والسلام منطقة البناء الحالي أتاح لملايين الناس الفرصة للصلاة داخل قواعد البيت؛ أي داخل بناء الكعبة الأصلي. ولو ضمت القواعد لضاعت تلك الفرصة، وحرم عامة الناس من الصلاة ضمن القواعد الأصلية التي رفعها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

كانت توسعة الحرم المكي مكتملة عندما وصلت إلى مكة، والتي

شملت قاعة الصلاة المسقوفة في الطابق الثاني. كان مبنى الكعبة مع ذلك هو المبنى الوحيد الذي يلفت أنظار زوّار الحرم. عندما أعود اليوم بالنظر إلى تلك الحقبة أشعر بشيء من الرضا؛ لأن عهدي الأول بمكة سبق النهضة العمرانية حول الحرم، والتي أدت إلى تغييب تلال كاملة كانت تحيط بالحرم، وبناء أبنية مرتفعة تضم "برج الساعة"، وهو ثاني مبنى ارتفاعاً في العالم اليوم بعد "برج خليفة" في دبي. الرضا الشخصي بإحساسي بمركزية الكعبة المعمارية قبل عقود يغالبه بطبيعة الحال حزن وألم لحرمان ملايين الحجاج من الإحساس بتلك المركزية، والاقتصار على الشعور بمركزيتها الروحية. زياراتي العديدة لمكة خلال السنوات الخمس الماضية ولَّد لدي تلك المشاعر الحزينة وأنا أرى أن المبنى المهيمن على وادي مكة ومنطقة الحرم؛ والذي أصبح محطَّ أنظار الحجاج والمعتمرين، ليس بناء الكعبة، بل "برج الساعة" الشاهق، وكتلة الأبنية المرتفعة المطلة على الحرم المكي. إعادة مركزية الكعبة المعمارية أمر ضروري؛ لأن الحج يقوم على أساس المناسك والشعائر ذات الطبيعة الرمزية. كل ما يقوم به الحجيج يحمل رمزية، وبقاء الكعبة البناء المهيمن على المكان لا يقلُّ في أهميته الرمزية عن أي منسك آخر من مناسك الحج والعمرة.

احترام المسلمين للكعبة وتقديرهم لها دفعهم إلى تغطية بنائها الحجري بثوب أسود مزركش بخيوط ذهبية جميلة، في مسحة جمالية تضفي رونقاً خاصّاً على البناء. اللون الأسود وحجارة الكعبة البازلتية السوداء يعطي الكعبة جمالاً وجلالاً، ويضفي متعة خاصة على النظر إليها. الشعور الذي كان ينتابني كلما نزلت إلى الحرم شعور الطمأنينة والرضا، وهو شعور مكمل لإحساسي بجمال الصحراء المحيطة بوادي مكة، والممتدة على امتداد النظر التي يتمتع برؤيتها القادم إليها من جميع الجهات. رمال الصحراء الصفراء الفاقعة، على الطرق المحيطة بمكة، كانت تغطيها أشجار شوكية متباعدة تميل بلونها إلى لون أوراق الزيتون الخضراء الباهتة، وترتفع فوقها سماء زرقاء صافية في معظم أيام السنة، في تناغم رائع خلاب من الألوان والأشكال.

وصلت إلى مكة مع انتهاء التوسعة الأولى للحرم، والتي انتهت في عهد الملك خالد بن عبد العزيز. كانت البيوت السكنية قد امتدت حول الحرم من كل جوانبه، لكنها لم تكن تتضمن أبنية شاهقة كتلك الواقعة اليوم قرب جبل (أبو قبيس). كانت الأبنية في منطقة أجياد لا تزيد على خمسة طوابق، وكانت الأنفاق التي تصل أجياد بالعزيزية قد انتهت وبُدِئ بتشغيلها. كذلك النفق الواصل بين العزيزية ومنى. كان جبل أجياد على حاله في الجهة الجنوبية من الحرم، وكانت القلعة التركية لا زالت قائمة لم تهدم بعد. التوسعات المتتالية والأبنية الشاهقة التي ارتفعت في الجهة الجنوبية أدت إلى اختفاء عدد من الجبال القريبة من الحرم؛ منها جبل عمر وجبل العقبة وجبل شيبة؛ التي أدخلت ضمن التوسعة الشمالية، وجبل الفلق الذي أزيل جزء منه، وجبل الكعبة، وجبل هندي، والأخيرين ارتبطا بالتوسعة من الجهة الشمالية الغربية. وكان بإمكان زوار البيت النزول إلى منطقة بئر زمزم والشرب من صنابير ينقل إليها الماء من البئر عبر مضخات، هذه المعالم اختفت وأضحت أثراً بعد عين.

تم تعييني بعد أسبوع من وصولي مهندساً ميدانيّاً في شركة كرا التي كان عمي يعمل بها. ورتب عمي لقاءً لي مع مدير الشركة في مكة، المهندس طارق القصبي الشقيق الأصغر لمؤسس الشركة عبد الله القصبي. كان مركز الشركة الأساسي في مدينة جدة القريبة من مكة، وكانت الشركة تعمل على عدد من المشاريع، منها بناء مواقف الحجيج حول مدينة مكة. كلفت بمتابعة أعمال مشروع مواقف سيارات مدخل جدة، وكلفت لاحقاً بالعمل في مواقف سيارات الطائف بالقرب من عرفة. كنت في البدء أذهب إلى الموقع في سيارة بضائع صغيرة، وتسمى في السعودية «الوانيت»، يقودها شاب من بدو الجزيرة. ولم تكن السيارة مزوَّدة بمكيِّف للتبريد في أجواء صيف مكة الحارة؛ والتي تبلغ حرارتها (55) درجة مئوية أيام الصيف. كنت أفتح النافذة لأخفف من الحرارة داخل السيارة، لكن حرارة الهواء العالية لم تكن

تجدي نفعاً. العزاء الوحيد لمن يسكن مكة أن هواءها الحارّ خالٍ تماماً من الرطوبة، وبالتالي لم يكن يصاحب الحر الشديد تعرقاً مزعجاً. وبالمثل كانت المياه المخزنة في خزانات معدنية في مواقع العمل شديدة الحرارة، يصعب استخدامها للوضوء خلال فترات الظهيرة عندما تبلغ درجات الحرارة مداها الأعلى؛ فكنت أحتاج إلى ترك المياه في يدي بعض الوقت قبل غسل وجهي لخفض حرارتها المرتفعة.

بعد أسبوعين من الاعتماد على سائق «الوانيت»، ذهبت إلى مكتب الآليات في الشركة، وطلبت الحصول على سيارة، واخترت واحدة من بين مجموعة من السيارات المتروكة. لكن مكيِّف السيارة لم يكن يعمل لأن السير الذي يصل الضاغط بالمحرك كان مفصولاً. وعندما أصريت على وصله رغم ممانعة المهندس المسؤول عن الورشة، تحسنت الحرارة داخل السيارة لبضعة أسابيع، قبل أن يتعطل المحرك. أخيراً، بعد أشهر من السعي للحصول على سيارة جديدة، تم تلبية طلبي وحصلت على سيارة «مازدا» بيضاء اللون. وانتهت مشكلة التنقلات التي رافقتني خلال الأشهر الستة الأولى لوصولي. مشكلة السيارة كانت واحدة من مشكلات عديدة واجهتني حال وصولي إلى مكة، تضمنت مشكلة الحصول على سكنٍ مستقلٍّ عن عمي، ومشكلة أخرى كانت بالنسبة لي أُم المشاكل؛ هي مشكلة التحدث والتخاطب مع مهندسي الشركة من غير العرب، ومع مهندسي الشركة الاستشارية المشرفة على أعمال المشروع. كانت لغتي الإنكليزية متواضعة، وكنت أبذل جهداً كبيراً للتواصل مع مدير المشروع المهندس مجيب الرحمن، وكان يتحدث إلي بصوت خافت ولهجة بنغالية، فكنت أُنصت إليه بتركيز شديد بحثاً عن مفردات أستطيع أن أفهمها لتفسير الجمل المتتابعة التي تتدفق من فمه. وكنت في بعض الأحيان أطلب منه أن يكتب ما يريد مني، خاصة عندما أشعر أن الموضوع لا يحتمل الخطأ في الفهم، ثم أعود إلى مكتبي بحثاً عن معاني الكلمات التي لا أفهمها في قاموس اللغة الذي لم يكن يفارقني.

أسابيع في بريطانيا

صادف موسم حج عام (1981) مطلع شهر أيلول، وعزمت على السفر إلى بريطانيا للانضمام إلى دورة مكثفة لتعليم اللغة الإنكليزية، واستعنت بمكتب سياحي في مدينة جدة للحصول على قبول، وغادرت مع بدء إجازة الحج الطويلة التي تستمر عادة لمدة شهر كامل للعاملين في مدينة مكة. سافرت في الموعد المحدد من مطار جدة إلى مطار لندن الرئيسي المعروف بمطار هيثرو. استقبلني في المطار رجل بريطاني يقود سيارة صغيرة، كلف من قبل معهد اللغة بنقلي من المطار إلى منزل الأسرة البريطانية المضيفة المتعاقدة مع المعهد لاستقبال الطلبة مقابل أجرة متفق عليها سابقاً. استغرقت الرحلة من مطار لندن إلى مدينة هيستنغ على الساحل الجنوبي من إنكلترا حيث تقيم الأسرة حوالي الساعتين. وصلت إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل، استقبلتني امرأة في منتصف العمر اسمها سالي، وقادتني إلى الغرفة المخصصة لي. كانت تلك المرة الأولى التي أسافر فيها إلى دولة أوربية، أحسست منذ أن حطت قدماي على الأرض البريطانية أنني دخلت إلى عالم جديد مختلف تماماً عن العالم العربي الذي عرفته في الشام والحجاز. وأكدت الأسابيع التي قضيتها في بريطانيا صدق مشاعري الأولى، وأدركت بصورة عملية الاختلاف الكبير بين عالمي الشرقي وهذا العالم الغربي؛ اختلاف في الطبيعة واللغة ونظام السير وعادات الناس وقيمهم. كان منظر النباتات الخضراء الممتدة على امتداد النظر غير مألوف لدي، لا في غابات الغوطة ولا جبال لبنان الخضراء. كانت الأعشاب تملأ المكان، وتنبت حتى في فراغات الإسمنت وشقوق الإسفلت على الطريق. كان الجو الغائم في سماء بريطانيا، والأمطار المستمرة لأيام، مختلف تماماً عن السماء الصافية والشمس المشرقة على مدار العام في الحجاز والشام، والتي لم يكن يعكر صفاءها سوى أيام قليلة من الغيوم والأمطار. وبدا الطراز المعماري لبيوت الطوب وسطوح القرميد مختلف بصورة كبيرة عن مشاهد الأبنية متعددة الطوابق في المدن التي عرفتها من قبل؛ مثل مكة وجدة ودمشق وبيروت

وعمان. وكانت مظاهر الهدوء والانتظام والاسترخاء التي تبدو على وجوه موظفي الخدمات البريطانيين وحركاتهم مختلفة عن مظاهر التجهم والحذر والقلق التي تميز وجوه العاملين في المؤسسات والشركات التي اعتدت عليها في المشرق العربي.

أمضيت في بريطانيا خمسة أسابيع، تحدثت فيها اللغة الإنكليزية في البيت عند الأسرة المضيفة وفي معهد اللغة وفي محلات البيع والشراء، وزرت خلالها قلاع أثرية في منطقة ساسيكس الجنوبية القريبة من المدينة التي أقمت فيها. كما زرت صديقي حسان الذي انتقل قبل سنوات إلى بريطانيا وتزوج امرأة بريطانية، وحلَّ في مدينة على الساحل الجنوبي لإنكلترا تسمى بورموث. زرت حسام ابن خالتي رجاء في مدينة على الطريق إلى بورموث بالقرب من مدينة تشتستر، وكان يدرس اللغة الإنكليزية هناك. وذهبت برفقة حسان خلال الأسبوع الأخير من إقامتي إلى أكسفورد، ثم إلى لندن حيث ودعني قبل أن أعود أدراجي إلى جدة. كانت رحلة مليئة بالنشاط والمغامرات؛ بدأت بشرائي سيارة صغيرة من نوع «موريس»، بمبلغ زهيد نسبياً، من شاب سوري غادر بريطانيا بعد أيام من وصولي. كنت أقود السيارة من بيت الأسرة المضيفة إلى المعهد كل يوم، وأستخدمها للرحلات خلال عطلة نهاية الأسبوع لزيارة الأماكن الأثرية؛ التي كنت أعشق زيارتها مذ أن كنت شاباً يافعاً في دمشق. من الأمور التي لفتت انتباهي، إضافة إلى الاختلافات في الطبيعة واللغة والعادات، حضور المرأة البريطانية وشخصيتها التي تضاهي في حضورها الرجال. هذا الأمر لم يكن مألوفاً؛ لأن مشاركة النساء في الحياة العامة في الثقافة التي نشأت فيها كانت محدودة. بينما كانت الفتاة البريطانية التي شاهدت تنافس الشاب، فتواجه وتخالف وتجادل دون تردد في دوائر العلاقات العامة التي لا يضبطها سوى تدافع الإرادات والرغبات والمصالح.

أمور ثلاثة بقيت عالقة في ذهني عن الثقافة البريطانية والشخصية الإنكليزية من زيارتي تلك: أدب البريطانيين الجمّ، والمهارات التواصلية

والاجتماعية التي يتلقاها الفرد البريطاني بحكم ثقافته، والاحترام الكبير الذي يكنّه للأسرة الحاكمة. الصورة تشكَّلت من خلال انطباعات شخصية ارتبطت بزيارتي ولقاءاتي؛ لذلك فإن تعميم هذه الانطباعات ينطوي بطبيعة الحال على شيء من المجازفة. أدب التعامل تجلَّى لي مثلاً في اعتذار البريطاني بلطف وأدب جمّ حال عجزه عن المساعدة في تحديد جهة العنوان أو الشارع الذي سئل عنه. جربت هذا في حالات عديدة، والنتيجة غالباً واحدة لا تتغير: اعتذار وبشاشة. وبالمثل فاحترام البريطانيين لملكتهم والأسرة المالكة لا يمكن لأي غريب أن يخطئه. مشاركة واسعة في الاحتفالات التي تشارك فيها الأسرة المالكة، ودفاع عنها أمام انتقادات الزوار. أذكر أنني طرحت في إحدى النقاشات التي جرت خلال دورة اللغة وضع الأسرة المالكة في بريطانيا، وتساءلت عن الحاجة لاستمرارها، رغم غياب أي وظيفة فعلية لها، والعبء المالي التي يتحمله المجتمع لاستمرارها. كان كلامي شديد الوقع على المدرِّسة التي خالفتني الرأي، دون أن تجيب عن مبرراتي لإنهاء دور الأسرة المالكة في بريطانيا. ثم عملَتْ على إنهاء النقاش عندما تابعت الحديث. وتكرر هذا المشهد في مرات عديدة مع بريطانيين آخرين. أما المهارات الاجتماعية وانفتاح البريطاني التلقائي على الآخرين، فحدث ولا حرج. تلحظه في الناس الذين تلتقي بهم في الحافلات والقطارات أو الأماكن العامة، كما تلحظه عند لقاء معارف جدد. في زيارتي لحسان في منزله في مدينة بورموث؛ التي تقع على مسافة (200) ميل من المدينة التي أقمت فيها، تعرفت على زوجته، واسمها ديبورا، وتنحدر من بلدة صغيرة قرب مدينة أكسفورد، زرتها فيما بعد بصحبة حسان. استقبلتني ديبورا بحرارة وكأنها تعرفني من أمد بعيد، وحرصت أثناء زيارتي، بعد أن علمت بأن صداقتي مع حسان تعود إلى أيام الطفولة، على سماع قصص عن مراحل طفولته وشبابه.

جاءت زيارتي لحسان في الأسبوع الأخير من إقامتي في بريطانيا، وحرصت على السفر إليه عبر الطريق الساحلي. الطريق الساحلي ضيق متعرج، ويحتاج السفر فيه زمناً أطول، ولكني اخترته رغبة في المرور عبر

القـرى والمـدن السـاحلية والتعـرف عـلى معالمهـا. كان الطريـق جميـلاً تحيـطُ بـه الأشـجار والأعشـاب الخضـراء مـن كل جانـب، ويمـرُّ قريبـاً مـن عـدد مـن القصـور والمعـالم التاريخيـة الأثريـة. بعـد سـير لعـدة سـاعات، ثُقِبـت العجلـة الخلفيـة للسـيارة، وتوقفـت عـلى جانـب الطريـق لإصلاحهـا، أخرجـت العجلـة الاحتيـاط لاسـتبدالها لأكتشـف أن الرافعـة الصغـيرة غـير موجـودة. كانـت تلـك المـرة الأولى التـي أحتـاج فيهـا إلى اسـتبدال العجلـة. وقفـت إلى جانـب السـيارة في مـكان غريـب عـلى طريـق خـارج المدينـة. لم يكـن حـولي عـلى امتـداد البـصر هاتـف عـام، ولم أكـن أحمـل هاتفـاً، فلـم تكـن الهواتـف النقالـة معروفـة في ذاك الزمـن. كان المخـرج الوحيـد هـو في مسـاعدة تـأتي مـن السـيارات القليلـة التـي تعـبر الطريـق الزراعـي. خـلال دقائـق مـن الانتظـار توقفـت سـيارة عـلى كتـف الطريـق، ترجَّـل منهـا شـاب ثلاثينـي، واقـترب منـي يعـرض عـلي المسـاعدة. حاولـت بلغتـي الإنكليزيـة المحـدودة أن أشرح لـه أني لا أمتلـك رافعـة العجلات، طبعـاً دون معرفتـي بالكلمـة الإنكليزيـة المناسـبة. أجابنـي الرجـل الغريـب بلكنـة عميقـة لم أفهـم منهـا كلمـة واحـدة. ولكنـه لم يلبـث أن ذهـب إلى سـيارته وعـاد برافعـة قدمهـا لي لاسـتخدامها، ثـم انتظـرني بصـبر حتـى انتهيـت مـن تبديـل العجلـة، ليأخـذ الرافعـة ويمـضي في طريقـه.

استحقاق الاغتراب

عـدت بعـد رحلتـي هـذه إلى مكـة لأتابـع عمـلي. ورغـم قـصر المـدة التـي قضيتهـا في بريطانيـا إلا أنهـا تركـت أثـراً إيجابيـاً عـلى قـدرتي عـلى التحـدث وفهـم اللغـة، انعكسـت بصـورة ملحوظـة عـلى تواصـلي مـع رئيـسي مجيـب الرحمـن ومع فريـق الاستشـاريين. بعـد عـودتي بقليـل سـعيت إلى الانتقـال إلى مسـاكن الشركـة المخصصـة للعازبـين، وتسـلمت خـلال أسـابيع غرفـة مسـتقلة في وحـدة سـكنية مشـتركة تضـم أربـع غـرف وحمـام وغرفـة جلـوس في وسـط الوحـدة. كنـت سـعيداً بالاسـتقلال في السـكن. كانـت الغرفـة متوسـطة الحجـم، وكنـت أقـضي فيهـا الليـل، ونصـف سـاعة خـلال اسـتراحة الظهـيرة، آخـذ خلالهـا قيلولـة قصـيرة بعـد تنـاول وجبـة الظهـيرة. كان دوامـي يبـدأ مـن السـاعة السـابعة

صباحاً حتى الساعة الثانية عشر ظهراً. نستريح بعدها حتى الساعة الثانية والنصف، لنعاود العمل حتى الساعة الخامسة والنصف أو السادسة مساء. وفي حالات صبِّ الخرسانة كنا ننتظر حلول الليل وانخفاض الحرارة؛ لتجنب تأثيرات الحرارة العالية السيئة على تصلب الخرسانة. وكان المطعم التابع للمجمع السكني يقدم وجبات ثلاثة مجانية، ويتضمن مسبحاً كبيراً وملعباً للتنس وآخر لكرة السلة.

كنت أمارس السباحة والتنس وكرة السلة بصورة دورية. اتجهت بداية إلى لعب التنس مع بعض الأصدقاء العاملين في الشركة والمقيمين في مجمعها السكني، ومنهم مهندس مصري كان مسؤولاً عن قسم الآليات التابع للشركة. ثم دعوت صديقاً من مدينة حلب يعمل مهندساً مدنيّاً في الشركة اسمه عبد المجيد المصري، كان مهندساً نشيطاً وودوداً، ورجلاً كريماً وشهماً. وكنا أحياناً نلعب كرة السلة معاً، أو بمشاركة مهندس آخر كان يقيم في المجمع السكني. ثم بدأت أدعو أصدقاء آخرين للمشاركة في مباراة أسبوعية في كرة السلة، وكان معظمهم من الزملاء العاملين في الشركة؛ أذكر منهم عبد الرشيد كلاس، ومحمد شهاب، وحسين حنو، وفيصل التوبة. دعوت كذلك عَمَّي بسام ورياض للانضمام؛ فكانا يشتركان في بعض المباريات. تطورت الأمور لاحقاً؛ فلم يتوقف الفريق في نشاطاته على المباريات الخاصة في ملعب الشركة، بل شاركنا في مباراة مع فريق شباب الأهلي الذي كان يترأس مجلس إدارته طارق القصبي مدير فرع الشركة في مكة. كانت المباراة مع فريق شباب الأهلي صعبة، خسرناها في النهاية بفارق ضئيل في النقاط، ولكن التنافس مع فريق رسمي عكس أثر التدريب الأسبوعي على فريقنا الخاص؛ الذي كان الهدف من تشكيله هو الترفيه والترويح والمحافظة على اللياقة.

كان مجمع الشركة السكني مكاناً هادئاً وجميلاً خلال ليالي الشتاء المعتدلة، لقربه من منطقة الهدا على طريق الطائف. كنت أجتمع مع بعض الأصدقاء في مقهى المجمع المجاور للمسبح، نتسامر في الهواء الطلق ونشرب

الشاي والقهوة ونتبادل الحديث. دعوت عمي بسام وزوجته يوماً لقضاء أمسية في مقهى المجمع، وحضرا وأبنائهما الثلاثة؛ وسام وأحمد وهاني. جلسنا في طرف المقهى نشرب الشاي ونتبادل أطراف الحديث في مواضيع مختلفة. كانت الأضواء خافتة في منطقة المقهى تُمكن الجالس من رؤية من حوله، ولكن ملاعب التنس والسلة والمسبح المحيطة بالمكان كانت شديد الظلمة. كنت أواجه المسبح الذي يبعد نحو العشرين متراً عن مكان جلوسنا، عندما لاحظت أثناء الحديث حركة في مياه المسبح شبيهة بالحركة التي تولدها البطة عند دخولها إلى الماء للسباحة. لفتت حركة المياه انتباهي وأنا أستمع إلى عمي يتحدث عن بعض مشاغله، فحدَّقت أبحث عن الطائر الذي سبب تلك الحركة المفاجئة، فلم يسبق أن رأيت في المكان طيوراً مائية! استمرت حركة الماء دون توقف لثوانٍ عديدة، فتركت الكرسي الذي كنت أجلس إليه واقتربت من المسبح لأتبين حقيقة ما يجري، وفجأة ظهر لي أن أحمد أوسط أولاد بسام، وكان في الثالثة من العمر، ينتفض داخل الماء على الطرف البعيد من المسبح. ركضت وألقيت بنفسي في المياه ورفعته إلى حافة البركة، لم يتطلب إنعاش أحمد وقتاً، فقد حافظ على وعيه بعد سعال متتابع أخرج الماء من رئته. حمدت الله أن هداني لرؤيته في لحظة مبكرة في تلك البقعة المتطرفة البعيدة من المسبح. استلقيت مساء ذلك اليوم بعد مغادرة عمي وأسرته عائدين إلى منزلهم بسلام بعد أمسية لا تنسى، وأنا أردد كلمة "الأجل"، والأسئلة تتلاحق في رأسي. ما الذي نبهني في تلك الأمسية إلى محنة أحمد؟ ما الذي جذب انتباهي إلى تلك الزاوية البعيدة المتطرفة من المسبح؟ ما الذي أبعدني عن التحديق في وجه عمي وهو يشاركني اهتماماته؟ هل ما حدث مصادفة؟ هل هو حسن حظ؟ هل هو توقيت مناسب؟ أم أنه التوفيق والعناية والأجل؟ بطبيعة الحال لم يكن لأسئلتي المُلِحة إجابات موضوعية؛ فالتمييز بين المصادفة والتوفيق، والأجل والتوقيت، هو في جوهره تمييز بين المظهر والحقيقية، وبين الشكل والجوهر، وبين الشهود والغيب. المصادفة والتوقيت توصيف خارجي لما حدث، والتوفيق والأجل هو التوصيف الداخلي الذي يقوم على رؤية كلِّية تتشكل في وعي الإنسان

وتنتمي إلى روحه لا إلى عالم الظواهر. سعيي لفهم أحداث تلك الليلة قبيل الاستسلام إلى النوم ربط معنى "المصادفة" بمعنى "التوفيق"، وساوى بين معنى "التوقيت" ومعنى "الأجل". ألم تكن المصادفة في تلك الأمسية توفيقاً؟ أَوَليس التوقيت في تلك اللحظة تأكيداً لمعنى الأجل؟ تتالت الأسئلة في ذهني، وتماهت معاني الأجل والتوقيت في وجداني. التوقيت الذي صادف إنقاذ أحمد كان توفيقاً أكَّد أن الأجل لم يحن بعد! حمدت الله على توفيقه واستغرقت في نوم عميق.

لم تكن الرياضة وجلسات السمر هي النشاطات الوحيدة التي ملأت وقتي خارج ساعات العمل؛ إذ سرعان ما دعوت بعض الأصدقاء، بعد أن استقر بي الحال، للمشاركة في لقاء أسبوعي لمراجعة بعض الكتب، وبدء حوار حول قضايا المجتمع وتحديات اللحظة. كان اللقاء الأسبوعي هذا امتداداً للقاءاتي الأسبوعية التي اعتدت عليها في سنوات الشباب في دمشق، قبل مغادرتها إلى حياة الغربة في السعودية، ثم إلى الولايات المتحدة. كنا نلتقي لمناقشة كتاب أو مقالة نقرؤها، وكنت أقترح كتابات جودت سعيد ومالك بن نبي وغيرهما من المفكرين التنويريين، ولم تكن كتاباتهم رائجة في الخليج والكثير من البلاد العربية الأخرى. كنا أحياناً نقرأ القرآن ونسعى لفهم تفسير الآيات. كان هذا اللقاء منعشاً فكرياً وروحياً واجتماعياً، وكان يحضره عدد قليل من الأصدقاء؛ منهم حسين حنو؛ وهو مهندس فلسطيني الأصل. وكان يحضر أحيانا الصديق عبد الرشيد وفيصل التوبة. وآخرون حضروا بعض اللقاءات لم أعد أذكر أسماءهم بعد عقود ثلاثة. وكانت تنقل إلي شائعات يتناقلها الوافدون حول منع الجلسات الخاصة التي تناقش الشأن العام، وأخبار عن ترحيل وافدين بسبب لقاءات خاصة. لم أكن شخصياً أُعير هذه الشائعات كثير اهتمام؛ لأنني كنت متيقناً أنها مبنية على معلومات ناقصة، وكنت أؤمن بالدور الحيوي للنقاشات والحوارات على المستوى الفردي والاجتماعي، وأرفض فكرة أن الدولة تستطيع منع التفكير الحرّ والتبادل البناء للآراء.

الرياضة التي كنت أمارسها على الدوام، واللقاءات الفكرية الخاصة التي كنت أنظمها وأشارك فيها، وفَّرت لي فضاءً اجتماعيّاً وثقافيّاً، وساعدتني على ملء أوقاتي بنشاطات إيجابية، وأبعدتني عن الفراغ الذي يؤدي غالباً إلى أحوال سلبية. اللقاءات الدورية وحلقات النقاش أكملت اهتماماتي القديمة بقراءة الأعمال الفكرية، وسمحت لي بنقل القراءات من مستوى التأمل الذاتي إلى مستوى التفاعل الفكري والثقافي، وشكَّلت بذلك استمراراً لما بدأته في الشام قبل مغادرتها. هذه القراءات المستمرة في الأعمال الفكرية المتنوعة، وسعيي لكتابة ملخصات لأغلب الأعمال التي كنت أقرؤها؛ زودتني بذخيرة فكرية مهمة، لم أدرك أهميتها إلا عندما عزمت على دراسة العلوم السياسية والمعارف الفلسفية والدينية بعد انتقالي إلى أمريكا، وانخراطي رسمياً في برنامج دراسات عليا في العلوم السياسية؛ إذ وجدت نفسي في مستوى متقدم بالمقارنة مع أقراني، على الرغم من أنني لم أدرس العلوم السياسية والفلسفية خلال سني الجامعة.

غياب الروح وحضورها

كانت الأشهر الأولى لإقامتي في السعودية صعبة، عانيت خلالها من ألم الفراق، خاصة بعدما تركت منزل عمي وانتقلت إلى مساكن الشركة، على طريق الطائف على الحدود الخارجية لمدينة مكة. كانت الحياة الأسرية مهمة لي، وكنت قريباً من والديّ وإخوتي. كانت الأسرة الصغيرة جزءاً لا يتجزأ من وعيي خلال سنوات المراهقة والشباب. لم يكن يخطر ببالي يوماً أن نتفرق ونبتعد. وهاأنذا أجد نفسي في مكة بعيداً عن أقرب الناس إلي. حاولت أن أشغل نفسي بعملي ونشاطاتي الاجتماعية وقراءاتي، ولكن الإحساس بالغربة والبعد عن الأهل بقي يؤرقني، خاصة في الشهور الأولى من غربتي. وكنت أتصل بوالديّ هاتفياً، لكن الاتصالات كانت متباعدة، بمعدل اتصال واحد كل أسبوع أو أسبوعين. كانت الاتصالات الهاتفية آنذاك مكلفة نسبياً، وكنت بحاجة إلى الذهاب إلى مركز الهاتف بوسط المدينة للاتصال. أذكر أني كنت متجهاً يوماً بالسيارة إلى مكاتب الشركة الإدارية الواقعة في منطقة عرفات،

وكنت أستمع إلى مذياع السيارة، وبعد نشرة الأخبار تحول البث إلى أغنية (ست الحبايب) المشهورة للمطربة المعروفة فايزة أحمد، وما أن انتهى المقطع الأول من الأغنية حتى انهمرت الدموع من عيني بعفوية وتلقائية، كأنها تبحث عن منفذ أو مخرج تندفع منه، بعد أن حاولت لوقت طويل منعها من الانهمار بحاجز من الصلابة المتوقعة من "الرجال الذين لا يستسلمون للعواطف"! وهاأنذا في لحظة صدق أتخلى عن صلابتي المفتعلة، وأسمح لعواطفي بالانطلاق من عقالها تحت تأثير الفن الجميل، والكلمة الرقيقة التي تخترق كل الهالات الصلبة التي نصطنعها، لتصل إلى أعماق النفس فتحركها بكل سهولة ودون عناء. الكلمة الجميلة واللحن الرقيق كانا دائماً رفيقَيَّ المتعَين؛ كلاهما يؤثر في نفوسنا منفرداً، ولكن اجتماعهما يحرك مشاعر عميقة. لا زلت أذكر كلمات الأغنية الجميلة الساحرة على بساطتها، تردِّدها المطربة بلهجتها المصرية المحببة:

ست الحبايب ياحبيبه .. يا أغلى من روحي ودمي

يا حنينة وكلك طيبة .. يا رب يخليكي يا أمي

زمان سهرتي وتعبتي وشلتي من عمري ليالي

ولسه برضه دلوقتي بتحملي الهم بدالي

أنام وتسهري وتباتي تفكري

وتصحي من الآدان وتيجي تشقري

يا رب يخليكي يا أمي .. يا ست الحبايب يا حبيبة

علاقة الكلمات الجميلة بالنفس علاقة سحرية، شبيهة بعلاقة الكهارب التي يطلقها مصدر إلكتروني بالشاشة المؤلفة من وحدات ضوئية حساسة تنفعل عند ملامسة الكهارب لها، وتولد الصور نتيجة التفاعل بين الكهارب والوحدة الحساسة. الكلمة هي الكهارب، واللوحة الحساسة هي النفس، والصورة المتولدة عن تفاعل الكلمة مع النفس هي الروح

التـي تنفعـل لحظـة وصـول الكلـمات بالتسلسـل الـذي يولـد تفاعـل معـاني الكلـمات بأحاسـيس النفـس.

مـع اقـتراب فصـل الشـتاء في الحجـاز، المشـابه لفصـل الربيـع في الشـام، أتـت والـدتي لزيـارتي برفقـة أختـي ليـلى وأخـي الصغـير عامـر. قضيـت بصحبتهـم أيامـاً جميلـة أعـادت إلي روحـي، وخففـت لوعـة الفـراق. كنـت حزينـاً عـلى فـراق عامـر كـما كنـت حزينـاً عـلى فـراق بقيـة أفـراد الأسرة الحبيبـة، ولكـن مشـهد عامـر وهـو يجلـس بصمـت إلى جانبـي، شـارد النظـرة يـسرح بخيالـه في مـكان بعيـد لم يفارقنـي، بـل زاد مـن حـزني، وأحسسـت بمسـؤولية القـرار الـذي اتخذتـه بالابتعـاد عـن أرواح طيبـة كانـت تسـتأنس بوجـودي، أو عـلى الأقـل هكـذا كانـت أحاسـيسي الأولى التـي توهمـت! لكـن زيـارة عامـر أخرجتنـي مـن أوهامـي، وهـي أوهـام نشـترك بهـا جميعـاً، نحـن بنـي البـشر، ربـما بسـبب وقـوع وعينـا بذواتنـا في مركـز وعينـا الـكلي. ومـن هـذا الإحسـاس يتولـد شـعورنا بمركزيتنـا وتميزنـا كأفـراد. نعـم انتهـى الوهـم بأهميـة بقائـي بـين مـن أحببـت ومـن أحبنـي لاسـتمرار حياتهـم بشـكل طبيعـي، فقـد لقننـي أخـي الصغـير عامـر درسـاً مهـماً وأنـا أراه منشـغلاً باللعـب مـع وسـام ابـن عمـه الـذي يقربـه بالسـن، ويـكاد ينسـى أني موجـود في المـكان!

الاسـتثناء الوحيـد هـو حـبُّ الأم لأبنائهـا، وتعلُّقهـا بهـم، واهتمامهـا بوجودهـم، وافتقادهـا لهـم عنـد غيابهـم. مشـاعر الأم نحـو أبنائهـا مشـاعر عجيبـة، يصعـب علينـا نحـن معـاشر الرجـال أن نفهمهـا فهـماً عميقـاً. حـبُّ الأُم حـبٌّ خـاصّ، وهـو منحـة إلهيـة لجميـع الأحيـاء. حتـى في عـالم الحيـوان يبقـى حـبُّ الأم فريـداً مـن نوعـه. القطـة التـي اقتنتهـا ابنتـي لبنـى بعـد وصولنـا إلى الدوحـة سـنة (2011)، وأسـمتها "نيانـا" كانـت تنجـب مـرة كل عـام، وكانـت تدافـع عـن أولادهـا باسـتماتة ضـد محـاولات القـط الذكـر الاعتـداء عليهـم، في حـين أنهـا كانـت تفضـل الهـروب بعيـداً عندمـا تواجـه القـط نفسـه في الأحـوال العاديـة. كانـت تبقـى إلى جانبهـم لتحميهـم عنـد دخـول بعـض العـمال للعنايـة بالحديقـة الخلفيـة، لكنهـا تهـرب خـلال ثـوانٍ مـن شـعورها بدخـول العـمال في

الأحوال العادية. هذه المنحة المؤقتة في عالم الحيوان هي منحة دائمة في حياة الإنسان، منحة الأم والأمومة. رأيتها في والدتي التي استمر اهتمامها بشأني وقلقها على أمني حتى بعدما تقدم العمر وتجاوزتُ سن الخمسين. وأشهده اليوم في واقع زوجتي أم أبنائي ومشاعرها نحو أبنائنا الذين شبوا عن الطوق، ولكن حنان الأم وعطفها وخوفها على أبنائها بقي على حاله كما كان عندما كان الأبناء أطفالاً صغاراً لا حول لهم ولا قوة.

غادرت أمي بعد أيام إلى الشام، وبقيت وحدي في غربتي. كانت الأشهر الأولى من غربتي لحظات مهمة للتأمل وإعادة النظر في علاقتي بالوجود. غياب الأسرة التي أحاطت بي منذ أن تفتحت عيناي على العالم المحيط، والتي أحاطتني بالعناية والحب والاهتمام والدعم، وضعني وجهاً لوجه أمام سؤال الثابت والمتغير في حياتي. في تلك اللحظات التي اختفى المحيط الدافئ الذي شعرت دائماً أنه امتداد لروحي وجزء لا يتجزأ من وعيي، وجدت نفسي أبحث عن المرتكز الدائم لروحي المحدودة المنفتحة على الوجود، والتي أستشعر من خلالها وعيي لهذا الوجود الكبير اللامتناهي في أبعاده وأنواعه ومظاهره، ولأجده أخيراً بالشعور العميق باتصال هذه الروح المحدودة القلقة الباحثة عن معنى وجودها والهدف الذي تسعى لتحقيقه بالروح الكلية المطلقة؛ التي هي أصل الوجود وأصل الوعي الذي أحمله. أدركت في غربتي أن كل شيء في الحياة متغير من حولي، وأن الثابت الوحيد هو الله. مع غياب الحاضنة الأرضية لروحي ازداد شعوري بحضور الله في حياتي وفي وجودي. الوعي بحضور الله على المستوى الوجداني والحسي الذي أيقظته الغربة المفاجئة في مكة؛ شكَّل الخطوة الأولى ليقظة روحي وتفتحها على الكون العجيب الذي أنتمي إليه، وإلى خالقه العظيم العليم الحكيم الرؤوف الرحيم؛ الذي كنت دائماً أبحث عنه، وأعرف من أسمائه الحسنى وصفاته الجميلة الكثير. لكن غربتي الأولى في مكة المكرمة؛ حيث أول بيت وضع للناس ليذكر فيه اسمه؛ حوّل المعرفة النظرية إلى وعي عملي، واستشعار بحضور الله في حياتي بصورة لم أشعر بها من قبل. في غربتي في

مكة المكرمة أدركت بوضوح وبصورة عملية أن الله هو الثابت الوحيد في وعيي ووجودي المحدود بهذا الوعي، وأن كل وجود آخر أستشعر حضوره في وعيي ووجداني إلى زوال.

تقلبات العمل ولحظات الراحة

بعد عودة الوالدة إلى الشام عدت إلى حياتي التي أخذت شكلاً نمطيّاً. أيام الأسبوع أقضيها في العمل؛ في لقاءات مستمرة مع مقاولين مسؤولين عن أعمال البناء في موقف سيارات الحجاج، ومع مهندِسَين آخرَين أعلى رتبة مني؛ هما مجيب الرحمن، ومحيي الدين سالم. مجيب الرحمن كان مهندساً نشيطاً، ولكن قدراته التنظيمية كانت بسيطة، وقدرته على التواصل مع المقاولين والتفاهم معهم محدودة؛ فكانوا يفضلون التفاهم معي والعودة إلي في كثير من المسائل الإدارية. علاقة المقاولين والاستشاريين معي شكَّلت أزمة لمجيب الرحمن، بدأت تتفاقم إلى أن انتهت بطلبه مني مغادرة المشروع الذي يديره. كان طلبه مفاجئاً ومؤلماً في آن واحد. بحثت طلبه مع المهندس الأعلى رتبة منا جميعاً، المهندس محيي الدين سالم، وهو مهندس مصري الجنسية، وكان العاملون في الورشات التابعة له يهابونه. كانت تربطني به علاقة جيدة مبنية على التقدير والاحترام المتبادل؛ فعندما علم بموقف مجيب الرحمن طلب مني تولي إدارة مشروع آخر لموقف سيارات الحجيج على طريق الطائف، فكنت المهندس الميداني المسؤول عن ذلك المشروع. وكان ذاك آخر عهدي بمجيب الرحمن؛ إذ أمضيت الفترة المتبقية من إقامتي في مكة في ذلك الموقع، وفي مكتب إداري للتخطيط أنشأته الشركة وتوليت بعض المسؤوليات فيه.

كنت أقضي عطلة نهاية الأسبوع مع عمي بسام أحياناً، ومع عمي رياض أحياناً أخرى. كما كنت أذهب إلى جدة لقضاء أوقات مع صديقي يمان الذي انتقل للعمل هناك، أو عند خالتي أمل التي كانت تقيم وزوجها هشام الرومي منذ عقود في جدة، وكان طبيباً سعودياً متخصصاً في جراحة القلب، درس في الولايات المتحدة. كان عمي بسام يكبرني بسنوات قليلة،

وكنت أرى فيه صديقاً أستمتع بصحبته، وقدوة أتعلم منه فنَّ الإدارة والتعامل مع الناس. كان يدعوني في كثير من الأحيان لتناول طعام الغداء أو العشاء في بيته، وكانت زوجته لينا كريمة مضيافة. وكان منزلهما محطّاً للأهل والأقارب القادمين للعمرة والحج. وكنت أتعاون معه في الاهتمام بالزوّار من المعتمرين والحجيج. حججت مرتين خلال إقامتي في مكة، وكانت تجربة الحج تجربة روحية فريدة، كما كانت تجربة "اجتماعية" متميزة. كنت أخرج في فترات الشتاء عندما تعتدل الحرارة بصحبة عمي رياض وصديقي عبد الرشيد إلى منطقة الهدا الواقعة بين عرفات والطائف، ونجلس في المساء في مقاهي مفتوحة ونتسامر تحت نجوم السماء. وكنت كذلك أزور أحياناً خالتي أمل، التي كانت تذكرني بأمي، وأقضي عندها نصف نهار، وأحياناً أمضي الليلة في منزلها بجدة، وأغادر في صباح اليوم التالي. وكانت – رحمها الله – أقرب أخواتها لهجة وطبعاً وشكلاً إلى أمي. وكنت في معظم الأحيان أقضي العطلة مع صديقي يمان في جدة، وكان مقيماً وأخوه عمران في منزل واحد، فكنا نقضي الأمسية في البيت نتسامر، أو نذهب إلى المطاعم أو البحر. كانت جدة مدينة حديثة ومنفتحة بالمقارنة مع مكة؛ فلم تكن لشرطة الأخلاق دور كبير في المدينة، وكانت مطاعمها متنوعة ومتميزة بالمقارنة بمكة.

الحرية الأخلاقية ومخاطر الإرغام

شرطة الأخلاق المعروفة رسمياً باسم (هيئة الأمر بالمعروف)، والمعروفة شعبياً باسم المطاوعة، كانت تملأ مدن المملكة السعودية، وخاصة المدن الكبيرة منها؛ مثل الرياض وجدة ومكة والطائف. وكانت مهمة الشرطة فرض المبادئ الأخلاقية والتعاليم الدينية، خاصة فيما يتعلق بلباس المرأة، والاختلاط في الأسواق، وإغلاق المتاجر والمحلات خلال أوقات الصلوات. كنت أراهم في أسواق مكة وفي الحرم يدعون الناس للالتزام بالصلوات، ويطلبون من النساء الالتزام بالأعراف السعودية الخاصة بلباس المرأة، والتي تشمل إخفاء الوجه. كان هذا يوقعهم في كثير من التناقضات؛ لأن السنة تمنع المرأة من تغطية وجهها خلال مناسك الحج والعمرة، فكان

بعض المطوعين يأمر المرأة السعودية التي جاءت للصلاة في الحرم بتغطية الوجه، ولكنه لا يستطيع فعل الأمر نفسه مع المعتمرة التي تمشي إلى جانبها. كان المطوع يرتدي اللباس المحلي التقليدي، ويحمل غالباً عصاً من الخيزران في الأيام الخالية، ثم بدأت العصا تختفي مع مطلع القرن الواحد والعشرين، كان يأمر النساء الكاشفات عن وجوههن بتغطيتها، كما يأمر أصحاب المحال والبسطات بالتوقف عن العمل وإغلاق المحلات بعد الأذان استعداداً للذهاب إلى الصلاة. ولم يكن كثير من موظفي هيئة الأمر بالمعروف من أصحاب التحصيل العلمي أو التدريب العالي. وكانت تغلب عليهم الشدة في الكلام والعبوس، ولكنني لاحظت تغيراً في زياراتي الأخيرة منذ منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

رجال هيئة الأمر بالمعروف امتلكوا صلاحيات واسعة لفرض الأعراف المحلية والعادات الإسلامية، قبل أن يتمَّ تحجيم دورهم بعد إصلاحات العام الماضي (2016م)؛ فكانت من صلاحياتهم إيقاف أو اعتقال أي شخص يشتبه بانتهاك قيم الإسلام ومبادئه؛ مثل ممارسة الدعارة والزنا والمثلية الجنسية وشرب الخمر والسحر. كما كانت تمنع ممارسة أي أنشطة دينية لديانات أخرى غير الإسلام، وتقبض على أي شخصين من الجنسين يلتقيان، خارج علاقات القرابة المباشرة أو الزواج (المحارم). كان رجال الهيئة يمنعون الاحتفالات غير المعتمدة رسمياً؛ مثل عيد الحب، وعيد الميلاد، ورأس السنة، وغيرها. الممارسات الممنوعة لم تكن موصوفة بالقانون، بل خاضعة لفهم وتفسيرات الجماعة الدينية المحافظة في المجتمع السعودي؛ والتي تنتمي بأعرافها إلى منطقَتَي الرياض والقسيم؛ مركزا ظهور الدعوة الوهابية. بعد عقود من ملاحقة المخالفات الأخلاقية، قامت الحكومة السعودية العام الماضي بتقليص صلاحياتها بصورة كبيرة، بعد سلسلة من الحوادث والشكاوي والتقارير التي قدمتها منظمات حقوقية دولية. تجاوزات الهيئة عديدة، لعل أهمها حادثة حريق مدرسة البنات في مكة عام (2002)؛ الذي أودى بأرواح عدد كبير من الفتيات اللواتي منعهن رجال الهيئة من الخروج من المدرسة دون حجاب، بدعوى أن ذلك يخالف تعاليم الإسلام!

وحادثة مقتل سلمان الحريصي عام (2007) بعد احتجازه، بتهمة الاحتفاظ بمشروبات كحولية في منزله، والاعتداء عليه في مركز الهيئة بالعريجاء. وحوادث مطاردة بالسيارات قام بها رجال الهيئة، مخالفين لوائحها الداخلية، أدت إلى حالات وفاة، منها مطاردة أدت إلى مقتل ناصر وسعود القوس عام (2013)، ومطاردة عبد الرحمن الغامدي الذي كان بصحبة أسرته، مما أدى إلى مقتله وإصابة زوجته وابنه بجروح خطيرة. ولعل الحادثة التي دفعت إلى المطالبة بتحجيم صلاحيات الهيئة ارتبطت بحادثة "فتاة النخيل مول"، عندما قبض أحد رجال الهيئة على فتاة في محيط مجمع "النخيل مول" التجاري في الرياض عام (2016)، وقام بمطاردتها وضربها وسحلها. أدت الحادثة التي صُوِّرت بمصورة هاتفية إلى إعفاء مدير عام هيئة الأمر بالمعروف بمنطقة الرياض. إصلاحات عام (2016) حددت صلاحيات الهيئة بتقديم النصح بلين ورفق، وسحبت جميع صلاحياتها التنفيذية. كما حصر دورها بتقديم تقارير مكتوبة إلى الأجهزة الأمنية في حالات المخدرات، وسحبت منها صلاحيات الاعتقال والتوقيف.

رغم إدراكي لأهمية الأخلاق، إلا أنني أعتقد أن اكتسابها يحتاج إلى فسحة اجتماعية تسمح للإنسان بالوصول إليها من خلال جهده الخاص، وقد يعني هذا الوقوع في الخطأ الأخلاقي وتحمل تبعاته الشخصية؛ فالأخلاق تشكل الدائرة المتعلقة بالمسؤولية الشخصية للتجاوزات السلوكية والدينية، ولا يمكن إخضاعها للسلطات الأمنية؛ لأن استخدام القوة والبطش لتأسيس الأخلاق يفسد الأخلاق ولا يصلحها. الأخلاق تقع في دائرة الفعل الحرّ؛ لأن الفعل الأخلاقي انعكاس عفوي للقيم التي يؤمن بها الإنسان. الصدق والإيمان والكرم والتعفف والمروءة والشجاعة والإخلاص والتسامي الروحي؛ صفات ذاتية تمثل التزامات أخلاقية خاصة بالفرد. هذه الالتزامات تنمو من خلال التأمل والرياضة الروحية والقدوة والتجربة والخطأ، ولا يمكن فرضها من الخارج على الإنسان. فرضها من خلال استخدام السلطة والقوة والعقوبة يحولها إلى أفعال وتحركات خارجية

لا تعكس إرادة الفرد، وينمي في المجتمع ظاهرة النفاق والتدليس والكذب. الأخلاق المفروضة بسلطة الدولة والقانون أخلاق كاذبة زائفة، والإيمان المفروض بالخوف من بطش السلطة والمجتمع إيمان كاذب يرفضه الإسلام ويسميه القرآن نفاقاً. كذلك فإن فرض الأخلاق يحول النظام السياسي إلى دولة أمنية تروع المواطنين، وتجعلهم رعية مستلبة لا تملك شجاعة القول والفعل، وتحول من يتمرد على الأخلاق إلى إنسان حرّ وبطل يعبر بأفعاله عن رغباته، وتجعله بذلك إنساناً أكثر أصالة وصدقاً من أرتال "المؤمنين" المروضة. في مثل هذا المجتمع ينتشر الفساد في الخفاء، كما ينتشر السوس والعفن تحت قشرة جذع الشجرة السميك، فيأكل اللبّ الخشبي ببطءٍ بعيداً عن الأنظار، حتى إذا جاءت الرياح والعواصف أصبح المجتمع هشيماً تذروه الرياح. الوسيلة لتحصيل الأخلاق هو التعليم والتوجيه والتثقيف، وتوافر النماذج السلوكية التي تحول القيم إلى أفعال تعكس الكرامة الإنسانية وتظهر الفاعلية الاجتماعية.

الحج وارتعاش النفس

قضيت موسم الحج الأول بعيداً في بريطانيا أكتسب مهارات اللغة، ولكني نويت الحج مع قدوم الموسم الثاني. حضرت أختي لينا من دمشق لتصحبني في أداء مناسك الحج. وأمضينا أياماً مباركة بين طواف وسعي وخروج إلى عرفات ونفور إلى المزدلفة. وصحبنا عمي بسام وزوجته، كما صحبتنا حماته وغنى أخت زوجته لينا. فكان معنا في حجنا لينتان! مرت مناسك الحج بسلام دون حوادث تذكر، سوى بعض المنغصات التي لا تخلو النشاطات الجماعية منها. أمضى عمي وأهل زوجته أيام التشريق في وادي العزيزية الموازي لمنى، وأمضيتها ولينا في وادي منى رغبة في استشعار أجواء الحج. وفعلاً كانت تلك فرصة للتعرف على أحوال الناس الذين أتوا من كل حدب وصوب. وكان منظر كبار السن يسعون بين مكة وعرفات ومنى بجهد جهيد، تحدوهم الرغبة في إرضاء المولى، والتكفير عن ذنوبهم قبل لقائه القريب بعد أن أدلج بهم العمر. والحج إضافة إلى كونه شعيرة

روحية، ظاهرة اجتماعية، يلتقي خلاله المسلمون القادمون من كل حدب وصوب وثقافة. ويتحول لذلك إلى مؤتمر تعرض فيه الشعوب ثقافاتها وعاداتها؛ فتجد حملاتُ حجيجٍ منظمة منضبطة، وأخرى تجنح إلى الفوضى وتفتقد سلوكيات الصبر والحلم والتسامح المرتبطة بمعاني الحج. يساوي الحج بين الناس في اللباس وبساطة المظهر، فلا يعرف غني من فقير، ولا صاحب سلطة من مغمور. ما لا يخفيه الحج هو غنى النفوس، وعلو السلوك وانتظام المشاركين في حملات الحجاج. قمة لحظات الحج الروحية تتجلى في طواف الإفاضة، الذي يتلو النفرة من عرفة، والمكوث لساعات في مزدلفة، قبل التوجه إلى الحرم للطواف حول الكعبة. مشهد عشرات الآلاف من الحجاج يتحركون حول الكعبة، ويهتفون بأعلى أصواتهم ملبِّين بقلوب راضية متوسلة: «لبيك اللهمَّ لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». هذه اللحظات عجيبة في أريحيتها وفيضانها بالعاطفة الجياشية، وإحساس المرء وهو يتحرك داخل هذا البحر من أمواج الناس المتلاطمة في صحن الحرم الشريف، هزت تلك اللحظات المفعمة بمعاني الخشوع والخضوع والتفاني والحب نفسي بقوة، فانهمرت الدموع من عيني بعفوية غريبة.

كتب لي الحج مرة أخرى في عامي الأخير في مكة، قبل بضعة أشهر من مغادرة المدينة التي أحببت إلى أمريكا. الحج الثاني لم يخفف من حرارة المشاعر، أو اختلاجات النفس، بل ربما زادها وضوحاً وظهوراً. حججت في العام الثاني بصحبة قريبات ثلاث؛ عمتي يسرى وابنتها غيداء، وابنة عم والدي سعاد الزين. وكان العمر قد تقدم بسعاد بعض الشيء، وكانت بطيئة الحركة تعاني من زيادة في الوزن، وقد خرجت توّاً إلى التقاعد بعد حياة مليئة بالنشاط. كانت شخصيتها في مراحل حيويتها متميزة، فهي قيادية محنكة، وناشطة سياسية وحقوقية، تجمع بين الحزم والحضور واللطف وروح المرح. صادفت سنوات نشاطها مراحل طفولتي، فكنت أرقبها من بعيد، وأراها على شاشة التلفاز في مقابلاتها الصحفية، والتي كثرت عندما أصبحت أمينة للاتحاد النسائي. صحتها التي بدأت بالتراجع عندما التقيتها في الحج

جعلتها متوجسة، وبلغ أوج مخاوفها وتوجسها عند طواف الإفاضة في يوم النحر، أول أيام عيد الأضحى، الذي يتبع مباشرة الوقوف في عرفات. كان عدد الحجاج أكبر من السنة السابقة؛ لأن الحج وافق يوم الجمعة، وهو ما يعرف بين الناس بيوم الحج الأكبر. ويعتقد الكثيرون أن الأجر أكبر عندما يصادف الحج يوم الجمعة، وهو معتقد مثل كثير من المعتقدات الشعبية ليس له أساس ثابت في الشريعة. عندما وصلنا بعد رحلة ميسرة، ضمن ظروف الحج، إلى الحرم، كان المكان يعج بالحجاج، وكانت جموعهم تتحرك كأمواج البحر المتلاطمة، وكانوا في حركتهم أثناء الشوط الأول من طواف الإفاضة يتدافعون؛ فتتسارع الحركة ويضطر كل فرد إلى دفع من يتحرك أمامه كي لا يقع أرضاً. وبطبيعة الحال فإن النساء والمسنِّين كانوا الأكثر معاناة في هذا التدافع. وبدا الضيق والإعياء وشيء من الخوف على وجه سعاد التي كانت تسير إلى جانبي ببطءٍ، وكنت أدفع الرجال المحيطين بها وأمنعهم من تقليص المساحة حولها وحول عمتي وابنتها. وبعد قليل شعرت أنها بدأت تضطرب من هذا المشهد التي يحيط بها من كل جانب، فأخرجتها وخرجنا جميعاً من بين الجموع، وصعدت بهم إلى الطابق العلوي من الحرم لنطوف حول الكعبة بعيداً عن تدافع الناس. هذه النقلة أسعدتها كثيراً، واحتفظت بها في ذاكرتها حتى وفاتها. بعد عقد تقريباً من أدائها مناسك الحج، عدتها في منزلها بدمشق خلال إحدى زياراتي القصيرة في فصل الصيف، وقبل أشهر من وفاتها، فأحاطتني طوال زيارتي الخاطفة بدعواتها، وكانت تعيد أمام أختها التي تصغرها وقائع الحج، وتذكر بشكل خاص مساعدتي لها في الطواف بعيداً عن أمواج الحجيج المتدافعة.

طواف الإفاضة لم يكن أقل روحانية في العام الثاني منه في العام الأول. كان الخشوع يخيم علي وأنا أسمع أصوات الناس ترتفع بالتلبية والدعاء بحماس وعاطفة. مشهد الآلاف من حولك يجتمعون من كل مكان، ويتجشمون عناء السفر وتكاليف الإقامة، وقلوبهم ممتنة ونفوسهم مرهفة، وآمالهم برحمة الله واسعة؛كان مشهداً مثيراً للعواطف والأحاسيس، ومشهداً

يؤكد للحاج أن ما يختلج في نفسه من رغبة في الاقتراب من سرِّ الوجود ليس أمراً ذاتياً أو شخصياً، بل حالة نفسية ووجدانية تختلج في قلوب الناس على اختلاف جنسياتهم وأعمارهم ومواقعهم الاجتماعية.

غادرنا بعد انتهاء الحج إلى المدينة لزيارة قبر الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام، والقدوة الذي أدت مواقفه وأخلاقه وإيمانه وتفانيه إلى هذه التظاهرة الإنسانية التي عشنا لحظاتها في مكة. زيارة المدينة ليست من مناسك الحج، ولكن الحجاج جميعاً يحرصون على زيارة مسجد الرسول في المدينة، مهد المجتمع الإسلامي الأول، والمكان الذي يحتضن رفاته الشريفة الطاهرة. المدينة مكان محبب ويشتهر أهلها بالطيبة والمروءة بالمقارنة بأهل مكة، هذا ما كنت أسمعه من معظم من التقيت بهم. وكنت أسمع أيضاً أن المدينة أجمل من مكة، ربما لكثرة أشجارها، خاصة أشجار النخيل التي توفر التمر الذي يحمله الحجاج معهم إلى بلدانهم مع شيء من ماء زمزم. كنت أخالف في أحاسيسي الرأي الشائع بفضل المدينة على مكة، ولم أكن أخفِ هذه المشاعر عندما يقول لي بعضهم مثل هذا الكلام. مكة المكرمة كانت المكان الأحب إلي بين المدينتين؛ وهي أكثر المدن التي أحتفظ منها بذكريات طيبة تركت أثراً عميقاً محبَّباً في نفسي.

عندما تسبق التقانة الثقافة

كنت أرى حطام سيارات من حوادث سير مروعة، خلال السفر على الطريق الواصل بين مكة والمدينة. حوادث السير قاتلة في معظم الأحيان؛ بسبب توفر طرق سريعة وعدم تقيد سائقي السيارات بإشارات المرور وحدود السرعة. الحوادث التي كنت أراها كانت تذكرني بالحادث الخطير الذي كاد أن يودي بحياتي، في نهاية العام الأول من إقامتي في مكة. حصل الحادث أثناء عودتي من استراحة الظهيرة في مسكني، على طريق الطائف إلى موقع العمل على الطريق الواصل بين مكة وجدة؛ كان الطريق حديثاً يتألف من ثلاث حارات في كل اتجاه، إضافة إلى طريق خدمة جانبي، كان الطريق

العريض خالياً من السيارات باستثناء سيارة شحن بمقطورة كبيرة تسير أمامي، على بُعد (100) متر. انتقلت السيارة إلى الحارة اليسرى، وسائقها لا يزال يعطي إشارة ضوء الالتفاف نحو اليسار، فانتقلت إلى الحارة الوسطى لتجاوزها، ولكن السائق قام بالتفاف مفاجئ نحو اليمين ليغلق جميع حارات الطريق أثناء دورانه بالاتجاه المعاكس للسير، في طريق الخدمة الواقع إلى أقصى اليمين. كنت أسير ضمن حدود السرعة القصوى، ولكن قربي الشديد من الشاحنة لم يسمح لي بالتوقف قبل الاصطدام بها، رغم استخدام المكابح بقوة. استمرت سيارتي بالانزلاق نحو الشاحنة، وخلال لحظات سريعة أدركت أن تجنب دخول سيارتي تحت الشاحنة الكبيرة يتطلب أن أتوجه نحو عجلتها الخلفية الضخمة والارتطام بها. كانت خواطر الارتطام بالعجلة آخر ما أذكره قبل حدوث الاصطدام، كان الاصطدام عنيفاً رغم أنني لا أذكر تفاصيل ما جرى لحظة الاصطدام، لعلي فقدت الوعي للحظات قليلة، كل ما أذكره أنني خرجت من السيارة لأرى الدم ينزف بقوة من يدي اليسرى. توقفت سيارة قريباً مني، فطلبت من سائقها حملي إلى المشفى، وجلست في المقعد الخلفي، وأخرجت ذراعي الأيسر خارج السيارة وهو يقطر دماً. كانت يدي مهشمة وقد انزلق الجلد وتحطم كلياً، وأدى تمزق ألياف اليد إلى نزيف حاد، ولكنني بعد دقائق لاحظت - عندما رفعت ذراعي إلى الأعلى - أن النزيف لم يكن ناجماً عن انفجار أي من الشرايين؛ لأن رفعها أدى إلى تباطؤ النزيف، فأبقيتها مرفوعة إلى أن وصلنا إلى المشفى.

وصلت المشفى بسرعة بمساعدة سائق طيب أبدى استعداداً لنقلي. دخلت إلى قسم الإسعاف، وكشف الطبيب في غرفة الطوارئ عن الجرح، ثم وضع ضماداً على يدي وأعطاني مضاداً حيوياً، وأعلمني أنه بإمكاني الخروج. ولكن ممرضاً آخر أوقفني وسألني ماذا فعل الطبيب؟ ثم قادني إلى غرفة إسعاف أخرى، عندما أخبرته أن الطبيب لم يَخِط الجرح، وعلامات الاستياء واضحة على وجهه وفي كلامه، ثم نزع الضماد وبدأ بخياطة الجرح، وهو يعتذر لعدم وجود حقن مخدرة لتخيف آلام الإبرة التي دخلت في جلدي وخرجت أكثر من ثلاثين مرة قبل أن ينهي الممرض عمله. شكرت الممرض

وأثنيت على إخلاصه في عمله، وشعرت بشيء من الغضب من إهمال الطبيب وتساهله بمسؤولياته. علمت لاحقاً، خلال الزيارات العديدة للكشف على الجرح وتغيير الضماد، أن سبب اختفاء الدواء المخدر في المشافي العامة هو الخشية من أن يُساء استخدامه من بعض العاملين فيها للتعاطي الشخصي للمادة المخدرة، أو بيعها لمدمني المخدرات. التخدير كان متوفراً في المشافي الخاصة طبعاً، ولكن غياب الخبرة لدي آنذاك حال دون اتخاذ القرار السليم.

مشكلات الخدمات الطبية في المشافي العامة ظهرت في زيارات لاحقة. كان يرافقني مساعد إداري من مؤسسة كرا، وكان الممرض يعطيه الشاش، ويطلب منه تغيير الجرح. أذكر أنه في مرة من المرات بعد إزالة الطبقات الخارجية من الشاش، توقف فجأة بعدما وصل إلى مكان التقائه بطبقة الجلد المتآكلة من شدة الصدمة، والتي كانت تنزُّ على عادة الجروح العميقة، لم يكن المسكين مهيأً للقيام بدور الممرض، واعتذر عن إتمام فكّ الضماد الطبي، فقمت أنا بذلك، ثم طلبت منه مساعدتي في وضع ضماد جديد. السياسية التي اعتمدتها السلطات الصحية المخولة هي سياسة ''تحميل المجتمع مسؤولية خطأ الفرد''، فعالجت مشكلة سوء استخدام الدواء المخدر في مشافي السعودية بسحبه كليّاً من التداول، وأخذت البريء بذنب المجرم. هذه الطريقة في العقاب الجماعي سمة العقلية العاجزة، والهمة البليدة التي لا تمتلك إرادة الإصلاح، وتفتقد القيم الإنسانية والإبداع الذهني للتعاطي مع المشكلات بأسلوب يسمح بتجاوزها دون الإضرار بمصالح الناس المنضبطين بالقوانين والأخلاق الحميدة.

المشكلة الطبية لم تكن نهاية الصعوبات، بل تضافرت المصائب مع الفوضى في الإجراءات الأمنية. عدت بعد خروجي من المشفى إلى مكان الحادث، وكان الناس مجتمعين يتأملون في السيارة المهشمة، وربما يتساءلون ماذا حلَّ بصاحبها. تفاجأت وأنا أنظر إلى السيارة من شدة الصدمة التي أدت إلى اختفاء مقدمة السيارة وتهشمها الكامل. من هناك انتقلت إلى مخفر الشرطة لكتابة تقرير في الحادث، ففاجأني الضابط بإلقاء القبض علي،

وزجّي في سجن كبير مليء بالمعتقلين، بالرغم من جروحي الظاهرة وحالة الإنهاك البادية علي. بعد جهد كبير طلبت من أحد رجال الأمن الاتصال بعمي بسام، ثم بمدير الشركة طارق القصبي، فحضرا سريعا لإخراجي من السجن. اجتمعت في السجن بسائق الشاحنة الذي تسبب بالحادث، وكان سائقاً تركيّاً لا يجيد الحديث بالعربية أو الإنكليزية، ولم أكن أجيد اللغة التركية، فصعب التفاهم بيننا. بعد أيام قليلة من الحادث أعلمتني الشركة بأنها ستحسم 80٪ من قيمة السيارة من مرتبي، بدلاً من تعويضي بسيارة جديدة، استناداً لتقرير الشرطة الذي حمَّلني مسؤولية الحادث كاملة؛ لأني كنت أقود السيارة الخلفية! شعرت بالغبن من هذا القرار الذي اعتمد بصورة حرفية وعمياء القاعدة "يتحمل سائق السيارة الخلفية مسؤولية الحادث"! كانت ثمة حيثيات تتعلق بمخالفة بالتفاف الشاحنة المتقدمة بطريقة غير نظامية؛ لأنها كانت تحاول الانعطاف في الاتجاه المعاكس، ولكن النظام القضائي المعتمد لم يسمح بمعالجة الحيثيات، وانتهى الموضوع بتطبيق القاعدة العمياء، وتحميلي المسؤولية الكاملة.

بعد مرور أسابيع عديدة بدأت يدي بالتحسن، وتمكنت من تحريك سبابتي اليسرى التي تصلبت مفاصلها بسبب الصدمة الشديدة، وخلْتُ لأسابيع عديدة بعد الحادث أنها ستبقى في حال تصلبها لوقت طويل. الحادث الخطير الذي اقتربت خلاله من الموت دون أن ألامسه، ترك في نفسي شعوراً بالاسترخاء والطمأنينة، وحررني من ضغوط الحياة لأشهر عديدة، وحرك كذلك في داخلي شعوراً غريباً بأن مهمتي في الحياة لم تنته، وأني أُعطيت فرصة جديدة لتوظيف سنوات العمر المتبقية لتقديم إضافة ما إلى مساهمات ملايين البشر في نهوض الإنسان وسمو الحياة. بطريقة طريفة شعرت بعد الحادث بتصالح مع الموت. لم يعد الموت فكرة مقلقة، بل مرحلة من مراحل الوجود، والوجه الآخر المتمم للحياة. أضحى الموت في وعيي حدثاً يصيب الناس كما تصيبهم مصائب أخرى، ولحظة مغيبة ومقدرة تأتي عند انتهاء الأجل، ولا تستبقه. التجربة العملية أكدت معنى وجدانياً صاحبني منذ سنوات وعيي المبكرة، وحوَّلته من فكرة نظرية إلى

تصالح نفسي وشعوري بين الحياة والموت. منذ ذاك الحادث كنت أشعر أنني مستعد لمواجهة الموت عندما يأتي بلا قلق أو وجل أو تردد. الحادث الخطير الذي لم يقتلني حوَّل فكرة القدر إلى وعي بالقدر، وشتان بين الفكرة التي تخطر في الذهن والإيمان الذي يتشكل في الوعي ويلامس جوانب الروح.

آفاق عمل ضيقة ومشروع لم ير النور

كنت مرتاحاً في عملي خلال السنتين الأوليتين، وسعيداً كذلك بأجواء مكة المريحة؛ التي تعطي النفس شعوراً عميقاً بالطمأنينة والأمان. ولكنه كان ارتياحاً وسعادة يشوبهما شيء من القلق والتوتر الخفي؛ لانعدام آفاق التطور ومحدودية الحياة الثقافية والفكرية والحريات لعامة. ما كان يقلقني أنني بعد سنة ونصف السنة من العمل؛ لم أرَ تطوراً ملحوظاً على مستوى الفرص المتاحة لي في الشركة، وذلك بسبب عدم الحصول على الشهادة الجامعية الكاملة؛ نظراً لتعليقي مادَّتين للإبقاء على تأجيلي الدراسي وتأخير خدمة العلم وخدمة الدولة. الحل الآخر للخلاص من هذا الالتزام، الذي لم أكن أريده، نظراً لطبيعة الحياة العسكرية والإدارية في مؤسسات الدولة التي ينخرها الفساد والمحسوبيات والوساطات والرشاوي، إضافة إلى سوء معاملة الضباط والجنود. إحساسي بالحاجة إلى إنهاء هذه العقبة، وشعوري أن ذلك قد يتطلب السفر للدراسة في الخارج، وسعيي لتوفير المبلغ المطلوب، جعلني أيضاً أُبعد فكرة الزواج عن اهتمامي، رغم محاولات أمي وأختي لينا اقتراح فتيات كنت أعرف بعضهن لقرابتهن، أو لأنهن من صديقات أختي. ورغم شعوري بأنني بحاجة إلى الزواج والاستقرار العائلي في غربة موحشة، فقد آثرت الصبر حتى تتضح معالم الخطوات القادمة.

الشعور بالحاجة لتجاوز حالة الركود في حياتي بدأ بالازدياد في السنة الأخيرة من إقامتي القصيرة نسبيّاً في المملكة؛ والتي لم تتجاوز السنتين ونصف السنة، بعد تعرفي على صديق جديد؛ وهو مهندس اسمه محمد شهاب، التحق بالشركة بعد إنهائه دراسته الجامعية في جامعة ديتونابيتش

في فلوريـدا. محمـد كان رجـلاً خلوقـاً دمثـاً هادئـاً مـن صيـدا في جنـوب لبنـان، أمـضى وقتـاً طويـلاً في الولايـات المتحـدة، وتأثّـر بأجـواء المراكـز الإسـلامية الأمريكيـة التـي تنمـي عنـد الأفـراد حسَّ التعـاون والتكافـل والعمـل التطوعـي الخـيري. وكان التزامـه الأخلاقـي المتداخـل مـع طبيعتـه الهادئـة أمـراً بـارزاً. أكثـر المشـاهد المرتبطـة بـه والتـي لا زالـت محفـورة عميقـاً في ذاكـرتي، جملـة مـن التهـم تلقاهـا مـن أحـد الموظفـين في إدارة الشركـة، وكانـت تربطـه صداقـة قديمـة بعمـي بسـام. كان الموظـف يتحـدث بوقاحـة عـن مضمونـات معيبـة وجـدت مـع العفـش المكلـف بتخليصـه إلى جانـب الأثـاث الـذي شـحنه محمـد شـهاب معـه مـن أمريـكا. حـاول الموظـف تحميـل محمـد المسـؤولية، وكال لـه الاتهامـات وعمـل عـلى التعريـض بـه، ووسـمه بصفـات مشـينة اسـتعرضها بتحذلـق ودهـاء. محمـد لم يجبـه بكلمـة، بـل لم يحـاول الدفـاع عـن نفسـه بعبـارة واحـدة، وتـرك الرجـل يتابـع تشـفيه وتشـهيره، وإخـراج كل مـا يحمـل في قبلـه مـن سـوء تجاهـه. عندمـا انتهـى الموظـف مـن سلسـلة التهـم، بـدا محمـد حزينـاً متألمـاً ممـا سـمع، لكنـه اكتفـى بالسـير مبتعـداً عـن الموظـف بهـدوء، بعدمـا انتهـى الأخـير مـن حديثـه، وبـدا مسـتعداً للدخـول في مهاتـرات حاميـة مـع محمـد، تبعـت محمـداً وقلـت لـه: لمـاذا لم تُجِـب الرجـل؟ تابـع نظـره إلى الأمـام قائـلاً: «كلامـه لا يسـتحقُّ الجـواب». ثـم صمـت قليـلاً وعـاد ليقـول بصـوت خافـت حزيـن: «لا حـول ولا قـوة إلا بـالله»، وغـادر المـكان بعـد ذلـك بهـدوء. اكتشـفت لاحقـاً أن محمـداً اشـتكى إلى مديـر الشركـة التأخـر في إخـراج أثاثـه مـن المرفـأ، وكانـت تلـك مسـؤولية الموظـف الـذي شـنَّ هـذه الحـرب الكلاميـة عليـه بحضـور عمـي وحضـوري؛ ظنّـاً منـه أنـه سيسـبب فضيحـة لـه، ولكنـي وعمـي لم نصـدق كلمـة واحـدة ممـا قـال. بـل شـعرت شـخصيّاً بسـفالة هـذا الموظـف الـذي ينتمـي إلى المدينـة التـي نشـأت فيهـا، ومثّـل بسـلوكه هـذا أسـوأ مـا يمكـن أن تنتجـه.

في نهايـة الشـهر نفسـه كنـت في زيـارة لمدينـة جـدة برفقـة بسـام، وطلـب منـي مرافقتـه لزيـارة الموظـف نفسـه القابـع في إحـدى المشـافي. عندمـا دخلنـا إلى غرفتـه كان منظـره صادمـاً؛ كان يتلـوى ويعـاني مـن آلام شـديدة، ويبـدو قلقـاً متقلبـاً في سريـره، ولم يتوقـف خـلال الدقائـق التـي قضيناهـا في غرفتـه مـن الشـكوى

من آلامه وهو يهزّ رأسه بقوة ويحركه من جهة إلى أخرى. لم أعرف المرض الذي يعاني منه، ولم أسأل عمي إن استطاع معرفة مرضه.. كان منظره حزيناً مؤثراً، لكن الصورة التي حضرت في ذهني وأنا أغادر الغرفة كانت صورة المهندس محمد شهاب، ومشاهد من ذاك الردح القبيح الذي شهدته قبل أسابيع. عادت الصور إلى مخيلتي بعفوية، فاسترجعت المشاهد صامتاً، ثم مضيت برفقة عمي إلى محطتنا التالية دون أن أنبس ببنت شفة. لم يكن ثمة رابط ضروري بين الحدثين، ولكن ذهني بقي مصرّاً على ربطهما بصورة ملحة، فلم أستطع أن أدفع اختلاط المشهدين عن خاطري.

قامت صداقة بيني وبين محمد خلال السنة الأخيرة من إقامتي في مكة، وكان الفرق بين الامتيازات التي قُدِّمت إليه والامتيازات التي أملكها كافياً لتذكيري بضرورة التحرك لإيجاد بديل عن ظرفي الحالي. كانت خطتي التي حضرت بها إلى مكة أن أمضي سنوات خمس في عملي، أقوم في نهايتها بدفع بدل الخدمة العسكرية والعودة إلى دمشق للتخرج منها. ولكنني بدأت أفكر جديّاً بالبحث عن خطة بديلة لتطوير مهاراتي وتحسين فرصي في العمل والارتقاء المهني. وجاءت الفرصة سريعاً خلال أشهر أربعة؛ فقد تم نقلي للعمل في مكتب فني تم تأسيسه للمساعدة في عمليات التخطيط والتصميم. وصادف انتقالي وصول دفعة من الحواسيب إلى المكتب من نوع "الرائد"؛ وهي شركة ساهم في تمويلها طارق القصبي مدير فرع الشركة التي أعمل بها. كان الحاسوب الشخصي ابتكار جديد في مطلع الثمانينيات، ولم أكن أعرف شيئاً عن برمجة الحاسوب. ولكنني خلال شهر من استخدام الحاسوب أتقنت لغة "بيسيك" للبرمجة. كان هذا قبل دخول منصات التشغيل العليا مثل "ويندو"، أو البرمجة الرمزية مثل "جافاسكريبت"، فكان على المستخدم الاعتماد على نظام "الدوس" المعقد لتشغيل الحاسوب، ثم اعتماد لغات البرمجة مثل "بيسك" لتطوير برنامج تخصصي. خلال أربعة أشهر من تعلُّمي البرمجة، واعتماداً على جهدي الشخصي ودون وجود معلم، استطعت تطوير برنامج للحسابات المساحية، وهي إحدى تخصصات الهندسة المدنية. كنت أمضي الأوقات الطويلة خلف الحاسوب، وأغادر المكتب بعد منتصف

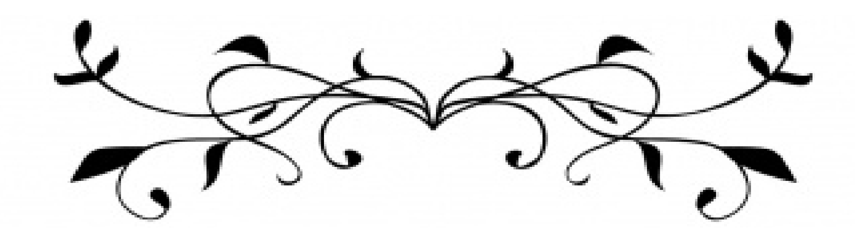
الليل. بل كنت في بعض الأيام أستمر في العمل إلى ساعات الفجر الأولى. بعد الانتهاء من تصميم البرنامج قمت بكتابة دليل تفصيلي لاستخدامه، وساعدني محمد شهاب بتسويقه لدى بعض المقاولين، فتمكنّا بعد شهر من إنتاج البرنامج؛ بيع نسختين منه إلى مقاول في مدينة الطائف مقابل مبلغ جيد؛ زاد بعد تقاسمه عن ضعف الدخل الشهري الذي كنت أتقاضاه من الشركة. عرضنا البرنامج بسعر أقل بكثير من سعر السوق، نظراً لغياب التكلفة الإنتاجية، مما جعل عروضنا منافسة للسوق. بحساب بسيط ظهرت لنا إمكانية تطوير مشروع تجاري وتحصيل أرباح عالية.

هذا التطور غير المتوقع فتح آفاقاً جديدة أمامي، وبدأت أُفكر في تطوير مشروع شركة لتصميم البرامج الهندسية للاستخدام الحاسوبي، وقمت بزيارة لرجل أعمال في الرياض بصحبة محمد شهاب؛ للبحث عن تمويل للشركة، وتم التفاهم وعدنا إلى مكة ونحن بغاية السرور. ولكن الفرحة لم تكتمل؛ إذ جاءني محمد ليخبرني بعد بضعة أيام بأن المهندس طارق القصبي اعترض على المشروع الذي كنا نعمل عليه، وأنه طلب من محمد عدم الاستمرار في هذا المشروع؛ لأنه يتعارض مع خطته لتطوير شركة الرائد في المملكة. أُسقط في يدي وأدركت أن علي البحث عن خطة أخرى ومشروع آخر بعيداً عن الشركة التي أعمل بها، وربما بعيداً عن المملكة السعودية.

وصلني خبر وفاة جدتي لوالدي، فقررت النزول إلى دمشق لمشاركة الوالد حزنه وتعزيته في مصابه. وصادفت إقامتي القصيرة في دمشق زيارة مهندس مقيم في الولايات المتحدة منذ زمن طويل لمنزل والدي، يدعى محمد مزيك. تحدثت معه عن إمكانية إتمام الهندسة، والحصول على الشهادة من الولايات المتحدة؛ فطمأنني إلى إمكانية تعديل موادي التي أخذتها في جامعة دمشق، والتخرج في فترة قصيرة من جامعات تكساس، ووعدني بمساعدتي للحصول على قبول جامعي. وبالفعل لم يمضِ على إرسال أوراقي أكثر من شهرين حتى وصلني قبول من جامعة في ولاية تكساس. سررت بهذا الخبر وسارعت إلى بيع سيارتي التي اشتريتها قبل سنة، بعد

تحطم سيارة الشركة الكامل خلال الحادث المشؤوم. كانت خطتي قضاء عام في الولايات المتحدة، والعودة إلى المملكة لمتابعة عملي هناك؛ لذلك طلبت مقابلة أمير مكة للحصول على تمديد إذن الخروج والعودة لمدة ستة أشهر إضافية، وكان الإذن يعطى لمدة ستة أشهر، فحصلت على سنة كاملة بعد موافقة الأمير، واقتربت خطوة أخرى من لحظة الرحيل.

بدأت إجراءات السفر وقمت بتصفية كل أعمالي، وتحويل المبلغ الذي ادَّخرته إلى دولارات، فكان المبلغ الكامل بعد تسديد أجور الطيران (12) ألف دولار. كان المبلغ كافياً لقضاء عام في أمريكا وتسديد أقساط الجامعة. بعد سفري بعدة أشهر وصلني مبلغ ثلاثة آلاف دولار أخرى قيمة بيع برنامج آخر أرسله لي محمد شهاب، فكان المبلغ الكلي الذي توفر لي خلال السنة الأولى خمسة عشر ألف دولار. ودعت أصدقائي يوم الأحد، 11 كانون الثاني (1983)، وغادرت مكة في الصباح الباكر من يوم الإثنين 12 كانون الثاني إلى مطار جدة ومنها إلى الولايات المتحدة، لبدء فصل جديد من حياتي، ولأبدأ خوض مرحلة من الكفاح الحقيقي لإثبات ذاتي، ومواجهة خيارات جديدة، واكتساب قدرات مختلفة لمتابعة مسيرتي.



4

العثور على الذات في المدينة المهجورة

(1984 – 1992)

وصلت إلى الولايات المتحدة مساء يوم الإثنين 12 كانون الأول (1983) بعد رحلة طيران طويلة، لعلها عكست في خيالي البون الشاسع الذي يفصل المجتمع العربي الذي نشأت فيه، والمجتمع الأمريكي الذي تنامت فيه قدراتي الذاتية والعلمية، وعرفت من خلاله معاني عميقة عن الحياة ومسؤولياتها كانت غائبة عن وعيي وإدراكي. حطت الطائرة في مطار دالاس من ولاية تكساس، وكان في استقبالي محمد مزيك، صديق الأسرة الذي التقيته قبل أشهر في دمشق وساعدني على الحصول على القبول الجامعي. كان الوقت متأخراً من الليل ومضينا في سيارته الفارهة إلى منزله الواقع في مدينة صغيرة على بُعد ساعة من مركز دالاس اسمها «تايلر». تحدثنا في الطريق حديثاً لم يبق منه أثر يذكر، وكنت أتأمل أثناء الحديث الطرق والبيوت والغابات المنتشرة على مدِّ النظر، وكان هذا دأبي في الأسفار. تأمل المعالم الطبيعية والمنشآت السكنية والتعرف على معالم الطريق من حولي عادة اكتسبتها منذ نعومة أظافري، وصاحبتني عبر مراحل حياتي المختلفة، وكانت عادة مفيدة لي دائماً. ما بقي محفوراً في ذاكرتي هو أنوار الطريق الخافتة، والتي أشعرتني أنني أنظر إلى «نواصات» لا إلى مصابيح إنارة للطرق العامة. بعد سنوات من اعتياد الأنوار المبهرة في شوارع المملكة السعودية، فاجأتني الولايات المتحدة بميلها إلى الاقتصاد في الإنفاق والابتعاد عن البريق والأنوار الصارخة. المكان الوحيد في الولايات المتحدة الذي يشتهر

بأنواره المبهرة هي مدينة لاس فيغاس في ولاية نيفادا؛ التي تشتهر بمسارحها وفنادقها الفارهة وكازينوهات القمار. كان مشهد الشوارع الخالية من الناس والسيارات، بأنوارها الخافتة، ينقل إلى نفسي معاني الحزن والفراغ والعزلة، ولعل تلك المشاعر كانت امتداداً لوداعي أصدقاء صحبتهم لسنوات، وأماكن تعايشت معها وألفتها، وما صاحبها من حزن الفراق. ولعلها مشاعر صاحبت وصولي إلى مكان جديد مجهول وبدء مرحلة غير واضحة المعالم. فأنا مقبل على مكان جديد وثقافة جديدة وعالم جديد.

محطة على الطريق

كنت أعتقد قبل وصولي إلى مطار دالاس أنني أعرف أمريكا وسكانها وثقافتها وأساليب حياتها؛ فمنذ نعومة أظفاري وأنا أشاهد الأفلام والمسلسلات الأمريكية، التي نقلت إلى مختلف المجتمعات حول العالم الثقافة الأمريكية. صناعة السينما ومركزها الواقع في مدينة هوليود صناعة ناشطة، تنتج مئات الأفلام والمسلسلات كل عام، وصناعة متقنة مقنعة تنقل المشاهد إلى سياق من نسيج الخيال، لكنها تقدمه عبر صور تضاهي الواقع المعيش. بدأت التصورات التي حملتها معي بالتلاشي واحدة تلو الأخرى مع مرور الأشهر والسنوات، كما تتلاشى فقاعات الصابون عندما تلامس أجساماً صلبة. كان انطباعي عن المدن الأمريكية أنها نسخة طبق الأصل لمشهد ناطحات السحاب، والشوارع شديدة الإضاءة، التي كنت أراها في الأفلام. وكنت أعتقد أن الأمريكيين أشخاص متعجرفين غلاظ، وأنهم يميلون جميعاً إلى الثراء. وكنت أعتقد أيضاً أن العنف هو المظهر الغالب على حياة الناس، وأن الأمريكي غارق في حياة مادية. وكنت أعتقد أن الأسرة الأمريكية متفككة، وأن الأمريكي مستعدٌّ لبيع أحبِّ الأشياء إليه مقابل دراهم معدودة. هذه الصور النمطية كانت تملأ خيالي عن الواقع الأمريكي، وهي صور تلاشت كليّاً مع الزمن، أو خضعت إلى تعديلات مهمة.

وصلت مع بداية فصل الشتاء البارد في شمال الولايات المتحدة عموماً. وصادف وصولي قدوم عاصفة جليدية في اليوم الثاني، أحالت العاصفة

الأشجار إلى تحف جميلة، بعد أن غطى الجليد الأوراق والأغصان، وحوَّلها إلى شيء شبيه بالثريات والتحف المنزلية. محمد مزيك كان رجل أعمال ناجح، حصل على شهادة الهندسة من ولاية تكساس، وأسَّس شركة لبناء المنازل في مدينة تايلر التي يقطن فيها هو وزوجته وولدين ذكور. وصلنا إلى المنزل الريفي الحديث الواسع في وقت متأخر من الليل، وكان الجميع نياماً. قادني محمد إلى غرفة نوم متوسطة المساحة، يبدو أنها مخصصة للضيوف، تقع في جناح مستقلّ بعيد عن غرف النوم الأخرى، وتجاور غرفة جلوس كبيرة يتوسطها موقدة حطب جدارية كبيرة. قضيت في ضيافة محمد ثلاثة أسابيع، فتحت خلالها حساباً مصرفياً، واشتريت سيارة صغيرة، من نوع الـ«دودج»، من محل لبيع السيارات المستخدمة.

ذهبت بعد يومين من وصولي إلى المصرف المحلي في البلدة. وأخرجت المبلغ الذي أحضرته من ظرف كان معي، وسلمته لأمينة الصندوق. نظرت الموظفة في الأوراق النقدية التي سلمتها إياها، ثم صاحت بأعلى صوتها في قاعة المصرف الكبيرة، والتي توزعت فيها مكاتب الموظفين:

– يا جماعة، تعالوا وانظروا.. معي ورقة نقدية بقيمة 1000 دولار!

خلال ثوانٍ قليلة، تجمع الموظفون حول أمينة الصندوق، وبدأ الهرج والمرج والضحك وتبادل العبارات بلهجة جنوبية لم أفهم الكثير من عباراتها. التفَتَ إلي مضيفي محمد وقال لي وهو يبتسم:

– هذه المرة الأولى التي يرون فيه عملة ورقية بقيمة الألف دولار!

وأردف قائلاً:

– الكثرة الغالبة من الأمريكيين لا يملكون في حسابهم مبلغ الاثني عشر ألف دولار الذي أودعته الآن.

استغربت مقولته ولم أفهم قصده إلا بعد سنوات عديدة، بعد أن أدركت أن الحياة التي يحياها الإنسان الأمريكي قائمة على القروض لا الادِّخار. البيت

والسيارة والأثاث والملابس وأقساط الجامعة وتكاليف الزواج، وقائمة طويلة من الحاجات اليومية تتاح للفرد الأمريكي من خلال القروض، ومزيداً من القروض، ومزيداً من تراكم القروض. كانت تلك المرة الأخيرة التي أرى فيها عملة نقدية من قيمة الألف دولار. فقد توقفت طباعة الأوراق النقدية من هذه الفئة، للتقليل من قدرة مهربي الأموال من نقلها بسهولة عبر الحدود، مع تزايد المخاوف من الإرهاب. وأصبحت الألف دولار جزءاً من تاريخ غابر في العلاقات التبادلية المصرفية.

تعرفت من خلال بائع السيارات الذي اشتريت منه أول سيارة، بعد وصولي إلى أمريكا، على عادة اجتماعية أمريكية جميلة؛ هي تعريف المرء باسمه عند لقاء شخص غريب للمرة الأولى. صافحني البائع بحرارة ووجه مبتسم قائلاً: أنا فلان. ويبدو أنه كان على معرفة بمحمد فلم يعرف نفسه أمامه، كما لم يبادر محمد إلى التعريف بنفسه للسبب نفسه. هذا الأدب الأمريكي الجميل تحوَّل بعد سنوات من العيش بين الأمريكيين إلى عادة من عاداتي. التعارف بهذه الطريقة يحدث فقط عند تبادل الزيارات لأسباب اجتماعية أو لأسباب تتعلق بالعمل. الأمريكان يمتلكون آداباً وعادات اجتماعية محببة، تولِّد الألفة بين الناس. فهم على الأغلب، وليس في كل الحالات، يتبادلون التحية دون سابق معرفة عند الالتقاء في أماكن العمل أو المصاعد بوجه بشوش. هذه الدَّماثة الاجتماعية تتزايد بين الناس في المجتمعات المحافظة وضواحي المدن. الحديث المفضل عند التقاء شخص غريب في المصعد هو الحديث عن الطقس؛ لأنه حديث آمن لا يمكن أن ينتهي بخلاف. القضايا التي يتجنب الناس الحديث عنها في اللقاءات الاجتماعية هي قضايا الدين والسياسة. والسبب يعود إلى أن الاختلافات الدينية والسياسية بين الناس، والأثر الحيوي الكبير لهاتين الدائرتين على حياة الأفراد، يجعل الخلاف حولها خلافاً مسيئاً للعلاقات المشتركة.

صحبني مضيفي إلى بعض الجامعات والكليات للنظر في إمكانية نقل المواد التي أنهيتها في جامعة دمشق، ولكني تفاجأت بأن الجامعات كانت

مستعدَّة لنقل عدد قليل من المواد متعللة بأن معدلاتي كانت ضعيفة. أفضل العروض التي قدمت لي من الجامعات التي زرت اقتصر على قبول فصلين دراسيين، وطلب مني إعادة سنوات ثلاث للحصول على شهادة الهندسة. أُصبت بشيء من الإحباط لهذه الشروط، كما شعرت بتحدي محيطي الجديد. فلغتي لا زالت، رغم تحسنها الكبير، دون مستوى الإتقان والقدرة على فهم جميع العبارات. والنظام الإنكليزي المعتمد في القياس، الذي يستخدم الإصبع والقدم والزراع والميل والأوقية والرطل، يختلف كليّاً عما أَلِفتُ خلال سنوات دراسة الهندسة في سورية، والتي تعتمد النظام المتري الذي طوره الفرنسيون عقب الثورة الفرنسية، وتحوَّل إلى نظام عالمي معتمد في معظم البلاد، باستثناء بريطانيا وأمريكا. النظام الأمريكي ذو الأصول البريطانية شبيه بالنظام الذي كان معتمداً في الشام قبل إدخال النظام المتري؛ فالإصبع هي الإنش في النظام البريطاني، والقدم هي الفوت، والزراع هي اليارد، والميل هو الميل، الأوقية هي الأونصة، الرطل هو الباوند.

صادفت الأسابيع التي أمضيتها في منزل محمد أعياد الميلاد، ودعاني لطعام الغداء العائلي المعتاد في المجتمع الأمريكي في بيت أهل زوجته التي استمرت باتباع ديانتها المسيحية. وكان اجتماعاً بسيطاً اقتصر على وجبة من الديك الرومي، والذي أصبح اسمه عند الأمريكيين «التركي» (أَوَلَيس التركي هو الوريث الحقيقي للرومي؟). كان عدد أفراد أسرة أنسباء محمد قليل، لم يزد عدد المدعوين على العشرة. كانت الأيام الأربعة التالية لأعياد الميلاد قلقة لأنني كنت أواجه قراراً مهمّاً، فقد أُصبت بحَيرَةٍ لا أدري خلالها هل أستمر بالدراسة وأتخلى عن سنوات من دراسة الهندسة؟ أم هل أعود أدراجي إلى السعودية وأستأنف عملي هناك؟ العودة لم تكن احتمالاً عمليّاً، فقد أنهيتُ ارتباطاتي مع الشركة، وسأحتاج إلى البدء من جديد ضمن ظروف مشابهة لتلك التي تركتها خلفي، أو ربما أسوأ. لذلك بدأت التفكير بالبحث عن جامعات أخرى خارج ولاية تكساس يمكن أن تتفهم سلم الدرجات في الجامعات السورية. وجاء المخرج من همومي

عندما اتصل بمضيفي شاب تربطه به معرفة بعيدة، يدرس في جامعة وين ستيت في ولاية ميشيغان. تحدثت مع الشاب، وكان اسمه نصري البظنا، وشجعني على القدوم إلى ديترويت وتقديم أوراقي هناك. أخبرني نصري بأن الجامعة تعدل معظم المواد المنقولة من جامعة دمشق، نظراً لمعرفة إدارة الجامعة بمستوى الطلبة القادمين من دمشق، لوجود عدد كبير منهم في تلك الجامعة. بعد الاتصال عزمت على السفر، وحجزت بطاقة طائرة في اليوم التالي، وأقلعت بي الطائرة من مطار دالاس باتجاه ديترويت.

رباه لا تجعلها مستقري ومقامي!

وصلت إلى مطار ديترويت صباحاً، وركبت سيارة أجرة لتقلَّني إلى العنوان الذي أعطاني إياه نصري في جامعة وين ستيت. مضى «التاكسي» باتجاه مدينة ديترويت، وبعد عشر دقائق بدأت مباني المدينة تظهر أمامي، بدت وكأنها مدينة مهجورة تركها أهلها منذ سنوات ورحلوا عنها، فبدأت أبنيتها بالتآكل والتصدع. الطريق من المطار إلى الجامعة كان يمرُّ بأحياء فقيرة تسكنها أُسر من الأمريكيين السود محدودة الدخل. انعكست قلة حيلة هؤلاء على مساكنهم وشوارعهم. هذا المنظر الكئيب جعلني أتمنى في سرِّي أن لا ينتهي بي المقام في هذه المدينة المتهالكة. البون بين مدينة دالاس الحديثة وشوارعها الجميلة وهذه المدينة شبه المنهارة شاسع. وصلت إلى منزل نصري المقيم في بناء سكني تابع للجامعة. وصحبني إلى قسم القبول في الجامعة الذي اشترط نجاحي في امتحان «التوفل» لتقييم لغة الوافدين الأجانب، أو الخضوع لدورة في اللغة الإنكليزية لمدة أربعة أشهر. بعد خروجنا من قسم القبول صحبني نصري إلى منزل أحد الطلبة السوريين في مبنى آخر، والتقيت هناك بعدد من الطلبة الذين أَصروا أن لا خيار أمامي سوى التسجيل في معهد اللغة لدخول الجامعة. لكنني كنت أسعى من خلال التشاور معهم إلى البحث عن بدائل، فتأخري في التسجيل يعني أن علي الانتظار إلى شهر أيلول لبدء الدراسة، وهي مدة تقارب السنة. كنت أخشى أن أنفق مدخراتي قبل انتهاء العام، وبالتالي يصبح من الصعب علي

متابعة دراستي الهندسية. لم أعد أذكر أسماء معظم الطلبة السوريين الذين حاوروني حول إمكانيات التسجيل في الهندسة دون إضاعة الوقت في معهد اللغة، وكنت أعتقد أن لغتي الإنكليزية تسمح لي ببدء دراسة الهندسية، كما كنت أملك شهادة من معهد اللغة البريطاني الذي التحقت به لبضعة أسابيع في خريف عام (1981)، ولكنها كانت شهادة في المستوى المتوسط، في حين كانت الجامعة تطلب مستوى متقدم في اللغة. الاسم الوحيد الذي علق في ذهني هو لشاب يصغرني بسنوات أربع أو خمس اسمه طارق الزعبي. كان طارق شاباً ذكيّاً يتوقَّد فطنة ونشاطاً. تبرع بمساعدتي عندما لاحظ إصراري على البحث عن طريقة للتسجيل والبدء في الفصل الدراسي الجديد؛ الذي يبدأ في مطلع شهر كانون الثاني؛ أي بعد أسبوع من وصولي إلى ديترويت في الأيام الأخيرة من شهر كانون الأول، صحبني إلى مكتب أستاذ مشهور في الجامعة، سبق أن شغل منصب عميد كلية الهندسة، وكان اسمه جيمس بولسون. عرَّفت الأستاذ بولسون بنفسي، وكان رجلاً في منتصف العقد السابع من عمره، ولكنه يملك جسداً رشيقاً قويّاً حافظ عليه من خلال ممارسته الرياضة. بعد حديث قصير حول إمكانية بدء الدراسة دون الالتحاق بمعهد اللغة، أخبرني أنه يعتقد أن لغتي جيدة ومناسبة. التفت إليه عندما سمعته يطري على لغتي وقلت:

– هل بإمكانك كتابة رأيك عن قدراتي اللغوية في رسالة أحملها معي إلى قسم القبول؟

نظر إلي بهدوء والابتسامة تعلو شفتيه وقال:

– لا أستطيع أن أكتب رسالة، ولكن بإمكانك نقل رأيي هذا إلى مسؤول القبول شفاهة.

شكرته على وقته وهممت بالخروج وعلامات الخيبة بادية على وجهي، لكنه ما لبث أن دعاني لحظة شروعي بمغادرة المكتب. أخذ بولسون بطاقته التعريفية من طاولته وخطَّ جملة قصيرة عليها، ثم سلمني إياها.

أخـذت منـه البطاقـة، وصافحتـه شـاكراً، ثـم خرجـت وأنـا أنظـر إلى الجملـة التـي كتبهـا: «أرى أن لغتـه كافيـة لبـدء دراسـته». كانت الجملـة قصـيرة، ولكنـي أدركـت خـلال وقـت قصـير قوتهـا وفاعليتهـا. حملـت هـذه البطاقـة التعريفيـة التـي لا تحمـل أي صفـة رسـمية إلى مسـؤولة التسـجيل، وتفاجـأت أنهـا وافقـت مبـاشرة عـلى تسـجيلي بعـد قراءتهـا العبـارة، في بـادرة تعكـس احترامهـا الشـديد للدكتـور بولسـون؛ الـذي لم يكـن آنـذاك يحمـل أي صفـة إداريـة. اشـترطَتْ عـلي أن أتقـدم لاختبـار «التوفـل» في أقـرب وقـت، وأن أوافيهـا بنتائـج الامتحـان حـال حصـولي عليهـا. وعدتهـا بالقيـام بذلـك وخرجـت سـعيداً شـاكراً الله عـلى تيسـيره، وليتفاجـأ الطلبـة السـوريين بقبـولي قبـل حصـولي عـلى النتائـج المطلوبـة في امتحـان «التوفـل». كان هـذا درس مهـم آخـر أكَّـد خطـل التعويـل دائـماً عـلى تجـارب الآخريـن، وضرورة القيـام بمحـاولات واسـتنفاد كل الفـرص والإمكانيـات لتحقيـق الهـدف الـذي نسـعى إليـه.

لم يكـن لـدي مـكان أقيـم فيـه قريبـاً مـن الجامعـة، فأَمضيـت يومـي عطلـة نهايـة الأسـبوع في غرفـة ابـن خالتـي حسـام في جامعـة ديترويـت؛ التـي تقـع عـلى بُعـد مسـافة خمسـة أو سـتة أميـال مـن جامعـة ويـن سـتيت. كان ابـن خالتـي مسـافراً، فسـاعدني صديـق لـه عـلى الحصـول عـلى مفتـاح الغرفـة. التقيـت هنـاك بصديـق اسـمه ماهـر قصـار، كنـا زمـلاء في جامعـة دمشـق، وكان يحضر لشـهادة الماجسـتير في الهندسـة، وتجـدَّدت صداقتنـا في ديترويـت. وكنـا نجتمـع بـين الحـين والآخـر كلـما تـرددت عـلى جامعـة ديترويـت لرؤيـة حسـام. عـدت مـع بدايـة الأسـبوع وبـدء الفصـل الـدراسي الجديـد إلى السـكن الجامعـي، وأقمـت في غرفـة مشـتركة مـع شـاب يمنـي عرفنـي عليـه نـصري اسـمه محمـد قحيـف. كان محمـد شـابّاً مؤدّبـاً خجـولاً لطيفـاً، يـدرس اللغـة الإنكليزيـة في المعهـد ويتكلمهـا بلكنـة ثقيلـة جـداً، ويجـد صعوبـة في تعلمهـا. ويبـدو أن التفـاوت بـين مسـتوى التعليـم الـذي تلقـاه في اليمـن والمسـتوى التعليمـي في جامعـة ويـن كان كبـيراً. حيـث بقـي يعـاني مـن صعوبـة في دراسـته حتـى بعـد تجـاوزه حاجـز اللغـة، بعـد سـنة مـن دراسـتها في المعهـد. كان السـكن الجامعـي يتألـف مـن بناءيـن حديثـين نسـبياً

بُنيا حوالي عام (1975)، يتكون المبنى الأول واسمه «شقق فورست» من (10) طوابق مخصصة للطلبة الجامعيين، بينما خصص المبنى الثاني المكون من (15) طابقاً، واسمه «شقق هيلين ديروي»، لطلاب الدراسات العليا. وسكنت في كليهما خلال فترة دراستي في الجامعة بين عامَي (1984) و (1992)، والتي شملت السنة الأخيرة من مرحلة الدراسة الجامعية ومرحلتي الدراسات العليا.

اتضح لي بعد لقائي بعميد كلية الهندسة المدنية، خلال الأسبوع الأول، بأن الجامعة قامت بتعديل (150) وحدة دراسية أنهيتها في جامعة دمشق؛ أي بزيادة (20) وحدة عن تلك التي أحتاجها للتخرج من الجامعة. هذا الفرق يعكس كثافة المواد التي كنا ندرسها في جامعة دمشق من جهة، ويعكس كذلك الاختلاف في عدد سنوات الدراسة بين الجامعتين. التخرج من جامعة وين ستيت كان يستغرق أربع سنوات، في حين كانت الدراسة في جامعة دمشق تتطلب خمس سنوات متتالية. أي أن الدراسة الجامعية في كلية الهندسة في جامعة دمشق كانت تكافئ الدراسة الجامعية والماجستير في الجامعات الأمريكية من حيث عدد الوحدات الدراسية. كان الخبر رائعاً؛ لأنه ضمن تخرجي خلال سنة واحدة، وهي الفترة التي تسمح لي بتغطية نفقات دراستي وإقامتي من مدخراتي، ثم العودة إلى المملكة قبل انتهاء موافقة «الخروج والعودة» التي حصلت عليها من أمير مكة قبيل مغادرتي. لكن هذا كان يتطلب مني أن آخذ الحدَّ الأقصى من عدد الوحدات الدراسية المسموحة، وتحميل نفسي حملاً دراسيّاً ثقيلاً.

وصلت ديترويت مع بداية موسم العواصف الثلجية؛ الذي كان يبدأ خلال الثمانينيات في منتصف شهر كانون الأول ويستمر حتى منتصف شهر أيار. بعد عقدين من الزمن تقلص موسم العواصف الثلجية في ديترويت، ربما بسبب ظاهرة الاحتباس الحراري التي أثرت على النظام البيئي العام في أمريكا وغيرها من البلدان. وكنت عند وصولي أرتدي ملابس شتوية مناسبة لشتاء دمشق، ولكنها لم تكن مناسبة أبداً لشتاء مدينة ديترويت؛ التي تصل فيها درجات الحرارة إلى الثلاثين، وأحياناً إلى الخمسين تحت الصفر.

أخذني نصري إلى سوق مغلق في ضاحية قريبة اسمها «تروي»، واشتريت من هناك معطفاً شتوياً ثقيلاً، وبسطاراً سميكاً شبيهاً بالذي يستخدمه متسلّقي الجبال، وطاقية ولحشة وجرابات طويلة، وسروال داخلي يلبس تحت الملابس، مصنوعة جميعاً من الصوف، بالإضافة إلى كفوف جلدية مبطنة بالصوف، وحقيبة خلفية لحمل الكتب، كنت أستخدمها لحمل الكتب والدفاتر خلال تنقُّلي اليومي بين السكن ومبنى المحاضرات، وكان يُبعد حوالي نصف كيلو متر. ورغم هذه الألبسة الثقيلة التي كانت كافية لحماية الجسم من البرودة الشديدة في معظم الحالات، فإني أذكر أنها لم تكن كافية عندما ذهبت في يوم من الأيام شديدة البرودة إلى مبنى القبول الواقع في الطرف الآخر من الحرم الجامعي؛ أي على مسافة كيلو متر. بعد عودتي من ذلك المشوار الصغير شعرت بألم عميق وغريب في معدتي استمر لعدة ساعات، سببته برودة الجو الشديدة التي وصلت إلى (30) درجة تحت الصفر.

اكتشف بعد مرور أسابيع قليلة على بدء الدراسة أن الحمل الدراسي كان ثقيلاً، وأن السنتين والنصف الماضيتين اللتين أمضيتهما بعيداً عن الدراسة قد فعلتا فعلهما بي. كنت أشعر بشيء من الصعوبة في الجلوس لساعات طويلة معتكفاً على دراسة المواد الخمسة التي اخترتها، والتي شملت مادة في التصميم المعدني، وهي كما علمت لاحقاً من أصعب المواد المطلوبة في قسم الهندسة المدنية. كانت محاضرات تلك المادة في غاية الصعوبة، وما يزيدها صعوبة أني لم أكن أفهم كلمة واحدة من محاضرة أستاذ المادة، الذي كان يتكلم بسرعة وبلكنة جنوبية لم أعتد سماعها. المفارقة الطريفة أن أستاذ المادة كان الدكتور جيمس بولسون الذي زكاني قبل أسبوع لدى قسم القبول، وأكد أن لغتي الإنكليزية جيدة! وهكذا أمضيت أربعة أشهر من المعاناة الكبيرة في سعي لفهم المحاضرات. وكنت أستعين بالخلاصات التي سجَّلها بعض الأصدقاء خلال المحاضرة، وفي مقدمتهم صديقَين متفوِّقَين؛ الأول كمال شناق، أستاذ رياضيات ثلاثيني، يحمل الجنسية الأردنية وهو من أصل فلسطيني، عمل في تدريس الرياضيات في جامعات الإمارات العربية المتحدة سنوات عديدة، قبل مجيئه لإتمام الدراسة الجامعية في اختصاص الهندسة.

والآخر خالد قصيباتي الذي تخرج في جامعة دمشق، وقدم لتعديل شهادته في أمريكا. خالد كان من المتفوقين، وأتم دراسته خلال سنة ثم انتقل إلى جامعة بوردو في إنديانا لتحصيل الماجستير في الهندسة، ثم انقطع التواصل بيننا كليّاً.

قررت مع اقتراب عطلة الربيع السفر إلى تايلور في ولاية تكساس لإحضار سيارتي التي تركتها هناك إضافة إلى بعض الأمتعة والكتب. عرضت الفكرة على نصري وطارق وخالد فأبدوا الرغبة في مرافقتي بسيارة طارق واغتنام هذه الفرصة للتعرف على مدن أمريكية جديدة. كانت الرحلة طويلة استغرقت عشرين ساعة بالسيارة؛ لذلك تواصلت مع صديق لي تربط بين أسرتَينا قرابة؛ اسمه بشار طعمة، وكان يدرس الهندسة في جامعة "وتشيتا" في ولاية ميزوري. استغرقت الرحلة أسبوعاً كاملاً، توزعت بين يومين قضيناهما في رحلة الذهاب، ويومين في رحلة العودة، ويومين أمضيناهما بين تايلور ودالاس. طريق الرحلة كان مريحاً لا يعكر صفوه سوى فواصل التمدد بين البلاطات الإسمنتية السميكة؛ التي شكلت وحدات متلاصقة على امتداد الطريق، طول كل منها نحو مئة متر، ويفصل بينها فاصل للتمدد يملأ عادة بمادة لينة مثل الكوشوك. في حالات قليلة تضاف إلى البلاطة طبقة من الإسفلت تجعل حركة السيارة هادئة وسلسلة. ولكن عند غياب الإسفلت، وهو حال معظم الطرق، فإن راكب السيارة يشعر بصوت متميز ناجم عن ارتطام العجلات بالفاصل، يتكرر برتابة يعتادها المسافر خلال الرحلات الطويلة.

كانت الرحلة طويلة ومثيرة نقلتنا من شتاء ديترويت البارد المغطى بالثلوج، إلى أجواء تكساس الربيعية، في تبدل متدرج للجو يشعر المسافر برّاً بأنه انتقل نقلة مناخية واسعة خلال ساعات قليلة. بعد قيادة يوم كامل وصلنا إلى بلدة "وتشيتا" حيث يدرس قريبي بشار؛ الذي قام بترتيب إقامتنا جميعاً عند بعض أصدقائه من الطلاب العرب. كان بشار صديقاً عرفته في جامعة دمشق قبل سفره لمتابعة الدراسة في أمريكا. وكان شاباً هادئاً مهذباً

لطيف المعشر قليل الكلام. وكنت سعيداً بلقائه بعد افتراق طويل. التقيته مرة أخرى في طريق العودة، وأمضينا ليلة أخرى في ضيافته، وكانت تلك آخر مرة نلتقي فيها؛ إذ انتقل بعد تخرجه من الجامعة للعمل في مدينة لوس أنجلس، وانقطع بعد ذلك التواصل بيننا. كانت هذه السفرة مناسبة للتعرف على المجتمع الأمريكي المنظم، والبلاد الأمريكية الممتدة. طبيعة المناطق التي عبرناها كانت جميلة؛ فالأراضي تكسوها الأشجار على مدِّ النظر، والبلدات والقرى التي مررنا بها كانت مرتبة، نظيفة منظمة، لا يشعر معها المرء بتغير كبير في نظام البناء. فمنازل الأرياف شبيهة بمنازل ضواحي المدن الكبرى، وهي تتمتع كذلك بمرافق وأسواق ومطاعم مشابهة، والتي تقوم على نظام الشبكة التجارية. كانت المطاعم والمحلات التجارية نفسها تتكرر في كل مدينة وقرية. فمطاعم "برغركينغ" و"ماكدونولد" المشهورة بشطائر "الهمبرغر" منتشرة في كل مدينة وقرية. وكذلك محلات الملابس والأدوات المنزلية الكبرى منتشرة في كل مكان. الفرق الوحيد بين القرى والمدن هو الكثافة السكانية، ووجود بعض المزارع الكبيرة في القرى.

وصلت إلى منزل محمد مزيك المضيف الكريم الذي استقبلني ويسَّر لي رحلة القدوم إلى أمريكا، واستضافني لأسابيع عديدة، وعاملني كواحد من أفراد أسرته، وكان الوسيط للتعرف على نصري الذي يسَّر مجيئي إلى ديترويت، ووقف إلى جانبي في الأيام الصعبة الأولى التي صاحبت النقلة الكبيرة بين السعودية وأمريكا. أحضرت له هدية ثمينة بالنسبة لطالب جامعي ذي دخل محدود، ولكنني تقصدت الحصول على هدية ثمينة للتعبير عن تقديري وامتناني له ولأسرته الكريمة عندما علمت أن لقائي هذا سيكون آخر لقاء يجمعنا، فقد راسلني والدي وطلب مني قطع العلاقة مع هذا الرجل لخلاف بينهما لم أتبين تماماً حقيقته، وربما لم يكن يستحق هذا الموقف الحاد والجذري من إنسان قدم لي المساعدة، ولكن طلب والدي كان جازماً، ولعلها كانت المرة الوحيدة التي طلب مني القيام بأي شيء بهذا الجزم، قلبت أمري بعض الوقت، ولكنني قررت في النهاية احترام رغبة

والـدي. بعـد مـرور سـنوات عديـدة أشـعر بـشيء مـن الذنـب لقطـع علاقتـي مـع الرجـل والأسرة بهـذه الطريقـة الجذريـة. لم تكـن صحبتـي لتلـك الأسرة طويلـة، ولكنني رغـم قـصر المـدة تعلمـت شـيئاً مهـمّاً عـن الثقافـة الأمريكيـة ذات الطبيعـة العمليـة الإيجابيـة. هـذا الجانـب السـلوكي التربـوي المهـم ظهـر في اليـوم الثـاني مـن إقامتـي في منـزل المزيـك؛ إذ أتـت زوجتـه إلي وطلبـت منـي الحضـور معهـا إلى الغرفـة التـي خصصـت لي. ثـم قامـت بترتيـب غطـاء السريـر أمامـي، وطلبـت منـي أن أقـوم بترتيبـه بهـذه الطريقـة بعـد مغادرتـه في الصبـاح. لم تكـن علامـات الغضـب والاسـتياء باديـة عليهـا، ولم تتلفـظ بكلمـة واحـدة مـن التوبيـخ أو العتـاب. إذا كان ثمـة انطبـاع سـلبي فيـما جـرى صبـاح ذلـك اليـوم فقـد نجـم عـن شـعوري بالخجـل وأنـا أرقبهـا توجهنـي إلى طريقـة ترتيـب السريـر، ولعلهـا بـدت مشـفقة عـلى هـذا الشـاب الـذي بلـغ الرابعـة والعشريـن مـن عمـره ولم يتقـن بعـد ترتيـب سريـره.. قلـت في نفـسي وأنـا أتأهـب للعـودة لمقعـدي واسـتئناف قـراءتي: كـم هـو مدلَّـل الشـاب في الأسرة الشـامية!

من لا يخطئ لا يتعلم

انتهـت الرحلـة القصـيرة وعـدت مـن جديـد إلى دراسـتي ومشـاريعي الهندسـية وأبحاثـي، وإلى هـمِّ السـعي إلى إنهـاء المتطلبـات الجامعيـة خـلال سـنة دراسـية واحـدة. العديـد مـن المـواد التـي طلـب منـي دراسـتها لم تكـن في تخصص الهندسـة؛ بـل في دائـرة المـواد الاختياريـة في العلـوم الاجتماعيـة، التـي اخـترت منهـا مـادة "مدخـل إلى الاقتصـاد". كـما ضمَّـت مادتَـين طريفتَـين، ومفيدتَـين جـدّاً؛ هما "الكتابـة الفنيـة" و "الخطابـة الفنيـة". هاتـان المادتـان زوَّدتـاني بمهارات جديـدة في الكتابـة والخطابـة احتجـت إليهـا لاحقـاً خـارج دائـرة الهندسـة. أنهيـت الفصـل الأول بنجـاح رغـم زيـادة عـدد المـواد عـن المعـدل، والجهـد الكبـير الـذي صرفتـه في تطويـر قـدراتي اللغويـة، ولكـن عـلى حسـاب المعـدلات التـي حصلـت عليهـا، والتـي كانـت فـوق المتوسـط ولكـن دون الدرجـات العليـا. كانـت اللغـة تشـكل تحدّيـاً كبـيراً لي، خاصـة عـلى مسـتوى الخطـاب العـام خـارج الجامعـة. كانـت أخطائـي اللغويـة، خاصـة عـلى مسـتوى اسـتخدام

القواعد النحوية وبعض التراكيب اللغوية وتصريف الأفعال. كانت بعض الأخطاء اللغوية شبيهة بأخطاء الأطفال الصغار في المراحل الأولى لتعلمهم اللغة. وكان هذا يشكل إحراجاً لي؛ لأن الأخطاء في بعض الأحيان كانت تثير الضحك في أشدِّ اللحظات جدّية. ولكني في الوقت نفسه كنت أتعمَّد التحدث مع الجميع، دون اهتمام بتلك الإحراجات، لعلمي أنني لن أتقن اللغة دون ارتكاب الأخطاء. من الأخطاء الطريفة التي حصلت في سياق يتطلب التعاطي الجدي، حوار جرى بيني وبين رجال الشرطة في مخفر من مخافر ديترويت القريبة من الجامعة. فقد خرجت من إحدى المحاضرات في الأشهر الأولى من الربيع؛ حيث تكثر الأمطار والعواصف الرعدية، وتكثر معها الزوابع المدمرة التي تصيب منطقة وسط أمريكا بكثرة خلال أشهر الصيف، لأتفاجأ بمشهد سيارتي وقد تحطمت نهائياً بعد أن وقعت فوقها شجرة ضخمة معمرة، يبدو أنها تهاوت أثناء مرور عاصفة رعدية شديدة. اتصلت بشركة التأمين فطلبوا مني تزويدهم بتقرير الشرطة لبدء الإجراءات. عند وصولي إلى المخفر سألني شرطي يجلس خلف طاولة كبيرة بالعبارة الرائجة في مثل هذه الحالات:

- كيف أستطيع مساعدتك؟

أخبرته بأن شجرة ضخمة وقعت على سيارتي، ولكنني استخدمت صيغة الفعل الماضي العادية مع فعل شاذّ يتطلب صيغة مخالفة، فما كان من الشرطي إلا أن دعا صديقاً له ليكرر عبارتي أمامه، وليسألني مرة أخرى ماذا حدث؟ ثم ينفجر الشرطيان بالضحك. أدركت مباشرة أني ارتكبت خطأً لغويّاً بعد مراجعة الجملة في رأسي، ثم عمدت إلى تصحيحها وأنا أشاركهم الضحك!

طبعا لم تكن جميع ردود الأفعال بوقاحة هذين الشرطيين، فقد كان البعض يتجاهل الخطأ، كما حدث معي في مطعم عندما طلبت من النادل بطاطا مهروسة إلى جانب شريحة اللحم، لكنني بدلاً من استخدام كلمة

المقابلة لمعنى "مهروسة" استخدمت كلمة "محطمة"، مما جعل العبارة سخيفة ومضحكة لمن يتقن الإنكليزية. النادل تجاهل الخطأ واحتفظ بتماسكه؛ إما لباقة، أو خوفاً من ردٍّ فعلي الذي قد يضعه في ورطة مع صاحب المطعم. فالمبدأ المعتمد في المطاعم والمحلات التجارية هو أن "الزبون دائماً على حقّ". ولكن الضحكة المدويّة التي هزّت المطعم جاءت من مرافقتي الأمريكية التي لم تتمالك نفسها، ولكنها أطرت تماسك النادل قائلة:

- أنت رجل ممتاز لأنك احتفظت بتماسكك.. فالعبارة مضحكة فعلاً!

خلال أيام حصلت على قيمة التأمين التي بلغت ضعف المبلغ الذي اشتريت به السيارة من مدينة تايلر في ولاية تكساس، مكنني من شراء سيارة أحدث وأفضل بقيت معي لسنوات ثلاث قبل أن تتعطل فجأة، وتتحول إلى كومة من الحديد غير ذات قيمة تذكر؛ لأنني نسيت في خضم أشغالي المرور على ورشة الصيانة لتبديل زيت المحرك؛ فجفَّ الزيت "وكربج" المحرك. لم أكن أملك آنذاك المال الكافي لدفع تكاليف الإصلاح، فتركتها عند الورشة مقابل دولارات معدودة لا تتجاوز المئتي دولار. حدث ذلك خلال سنة (1986)، وكانت سنة قاسية جمعت خلالها بين العمل والدراسة بعد أن انتهت مدخراتي. في تلك السنة بدلت عملي مرتين، بسبب صعوبة تأقلمي مع شركات التصميم التي كنت أعمل معها. وكنت قد عزمت على متابعة دراستي للحصول على الماجستير في برمجة الحواسب، ثم قررت في الفصل اللاحق دراسة العلوم السياسية بعد حصولي على قبول شرطي من قسم العلوم السياسية. تلك السنة كانت سنة اضطراب وتوتر لم أشعر بمثله منذ وقت طويل. قبل الاستطراد في تفاصيل ظروف سنة (1985) ومطلع سنة (1986)، لا بأس بالعودة إلى صيف عام (1984). في تلك السنة سجَّلت مادتَين في الفصل الصيفي القصير المكثف، ثم بدأت أعدُّ العدة للانتقال إلى سكن خاص في حي قريب من الجامعة يدعى "هامترامِيك"، استعداداً لاستقبال أمي التي عزمت على القدوم لرؤيتي ذاك الصيف.

حي يمني في عاصمة صناعة السيارات

هامترامِيك ضاحية قريبة من ديترويت، تقيم فيها جالية بولونية كبيرة وجالية يمنية صغيرة، لقرب الحي من أحد مصانع شركة فورد التي توظف عمالاً مهاجرين، خاصة في الأعمال الرتيبة المرهقة جسدياً ونفسياً. الهجرات اليمنية للعمل في شركات السيارات في مدينة ديترويت، عاصمة صناعة السيارات في أمريكا، تعود إلى الستينيات من القرن الماضي. وكانت شركات السيارات تعتمد نظام خطوط التركيب، والتي تتألف من عمليات متتابعة تهدف إلى إضافة القطع المكونة للسيارة بالترتيب، بدءاً من الهيكل وانتهاءً بالعجلات. كانت السيارة تمرُّ على خط التركيب الطويل بسرعة ثابتة، وببطء يتيح لكل مجموعة عمالية تقف على طول الخط من إضافة جزء من السيارة متعلق بها. ولتسهيل عملية الإعداد والتدريب فإن كل عامل كان مكلفاً بوظيفة محددة لإنجازها خلال الوقت المتاح له. فعلى سبيل المثال يقوم أحد العمال بوضع عمود قيادة السيارة، في حين يقوم آخر بربط البراغي لتثبيتها في هيكل السيارة وهكذا. لكن بساطة العملية ورتابتها كانت تولد مشكلات نفسية للعمال؛ لأنها تحيل العامل إلى أداة ميكانيكية، شبيهة بالذراع الآلي المبرمج. وقد أدت هذه الرتابة مع ضعف الوازع إلى انتشار المخدرات بين العمال الذين كانوا يلجؤون إليها للهروب من الملل الشديد والإعياء النفسي. وكان العديد منهم بعد عمل سنوات قليلة يترك العمل، ويلجأ إلى نظام الضمان الاجتماعي للحصول على الدخل الذي يحتاجه للعيش على الكفاف والخلاص من الحياة الآلية الرتيبة التي فرضت عليه.

قد يبدو الأمر مستغرباً، ولكن قيام الإنسان بوظيفة رتيبة (أو وظيفة آلية) يترك ندباً عميقة في النفس. جربت شخصياً العمل الرتيب عندما كنت طالباً في الثانوية في مدينة دمشق. عملت في إحدى العطل الصيفية في مطبعة قديمة، ودعوت ابن عمي لمرافقتي لكسب دخل إضافي في فترة الصيف. كان العمل يختص بصف الملازم المطبوعة، قبل جمعها وتجليدها على شكل كتاب أو مجلة. وكان على العامل أن يمرَّ على أكوام الملازم الموضوعة

على طاولة ممتدة من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر، فيلتقط ملزمة من كل كوم، ثم يجمعها لتتحول إلى كتاب في عملية تأخذ دقيقة أو دقيقتين، ثم يعود ليكرر الخطوات نفسها، مرة تلو أخرى، ويستمر في هذا التكرار الرتيب ساعة بعد ساعة، حتى ينتهي الدوام. لم يتمكن ابن عمي من العمل سوى ساعتين، ثم قرر الانسحاب. والتزمت شخصياً بالعمل لمدة يومين، في سعي لضبط النفس تجاوز ما فعله ابن عمي بعشرة أضعاف، اقتنعت في النهاية أن هذا العمل لا يحتمل، وأن المال القليل الذي يكتسبه العامل من خلال العمل الرتيب لا يستحق المعاناة النفسية. بطبيعة الحال كان العمل خياراً لي لا اضطرار فيه، ولكن العمل الآلي الرتيب ضرورة لمن لا يجد بديلاً عنه، خاصة أن شركات السيارات في مدينة ديترويت كانت تدفع أجراً مجزياً عن ساعات العمل، قبل اعتماد التركيب الآلي لأجزاء السيارة، باستخدام الذراع الآلي في تسعينيات القرن الماضي.

كان أجار البيت المؤلف من غرفَتَي نوم وغرفة جلوس ومطبخ زهيداً، بل كان يقلُّ عن أجار الغرفة الواحدة التي اشتركت بها مع صديقي اليمني في مبنى الجامعة. سبب انتقالي هو رغبة الوالدة المجيء لزيارتي. كانت والدتي محبة كثيراً للأسفار، وكان ابتعادي المستمر عنها لعدم قدرتي على زيارة دمشق يزيد من شوقها لي، فكانت تسعى لذلك إلى زيارتي بين الحين والآخر. وكانت أسعار البيوت في المنطقة التي سكنت فيها منخفضة جداً بسبب خطورة المنطقة. فقد كان سكني قريباً من المناطق التي تحكمها عصابات الابتزاز والإجرام، في المناطق المعدمة التي يقطنها الأمريكيين السود في المدينة. ولكن الحي اليمني كان آمناً نظراً لتضامن اليمنيين، واستعدادهم للتصدي لتلك العصابات باستخدام أسلحتهم المرخصة. وهذا ما جعلها منطقة مفضلة لسكن الطلبة العرب عموماً، والسوريين والفلسطينيين خصوصاً. كان في الحي مسجد صغير، يجتمع فيه سكان الحي في صلاتَي المغرب والعشاء. تعرفت في هذا الحي على العديد من الأصدقاء السوريين، أذكر منهم معتز حمادة وعبد المهيمن السباعي وأنس وصهيب الحيدر، وكانا أخوين هاجرت أسرتهم من الإمارات للإقامة في ديترويت، إضافة

إلى عـدد كبـير مـن الطلبـة العـرب. أقامـت الوالـدة عنـدي قرابـة شـهر أو يزيـد قليـلاً، اسـتقبلتها في مطـار ديـتروت وودعتهـا بعـد شـهر مـن مطـار نيويـورك. صحبـت والـدتي في جولـة شـملت شـيكاغو وشـلالات نياكـرا المشـهورة، ومدينـة واشـنطن، لتنتهـي الجولـة في مدينـة نيويـورك. كان التنقـل في السـيارة يسـتغرق أوقاتـاً طويلـة، تبلـغ قرابـة النهـار الكامـل للانتقـال بـين الأماكـن السـياحية المشـهورة، كالانتقـال مـن ديترويـت إلى منطقـة مدينـة نياكـرا ومنهـا إلى واشـنطن. وكنـت أتمتـع بالقيـادة نظـراً لجـمال الطبيعـة أولاً، ولأني كنـت أشـعر بالراحـة والاسـترخاء خـلال القيـادة، وهـو أمـر لازمنـي عـبر السـنين.

مـن الطرائـف التـي حصلـت أثنـاء السـفر جـرت أثنـاء المـرور عـبر مدينـة "بتسـبرغ" مـن ولايـة بانسـلفينيا؛ فقـد وصلـت بصحبـة الوالـدة إلى المدينـة التـي تقـع في منتصـف الطريـق بـين شـلالات نياكـرا والعاصمـة واشـنطن، وأردت التجـول في المدينـة قليـلاً قبـل متابعـة رحلتـي للتعـرف عـلى معالمهـا. المدينـة جميلة تقـع عـلى نهـر أوهايـو الكبـير وسـفوح جبـل واشـنطن، وتحيط بهـا مـن كل جانب تـلال خـضراء تضفي عـلى المدينـة جمـالاً خاصّـاً. وصـادف وصولنا اقـتراب موعد الغـداء، فنظـرت حـولي باحثـاً عـن مطعـم مناسـب، فوجـدت مكانـاً يشـبه المطعم وعـلى مدخلـه رسـم لفتـى بملابـس عربيـة تاريخيـة مـن الطـراز الـذي كان شـائعاً في بغـداد. أوقفـت السـيارة في مـكان قريـب ودخلنـا مـن البـاب الرسـمي، في ممـرٍّ مملـوء برسـوم لأشـخاص يلبسـون أزيـاء عربيـة تاريخيـة، ويحملـون أسـماء عربيـة. ولكـن المـكان كان خاليـاً مـن الزبائـن والطعـام. وبعـد دقائـق مـن التجـوال في المبنـى الخـالي ظهـر رجـل في منتصـف العمـر، فأوضـح لنـا أن هـذا المـكان ليـس مطعـماً، ولكنـه فـرع للمنظمـة الماسـونية في المدينـة. وغادرنـا مندهشـين مـن هـذا المـكان في وسـط بتسـبرغ؛ والـذي يبـدو في ظاهـره مطعـماً وفي حقيقتـه مركـزاً في سـوق المدينـة لمنظمـة يحيطهـا غمـوض كبـير.

سـافرت الوالـدة مـن مطـار نيويـورك في اليـوم الثـاني لزيـارة المدينـة، بعـد يـوم طويـل مـن التجـوال شـمل مبنـى الأمـم المتحـدة؛ حيـث اجتمعـت داخـل المبنـى بمجموعـة مـن الشـباب؛ الذيـن كانـوا ينتمـون إلى منظمـة "أمـة الإسـلام"

التـي كان يتزعمهـا آنـذاك المسـلم الأمريكـي الأسـود لويـس فـركان، وريـث مؤسـس الجماعـة اليجيا محمـد. وكان أفـراد الجماعـة يلبسـون زيّـاً موحَّـداً خاصّـاً، ويتحركـون بطريقـة منتظمـة شـبيهة بحركـة الجنـود. وزرنـا كذلـك تمثـال الحريـة، وصعدنـا إلى بنـاء التجـارة العالميـة الـذي تعـرض لهجـمات إرهابيـة في نهايـة عـام (2001) بعـد عقـد ونصـف. ودعـت الوالـدة مـن مطـار نيويـورك وقفلـت عائداً إلى ديترويـت التـي تبعـد مسـيرة ثـلاث عـشرة سـاعة. بعـد مسـيرة خمـس أو سـت سـاعات، ومـع اقـتراب السـاعة مـن الثانيـة بعـد منتصـف الليـل، شـعرت بنعاس شـديد، وقـررت أن أتوقـف في اسـتراحة عـلى الطريـق، وأرجعـت مقعـدي إلى الخلـف، واسـتغرقت بغفـوة طويلـة اسـتمرت لسـاعتين عـاودت بعدهـا مسـيري إلى ديترويـت.

مدينـة ديترويـت مدينـة متميـزة بـين المـدن الأمريكيـة في تكوينهـا وتاريخهـا، وفي تركيبتهـا السـكانية خـلال السـنوات الثمانيـة التـي قضيتهـا فيهـا. كانـت مدينــة ديترويــت الكــبرى، والتــي تشــمل ضواحــي كثــيرة، تحيــط بأحيــاء المدينـة. وكانـت المدينـة الأصليـة كئيبـة مهملـة، تحمـل بـين جنباتهـا معـالم تاريـخ عريـق وثـراء واضـح، ولكـن حاضرهـا يعـبر عـن فقـر مدقـع. مركـز المدينـة والقسـم التجـاري تكـوّن مـن أبنيـة شـاهقة، بنيـت في ثلاثينيـات وأربعينـات القـرن المـاضي، وبقيـت عـلى حالهـا مـع إضافـات لأبنيـة محـدودة، منهـا مركـز المؤتمـرات، وفنـدق "الوسـتن" الحديـث نسـبياً. كانـت المدينـة تعـجُّ بالمسـارح والمطاعـم التـي تبـدو أنهـا كانـت متألقـة في فـترة تاريخيـة غابـرة، ولكنهـا فقـدت الكثـير مـن بريقهـا القديـم، كـما تفقـد الحسـناء الكثـير مـن حسـنها وجمالهـا مـع بلوغهـا الشـيخوخة المتأخـرة. بعيـداً عـن المركـز التجـاري تنتـشر أحيـاء مهجـورة تركهـا سـكانها البيـض الميسـورون ورحلـوا إلى الضواحـي في فـترة السـتينيات، عقـب الاضطرابـات العنصريـة، وبقـي سـكانها السـود في أحيائهـا الفقـيرة. هـذا "الهـروب"، كـما كان يعـرف في الكتابـات التاريخيـة، حـوَّل مدينـة ديترويـت إلى مدينـة ذات أغلبيـة مـن الأمريكيـين السـود الفقـراء، يحكمهـا عمـدة ذو نفـوذ قوي مـن أصـول إفريقيـة أيضـاً. في حـين تتشـكل الضواحـي مـن طبقـات اجتماعيـة أكثـر ثـراء. ضواحـي ديترويـت كثـيرة تزيـد عـلى الأربعـين ضاحيـة، منتـشرة

على مساحة (1300) ميل مربع، لعل أهمها ساوثفيلد، وتروي، وبلومفيلد الغربية، ولوفونيا، وهامترامبك، وديربون، ورويال أوك، وهزلديل، وورن. الضواحي تتألف من بلدات صغيرة اتصلت عمرانياً بباقي البلدات نتيجة التوسع السكاني. وتزداد قيمة المنازل كلما ابتعدنا عن مدينة ديترويت؛ ذات الأغلبية السوداء الفقيرة والعديد من الأحياء المهجورة. كثير من المنازل الواقعة في المناطق المهجورة لا قيمة لها، ويمكن تملكها بدفع مبلغ دولار واحد، بشرط تجديدها أو إعادة بنائها. مخاطر العيش في مناطق خالية من الخدمات، وخالية من الحماية الأمنية، جعلت السعر الزهيد للبيوت المهجورة غير مغرٍ.

كانت ديترويت عندما انتقلت إليها مكاناً يعجُّ بجاليات حديثة الهجرة من البلدان العربية والإسلامية، كان أكبرها الجالية اليمنية التي يقطن قسم كبير منها في مدينة ديربون، على الحدود الغربية من ديترويت، ويسمى مكان تجمعهم بالقرية العربية. كانت القرية العربية ممتلئة بالبقاليات التي تحمل لوحات عربية، وتبيع منتجات غذائية عربية. وكان في ذلك الحي مسجد كبير يعرف بمسجد ديربون، وكان إمامه شيخ مصري الأصل اسمه محمد موسى. كان محمد موسى رجلاً عاقلاً هادئاً منفتحاً على كل الأطياف، محترماً من الجميع. وظل على هذا الحال فترة طويلة بعد رحيلي عن المنطقة عام (1992). التقيته في زيارة لاحقة لمنطقة ديترويت في عام (2008)، فأخبرني أنه غادر المكان بعد تزايد المدِّ السلفي المتشدِّد، وإخراجه من المسجد بعد أن أصبح غريباً في المسجد الذي رعاه لعقدين، وانتقل إلى مسجد حديث في منطقة بلومفيلد الأكثر ثراء، والتي تقطنها الجالية السورية. ضمت ديربون جالية عربية أخرى هي جالية لبنانية، ينتمي معظم أفرادها إلى جنوب لبنان، ويعتنقون المذهب الشيعي. وضعهم المعيشي كان أفضل من وضع اليمنيين، فكانت منطقة ديربورن الغربية التي يقيمون فيها تحتوي على أفضل المطاعم العربية في منطقة ديترويت الكبرى. كما تحتوي على مرافق خدمية أخرى مثل شركات التأمين، ومحلات صيانة السيارات، وعدد من المخابز ومحلات

الحلوى الشامية المزدهرة. إلى الشمال من ديترويت كانت تقطن جالية كلدانية من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الكلدانية في العراق. وكانت أعدادهم تتزايد بسرعة بسبب الحرب العراقية في السبعينيات والثمانينيات. وكانوا يقطنون منطقة بين الشارع السابع، وشارع "ودورد" أعرق شوارع ديتروت؛ الذي يخترقها من مركز المدينة الواقع على نهر ديترويت، يفصل الولايات المتحدة عن كندا، ويمتد لمسافة عشرين ميلاً لينتهي بمدينة "بونتياك" التي تحمل اسم السيارة التي كانت تصنع في المدينة. الجالية الثالثة، وهي أقدم الجاليات الإسلامية في أمريكا، بعد المسلمين السود، هي الجالية الألبانية. وكان لديهم مسجد كبير في منطقة "هابر وود" في شرق ديترويت، مبنيّاً على الطراز العثماني، بتصميم جميل ومساحة كبيرة، لكن المسجد كان شبه مهجور يرتاده عدد قليل من المصلِّين خلال صلاة الجمعة. ويبدو أن الجيل الأول الذي أتى إلى الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية ومطلع الخمسينيات، لم يتمكن من نقل التزامه بالشعائر الدينية إلى الجيل الثاني، مما أدى إلى انخفاض أعداد الحضور بصورة كبيرة في ذاك المسجد. إلى الشمال من ديترويت في منطقة "تروي" الأكثر ثراء أسست الجالية الباكستانية مسجداً نشيطاً، يتضمن مركزاً رياضيّاً ومدرسة لتعليم الأولاد الدين الإسلامي في نهاية الأسبوع، وهو تقليد قديم في أمريكا تتبعه كل المراكز الدينية يسمى "مدرسة الأحد". وخصص المركز لتعليم الأخلاق والشعائر الدينية، إضافة إلى احتفالات الزواج والأعياد الدينية. وكان إمام المسجد شيخاً متنوراً من جنوب إفريقيا اسمه عبد الخبير. وحافظت تلك الجالية على تقليد إحضار شيوخ من مسلمي جنوب إفريقيا حتى اليوم. إلى الغرب من تروي في منطقتي "بلومفيلد" و "فارم هيل" كانت تقطن جالية سورية، حوَّلت كنيسة اشترتها إلى مسجد، ثم قامت بهدمها وبناء مسجد كبير وحديث على أنقاضها. أما في أقصى الغرب فكانت جالية من المسلمين من أصول هندية، لم يتمكنوا من الانسجام مع الجالية الباكستانية لأسباب تتعلق بالاختلافات الثقافية التي نشأت بعد انفصال الباكستان عن الهند. وكانت تقيم في منطقة كانتون. استخدمت هذه الجالية مدرسة عامة قبل بناء مسجدها الكبير في

منطقة كانتون، الواقعة بين لوفونيا ومدينة أناربر، حيث تقع إحدى أهم الجامعات في الولايات المتحدة، جامعة ميشيغان.

بدأت أتعرف على أصدقاء جدد في الجامعة من خلال صلاة الجمعة التي كان ينظمها اتحاد الطلبة المسلمين في جامعة وين ستيت. كنا نصلي الجمعة في مركز الطلبة في وسط الجامعة، ونحجز إحدى غرف الاجتماعات الكبير في الطابق الثالث من المبنى لهذا الغرض. تعرفت على عدد من الطلبة الناشطين في الاتحاد، أذكر منهم محمد النابلسي ونديم البط ومحمد شفيق وغلام نبي شودري. كان محمد النابلسي، لبناني الأصل، أكثر أعضاء الاتحاد نشاطاً في الدفاع عن حقوق الفلسطينيين، ونشأت بيننا صداقة وتعاون في هذا المجال. وبدأت أتعاون معه في حجز واجهة في مدخل مبنى الطلاب لوضع صور ومعلومات عن العدوان الإسرائيلي على فلسطين وجنوب لبنان. ثم قمت بتنظيم طاولة معلومات نضعها في الطابق الأول لتزويد الطلبة بمنشورات ومعلومات عن العدوان الإسرائيلي على حقوق الفلسطينيين. وبدأت أكتب مقالات في جريدة الجامعة المسماة "ساوث اند"؛ أي النهاية الجنوبية، إشارة إلى موقع الجامعة في النهاية الجنوبية لولاية ميشيغان. وكنت أتردد آنذاك على مركز جامعي للاستشارات اللغوية، يسمح للطلبة، خاصة الوافدين من خارج أمريكا بتحسين لغتهم والحصول على مساعدة في الكتابة والتعبير. وكنت أحضر المقالات التي أكتبها إلى مركز الاستشارات اللغوية هذا للتأكد من حسن الصياغة والتعبير، وتنقيح الأخطاء اللغوية، لأعود وأقدمها إلى مجلة الجامعة للنشر.

تحرير الذات وتوحيد الجاليات

كان من عادة الأعضاء الإعلان عن أي نشاطات طلابية بعد انتهاء خطبة الجمعة. وكان لدي رهبة من التحدث أمام جمهرة من الناس، سبق ووضعتها منذ أيام الدراسة الثانوية ضمن المثالب ونقاط الضعف التي أحتاج إلى التغلب عليها، تحت توصيف "الجرأة الأدبية". وبقيت نقطة الضعف هذه الوحيدة ضمن القائمة التي لم أتمكن من التغلب عليها نهائيّاً،

نظراً لانعدام فرص الحديث أمام جمهرة كبيرة في سورية أو السعودية؛ لذلك وجدت أن هذه الإعلانات كانت فرصة لي للتغلب على خجلي وتطوير "الجرأة الأدبية" عندي. وفعلاً في إحدى الجمع وضعت إعلاناً حول مظاهرة طلابية لاستنكار العدوان الإسرائيلي على الجنوب، وحفظته كلمة كلمة عن ظهر قلب. ثم قمت بعد صلاة الجمعة بالإعلان عن المظاهرة. استغرق الإعلان ثلاثين ثانية شعرت أنها تكافئ ثلاثين دقيقة، أوشك خلالها نفسي أن ينقطع، وركبتاي أن تنهارا من تحتي وأنا أشعر برعشة شديدة فيهما. كانت تلك المرة الأولى التي أتحدث فيها أمام ثلاثين طالباً لا أعرف منهم سوى بضعة أشخاص. ثم تكرر هذا المشهد مرات عديدة في الأسابيع والأشهر اللاحقة، وبدأ يأخذ وقتا أطول مع تكليفي بإلقاء خطبة الجمعة؛ حيث كانت المسؤولية متبادلة بين الطلاب من أصول عربية بشكل خاص. ومع دخول عام (1985) أصبحت الخطابة أمراً سهلاً يسيراً، وبدأت أدعى إلى العديد من المراكز الإسلامية المنتشرة في مدينة ديترويت لإلقاء محاضرات في مواضيع شتى. في نهاية عام (1984) تم انتخابي رئيساً لاتحاد الطلبة المسلمين، بسبب نشاطي الواضح في خدمة القضايا المرتبطة بالمسلمين، ونشاطي ضمن الجامعة، وعلاقاتي الطيبة مع الطلبة من مختلف الجنسيات.

قمت بعد انتخابي رئيساً لاتحاد الطلبة بإنشاء نشرة دورية من ثماني صفحات سميتها "الرؤية الإسلامية"، كنت أنشر فيها مقالة رأي إضافة إلى نشاطات الاتحاد، ونشاطات مراكز إسلامية مختلفة، وإعلانات حول نشاطات في تلك المراكز. كنت المحرر الأول فيها، وكان يساعدني بعض الطلبة الباكستانيين لتفوقهم باللغة الإنكليزية، أذكر منهم شاب هادئ لطيف اسمه نديم البط. كما بدأت أنشر مقالات رأي في موضوعات مختلفة، في مجلة يصدرها الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية من مركزه في مدينة بلينفيلد في ولاية إنديانا. وكان يترأس تحرير المجلة شاب أمريكي حديث العهد بالإسلام اسمه ستيف جانسون، نشأت بيننا صداقة. في عام (1985) زادت دائرة صداقاتي ضمن الجالية المسلمة المقيمة في ديترويت، وامتدت إلى مراكز مختلفة، شملت الجاليات العربية والباكستانية والهندية والمراكز التابعة

للمسلمين السود. أثارت خطبي التي كنت ألقيها في الجامعة اهتمام قيادات الجالية، وبدأت دعوات للحديث في لقاءات المراكز الأسبوعية تتوالى. كما زاد الاحتكاك مع المنظمات الصهيونية الناشطة في الأوساط الجامعية، ومع مؤسستهم الطلابية المتخصصة في شؤون الطلاب والمساة "بنائي برث". فقد أثارت انتقاداتي المتزايدة لإسرائيل في جريدة الجامعة حفيظة القيادات الطلابية للجالية اليهودية. كذلك لفت أنظار قيادات الجالية اليهودية الواجهة الإخبارية في مدخل مركز الطلاب، وسلسلة النشاطات الهادفة إلى تعريف الطلبة بالانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الفلسطينيين. وبدأت تصلني تهديدات، من خلال إداريين مسؤولين عن الطلبة، ينقلون إلينا مخاطر قيام متطرفين يهود بأعمال انتقامية، ومن خلال بعض الملصقات على باب مكتبنا الصغير التي تحمل عبارات تهديدية مغلفة بصيغ النصح، مثل عبارة "احرصوا على سلامتكم". كانت الجالية اليهودية المنظمة تقف خلف جناحها الطلابي، بما فيهم أولئك الذي يسعون إلى تبرير جرائم إسرائيل ضد الفلسطينيين، في حين كانت الجالية الإسلامية الكبيرة في ديتروت متفرقة، وغير مهتمة بتقديم يد المساعدة للمنظمات الطلابية.

وبدأت التفكير جدياً بضرورة إيجاد مجلس يمثل الجاليات الإسلامية المختلفة. شكلت خلال اجتماع اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة فريق لتنظيم مؤتمر عام، يجمع قيادات المراكز الإسلامية المختلفة. كذلك قمت بزيارات لمراكز الجاليات في منطقة ديترويت الكبرى، وحصلت على تأييد للفكرة من معظم رؤسائهم التنفيذيين، باستثناء المركزَين الباكستاني والسوري! وقمت بزيارة إمام المركز اللبناني في ديربون الشيخ شري، وكان فقيهاً شيعياً في السبعينيات من عمره. التقيت أيضاً بالشيخ محمد موسى إمام مسجد القرية العربية في ديربورن، والإمام عبد الله باي الأمين من المسجد الإسلامي التابع للمسلمين السود. وفعلاً تم تحديد الموعد والمكان، وكان الاتفاق على عقده في أقدم مسجد في المدينة، المسجد الألباني. وكان إمام المسجد سعيداً لاستضافة جمهرة كبيرة من زعماء الجاليات الإسلامية في المدينة. وامتلأت القاعة الكبيرة بالمشاركين، ورحبتُ بالحضور، وأكدت

على أهمية الاتحاد والتعاون بين المسلمين، وطرحت فكرة إنشاء مجلس يمثل المراكز الإسلامية في مدينة ديترويت. دعوت في نهاية كلمتي قيادات العديد من المراكز الإسلامية الكبيرة للتحدث إلى الحضور، أذكر منهم عبد الله باي الأمين، إمام المركز الإسلامي في ديترويت، وسليم خالد إمام مسجد في منطقة غرينفيلد، ومسعود الرب رئيس مركز كانتون، ودعوت أخيراً جواد شري إمام المسجد الشيعي في ديربورن. انتهى اللقاء بسلام، وتم التعارف بين قيادات المراكز والحضور من أعضاء الجاليات المختلفة، وتبادل السلام والأحاديث أثناء وجبة العشاء التي تبرع بها بعض الخيرين.

لم أكن أدري أن هذا اللقاء سيثير غضب عدد من أعضاء اتحاد الطلبة، خاصة وأنه كان باكورة طيبة للقاءات أخرى، انتهت بتشكيل مجلس للمنظمات الإسلامية في ديترويت الكبرى، ثم تحول لاحقاً إلى مجلس الجاليات المسلمة في ميشيغان. في يوم الجمعة التالي للمؤتمر اتفق نائبي مع طالب دكتوراه كان رئيساً سابقاً لاتحاد الطلبة، اسمه محمد السيد، لإلقاء خطبة الجمعة. كان موضوع الخطبة غريباً، حمل حملة شعواء على الباطنية في الإسلام، ثم وقف محمد السيد بعد انتهائه من صلاة الجمعة، وتوجه إلى الحضور واتهمني بترويج أفكار تخلُّ بصفاء الإسلام، ودعا إلى عزلي من رئاسة اتحاد الطلبة. ثم قام بعده نائبي ليعلن أنني قمت بدعوة شخصيات مشبوهة إلى المؤتمر دون الرجوع إليهم، ليؤكد تأييده وتأييد عضو آخر في اللجنة التنفيذية التي كنت أترأسها لعزلي. وضجت القاعة بالجدل، ثم تدخل بعض الطلبة من أعضاء الاتحاد، ممن كان يكبرنا سناً ويزيد عنا خبرة، فطلب من الجميع الجلوس، ثم دعا إلى ضبط النفس، واحترام قواعد الاتحاد. وأكد زميل له هو محمد شفيق على ضرورة الاحتكام إلى أعضاء الاتحاد، ونبَّه إلى أن عزلي بهذه الطريقة تتعارض مع النظام الداخلي. وبالفعل نظمت لجنة محايدة من أعضاء الاتحاد اقتراعاً لطرح الثقة في رئيسه، وتم التصويت على اقتراح نائبي بعزلي، ففشل الاقتراح بالحصول على الأغلبية، وأعلن مدير اللجنة استمرار رئاستي للاتحاد دون انقطاع حتى الانتخابات السنوية في نهاية العام. عند ذلك أعلمت الجميع أنني لن أستطيع العمل مع نائب لا يرى أهليتي

لقيادة الاتحاد، وطلبت منه الاستقالة فوراً. وأسقط في يده لإدراكه صعوبة الاستمرار في العمل معي ضمن الظروف التي ولدها موقفه العدائي. انتهى هذا الصراع الطريف في شكله، والذي عكس عدداً من المشكلات التي عادت مرة أخرى للبروز في السنوات اللاحقة وفي سياقات مختلفة. المشكلة الأولى التي برزت هي الصراع الطائفي السني - الشيعي؛ الذي حمل لواءه في الدوائر السنية الحركة السلفية الوهابية؛ التي لم تخفِ عداءها للمذهب الشيعي منذ قيام الثورة الإسلامية في إيران عام (1979). كان لدي شخصيّاً العديد من التحفظات على العقيدة الشيعية، وعلى سلطة رجال الدين الشيعة الكبيرة على أتباعهم. ولكنني لم أكن أرى أنها ترقى إلى مستوى العداء الذي عاينته مباشرة في ديترويت، من خلال طالبَين فلسطينيَّين نشآ في الكويت، وتشربا فيها العداء المتبادل بين مجموعات من الشيعة والسنة. التوتر السني الشيعي وجد أيضاً في دول خليجية ودول عربية أخرى، لعل أهمها السعودية والعراق ولبنان. الأمر الآخر الذي برز هو استعداد بعض المتدينين لشيطنة خصوم الرأي باعتماد الكذب والتلفيق والأوهام. فقد علمت لاحقاً أن بعض الذين سعوا إلى عزلي نشروا بين الطلبة العرب أكاذيب حول انتمائي للطائفة الشيعية، وادَّعوا أني أخفي ميولي الشيعية اتباعاً لعقيدة التقية.

الدرس الأكثر أهمية بالنسبة لي هو ضرورة التعامل بهدوء مع الخلافات، وتحويل الخلافات الشخصية إلى خلافات خاضعة لقواعد تنظيمية وأخلاقية. وأكدت تلك الحادثة لي ضرورة التزام الإنسان بالمبادئ التي يؤمن بها، وعدم الخضوع للابتزاز والضغوط الفجة التي لا تحترم الاختلافات، وتسعى إلى تقويض كل عمل يتعارض مع قناعاتها الذاتية. أدركت عبر هذه الزوبعة المفتعلة الصادرة عن عقلية منغلقة على ذاتها، وعاجزة عن الحوار وتبادل الرأي، أن خير موقف يتخذه المرء هو الموقف النابع من مبادئ أخلاقية وإنسانية، وأن صدق الإنسان مع ذاته ومع ضميره وإيمانه الراسخ، والعمل لتحقيق المصالح العامة والحقوق الإنسانية، هو خير رصيد يملكه عندما تختلط الحقائق والأوهام؛ لأن

ذلـك انعـكاس لمبـدأ تاريخـي رافـق الإنسـان عـبر تاريخيـه، ولمبـدأ روحـي راسـخ أكدتـه الشرائـع، وشـدَّد عـلى أهميتـه القـرآن الكريـم: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعـد: 13/ 17]. وزادت المواجهـة التـي خبرتهـا مـع الرؤيـة السـلفية المتشـددة، التـي تسـعى إلى تهميـش مخالفيهـا بالـرأي والاجتهـاد، إصراري عـلى الدفـع برؤيـة تؤكـد عـلى التنـوع الفكـري، وتسـتبدل بالتماثـل العقـدي الاشـتراك بالقيـم الكليـة التـي أكـدت عليهـا الرسـالة الخاتمـة.

الحضور الإسلامي في القارة الأمريكية

شـعوري بأهميـة توحيـد الجاليـات الإسـلامية، وتحسـين الأشـكال التنظيميـة وآليـات التعـاون، انتقـل مـن دائـرة المدينـة التـي أقيـم فيهـا إلى دائـرة التعـاون بـين المسـلمين عـلى مسـتوى الولايـات المتحـدة، لتبـادل الخـبرات وتكامـل القـدرات، والتعـاون فيـما بينهـم وبـين الجماعـات السـكانية والمنظـمات المدنيـة لتطويـر الحيـاة المشـتركة داخـل المجتمـع. شـاركت في العديـد مـن المؤتمـرات خـلال السـنتين الأوليتـين مـن انتقـالي إلى الولايـات المتحـدة. ثـم انتقلـت إلى تنظيـم لقـاءات بـين مكاتـب اتحـاد الطلبـة في مختلـف الجامعـات في شـمال ووسـط الولايـات المتحـدة حيـث أقيـم. وكنـت أدعـو قيـادات المكاتـب إلى لقـاءات دوريـة تـدور حـول تطويـر الخـبرات التنظيميـة. فقـد شـعرت منـذ بـدء نشـاطي الطـلابي بضعـف القـدرات التنظيميـة لـدى الوافدين مـن المجتمعـات العربيـة والإسـلامية. وبدأت أكتـب في مسـائل القيـادة، وأعـددت دليـلاً لتطويـر المهـارات القياديـة. نشـاطي الواضـح دفـع اللجنـة التنفيذيـة العليـا لاتحـاد الطلبـة إلى تعييـني منسـقاً لمكاتـب الاتحـاد في منطقـة وسـط أمريـكا، وأصبحـت أدعـى إلى لقـاءات اللجنـة التنفيذيـة العليـا للاتحـاد في مركـزه في مدينـة بلينفيلـد في ولايـة إنديانـا. المدينـة تبعـد مسـافة خمـس سـاعات في السـيارة، وكنـت أحيانـاً أقطـع هـذه المسـافة بمعـدل مـرة أو مرتـين في الشـهر. تعرفـت مـن خـلال هـذا النشـاط عـلى القيـادات الطلابيـة وقيـادات الجاليـة المتناميـة في الولايـات المتحـدة. مـن الأشـخاص الـذي تعرفـت عليهـم، داود زوينـك، وهـو مسـلم أمريكـي مـن ولايـة إنديانـا، عمـل نائبـاً لرئيـس الاتحـاد الإسـلامي، وإليـاس بايونـس وكان لفـترة رئيسـاً لاتحـاد الطلبـة

المسلمين، قبل أن يصبح رئيساً للاتحاد الإسلامي. وهو حامل للدكتوراه في علم الاجتماع، ومن أصول باكستانية. ومنهم عبد الرحمن العمودي، وكان ناشطاً من أصول يمنية، ورئيساً سابقاً لاتحاد الطلبة المسلمين، وأسس لاحقاً المجلس الإسلامي الأمريكي، وترأس مكتبه التنفيذي. ومنهم جمال البرزنجي، أحد أهم شخصيات الجالية القيادية التي ساهمت في تأسيس العديد من منظمات المجتمع المدني، لعب العديد منها دوراً مهماً في حماية هوية المسلمين الأمريكيين وحقوقهم. وتشمل القائمة عدداً كبيراً من الجيل الأول من قيادات الجالية الإسلامية؛ منها أحمد توتنجي، وعبد الحميد أبو سليمان، وإسماعيل فاروقي الذي اغتيل وزوجته في ظروف غامضة عام (1986). وكتبت عقب اغتياله مقالة في مجلة "إسلاميك هورايزن"، أكثر المجلات الإسلامية انتشاراً في أمريكا، حملت فيها مسؤولية اغتياله منظمة صهيونية متطرفة هي "عصبة الدفاع اليهودية"، وربطت بين اغتياله ونشاطاته المنافحة عن الحقوق الفلسطينية، والمستنكرة للعدوان الإسرائيلي. عصبة الدفاع اليهودية أسسها رجل دين يهودي متطرف اسمه مائير كاهانا، واتهمت قبل ذلك بقتل ناشط حقوقي فلسطيني عام (1985) هو أليكس عودة في مدينة لوس أنجلس. التحقيقات تركزت على رجل من أصول إفريقية اتهم بتنفيذ الاغتيال، لكن مثل جميع الاغتيالات الغامضة تم اغتيال قاتل إسماعيل وزوجته لميا، وانتهت التحقيقات دون معرفة الجهة الحقيقية المسؤولة عن هذه الجريمة الآثمة. بعد خمس سنوات من اغتيال الفاروقي وزوجته لمياء، اغتيل مائير كاهانا من قِبَل شاب أمريكي مصري اسمه سيد نصير عام (1990)، وأدى اغتياله إلى إضعاف المنظمة التي أسسها داخل الولايات المتحدة.

تعرفت خلال تلك الفترة على ناشطَين فلسطينيَّين؛ هما سامي العريان ومازن النجار؛ في مؤتمر نظمته رابطة الشباب المسلم العربي. كان سامي أستاذاً لعلوم الكومبيوتر عندما التقيته في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في السنة الأولى لوصولي. وكان سامي شديد الهمة والنشاط، يعمل على التعريف بالمأساة الفلسطينية، ويغتنم كل مناسبة أو لقاء عام للمشاركة

والدفاع عن الحقوق الفلسطينية. اهتمامات سامي الحقوقية والمعرفية كانت أوسع من القضية الفلسطينية، وشملت تأسيسه لمركز بحثي تناول مختلف القضايا المتعلقة بالحقوق العربية والإسلامية سماه "وايز". كان مركز نشاطه في مدينة تامبا حيث يقيم ويعمل، ولكنه كان دائم السفر للترويج للقضية الأساسية التي آمن بها، قضية الشعب الفلسطيني وحقوقه المسلوبة. قاد رابطة الشباب الفلسطيني، وساهم بتنظيم مؤتمر سنوي في مدينة شيكاغو يدور حول موضوع الحقوق الفلسطينية. استمر الاتصال بيننا بعد سفري إلى ماليزيا وقام مكتب التحقيق الفدرالي، الذي كان يرصد تحركاته واتصالاته، بتسجيل مكالمة هاتفية بيننا جرت عقب صدور مرسوم رئاسي في عهد كلينتون يجرم عدداً كبيراً من المنظمات الفلسطينية. تحدثنا في جزء من المكالمة حول أثر جماعات الضغط اليهودية على إصدار هذا المرسوم ونفوذهم المتزايد داخل الحكومة الأمريكية. وتم استخدام تلك المكالمة الهاتفية في المرافعات القانونية التي جرت ضده لأسباب ربما تتعلق بحشد الأدلة وشيطنة الناشطين العرب والمسلمين؛ لأن الكلام الذي قيل ليس فيه أي مخالفة قانونية، وهو ضمن حقوق حرية التعبير.

القضية الفلسطينية كانت همّاً قديماً رافقني منذ طفولتي، فقد نشأت أرى وأقرأ عن المعاملة غير الإنسانية، والتجاوزات الحقوقية التي تمارسها إسرائيل في الأرض الفلسطينية المحتلة، والتي استلبت من أهلها بقوة السلاح والدعم الغربي. كنت أختلف مع كثير ممن تحاورت معهم من الناشطين الفلسطينيين في أن الحل هو في "إلقاء اليهود المقيمين في البحر"، كما كان شائعاً في خطاب المنظمات الفلسطينية آنذاك. وكنت أختلف مع سامي في أن المسألة الفلسطينية هي القضية الجوهرية التي يجب أن يلتف جميع العرب والمسلمين حولها وجعلها أولوية للجميع. كنت أدرك أهمية الدفاع عن الحقوق الفلسطينية، ومسؤولية إظهار أكاذيب غلاة الصهاينة في جهدهم المستميت لتحويل الضحية إلى جانٍ، والجاني إلى ضحية. ولكنني كنت أعتقد أن المشكلة الفلسطينية في نهاية المطاف انعكاس للحالة الثقافية والحضارية المزرية للشعوب العربية والإسلامية، وأن التركيز عليها قبل

العمل على تحقيق إصلاح ثقافي واجتماعي وسياسي وديني يصب في مصلحة تجار القضية من المستبدين العرب، الذي وظفوا القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي لتبرير سياسات القبضة الحديدية، وكَمِّ الأفواه، وتوجيه التُّهم لنقادهم السياسيين في إضعاف "روح الأمة" وما شابهها من الحجج السخفية.

كنت أرى ضعف أصحاب الحقوق الضائعة من أبناء الشعوب الإسلامية ماثلاً أمامي بوضوح. فقد أصبحت الولايات المتحدة مركزاً جاذباً للطلبة المتفوقين حول العالم، وكانت مؤتمرات الاتحاد الإسلامي، والمنظمات الإسلامية عموماً، مركزاً للتعارف بين الطلبة الناشطين من مختلف البلاد الإسلامية. وكانت المؤتمرات تجمع للطلاب لعرض مشكلاتهم الوطنية والقومية، وتبادل الرأي حول كيفية المطالبة بالحقوق. وكانت مداخلاتي ومحاضراتي تنصب حول مسألة الإصلاح، وأهمية تغيير طرائق التفكير والعمل. وكنت أشعر بغياب القدرات التنظيمية عن المنظمات الإسلامية، وهذا ما دفعني بدءاً إلى تكريس وقت كبير للتدريب القيادي، وقمت بإعداد دراسات انبنَتْ على تجربة ذاتية محدودة، وقراءات في مواضيع القيادة والأخلاق والمبادئ الدينية الإسلامية. هذا الاهتمام الذي حملته معي ظهر أيضا في كتاباتي الأولى في مجلة "الآفاق الإسلامية" الصادرة بالإنكليزية، وفي مجلة أخرى صادرة باللغة العربية اسمها "الأمل". المقالات التي كتبتها كانت تلقى ترحيباً من هيئة التحرير عموماً، ورئيس تحرير المجلة، أحمد يوسف، بشكل خاص. هذا دفعني إلى تحرير كتيب لي بعنوان (**مشكلة التغيير في العالم الإسلامي**)، نشرته رابطة الشباب المسلم العربي، أودعته جملة من القراءات والرؤى للتعامل مع مشكلات العالم الإسلامي الثقافي والحضارية. نجاحي في تحويل أفكاري إلى مقالات، ثم إلى كتاب منشور، زاد من قناعتي بأن رسالتي الأساسية هي في مجال العمل الفكري والمجتمعي، وفي الإصلاح الثقافي عبر الكتابة والحوار والعمل التنظيمي. وبدأت جدياً أفكر في متابعة دراستي في مجال الإدارة العامة، وتحويل اهتمامي بالكتابات المرتبطة بالقيادة والمهارات القيادية والإدارية إلى تخصص أخدم من خلاله الجهود الإصلاحية.

المنظمات الإسلامية الناشطة وتحديات الإصلاح

كانت الفترة التي وصلت فيها إلى أمريكا فترة نشاط كبير يهدف إلى تنظيم العمل، وخلق أُطر للتعاون وتبادل الرأي بين المهاجرين من البلاد العربية والإسلامية، والطلاب الوافدين. وكانت تلك المنظمات تعاني من صراعات بين الاتجاهات المختلفة لتحديد وجهة الجالية. تفاعلت منذ وصولي وبداية نشاطي العام مع منظمتين.. رابطة الشباب المسلم العربي والاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية. كانت الأولى تعتمد اللغة العربية في نشاطاتها ومؤتمراتها، وتخدم بشكل أساسي الطلاب العرب القادمين من منطقة المشرق والخليج، في حين اعتمد الاتحاد اللغة الإنكليزية لغة رسمية لنشاطاته، مما سمح له بمشاركة أوسع شملت المسلمين السود، والمسلمين القادمين من جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا، ومن عدد صغير من البلدان الإفريقية. بعد سنة ونيف من التعامل مع رابطة الشباب المسلم العربي بدأت ألحظ سعي تلك المنظمة، مع وجود عدد كبير من الطلاب الخليجيين، إلى تكريس التقاليد الخليجية بدلاً من التعامل مع الثقافة الأمريكية وخصوصياتها ضمن سياقها الاجتماعي. كانت محاولة تكريس الثقافة التقليدية بدلاً من القيم والمبادئ الإسلامية طريفة ومتناقضة، ربما يكفي في هذه العجالة ضرب مثل واحد لها: في إحدى مؤتمرات الرابطة، وأظنه نظم في ولاية كنساس ذاك العام، أصرت الجهات المنظمة على فصل الرجال عن النساء، ومنح غرف مستقلة للنساء وأخرى للرجال. كان هذا يعني طبعاً فصل الزوج عن أسرته وأبنائه، مما حمَّل الأم مسؤولية الاهتمام بالأولاد كاملة، وهذه مهمة عسيرة خاصة في الأسفار بعيداً عن المنزل. ولم تكتف الإدارة بذلك، بل كلفت شباباً من لجنة الانضباط بفرض الفصل الكامل؛ فكان أعضاء لجنة الانضباط يمنعون المشاركين من المسلمين بالذهاب إلى جناح النساء، ولكنهم كانوا يسمحون لغير المسلمين بفعل ذلك، لإدراكهم أنهم لا يملكون أي سلطة على فرض هذه الأعراف على أبناء البلاد الأصليين.

هذه المفارقات وغيرها، والتي عكست بتصوري قراءة سطحية عاجزة عن فهم العلاقة بين المعياري والتاريخي، كانت مصدراً للتخبط والتناقض في أساليب التنظيم وسلوكيات أعضاء الرابطة، كما كانت سبباً في قراري الانسحاب من الرابطة، والعمل من خلال نشاطات الاتحاد. لم يكن الاتحاد في حالة مثالية بطبيعة الحال، فكان يتألف من مزيج من الطلبة الجامعيين والمهاجرين الجدد الذين لا زالوا حبيسي التقاليد الثقافية لمجتمعاتهم. ولكن الاتحاد باختياره الاستراتيجي تبني لغة البلاد، والانفتاح على التنوع الثقافي وأنماط الحياة المتنوعة، وضع عمله على الطريق الصحيح، وغرس بذوره الإصلاحية في الأرض التي يقف عليها، وسمح بقيام حوارات بين رؤى مختلفة، بل ومتناقضة أحياناً، وسمح بذلك بقيام عمليات إصلاح ثقافي واجتماعي. كان الخلاف الثقافي يظهر مع ذلك، وبصورة خاصة بين المهاجرين الجدد وأبناء البلاد من المسلمين السود، والمسلمين الذين ينتمون إلى الأغلبية السكانية، ومن نشأ في أمريكا من أبناء المهاجرين السابقين.

من أكثر الأمثلة التي أظهرت هذا النوع من الخلاف والصراع تجلت في تجربة صديق، جمعنا التعاون عبر نشاطات الاتحاد الإسلامي، اسمه ستيف جانسون. انضم جانسون للعمل في مكاتب الاتحاد، وتسلم مسؤولية تحرير مجلة الاتحاد الشهرية "الآفاق الإسلامية". بعد فترة قصيرة من مباشرته عمله واجه جانسون تحديات من بعض العاملين في مكتب الاتحاد، والقادمين من جنوب آسيا. كان جانسون مسلماً أمريكي المولد ينحدر من أسرة أوربية، اعتنق الإسلام حديثاً لتفاعله مع رسالته التي وجدها قريبة من الكاثوليكية التي نشأ فيها، ووجد فيها تعبيراً أكثر قرباً من طبيعته عن العلاقة بين الإنسان والله، وطبيعة المهمة التي أداها عيسى ابن مريم عليه السلام. كان رفض الإسلام لعقيدة الألوهية المسيحية بتأكيدها على بشرية عيسى عليه السلام، عامل جذب كبير لستيف جونسون لاعتناق الإسلام. نشأت بيننا صداقة، واشتركنا معاً في عدد من النشاطات والندوات؛ أهمها ندوة عقدت في مدينة ميلواكي من ولاية وسكانسون في شمال الولايات المتحدة عام (1987). كنت أتواصل معه بصفته رئيس تحرير مجلة "آفاق إسلامية"

الصادرة باللغة الإنكليزية، وكنت أنشر مقالاتي باستمرار فيها. لكن الندوة التي جمعتنا قبل استقالته بفترة قصيرة من الاتحاد كانت مناسبة له للتنفيس عن همومه ومتاعبه. كان يتحدث بسخط عن غياب روح التعاون، ويذكر بمرارة المعاكسات التي كان يواجهها من إداريين في مكاتب الاتحاد، ويتحدث عن آفاقهم الضيقة وتعاملهم الفظّ، وكان يخصّ طارق القرشي بالنقد. كنت أعلم أن طارقَ يحمل رؤية ضيقة للإسلام، ترفض الانفتاح على الثقافة الأمريكية، وتدعو إلى القطيعة مع الحياة الأمريكية، فلم أتعجب مما سمعت من ستيف جانسون. ولكنني لم أكن أدرك عمق الاختلاف وشدة التضييق الذي تعرض له، وحال بينه وبين القدرة على المشاركة في تقديم رؤيته الثقافية لطرائق تأثير الإسلام في الحياة الأمريكية. لم تمض سوى أشهر قليلة حتى ابتعد جانسون عن الاتحاد، ثم قرر بعد بضع سنوات العودة إلى دين لم يكن قادراً على التصالح مع إحدى جزئياته، ولكنه لم يجد البديل الاجتماعي الذي يقبل هويته الثقافية في المحيط الإسلامي الذي تعامل معه. المفارقة أن من كان يدعو إلى المحافظة على الثقافة الإسلامية ورفض الثقافة الغربية، لم يكن يدعو في حقيقة الأمر إلى مبادئ الإسلام، بل إلى ثقافة محلية أقل فاعلية وحيوية من الثقافة التي يرفضها باسم الإسلام. مثَّل ستيف جانسون حالة خاصة من الإحباط؛ فمعظم الذي دخلوا في الدين الإسلامي من الأمريكيين البيض لم يدفعهم الإحباط إلى الارتكاس الذي حصل لجانسون. كيري ميلر وداود زوينك مرا بحالات قريبة من التوتر بسبب اختلاف ثقافتهما عن ثقافة الغالبية من أبناء الجالية الإسلامية، ولكنهما استمرا في السعي للإصلاح وتطوير أنفسهما ومحيطهما.

الاتحاد الذي وجدت فيه أنساً وراحة بسبب سياساته المنفتحة على التنوع، لم يكن مكاناً مريحاً لبعض أعضائه، ومنهم رئيس الجالية الهندية في ديترويت الصديق مسعود الرَّب مرزا. كان التنوع الكبير في الاتحاد الذي احتضن أنماطَ حياةٍ مختلفة، من أُسر ملتزمة باللباس الإسلامي، وأسر متصالحة مع اللباس الحديث، مصدر انزعاج لبعض أعضاء الاتحاد

المحافظين، مما دفعهم لتأسيس منظمة مستقلة تحمل اسم "الحلقة الإسلامية لأمريكا الشمالية" (إكنا). على الرغم من أن نشاط بعض مؤسسي الحلقة يعود إلى فترات سابقة، خاصة في نيويورك، فإن الظهور الفعلي للمنظمة يعود إلى منتصف الثمانينات، حيث لعب المسلمون الهنود في ديترويت دوراً أساسياً في انطلاقتها على مستوى القارة الأمريكية. فساهم عدد من قياداتهم في تلك المدينة بتأسيسها وتوسيع انتشارها، أذكر منهم مسعود مرزا أحد مؤسسي مركز كانتون. وتتصف نشاطات الحلقة الإسلامية بالمحافظة، واتباع النهج الذي خطه أبو الأعلى المودودي. هذا ما جعلها تتفاعل مع منظمة إسلامية أخرى شبيهة بها من حيث المقاربة هي "المجتمع الإسلامي الأمريكي"، المعروفة اختصاراً بـ"ماس"؛ التي أسسها مسلمون عرب اختلفوا أيضاً مع رؤية الاتحاد المنفتحة على التنوع الإسلامي الواسع. بدأت المنظمتان بترتيب مؤتمر سنوي مشترك مع دخول القرن الحادي والعشرين. وكما تأثرت "الإكنا" بأفكار المودودي، تأثرت "ماس" بأفكار حسن البنا. هذا التماثل في الخط العام، وتشابه الأفكار المطروحة في المؤتمرات المشتركة مع مؤسِّسي الجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين، دفع بمنظمات يمينية متطرفة إلى ربط المنظمات الأربع، والادِّعاء بخضوعها جميعاً لقيادة واحدة، وإلى التشكيك باستقلالية المنظمتين الأمريكيتين، واتهامهما بالترويج لمصالح كيانات أجنبية، وبسعيهما إلى تحويل الجاليات الإسلامية إلى أدوات في يد قيادات خارجية.

السعي الحميم لربط مؤسسات مستقلة في الإدارة والنظام، بناء على تقارب جزئي في بعض الرؤى والأفكار، إشكالي من الناحيتين النظرية والسياسية. قد يكون بعض المؤسِّسين والناشطين في هاتين المنظمتين ممن ارتبط بالجماعة الإسلامية أو الإخوان قبل هجرته إلى الولايات المتحدة، واستمر بالتأثر بأفكارهما العامة ردحاً من الزمن. لكن العلاقات السياسية في القارة الجديدة، وإطار الانفتاح بين المجموعات الدينية والحريات المدنية في أمريكا، كفيل بتغيير جذري في طرائق التفكير والعمل، مما يجعل التشابه نظرياً أكثر منه عملياً وتنظيمياً، ويجعل الحراك الاجتماعي الذي يميز المنظمتين مختلفاً

كليّاً عن ذاك الذي يحكم المنظمات الإسلامية في باكستان ومصر. ثمة مشكلة نظرية أكبر تتعلق بترابط الأطروحات وتشابهها في سياقها الإسلامي العام، تماماً كما يمكن للقارئ الخارجي أن يجد خطوط تشابه بين الأطروحات الليبرالية والاشتراكية والفاشية الغربية. فأفكار البنا والمودودي تتقاطع في مواضع كثيرة مع أفكار رواد الإصلاح في العالم الإسلامي؛ مثل: أفكار محمد إقبال، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد شاكر، وعبد الله دراز، ومالك بن نبي، وجودت سعيد، ومحمد الغزالي، وطارق البشري، وعبد الوهاب المسيري، وغيرهم. ولعل هذا التشابه في جوانب من الخطاب هو ما يدفع اليمين المسيحي إلى تصنيف معظم الناشطين المسلمين في الحياة العامة الغربية تحت عنوان (الإخوان المسلمين)، رغم اختلافهم مع رؤية الإخوان. وبذلك يتحول هذا التصنيف إلى وسيلة لمحاصرة مؤسسات تمثل الجاليات الإسلامية عموماً باسم مواجهة التطرف الإسلامي، وإلى أداة لخلط الأوراق وتضخيم الأخطاء، وإعطائها صفة تراكمية تنعكس من خلالها تعميم ممارسات البعض على الجميع.

الحراك الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي يضمُّ الجاليات الإسلامية في أمريكا، ويربطها بحراك أوسع داخل المجتمع الأمريكي المفتوح، حراك حيوي وضروري لتجاوز القصور الثقافي والمعرفي والفكري، الكامن في الموروث الثقافي التاريخي للمجتمعات الإسلامية. وهو ضروري بشكل خاص بسبب غياب مثل هذا الحراك، والحوار في أجواء العالم الإسلامي لأسباب تتعلق بطبيعة الأنظمة التسلطية التي تتحكم بجميع جوانب الحياة، حتى المدني منها، وتمنع قيام حوار مفتوح، وترفض توجيه النقد إلى ممارسات النخب السياسية المتسلطة. وعلى الرغم من انتقادي الشديد لمقاربة الإخوان المسلمين، وكتاباتي النقدية التي تبرز أوجه التناقض في تلك المقاربة، فإنني أعتقد أن التعاطي مع التنظيم ضمن أجواء الحرية هو الطريق الأفضل لتحقيق تغيير حقيقي في قناعات أتباعه. أساليب القمع والكبح التي اعتمدتها بعض الأنظمة العربية هي سبب مهمّ، لا السبب الوحيد، في توسع قاعدة الإخوان في دولة مثل مصر، والتقلص المستمر في دوائر تأثير

الحركات الفكرية والسياسية الأخرى. السبب الآخر هو انفكاك العديد من الحركات الفكرية عن السياق الاجتماعي والأخلاقي والديني التاريخي لتلك المجتمعات.

نعم ثمة مشكلة كبيرة في رؤية الإخوان للدين وعلاقته بالسياسة، ومشكلة أكبر لفهمهم لطبيعة المجتمع وآليات تطوره. ثمة مشكلة في رأيي في رؤية الإخوان المركزية الجامدة، والتي انبنت على رؤية مؤسس الحركة لطبيعة التحولات الاجتماعية والسياسية، وموقع "جماعته" منها. لكن اللوم يجب أن يقع على أتباعه الذين لم يطوروا الأفكار التي اعتمدها مؤسس حركتهم. من يقرأ كتابات البنا يجد أن رؤيته تقوم أساساً على جملة من المبادئ والقيم آمن بها، ثم اجتهد في تطوير الأشكال الاجتماعية والتنظيمية المناسبة للسياق التاريخي الذي عاش فيه. وسبق أن بيَّنت في دراسة نقدية عن الحركات الإسلامية أن البنا نفسه شعر بالحاجة إلى تغيير جذري في بعض الأُطر التنظيمية التي اعتمد عليها، وصرح برغبته هذه قبيل اغتياله. استمرار أتباعه، بعد مرور زهاء قرن على نشاطه الديني والسياسي، بالتمسك بتفاصيل رؤيته، يعكس أزمة التقليد التي تعيشها المجتمعات العربية والإسلامية. دراستي للحركات الإسلامية عموماً ضمن رسالة الماجستير، التي أعددتها في قسم العلوم السياسية في جامعة وين ستيت في ديترويت، سعت إلى إظهار مشكلات التقليد وغياب الإبداع الفكري. وكتاباتي اللاحقة بيَّنت موقفي الداعي إلى فصل العمل الدعوي التربوي عن العمل السياسي، وأظهرت مخاطر الخلط بين المرجعية الدينية والسياسية.

أخطار تجاوز آليات الإصلاح المجتمعي ظهرت خلال ممارسات أحمد زكي حمد وفريقه، بعد انتخابه رئيساً للاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية عام (1987). تخرج زكي حمد من قسم الدراسات الإسلامية، في جامعة شيكاغو في السنة السابقة لانتخابه. صادفت رئاسته الفترة التي انقطعت فيها كليّاً عن نشاطي ضمن الجالية والاتحاد، خلال تحضيري لشهادة الدكتوراه. سعى زكي حمد خلال توليه رئاسة الاتحاد، إلى إبعاد الاتحاد عن ارتباطاته

السابقة بالحركات الإسلامية خارج الولايات المتحدة، وحصر نشاطاته في دائرة عمله الأمريكية، وشكلت هذه الاستراتيجية نقلة إيجابية ساعدت الجالية على التركيز في شؤونها الداخلية. كما قطعت الطريق على بعض القيادات الإخوانية؛ التي كانت تعمل على ربط مؤسسات الجالية بالجماعة الأم. ولكن زكي حمد أصرَّ على فرض رؤية دينية منغلقة رافضة للانفتاح على الثقافة الأمريكية المحيطة، والتنوع ضمن الجاليات الإسلامية. كما اعتمد أسلوباً في القيادة يقوم على فرض القرار، وتوجيه المنظمة الوجهة التي اختارها، بدلاً من تطوير قناعات مشتركة من خلال التشاور وتوليد إجماع حقيقي. هذه الرؤية التي أحضرها زكي حمد بدت واضحة في مقالات مجلة "الآفاق الإسلامية"؛ التي تحوَّلت إلى مجلة تقدم آراء رئيس الاتحاد واثنين من مساعدِيه المقرَّبين؛ إبراهيم أبو شريف وعمر حليم، دون الاكتراث بالتنوع القائم داخل الجاليات الإسلامية. اختفت صور نشاطات الجالية المختلفة، كما اختفى معها الحوار المتنوع، بعد أن ساد المجلة رؤية واحدة ضيقة. انعكست الرؤية الأحادية التي قادت الاتحاد، خلال رئاسة زكي حمد، إلى الاختفاء الفعلي للألوان التي كانت تعكسها صور النشاطات المحلية، وغلبة اللون الرمادي الباهت على المجلة بسبب غياب الصور!

صادف تولي زكي حمد مسؤولية قيادة الاتحاد فترة اعتزالي العمل التنظيمي مع الجاليات، وتفرغي للتحضير لشهادة الدكتوراه، ولم أنشط كثيراً في الحوارات التي جرت داخل الاتحاد والجالية، التي أخذ بعضها منحى التوتر والصراع. لكنني لم أخفِ قلقي للشّق الثاني من مهمة زكي، والمتعلق بفرض رؤية رمادية واحدة على المنظمة. اتصلت بزكي هاتفياً بعد توليه الرئاسة، هنأته بالثقة التي حصل عليها وتمنيت له التوفيق. لكنني أثرت معه أيضاً اعتراضي على أسلوب الانفراد بالقرار، وتغييب التنوع الذي يميز الجاليات الإسلامية النابع من تنوع الثقافات التي أحضرها المهاجرون معهم. دافع عن وجهة نظره واستغرق حديثنا بعض الوقت، ولكن بقيت الآراء والتصورات مختلفة، وكان ذاك آخر اتصال بيننا.

عـاد الاتحـاد - عقـب انتهـاء فـترة أحمـد زكـي حمـد الثانيـة عـام (1990)، وانتخـاب سـيد امتيـاز أحمـد رئيسـاً جديـداً - إلى سياسـة الانفتـاح عـلى التنـوع، ولكنـه تبنـى أيضـاً موقفـاً جديـداً قائـماً عـلى الاهتـمام بتطويـر الجاليـة بنـاء عـلى احتياجاتهـا الداخليـة، وفصـل جـدول عملهـا عـن الصراعـات المحتدمـة في بلـدان العـالم الإسـلامي، التـي بـدأت تأخـذ أشـكالاً أكثـر عنفـاً في بدايـة العقـد الأخـير مـن القرن المـاضي. عـاد الاهتـمام بالنشـاطات الثقافيـة والعمـل التطوعي، والنشـاطات السياسـية والحقوقيـة التـي بـدأت تتوسـع في التسـعينيات، مـع تعـرض الجاليـة لضغـوط مـن اليمـين المتطـرف وداعميـه.

تردد عاطفي واندفاع معرفي

تحـولي لدراسـة العلـوم السياسـية أتـى نتيجـة طبيعيـة لاهتمامـاتي القديمـة بالمواضيـع الفكريـة، انعكسـت رغبـةً قويـةً في دراسـة قضايـا السياسـة والحقـوق، ولكـن اللحظـة والهمـة جـاءت مـن زواج قصـير تـم في خريـف عـام (1985)، واسـتمر سـنة ونيـف، ثـم انتهـى فجـأة بسـبب تطـورات طـرأت عـلى حياتنـا المشـتركة، وتـم الفـراق بهـدوء واحـترام متبـادل. تعرفـت عليهـا في إحـدى النشـاطات الطلابيـة التـي نظمتهـا خـلال رئاسـتي للاتحـاد. كان النشـاط عرضـاً لفيلـم عـن الواقـع الفلسـطيني الصعـب تحـت الاحتـلال الإسرائيـلي. بعـد انتهـاء العـرض تحدثـت إلى الحضـور وشـكرتهم عـلى المشـاركة، وطلبـت منهـم دعـم جهـود الدفـاع عـن حقـوق الفلسـطينيين المضطهديـن، والمسـاعدة في توضيـح المأسـاة الفلسـطينية للـرأي العـام. مـا إن انتهيـت حتـى اقتربـت منـي فتاة تقربنـي بالعمـر، بـدا عليهـا ملامـح الاهتـمام الجـاد، وسـألتني أسـئلة عديـدة عـن الموضـوع الفلسـطيني، وطلبـت منـي إعلامهـا عـن النشـاطات التـي يقـوم بهـا الاتحـاد في هـذا الخصـوص. دعوتهـا إلى نشـاطات أخـرى لاحقـة، ثـم تحولـت إلى متطوِّعـة في نشـاطاتنا المرتبطـة بالمسـألة الفلسـطينية. توطـدت علاقتـي مـع بتريس مـارك، وكنـت معجبـاً بنشـاطها واهتمامهـا بالقضايـا الإنسـانية، كـما كنـت معجبـاً بنظرتهـا الثاقبـة بالمعنيَّـين الحقيقـي والمجـازي. تحـول حديثنـا تدريجيـاً مـن تبـادل الآراء حـول القضايـا السياسـية والطلابيـة إلى حديـث حـول ظروفنـا الاجتماعيـة

واهتماماتنا الشخصية. وشعرت بتقاربنا في الاهتمام الفكري، وكنت عندئذ قد انتهيت تواً من دراسة الهندسة. دعتني للتعرف على أسرتها التي تعود في أصولها القريبة إلى أوربا الشرقية. وبعد عدة زيارات عائلية ولقاءات شخصية اتفقنا على الزواج. ورغم العلاقة الشخصية الطيبة التي وسمت تعاملنا، لم يكتب للزواج الاستمرار، وانتهى بسبب خلافات في التوجهات الدينية، وأنماط العيش والحياة الاجتماعية. كانت بتريس عندما تعرفت عليها ناشطة في كنيسة إصلاحية، التحقت بها لأنها لم تجد في ديانة والديها الكاثوليكية ذات الطبيعة الطقوسية ما يملأ الفراغ الروحي لديها. ثم أبدت اهتماماً بعد التقائنا بالتعرف على الدين الإسلامي، وحضرت محاضرات وقرأت كتباً كثيرة عنه، ولعلها أصبحت أكثر معرفةً بمعتقداته وتاريخه والتحديات التي يواجهها من كثير ممن ولد مسلماً. تابعت باتريس القراءة عن الدين الإسلامي بعد زواجنا، وقررت أخيراً التحوُّل إلى الإسلام، ولكنها لم تستطع الاستمرار لفترة طويلة، على الأغلب لشعورها بالعزلة، وعجزها عن التواصل مع فتيات ونساء مسلمات، تقاربن معها في أداء الشعائر، ولكنهن وقفن على النقيض منها على مستوى النشاط العام والتفكير بقضايا الحياة الحيوية والاهتمامات العامة. مع دخول الزواج سنته الثانية بدأنا نشعر تدريجياً بتزايد التفاوت بين عالمينا. عادت هي للنشاط في كنيستها، بينما كنت غارقاً في نشاطاتي المتعددة؛ التي شملت في العام الثاني لزواجنا دواماً كاملاً في شركة إعلامية، ومحاضرات في برنامج الماجستير التابع للعلوم السياسية الذي التحقت به، إلى جانب نشاطي في مؤسسات الجالية وأسفاري المتعددة.

أقمت وبتريس في الأشهر الأولى لزواجنا في منطقة غرينفيلد، في شقة صغيرة في الطابق الأرضي في مجمع سكني للطلاب وأصحاب الدخل المحدود. وأقامت أختي ليلى قريباً منا في مجمع سكني آخر، في منزل أفضل موقعاً ومساحة، بعد انتقال زوجها أحمد الجراح إلى جامعة ديترويت لتحضير شهادة الهندسة المدنية. زرت أختي ليلى أول مرة في السكن الجامعي التابع لجامعة نبراسكا في السنة الأولى لوصولي إلى أمريكا، حيث تزوجت

في دمشق، ولحقت بزوجها المقيم في مدينة لينكولن خلال السنة الأولى لوجودي في أمريكا. كانت الرحلة طويلة استغرقت (13) ساعة متواصلة، وكانت بصحبتي الوالدة، رحمها الله. أمضينا أياماً هناك وتعرفنا على معالم المدينة. فاجأتني عندما أخبرتي أن طلقة نارية أصابت الحائط في غرفة الجلوس المطلة على غابة صغيرة مقابلة. رجحت أن تكون طلقة طائشة أطلقت من بعيد، ولكنني لم أستبعد في نفسي أن تكون محاولة ترويع من بعض الجيران المتشدِّدين، ممن ينتمون إلى اليمين المتطرف، الذين لم يرضهم إقامة عائلة مسلمة بينهم. ولكن لم يكن ما يؤكد شكوكي، وبدا لي أن احتمال الاستهداف كان ضعيفاً في تلك الآونة، قبل ازدياد ممارسات اليمين المتطرف المسيحي ضد المسلمين، ولم أشأ أن أدخل القلق إلى نفوسهم فاحتفظت بالخاطرة لنفسي. الطريف أن ليلى وأحمد لم يمكثا طويلاً في نبراسكا، فانتقل صهري أحمد للدراسة في جامعة ديترويت عام (1986)، وأمضى هناك عاماً واحداً، ووفَّرت هذه النقلة شيئاً من الشعور بالحياة العائلية. فكنا نتبادل الزيارات بين الحين والآخر، وكانت فرصة لي للتمتع بالجو العائلي، والتمتع أيضاً بالأكلات الشامية التي تتقنها أختي. شهدتُ ولادة أختي بابنتها الأولى آلاء ذاك العام قبل عودتهم إلى دمشق، عقب انتهاء أحمد من دراسة الهندسة.

لم أُعلم في البداية أهلي بزواجي، ولكنني أخبرتهم بعد انتهاء إجراءات الزواج، ووصول الخبر إلى الوالدة من خلال خالتي أمل التي كانت مقيمة في جدة، فقد كان الاتصال مع جدة أيسر بكثير منه مع الشام. صارحت الوالدة عندما سألتني عن حقيقة الأمر، ولا أذكر ماذا كان ردّ فعلها لحظة سماعها بخبر زواجي واتخاذ القرار دون العودة إليها، لكنها لم تكن سعيدة بخبر الزواج؛ لأن حصوله أعطاها مؤشراً إلى إنني أصبحت أميل إلى الاستقرار في أمريكا. وفعلاً لم أفكر بالعودة إلى عملي السابق في السعودية بعد انتهائي من دراسة الهندسة، فقد شعرت بأن إقامتي في أمريكا تمنحني مساحة من الحرية كنت أحتاجها لنموي الفكري والنفسي والروحي. المفارقة بين العيش في مجتمع يقوم على أساس القوانين، وتحترم فيه حريات

المواطنين، وتتوفر فيه الفرص للناس بناءً على كفاءاتهم وإنجازاتهم، لا على أساس علاقاتهم الشخصية وخلفياتهم القومية أو الحزبية أو الاجتماعية أو الدينية. وكانت الحياة في أمريكا تبدو أكثر فاعلية وإنتاجاً، وهو أمر ظهر على سبيل المثال في منظومة الخدمات الذي أمكن الحصول عليها عبر الهاتف والبريد، دون الحاجة لإضاعة ساعات طويلة لتحصيلها بالتنقل بين الدوائر أو الوقوف في الطوابير؛ مثل دفع الفواتير من خلال البريد، وتجديد رخصة القيادة، والحصول على خدمات كثيرة أخرى. هذا التيسير الخدمي، بعيداً عن التعقيد الإجرائي الذي يعاني منه المواطن في المجتمع المشرقي، منحني وقتاً أطول من ساعات اليوم للعمل والإنتاج والقراءة والكتابة. وأهم من هذا وذاك شعرت بقدرتي على الفعل والتأثير والتنظيم والمشاركة العامة بطريقة لم أشعر بها من قبل. ساعدتني بتريس على تنقيح مقالاتي ورسائلي. ثم شجعتني على الالتحاق بقسم العلوم السياسية التي كانت تدرس فيه. وفعلاً ذهبت إلى قسم العلوم السياسية، وكان يقع في مبنى إداري كبير اسمه ماكينزي هول، والتقيت بالدكتور رتشارد ألينغ مشرف برنامج الدراسات العليا في القسم.

وجاء الفرج من حيث لا أحتسب!

بعد تقديم الأوراق المطلوبة وافق القسم على منحي قبول شرطي؛ على أن يتم تحويله إلى قبول دائم لدى تحصيلي معدل يزيد على 80 ٪ في المواد الثلاثة الأولى التي طلب مني التسجيل فيها. كان التحاقي بالبرنامج مغامرة، فلم يكن لدي خبرة في الدراسات الإنسانية. كنت شغوفاً بقراءة المواضيع الإنسانية والاجتماعية والفلسفية، إلا أن معظم قراءاتي كانت باللغة العربية، ولم أكن أعتقد أن حصيلتي العلمية كافية لوضعي في برنامج للدراسات العليا. ولكن عناصر الحماس والرغبة والشغف كانت في قمتها، وكنت في قد بلغت مرحلة متقدمة من الانضباط والتركيز وتكريس الوقت لموضوعات اهتمامي. وحصلت المفاجأة عندما حققت المعدل التام في المواد الثلاث، فكان معدلي 100 ٪. أصبح التحدي أمامي هو تحصيل منحة دراسية؛

فقد كان الجمع بين الدراسة والعمل مسألة صعبة على مستوى الدراسات العليا. من ناحية أخرى، لم تكن لدي أسرة تأخذ الكثير من وقتي، وكان وقتي يتوزع بين العمل والدراسة ونشاطات الجالية. تواصلت مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي للحصول على منحة دراسية، وكنت أعلم أنهم يعطون منحاً لطلبة الدراسات الاجتماعية المهتمين بقضايا التراث والإسلام، فجاء الجواب بالرفض. اتصلت بالمعهد وتحدثت مع رئيسه عبد الحميد أبو سليمان، ولم تكن بيننا آنذاك معرفة شخصية، وحاولت إقناعه بتوفير منحة دراسية، وسعيت لإظهار حرصي ورغبتي وقدرتي، لكن الحديث كان يتجه عكس الوجهة التي تمنيت، فقد كانت لهجة عبد الحميد تزداد ارتفاعاً وتململاً كلما حاولت إقناعه بأهمية توفير المنحة لمساعدتي في تحقيق رسالتي الإصلاحية. وانتهى الاتصال برفض صريح وواضح لتوفير منحة دراسية لي. وأدركت عندئذ أن الخيار المتاح هو الجمع بين العمل والدراسة، فسلمت أمري لله وسألته التيسير.

وجاء التيسير على أسهل السبل ومن حيث لا أحتسب. كنت في مطلع عام (1986) أدرس مادة النظرية السياسية مع الدكتور فيليب آبات. كان فيليب الوحيد المتخصص في الفلسفة السياسية بين أساتذة القسم، بينما كان معظم الأساتذة متخصصين في الإدارة والسياسات العامة. كان فيليب رجلاً دمثاً لطيفاً، وكانت أفضل المساقات التي يدرسها هي الحلقات النقاشية التي يشارك فيها الطلاب بالتحضير ونقاش الموضوعات. كنت في تلك المرحلة قد بدأت أميل لدراسة الفلسفة السياسية؛ لأنني شعرت أن هذه الدراسات هي الأفضل لتطوير قدرات التحليل والنقد الضرورية لتطوير رؤى بديلة لتلك التي هيمنت على الكتابات السياسية السائدة. دراسة الفلسفة السياسية أعطتني مقدرة عالية على التحليل والتركيب، كنت أحتاجها لربط تطور الفكر السياسي بالرؤية التاريخية والثقافية الخاصة بالمجتمعات العربية والإسلامية. وكنت وزميل لي اسمه كريستوفر دانكن من أنشط الطلاب في الصف، وأكثرهم مداخلة في النقاشات. كريستوفر،

أو كريس كما كنا نناديه، كان طالباً نابغاً، درس الفلسفة والعلوم السياسية في المرحلة الجامعية في جامعة ميشيغان المتميزة، قبل أن يتحوَّل إلى دراسة النظرية السياسية في جامعة وين ستيت. وكنا نتحاور ونتناظر في الفصل، وكان أستاذ المادة فيليب مهتماً بحوارنا وآرائنا. وأذكر أننا اتفقنا في إحدى المناظرات على أهمية دور الإصلاح الديني في تحفيز حركات الإصلاح الاجتماعي والسياسي، مما أثار اهتمام فيليب، وأبدى تعجبه من توافقنا على الرغم من اختلاف مشاربنا السياسية وخلفياتنا الثقافية والدينية. المفاجأة الأكبر حصلت بعد أيام قليلة، ولا زالت لحظاتها منطبعة في ذاكرتي بوضوح، وكأن الأمر حدث بالأمس. حضر فيليب إلي في الأشهر الأولى من الفصل الدراسي الشتوي لسنة (1987)، وكنت أقف في ممرٍّ قريب من قاعة المحاضرات خلال الاستراحة وخاطبني قائلاً:

– سيعلن القسم عن منحة دراسية لوظيفة معيد. هل لديك رغبة في التقدم إليها؟

فاجأني السؤال، ولكنني لم أتردَّد في إظهار اهتمامي بذلك العرض، فأجبته:

– نعم بالتأكيد.. سأكون سعيداً إذا تمكنت من التفرغ للدراسة.

تابع كلامه مؤكداً دعمه لطلبي قائلاً:

– اِملأ الطلب.. وقدم الأوراق إلى القسم، وسأقوم بكتابة رسالة تزكية!

مضى فيليب إلى شأنه، بعد أن شاركني بهذا الخبر المفاجئ الذي أدخل السرور إلى قلبي. ذهلت لدقائق وأنا أسترجع هذا العرض المفاجئ؛ الذي أتاني دون مقدمات، ودون طلب، وغمرتني السعادة لأني كنت أسعى منذ أشهر طويلة إلى مثل هذه الفرصة الضرورية للتفرغ للدراسة. وشعرت للحظات قليلة أن الحديث جزء من حلم جميل، ولكنه كان واقعاً وحقيقة يسرت لي الطريق، واختصرت المسافة التي كانت تفصلني عن الهدف الذي كنت أسعى بخطوات حثيثة إليه. وعدت إلى غرفتي وجلست على الكنبة

وأمامـي اللوحـة القرآنيـة التـي رافقتنـي في كل مـكان حللـت بـه مكتوبـة بخـط النسـخ الأنيـق:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق:65/ 2-3].

تأملـت لدقائـق في جهـودي المتكـررة للحصـول عـلى دعـم مـن أقـرب الناس لي فكـراً وهمـاً دون جـدوى، وهـا هـو الدعـم يأتينـي مـن شـخص بعيـد ومـن حيـث لا أحتسـب، ودون طلـب أو إلحـاح أو سـؤال. شـعرت بيـد الله تمسـك بيـدي وتقـودني إلى حيـث أردت، بعـد أن ضـاق الـدرب وعجـزت الحيلـة، وخـاب الرجـاء فيمـن ظننـت فيهـم الرجـاء، ولم يبـقَ إلا رجـاء واحـداً يتمالكنـي دون أن ينقطـع، رجائـي بـالله وعونـه وعنايتـه!

قُبلـت معيـداً في قسـم العلـوم السياسـية، وتلقيـت رسـالة القبـول مرفقـة بالعقـد، وتحـول الحلـم إلى حقيقـة لحظـة اسـتلامي عـرض العمـل. أدركـت أن بإمـكاني الآن الاسـتقالة مـن عمـلي اليومـي والتفـرغ للدراسـة والبحـث. وخـلال أشـهر قليلـة مـن بـدء تفرغـي الـدراسي اسـتقلت مـن كل مهامـي التنظيميـة، وتوقفـت عـن نشـاطاتي الطلابيـة التـي شـغلت جـزءاً كبـيراً مـن وقتـي، خـلال السـنتين المنصرمتـين. النشـاط الوحيـد الـذي تبقـى هـو المشـاركة في المحـاضرات التـي كنـت أُدعـى إليهـا في مراكـز الجاليـات العربيـة والإسـلامية، والمشـاركة في المؤتمـرات العلميـة، وخاصـة تلـك التـي ينظمهـا المعهد العالمـي للفكر الإسـلامي، ورابطـة علـماء الاجتماعيـات المسـلمين، التـي انتسـبت إليهـا، ووفـرت لي منصـة لتقديـم أبحاثـي المتعلقـة بمشـكلات الفكـر العـروبي والإسـلامي، ومشـكلات المجتمعـات العربيـة. كان الراتـب الشـهري الـذي كنـت أتلقـاه مـن الجامعـة لقـاء إعطـاء محـاضرة واحـدة أسـبوعية يزيـد عـن حاجـاتي، ويمكننـي مـن ادِّخـار مبلغ صغـير كل شـهر. وكانـت منحـة المعيديـة تغطـي رسـوم الجامعـة المرتفعـة، وتوفـر لي تأمينـاً صحيـاً يغطـي كل تكاليـف العيـادات والنفقـات الصحيـة. وبعـد عـام مـن العمـل معيـداً تقدمـت إلى منحـة لطلبـة الدراسـات العليـا المعروفـة باسـم زمالـة تومـاس رمبـل لعـام (1988)، وهـي مخصصـة لطـلاب الدراسـات العليـا

المتميزين. ولكني اضطررت لاحقاً للاعتذار عن تسلمها؛ بسبب رفض الجامعة استمراري في وظيفة معيد في قسم العلوم السياسية. كانت المنحة تقدم تعويضاً دراسياً سخياً إضافة إلى تغطية تكاليف السكن الجامعي، وتأمين صحي شامل. بعد تفكير عميق اعتذرت عن قبول الزمالة؛ لأني لم أكن أرغب بالتوقف عن التدريس في الجامعة. ولكنني عدت وطلبت الحصول على بدل السكن، فوافقت الجامعة على منحي البدل الخاص بالزمالة، وهذا جعلني في أفضل وضع مالي منذ أن وصلت إلى الولايات المتحدة قبل أربع سنوات.

شريكة العمر ورفيقة الدرب

زواجي الذي ربطني برزان، رفيقة دربي خلال العقود الثلاثة الماضية، ترافق مع نهاية مرحلة الماجستير وبداية مرحلة الدكتوراه. فقد بدأت والدتي وأختي لينا تتواصلان معي لتشجيعي على الزواج، والتأكيد على أهمية البحث عن زوجة من البيئة التي نشأت فيها لإقامة أسرة مستقرة. واقتنعت بعد محاولات فاشلة قام بها بعض الأصدقاء لجمعي بفتيات مناسبات، كان آخرها محاولة قام بها صديق عزيز تعرفت عليه خلال نشاطي الطلابي وحركتي الدائبة بين المدن الأمريكية، كان يقيم في أناربر ويدرس الهندسة المعمارية، وينحدر من أسرة سورية اسمه هيثم يونس. انحدر هيثم من والدين سوريين، غادر أباه سورية وقطع الجسور التي تربطه بموطن الأجداد. كان والده طبيباً مارس مهنته في مدينة غرينفل الصغيرة، الواقعة في غرب ولاية ميشيغان. تزوج هيثم من فتاة ألمانية اعتنقت الإسلام، واستمر الزواج طوال فترة الدراسة الجامعية، لكن طباعهما المتناقضة جعلت استمرار الزواج صعباً فافترقا. كنت أيضا على تناقض معه في المزاج؛ كان هو يميل إلى الجانب العاطفي الروحي في مقاربته للإسلام، وكنت أميل إلى الجانب العقلي العلمي الحضاري. وكان جاداً في اهتماماته الاجتماعية وشعوره بالمسؤولية. عرّفني هيثم في إحدى زياراتي لأناربر، بعد أن علم أنني انفصلت عن زوجتي الأولى، على امرأة كانت في مطلع الثلاثين من العمر، ولكن لم يحدث انسجاماً من اللقاء الأول، وبدت

اهتماماتنا متباينة، فآثرت البقاء على حالي. أرسلت لي أمي صورة لفتاة شابة كانت صديقة لأختي لينا، وشجعتني على التواصل معها للتعرف عليها. وبعد عدة مراسلات أبديت رغبتي للتعرف عليها شخصياً، وكان المكان المناسب للقاء هو منطقة أنطاكيا الجميلة في جنوب تركيا، حيث علمت من والدتي أن الأسرتين كانتا تعدان للسفر إلى تركيا لقضاء أيام في منتجعاتها الجميلة. في نهاية شهر آب من عام (1989) ركبت الطائرة واتجهت إلى اسطنبول ومنها إلى مدينة أضنا في جنوب تركيا، واستقليت سيارة أجرة من هناك إلى منطقة أنطاكيا. التقيت أخيراً برزان وأسرتها بعد مراسلات استمرت بعض الوقت، كما التقيت بوالدي الذي لم أره مذ غادرت سورية في صيف عام (1983)، واجتمعت كذلك بأختي لينا وأخي عامر بعد خمس سنوات من الفراق.

أمضيت في منطقة أنطاكيا الرائعة أياماً جميلة تعرفت فيها على رزان، ثم تقدَّمت إلى والدَيها بطلب الزواج حسب الأصول المتبعة، وتم عقد القران قبل عودتهم إلى دمشق وعودتي إلى أمريكا، على أن تتم إجراءات الزواج في نهاية العام. منطقة أنطاكيا الجبلية غاية في الجمال؛ إذ تقع المدينة على قمة جبل أخضر يطلُّ على البحر الأبيض المتوسط. وهي قريبة من رأس البسط مكاني المفضل عندما كنت طالباً في سورية، قبل عقد من الزمن. تجوَّلنا في أنطاكيا وإسكندرون والحربيات، وهي مناطق ينحدر سكانها من أصول عربية، ويجيدون التحدث باللغة العربية بطلاقة. كما زرنا عائلة صديقي صفا ياهشي الذي تعرفت عليه في جامعة وين ستيت، وكنا نقيم في مبنى واحد وشقق متقاربة. ينحدر صفا من بلدة صغيرة تسمى باياس، على بعد (25) كيلو متراً شمال مدينة إسكندرون، استغرقت زيارتنا يوماً كاملاً، ووجدنا حفاوة كبيرة من أسرته الكريمة. كان الحوار في جلستنا الطويلة طريفاً، فلم يكن أهل صفا يتكلمون العربية ولم نكن نتكلم اللغة التركية، فكان هو الترجمان بيننا. دار حوار بيني وبين بعض أقربائه تطرق إلى أتاتورك، حملت فيه على استخدامه العنف لفرض رؤيته التغييرية على الناس. لم يعجب كلامي ابن عم صفا؛ الذي كان يرى

في أتاتـورك المنقـذ الـذي حـرر تركيـا مـن العـدوان الغـربي والـروسي، وحـرر اسـطنبول بعـد وقوعهـا تحـت سـيطرة الخلفـاء. وبذلـك عكـس كلانـا جانبـاً صحيحـاً مـن ممارسـات أتاتـورك، وتجاهـل الجانـب الآخـر، ربـما لاختـلاف المواقـع والأولويـات التـي وظَّفهـا كل منـا للحكـم عـلى تلـك التجربـة الجدليـة، أو ربـما لاختـلاف رؤيتَينـا لتجربـة أتاتـورك ودلالاتهـا التاريخيـة المختلفـة.

عـدت إلى ديترويـت وعـادت خطيبتـي رزان إلى دمشـق بانتظـار التحضـير لإجـراءات الزفـاف. قبـل عـودتي توقفـت في مدينـة اسـطنبول، وتواصلـت مـع شـاب اسـمه حقـان مـن سـكان البلـدة، أعطـاني رقمـه صديـق تركـي مـن زمـلاء الدراسـة في أمريـكا، وطلبـت منـه أن يكـون دليـلي في التعـرف عـلى معـالم اسـطنبول التاريخيـة. وبالفعـل بعـد تـردد قليـل وافـق حقـان عـلى صحبتـي، ولعلـه تفاجـأ بطلبـي؛ لأن قريبـه الـذي أعطـاني رقمـه لم يعلمـه بقدومـي. قمنـا بزيـارة المعـالم المهمـة في المدينـة مثـل: القـصر العثـماني القديـم المسـمى بـ "تبـكابي"؛ الـذي بنـاه محمـد الفاتـح في منتصـف القـرن الخامـس عـشر، والقـصر الجديـد المعـروف باسـم "دلمـا باغجـة" الـذي بنـي في القـرن التاسـع عـشر في عهـد السـلطان عبـد المجيـد، وتبـكابي أكـبر القصـور العثمانيـة؛ يقـع عـلى تلـة في منطقـة القـرن الذهبـي التـي تـشرف عـلى بحـر مرمـرة مـن طـرف، وعـلى مضيـق البوسـفور مـن الطـرف الآخـر. والقـصر مؤلـف مـن عـدد مـن الأبنيـة مخصصـة لسـكن السـلطان، وجنـاح للقاءاتـه وأعمالـه، وأبنيـة أخـرى لسـكن وزرائـه وحاشـيته، إضافـة إلى حدائـق فسـيحة مطلـة عـلى مدينـة اسـطنبول والبحـار المحيطـة بهـا. ويـشرف القـصر عـلى القسـم الآسـيوي مـن اسـطنبول الحديثـة، كـما يـشرف عـلى المدينـة القديمـة الواقعـة في القسـم الأوربي مـن اسـطنبول. أمـا قـصر طولمـه باغجـة، أو الحديقـة المردومـة، فقـد بنـي بأمـر السـلطان عبـد المجيـد في منتصـف القـرن التاسـع عـشر، عـلى الطـراز المعـماري الفرنـسي. زائـر هـذا القـصر يستشـعر تشـابهه الكبـير مـع القصـور الفرنسـية التـي تعـود إلى عـصر النهضـة في البنـاء والتزيـين، وفي نمـط الأثـاث أيضـاً. وفي حـين يتميـز قـصر تبـكابي بالأناقـة البسـيطة فـإن قـصر طولمـه باغجـة يتميـز بالبـذخ والـترف.

زرت كذلك مسجد آياصوفيا؛ الذي كان في بداية عهده كنيسة بيزنطية تعود إلى أيام الإمبراطور قسطنطين، تحوَّلت بعد فتح المدينة إلى مسجد، ثم تحوَّلت حديثاً إلى متحف يزوره السياح. وزرت كذلك مسجد السلطان أحمد، المعروف بالمسجد الأزرق بسبب لون القرميد الأزرق الذي يغطي سقفه، ومسجد السليمانية الذي بناه سليمان القانون وصممه المهندس العثماني المشهور سنان. وهو أكبر مساجد اسطنبول، ويقع على مضيق البوسفور، ويتميز بقببه ومآذنه التي أصبحت نموذجاً عثمانياً للمساجد. ولاحظت خلال زيارتي تلك أن المساجد جميعاً مهملة وبحاجة ماسَّة إلى ترميم وصيانة. فالسجاد قديم مهترئ، والأحجار يعلوها طبقة من الفحم بسبب دخان السفن والسيارات، والقبب بحاجة إلى ترميم. المشهد اختلف تماماً في زيارات لاحقة في نهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، بعدما تسلم حزب العدالة والتنمية مقاليد الحكم. فقد تمَّ تخصيص ميزانية لترميم المساجد وإعادتها إلى زهوتها القديمة، واستبدلت بالإضاءة الخافتة إضاءة جديدة أظهرت تصميمها المتقن الأخّاذ.

في نهاية العام وبعد انتظار وصول الأوراق حضرت رزان إلى أمريكا، واستقبلتها في مطار شيكاغو. وصادف قدومها فترة امتحاناتي الفصلية، فكنت أغيب عن المنزل معظم أوقات النهار وأمضي الليل في القراءة، فلم يكن الاستقبال يليق بعروس، لكنها صبرت علي وأدركت الظرف الذي كنت فيه. ومع انتهاء امتحانات الفصل الدراسي الأول من مرحلة الدكتوراه، والانتهاء من تصحيح أوراق الطلاب، ذهبنا معاً في أول رحلة خارج حدود الجامعة منذ وصولها، لنجمع بين السياحة والترفيه وحضور مؤتمر في مدينة كليفلاند من ولاية أوهايو. ومن هناك ذهبنا معاً إلى شلالات نياكرا، إحدى أهم المواقع التي كنت أصطحب أقاربي وزواري إليها؛ فمشهد الشلالات التي تعتبر من عجائب الدنيا مهيب، وهي تسقط بغزارة من علو شاهق، ويتطاير رزاز الماء نتيجة سقوطها ويرتفع أكثر من مئة متر نحو الأعلى. ثم سافرنا سوياً إلى واشنطن المدينة ذات الطابع المتميز عن باقي المدن الأمريكية؛ لأنها مبنية على الطراز الروماني

الـذي يتميـز بأعمدتـه المرتفعـة وحجارتـه الكبـيرة. ويتكـون مركـز المدينـة مـن أبنيـة حكوميـة منهـا البيـت الأبيـض، ومبنـى الكونغـرس، وأضرحـة جفرسـون ولينكـن، أكثـر الرؤسـاء الأمريكيـين احترامـاً وتأثـيراً بعـد الرئيـس الأول جـورج واشـنطن مؤسـس المدينـة. ومنهـا مبنـى المحكمـة العليـا، والمـصرف المركـزي، ومبـاني الـوزارات، وبعـض المتاحـف الضخمـة. وفي وسـط هـذه المبـاني تقـع حديقـة كبـيرة ممتـدة عـلى قرابـة الميـل.

واجهـت وزوجتـي بعـض الصعوبـات في الأشـهر الأولى، بعـد أن اكتشـفنا أننـا كنـا مختلفـين في الطبـاع والاهتمامـات وأسـاليب التفكـير والميـول الاجتماعيـة. هـذا الاختـلاف الكبـير لفـت انتبـاه أصدقـاء لنـا، وأخـبرني أحدهـم بعـد سـنوات مـن الـزواج أنـه وزوجتـه توقعـا أن لا يسـتمر الـزواج بسـبب هـذه الاختلافـات. ولكنـه اسـتمرَّ وأثمـر أسرة كريمـة وأبنـاء بـررة يملؤهـم النشـاط والحيويـة. ونـما الحـب بيننـا وجمـع بـين قلبينـا، فكانـت الخلافـات تتكـسر وتختفـي عـبر الطاقـة السـحرية التـي ولَّدهـا الحـب، تجلَّـت في ودٍّ ورحمـة متبادلـة. الـسرُّ في نجـاح الـزواج يكمـن مـن ناحيـة في فيـض العاطفـة، ومـن ناحيـة أخـرى في طريقـة التفكـير في مسـألة التماثـل والاختـلاف، وطريقـة اسـتثمارهما في تعزيـز العلاقـة الزوجيـة. نعـم كنـا مختلفـين جـداً، وربـما شـعر كلانـا أن توقعاتنا السـابقة للـزواج لم تكـن دقيقـة، ولكننـا تمكَّنـا مـن الحفـاظ عـلى رابطـة الـزواج التـي جمعتنا عـبر إصرارنـا عـلى تحويـل الاختـلاف إلى تكامـل. أَوَليـس الاختـلاف والتكامـل مـن أهـم مميـزات الاجتـماع؟ كان يعـتري الـزواج بطبيعـة الحـال مـا يعـتري كل زواج مـن لحظـات توتـر وخـلاف، ولكنهـا كانـت خلافـات زوجيـة تحتـاج إلى حكمـة في التعامـل معهـا بـدلاً مـن تحويلهـا إلى ذريعـة للانفصـال. ووصلـت سريعـاً إلى القناعـة بـأن الـزواج الناجـح يرتبـط بالجهـد الـذي يبذلـه الزوجـان في بنائـه، وأن السـعي للخـروج منـه عنـد أول عقبـة ومشـكلة، كـما فعلـت في زواجي الأول، ليـس حـلًّا بـل ربـما يكـون السـبب الأسـاسي في فشـل كثـير مـن الزيجات. أدركـت بسرعـة أن التحديـات جـزء لا يتجـزأ مـن العلاقـات الزوجيـة، تمامـاً كـما أنهـا جـزء لا يتجـزأ مـن العلاقـات الإنسـانية، وأن المقاربـة النفسـية الإيجابيـة والسـعي المسـتمر للتخلـص مـن أسـباب الاختـلاف سرّ الـزواج الناجـح!

تسامي الفكر وتهافت الواقع

الزيارة الثانية لواشنطن بصحبة رزان صادفت وجود الوالدة التي رافقتنا في رحلتنا. وكانت غاية الزيارة المشاركة في ندوة نظمها المعهد العالمي، والذي اختار ضاحية من ضواحي واشنطن مقرّاً له. جرت الندوة عقب حرب الخليج الأولى التي دُمِّر خلالها جيش صدام بعد غزو الكويت، وكان موضوعها "مستقبل العمل الإسلامي في ظل التحولات الدولية وأزمة الخليج". حضر عدد كبير من مفكري العالم الإسلامي وناشطيه السياسيين، أذكر منهم: عبد المجيد النجار، وإسحاق فرحان، وطه جابر العلواني، وتوفيق الشاوي، وجمال البرزنجي، وعلي الشيخ عمار، وسامي العريان، وخليل الشقاقي، وكمال الهلباوي، ومهجة قحف، وأحمد يوسف، ومحمد هاشمي الحامدي، وآخرين لا أستحضرهم اليوم. كانت ورقتي بعنوان "الحركة الإسلامية وأزمة الخليج - دعوة إلى تغيير المنطلقات النظرية". حملت ورقتي نقداً مباشراً لمبادئ عمل الحركات الإسلامية، وخاصة الإخوان، من خلال نقد أطروحات قدمها عدد من مفكري الإخوان، مثل: سيد قطب، وسعيد حوى. كما سعيت لإظهار قصور مفاهيم أساسية في الفكر التنظيمي والاستراتيجي مثل مفاهيم "المجتمع الجاهلي" و "الكيان العضوي" و "توظيف التربوي في خدمة السياسي" و "شمول التنظيم" و "مركزية القيادة" وغيرها من المفاهيم التي كانت، ولا زالت، حاكمة لجوانب عديدة من عمل الحركات الإسلامية. ودعوت إلى تبني مفاهيم ومبادئ بديلة أكثر قدرة على تطوير المجتمع، وترشيد العمل الجمعي مثل مفاهيم "النهوض الحضاري" و "تعدد المراكز الحيوية" و "ربط المرحلية باحتياجات المجتمع لا التنظيمات" و "المنظمات المتخصصة" و "التكامل الوظيفي" وغيرها من المفاهيم.

المؤتمرات والندوات لم تكن المنفذ الوحيد الذي كان يبعدني عن مسؤولياتي الجامعية والتحضير لرسالة الدكتوراه، بل كنت حريصاً على ترتيب لقاء أسبوعي في بيتي، أو في بيت أحد الأصدقاء في مبنى شقق

"هالين ديروي" الذي أقمت فيه منذ التحاقي ببرنامج الدراسات العليا، وهي عادة طيبة حافظت عليها مذ أن كنت شابّاً يافعاً في ثانويات دمشق. كنا حفنة من الزملاء في الجامعة من اختصاصات مختلفة نلتقي أسبوعيا لطرح مواضيع فكرية واجتماعية ودينية للمناقشة، أذكر منهم: غلام نبي تشودري، ومحمد عالم، ومحمد أيوب، ومحمد رمزي، ورشيد قسوم، وصفا ياهشي. كان لقاؤنا يمثل اجتماعات عالمية نظراً لتعدد الجنسيات من بنغلاديش وتركيا والباكستان والهند والعراق ولبنان وسورية ومصر والجزائر. كانت اللقاءات تتخللها نقاشات عاصفة أحياناً، وتعكس خلافات في المقاربة والتفسير. فقد كنت دائماً أتصدى لمحاولات تقليص معاني الإسلام إلى مفاهيم سطحية ومعايير فقهية، وكنت أشدد على كل من الجانب الروحي والأخلاقي والإبداعي، التي تشكل جوهر الرسالة الإسلامية. كما كنت أرفض المقاربات الاستبعادية التي يطرحها البعض، والتي تسعى إلى تحويل الدين إلى أداة سياسية واجتماعية للتمييز بين الناس، وسلبهم حقوقهم الإنسانية في المساواة والحرية. كما كنت أرفض منهجية المحدثين في تفسير القرآن التي تعطي ألوية للفهم التقليدي، حتى عندما يشوبه الاضطراب والتناقض، على الفهم الاستدلالي المبني على ربط المعاني بعضها ببعض. وكان بعض الزملاء المتخصص في العلوم التطبيقية كالهندسة يتململ من بعض طروحاتي لصعوبة المفاهيم التي أحضرها للنقاش. ويبدو أن برنامج الدراسات العليا، واعتيادي على اللغة العلمية والفلسفية، كانا يمنعاني من إدراك ضرورة البقاء على مستوى الخبرة الحسية العامة قدر الإمكان. لكن بعض النقاشات والقراءات كانت تقودنا إلى معانٍ بعيدة عن الحسِّ المشترك، وتقودني مرة أخرى إلى نقاشات عالية التجريد، فيعود بعض الحضور للاعتراض والتململ لخروج معاني العبارات عن دائرة خبرتهم وفهمهم. تبحُّري في القراءات المعرفية نبَّهني لاحقاً إلى صعوبة فهم المعاني التي لا تدخل في دائرة خبرتنا الشخصية، وأكَّد أهمية ربط المعاني بخبرة شخصية مباشرة، أو بالتشبيه والتمثيل، كشرط ضروري لفهمها.

من الصداقات التي استمرت بعد تخرُّجي من الجامعة صداقتي المتميزة مع زميلين مختلفين تماماً بالطباع والشخصية؛ محمد رمزي ومحمد أيوب. جاء محمد رمزي إلى ديترويت بعد حصوله على شهادة دكتوراه في العلوم العضوية، والتحق بمخبر في مشفى الجامعة؛ حيث يعمل ابن عمه إياد الكاتب. كان محمد شاباً طيباً اجتماعياً، يتفاعل مع الناس دون تكلف، وكان بشوشاً محبّاً للخير، ونشيطاً يشارك في نشاطات متعددة في مراكز إسلامية مختلفة، ولا يتردد في مساعدة من يستعين به. عندما التقيته، وكان صدام حسين لا زال رئيساً للعراق، تردد في إعطائي اسمه، وعندما ألححت عليه أعطاني إياه مقلوباً، الكنية أولاً والاسم أخيراً. كان مسالماً، لا يحب المواجهة والمصادمة ولو كان محقّاً. كنا نذهب معاً لتدريس طلبة الجالية التابعة للمسلمين الهنود، الواقعة في منطقة كانتون غرب ديترويت. وكانت تربطنا صداقة حميمة مع العديد من قياداتهم، مثل مسعود الرب مرزا، وعبد الحفيظ، وعاصم حسين، وآخرين. كانت الجالية حديثة التأسيس، بدأت باستئجار مدرسة في منطقة كانتون قبل أن تبني مركزها الكبير. في أول انتخابات لرئيس الجالية وأعضاء مجلسها العام ترشح رمزي لعضوية المجلس، فحصل على أعلى الأصوات، مما جعله الأحقّ بتولي منصب الرئيس حسب النظام الداخلي. ولكن أصدقاءنا في مجلس الجالية شعروا بكثير من الإحراج أن يترأس الجالية الهندية رجل عراقي؛ فطلبوا منه التنازل عن منصبه لصديق آخر من أصول هندية، فلم يتردد، وانتهت الحادثة المربكة بسلام. رشحته لعضوية مجلس إدارة المركز الإسلامي الذي أنشأناه قرب الجامعة لخدمة الطلبة المسلمين الكثيرين في الجامعة. كان المجلس يتكون من زميلين آخرين هما غلام شودري ومحمد شفيق، ثم استبدل بهما: الشيخ محمد موسى؛ إمام مسجد ديربون، وامتياز أحمد؛ وهو رجل كان آنذاك في العقد الخامس من عمره، انتقل إلى منطقة ديترويت الكبرى من لوس أنجلس. وكنت رئيساً لمجلس الأمناء في السنوات الثلاثة الأخيرة، ثم تولى محمد رمزي رئاسة المركز بعد سفري عام (1992) إلى ماليزيا، وعمل على جمع التبرعات لاحقاً لتوسيع المبنى مع تزايد أعداد المصلين.

جمعتني أيضاً بمحمد أيوب صداقة حميمة، كنا نلتقي بين ساعات الدراسة للحديث في منزلينا، أو نخرج لتبادل الحديث ونحن نتجول في حدائق الجامعة وساحاتها. كنت قليل الكلام هادئاً، وكان صاحب نكتة محببة. كان يستدرجني للحديث بطرح الأسئلة والحوار. وكان يهتم بآرائي وأطروحاتي، ويستشرني في مسائل كثيرة، ويسعى دائماً لمناقشتي بأحوال العالم العربي والإسلامي المتردية. كان مليئاً بالعاطفة والحيوية، تثيره أمور تبدو لي عابرة. وكان مرهفَ الحس شديد الحساسية، خاصة عندما يلحظ أن محاوره لا يحترم رأيه ومواقفه. وهذا خلق بعض التوتر بينه وبين رمزي الذي لا يعير مثل تلك الحساسيات أهمية، ويتكلم على سجيته. علمت منه أن العلاقة بينهما بردت في السنوات التي أمضيتها في ماليزيا. ولكن محمد أيوب كان مسامحاً إذا لم يلمس ممن يسيء إليه القصد والتعمد. سأل مرة حماي، وكان في زيارة عندي، عن رأيه بمصر والمصريين عندما علم أنه زار القاهرة. فأجابه عمي أبو زوجتي بطريقته البالغة في الصراحة: "لم تعجبني مصر"، ثم أفاض بما لديه من أسباب. فتلقى محمد جوابه وتعليلاته بضحكته المعهودة وبروح المرح والفكاهة التي كانت تميزه. استمرت صداقتي مع محمد بعد سفري إلى ماليزيا وعودتي منها، رغم تباعد أماكن إقامتنا. كنا نتبادل الاتصالات في المناسبات، وكان حريصاً على معرفة آخر أخباري وكتاباتي.

رابطة علماء الاجتماعيات المسلمين

التحاقي ببرنامج الماجستير في العلوم السياسية أبعدني عن النشاط في أُطر الاتحاد الإسلامي، وفتح لي آفاق جديدة للعمل ضمن الدائرة الأكاديمية. تعرفت على أستاذ العلاقات الخارجية في إحدى الكليات الواقعة غرب ديترويت؛ والتي توفر الدراسة الجامعية لطلاب الدخل المحدود، اسمه عبد المنعم شاكر. كنت أزوره في الكلية بين الحين والآخر برفقة الصديق محمد أيوب، ونمضي وقتاً في نقاشات متنوعة، غالباً حول الأوضاع الصعبة في المجتمعات العربية والإسلامية، وسبل التغلب عليها! كان عبد المنعم في عمر متقدم، خرج إلى التقاعد بعد تعرفي عليه بسنوات قليلة. رأيته للمرة

الأخـيرة خـلال إحـدى زيـاراتي الخاطفـة لأمريـكا في عـام (1994)، بعـد التحاقـي بالجامعـة العالميـة في ماليزيـا، وكان يعيـش وحيـداً في بيتـه، بسـبب عزوفـه عـن الـزواج. أوصى في وصيـة أودعهـا الاتحـاد الإسـلامي بتحويـل مدخراتـه وقيمـة المنـزل الصغـير الـذي كان يملكـه في ديترويـت إلى منحـة دراسـية محـدودة لطـلاب الجامعـة.

أهـم النشـاطات الأكاديميـة التـي قمـت بهـا ارتبطـت برابطـة علـماء الاجتماعيـات؛ التـي حـضرت جميـع مؤتمراتهـا السـنوية مـا بـين عامـي (1987) و (1991). كنـت أعـرض في مؤتمـر الرابطـة السـنوية أبحاثـي العمليـة في دائـرة الفكـر السـياسي، وأسـعى مـن خلالهـا إلى ربـط المحـددات المعياريـة لذلـك الفكـر بالقيـم الإسـلامية. حـازت أول ورقـة علميـة شـاركت فيهـا، في مؤتمـر رابطـة علـماء الاجتـماع المسـلمين السـنوي عـام (1988)، اهتمامـاً واسـعاً مـن الحضـور. وأبـدى الدكتـور سـيد سـعيد، الأمـين العـام للرابطـة، ورئيـس تحريـر المجلـة الأمريكيـة لعلـماء الاجتماعيـات الإسـلامية، اهتمامـاً بالغـاً بهـا، وطلـب منـي عرضهـا عـلى التحكيـم في المجلـة التـي يرأسـها. وكانـت الورقـة بعنـوان "الحـرب والسـلم في الإسـلام"، واحتـوت عـلى قـراءة نقديـة لنظريـة داري الإسـلام والحـرب التاريخيـة، وقدمـت مسـاهمة لتطويـر نظريـة معـاصرة لقواعـد الحـرب ومعـاني السـلم. وقـف سـيد سـعيد في الفـترة المخصصـة للأسـئلة، وتحـدث إلى الحضـور منوِّهـاً بأهميـة الموضـوع، ومشـيراً إلى جهـد مشـابه قـام بـه عبـد الحميـد أبـو سـليمان، وكان آنـذاك رئيـس المعهـد العالمـي للفكـر الإسـلامي، اختـير رئيسـاً بعـد وفـاة إسـماعيل الفاروقـي، الرئيـس الأول للمعهـد. ثـم اتصـل بي بعـد أيـام ليقـول أنـه مضطـر لوضـع اسـم عبـد الحميـد؛ لأنـه اطّلـع عـلى البحـث، وأصرَّ عـلى أننـي قـرأت كتابـه دون الإحالـة إليـه. في حقيقـة الأمـر لم أكـن عـلى علـم آنـذاك بالكتـاب، واعترضـت عـلى إضافـة كتـاب لم أرجـع إليـه. ولكـن إدارة تحريـر المجلـة الأمريكيـة لعلـوم الاجتماعيـات الإسـلامية أضافـت الكتـاب بوصفـه أحـد مراجـع العمـل، عـلى أي حـال، لم تكـن تلـك المـرة الأولى التـي ولـدت بعـض الاحتـكاك مـع سـيد سـعيد، بـل نجـم الاحتـكاك الأشـد

عن رفضه نشر ورقة ناقدة للحركات الإسلامية في المجلة دون عرضها على محكّمين. وبقيت حالة التوتر بيننا بعض الوقت، ولكن الأيام كانت كفيلة بتجاوزها، خاصة وأن الصداقة التي جمعتنا زادت قوة، وكان من أكثر المهتمين بأعمالي الفكرة والداعمين لكتاباتي داخل المعهد. تتالت النشاطات العلمية بعد إنهائي مرحلة الماجستير وبدء مرحلة الدكتوراه، وكانت زوجتي أم أولادي التي شاركتني رحلة الحياة مع بدء التحضير للدكتوراه تصحبني في العديد من المؤتمرات العلمية التي أحضرها.

نشرت العديد من أوراق البحث في المجلة الأمريكية لعلوم الاجتماعيات؛ التي كان يحررها سيد سعيد؛ الذي أصبح لاحقاً من أقرب الأصدقاء إلي. تعرفت في الرابطة على عبد الحميد أبو سليمان، وكان رئيسها حتى انتقاله إلى ماليزيا عام (1988). وتعرفت كذلك بصورة أفضل على جمال البرزنجي الذي كان يحرص على حضور جميع مؤتمراتها. لم يكن جمال باحثاً متعمقاً في الدراسات الفكرية والشرعية والاجتماعية، ولكنه مثقف مهتم بالفكر الإسلامي، وكان يملك حسّاً قويّاً بأهمية تطوير هذه العلوم الاجتماعية على مستقبل المجتمعات الإسلامية، كما كان يُبدي حرصاً عجيباً على إعطائها الأولوية على كل نشاطاته الإدارية والاجتماعية والسياسية. كان يجد في لقاءات الرابطة متعة خاصة، ولعله شعر بالوحشة قليلاً بعدما أجريت تعديلات عميقة على بنية الرابطة، عندما توليت مسؤولياتها لاحقاً، وفتحت أبوابها لكل الباحثين المهتمين بالنظر إلى الدراسات الاجتماعية، عبر قيم الإسلام ومفاهيمه التصورية؟

تعرفت على العديد من المتخصصين في دراسة العلاقة بين الإسلام ودوائر المجتمع الحيوية، سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، منهم ممتاز أحمد الذي تميز بتحليله العميق ونظرته الثاقبة في دراسة التطورات السياسية في المجتمعات الغربية الحديثة، وفي سعيه لربطها بتجليات الإسلام في الحقل السياسي التاريخي والمعاصر. كما تعرفت على أنيس أحمد؛ الذي جمعتني به لحظات متوترة بعد انتقالي إلى ماليزيا للعمل في الجامعة الإسلامية

العالمية. كان ممتاز وأنيس مختلفين تماماً في نظرتهما إلى الأمور، وفي تحليلهما لمستقبل المجتمعات الإسلامية. كان أنيس محافظاً يميل إلى الدفاع عن التراث دفاع المستميت، رافضاً أي محاولة لإظهار التناقضات في الطرح التقليدي للإسلام. وكان ممتاز أحمد، الذي تتلمذ على فضل الرحمن في جامعة شيكاغو، واستقى منه نظرته النقدية، حريصاً على تفكيك العديد من المسلمات، والدعوة إلى تطوير الفكر الإسلامي التاريخي، والبحث عن بدائل معرفية مناسبة لتطور المجتمع الإنساني. في إحدى تلك المناظرات التي جمعت بينهما، خرج أنيس منزعجاً، وهو يشعر بشيء من الحرج من النقد الحادِّ الذي تعرَّض له من قِبَل ممتاز أحمد، المتميز بأسلوبه المتهكِّم دون ابتذال بخصومه الفكريين. اقترب من مجموعة الباحثين الشباب؛ وكانت تضمني وتضم فريد العطاس؛ ليطلب منا رأياً في تلك المناظرة، لعله يجد ما يبعث في نفسه شيئاً من الراحة بعد العناء الذي لقيه من ممتاز، فلم يجد لدينا الدعم الكافي لمواقفه الغارقة في المحافظة على النحو الذي أراد.

من الشخصيات الفذة التي تعرفت عليها خلال تلك المرحلة المفكر الباكستاني المتميز فضل الرحمن، وهو أحد المجددين في مقاربة الفكر الإسلامي الذي ظهر تأثيره بعيداً عن بلده، وتجلى في الغرب وفي جنوب شرق آسيا. لم يلقَ فكر فضل الرحمن التجديدي قبولاً في البيئة الباكستانية المحافظة، وواجه هجوماً شديداً من قِبَل الباحثين المحافظين، مما اضطرّه لمغادرة موقعه الذي شغله خلال السبعينيات، بوصفه مدير معهد البحوث الإسلامية في إسلام آباد، والانتقال للعمل في جامعة شيكاغو. زرته في بيته في الضواحي الغربية من مدينة شيكاغو، وأمضيت بضع ساعات معه، نتبادل الآراء في قضايا الفكر الإسلامي. وكان كتابه **(الإسلام والإسلام والحداثة)** من الكتب التي وجدت فيها بحثاً منهجيّاً نقديّاً متماسكاً. وأطلعته على نتائج أولية وصلت إليها في دراستي لأثر الشافعي في التأسيس للمقاربة النصوصية؛ التي تعطي أولوية لنصوص الحديث، والتي شكلت عضد مدرسة أهل الحديث. تفاجأت بموقفه من الشافعي الذي ربط كتاباته بالسعي لتكريس هيمنة العنصر العربي على المجتمعات الإسلامية. اتفقت

مع فضل الرحمن في تحيُّز الشافعي للغة العربية، وإعطائها أولوية من خلال رفضه ترجمة القرآن للغات الأخرى. ولكنني خالفته في قراءته المعاصرة لطبيعة جهود الشافعي، وتحويل موقفه اللغوي إلى موقف سياسي.

المفاجأة الجميلة التي حصلت معي خلال لقاءات الرابطة كانت في الاجتماع مع مازن هاشم، صديق قديم تعود صداقتنا إلى مقاعد الدراسة في المرحلة الإعدادية في مدرسة جودت الهاشمي في دمشق. ابتعدنا لسنوات عديدة، ثم التقينا مرة أخرى في رابطة علماء الاجتماعيات. كان يدرس آنذاك العلوم الاجتماعية في إحدى الجامعات القريبة من شيكاغو، قبل انتقاله إلى لوس أنجلوس للعمل هناك ومتابعة دراسته في جامعة جنوب كاليفورنيا. استمرت لقاءاتنا في مؤتمرات رابطة علماء الاجتماعيات في توثيق الرابطة الفكرية بيننا، ووفرت لنا الفرصة لإنشاء شبكات علاقات علمية، وتقديم أوراق بحثية كنا نعمل عليها خلال العام الدراسي.

تنامي الأسرة وارتقاء المعرفة

مع حلول منتصف عام (1990) جاءت ابنتي الأولى لبنى إلى الوجود، وانضمت إلى أسرتنا في صيف ذاك العام، في مشفى ساوثفيلد القريب من جامعتي. كان شعورٌ جميل وغريب أن أستقبلها وأشهد ولادتها. خرجت إلى الدنيا بعد ساعات طويلة من آلام المخاض، وهي صامتة دون بكاء. تأملتها وهي تلتقط أنفاسها الأولى في مشهد معجز لبدء حياة إنسان جديد، دخل العالم دون وعي بمكانه وزمانه والسياق الاجتماعي الذي يحيط به. بعد ثوانٍ قليلة بدت علامات الرغبة بالبكاء من خلال تغير شكل الفم الصغير وتعابير الوجه، ولكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة ولم تبكِ! كان منظرها طريفاً؛ لأنها بدت وكأنها تقلب مسألة البكاء في رأسها، هل أبكي أم أبقى صامتة؟ اختيارها الصمت، أو هكذا بدا المشهد، كان أمراً غريباً يخالف الحالة الاعتيادية. ولكن بعد السؤال والاستفسار تبين أن صمتها كان بسبب حقنة أعطتها الطبيبة لزوجتي لتخفيف آلام المخاض، فخففت أيضا آلام ولادتها وأضعفت انفعالاتها. كانت تجربة غريبة لزوجَين ليس

لديهما أي خبرة بالأولاد، وبعيدَين عن الأهل. فقد ولدت طفلتنا الأولى قبل وصول حماتي ببضعة أيام. وتحولت ساعات النوم من وحدات تتراوح بين الخمسة والسبعة إلى وحدات صغيرة لا تزيد عن الساعتين، يتخللهما رضعات متقطعة. وبعد سنة ونصف السنة من ولادة لبنى جاءت رهف إلى الوجود، وزادت أسرتنا إلى أربعة. ولدت لبنى في فترة الدراسة قبل البدء بالتحضير لامتحان الدكتوراه الشامل. وولدت رهف بعد إنجاز الامتحان الشامل وقبل البدء بكتابة أطروحة الدكتوراه. امتحان الدكتوراه الشامل جرى في نهاية عام (1991)، وشكل أصعب لحظات دراستي العليا، بل دراستي على الإطلاق. كان تخصصي الرئيسي في النظرية السياسية، وتخصصيَّ الفرعيين في الإدارة العامة والسياسة المقارنة. وكان علي أن أجيب عن جملة من الأسئلة خلال الامتحان الذي استمر لأربعة أيام. كنت أحضر إلى القسم الساعة الثامنة صباحاً، وأغادر في الساعة الخامسة بعد الظهر، وأعكف على الإجابة عن أسئلة مختلفة، تأتي في أي موضوع تختاره اللجنة الممتحنة، وبتفصيلات دقيقة أحياناً. كانت أياماً عصيبة فعلاً، ولم يكن ممكناً التحضير للامتحان بالمعنى الدقيق للتحضير. التحضير الحقيقي حصل خلال السنوات السابقة على الامتحان، في موضوعات العلوم السياسية المختلفة. بهذا المعنى كنت في حالة جيدة نسبياً؛ نظراً لنهمي في القراءة خلال السنوات الخمس التي أمضيتها في الدراسات العليا. كنت أقتصر في فصولي الدراسية على مادتين، وكنت أسعى إلى جلب كل الكتب المتعلقة بتلك المواد، وأسعى لتطوير ورقة بحث جاهزة للنشر في دوريات علمية. كانت الحجرة المتوسطة الحجم التي أجلس فيها للتحضير مليئة بالكتب على الطاولات وأرض الغرفة، بحيث كان من الصعب السير ضمن الغرفة خلال الشهر الأخير من أي فصل دراسي. انتهى الامتحان الشامل في الأسبوع الأول، وتبعه أسبوع ثان من الاكتئاب الشديد. لا أدري لماذا انتابني الاكتئاب، لعله نتيجة للإجهاد الشديد الذي تعرضت له. شعرت في الأسبوع الثاني من الامتحان بفراغ شديد، وإحساس عميق بالعدمية، وغياب المعنى لوجودي على سطح هذا الكوكب. ثم ما لبثت أن عدت بعد أيام لطبيعتي السابقة

الممتلئة حماساً للعمل والإنجاز بعد أخذي قسطاً من الراحة. كان الإرهاق يلازمني خلال التحضير للامتحانات النهائية في جميع الفصول، ويتجلى بعد انتهاء الامتحانات وتقديم الأوراق البحثية من خلال إصابتي بإعياء شديد يطرحني في الفراش بضعة أيام.

لم يكن هناك علامة للامتحان الشمولي، بل كان المصحح يقيم الامتحان بمنح درجة نجاح أو رسوب. اللجنة الممتحنة الثلاثية التي شكلها القسم لتقييم إجاباتي انقسمت إلى اثنين إيجابيين وواحد سلبي. وعلمت فيما بعد أن القسم كلف ممتحن إضافي بمراجعة الإجابات، فاجتزت الامتحان الشمولي، بعد مروري بمرحلة خطر كانت من الممكن أن تغير مسيرتي، ولكن الله سلَّم. علمت لاحقاً أن الأستاذ الذي أعطاني علامة الرسوب هو ريتشارد إلينغ؛ والذي تغيرت معاملته لي بعد صدام حصل بيني وبين أعضاء في الغرفة التجارية في ديترويب؛ بسبب موقفي من قرار حرب الخليج الأولى. ريتشارد إلينغ كان مشرف الدراسات العليا الذي تولى متابعة تسجيلي في البرنامج، وأشرف علي في مادة في الإدارة العامة. كانت علاقتي الشخصية به جيدة، وكنت أشكُّ بتحيُّزه إلى إسرائيل بسبب خلفيته الدينية ونتيجة بعد الملاحظات السابقة. ولكني لم أكن أعتقد أن الخلاف حول المسألة الفلسطينية يمكن أن يأخذ بُعداً شخصيّاً بالشكل الذي تجلى. المشكلة التي دفعته لاتخاذ موقفه هذا هو محاضرة دُعيت إليها للحديث عن تطورات المواجهة بين نظام صدام والقيادة الأمريكية. وأذكر أني أَثَرتُ في محاضرتي عملية التضليل التي قامت بها إدارة بوش الأب، أو على الأقل وزارة الخارجية فيها، عندما لم تعترض السفيرة الأمريكية في لقاء مع صدام على الحشد العسكري الذي بدأ به، وأخبرته أن الولايات المتحدة ليس لها موقف من التدخل العراقي في الكويت، وأن هذا شأن إقليمي صرف. اتهامي لإدارة بوش بأنها سعت لتوريط صدام في الكويت أثار حفيظة أنصاره وارتفعت الأصوات، وتحول اللقاء إلى ساحة لتبادل العبارات الغاضبة. في اليوم التالي طلب مني رئيس القسم تشارلز إلدر توضيح ما جرى، واكتفى مني بالشرح الذي قدمت.

لم يكـن موقفـي الناقـد لسـلوك إدارة بـوش نابـع مـن نظـرة إيجابيـة لنظـام البعـث العراقـي الـذي يقـوده صـدام؛ فقـد كنـت عـلى درايـة بمسـتوى بطـش نظامـه بالعراقيـين، وكنـت غـير راض عـن زجِّ بـلاده والمنطقـة في حـرب قاتلـة بعـد نجـاح الثـورة الإيرانيـة. وكنـت كذلـك عـلى اطِّـلاع عـلى طبيعـة نظامـه الاسـتبدادي وبطشـه بـكل خصومـة السياسـيين، وتصفيتـه بعـض المقرَّبـين منـه كلـما شـعر بازديـاد شـعبيتهم ونفوذهـم، حتـى قبـل ظهـور أيـة بـوادر لمعارضتـه أو منافسـته عـلى السـلطة. ولم أكـن راضيـاً كذلـك عـن غـزو صـدام للكويـت، ورأيـت في فعلـه توظيفـاً دوليّـاً لغـرور الحـكام المتسـلِّطين لإضعـاف دول المنطقـة، وإدخالها في حـروب لا تنتهـي. كنـت ألاحـظ، مـن خـلال التدخـل الخارجـي في شـؤون المنطقـة، أن الـدول الغربيـة كانـت تتعاطـى باسـتخفاف مـع قيـادات وشـعوب المنطقـة، فتوظفهـا لخدمـة مصالحهـا الاسـتراتيجية، وتعمـل عـلى ضرب الواحـدة بالأخـرى كلـما ظهـرت بـادرة بالتحـرك وفـق قـرار محـلي بعيـداً عـن الإمـلاءات الخارجيـة. بـل كان انتقـادي لنظـام صـدام واضحـاً. أذكـر أننـي في إحـدى المحـاضرات في مركـز الجامعـة الإسـلامي انتقـدت نظـام صـدام، وحملتـه مسـؤولية التداعيـات الكارثيـة التـي أصابـت العـراق نتيجـة مغامراتـه غـير المحسـوبة، وسـعيه لبنـاء مجـد شـخصي عـلى حسـاب المصالـح الوطنيـة. أثـارت انتقـاداتي هـذه بعـض الأصدقـاء مـن المهاجريـن العراقيـين في ديترويـت؛ الذيـن اعتـبروا نقـدي تحامـلاً عـلى العـراق، بـل أثـر هـذا النقـد في علاقتـي الشـخصية مـع بعضهـم.

مـع انتهـاء الامتحـان الشـامل شرعـت بكتابـة أطروحـة الدكتـوراه، وكنـت قـد أنجـزت قـراءاتي في موضـوع الأطروحـة، ودوَّنـت معظـم النصـوص والملاحظـات المرتبطـة بالبحـث، وكانـت بعنـوان "تحـدي الحداثـة والبحـث عـن الأصالـة في العـالم العـربي". اسـتغرقت الكتابـة بحـدود السـتة أشـهر مـن العمـل المتواصـل، وسـلمت الأطروحـة في شـهر تشريـن الأول مـن عـام (1991)، ثـم دافعـت عنهـا في أول شـهر مـن عـام (1992)، وأنهيـت متطلبـات الحصـول عـلى شـهادة الدكتـوراه، وشرعـت بإرسـال طلبـات العمـل إلى الجامعـات التـي أعلنـت شـواغر لهـا في العلـوم السياسـية. وفي خضـم البحـث والمراسـلات والمتابعـات،

اتصل بي سيد سعيد، وأعلمني أنه رشحني لقسم العلوم السياسية في الجامعة الإسلامية العالمية التي يديرها عبد الحميد أبو سليمان. ودعاني إلى النظر بجدية إلى مسألة انتقالي إلى هناك، وإلى الفرص العديدة المتاحة لتقديم رؤيتي السياسية النقدية والإصلاحية، وتطوير كتاباتي التي بدأتها عبر المجلة الأمريكية لعلوم الاجتماعيات الإسلامية. ترددت بدءاً في قبول العرض المتواضع الذي أرسل إلي، كما ترددت للنقلة البعيدة التي يتطلبها عملي في ماليزيا. وبدأت البحث في طبيعة المجتمع الماليزي، وأثارني تنوع هذا المجتمع والتركيبة العرقية، والتجربة السياسية التي تحاول الحفاظ على هذا التنوع، وتطوير البنى السياسية المناسبة لذلك. وبعد إلحاح من سيد، وتواصل مع عبد الحميد مدير الجامعة الذي أبدى ترحيبه بي، وشجعني على الالتحاق، وطمأنني إلى تدني الكلفة المعيشية في ماليزيا، وكفاية الراتب المعروض، عزمت على مغادرة ديترويت إلى مكان جديد وبدء تجربة جديدة.

الأشهر الأخيرة التي قضيتها في ديترويت بعد انتهاء كتابتي للأطروحة، وقبل المغادرة إلى ماليزيا، منحتني فرصة لأخذ قسط من الراحة بعد سنوات طويلة من العمل المتواصل، كما أتاحت لي وقتاً أطول لزيارة مراكز الجاليات الإسلامية في ديترويت الكبرى، ومنها مركز الجالية السورية الواقع في منطقة فارمنغتن هيل، إلى الشمال الغربي من ديترويت. زادت زياراتي للمركز السوري بعد زواجي مما أتاح الفرصة لزوجتي للاجتماع بصديقاتها في المركز. علاقتي بالجالية بدأت في عام (1985)، بعد انتقالي إلى هامترامك. وكنت أذهب إلى مركز الجالية الذي كان يعرف بالمركز الثقافي، ويتألف من مبنى متوسط الحجم، كان في الأصل كنيسة، وأرض كبيرة تحيط به في ضاحية بلومفيلد. كنت أذهب مع مجموعة من الأصدقاء السوريين والفلسطينيين المقيمين في هامترامك، أذكر منهم عبد المهيمن السباعي، وأيمن الخطيب. وكان سامر سكر، وهو طبيب من أسرة دمشقية، يلقي محاضرة أسبوعية لطيفة يجمع فيها بين القصص والشعر والنقد السلوكي والأخلاقي. وكان الدكتور سعيد الحافظ يترأس المركز، وهو شخصية لطيفة محببة ومتواضعة.

وكنا نلعب كرة الطائرة مع ثلة من الأطباء والمهندسين الذين يترددون على المركز، منهم صديق درسنا معنا في ثانوية ابن خلدون اسمه سمير الحديدي. علاقتي بالجالية السورية لم تكن وطيدة؛ كنت أعترض على تقوقع الجالية حول نفسها وضعف مشاركتها في النشاطات المشتركة التي كانت تهم بقية الجاليات. أذكر أنني حاولت جمع تبرعات لمسجد الجامعة، وطلبت الاجتماع بهم، فدعوني للتحدث إليهم حول الموضوع خلال لقائهم الأسبوعي، وبعد تعريف الجالية بمشروع المسجد وأهميته واحتياجاته، لم أجد دعماً من أي من قياداتهم، بل استمعت إلى انتقادات حول ارتفاع كلفة المشروع، خاصة كلفة شراء الأرض، ورجعت في نهاية الزيارة بخفي حنين.

انتهاء العمل على أطروحتي مكنني أيضاً من زيادة نشاطاتي الاجتماعية والتنظيمية، والدخول في حوارات حول التحديات التي تواجه الجاليات الإسلامية في الغرب والمجتمعات الإسلامية في الشرق. من أهم تلك الحوارات نقاش جرى حول النص والعقل مع متحدث قدم محاضرة في مركز الجامعة الإسلامي الذي كنت أترأس مجلس أمنائه. كان الضيف طالب دراسات عليا، وبدا تأثره الواضح بأطروحات السلفية النجدية التي جعلت العقل والتفكير الحر خصماً لها، وولدت تناقضاً كاذباً بين العقل ونصوص الشرع. كانت خلاصة محاضرته الرفض الكامل للعقلانية في تجلياتها التاريخية ضمن المدرسة الأشعرية، تجلياتها المعاصرة ضمن المدرسة الإصلاحية. ودعا إلى الاكتفاء بالكتاب والسنة مصدراً لمعرفة الإسلام والشريعة. انتقدت موقفه المعادي للعقل والعقلانية، وبيَّنت أن النصوص لا يمكن فهمها دون اعتماد منهجية هي في أساسها نتيجة تفكير عقلي، وأن منهجيات الاجتهاد والتفسير قامت أصلاً على أُسس عقلية اعتُمدت لتحليل النص واستنطاق معانيه.كان ذاك السجال بداية تفكيري في الحاجة إلى بحث إشكالية العقل في تعامله مع النص، والتي قادتي إلى إعداد كتابي (إعمال العقل)، بعد ثماني سنوات من ذلك التاريخ، وبعد تعاملي باضطراد أكبر مع السلفية الحصرية في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا.

أبي يزورني مودعاً قبيل الرحيل

بعد سنوات من لقائي معه في تركيا قرر والدي القدوم لزيارتي في ديترويت؛ لحضور حفل تخرجي وحصولي على شهادة الدكتوراه. وكان الخبر سارّاً لي؛ فقد كان متردِّداً في بداية الأمر؛ نظراً لكلفة تذكرة الطائرة الكبيرة، ولكن الوالدة شجعته. وبالفعل وصل إلى ديترويت قبل انتهاء تقديم النسخة الأخيرة المنقحة من أطروحة الدكتوراه بأسبوعين، وقبل حفل التخرج بأربع أسابيع. حمل والدي معه هدية كانت مفاجأة لي، وعكست خصاله المتميزة. أحضر أبي كتاب (لسان العرب) لابن منظور، بعد أن جلَّده في أربعة مجلدات وحفر اسمي على كعبها. وكنت قد بدأت بشراء لسان العرب من بائع مجلات قريب من بيتنا على شكل ملازم تأتي تباعاً، بمعدل ملزمتين أو ثلاث أسبوعياً. كانت المَلازم التي جمعتها تغطي نصف المعجم الموسوعي عندما غادرت دمشق. فتابع الوالد، رحمه الله، شراء الملازم بعد سفري دون علمي وأحضرها معه مفاجأة جميلة، استلمت الهدية المفاجئة وقدرت فعله كل التقدير.

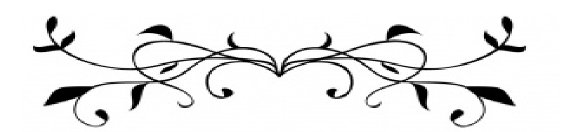
أمضينا أياماً جميلة سوياً، توّجناها بجولة سياحية بالسيارة اصطحبت فيها الوالد - رحمه الله - برفقة رزان والأولاد، زرنا خلالها العديد من الولايات الشرقية والمناطق السياحية المهمة. منحنا التجوال بالسيارة والقيادة لساعات طويلة فرصة للحديث، وتطرقنا في حديثنا إلى لحظات جمعتنا في دمشق أعادت ذكريات الماضي الجميل. كان والدي قليل الكلام، ولكنني كنت أستدرجه إلى الحديث، وأطرح عليه بين الحين الآخر أسئلة، بعضها شخصية ومحرجة، فكان يتهرب من الإجابة عنها مما يتولد عن ذلك مواقف طريفة نشترك معاً في الضحك. زرنا خلال الرحلة أماكن جميلة تضمنت شلالات نياغارا في ولاية نيويورك، والجبال الدخانية العظيمة قرب مدينة ناشفيل المشهورة بالغناء الشعبي الريفي، الواقعة في ولاية تاناسي. وأقمنا ليلة في منتجع جميل على سفح الوادي اسمه غيتلن بورج. ثم انتقلنا منها إلى مدينة أورلاندو في ولاية فلوريدا، وأمضينا يومين

زرنـا خلالهـا مدينـة ديزنيلانـد المشـهورة. ثـم زرنـا مركـز كنـدي للفضـاء في منطقـة كيـب كانيفـرال؛ حيـث تنطلـق الرحـلات الفضائيـة مـن عـلى منصـة إطـلاق يمكـن للزائـر مشـاهدتها. وتابعنـا مـن هنـاك السـفر إلى واشـنطن؛ حيـث وصلناهـا مسـاء بعـد رحلـة اسـتغرقت أربـع عـشرة سـاعة. أمضينـا ليلـة عنـد أبنـاء خالتـي رجـاء؛ حسـام وسـوزان، وأمضينـا اليـوم في مدينـة واشـنطن. كانـت زيـارة واشـنطن قصـيرة، ورغـب الوالـد قضـاء يـوم آخـر، ولكننـا كنـا عـلى موعـد مـع حفـل التخـرج، ولم يكـن لدينـا فسـحة مـن الوقـت للمبيـت، فاضطررنـا للسـفر في اليـوم الثالـث مـن وصولنـا. وقَبِـل الوالـد - رحمـه الله - عـذري في الاسـتعجال بالرحيـل، لنتمكـن مـن المشـاركة بحفـل تخرجـي الـذي كان السـبب المبـاشر لحضـوره. ذهبنـا جميعـاً إلى قاعـة الاحتفـال في اليـوم الثـاني لوصولنـا إلى ديترويـت. وجلـس والـدي وزوجتـي في مـدرج الحضـور، ولبسـت الـزي الرسـمي الـذي يرتديـه الخريجـون، وتحركـت مـع زملائـي في نسـق متناغـم عـلى إيقـاع الموسـيقى الرتيـب، وتسـلمت شـهادة الدكتـوراه بيـدي، وأنـا في غايـة الـسرور لوجـود والـدي في قاعـة الاحتفـال يرقـب تخـرج ابنـه وحصولـه عـلى أعـلى شـهادة دراسـية، بعـد أن ظـن قبـل عقـد ونيـف مـن الزمـن أنـه لـن يحصـل عـلى الشـهادة الثانويـة. كانـت تلـك المـرة الأولى التـي أحـضر فيهـا حفـل تخـرج، والسـبب الرئيـسي كان حضـور والـدي. حضـور الحفـلات والاحتفالات والمناسـبات الرسـمية لم يكـن ضمـن الأمـور التـي أهتـم بهـا أو أسـعى إليهـا. كنـت أتجنـب الرسـميات مـا أمكننـي ولا أشـترك بهـا إلى مضطـراً. وكان حضـور أبي عامـلاً محفـزاً، وسـبباً مـن أسـباب سـعادتي.

كان تخرجـي مـن الجامعـة بعـد سـنوات مـن الجـدِّ والاجتهـاد، وبعـد انتهـال طويـل مـن العلـم والمعرفـة، مـؤشراً عـلى طـيِّ مرحلـة أخـرى مـن حيـاتي، وبـدء مرحلـة جديـدة. سـافر والـدي وزوجتـي والأولاد إلى دمشـق، وبـدأت بإنهـاء ارتباطـاتي في ديترويـت، وترتيبـات أمـور سـفري إلى ماليزيـا في الطـرف الآخـر مـن العـالم، إلى مـكان جديـد وغريـب وثقافـة مغايـرة، في قفـزة نقلتنـي مـن أقـصى الغـرب إلى أقـصى الـشرق، مـروراً فـوق البـلاد المتوسـطة التـي غادرتهـا قبـل عقـد ونيـف تـاركاً فيهـا أهـلي وأحبـابي. وكنـت بالتأكيـد مسـتعداً نفسـياً

وفكرياً لبدء معترك الحياة من جديد، والعمل على تحويل المعرفة المكتسبة إلى نتاج معرفي. وكان التحاقي بقسم العلوم السياسية في الجامعة الإسلامية العالمية فرصة للقيام بذلك. بطبيعة الحال لم أكن على دراية بأهمية تلك النقلة وأثرها في تحديد أولوياتي المعرفية والعملية. ومع انتصاف شهر حزيران من عام (1992)، ركبت الطائرة من مطار ديترويت، باتجاه العاصمة الماليزية، كوالالمبور، وفي جيبي مبلغاً بسيطاً من المال، وفي نفسي الكثير من الترقب والأمل، يخالطه شيء من الحزن والتوجس، فهذه خطوة جديدة أخطوها نحو المستقبل المجهول، وأترك خلفي مكاناً أَلِفته لسنوات طويلة، وأصدقاء أنست بهم ردحاً من الزمن.

على متن الطائرة التي أقلتني بعيداً عن ديترويت تذكرت لحظات دخولي المدينة عبر أحيائها الفقيرة، وتذكرت الخاطرة التي راودتني وأنا أشهد مساكنها المتهالكة، ولسان حالي يقول: "رباه لا تجعلها مستقرّي ومقامي!». قلت في نفسي أي هذيان ذاك الذي جعلني أكره المكان الذي وجدت بين أحيائه المتهالكة ذاتي التي لم أعثر عليها في أزقة الشام وشعاب مكة؟ ما أسهل أن نقع في الأخطاء والأوهام عندما نحكم على الأمور من مظاهرها، والانطباعات الأولية التي تولدها لدينا؟ وكم هي محدودة قدرتنا على معرفة مواضع الخير والشر من الانطباع الأول؟ وكم نحن بحاجة إلى الإيمان بالقدرات الكامنة فينا والأقدار التي تأتينا، وتقييم اللحظة بالفرص التي توفرها لا بأحاسيس الراحة والسرور التي تولدها؟ أرجعت كرسي الطائرة إلى الخلف، لأبعد الخواطر والأفكار التي تلاحقت في ذهني، ولآخذ قسطاً من الراحة قبل الدخول في منعطف جديد، وقلبي ممتلئ بالعرفان بفضل الرحمن. فالمستقبل القادم بين يديه، ونفسي المندفعة نحوه متوكلة عليه، وهي تردد على كل منعطف وفي كل فسحة وضيق: «حسبي الله ونعم الوكيل».



5

تكامل الرؤية عند خط الاستواء

(1992 – 1999)

وصلت إلى كوالامبور في منتصف شهر حزيران من عام (1992)، وحطَّت بي الطائرة في المطار القديم القريب من بتالينغ جايا، على بُعد عشرة كيلو مترات من كوالالمبور. واستمر هذا المطار في خدمة الرحلات الجوية الدولية حتى عام (1998)، قبل مغادرتي ماليزيا بعام، عندما تحولت الرحلات الدولية إلى مطار كوالامبور الجديد الذي يكبره حجماً بعدة أضعاف، والواقع في منطقة تبعد مسافة (45) كيلو متراً من العاصمة. استقبلني موظف إداري، ونقلني إلى دار جديدة في منطقة حديثة قريبة من مبنى الجامعة في حي "بتالينغ جايا". كانت الدار الواقعة في منطقة تسمى "تمان تون دكتور إسماعيل"، مؤثثة بأثاث بسيط ومناسب، تتألف من غرفتين في الطابق العلوي، وغرفة جلوس وطعام ومطبخ في الطابق الأرضي. حملت المنطقة التي أقمت بها أسابيع قليلة اسم إسماعيل بن عبد الرحمن تكريماً لذكراه. كان إسماعيل وزير الداخلية الماليزي، خلال الصدامات التي جرت بين المهاجرين الصينيين، والملايو سكان البلاد الأصليين؛ وهما قوميتان كبيرتان في ماليزيا، خلال صيف عام (1969). ويعزو الماليزيون لإسماعيل الفضل في الحيلولة دون تحول الصدامات المحدودة إلى حرب أهلية. وكان إسماعيل مسلماً يجمع في شخصه الثقافتين الصينية والملايوية؛ إذ ولد لأب صيني أشهر إسلامه وشغل منصب حاكم المصرف المركزي، ولأم تنتمي إلى الأرستقراطية الملايوية. كلمة "تون" في الاسم الطويل للحي تشير إلى

التقدير العالي الذي بلغه إسماعيل، وحصوله على أعلى لقب أرستقراطي يمنح لشخصيات قليلة متميزة من قبل الملك. وكلمة "تمان" تعني حديقة باللغة الماليزية، وكان يتوسط الحي حديقة كبيرة تحتوي على ألعاب للأطفال. الطبيعة التراتبية الهرمية للمجتمع المالیزي لم تكن بقايا من الماضي، بل كانت حقيقة ماثلة للعيان تتجلى في كل لحظة، وتظهر مع اللقب الذي يسبق كل اسم جديد يتم التعرف عليه. والمالیزي مولع بوضع جميع الألقاب التي حصل عليها قبل الاسم، وقد تصل إلى خمسة أو ستة ألقاب مثل "تون داتو سري أستاذ دكتور الشريف الحجي فلان الفلاني". ولقب "الشريف" يحتفظ به المالیزيون من أصول عربية، تأكيداً لنسبهم الذي هو محل اهتمام المالیزيين الذين كانوا يكنون للعرب احتراماً كبيراً.

أمضيت الليلة الأولى في كوالامبور في البيت الجديد، وكنت أسمع صوتاً غريباً يقطع صمت الليل وهدوءه على فترات متقطعة. كان الصوت يشبه فرقعة الفقاعة الهوائية البلاستيكية عند انفجارها، وتبين لي لاحقاً أنه صوت زواحف الوزغ (أبو بريص) المنتشرة بكثافة في ماليزيا، لاعتدال الحرارة على مدار السنة. والوزغ زاحف أليف ينتشر بكثرة في ماليزيا، ويتقبله الشعب المالیزي، ويستبشرون به لقدرته الفريدة على التهام البعوض الذي يحمل مرض الملاريا في المناطق الاستوائية. المفارقة التي واجهتني بعد قدوم زوجتي أن الزاحف نفسه مكروه في الشام والمناطق العربية عموماً، يكافحه الناس ويتوجسون منه خيفة، ويتناقلون أحاديث تحث على قتله والتخلص منه، وتَعِد من يقتله ثواباً عظيماً!

الجامعة الإسلامية العالمية

ذهبت في اليوم التالي إلى الحرم الجامعي الصغير نسبيّاً في منطقة "بتالينغ جايا" القريبة من مكان السكن. وكان الحرم القديم للجامعة الإسلامية العالمية في سابق عهده مبنى معهد دراسات إسلامية قبل أن تخصصه وزارة التعليم لاستخدام الجامعة الإسلامية العالمية، بعد تأسيسها في منتصف الثمانينيات. تسلمت مكتبي في الجامعة، وكانت غرفة مشتركة حسب نظام

الكلية الذي يشترط أن يشترك الأستاذ المساعد مع زميل له من المرتبة نفسها. كان الجو في فترة وصولي حاراً وشديد الرطوبة، وكان المبنى قديماً يتبع الطراز المعماري للأبنية الماليزية القديمة، تتوزع فيها غرف الأساتذة حول باحة كبيرة، وتقع مباني الجامعة على مسافات قريبة بحيث يمكن الانتقال بسرعة من مبنى إلى آخر. كانت غرف الأساتذة مزودة بمكيفات هواء تلطف من حرارة الجو، ولكن الرطوبة كانت من الشدة بحيث كان التحرك لدقائق بين المباني كافياً لتصبب العرق، وتحويل القميص الداخلي إلى قطعة قماشية مبتلة. الفترة التي وصلت فيها إلى الجامعة لم تكن أفضل فترات السنة، بل كانت أكثرها جفافاً. تنخفض الحرارة قليلاً خلال الشهور التي كانت ترافق موسم الأمطار الشديدة المسمى "مانسونغ"، بين شهري تشرين الثاني ونيسان، حيث يتلطف الجو قليلاً. لكن الاختلافات بين درجات الحرارة عبر الفصول لم تكن كبيرة، بل لم تكن محسوسة بالنسبة لي في معظم الأوقات.

رأيت حارس العمارة التي انتقلت إليها عام (1993) يلبس يوماً معطفاً شتوياً، فاستغربت مظهره فالتفت إليه قائلاً:

- لماذا تلبس معطفاً سميكاً؟

فتأملني مليّاً، ولعله كان يستشفّ من تعابيري ما وراء السؤال ثم قال:

- أنا ألبسه عادة مع حلول الشتاء.

كانت الحرارة عندئذ حوالي العشرين درجة مئوية. فنظرت إليه باستغراب وقلت متبسماً:

- عذراً.. لم أكن أعلم أننا دخلنا فصل الشتاء!

كانت الجامعة توفر المواد الدراسية للطلبة باللغتين العربية والإنكليزية.. الإنكليزية لغة العلوم الاجتماعية والإنسانية.. والعربية لغة الدراسات الشرعية. وكانت تضم عدداً كبيراً من الأساتذة غير الماليزيين الذين حضروا من بلاد عديدة.. من أقصى الشرق، من دول مثل تايلاند والصين، إلى أقصى

الغرب، من دول مثل الولايات المتحدة وكندا. بعض الأساتذة حضر من بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والبوسنا. كما كان هناك عدد كبير من الأساتذة العرب والباكستانيين. طُلب مني تدريس ثلاث مواد، تراوح عدد الطلبة فيها بين الثلاثين والأربعين. ثم ازداد العدد في مراحل لاحقة ليصل إلى الخمسين. كان عدد الطلبة الكبير يأخذ وقتاً طويلاً لتقييمهم من الأستاذ، وجعل مهمة الأستاذ في قراءة أوراق البحث وتصحيح المذاكرات والامتحانات صعبة. وكنت أعطي الطلبة العديد من المهام الدراسة لدفعهم إلى القراءة والكتابة، فلم تكن الثقافة السائدة في ماليزيا، كغيرها من الدول العربية والإسلامية، ثقافة القراءة الواسعة المتمعنة. وكان معظم الطلبة يكتفون بقراءة الكتب والمقالات المطلوبة. كان ديدني في التعاطي مع الطلبة تكليفهم بقراءات وواجبات تملأ أوقاتهم. كنت أتوقع منهم الكثير، وأدفعهم إلى استنفاد الوقت والجهد في القراءة. كنت أدفع طلابي إلى التفكير الحر، وأدعوهم إلى البحث والتعبير عن النتائج التي وصلوا إليها، والقناعات التي حصلوا عليها من خلال أبحاثهم بصدق وأمانة، وأحذرهم من تزييف قناعاتهم والنتائج التي توصلوا إليها سعياً لإرضائي. وكنت أفعل ذلك لعلمي أن العديد من الأساتذة في أقسام الدراسات الاجتماعية والإسلامية كانوا يتوقعون من الطلبة أن يتحولوا إلى نسخة عنهم في تفكيرهم وقناعاتهم المعرفية. إصراري على مستوى عالٍ من الأداء كان يغربل من المساقات التي أدرسها الطلبة، ويبعد الطلبة غير الجادين عن محاضراتي.

كنت سعيداً باللقاءات والندوات العديدة التي يقدمها أساتذة الجامعة في قاعة الطبري المخصصة للاجتماعات والندوات، وكنت أحضر معظم الندوات العلمية، وأشارك في النقاشات التي تتبعها. ولكنني لم أكن سعيداً بالوضع العام للكلية، بل كنت ممتعضاً من المركزية المفرطة في الإدارة وغياب القراءة النقدية عن أساليب التدريس. كما لم أكن مرتاحاً لطريقة عمل عميد الكلية أنيس أحمد، وأسلوبه الفوقي في التعامل مع الأساتذة. كنت أشعر أن الظروف العامة التي صاغها العميد غير مواتية للإبداع والتطوير، وأن القرارات التي تؤخذ لا تتم من خلال التشاور مع الهيئة التدريسية، فقد

كانت نظرتي للبنية الإدارية للكليات والجامعات مستقاة من خبرتي التدريسية في جامعة وين ستيت. لم يكن مقبولاً في الجامعات الأمريكية أن يتخذ العميد أو رئيس القسم قرارات رئيسية مؤثرة على أداء الهيئة التدريسية دون الرجوع إليها، ومناقشة السياسات التعليمية والقرارات الإدارية المقترحة معها؛ لتكون تلك القرارات وفق إجراءات التشاور المعتمدة. لكن لم تكن هذه التقاليد معتمدة في ماليزيا، وفي عدد من الدول الشرقية. أثار استيائي أيضاً النزعة "التسطيحية" للعميد التي تقوم على اعتماد مقياس واحد للتعامل مع الأساتذة، دون تمييز بين من يساهم في خدمات وأبحاث إضافية ومن يكتفي بالتدريس. لم يعط العميد أهمية للتفوق العلمي والأداء المتميز، ولم يوفر ظروف إبداعية أفضل تسمح لمن يسعى إلى الجدّ والعطاء بالتفوق. كنت أشعر أن الجامعة تُدار تماماً كما تدار المدارس الابتدائية والإعدادية أو الشركات التجارية، القرارات تصدر عن صاحب المسؤولية التنفيذية وينفذها العاملون في تلك المؤسسات دون نقاش.

حاولت إثارة النقاش حول الأساليب الإدارية والجو الجامعي مع زميل في القسم العلوم السياسية ربطتنا صداقة حميمة، وعملنا سوياً في كوالالمبور قرابة السنتين، هو الصديق أحمد داوود أوغلو؛ الذي أصبح رئيساً لوزراء تركيا بعد عقدين من ذلك التاريخ. كان أحمد رئيساً لقسم العلوم السياسية عند التحاقي بالجامعة، وكان القسم آنذاك صغيراً، يضم أستاذاً آخر أو أستاذين. لم يستجب أحمد لدعوتي له إلى إثارة هذا الموضوع مع العميد، والتعاون لبدء حوار حول تطوير الكلية. خلفية أحمد الثقافية ارتبطت بالتشديد على احترام التراتب الإداري احتراماً كاملاً، وعدم طرح مسائل قد تهز المؤسسة أو قسماً منها، فاعتذر بأدب عن الاستجابة لمطالبي. كنت أصرُّ على إبقاء النصاب التدريسي دون التسع ساعات دراسية (ثلاثة مساقات دراسية)، فلم يعمد أحمد إلى رفعها إلى الحد الأقصى، وكان يلجأ أحياناً إلى تدريس مادة ثالثة رغم أن النظام يحدد ساعات تدريس الأساتذة المكلفين بمسؤوليات إدارية بست ساعات (مساقين دراسيين). أجواء الجامعة لم تكن مريحة، وغياب روح التعاون والتفاهم عن إدارة الكلية ترك أثراً سلبياً لدى

العديد من الأساتذة والطلبة،كنت أستشعره في حواراتي مع الزملاء أعضاء الهيئة التدريسية. وكان من أعضاء الهيئة الذين شاركوني نقدي لطريقة العمل داخل الجامعة، أستاذ في قسم التربية يتمتع بشيء من الاستقلالية؛ لوقوعه في منطقة كومبك البعيدة عن مركز الجامعة. كان محمود رشدان يقيم في حي "تمان تون دكتور إسماعيل" الذي سكنت فيه خلال الأشهر الأولى، وكان يتوقف عندي قليلاً بين الحين والآخر، لنتبادل الحديث خلال رياضة المشي المسائي التي كان يمارسها يومياً. اقترح علي يوماً أن نثير موضوع الكلية مع مدير الجامعة، فترددت وقلت له إنني أحاول الإصلاح من داخل الكلية ولا أريد أن أحول الاستياء إلى معركة تهزُّ الكلية حديثة النشأة.

صعوبات الحياة وشح النفوس

الصعوبات التي واجهتني في السنتين الأوليين كانت عديدة ومتصاعدة، عكست ثقافة سلبية لا تشجع على التعاون داخل المؤسسة، بل على التنازع والتدافع والتحكم. كانت أولى المشكلات التي واجهتها مسألة السكن. فبعد شهر من إقامتي في سكني الجديد، قرر مسؤول المكتب الإداري أن مرتبتي الجامعية لا تخولني السكن في البيت الذي منح لي. كان الجهاز الإداري خاضعاً لوزارة التعليم، وكان يقوده ماليزيون من أبناء البلاد، وكان بعضهم يرى في الوافدين تهديداً لعاداتهم وامتيازاتهم وطرائق عملهم. والماليزي المسلم رغم أدبه ولطفه وطيبته، يمكن بسهولة أن يتحول إلى خصم إذا ما شعر بالتهديد لموقعه وامتيازاته. وكانت الثقافة الماليزية تغذي هذا الشعور؛ خاصة عند المسلمين من أصول المالايو العرقية؛ فقد اكتسب هؤلاء حسّاً قوميّاً قويّاً في مواجهة الجماعات السكانية الأخرى، وخاصة الجماعة السكانية الصينية؛ التي شكلت آنذاك قرابة نصف السكان، والتي تتمتع بمستوى تعليمي أفضل بسبب تموضع معظم أبنائها في المدن، ونتيجة لحالتها الاقتصادية المتفوقة؛ والتي ترتبط بمهاراتها التجارية وعلاقاتها المتميزة مع دول "النمور الآسيوية"، وخاصة المراكز المالية والتجارية في هونكونغ وتايوان وسنغافورة ذات الأغلبيات الصينية. كان الراتب الذي تقاضيته عند تعييني أستاذاً

مساعداً بحدود الـ (2400) رنكت، كنت أدفع منهم عند استلامي المرتب مبلغ (900) رنكت لتسديد القرض الذي حصلت عليه لشراء سيارة، وتغطية رهن الإيجار الذي يعادل أجار شهرين، و (800) مقابل أجار البيت، و (300) كلفة الماء والكهرباء المرتفعة جداً. مبلغ (400) رنكت المتبقي لم يكن يكفي لتوفير جميع الاحتياجات من طعام وملبس ووقود للسيارة ومصاريف معيشية أخرى، مما اضطرني لطلب عدد من القروض طويلة الأجل، للتعامل مع الاحتياجات الأساسية. شكَّل هذا ضغطاً نفسيّاً وأسريّاً كبيراً، مما دفع زوجتي في لحظات الإحباط إلى اقتراح بحثي عن عمل آخر لتغطية تكاليف الحياة. كان الاقتراح طريفاً لكنه مفهوماً، وبدت المفارقة واضحة، فقد تركت مهنة الهندسة المدنية التي كانت تقدم دخلاً مريحاً للعاملين فيها، وكان الكثير من أصدقائي الذين بدؤوا العمل قبل حصولي على الدكتوراه بوقت طويل قد وصلوا إلى مستوى مالي مريح، وهاأنذا بعد سنين من البحث والدراسة والحصول على أعلى المؤهلات المعرفية لا أكاد أجد ما يسدُّ احتياجات أسرتي الضرورية. فكرت في بيع السيارة، ولكنني لم أجد في ذلك بديلاً حقيقياً. كانت السيارة وسيلتي للتنقل بين البيت والعمل، وكان التخلي عنها يعني استبدال سيارات الأجرة بها للتنقل بين البيت والعمل والسوق. وكانت أيضاً وسيلتي لأخذ زوجتي وأولادي للفسحة خلال العطل الأسبوعية والرسمية، فتلك الفسح المنفذ الوحيد لترفيه الأسرة في الغربة. لذلك وجدت أن التوفير البسيط ليس مبرراً لبيع السيارة والتخلي عن المشاوير الأسرية، وطلبت من زوجتي الصبر قليلاً حتى أحصل على درجة أستاذ مشارك، والتي كانت كفيلة بمضاعفة الراتب وتخفيف العبء المالي الذي يهد كاهلَينا.

الصعوبات المالية شغلت حيزاً بسيطاً من التحديات التي فرضتها البيئة الجديدة والموقع الجديد. الاختلاف الثقافي وغياب التعاون من الجهاز الإداري، الذي يتبع اسمياً لمدير الجامعة، وفعلياً للجهاز الديواني (البيروقراطي) في وزارة التعليم. لعل مثالاً أو مثالين يوضحان طبيعة

الصعوبات الإدارية التي تعكس روح الإعاقة لا التيسير الغالبة على الجهاز الإداري في الجامعة. المثال الأول يرتبط بطلب رسمي دعاني إلى تغيير صفتي من أستاذ مساعد إلى محاضر؛ فقد أرسل لي موظف في الجهاز الإداري اسمه عبد الناصر رسالة رسمية، عممها على رئيس القسم وعميد الجامعة والمدير وعدد آخر من الأقسام، بعد وصولي بستة أشهر طلب مني فيها عدم استخدام لقب أستاذ مساعد؛ متعللاً بعدم وجود صورة من شهادة التخرج. وكعادتي كتبت له رسالة مؤدبة ولكنها واضحة في استنكاري لأسلوبه الفج، أنكرت عليه تسرعه بإرسال كتاب رسمي قبل مخاطبتي لتبيُّن مؤهلاتي، أو طلب الأوراق الرسمية التي يحتاجها.

المثال الآخر ولَّد مشكلة كبيرة كادت تعصف بالأسرة الصغيرة التي كوَّنتها خلال السنوات القليلة السابقة لانتقالي، والتي تحولت إلى مصدر قلق وتنغيص لي بدلاً من أن تكون السكن الذي يحميني من منغصات الحياة العملية؛ فقد تلقيت بعد شهرين من وصولي رسالة تعلمني بأني لا أستحق السكن الذي أقيم فيه؛ لأن أجاره الشهري يبلغ (1500) رنكت، بينما بدل السكن الذي أتلقاه لا يزيد عن (800) رنكت، وبالتالي أُعطيت الخيار بين دفع الفرق أو مغادرة المنزل. لم يكن دفع الفرق خياراً، فما يصل إلى يدي من مرتبي كان بحدود الـ (500) رنكت، وهو المبلغ المتبقي بعد تسديد قسط السيارة وأجار البيت والفواتير الشهرية. وبدأت أبحث عن بيت جديد من خلال دلال عقاري. وأخيراً عثرت على بيت يبعد ربع ساعة عن الجامعة في منطقة بعيدة قليلاً، ولكنها تتصل بالجامعة بطريق سريع. وفعلاً وقَّعت عقد الإيجار، وانتقلنا إلى البيت الجديد المكوَّن من ثلاث غرف نوم في طابق علوي، وغرفة ضيوف واسعة مشرفة على وادٍ جميل، وحديقة متوسطة الحجم ذات مناظر خلابة. وظننت أن هذا المكان الجديد سيكون مصدر سعادة لأسرتي ولكنه تحول إلى مصدر ألم وحزن وخوف. فما إن حلَّ مساء اليوم الأول على انتقالنا للبيت الجديد حتى بدأ الوزغ يخرج من أوكاره بحثاً عن صيد ثمين من الحشرات التي تقف على جدران المنزل. أثار هذا المنظر ذعر زوجتي التي لم تكن تطيق سماع كلمة وزغة، أو "أبو بريص"،

كما هو معروف في الشام، فضلاً عن مشاركته لنا غرف المنزل. وتحولتُ مدة الشهور الأربعة التي أقمنا خلالها في البيت إلى صائد محترف لهذا الكائن؛ الذي كان شريكاً لنا في البيت بكل ما للكلمة من معنى. كان هذا الزاحف يملأ المكان، ولم تكن محاولات التخلص منه تجدي نفعاً. فكلما تخلصت من أعداد منهم ظهرت أعداد أخرى. لم أستطع خلال الفترة التي أمضيناها في البيت تحديد المنبع الذي تصدر منه هذه الزواحف، لكنني أستطيع القول بثقة بأن منبعها لم ينضب رغم كل محاولاتي للتخلص منها.

مما زاد الأمور سوءاً أن الطريق السريع الذي قطعته خلال دقائق قليلة في زيارتي الأولى يوم العطلة الأسبوعية، كان يأخذ بين الساعة والساعتين خلال الأيام العادية بسبب السير المزدحم. كانت الطريقة الوحيدة لتجنب الازدحام هو مغادرة البيت باكراً قبل اشتداده، والعودة إليه مساء في وقت متأخر. الابتعاد اليومي عن البيت زاد من وحشة زوجتي، فقد اعتادت أن أحضر لتناول الغداء وأخذ قسط من الراحة طوال السنوات الماضية، وفي الفترة الأولى لانتقالنا إلى ماليزيا. قررت في نهاية الأمر أن أقطع العقد وأخسر التأمين المعادل لأجار شهرين، لإخراج زوجتي من حالة الإنهاك النفسي، الذي لم تخفَ حدته مع مرور الوقت، بل بدأت آثاره تظهر في توتر زوجتي وابنتي المستمر.

النقلة الثالثة حطت بنا في بناء قريب من الجامعة يقع في حي تجاري. كان البيت صغيراً، يتألف من غرفتَي نوم، وغرفة جلوس متوسطة الحجم. وكان البناء يقع على هضبة مرتفعة تطل على وادي سوبانغ الكبير. كان المنظر جميلاً، ولكنه حمل ثمناً ثقيلاً. إذا كان الوادي يضم مصنعاً على بُعد ثلاثة أو أربعة كيلو مترات من المنزل، وكان الدخان المتصاعد من مدخنته القصيرة يتجه نحو البيت مع تبدل جهة الرياح بين حين وآخر، هذا سبب لي حساسية اضطرتني للبدء باستخدام دواء مضاد للحساسية للتحكم بها. ولعله أيضاً أثر في ابني الصغير منير الذي ولد أثناء إقامتنا في هذا الحي المسمى القطاع (14) في منطقة بتالينغ جايا. وزاد التلوث الشديد في هواء

كوالالمبـور عـدد الزيـارات لطبيـب الأسرة، الدكتـور يحيـى العلـوي، وبلغـت معـدل الزيـارات مـرة في الأسـبوع. لم يكـن البيـت مـزوداً بمكيفـات، كنـا نعتمـد عـلى مروحـة سـقفية لتلطيـف الجـو المشـبع بالرطوبـة المتأكسـدة نتيجـة التلـوث العـالي. وكنـا في أحيـان كثـيرة نـرى السـديم المتكـون مـن امتـزاج غـازات الكربـون وبخـار المـاء مـن غرفـة الجلـوس المطلـة مباشرة عـلى الـوادي. ولم يكـن ممكنـاً إبقـاء الأبخـرة الضـارة خـارج البيـت، فقـد كنـا مضطريـن لإبقـاء النوافـذ مفتوحـة ليـلاً ونهـاراً، وهـذا مـا كان يعرضنـا إلى الدخـان دون سـابق إنـذار خـلال الليـل. كنـا كذلـك نتعـرض للسـعات البعـوض، الـذي كان غالبـاً مـا يختـار الارتـواء مـن دم زوجتـي ويتركنـي بحـالي، وكنـت أقـول لهـا مداعبـاً بـأن البعـوض يفضـل مـذاق الـدم الحلـو عـلى المـر. وكانـت تـأتي إلى البيـت حـشرة مألوفـة لنـا منـذ أيـام الطفولـة في مدينـة دمشـق، وهـي الصرصـور المنـزلي. لكـن قدومـه لم يكـن مألوفـاً، فقـد كانـت معظـم الصراصـير التـي تصـل إلى البيـت تـأتي طيرانـاً مـن خـلال النافـذة لا زحفـاً عـبر البالوعـة. كانـت صراصـير كبـيرة سـوداء شـبيهة بالصراصـير التـي تربـت في بـلاد الشـام داخـل مواسـير الـصرف الصحـي، ولكنهـا تجيـد الطـيران. الصرصـور حـشرة طائـرة في الأصـل، ولكـن نشـوؤه في أماكـن مغلقـة مثـل المجـاري يحـول بينـه وبـين تطويـر مهـارة الطـيران. الصراصـير في ماليزيـا كانـت تعيـش في الغابـات المحيطـة في البيـوت، وتتنقـل مـن الغابـة إلى البيـوت بالاعتـماد عـلى أجنحتهـا القويـة. الطريـف أن الصراصـير التـي كانـت تجيـد الطـيران لمسـافات طويلـة لم تمتلـك المهـارة للتوقـف عنـد وصولهـا إلى المنـازل؛ فكانـت تصطـدم بالجـدران الداخليـة وتتوقـف مرغمـة بعـد تلقيهـا الصدمـة التـي توقعهـا إلى أرض الغرفـة.

باختصـار، واجهتنـا خـلال السـنتين الأوليـين جملـة مـن التحديـات والمنغصـات المرتبطـة بالبيئـة الجديـدة، تحملـت زوجتـي النصيـب الأكـبر منهـا. الأمـر الـذي خفـف عنهـا قليـلاً في بدايـة إقامتنـا في ماليزيـا قلـة أسـفاري، ووجـودي قريبـاً منهـا للمسـاعدة كلـما احتـاج الأمـر، والتخلـص مـن الحـشرات والزواحـف المتنوعـة في أشـكالها وأحجامهـا وأصنافهـا. تزايـدت أسـفاري بعـد سـنتين مـن إقامتنـا في ماليزيـا، ولكـن رافـق فـترة تزايـد رحـلاتي وأسـفاري

تحسن كبير في الدخل، الذي مكننا من الانتقال إلى شقق مكيفة في أبنية مرتفعة، بعيداً عن الحشرات والزواحف.

العميد وتحديات إدارة المعرفة

ورغم كل المتاعب الشخصية فإن الهمَّ الأكبر كان يأتيني من وضع الجامعة ومستوى الأداء وأسلوب الإدارة المتبع. كنت أُصبّر نفسي وأُمنِّيها بأن الأمور ستتحسن تدريجياً، وأن نقاشاتي الشخصية مع العميد وبعض الأساتذة النافذين ستؤدي إلى تحسين الأجواء العلمية في الجامعة. لكن الأمور ذهبت بالاتجاه المعاكس. غادرنا أحمد داود أوغلو عائداً إلى جامعته في تركيا، واختار أنيس أحمد أستاذاً التحق حديثاً بقسم العلوم السياسية اسمه عبد الرشيد متين لإدارة القسم. علاقتي بعبد الرشيد كانت طيبة؛ كان لطيفاً بالغ اللطف معي على المستوى الشخصي، ولكن أسلوبه الإداري توافق مع أسلوب العميد. أرسل إلي عبد الرشيد رسالة تكليف بعد تعيينه رئيساً للقسم في نهاية عام (1993)، طلب مني تدريس أربعة مساقات، ولم يبدِ اكتراثاً بأني أدرس وفق النصاب الأعلى للأستاذ الذي يجمع بين التدريس والبحث. اعتذر رئيس قسم العلوم السياسية بعدم قدرته على تخفيض عدد الساعات؛ متعللاً بتوجيهات العميد. وعندما طلبت منه العمل على زيادة عدد أفراد هيئة التدريس، أشار إلى صعوبة جذب الأساتذة إلى الكلية، ودعاني إلى "التضحية" لخدمة الجامعة! لم يقنعني ردّه وقررت أن أتخذ موقفاً جذرياً من عملية تحويل الجامعة التي يُراد لها أن ترتقي بالمستوى التعليمي إلى مستوى "العالمية" الذي يتضمنه اسمها، لتصبح بسبب سوء الإدارة والتخطيط مدرسة ثانوية بلبوس جامعي. أرسلت إليه رسالة طويلة أعلنت فيها رفضي زيادة عدد المساقات، وفندت العذرين اللذين اعتمدهما في رسالته: "عدم توفر الأساتذة" و "الحاجة إلى التضحية". أكدت في رسالتي أن التضحية المترتبة على رفع نصاب الأستاذ التدريسي هي التضحية بالمستوى التعليمي، وبالأداء النوعي المطلوب والوقت

المطلوب لتطوير المناهج والأدوات، وهي تضحية بنوعية الفرص المتاحة للطالب لرفع قدراته المعرفية. كما شددت في رسالتي على الارتباط الوثيق بين "نوعية الأداء العلمي"، وقدرة الجامعة على جذب الأساتذة القديرين والأكفاء؛ لأن النصاب المقترح وطريقة تعامل الإدارة مع الهيئة التدريسية سيؤديان حتماً إلى استبعاد الأساتذة القديرين، وتبقى الكلية عاجزة عن تحقيق الآمال المرجوة.

لم أكتفِ بمخاطبة رئيس القسم برسالة رسمية، بل أرسلت في اليوم التالي بتاريخ 12 كانون الأول (1993) رسالة أخرى إلى العميد، أثرت فيها مشكلة الأداء العلمي في الكلية. كانت رسالة طويلة ناقشت بالتفصيل مشكلات الأداء العلمي ونوعية التدريس، وربطته بعدد من العوامل والممارسات اختصرتها بأربعة بنود؛ أولاً: العدد الكبير من الطلبة ومن المواد التي يدرِّسها أعضاء الهيئة التدريسية، ونوَّهت إلى أثر ذلك في تخلي العديد من الأساتذة عن متطلبات أساسية لرفع أداء الطلاب، مثل إلغاء ورقة البحث، وتقليل عدد الامتحانات والتقارير، وغياب المشاركة الطلابية في المساقات، والاعتماد المتزايد على امتحانات الخيارات المتعددة لسهولة تصحيح الأوراق. وشددت على أثر ذلك على نوعية خريجي الجامعة، وقدرتهم على خدمة مجتمعاتهم بكفاءة ومسؤولية. ثانياً: غياب الجهد الحقيقي لتطوير مناهج دراسية وكتب جامعية تتناسب مع نوعية المساقات المطروحة، ومع طرح الجامعة فكرة التكامل المعرفي بين العلوم الاجتماعية والمعارف الإسلامية. وربطت هذا العجز بمقاربة الجامعة التي تدفع الأساتذة إلى تدريس أربع مواد، وأحياناً خمس مواد لقاء تعويض إضافي! ثالثاً: غياب نظام واضح لترقية الأساتذة، وإعطائهم المحفزات لتطوير أساليبهم التعليمية، والمشاركة في اللقاءات والبرامج التدريبية المناسبة. رابعاً: غياب الخدمات كتوفير حواسيب وطابعات للهيئة التدريسية، وغياب آليات التشاور وبحث المشكلات قبل اتخاذ القرار. وأنهيت الرسالة باقتراح ست نقاط من إجراءات وخطط محددة لتجاوز المشكلات المذكورة، تشمل ربط

ساعات التدريس بالإنتاج المعرفي، وتحسين النظام التحفيزي، وتشكيل مجلس كلية لمناقشة الخطط العلمية ودراسات القرارات قبل إصدارها، والتقليل من المركزية الإدارية بتفويض رؤساء الأقسام والهيئة التدريسية في الأقسام بدائرة واسعة لاتخاذ القرارات المرتبطة بأقسامهم، وتشكيل لجان لمراجعة الأداء وتقديم اقتراحات لتحسينه. وختمت الرسالة بتأكيد استعدادي للقاء العميد للإجابة عن تساؤلاته واستيضاحاته، كما أبديت استعداداً للمساعدة في تطوير البنية والإجراءات التي اقترحتها في حال الحاجة إلى خدماتي.

مضى الأسبوع الأول ثم الثاني، وتتالت الأسابيع دون أن أسمع ردّاً أو تعليقاً من العميد، ولم أتلقَّ دعوة منه لمناقشتها أو السماع لرأيه في المسائل التي طرحتها. تعاطى العميد مع رسالتي بصمت مطبق وتجاهل كامل. تجاهُل العميد لرسالتي، والامتناع عن تقديم أي ردٍّ كتابي أو شفهي، بعد شهر ونيف، لم يكن أمراً مقبولاً عندي؛ لذلك بادرت إلى إرسال رسالة إلى مدير الجامعة مرفقة بصورة عن الرسالة التي أرسلتها إلى العميد، أعلمته بها عن تجاهل العميد لرسالتي، وطلبت منه النظر في محتواها، ونوَّهت إلى خطورة استمرار حال الكلية على ما هو عليه، وأثر ذلك في تدمير رسالة الجامعة وإفشال خططها. علمت فيما بعد أن الرسالة أثارت نقاشاً حادّاً داخل مجلس العمداء، وأحدثت جدلاً شديداً بين مدير الجامعة والعميد حول مضمونها وأسباب تجاهل العميد للمسائل التي طرحتها. بعد أسبوعين من تاريخ تواصلي مع مدير الجامعة جاءني ردّ العميد في رسالة تبريرية طويلة، أصرَّ فيها على وجود لجان ضمن الكلية، وتحدَّث عن لقاءات مستمرة بين الإدارة والطلبة، وحمَّل رؤساء الأقسام مسؤولية التأخُّر بمراجعة المناهج وتطويرها. أدركت بعد استلامي الرسالة أن إمكانية التفاهم مع العميد أصبحت صعبة، وأن الأجواء في الجامعة لن تتغير طالما بقيت إدارة الكلية على ما هي عليه، وأن أجواء الكلية لن تسمح بتحويلها إلى مؤسسة عالمية اسماً وأداء كما أريد لها. وبدأت أفكر جديّاً بالبحث عن

مكان آخر لمتابعة رسالتي العلمية، واعتذرت عن تمديد العقد لمدة سنتين إضافيتين في منتصف عام (1994)، وطلبت التمديد لعام واحد.

كانت معرفتي بعبد الحميد سابقة لحضوري إلى ماليزيا؛ فقد عرفته من خلال نشاطي في رابطة علماء الاجتماعيات المسلمين التي ترأسها لعدة سنوات. وعرفته من خلال لقاءات المعهد العالمي للفكر الإسلامي في مركزه في ولاية فرجينيا، والذي ترأسه أيضاً منذ وفاة رئيسه الأول إسماعيل الفاروقي وحتى تعيينه في الجامعة الإسلامية العالمية عام (1988). وبقي في ذاكرتي الاتصال الهاتفي الذي جرى قبل خمس سنوات وانتهى برفضه إعطائي منحة دراسية. لكن ما بقي داخلي هو كلمات خالية من المشاعر، فقد تلمست العذر له وللمعهد وتناسيت الجوانب السلبية من تلك المشاعر، تماشياً مع مبدأ التخلص من المشاعر السلبية التي ألزمت نفسي به في مرحلة مبكرة من عمري. كانت العلاقة بيننا ودية، ولكن طبيعة شخصيته التي تتشابه وشخصيتي في بعض الجوانب؛ جعل الاحتكاك والتوتر بيننا ملحوظاً. هذا التوتر أو التصادم يسمى في علم النفس "تصادم الشخصيات". كنا نشترك بحماسنا لدفع القضايا والقناعات التي نؤمن بها إلى الأمام، وكان هذا سبباً في التوتر والحدة في التعامل بيننا. كان مجيئي إلى ماليزيا نابع من إيماني بالحاجة للإصلاح الفكري، وهي قناعة مشتركة بيننا. كان شديداً في سعيه لفرض قناعاته، وشديداً في دفاعه عن طروحاته، ولكنه كان في الوقت نفسه مستعدّاً للحوار. وكان مباشراً يعبر عن شعوره ورأيه دون مداهنة ودون اكتراث كبير بردود فعل من حوله، وكانت أحاكيه في هذا الجانب. أذكر أني قمت في جلسة عامة بتقويم أداء الجامعة وحمَّلته مسؤولية وجود ثغرات إدارية، فدافع عن نفسه وقلَّل من أهمية النقد، ولكنه لم يأخذ النقد على نحو شخصي. التفت نحوه في إحدى المحاضرات العامة وأنا أتحدث عن قصور في الأداء الجامعي، فشعر أنني أتوجه باللوم عليه، وطلب مني التوجه بحديثي إلى الحضور بدلاً من الالتفات إليه. كنت أكنُّ له الاحترام لأني أعلم من خلال سنوات من التعامل معه عن

كثب إخلاصه وتفانيه في سعيه إلى الإصلاح، وتفاعله العفوي والصادق مع قضايا المجتمع ومشكلاته، وتكريسه الوقت والجهد لإصلاح ما يمكن إصلاحه. كان يعمل الساعات الطوال في مكتبه، ويعود إلى البيت لاستضافة الزوار ومتابعة اللقاءات والنقاشات المتعلقة بالجامعة والمعهد بعد دوامه؛ بدلاً من أخذ قسط من الراحة بعد عناء يوم طويل. وأثر هذا الأسلوب في العمل على صحته العامة. وكان بدوره يحترم اجتهادي في البحث المعرفي، ويقدر اهتمامي المعرفي والعملي بتطوير المجتمع فكرياً وحضارياً، لكنه كان يتعامل معي بحذر، ويتردد في تكليفي بمسؤوليات إدارية مهمة. وكان يخص هذا التكليف بالأشخاص الذين يثق في ولائهم الشخصي له. كان يثق بجمال البرزنجي ثقة تامة، وسعى طويلاً حتى أحضره للعمل معه في ماليزيا. وكان جمال شخصية قيادية فذّة، واللحمة الأساسية التي تجمع مجلس أُمناء المعهد المؤسِّسين، وبالتحديد عبد الحميد أبو سليمان وأحمد التوتنجي وهشام الطالب وطه جابر العلواني.

انفتاح الآفاق وتأسيس الفكر

التطور الكبير في الوضع الداخلي للجامعة الذي حدث عقب استقالة أنيس أحمد، في نهاية عام (1994)، هو قدوم جمال البرزنجي للعمل في ماليزيا في الأشهر الأولى من عام (1995). عُيّن "صدّيق بابا" عميداً في مطلع عام (1995)، خلفاً لأنيس، وعينتُ وكيلاً للكلية خلفا لـ"صدّيق" في خطوة مفاجئة لم أكن أتوقعها. لم أكن أتطلع للعمل الإداري لأنه يبعدني عن المهمة الأكثر قرباً من قلبي، مهمة الإصلاح الفكري والاجتماعي عبر البحث العلمي والمشاركة في النشاطات العلمية والطلابية. كنت بطبيعة الحال أدرك أهمية العمل الإداري في تنظيم الجهود المعرفية وتوجيهها في الاتجاه الصحيح. وكنت قد انتهيت من نشر كتابي الأول باللغة الإنكليزية في مطبعة الجامعة الأمريكية (**تحديات الحداثة**)؛ وهو أطروحتي للدكتوراه، كما كنت على وشك الانتهاء من كتابي الأول باللغة العربية (**العقيدة والسياسية**). وكانت الصعوبات المعاشية قد بدأت بالتلاشي بعد ترقيتي

إلى مرتبة أستاذ مشارك في نهاية عام (1994)، وتضاعف دَخلي بين ليلة وضحاها. يبدو أن عبد الحميد استطاع أخيراً أن يقنع جمال البرزنجي بالحضور، بمساعدة أنور إبراهيم الذي كان آنذاك رئيس الجامعة ووزير المالية. لعب أنور إبراهيم دوراً رئيسياً في تأسيس الجامعة الإسلامية العالمية، وفي تكليف رجالات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ريادة العمل فيها، فقد كان آنذاك عضواً في مجلس إدارة المعهد. ولم يتأخر المعهد في توظيف شبكة علاقاته الواسعة مع أساتذة الجامعات والمفكرين في العالم العربي والإسلامي لإحضار خيرة الأساتذة من جميع التخصصات.

المهمة الأولى التي كلف بها جمال إدارة مكتب المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الجامعة. وكان المكتب قد تأسس قبل عام، وانتدب عبد الحميد له شاباً اسمه حسين شواط، تخرج حديثاً بعد دراسة الشريعة الإسلامية في المملكة. كان حسين شواط التونسي الأصل شاباً نشطاً، ولكني وجدت صعوبة في العمل معه لأسباب تتعلق بأسلوبه في العمل الإداري، ولمقاربة سلفية تتصف بالتشدد واليبوسة حملها من المؤسسة التي درس فيها. وعلى الرغم من أن فكره السلفي كان أقرب إلى الاعتدال، لكنه بقي متناقضاً مع جلّ قناعاتي الفكرية. كما أن انعدام خبرته الإدارية جعلت أداءه يميل إلى التسرع في القرار، وإلى تشنُّج في الحوار. خبرة جمال الطويلة في العمل القيادي والإداري، جعلت أسلوبه في التعامل أكثر فاعلية، اختلط فيه حزم القرار بليونة التعامل، والسعي الصادق للتشاور واستشفاف الآراء. ووجدت نفسي أتفاعل معه وأزداد تقديراً لشخصيته يوماً بعد يوم. بالمثل ازدادت ثقة جمال بي، وكان يقدر خبرتي ورؤيتي المعرفية، ويستشيرني في كثير من الأمور، ويقدِّمني في المحاضرات العلمية. ويبدو أنه تفاجأ من موقف عبد الحميد السلبي مني، فرتب لقاء بيننا في بيته، تبادلنا خلاله الآراء وطرح عبد الحميد علي عدداً من الأسئلة الفكرية لأول مرة رغم تعاملي معه على مدار سنتين. كانت علاقة عبد الحميد معي طريفة، تختلط فيها الثقة بالتوجس، ويتناوب خلالها التعاون والتشنج. كان واضحاً لي أنه كان دائماً

يبحث عن الولاء، ويبحث عمن يتعامل معه دون أن يعارضه في قراراته. ولم يكن يجد في شخصيتي هذين العنصرين. كان ولائي دائماً للمؤسسة ورسالتها لا للأشخاص بذاتهم. ولكنني كنت في الوقت نفسه احترم التراتب الإداري والقيادي، ولم أكن أسعى يوماً إلى تقويض سلطة من هو أعلى مني في المنصب والمسؤولية من خلال العمل خلف الكواليس، وترويج الشائعات من خلفهم، كما كان ديدن الكثيرين. كنت إذا خالفت من هو أعلى مني سلطة ومسؤولية في موقف أو قرار أصرح له بوجهة نظري المغايرة بأدب ولطف، وأقدم اقتراحات إيجابية وبدائل مفيدة لمساعدته على النجاح بمهمته، بدلاً من العمل على تقويض مكانته والتعريض بشخصه. وعندما كانت تصل الأمور إلى نقطة يصعب إصلاح خلل مهم وجوهري كنت أختار الاستقالة، والبحث عن مكان بديل وموقع آخر أخدم من خلاله وفق رؤيتي وقناعاتي. كانت إحدى أبرز مهارات جمال هو قدرته على الاستماع، واستعداده للاستفادة من الاقتراحات. وكانت قدرته على ضبط صوت الأنا في داخله تكافئ قدرة الصوفي المتمرس الذي أمضى حياته في تنمية خصال الزهد والتواضع والفناء.

إنشاء مكتب للمعهد في الجامعة كان خطوة حاسمة لتجاوز القيود الإدارية التي حالت دون انطلاق النشاطات الفكرية. استطاع المكتب من توسيع نشاطاته الفكرية ضمن الجامعة وخارجها، بالتعاون مع مؤسسات فكرية وجامعية، من خلال تنظيم الندوات والمؤتمرات واستكتاب الباحثين، وإثارة النقاشات والحوارات حول مشكلات الثقافة والحضارة في العالم الإسلامي. دعاني جمال للتعاون مع المعهد، وبعد التشاور مع عبد الحميد اتخذ القرار بتسميتي نائب مدير المعهد للشؤون العلمية، بالتوازي مع مسؤوليات وكيل الكلية التي كنت أحملها. وخلال أشهر قليلة اتخذ عبد الحميد قراراً بعد تردد قليل بتعيين جمال عميداً لكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية. تردُّده بدا واضحاً، واحتاج إلى بضعة أشهر من التشاور وتقليب الأمور قبل اتخاذ القرار. فقد استمر يردِّد أمامي خلال لقاءاتنا

بأنه وجد الشخص المناسب لقيادة الكلية، وأنه على وشك الإعلان عنه. ثم طلب مني قبل تعيين جمال بأيام إبداء رأيي حول مناسبة جمال للمهمة. كنت أدرك الثقة الكبيرة التي كان يحملها عبد الحميد تجاه جمال، فقدرات جمال الإدارية والقيادية لا تخف على أحد تعامل معه. ولكنني لم أكن مع ذلك متحمِّساً كثيراً لهذا التعيين؛ نظراً للاختلاف الكبير بين خبرة جمال والتوقعات المصاحبة لمسؤوليات العميد وخلفيته العلمية. كان شهادة الدكتوراه التي حصل عليها جمال في الهندسة، وتعيينه عميداً لكلية علوم إنسانية وشرعية يتناقض مع كل الأعراف الأكاديمية. صارحت عبد الحميد، وأظهرت مخاوفي من أثر غياب التجربة الجامعية، واختلاف التخصص، على أداء جمال في موقع شديد الحساسية هو عمادة الكلية. لكن عبد الحميد كان على ما يبدو قد حسم أمره وأصدر قرار التعيين بعد أيام قليلة من حوارنا.

رحلات معرفية والتكامل المعياري الاجتماعي

دعيت في صيف عام (1994) إلى مؤتمر في عمان نظمه مكتب المعهد هناك، والذي كان يرأسه الزميل فتحي الملكاوي، بعنوان "علوم الشريعة في الجامعات". لم أتردد في الموافقة نظراً لأهمية الموضوع، واهتمامي الشخصي بالتحديات التي كانت تحيق بالدراسات الشرعية. كانت زوجتي وأولادي في دمشق، كما جرت العادة بسفرهم في الصيف لقضاء أسابيع مع الأهل هناك. وكنت قد بقيت بعيداً عن دمشق طوال إحدى عشرة سنة بعد آخر زيارة لي عام (1983). أخبرني الأهل بصدور قرار يسمح للمغتربين بدخول سورية بإذن خاص دون أن تتعرض لهم الأجهزة الأمنية بالسؤال. حصلت على إذن من الخارجية وقررت أن أغتنم وجودي في الأردن للزيارة. كانت مخاطرة لعدم وجود ثقة كاملة في الأجهزة الأمنية، ولكنني اقتنعت بأن زيارة الأهل والعودة إلى البلاد تستحق القيام بها. وفعلاً سافرت إلى عمان خلال شهر آب، وشاركت في المؤتمر الذي استمرَّ ليومين، وقدمت ورقة بعنوان "نحو منهجية أصولية للدراسات الإنسانية". وجرت حوارات مفيدة

حول واقع علوم الشريعة وطرق تدريسها، والمناهج المعتمدة في تطوير علومها، وعلاقتها بالواقع المعاصر. تعرفت خلال المؤتمر على عدد من المفكرين المهتمين بقضايا التنمية والإصلاح؛ منهم إسحاق فرحان النائب في مجلس النواب في تلك الفترة، ووزير تربية سابق في الحكومة الأردنية، كما تعرفت على علي جمعة الذي أصبح لاحقاً مفتي الجمهورية المصرية ووزيراً لأوقافها، وعدنان زرزو الذي عرفته خطيباً في مسجد الحمد في دمشق قبل اعتقاله في مطلع الثمانينيات وإرغامه على السفر إلى خارج البلاد، وعماد الدين خليل، الذي جمعتني لقاءات عديدة معه أثناء خدمته في الجامعة الإسلامية أستاذاً زائراً، وعدداً آخر من المشاركين.

غادرت عمان على متن طائرة في رحلة قصيرة إلى دمشق، ووصلت إليها يوم 26 آب. حطت الطائرة في مطار دمشق وعبرت أمن المطار دون مشكلة تذكر. ولفت نظري تعامل موظفي الأمن معي بأدب واحترام لم يكن مألوفاً في العقود السابقة. كانت لحظات لقائي مع الأهل والأصدقاء رائعة بعد سنوات طويلة من الغياب. وكان العديد من أفراد الأسرة الصغيرة والكبيرة بانتظاري في المطار بعد غياب طويل. وجدت حفاوة بالغة من الجميع، وتعددت الولائم والزيارات. كان الأمر الوحيد اللافت للنظر هو غياب والدي عن البيت بعد مرور عامين على وفاته. كانت صوره وسريره وخزانته وأدواته لا زالت في مكانها وكأنها تنتظر عودته لاستخدامها. لكن الجميع كان يعلم أن الأب الحبيب رحل ولن يعود، وأن بقاء أشيائه في مكانها لم يكن سوى أُنس أحبابه بذكراه، وتمسك بآثاره التي خلفها وراءه. بالنسبة لي كانت آثاره محفورة في نفسي؛ في الانطباعات العميقة التي تركها في حياتي؛ من سلوكه المبدئي وأخلاقه العالية، والتي نجح خلال حياته في غرسها في نفسي ونفوس إخوتي، وفعل ذلك دون اللجوء إلى الوعظ بل من خلال السلوك والقدوة. كما نجح – رحمه الله – في تشكيل أجزاء من طباعي واهتماماتي، وفي مقدمتها الاهتمام بالمعرفة والعلوم. قضيت في دمشق أسبوعين جددت علاقتي بالأرض التي أحببت، والناس

الذين امتزجت أرواحهم بروحي، ثم غادرت عائداً إلى كوالالمبور تاركاً زوجتي التي كانت حاملاً بابننا منير، فقد عزمت على البقاء حتى إتمام أشهر الحمل والولادة في دمشق.

الدولة المتطورة والمجتمع الفاشل

خلال عام (1995) أوفدتني الجامعة إلى باكستان على رأس فريق لإجراء مقابلات مع عدد من الأساتذة الذين قدموا طلبات للالتحاق بالجامعة الإسلامية العالمية، وكان ضمن الفريق الدكتور عبد الخالق قاضي؛ أستاذ الدراسات الإسلامية. كان عبد الخالق آنذاك في حدود الستين من العمر، وكان ينحدر من مدينة لاهور، هاجر منها للعمل في أستراليا، وأقام فيها زمناً طويلاً. كان هادئاً حكيماً متواضعاً، تعلَّمت منه أدب النقد؛ فقد كان يحرص دائماً، قبل إظهار العيوب والثغرات الفكرية في أبحاث الزملاء وأفكارهم خلال نقاشاتنا الدورية، أن يبدأ بذكر المحاسن والإيجابيات. كانت مقاربته هذه تعطي تقييمه صفة التوازن، وتترك أثراً طيباً في قلوب من ينتقدهم؛ لأنهم كانوا يشعرون بالثقة بأن الناقد لا يتوقف فقط عند المثالب والعيوب، ولكنه كان حريصاً على ذكر المحاسن والإيجابيات. استغرقت زيارتنا أسبوعاً، وشملت أربع مدن؛ هي: كراتشي، ولاهور، وإسلام آباد، وبشاور. كما رتب لي مضيفي في إسلام آباد زيارة خاصة إلى منطقة تلهار الجبلية المطلة على إسلام آباد؛ وهي منطقة خضراء ذات طبيعة جميلة وهواء عليل. تركت الزيارة في نفسي انطباعات متضاربة. وبدا واضحاً أن باكستان التي استطاعت تطوير سلاح نووي لا زالت دولة يعاني أبناؤها من الفقر والجهل والمرض. هيمنت على البلاد طبقة من الأُسر الإقطاعية الثَّرية، تحكمت بالجيش، وأنفقت الأموال على تطوير السلاح، بينما أغلبية الشعب الباكستاني يعيش في حالة فقر. اكتشفت خلال الرحلة الإهمال والفساد وسوء الإدارة التي تنهش الجسد الباكستاني المتعب. تفاجأت جداً عندما علمت أن الحكومة الباكستانية تنفق مبالغ ضئيلة من ميزانيتها العامة على قطاع التعليم والصحة لا يتجاوز 9 ٪ من ميزانية الدولة. نعم واحد في

المئة فقط هي مستحقات التعليم والصحة. في حين كانت ماليزيا تنفق 22 ٪ من ميزانيتها على التعليم. هذا الاختلاف الهائل في الاهتمام بالتعليم هو سرّ تطور ماليزيا الكبير، وحالة الاستقرار والأمان فيها، والتراجع المستمر في مستوى المعيشة والأمن في الباكستان، وانتشار الجريمة والتطرف المتزايد في دولة يفترض أنها تشكلت حفاظاً على هويتها وقيمها الإسلامية.

الفقرُ وتردِّي الأوضاع كان بادياً، وإهمال الدولة بدا واضحاً خلال تجوالي في الأحياء والأسواق والمؤسسات الرسمية، وخاصة الجامعات التي هي مؤشر على المستوى التعليمي. وصلنا إلى كراتشي في الثلث الأخير من شهر تشرين الثاني، وكانت طبقة من الدخان الكثيف تعلو المدينة، وتمنع الرؤية لأكثر من نصف ميل. ويبدو المشهد للوهلة الأولى وكأن ضباباً كثيفاً قد خيم على المكان وحجب الرؤية، لولا رائحة الدخان الخانقة التي تملأ الأنوف وتولد احتقاناً في العيون. بدت كراتشي مدينة مهملة، السير فيها عشوائي رغم وجود إشارات ضوئية. كانت قوات حفظ النظام ترتدي زيّاً عسكريّاً، وتحمل الأسلحة الرشاشة لتحمي الفنادق الفاخرة. مدينة كراتشي التي كانت العاصمة الأولى لباكستان؛ ضمت أغلبية سكانية من المهاجرين الذي قدموا من مختلف مناطق الهند، وشهدت هجرات إضافية من أهالي أفغانستان أثناء الاحتلال الروسي. كانت المدينة تعاني في الفترة المواكبة لزيارتنا من بطش العصابات وتحكمها بالمدينة، واعتماد مختاري الأحياء على مسلحين مدنيين للمحافظة على الأمن نتيجة عجز الدولة عن حماية الأهالي. جامعة كارتشي كانت تعاني من عجز واضح يعكس تخلي الدولة عن مسؤولياتها التعليمية. وصلنا إلى الجامعة الساعة الثانية بعد الظهر لنجد أن الصفوف الدراسية والمكاتب فارغة. قيل لنا: إن دوام الجامعة ينتهي الساعة الثانية، ويغادر الطلاب والأساتذة المكان بسرعة. كانت المكتبة صغيرة، ويعود تاريخ طباعة معظم كتبها إلى ربع قرن مضى، مع قلة عددها ورداءة نوعيتها. كانت المكتبة تعتمد بصورة كبيرة على تبرعات من بعض السفارات الأجنبية، ولم تكن تملك ميزانية لشراء

الكتب الحديثة. التقيت في كراتشي بشريف المجاهد الصحفي المعروف، والأستاذ في قسم الاتصالات والصحافة في جامعة كراتشي بعد زمن من مغادرته الجامعة الإسلامية بعد أن عمل فيها فترة قصيرة، ووجد صعوبة في الاستمرار في عمله هناك. كان رجلاً مسؤولاً صادق اللهجة في وسط تخلى عن الصدق والقيام بالمسؤولية منذ أمد بعيد.

زرت ضريح محمد جناح، مؤسس الباكستان قبل مغادرتي كراتشي، الرجل الذي تتملكني نحوه مشاعر متضاربة. فهو الذي قاد حركة انفصال الباكستان عن الهند، التي أعطت مسلمي الهند دولة مستقلة خاصة بهم، ولكنها خلقت فوضى سكانية كبيرة، وتركت آثاراً بالغة السوء على من بقي في الهند من المسلمين، والذين يزيد عددهم على عدد سكان الباكستان مجتمعين. عاش جناح السنوات الأخيرة من حياته بعد تأسيس الباكستان في تلك المدينة وتوفي فيها. والباكستانيون يكنُّون له احتراماً وتقديراً كبيرين.

الوضع في لاهور كان أفضل بقليل، فهواء المدينة كان أكثر نقاءً، وبدت عراقتها بجلاء في معالمها التاريخية التي عكست حضارة هي دون شك امتداد لحضارة شمال الهند. أعاد طرازها المعماري، وألوان أبنيتها التاريخية التي تغلب عليها الحمرة، الذاكرة بي لزيارتي السابقة لمدينة دهلي الأثرية. زرت الخان الكبير الواقع على مدخل المدينة، وهو مصمم بالطريقة نفسها التي وجدتها في الهند. كان أكثر جمالاً واتساقاً، وكان واسعاً يمكن أن يستوعب بسهولة قافلة مؤلفة من مئتي راحلة وألف مسافر في غرف توزعت بانتظام جميل حول صحنه الكبير. وكان لزيارة كراتشي وقع جميل بسبب الحفاوة التي لقيناها من أصدقاء وأهل الدكتور قاضي سليل المدينة. فقد تلقينا دعوات عديدة تذوَّقنا خلالها طعام لاهور الشهير، وإفطارها الشهي الذي يضاهي بتنوعه وصنعته موائد الغداء. أهل لاهور يعتنون بوجبة الإفطار، وتمتلئ موائدهم بأنواع من الأطعمة المحلية الشهية. كما التقيت في لاهور حسن مراد، مدير معهد القيادة والإدارة، وهي مؤسسة حديثة مختصة

بالتدريب القيادي، وتحولت بعد سنوات من العمل إلى كلية مختصة في العلوم الإدارية. وكان حسن شاباً في مقتبل العمر، استقبلني بحفاوة كبيرة، وأهداني درع مؤسسته على الرغم من أننا لم نلتق من قبل. وكنت أكنُّ احتراماً شديداً لوالده خرم مراد من خلال معرفتي به عبر زياراته المتكررة إلى الولايات المتحدة. وكان خرم مراد شديد التواضع ثاقب الفكر، سمعت منه عدداً من الإشراقات العميقة. وأخبرني ابنه أن والده توفي بمرض القلب قبيل زيارتي للباكستان، وكان يعاني منه لسنوات طويلة.

كانت إسلام آباد المحطة الأخيرة لإجراء سلسلة من المقابلات مع عدد كبير من الأساتذة، تجاوز الأربعين. إسلام آباد كانت أحدث المدن الباكستانية، وبنيت لتكون مقرَّ الحكومة. شوارع المدينة جميلة وحدائقها فسيحة خضراء. ويبدو التناقض الكبير بينها وبين مدينة راولبندي؛ التي تجاورها وتتمركز فيها قيادة الجيش الباكستاني. من إسلام آباد ذهبنا لقضاء يوم في جامعة بشاور ومقابلة بعض الأساتذة. كانت المنطقة المهملة تعجُّ باللاجئين الأفغان، وتحولت خلال سنوات قليلة إلى مركز لحركة طالبان التي ترعرعت في مخيمات اللاجئين هناك، قبل انطلاقها للهيمنة على أفغانستان. كانت المدينة بادية الفقر، وبدت الجامعة أثراً من آثار عهد سابق أكثر بريقاً وانتظاماً. فالبناء المهمل كان لا يخفي ماضيه العريق الآفل الذي يعود طرازه إلى فترة الاستعمار البريطاني للهند في القرن الثامن عشر. ومع صعوبة الظروف كان عدد من الأساتذة متميزين، ومن خريجي جامعات غربية عريقة، يعملون في تخصصات علوم الاجتماع وعلم النفس.

بعد عودتنا إلى إسلام آباد، دعيت إلى تقديم محاضرة في معهد البحوث الإسلامي في الجامعة الإسلامية في المدينة الحديثة. كان مدير المعهد آنذاك الدكتور ظفر إسحاق الأنصاري، وهو نفس الموقع الذي شغله فضل الرحمن قبل انتقاله إلى أمريكا، والذي شغله من بعده الصديق ممتاز أحمد، رحمهم الله جميعاً. تطورت عبر السنين بيننا صداقة رغم تقدمه عني بعقدين من العمر. ولكن عقله المتفتح الوقّاد، ونفسه المرهفة،

وأدبه وتواضعه الجمّ، جعلوه إنساناً محبَّباً طيب المعشر. كان عنوان محاضرتي التي قدمتها في إحدى قاعات المعهد، بتاريخ 27 تشرين الثاني من عام (1995): «الإسلام وسياسات البناء الحضاري»، حضرها لفيف من أساتذة الجامعة وطلبتها ضم ثلة من الأصدقاء؛ منهم محمد الغزالي، الباكستاني الذي التحق لفترة وجيزة بالجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، ومحمود غازي رئيس الجامعة الإسلامية العالمية السابق. اكتشفت خلال تلك الزيارة أن محمداً الغزالي ومحمود غازي كانا أخوين شقيقين، رغم عدم تطابق الاسم الثاني الذي اعتقدت أنه اسم العائلة. العادة عند بعض الباكستانيين تسجيل الأطفال بناء على اسمين معطيين من قبل الأسرة عندما لا تمتلك الأسرة اسماً خاصّاً بها. هذه العادة تحول بين الغرباء ومعرفة الروابط الأسرية من خلال استعراض الأسماء.

المبنى المثير للاهتمام في جامعة إسلام آباد كان مسجد الملك فيصل؛ الذي يتمتع بتصميم معماري فريد، يحمل معاني القوة والرشاقة والقصد والثبات، لم أرَ له مثيلاً في أي مكان آخر. ويحيط بالمسجد تلال خضراء رائعة الجمال. كانت مدينة إسلام آباد آخر محطاتنا عدنا بعدها إلى ماليزيا، ولم تكن حصيلة الرحلة بقدر الجهد والعناء. بعد جولة طويلة في مدن الباكستان، وعشرات المقابلات، تمكنت لجنتنا من ترشيح أربعة أساتذة للتدريس في الجامعة إلى إدارتها.

شاركت في نهاية عام (1995) في ندوة رعتها منظمة المؤتمر الإسلامي، وساهم في تنظيمها اتحاد المجالس الإسلامية في أستراليا. كان عنوان الندوة التي جرت في مدينة سدني: «الإسلام في أستراليا»، حضرها عدد من المفكرين وقيادات المجالس الإسلامية في مدن أستراليا المختلفة، كما حضرها ناشطين في قضايا الإعلام والحوار الثقافي. قدمت خلال الندوة ورقة بعنوان: «الإسلام في مواجهة التحدي العالمي: حول تشويه صورة الإسلام في الإعلام الدولي». كانت الورقة تعكس اهتمامي بالتعاطي مع سوء الفهم القائم بين الثقافة الشرقية والغربية، وتركزت على عرض نماذج من الوصف المتحامل

على الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، وضرورة أن تقوم المؤسسات التابعة للجاليات الإسلامية بتطوير القدرات الإعلامية للتصدي لعملية التشويه تلك. أعددت هذه الورقة في العام نفسه الذي نشرت فيه مجلة قضايا الشرق الأوسط الصادرة في واشنطن ورقتي «الإسلام في النظام العالمي: أنماط ناشئة في السياسة العالمية»؛ التي أثارت العديد من النقاشات حول علاقة الغرب مع الإسلام وقيمه، والحركات الشعبية الساعية إلى استرجاع دوره المؤثر في الحياة العامة. التقيت في المؤتمر برئيس الحركة المحمدية المشهورة في أندونيسيا أمين رئيس، كما التقيت ببعض أساتذة الجامعة المحمدية التي تمتلك عشرات الفروع في مختلف المدن الإندونيسية، وكان اللقاء مقدمة لزياراتي المتتابعة في السنوات التالية لأندونسيا.

إدارة المعهد العالمي للفكر الإسلامي في ماليزيا

بعد عودتي من الباكستان طلبت من جمال إعفائي من مهامي في الكلية؛ لكي أتفرغ لإدارة المعهد بعد أن تركه هو لتولي مهام عمادة الكلية، فاستجاب لرغبتي بعدما وجدني عازماً على الاستقالة. وكنت أخشى أن يؤدي بقائي إلى احتكاك بيني وبينه يؤثر في علاقتنا المتميزة. القرار المفاجئ التالي جاء بتعيين أستاذ يعمل في كلية الاقتصاد اسمه ناصر جبنون مديراً للمعهد، وتعييني مديراً مشاركاً. ناصر جبنون كان صديقاً حبيباً، دمث الخلق، شديد الثقة بالنفس، عالي الطموح، التحق بالجامعة بعد تخرجه في تخصص إدارة الأعمال من الولايات المتحدة. كان تونسي الأصل يمتلك روحاً مرحة، ويتحدث بأريحية وعفوية، ويتميز بضحكة مجلجلة، لم أرَ خلال سنوات طويلة من التعامل مع مختلف الشخصيات أحداً يشبهه. كان رجلاً فريداً في مزاجه وتعامله مع الناس. لكن نقطة تميُّزه كانت هي نقطة ضعفه. فكانت ثقته بنفسه التي يبديها في حواره مع الآخرين فاقعة شديدة الوضوح، يمكن لمن لا يعرفه ولم يخبره أن يسيء فهمها بسهولة، فيرى في عفوية ناصر شكلاً من أشكال الغرور. كنا معاً في مكتب المعهد يوم تبلغنا قرار عبد الحميد بتكليفنا

إدارة المعهد شراكة! جلس ناصر على طاولة المدير بعد سماع الخبر ووضع رجليه فوقها على طريقة رعاة البقر الأمريكيين، وقال لي بصوتٍ منتشٍ: أصبحت مديراً للمعهد. وضحك بأعلى صوته وضحكت معه، فالضحك يأتي عفوياً عندما يبلغ التناقض مداه. تفاجأ جمال بالقرار كما تفاجأت، فسعى جاهداً إلى تغييره، وصدر بعد أسابيع قليلة قراراً آخر بتكليفي بإدارة مكتب المعهد. طبعاً القرار عكس مرة أخرى موقف عبد الحميد الحذر مني، الذي لم تغيره علاقة العمل الطويلة، وعاد للظهور من جديد في مرحلة لاحقة بعد عودتي إلى أمريكا إلى أن توقفت علاقات العمل بيننا نهائياً مع خروجي البئيس من المعهد.

جاء تعييني في إدارة المعهد سنة صدور كتابي **(العقيدة والسياسة)**، وأعاد إلى ذاكرتي تقارب الحدَثَين رسالة كنت قد تلقيتها بتاريخ 13 آب (1996) من محمد الهاشمي الحامدي، عثرت عليها بين أوراقي وأنا أتلمس فيها ما يذكرني بتفاصيل لحظات مضى عليها عقدين من الزمن، استعداداً لكتابة هذا الفصل الحيوي من حياتي. بعد تهنئتي بصدور الكتاب، ومشاركتي برغبته بتقديم أفكار الكتاب لقراء مجلة **(المستقلة)** التي أسَّسها خلال تلك الآونة في لندن، قبل تحوله إلى العمل التلفزيوني، نقل إلي الانطباع الذي حصل عليه عبر شبكة أصدقائه التي تضم عدداً من المرتبطين بالمعهد، واصفاً اختياري مديراً تنفيذياً بأنه «اختيار يصدق ما بلغني من كثير من الأصدقاء عن احترام إدارة المعهد لقدراتك الإدارية والفكرية، وعن كونك واحداً من أبرز الرموز الجادَّة لمدرسة إسلامية المعرفة بما هي دعوة لإعادة نقد الفكر الإسلامي وتجديده». رسالة الهاشمي؛ التي عبرت بالدرجة الأولى عن كرمه ودماثته واهتمامه بتشجيع من يشاركونه الهمّ والمسؤولية، أظهرت أيضاً فهمه العميق لشعار «إسلامية المعرفة» الذي حمله المعهد العالمي لعقود، وسعى لنقله إلى الجامعة الإسلامية العالمية. طبعاً هذا الفهم لم يكن حاضراً بمثل هذا الوضوح عند كثير من المفكرين المهتمين بقضايا الفكر ومشكلات المجتمعات الإسلامية الحضارية. كان العديد منهم يتوقف

في فهم الشعار والرسالة عند معاني العبارة اللغوية؛ والتي تبدو متناقضة بالوقوف عند معانيها المباشرة. كان السؤال الذي يطرح أمامي باستمرار من قِبَل بعض المشاركين في برامج المعهد: لماذا السعي إلى أسلمة المعرفة إذا كانت المعرفة في الأصل حالة إنسانية؟ طبعاً السؤال يتجاهل تماماً أن شعار «إسلامية المعرفة» يتعلق بتطبيق معايير أخلاقية تنبع من القيم الإسلامية في تقويم الأفعال والمؤسسات والسياسات. كما يتعلق بالحاجة إلى النظر إلى المجتمع الإسلامي انطلاقاً من خصوصياته الثقافية وتراثه التاريخي، بدلاً من تقويمه من خلال تجربة الثقافة الغربية والتراث التاريخي الغربي؛ ولأن المعاني القريبة والسطحية للكلمات تشكل الانطباع الأول عن الفكرة المطروحة، كما تشكِّل ألوان الملابس وأشكالها الانطباع الأول عن الفرد، فقد أدركت منذ الخطوات الأولى أهمية استخدام عبارات تيسر عرض الأفكار، وتساعد على الابتعاد قدر الإمكان عن معاني تشكل حجر عثرة أمام الراغب في إدراك المصطلح. كنت أميل دائماً لاستخدام مصطلح «التكامل المعرفي» في كتاباتي في الموضوع بدلاً من إسلامية المعرفة، واستخدام العبارة فقط للإشارة للمؤسسة والمشروع. وكنت أقصد بالتكامل المعرفي، تكامل المعرفة الإنسانية والمعيارية الأخلاقية، أو تكامل المعرفة المتعلقة بالبنى الاجتماعية والثقافية مع المعرفة المستمدة من المصادر المعيارية الإسلامية.

التحدي الذي واجهني، وواجه الزملاء الساعين إلى إصلاح منهجيات التفكير والبحث، هو طبيعة الإصلاح الفكري والمعرفي. الصعوبات الأساسية في تحقيق إصلاح فكري وتطوير مناهج وطرائق تفكير مناسبة لتقدم المجتمعات الإسلامية نجمت عن مشكلة «الازدواج الثقافي» الذي قسم القيادات الفكرية والمكونات الاجتماعية إلى محورَين متوازيَّين؛ محور حماة التراث، ومحور دعاة الحداثة. مقاربة إسلامية المعرفة التي تبنتها الجامعة سعت إلى إنهاء الازدواج المعرفي، بالسعي إلى إحداث تكامل بين المعيارية الأخلاقية والمعرفة الإنسانية. ولم يكن هذا التجاوز سهلاً فقد كرسته البنية التعليمية في المدارس والجامعات في العالم الإسلامي، فظهر بجلاء في

التناقض بين الرؤية الكلية التي تحكم خريجي الدراسات الاجتماعية، وتلك التي يحملها خريجو الكليات الشرعية. كان البون شاسعاً جداً والاختلاف بيِّن وكبير، وصعوبة التكامل والمزج بينهما كصعوبة مزج الزيت بالماء لاختلاف الخصائص النوعية لكل منهما. ولم يلبث هذا الاختلاف أن تحول إلى صراع خفي أولاً، ثم إلى خلاف ظاهر لاحقاً. مناهج الجامعة سعت إلى تجاوز الازدواجية بإضافة تخصص ثانوي إضافة إلى التخصص الرئيسي، بحيث يطالب خريجي الدراسات الاجتماعية بالحصول على تخصص ثانوي في الدراسات الإسلامية، وبالمثل يطالب طلاب الدراسات الشرعية بتحصيل تخصص ثانوي في الدراسات الاجتماعية. وهذا تطلّب بطبيعة الحال توفير هيئة تدريسية من التخصصات الاجتماعية والشرعية.

تولى جمال البرزنجي العمادة، واختار أستاذاً قَدِم من جامعة بغداد للعمل في الجامعة الإسلامية؛ اسمه نزار العاني وكيلاً للكلية. نزار العاني تخصص في قضايا المعايير التعليمية، وكان رجلاً نشيطاً كفئاً، ولكنه تميَّز بنمط سلطوي في تعامله مع الهيئة التدريسية، وشدة مفرطة في التعامل مع مرؤوسيه، فكان يفرض الخطط والمناهج دون اعتبار كاف لدور أفراد الهيئة التعليمية ورأيهم. ساهم نزار في توظيف عدد كبير من الأساتذة من خريجي الجامعات الشرعية السعودية، ذات التوجه السلفي المتشدد. خلال فترة قصيرة انضم إلى الكلية عشرات الأساتذة الجدد. أدركت الجامعة أهمية توليد تفاهم داخل الجامعة على مهمتها ومناهجها، من خلال الندوات والحوار والإقناع وتبادل وجهات النظر، وكان لهذه الندوات الدورية أثر كبير في العديد من الأساتذة الوافدين، ولكن بعض الوافدين من كليات الشريعة التقليدية وجد في سعي المعهد إلى نقد التراث، وإعطاء مرجعية للدراسات الاجتماعية الحديثة ذات المصدر الغربي أمراً يتعارض مع فهمهم لعلاقة الشريعة بالمجتمع. وبدلاً من بحث هذه الخلافات عبر الندوات وباعتماد الحوار المنهجي، لجأ بعضهم إلى استخدام أساليب الشيطنة، بترويج شائعات تسعى إلى الطعن أخلاقياً وأدبياً بالمجموعة الإصلاحية، وباعتماد

نظرية المؤامرة لتنفير الهيئة التدريسية والطلبة من التكامل المعرفي. وصلت معلومات مؤكدة عن استخدام بعض أعضاء الهيئة التدريسية لأساليب غير أخلاقية للتشكيك بمنهجية الجامعة في قاعات التدريس، وتم دعوة هؤلاء إلى جلسة مغلقة لإتاحة المجال لتوضيح مواقفهم والدخول معهم في مصارحة. أدت هذه المصارحات إلى تراجع ملموس للحملة المسعورة التي قادها بعض الأساتذة ضد إدارة الجامعة والكلية والمعهد، ولكن الاصطفافات والتناقضات المعرفية تركت أثراً سلبياً على الأجواء المعرفية داخل الجامعة.

التزام الكلية والمعهد بحلقات النقاش والندوات الهادفة إلى إثارة مواضيع جدلية، والدخول في نقد إيجابي مع التراث والمعاصرة، بقي على حاله لم يتغير. استمر طرح موضوعات تتعلق بالعلاقة بين الإرث العلمي واحتياجات المجتمع المعاصر، وأثر التغيير في البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على الأطروحات التاريخية. واستمر كذلك الحديث عن تطوير منهجيات البحث في الدراسات الشرعية والعلوم الإنسانية، لربط الأساس المعياري الإسلامي بالتطور الاجتماعي والتجربة العملية، وربط المعرفة الاجتماعية المتطورة بالدراسات الشرعية. كما سعيت من خلال مكتب المعهد إلى إقامة حلقة نقاشية أسبوعية في أمسيات الخميس بعد انتهاء الدوام، كان يحضرها العديد من الأساتذة، وبعض طلبة الدراسات العليا المهتمين بقضايا التكامل المعرفي. أذكر من الأساتذة مصطفى العشوي، وإبراهيم رجب، وإبراهيم زين، ومحمد بن نصر، وعبد الله زروق.. ومن الطلاب الطاهر الميساوي، وقطب سانو، وعبد العزيز برغوثي، ومقلاتي صحراوي، وبدران حسن.

حرب خفية بين الإحياء والإصلاح

يمكن إيضاح الحرب الخفية ضد الإصلاح الفكري، والتي اعتمدت الاتهام والتشكيك وسوء الظن ومحاسبة النوايا، باستعراض موقف أستاذ

شريعة معروف عمل في الجامعة الإسلامية، وحصل بيننا احتكاك فكري بسيط، هو الدكتور منير البياتي. البياتي باحث وكاتب معروف في الأوساط الشرعية في العالم العربي، درس الشريعة في جامعة بغداد، وتخصص في المسائل السياسية. كانت علاقتنا أثناء مكوثه في الجامعة الإسلامية في ماليزيا علاقة زمالة، لم يحدث بيننا صدام خلال عمله معي في الجامعة، ولم يجري بيننا عتاب، ولم يناقشني يوماً في أفكاري وطروحاتي لإظهار مواضع الخلل والزلل فيها. تفاجأت بموقفه العدائي تجاهي، وإلصاق تهم بي تنمُّ عن سوء ظن كبير، واستعداد عجيب للشيطنة والاتهام دون دليل. نقل عنه محمد الصادق المراني في مدونته الشبكية اتهامه لي بـ «الحقد على الملتزمين». جاء هذا البيان في معرض نقد المراني لما أسماه موجة العصرنة، ومن خلال استعراض عدد من رموزها. ولأني واحد من رموز العصرنة حسب قراءته؛ فقد أورد اسمي في قائمة ممثليها؛ وقدمني في مدونته بالعبارة التالية: «يوجد فرع نشِطٌ لمعهد الفكر الإسلامي في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، ينشر منشورات معهد الفكر الإسلامي، ويرأس هذا الفرع لؤي صافي؛ وهو سوري، وكان الدكتور البياتي يسيء به الظن كثيراً، ويقول هو حاقد على الملتزمين بالدين وحاقد على الالتزام».

لم يذكر المراني تفاصيل هذا الادِّعاء، ولم يشرح أساس الاتهام، ولكن فهم طبيعة الصراع الذي كنا نواجهه بقوة في ماليزيا من الأساتذة الذين ينتمون إلى رؤية صادق المراني، واضح من خلال عرضه الطريف لرموز تيارَين متصارعَين في العالم الإسلامي، تيار وسمه بـ «أهل الحلّ والعقد»، وآخر نعته بـ «العصرنة»؛ وهي مقابلة طريفة بحدِّ ذاتها. محمد صادق المراني قاضي يمني من مدينة تعز، وسياسي متمرس أيضاً. كان عضواً في مجلس النواب عن التجمع اليمني للإصلاح. تحوّل المراني لاحقاً إلى الحركة السلفية التي تحتكر لنفسها صفة «أهل السنة والجماعة»، وتعتبر الخارجين عنها مبتدعين يجب الحذر منهم. أشاد المراني في سياق حديثه عن أهل السنة والجماعة بثلاثة علماء اعتبرهم أئمة السنة في هذا العصر؛

وهم: عبد العزيز بن باز، وناصر الدين الألباني، وأبو الحسن الندوي. في حين اعتبر ما أسماه بموجة العصرنة أو «منهجية العصرنة» حركة مقابلة لأهل السنة والجماعة، يتوجب تحذير الناس من «بدعها»، فكتب في توصيف العصرنة مبيناً: «وننتقل إلى المنهجية الأخرى التي ذكرنا أنها أَطَلَّت برأسها في هذا العصر؛ وهي المنهجية العصرانية: هذه المنهجية مقابلة لمنهجية أهل السنة والجماعة، وفيها إدخالٌ لشوائب من خارج الإسلام في الإسلام؛ بحجة التقريب كما ذكرنا. تقريب مع القوميين، وتقريب مع الروافض، وتقريب مع العلمانيين.. وهكذا، كما فعل في الماضي علماء الكلام؛ حاولوا أن يستفيدوا من الفلسفة الإغريقية (اليونانية)، ومن علوم الأمم المجاورة في الدعوة إلى الإسلام وفي الاحتجاج له، فوقعوا فيما سمي فيما بعد بعلم الكلام؛ الذي صار مصيبة على المسلمين، حتى وُجد علماء يبذلون جهوداً لتنقية عقائد الأمة من الشوائب التي أدخلها علم الكلام فيها، ولذلك نجد العصرانيين يلتقون مع المعتزلة المعتمدين على علم الكلام في جوانب متعددة، حتى إنه لجدير بهم أن يُسمّوا معتزلة العصر كما قال أحد الفضلاء، وقد صارت لهم مدرسة منتشرة في الجماعات الإسلامية، وليس كل أفراد الجماعات الإسلامية متأثرين بها، وإنما هنالك بعضٌ منهم تأثروا بهذه المنهجية وبهذه المدرسة».

وبغضِّ النظر عن اعتماد المراني على التفنيد من خلال التصنيف، حاله كحال الكثير ممن ينتمي إلى السلفية الحصرية أُحادية البعد، والحكم على خصومه لا من خلال مناقشة الأُطروحات؛ بل الأصناف التي يعتبروها منكرة ومرفوضة، فإن النقل السابق يظهر المشكلة التي واجهتها وواجهها زملائي في إدارة الجامعة الإسلامية العالمية، مشكلة الرفض الناجم عن تصنيف وحكم مسبق متناقل بناء على قراءة سطحية، وشبهات انبنت على ظنون وأوهام، واتباع أعمى للسلف، لا على بحث عقلي تحليلي ينظر ويناقش ويعلل ويفند.

تنديد المراني بعلم الكلام والنظر العقلي، ورفضه الاستفادة من النتاج الفكري لحضارات وشعوب أخرى هو بيت القصيد؛ إذ لا تستند دعاوي

وأحكام أتباع السلفية الحصرية على بحث للأطروحات، أو نقاش لمضامينها، أو تفصيل في تناقضاتها، أو تمييز بين جوانبها الصحيحة والخاطئة، بل هو ببساطة حكم قبلي نتيجة قبول أصحاب المنهجية «العصرانية»، كما يسميهم المراني وأصحابه، نظريات وأبحاث غربية، تحيل كل مجتهد وناقد لأُطروحات التراث إلى شخص غير مرغوب فيه يجب الحذر منه، ورفض أفكاره لأنها تحمل مخاطر «الابتداع». المفارقة أيضاً أن المراني ومن حذا حذوه لا يدرك الدور الأساسي الذي لعبه الفلاسفة المسلمون وعلماء الكلام في تطوير العلوم والمعارف، وتهذيب الفقه وأصوله، وتحويل الإسلام إلى رؤية حضارية ومجتمع حيوي، إضافة إلى كونه شعائر دينية. فهو يقرأ التاريخ قراءة لا تاريخية، كما يفعل كثير ممن يصفهم تلبيساً بـ «أهل السنة والجماعة». وبالتالي يجنح المراني إلى قراءة تصنيفية، كما يفعل رواد السلفية الحصرية التي ينتمي إليها، للفكر والمفكرين. فكل من أعمل عقله ينتمي إلى الاعتزال، وكل من استفاد من مساهمات غربية فهو عصراني «مبتدع». لا يدرك المراني أيضاً أن «المصيبة» التي يلصقها بالعلماء الذي استفادوا من علوم اليونان وبنوا عليها، ثم طوروها لتكون قاعدة لحضارة إسلامية وارفة، لم تكن في حقيقة الأمر مصيبة؛ بل خير عميم حصّن تلك المجتمعات، وحوّلها إلى مجتمعات حضارية مبدعة. «المصيبة» الحقيقية هي في الأفكار التي ينافح المراني عنها، وتعكس عقلية أُحادية تسطيحية تقود المجتمعات المعاصرة إلى التخلف تحت شعار «نشر الدين»، وتبعدها عن الإبداع والتجديد تحت شعار «محاربة البدعة».

بعد توصيف «العصرانية» التي تهدد «أهل السنة والجماعة»، ينتقل المراني لاستعراض أسماء «العصرانيين» لتحذير الأمة من «بدعتهم». لذلك نراه يتابع ويقول: «ونحن مضطرون لأن نذكر الأسماء؛ لأن المبتدعة يشرع ذكر أسمائهم حتى يحذر الناس منهجياتهم، وما نشأ علم الجرح والتعديل إلا لأهمية وجوده، ومن ضمن ما يشكّل أهمية وجوده: أنه يَظهَر به الناس على حقيقتهم، حتى تعرف الأمة عمّن تأخذ وعمّن تترك؛ فلذلك سنذكر بعض الأسماء البارزة؛ دكتور إسماعيل الفاروقي: الذي أسس معهد

الفكر الإسلامي في أمريكا. والدكتور حسن الترابي: وهو معروف. وراشد الغنوشي. ويأتي بعدهم أمثال محمد عمارة، ومحمد سليم العوا، وفهمي هويدي، وعبد الحميد أبو سليمان، ولؤي صافي، وقطب سانو، وطه جابر العلواني، وغيرهم. ومن مؤسساتهم -كما قدمنا-: معهد الفكر الإسلامي في أمريكا، وأبرز فرع له في ماليزيا؛ فهو فرع كبير هنالك وقد رأيته قبل سنوات، وله منشوراتٌ كثيرة قد يوجد في بعضها خير، وبعضها الآخر يحمل هذه الأفكار التي سنذكر شيئاً منها. كذلك من مؤسساتهم: الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، وقد زُرتها. إضافة إلى أنه من ضمن مشاريعهم: إقامة دولة السودان. وأبرز ما تتميز به مدرستهم: محاولة إدخال أمور في الإسلام بحجة الاجتهاد، سواء في العقيدة، أم في الفقه، أم في أصوله، بصورة لم يسبقهم إليها أحد، أو سبقهم إليها أحد من قبل ولكن قولَه شاذٌّ لا يُلتفت إليه، أو سبقهم إلى ذلك أحد».

باستثناء بعض الأساتذة الذين تأثروا ببيئات جامعية مغلقة، تخلط بين المعرفي والعقدي، فلا تميز بين المؤسسة العلمية المنفتحة على الاجتهاد، التي تتطلب أجواء من الحرية والاحترام المتبادل للاختلاف المعرفي، والجماعة العقدية المغلقة، فإن معظم الأساتذة الذين خدموا ضمن الهيئة التدريسية بذلوا جهوداً طيبة لدفع مشروع التكامل المعرفي الذي تبنته الجامعة. ولقد تشرفت بالتعامل مع عدد كبير من الأساتذة أذكر منهم: مالك بدري؛ أستاذ علم النفس، ومحمد أسلم حنيف، وعزمي عمر، وسيد عبد الحميد، ومحمد عارف، أساتذة الاقتصاد، وفكرت كراتشك، وإبراهيم زين، وقطب سانو، والتيجاني عبد القادر، وعبد الخالق قاضي؛ أساتذة الدراسات الإسلامية، والفاتح عبد السلام، وسيد سراج الإسلام، وزينة كوثر، وعبد الرشيد متين؛ أساتذة العلوم السياسية، ومصطفى العشوي، وظفر آفاق الأنصاري (وهو الأخ الشقيق لظفر إسحاق الأنصاري) أستاذَي علم النفس؛ وعدد كبير من الأساتذة الذين جمعتني بهم لقاءات وندوات ومشاريع، تعاونّا من خلالها على تطوير المناهج وتقويم الأداء. كانت هذه النخبة الطيبة من الأساتذة، وعشرات آخرين

لا مجال لذكرهم هنا، تجتمع باستمرار في ندوات وورشات وحلقات نقاشية ومؤتمرات علمية، وتتعاون لتطوير الفكر والمعرفة والمناهج. من الندوات التي شاركت فيها، وتركت أثراً في الهيئة التدريسية ارتبطت برسالة الجامعة، حملت عنوان "نحو منهجية موحدة لأبحاث الشريعة والاجتماع"، نظمها منسق الندوة الشهرية الدكتور ممتاز علي، في اليوم السابع من شهر أيلول عام (1993). جرت الندوة في قاعة الطبري، وحضرها مدير الجامعة ونائبه كمال حسن، وناقش الورقة التي قدمتها صديقَين عزيزَين أحمد داود أوغلو، ومصطفى أبو صوي. استعرضت في تلك الندوة المساهمات الأساسية في مشروع إسلامي المعرفة، وناقشت مساهمة إسماعيل الفاروقي الرئيسية، والانتقادات الموجهة للمشروع، وبعض الجهود لتطويره، ثم قدمت خطة لتحقيق أهداف المشروع في الوصول إلى حالة التكامل المعرفي الذي يهدف المشروع إلى تحقيقها. جرى نقاش حارّ حول الموضوع، نظراً لمركزيته من رسالة الجامعة، ولكنه كان نقاشاً وديّاً. وطوّرت المحاضرة لاحقاً إلى كتاب (**أساس المعرفة**) الذي صدر باللغة الإنكليزية عام (1997)، ونشرته الجامعة بالتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

عام (1995) شهد حادثة خطيرة عكست أجواء التوتر داخل الجامعة. مساء يوم من أيام الفصل الدراسي الأول اتصل بي مساعدي الإداري في مكتب المعهد هاتفياً ليخبرني أن ثمة حريقاً في مكاتب المعهد، وأن رجال الإطفاء تمكنوا من إطفائه قبل انتشار النار. ركبت سيارتي واتجهت مسرعاً إلى الجامعة. وصلت بعد دقائق من مغادرة رجال الإطفاء، وكان هناك بعض الطلبة المقيمين في مباني سكن الطلاب القريبة في محيط المبنى، يتحلقون حول الشريط الأصفر المحيط بالمكاتب الذي وضعته الأجهزة الأمنية. اطّلعت أثناء زيارتي على حجم الأضرار، التي بدت محدودة، لكني لم أتمكن من معاينة أثر الدخان الكثيف على محتويات المكتب؛ بسبب التحفظ الأمني على المكان الذي اعتبر مسرحاً لجريمة. عدت في صباح اليوم التالي لأطلع على الخطة المحكمة التي وضعها مسبب الحريق. استخدم المعتدي أكياساً

بلاستيكية ملأها بمادة المازوت بطيء الاشتعال، ووضعها في وسط غرف المعهد الكبيرة، معلقة بخيطان قطنية سميكة ربطت بالأثاث. كان غرض من قام بالعملية واستخدم هذه الآلية الحصول على مزيد من الوقت لمغادرة المكان قبل اشتعاله؛ تجنُّباً لوقوعه في قبضة أمن الجامعة عند وصوله إلى البوابة. توجهت أصابع الاتهام نحو شاب تونسي كان يعمل مساعداً في مكاتب المعهد مذ أحضره مديره الأول حسين شواط، واختفى كليّاً يوم اندلاع الحريق. ما أذكره عنه توجم وجهه الدائم، وغياب روح التعاون في علاقته بموظفي المعهد. التحقيقات التي لم تكتمل في الحادثة، رجَّحت أن يكون هناك تعاون بين هذا الشاب وطلبة من أنصار الحزب الإسلامي الذي كان يكنُّ العداء لأنور إبراهيم، ولخطة المعهد الرافضة لتحويل المشكلات التي تواجه المجتمع الإسلامي إلى صراع بين إيمان وكفر كما كان الحزب يراها.

سمو الفكر والقيمة وقيود المجتمع والأعراف

أجواء الطلبة كانت متميزة، جمعت طلاب من عشرات الجنسيات من القارات الخمس. كان هناك تفاوت في مستويات الطلبة، ولكن العدد الحرج كان يتميز بالهمة العالية والجد والاستعداد لبذل الوقت لتحصيل المعرفة. أذكر من طلبتي المتميزين: فايزة ومبين العلوي من كشمير، وزريدا رسول نالا من سنغافورا، ووهاب الدين رئيس من أفغانستان، ودانيل يوسف وتونكو موهار من ماليزيا، وبدران الحسن ويونس صويلحي ومقلاتي صحراوي من الجزائر، ومحمد أمين سنقر وحسن كزبالبن من تركيا، وعبدي عمر شوريا ونور عبدي من الصومال، ومحمد رشاد باكشمير من تنزانيا، وروسميا كو وشريفة ألونتو من الفليبين، وعامر بكوفيتش وأحمد علي باستش من البوسنا، وقازي شهادت كبير وأبو محفوظ من بنغلاديش، وعائشة شندول من الصين. هؤلاء الطلبة المتميزين يمثلون عينة لعدد كبير آخر من الطلاب المتفوقين لا مجال لذكرهم جميعاً هنا. كان الطلبة يشاركون في النشاطات الطلابية المتعددة. وكان طلاب العلوم السياسية متميزين بين

أقرانهم، وأسَّسوا نادياً للعلوم السياسية كنت المشرف عليه لفترة من الزمن. وكان النادي يصدر نشرة دورية تحتوي على مقالات متميزة. وكان بين طلبة الدراسات العليا عدد من الطلبة النابهين، أشرفت على رسائل ماجستير متميزة لعدد منهم، أذكر رسالة محمد طاهر الميساوي التي أنجزها عام (1994) تحت عنوان «نحو نظرية اجتماع إسلامية: بحث في فكر مالك بن نبي الاجتماعي»، ثم واصل دراسته بعد مغادرتي للجامعة وحصل على شهادة الدكتوراه؛ ليصبح أستاذاً في الجامعة نفسها؛ ورسالة صحراوي مقلاتي التي أنجزها عام (1995)، تحت عنوان «منهجية مالك بن نبي المعرفية»، ثم حصل على الدكتوراه وعاد للتدريس في جامعات الجزائر؛ ورسالة وهاب الدين رئيس، التي أعدها عام (1995)، بعنوان «الإطار النظري للنظام الإسلامي العالمي: رؤية اتباعية»، ثم تابع دراسة الدكتوراه، والتحق بعد تخرجه في قسم العلوم السياسية بعد سنوات من مغادرتي للقسم، وتولى رئاسة القسم لبضع سنوات.

كان طاهر الميساوي بشكل خاص أقرب الطلبة إلي، كان نشيطاً متفتحاً. اهتم بدراسة أعمال مالك بن نبي، وكنا نشترك في تقدير نهجه وعلمه، وحرر العديد من كتبه، بل قام بترجمة مقاطع أساء مترجموه فهم نصوصها الأصلية. وكان أمين تحرير مجلة (**إسلامية المعرفة**) التي أصدرها مكتب المعهد من ماليزيا خلال سنواتها الأولى قبل أن تتحول إلى مكتب الأردن في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. كما أصدر دراسة عن أعمال الطاهر بن عاشور، العالم التونسي الذي كان له الفضل في تطوير مفاهيم المقاصد في القرن الماضي. وكان بين المجموعة التي شاركت في إخراج عدد من المجلات العلمية الدكتور محمد بن نصر، وهو تونسي الأصل أيضاً، كان يقيم قبل حضوره إلى الجامعة في فرنسا، وتولى تحرير مجلة (**التجديد**) التي لا زالت تصدر من الجامعة الإسلامية العالمية حتى يومنا هذا. كان محمد بن نصر يملك روحاً وثابة، ويرفض بشدة حالة التخلف الحضاري ومظاهرها العديدة التي لم تنجو منها الأوساط المعرفية والعلمية في الجامعة. وكان صريحاً يبدي رأيه المخالف والناقد دون أي تردد أو تورية ولكن بأدب وهدوء.

كان العديد من الأساتذة والطلبة الذين التحقوا بالجامعة، بعد قضائهم أوقاتاً في الجامعات الغربية، يترددون إلي للتنفيس عن همومهم وطلب النصيحة والتوجيه، بعدما تحولت إلى رمز لنقد الأداء والسلوك المتراخي داخل صفوف الجامعة. من الأشخاص الذي كانوا يلوذون بي خلال فترات مختلفة من وجودي في ماليزيا الدكتور مستنصر مير؛ أستاذ الدراسات القرآنية في جامعة أناربر في ولاية ميشيغان. كانت معرفتنا رسمية خلال إقامتي في ولاية ميشيغان حيث كان يعمل. ثم تعرفت عليه بصورة أفضل بعد التحاقه بالجامعة الإسلامية عام (1994) عندما رفضت جامعة ميشيغان منحه درجة الأستاذية. لم يَطُل المقام به في الجامعة العالمية، ولم يلق التقدير من إدارة الكلية رغم جهوده الواضحة لتطوير الحياة العلمية. أنشأ نشرة شهرية أطلق عليها اسم نشرة البحوث والمعلومات، وساعَدْته بالحصول على ميزانية محدودة من الكلية لإصدارها، وكان يكتب معظم موادها، وساهمت بمقالات قصيرة في بعض أعدادها. ثم غادر بعد سنة من انضمامه، بعدما تكاتفت الجالية الإسلامية في مدينة يونغستاون شرق ولاية أوهايو، وأنشأت كرسيّاً في الجامعة، ليتمكن من العودة للتدريس هناك.

من الأساتذة الذين شعروا بإحباط شديد خلال وجودهم في الجامعة، ثم عادوا إلى بلادهم لإصدار مواقف ناقدة حادة شبير أختر. تردد شبير أختر إلى مكتبي مرات عديدة ليحدثني عن المتاعب والصعوبات التي كان يواجهها، ومواقف بعض الأساتذة العدائية تجاهه بسبب بعض الأفكار والطروحات التي كان يتبناها. وبعد عام من العمل في الجامعة غادرها إلى لندن ثم كتب بعد سنة من ابتعاده مقالة شديدة النقد للجامعة. سمعت عن المقالة من خلال مذكرة صدرت بتوقيع مدير الجامعة تدين عمل شبير هذا، وتتهمه بتلفيق أخبار كاذبة ضد الجامعة. المقالة كانت تحتوي بالتأكيد على مبالغات عديدة، ومجازفات شبير المعرفية ذات النفس الاستشراقي الواضح. كما عكست عن رؤية المؤلف الذاتية وشعوره بأنه ضحية، متجاهلاً أسلوبه الاستفزازي في طرح المشكلات. ورغم تحفظي على أسلوب

شبير فقد وجدت أن مقالة شبير كانت تعكس مشكلات حقيقة تحتاج إلى المناقشة ومعالجة لا تنديد. من المشكلات التي أشار إليها في مقالته وجود قرارات متعسفة لا تأخذ بعين الاعتبار احتياجات الهيئة التدريسية، وإهمال للدراسات الفلسفية، وممارسات تعكس تردداً في إعطاء المرأة دوراً مناسباً في الجهاز التدريسي والإداري. لكن إدارة الجامعة لم تسع إلى توظيف النقد لتفادي الثغرات، بل جاء ردُّ فعلها دفاعياً اعتذارياً تركز حول حماية الذات واتهام الآخر بالتلفيق وسوء النية. لا شك أن توصيف شبير لم يكن دقيقاً، واحتوى على تعميمات من حالات خاصة ومبالغات، ولكنه عكس بعض الممارسات القائمة التي كانت تحتاج إلى معالجة وتقويم.

لم تقتصر الملاحظات الناقدة للجامعة على الأساتذة الوافدين، بل انعكست في الحوارات مع بعض الطلبة. من هؤلاء طالبة مسلمة أسترالية التحقت بالجامعة لسنة واحدة، ثم اتخذت القرار بمغادرتها والعودة لإتمام دراستها في بلدها. جاءت قبل سفرها بأسبوع إلى مكتبي لإلقاء السلام وإعلامي برغبتها في العودة إلى أستراليا، وتطرق الحديث إلى انطباعاتها عن الجامعة، وأسباب مغادرتها المبكرة. فذكرت العديد من المثالب التي اعترضتها والمشكلات التي واجهتها. طلبت منها كتابة انطباعاتها وإرسالها إلي بعد وصولها إلى بلدها. وفعلاً أرسلت بعد أسبوعين رسالة مكتوبة بخط اليد بأحرف لاتينية موصولة، وطلبت من مساعدتي طباعتها. اسم الطالبة غير واضح في الرسالة، ولا أستطيع بعد كل هذه السنوات استرجاعه من ذاكرتي، فأنا لم أكن يوماً ماهراً في حفظ أسماء من ألتقي بهم لقاءات خاطفة. الأحرف اللاتينية المكتوبة على الورقة على شكل توقيع توحي بأن الاسم «فيشان»، ولعل صاحبته أسترالية من أصول سلافية. الرسالة طويلة تقع في خمس صفحات مطبوعة. القضايا التي ذكرتها الطالبة عديدة؛ وهي في جوهرها نقد للثقافة السائدة في الجامعة. الرسالة تشير، على سبيل المثال، إلى فظاظة معاملة الموظفين المحليين للطلبة الوافدين، وغياب روح التعاون، وتورد عدداً من الأمثلة لتوضيح ذلك. من النماذج التي أوردتها فيشان

حـول سـلوك الموظفـين، أسـلوبهم الفـظّ، وغيـاب المعاملـة الكريمـة الناصحـة. ذكـرت الطالبـة في رسـالتها أن الموظفـين كانـوا يعاملـون الطلبـة باسـتعلاء، فبـدلاً مـن الاعتـذار لعـدم قدرتهـم عـلى المسـاعدة، واقـتراح جهـة أخـرى يسـتطيع الطلبـة مراجعتهـا، يجيبـون «بعبـارة لا أدري، ثـم يشـيحون بوجوههـم عـن السـائل غـير مكترثـين». الرسـالة احتـوت عـلى الكثـير مـن الأمثلـة عـن سـوء معاملـة الإداريـين للطلبـة، وغيـاب الحـسّ الإنسـاني الـذي يتعاطـف مـع ظـروف الطالـب وحالتـه الخاصـة. ومـن الأمثلـة التـي ذكرتهـا فيشـان، عـلى سـبيل المثـال، عـدم اسـتجابة الإدارة لطلبـات تغيـير الغرفـة المشـتركة بسـبب علاقـة سـيئة مـع طالـب آخـر، حتـى في الحـالات التـي تتطلـب تدخـلاً فعّـالاً مـن موظفـي الجامعـة. شـكاوي فيشـان تعكـس بطبيعـة الحـال توقعاتهـا المسـتمدة مـن ثقافتهـا الأسـترالية للعلاقـة المفترضـة بـين الإدارة والطلبـة، وطريقـة اسـتجابة الإدارة لشـكاويهم. الصدمـة بالنسـبة للطالبـة أن هـذا السـلوك كان يصـدر عـن أشـخاص يحملـون شـعار الإسـلام، والمفارقـة التـي واجهتهـا هـي أن الموظفـين في الجامعـات الأسـترالية التـي خبرتهـا لا يتفاخـرون ليـل نهـار بحملهـم لقيـم الديـن والأخـلاق، ولكنهـم مـع ذلـك يتعاملـوا مـع الطلبـة عـلى مسـتوى أخلاقـي وإنسـاني أعـلى مـن ذلـك الـذي مارسـه مـن تفاخـر بتميـزه الدينـي والأخلاقـي. الأمـر الآخـر اللافـت في الرسـالة، والـذي أكـد خـبرتي الشـخصية، يتعلـق بتمايـز الأسـاتذة إلى صنفـين: «المنفتِحـين» و «الملقِّمـين». الصنـف الأول يتميـز بتعاطفـه مـع الطلبـة وتشـجيعه لهـم في تطويـر فهمهـم الخـاص للموضـوع، في حـين يتميـز الصنـف الآخـر بفـرض رؤيتـه عـلى الطلبـة وإصراره عـلى تلقيمهـم إياهـا كـما يلقـم الطفـل الصغـير الطعـام الـذي لا يستسـيغه. الصنـف الأول مـن الأسـاتذة ضمـت «شـبير أخـتر» صاحـب المقالـة الناقـدة التـي أدانتهـا إدارة الجامعـة. واحتـوت قائمـة أسـماء المنفتحـين أسـاتذة متميزيـن؛ مثـل مصطفـى العشـوي، وخالـد بلانكنشـب، وفكـرت كراتشـيك، وعبـد الله زروق، وهشـام قنديـل، وآخريـن. الطالبـة سـمت أيضـاً الأسـاتذة «الملقمـين» ووصفـت بعضهـم بإضاعـة الوقـت بوعـظ وقصـص لا علاقـة لهـا بموضـوع المسـاق، وآخريـن وصفتهـم بالتكـبر والسـعي لتكويـن

طلبة هم نسخة طبق الأصل في التفكير عنهم، لا أرى حاجة أو فائدة في ذكر أسمائهم هنا.

لعل من أهم النشاطات التي شاركتُ فيها، وعوَّلت عليها لتطوير خطط عمل المعهد، ورفع مستوى التعاون بين مكاتبه، جرت في نهاية عام (1996)، في السنة التي تسلمت فيها مسؤولية إدارة مكتب ماليزيا. فقد عقد المعهد لقاء جمع مستشاري المعهد المسؤولين عن إدارة مكاتبه بمجلس أمنائه. حضرها من مجلس الأمناء كل من: أنور إبراهيم، وعبد الحميد أبو سليمان، وجمال البرزنجي، وهشام الطالب، وتغيَّب عنها طه العلواني وأحمد التوتنجي. وحضر من المستشارين فتحي الملكاوي عن مكتب الأردن، وجمال السعيدي عن مكتب المغرب، ومنظور عالم عن معهد الدراسات الموضوعية القريب من المعهد في نيودلهي، وأحمد فريد عن مكتب بنغلاديش؛ الذي كان يعرف بالمعهد البنغالي للفكر الإسلامي، وسيف عبد الفتاح عن مكتب القاهرة، وأنس الشيخ علي عن مكتب لندن. كما حضر اللقاء الطاهر الميساوي، وكان أميناً لتحرير إسلامية المعرفة. راجع اللقاء نشاطات المكاتب واستمع إلى المعوقات والصعوبات، وبحث في آليات وخطط تطوير عملها. لعل من أهم القضايا التي طرحت في ذلك اللقاء أهمية زيادة مستوى التعاون بين المكاتب، والاستفادة من القدرات البشرية المتوفرة لديها لخدمة مكاتب أخرى، وتم الحديث عن القيام ببرامج مشتركة مع مؤسسات علمية وجامعات في مختلف الدول. كما أثيرت لأول مرة فكرة إعداد الجيل الثاني من الباحثين والمفكرين والإداريين لنقل مسؤوليات العمل الفكري. التوصيات بتطوير التعاون لم تتحول إلى خطط عملية منتظمة، ولكن معظم المكاتب عملت على تنظيم نشاطات معرفية وظفت فيها إمكانيات مكاتب أخرى. لم يتطور النقاش حول إعداد الجيل الثاني إلى إعداد خطة محددة، واكتفى الاجتماع بتسجيل الفكرة كتوصية تضمنها تقرير اللقاء ولم تلق جهداً مناسباً لتحقيقها على الرغم من إثارتي لها في فترة لاحقة بعد انتقالي إلى مكتب المعهد في الولايات المتحدة.

مندناو الخلابة والمطار المهجور

إضافة للنشاطات الفكرية التي قادها المعهد داخل ماليزيا، كنت أسعى قبيل تسلمي المسؤولية الإدارية إلى تنظيم نشاطات علمية، وورشات عمل في الدول المجاورة. هذه النشاطات أخذت منحى جديداً بعد تسميتي مديراً للمعهد؛ لأني جعلتها أولوية، وعملت على تطوير أنشطة معرفية ومؤتمرات علمية دورية خارج ماليزنا، وضمن منطقة جنوب شرق آسيا، بالتوازي مع نشاطات المعهد في ماليزيا. كان المعهد يعقد ندوات حول التكامل المعرفي بشكل دوري في الفلبين وأندونسيا وتايلند، إضافة إلى دورات عقدها في أستراليا واليابان وبنغلاديش والهند. جرت أولى الندوات التي عقدناها في مدينة مانيلا عاصمة الفلبين عام (1996)، بالاشتراك مع جامعة الفلبين وجامعة مندناو شبه الحكومية، والتي تمتلك فروعاً في المدن ذات الأغلبية المسلمة، وتقع أكبر جامعاتها في مدينة مراوي ستي، في شمال مندناو. ثم تبع ذلك ندوة في عام (1997) في مدينة مراوي ستي، شارك فيها جمال البرزنجي، وكمال حسن معاون رئيس الجامعة، وألطاف حسين الذي كان يعمل مساعداً إدارياً في مكتب المعهد إضافة إلى تحضيره لشهادة الماجستير، وندوتين عقدناهما في عام (1998)، في مدينتي جنرال سانتوس وكوتاباتو، شارك فيهما التيجاني عبد القادر ومحمود الذوادي. كانت زياراتنا ونشاطاتنا العلمية في جزيرة ماندناو في جنوب الفلبين ذات الأغلبية المسلمة، والتي بدأت تشهد غزواً من شمال الفلبين؛ نظراً لانخفاض الكثافة السكانية فيها، وخصوبة أراضيها. تزايدت أعداد المهاجرين من الشمال، وأدى تحكمهم بالثروات وفرص العمل إلى إثارة مخاوف الأغلبية المسلمة؛ التي بدأت تشعر أنها تتحول إلى أقلية بسبب الهجرات المتتالية. وأدت الخلافات إلى اندلاع صراع مسلح، وبرزت حركات مسلحة سعت إلى منع الحكومة في مانيلا من استملاك أراضٍ اعتبرها سكان الجزيرة الأصليين عدواناً على حقوقهم التاريخية. كانت زياراتنا تترك أثراً إيجابياً، ليس على مستوى التبادل المعرفي، وتقديم تصور يربط القيم الإسلامية بالحياة المعاصرة

وحسب، بل على مستوى شعور العاملين في فروع جامعة مينداناو الرسمية باتصالهم بالعالم الخارجي وخروجهم من عزلتهم التي فرضتها أوضاعهم المعيشية الصعبة.

أبرز رحلات مندناو وأكثرها طرافة جرت عام (1997)، وشارك فيها كمال حسن وجمال البرزنجي وألطاف حسين. لم يكن كمال حسن متحمساً للذهاب إلى جنوب الفلبين بسبب القلاقل، وخوفاً من مخاطر الوضع الأمني هناك. ثم وافق على مضض بعد إصراري على ذهابه، وطمأنته بأن جميع تفاصيل الرحلة رتبت بدقة. غادرنا مطار كوالالمبور إلى مانيلا لنفاجأ عند وصولنا المطار بثلاثة رجال يحملون آلات تصوير، يقتربون منا بحركة سريعة لالتقاط الصور ثم يسارعون بالاختفاء بسرعة كما ظهروا. كان الرجال الثلاثة يلبسون ثياباً مدنية، وكان من الممكن اعتبارهم صحفيين يسعون إلى التقاط صور، لكن حركاتهم المفاجئة، واختفاءهم السريع دون توجيه أي سؤال أو استيضاح، رجح لدينا أنهم من رجال الأمن، وأن وجهتنا إلى منطقة مندناو أثارت شكوك الجهاز الأمني. كان من المفترض أن تستغرق وقفتنا في مانيلا ساعتين، نستقل بعد الاستراحة القصيرة طائرة أخرى إلى مطار أليغان الذي يبعد حوالي الساعة عن مدينة مراوي، مركز الحرم الرئيسي لجامعة مندناو. لكننا تفاجأنا أن ثمة تأخيراً طويلاً على الرحلة المغادرة من مانيلا إلى أليغان يزيد على الاثنتي عشرة ساعة. جلسنا في المطار نتشاور حول البقاء في المطار أو المغادرة إلى مانيلا، ثم اقترح جمال البحث عن بدائل عن الخطوط الجوية الفلبينية أولاً. ذهب جمال وألطاف للبحث في إمكانية تغيير الرحلة، ثم عادا بعد نصف ساعة ليخبرانا أنهما وجدا رحلة بديلة تنقلنا من مانيلا إلى إحدى الجزر الواقعة في وسط الفليبين، لننتقل من هناك على متن طائرة أخرى للوصول إلى مطار مراوي بدلاً من أليغان. بدا البديل مقنعاً لاختصار مدة الانتظار من جهة، ولأن وصولنا إلى مدينة مراوي سيوفر علينا رحلة بالبر من أليغان إلى مراوي. وبالفعل ركبنا طائرة مروحية صغيرة بمحركين تتسع لاثني عشر شخصاً، وانطلقنا في رحلتنا إلى الجنوب. الجزيرة التي وصلنا

إليها في نهاية المرحلة الأولى كانت صغيرة جداً، لا تزيد مساحتها على ثلاثة كيلو مترات مربعة. المفاجأة الأكبر كانت في حجم الطائرة التي أقلتنا إلى مدينة مراوي، والتي كانت تتسع لستة أشخاص فقط بما فيهم ربان الطائرة. كانت الطائرة قديمة بمروحة واحدة، بدت وكأنها من مخلفات الحرب العالمية الثانية. طبعاً لم يكن بد من ركوب الطائرة رغم تردد كمال حسن، الذي كان يعيش الكابوس الذي أراد تفاديه عندما اعتذر مني عن المشاركة في تلك الندوة! جلسنا جميعاً في مقاعدنا، جلست وجمال في الصف الأول خلف ربان الطائرة مباشرة، ثم تحركت الطائرة وتسارعت على المدرج القصير، ثم بدأت بالتحليق، وفجأة قام الربان بالتفافة سريعة أثارت الذعر، ولم ندرك سبب هذه الالتفافة المفاجئة. المفاجأة الثالثة ظهرت عند بلوغ الطائرة العلو المناسب، فقد تبين أن الطائرة غير مزودة بجهاز ملاحة عندما أخرج قائد الطائرة خريطة ورقية ووضعها على المقعد الفارغ إلى جانبه، وبدأ يتابع التضاريس الجغرافية على الأرض الممتدة تحتنا. لا أذكر كم استغرقت الرحلة بعد هذه السنوات الطويلة، ولكنني أذكر أن الشمس بدأت تميل نحو الغروب ونحن لا زلنا نطير فوق مياه البحر دون أن تظهر اليابسة أمامنا، وبدا التوتر واضحاً على الربان. أخيراً بدأت الأنوار ومعالم اليابسة تظهر لنا في الأفق مع غروب الشمس. عندما اقتربنا من اليابسة طلب القبطان تغيير مسار رحلته من مطار مراوي إلى مطار أليغان، وكأنه استشعر أن ثمة شيء غريب في منطقة المطار، ولكنني وجمال أصررنا على المضي إلى مطار مراوي الذي بدا واضحاً أمامنا على بعد كيلو مترات قليلة. بعد دقائق من التحليق ظهر مدرج المطار، وبدأت الطائرة بالهبوط تدريجياً، وحطَّت أخيراً على مدرج المطار الخالي من الطائرات والأنوار. عند وصولنا إلى جانب مبنى صغير وحيد في نهاية المدرج وجدنا مضيفينا بالانتظار، وتعالت أصواتهم بالترحيب حال خروجنا من الطائرة، وبدت علامات الفرح بالوصول بسلام، وأبدى الجميع استغرابهم لقيامنا بهذه المغامرة. علمنا عند الوصول وبعد رؤية كوكبة من الجنود أن المطار

مغلـق للملاحـة الجويـة، وأننـا هبطنـا دون وجـود أي فـرق للملاحـة الأرضيـة، وكانـت تلـك المفاجـأة الرابعـة خـلال يـوم واحـد. في طريـق العـودة حذرنـا الأسـاتذة المضيفـون مـن اسـتخدام الطائـرات الصغـيرة في الفليبيـن؛ نظـراً لتكاثـر حوادثهـا، ووقـوع حـوادث سـقوط لأنـواع منهـا بـين الحـين والآخـر. حمدنـا الله عـلى وصولنـا بالسـلامة، وتحولـت الرحلـة إلى ذكـرى جميلـة، كنـت أعيدهـا إلى ذاكـرة كـمال حسـن ممازحـاً بـين الحـين والآخـر عـلى صيغـة سـؤال: "مـا رأيـك بالمشـاركة في نـدوة جديـدة في مندنـاو؟".

شـهرة أهـل مندنـاو بأنهـم طـلاب حريـة ومقاتلـين متمرسـين تخفـي الطبيعـة المسـالمة لأهـل البـلاد الذيـن يعانـون مـن الحرمـان ومـن ظـروف صعبـة. تبـين لنـا الظـرف الصعـب بعـد يومـين حـين رافقنـا أصدقـاء مـن أسـاتذة الجامعـة لزيـارة مدينـة مـراوي الصغـيرة؛ التـي لا يزيـد سـكانها عـلى بضعـة آلاف، والتـي تقـع عـلى بحـيرة كبـيرة تضفـي عـلى المنطقـة الجبليـة المملـوءة بالغابـات جمـالاً آسراً. تتألـف المدينـة في مجملهـا مـن أكـواخ خشـبية صغـيرة، وتـكاد تخلـو مـن الخدمـات. أسـواقها بسـيطة، تحتـوي عـلى ضرورات الحيـاة. لكـن الثقافـة المحليـة متميـزة. فالنـاس رغـم ظروفهـم الصعبـة مرحـون، تمـلأ وجوههـم الابتسـامة والقناعـة. وتتضمـن المدينـة جامعـاً صغـيراً متواضعـاً، ولكنـه في حـال أفضـل بكثـير مـن منـازل معظـم السـكان. الغابـات الجميلـة تركـت لـدي انطباعـاً خاصّـاً. منظـر الجبـال والبحـيرة الهادئـة في أسـفل الـوادي مـن أروع مشـاهد الطبيعـة التـي رأيـت، رغـم تجـولي في أماكـن كثـيرة في قـارات خمـس. ممـا لفـت نظـري أيضـاً حضـور المـرأة المراويـة في النشـاطات العامـة، ومشـاركتها الفعالـة في جميـع النقاشـات بثقـة واهتـمام.

الهند والدورة الحضارية

مـن الرحـلات التـي تركـت انطباعـاً خاصّـاً لـدي رحلتـي إلى الهنـد. ذهبـت في رحلتـين إلى الهنـد بدعـوة مـن الدكتـور منظـور عـالم، رئيـس معهـد الدراسـات الموضوعيـة في نيودلهـي، أو دهـلي كـما يسـميها سـكانها الأصليـون. كانـت الرحلـة

زيارة تعارف أعقبت لقاء طويلاً بيني وبين منظور رتبه جمال. وكان منظور يعمل في الرياض أستاذاً للاقتصاد قبل التفرغ لإنشاء المعهد الذي يديره حتى اليوم في الهند. بالفعل تم ترتيب الزيارة وذهب برفقتي ممتاز علي، أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة الإسلامية العالمية، وهو من مواليد حيدر آباد في جنوب الهند. استغرقت الزيارة ثلاثة أيام تعرفت خلالها على نشاطات معهد الدراسات الموضوعية العديدة والهامة، والتي كانت تتألف من ندوات وورشات عمل، وإصدار كتب مترجمة من اللغتين العربية والإنكليزية في مسائل التكامل المعرفي وتطوير الفكر والعلوم. اطَّلعت كذلك على الأحوال المعيشية الصعبة التي كان يعيشها المسلمون في الهند. وزرت جامعة عليكرة التي أسَّسها السيد أحمد خان؛ أحد المصلحين الإسلاميين في الهند، في نهاية القرن التاسع عشر. عندما عدنا إلى نيودلهي، زرت الجامعة الملية وتعرفت على برامجها،كما زرت المجلس الملي ومطبعة كبيرة تابعة للمعهد. ودعيت مرة أخرى لزيارة الهند والمشاركة في مؤتمر، نظمته جامعة عليكرة بالتعاون مع معهد الدراسات الموضوعية، في آذار من عام (1995)، ألقيت خلاله كلمة الافتتاح، وقدمت محاضرة بعنوان "الإسلام والحضارة". ودعيت خلال الزيارة للحديث في الجامعة الملية، فقدمت ورقة بعنوان "الإسلام والنظام العالمي". كما شاركت في ندوة في مدينة نيودلهي بعنوان "نظرية المعرفة من منظور إسلامي".

الانطباع الذي تركته زيارات الهند غريب. فالمكان يبدو أنه خارج الزمان، في عالم مختلف كثيراً عما ألفته في رحلاتي إلى الشرق والغرب. كان تنوع وسائل النقل مذهلاً؛ فكانت الشوارع تحتوي على جميع وسائل النقل التي استخدمها الإنسان منذ مطلع التاريخ؛ بدءاً من عربات النقل التي يحملها الفيل على ظهره، إلى العربات التي تجرها الدراجة النارية أو الهوائية، إلى تلك التي يجرها الإنسان، إضافة إلى السيارة والحافلات والقطار. كانت هذه الوسائل تسير جنباً إلى جنب في الطرق والشوارع نفسها؛ فكنت ترى على الطرق السريعة، الفيل وسيارة الأجرة والمقطورات على اختلاف

حجمها وسرعاتها. وكان التناقض بين الثراء الفاحش والفقر المدقع عجيباً. كنت أشهد أناساً مقيمين في الشوارع وعلى الأرصفة وفي محطات القطار. كان الرصيف هو مأواهم، يأكلون ويشربون وينامون عليه متفرقين أو مع أسرهم. وكان المتسولون في كل مكان. أعطيت مبلغاً لامرأة عجوز طلبت العون، فلم تمض بضع ثوان حتى كنت وزملائي محاطين بعشرات المتسولين من كل الأعمار يطلبون المساعدة والعون. كنت أرى أيضاً أطفالاً لا تزيد أعمارهم عن الثلاث سنوات يتجولون بين السيارات في منتصف الشارع بمفردهم، دون رقيب ودون أن تلفت حركتهم بين السيارات انتباه أحد، وكأن سير طفل في الثلاثة من عمره في وسط الشارع بين السيارات أمراً عادياً مألوفاً.

أكثر المناظر التي أثَّرت بي كان لرجل في منتصف العمر، طويل الشعر، رثّ الثياب، يقف صامتاً على الرصيف وفي يده طاسة صغيرة يحملها دون أن ينبس ببنت شفة. لفت نظري، وأنا أسير في أحد شوارع دلهي الحديثة، شيئاً في محياه كان غريباً لافتاً استدعى وقوفي والنظر إليه. اقتربت منه وحدقت في وجهه وفي عينيه، كان قليل تجاعيد الوجه، أسود الشعر لم يخالط شعره الشيب. قدرت عمره في منتصف الثلاثينات. كانت عيناه غائرتين تتحركان بطريقة تظهر على قسماته ونظراته قدرة على النظر والتمييز، لكن نظرته كانت تبدي ذهولاً كاملاً، وتوحي بوجوده ذهنياً ونفسياً في مكان بعيد عن محيطه. كانت نظرته فارغة، خالية من كل المعاني. نظرت في عينيه لدقائق وكأني أنظر في بئر عميق غير ذي قرار. كان منظره حزيناً كما كانت نظرته تعكس حزناً قديماً كأنما ظهر في عينيه قبل سنوات طويلة ثم تجمد، فخلت نظرته بعد سنين طويلة من أي معنى آخر سوى الحزن المطلق والفراغ الكامل.

لم يكن حال الهند كذلك قبل قرنين ونصف. كانت الهند من أثرى بقاع الأرض في منتصف القرن الثامن عشر؛ إذ كان معدل دخل الفرد في الهند يزيد عن معدل دخل الفرد في بريطانيا بأربعة أضعاف عشية وصول شركة

الهند الشرقية؛ التي أسسها تجار من لندن؛ إلى منطقة البنغال في شرق الهند (موقع دولة بنغلاديش اليوم)، في أوائل القرن السابع عشر (1612م). بعد قرن من عمل الشركة تمكنت من التحكم بالسلطة في منطقة البنغال بعد أن أجبرت حاكم المنطقة، شاه عالم الثاني، على التنازل لها عن ديوان الجباية. كانت الشركة تستعين بوحدات عسكرية بريطانية مقاتلة تابعة لها، استخدمتها في معارك عسكرية ألحقت هزيمة كبيرة بقوات أمير منطقة البنغال. نجاحها في البنغال أغراها بتوسيع سلطتها بالطريقة نفسها في ولاية بومباي ومدراس. بعد تمرد سكان الهند على توسيع الشركة لسلطاتها وإجبار حكام المناطق المختلفة على نقل السلطات الإدارية وحق الجباية إليها، أرسلت الحكومة البريطانية قوات كبيرة لاحتلال الهند، واستمرت سيطرتها على البلاد لقرن كامل حتى حصول الهند على الاستقلال عام (1947). مثَّلت فترة الاستقلال مأساة أخرى عندما بدأ ملايين المسلمين الهجرة من مناطق مختلفة من الهند إلى منطقة السند والبنجاب لإقامة دولة باكستان. طبعاً بقيت أعداد كبيرة من المسلمين في الهند تزيد على سكان الباكستان، لكن ظروفهم المعيشية نتيجة الحرب التي صاحبت استقلال الباكستان، وبسبب انتقال أكثر أُسر المسلمين ثراء وعلماً وخبرة إليها، حوَّلت أحياء المسلمين في المدن والقرى الهندية إلى أحياء فقيرة، خالية من الخدمات ومراكز التعليم وفرص العمل. المكانان الوحيدان اللذان احتفظا بشيء من القدرات العلمية والتجارية والحرفية هما: مدينة أكرة التي تضم جامعة عليكرة، ومدينة حيدر آباد التي لم تمر بتجربة الهجرة؛ التي تركزت بصورة أكبر في الشمال حيث الأغلبية المسلمة. حفاظ حيدر آباد على تراثها وبنيتها، في خضم التحولات الكبيرة، أعطى أبناءها ثقافة مميزة لا يمكن لمن تعامل معهم أن يخطئها، وثقة عالية بالنفس، وهمة كبيرة، وطموح للتطور والتحصيل.

ثراء الهند وتطورها، قبل خضوعها إلى عملية نهب مستمرة على مدار قرنين من الحكم البريطاني، واضح في معالمها التاريخية. الأبنية التاريخية التي

تعـود إلى فـترة حكـم سـلطنة مغـول الهنـد؛ التـي أسسـها ظهـير الديـن بابـر، في منتصـف القـرن السـادس عـشر، واسـتمرت لمـدة ثـلاث مئـة سـنة حتـى منتصف القـرن الثامـن عـشر. وبلغـت السـلطنة ذروة رخائهـا أثنـاء حكـم السـلطان جـلال الديـن أكـبر (1555-1605م)، ثـم جهاكيـز (1605-1627م)، وأخـيراً شـاه جيهـان (1627-1758م). الثـراء والإتقـان يبـدو واضحـاً في مسـجد دلهـي الكبـير، أو المسـجد الجامـع؛ الـذي بنـاه شـاه جيهـان في منتصـف القـرن الثامـن عـشر، ويتسـع لحـوالي خمـس وعـشرون ألـف مصـلٍّ. وهـو الـذي بنـى كذلـك الـصرح المعـماري الرائـع في مدينـة أغـرة، المعـروف باسـم مسـجد تـاج محـل؛ وهـو آيـة عمرانيـة رائعـة تعكـس تطـوراً معماريـاً وفنيـاً كبـيراً. وصلـت مرتـين إلى مسـافة سـاعة مـن أغـرة حيـث يقـع تـاج محـل، لكـن لم يقـدر لي زيارتـه بسـبب وجـود توتـرات أمنيـة بـين المسـلمين والهنـدوس في القـرى المجـاورة لجامعـة عليكـرة؛ حيـث أقمـت خـلال الزيارتـين.

ثـراء البـلاد قبيـل وقوعهـا فريسـة للاسـتعمار البريطـاني جـلي وواضـح في شـبكة الطـرق المتطـورة داخـل الهنـد، واسـتراحات القوافـل عـلى طـول الطـرق وقـرب المـدن الرئيسـية المعروفـة بالخانـات. والخانـات مضافـات ونـزل كبـيرة الحجـم، خصصـت لاسـتقبال قوافـل التجـار الكبـيرة أثنـاء تنقلهـا بـين المـدن الهنديـة المنتـشرة عـلى مسـافات كبـيرة؛ والتـي توفـر مكانـاً مريحـاً وآمنـاً للتجـار لكـي يتناولـوا وجبـات الطعـام، وينعمـوا بقسـط مـن الراحـة قبـل اسـتئناف السـفر. يتألـف الخـان مـن بنـاء يحيـط بصحـن كبـير، ينقسـم إلى حجـرات متوسـطة الحجـم يسـتخدمها التجـار للراحـة والنـوم. والصحـن كبـير غـير مسـقوف. شـاهدت في نيودلهـي وفي لاهـور هـذه المنشـآت الهائلـة، كـما شـاهدت أجـزاء مـن شـبكة طـرق مرصوفـة بالحجـارة الملسـاء لسـير العربـات بيسر وسـهولة داخـل المـدن الهنديـة. الطريـف في هـذه المنشـآت، والمفارقـة العجيبـة، هـو تبايـن الدقـة والجـمال في أصـل النقـوش عـن تلـك التـي جـرت ضمـن مشـاريع حديثـة لإصـلاح مسـاحات مـن النقـوش التاريخيـة بعدمـا أصابهـا التلـف؛ إذ يمكـن للمدقـق أن يلحـظ مسـتوى الإتقـان الفنـي والتنفيـذي العـالي في الأصـل، والمسـتوى المتـدني الـذي يخلـو مـن الدقـة والجـمال في الترميـمات

الحديثة. كنت أستحضر قيمة الإحسان وأنا أستعرض هذه المشاهد التي تؤكد الترابط المباشر بين القيم الثقافية والمظاهر الحضارية، وأشهد رأي العين ارتباط تطور المجتمع بقيم الجمال والإتقان والإحسان. فالمجتمع الهندي القديم امتلك قيم الإتقان والدقة في الصنع قبل قرون، وافتقدها اليوم نتيجة التراجع القيمي والثقافي، فبدا القديم أكثر سمواً وارتقاء من الحديث.

زياراتي لجنوب آسيا شملت، إضافة إلى الهند والباكستان، زيارة وحيدة إلى بنغلاديش عام (1997)، شاركت خلالها بندوة عقدها مكتب المعهد البنغالي للفكر الإسلامي في داكا، وزرت بعض المؤسسات الأهلية ومنظمات المجتمع المدني. ألقيت محاضرة في المعهد البنغالي للفكر الإسلامي بعنوان «تدريس المواد العلميّة في مستوى التعليم العالي من منظور إسلامي»، في داكا بتاريخ 27 كانون الأول. وزرت كذلك الجامعة الجديدة التي أقامها صديق قديم من زملاء الجامعة الإسلامية الماليزية السابقين؛ هو أبو الحسن صادق، وتحدثت إلى الهيئة التدريسية. وشملت الزيارة التعرف على بعض منظمات المجتمع الأهلي الناشطة. لم تشمل زيارتنا القرى البنغالية التي من المؤكد أنها كانت تعاني من فاقة كبيرة، ولكن مظاهر الفقر في داكا، رغم وضوحها كانت أقل بكثير من تلك التي عينتها في الهند. لم يكن هناك حضور واضح للمتسولين، بل كانت الشوارع رغم إهمالها نظيفة، لا تملؤها النفايات والأوراق كما كان الحال في أحياء دلهي الفقيرة. استعداد بنغلاديش للتطور، وهمة أهلها العالية ظهرت خلال العقدين الماضيين، من خلال جهود الاقتصادي البنغالي المشهور محمد يونس، صاحب فكرة المصارف الدقيقة والقروض الصغيرة. الفكرة التي طورها يونس تقوم على مبدأ القروض الصغيرة التي توفر مبالغ مالية للأسر الفقيرة في الريف البنغالي، تساعدها على شراء أدوات إنتاجية؛ كالمنوال الكهربائي، أو آلات الخياطة، وتوليد دخل تسدد من خلاله القرض الصغير. هذه الفكرة ولدت ثورة إنتاجية في القرى البنغالية، وقدمت خدمات مهمة للأسر الفقيرة ساعدتها على تخطي مستوى الفقر المدقع.

حوارات معرفية في شرق وجنوب شرق آسيا

البلاد التي تكررت زياراتي لها خلال إقامتي في ماليزيا هي إندونيسيا وتايلاند. زرت إندونيسيا بين عام (1996) وعام (1998) أربع مرات؛ ثلاث منها للمشاركة في نشاطات علمية نظمها المعهد مع جامعات محلية، وزيارة واحدة لحضور ملتقى فكري دعا إليه نائب رئيس الجمهورية يوسف حبيبي. زيارتي الأولى شملت مشاركة بورشة عمل حول إسلامية المعرفة، نظمها المعهد العالمي بالاشتراك مع الجامعة المحمدية التابعة لثاني أكبر منظمة إسلامية في إندونيسيا؛ التي بلغ عدد أعضائها آنذاك ثلاثين مليوناً. وكنت قد التقيت في العام السابق لزيارتي رئيس المنظمة المحمدية، أمين رئيس، في ندوة نظمها مصرف التنمية الإسلامي بالتعاون مع الجالية الإسلامية في أستراليا، والتي عقدت آنذاك في مدينة سيدني. وساهم صديق إندونيسي اسمه حبيب خير زين في تنظيم الورشة؛ التي جرت في حرم الجامعة المحمدية في مدينة مالانغ شرق جزيرة جاوا في وسط إندونيسيا. الزيارة الثانية جرت في منتصف العام التالي، ونظمتها جامعة أندلاس الواقعة في مدينة بادانغ في الغرب من جزيرة سومترا. تركزت الندوة التي جرت في 12 تموز من عام (1997) حول عنوان «نظام تطبيقي متكامل للبحث العلمي»، وشارك فيها أساتذة وطلبة الدراسات العليا للجامعة. كما شملت زيارتي في ذاك الشهر مدينة ميدان في الشرق من جزيرة سومترا.

أما الزيارة الثالثة فوقعت في نهاية عام (1997) في الأسبوع الأول من شهر كانون الأول، بعد مرور عام كامل على الزيارة الأولى. استضافت الورشة في ذلك العام الجامعة الإسلامية 45، الواقعة في وسط جزيرة جاوا في مدينة يوجاكرتا التي يرأسها دوام روهارجو. وكان دوام من الشخصيات الفكرية المؤثرة، وكان يرأس في تلك الفترة جمعية المفكرين المسلمين الإندونيسيين واسعة التأثير، والتي لعبت دوراً كبيراً في الحركة

الإصلاحية التي أنهت عهد الحكومة العسكرية التي رأسها سوهارتو عام (1998). وعمل دوام روهارجو عام (1999) رئيساً للفريق الاستشاري لأول رئيس يحكم إندونيسيا بعد تنحي سوهارتو، هو الدكتور يوسف حبيبي الذي كان نائباً لسوهارتو حتى ذلك العام. يوسف حبيبي لعب دوراً مهماً في عملية التغيير مستعيناً بالحركة الإصلاحية التي قادها مفكرون إندونيسيون؛ مثل أمين رئيس وعبد الرحمن وحيد. لكن يوسف حبيبي اضطر للتنحي بعد عامين لعبد الرحمن وحيد؛ القيادي الإصلاحي الذي ترأس هيئة العلماء؛ أكبر منظمة في إندونيسيا، والتي بلغ عدد أعضائها نحو (60) مليون. صحبني في تلك الزيارة الصديق مصطفى العشوي، وكان وقتها عميداً للأبحاث في الجامعة الإسلامية العالمية. وكان عنوان الورشة «هيكلية التنمية الاجتماعية وخصائصها الحركيّة».

زيارتي الأخيرة جرت في مطلع عام (1998) بدعوة من يوسف حبيبي؛ لحضور لقاء حول التحديات الاقتصادية والسياسية التي تواجه مجتمعات جنوب شرق آسيا. واكب اللقاء الذي ضمّ عدداً من المفكرين والأكاديميين والسياسيين بداية الأزمة المالية التي عصفت باقتصاد جنوب شرق آسيا. وحضر اللقاء عدد من الضيوف من ماليزيا، وشارك فيه أنور إبراهيم وكان آنئذ نائباً لرئيس الوزراء. لا يستحضرني اليوم كثير من تفاصيل المؤتمر، سوى محاضرة قدمها يوسف حبيبي، وكان وقتها نائباً لرئيس الجمهورية الإندونيسية ووزير البحوث والتقانة. تحدث يوسف حبيبي بحماسته المعتادة عن التطورات الكبيرة في الاقتصاد والمجتمع الإندونيسيين خلال السنوات الخمس الماضية، وحذر من تداعيات الأزمة المالية على استقرار المجتمع الإندونيسي. كما حثَّ على ضرورة تعاون دول جنوب آسيا للحدِّ من أخطار الأزمة. تخلل الزيارة لقاء مجاملة مع الرئيس سوهارتو؛ الذي كان يعاني من مشكلات صحية، واكتفى خلال اللقاء بكلمة ترحيبية قصيرة. ولم تمضِ أشهر على اللقاء حتى أعلن سوهارتو تنحيه عن الرئاسة وتعيين يوسف حبيبي رئيساً جديداً بدلاً عنه.

قمت خلال إقامتي في ماليزيا بزيارة تايلاند مرتين؛ الأولى في أيلول من عام (1996)، بدعوة من عميد كلية العلوم الاجتماعية في جامعة "برنس سونكلا"، في فطاني الواقعة جنوب تايلاند بالقرب من الحدود الماليزية. وكان عنوان الورشة «العلوم الاجتماعية الحديثة: هل هنالك أزمة؟»، وشارك في الورشة امتياز يوسف؛ وهو صديق تعرفت عليه من خلال مؤتمرات رابطة علماء الاجتماعيات المسلمين في أمريكا. نشأ امتياز في تانزانيا ودرس فلسفة الأديان في جامعة تمبل في الولايات المتحدة، وتزوج من فتاة تايلاندية خلال فترة دراسته، ثم انتقل للحياة في تايلند. وعدت في العام التالي للمشاركة في ورشة علمية بالتعاون بين المعهد وجامعة برنس سانكلا، في تشرين الثاني من عام (1997)، وكان بصحبتي آنذاك قطب سانو. كان سانو شاباً نابهاً من غينيا، درس اللغة العربية في السودان، وكان يتحدثها بطلاقة تفضل الكثير من أهلها. تخرج من جامعة ابن سعود، ثم حصل على الدكتوراه من الجامعة الإسلامية العالمية في فترة تدريسي فيها. كان ذو عقلية متفتحة، وتمت ترقيته إلى رتبة مساعد مدير الجامعة، وحصل على لقب داتو؛ وهو لقب شرف يمنحه الملك للمتميزين في المجتمع الماليزي. وكان سانو قد طور علاقة صداقة مع رئيس الجامعة سنوسي جنيد؛ الذي خلف أنور إبراهيم بعد اعتقاله. ثم عاد إلى غينيا وعُيِّن وزيراً للتعاون الدولي، ولا زال يشغل هذا المنصب حتى الآن. كان عنوان الورشة «تكامل المعرفة بين العلوم الشرعيّة والإنسانيّة».

من أطرف المشاهد التي رأيتها في زيارتي لتايلند حيوان غريب، تحول عبر التاريخ إلى أسطورة تحاك حولها القصص الخيالية؛ هو تنين كومودو الأخضر. حدث ذلك في الطريق إلى الكوخ المخصص لإقامتنا، والمشرف على بحيرة بسيو الواقعة على طرف الحرم الجامعي. كنا عائدين مساء من عشاء في مطعم شعبي دعانا إليه امتياز يوسف. كان الطريق ضيقاً لا يزيد عرضه على أربعة أمتار، وكنت أجلس في المقعد الأمامي، بينما كان امتياز يتبادل الحديث مع صديقَين آخرَين صحبانا إلى العشاء. كنت أنظر إلى الأمام أستمع للحديث عندما رأيت سحلية كبيرة بحجم تمساح ضخم تجتاز

الطريق بحركة سريعة من طرفه الأيسر إلى طرفه الأيمن، على مسافة ثلاثين متراً، ثم تختفي في مياه البحيرة الواقعة على الطرف الأيمن من الطريق. ما إن رأيت هذا الحيوان الزاحف الشبيه بالسحلية الضخمة يقطع الطريق بجسمه حتى سألت مرافقي وأنا أتأمله يتحرك أمامي بسرعة:

- ما هذا الحيوان الذي يتحرك على الطريق؟

ما إن انتهيت من السؤال حتى بدأت السحلية بالدخول في الماء على الجانب الآخر من الطريق. قطع الأصدقاء الحديث ونظروا إلى الأمام، ولكنهم لم يروا شيئاً أمام السيارة. سألني الصديق التايلندي الذي كان يصحبنا:

- لا أرى حيواناً أمام السيارة.. ما شكل الحيوان الذي رأيت؟

لم يكن لدي مشكلة في وصف الحيوان، فقد ظهر شكله بوضوح بسبب استخدام السائق الأضواء البعيدة في ذاك الطريق الريفي الضيق الخالي من الأنوار وحركة السيارات، فأجبته:

- رأيت حيواناً كبيراً شبيهاً بالسحلية، لونه أخضر، بلغ طوله عرض الطريق الذي نسير عليه.

تفاجأ الصديق التايلندي بالوصف، وأجاب بسرعة:

- هل أنت متأكد؟ كأنك تصف حيوان التنين.

الحيوان الذي رأيت، والذي يشبه التمساح، كان يحاكي في شكله صورة التنين الخرافي الذي تتناقله الأساطير الصينية. كان حيواناً ضخم الجسم، أخضر اللون، يزيد حجم جسمه على التمساح الكبير، ذا رقبة ثخينة وطويلة، وذيل غليظ طويل. وكان لسانه الأحمر الطويل الذي يخرجه ويعيده بسرعة كبيرة يبدو من بعيد كاللهب الذي يخرج من فم التنين ويختفي بسرعة. فأجبت محاوري التايلندي:

- هو فعلاً يشبه رسم التنين. حيوان زاحف ضخم ذو ذنب طويل غليظ، ويخرج لسانه الأحمر الطويل أثناء حركته.

أجابني الصديق حين سمع تأكيدي بأن الذي رأيت هو الزاحف المعروف في المنطقة.

- التنين يعيش في هذه المنطقة، ولكن لا يرى إلا نادراً.

سألت الصديق:

- هل التنين الذي تتحدث عنه حيوان مؤذٍ؟

- هو عادة يتجنب الناس، ولكنه يهاجم حيوانات الحقل كصغار الجاموس والدجاج.

بحثت بعد عودتي إلى كوالالمبور عن حقيقة التنين الذي رأيت في تايلند، فتبين لي أن النوع الذي رأيت ينتمي إلى فصيلة تنين الكومودو، وهو زاحف ضخم ينتشر في جنوب شرق آسيا، خاصة في الغابات الإندونيسية. يبلغ طول التنين عند سن البلوغ ثلاثة أمتار، ويزن 150 كيلو غراماً. يستخدم التنين لسانه، كما تفعل الزواحف، لتحسس محيطه والبحث عن فريسته. وهو حيوان قاتل يعتمد على السُّم الجرثومي الممتزج بلعابه لقتل فريسته الكبيرة، ويستخدم فكيه القويين وأسنانه الحادة لنقل الجراثيم القاتلة إلى دم الفريسة مسبباً التهابات شديدة، تسبب إنهاكاً وإعياءً يمنع الفريسة من الحركة، ويقضي عليها خلال ساعات قليلة.

زرت في تايلند مدرسة إسلامية في قرية تقع على الطريق بين مدينة سونكلا ومدينة فطاني ذات الأغلبية المسلمة. أسَّس المدرسة خريج من جامعة ابن سعود، حصل على مساعدة من إحدى الجمعيات الخيرية السعودية. وتماشياً مع التعاليم التي تلقاها في المملكة السعودية فقد فرض مدير الجامعة لباس البرقع (الذي يميز المجتمعات العربية المحافظة) على الفتيات التايلنديات، وهو تقليد يتعارض مع تقاليد المجتمع الإسلامي في تايلند وجميع بلدان جنوب شرق آسيا ذات الأغلبية المسلمة مثل ماليزيا وإندونيسيا.

النشاط الأخير ضمن برنامج المعهد الإقليمي، قبل إغلاقه في منتصف عام (1998)، جرى في اليابان في الأسبوع الأخير من شهر حزيران (1997)؛ فقد وصلتني دعوة رسمية من مسؤول معهد الدراسات الشرقية في طوكيو، الدكتور أكيرا غوتو، للمشاركة في ندوة حول إسلامية المعرفة. وتم ترتيب الرحلة من خلال اتصالات قام بها الصديق الدكتور مصطفى العشوي. وصلنا طوكيو صباح يوم 26 من شهر حزيران، ورتَّب لنا المضيف جولة في مدينة طوكيو في اليوم الأول لوصولنا، قبل بدء البرنامج العام. كما رتب زيارة لمسجد طوكيو في اليوم التالي لأداء صلاة الجمعة هناك. والتقينا بعد الصلاة بمدير المركز الدكتور صالح السامرائي، مؤسس المركز ومديره؛ الذي حصل على دعم من مؤسسات سعودية لبناء المسجد وتشغيله. كان المسجد عبارة عن بناء صغير من ثلاثة طوابق، لا تزيد مساحة الطابق الواحد على (150) متراً مربعاً. وكان عدد المصلين لا يزيد على خمسة عشر مصلٍّ، بينهم ثلاثة من أصل ياباني والباقي من الطلبة الذي يدرسون في طوكيو. ثقافة السامرائي ذي الأصول العراقية كانت بعيدة كل البعد عن الثقافة اليابانية. واشتكى من تفاعلهم الهادئ مع الدين الإسلامي، وأن دخولهم في الإسلام لا يحدث تغييراً كبيراً في عاداتهم.

السؤال الذي طرحه السامرائي، سؤال العلاقة بين الديني والثقافي، والتداخل بينهما في المجتمع الياباني، كان سؤالاً عميقاً ومتشعباً، ولكن مدير المركز العراقي تنبه إلى جانب واحد منه؛ جانب علاقة الثقافة اليابانية والدين الإسلامي، ولكنه تجاهل تماماً علاقة الثقافة العربية والدين الإسلامي. هذه العلاقة بدت لي واضحة في رغبة السامرائي أن يعتنق المسلمون اليابانيون الثقافة والعادات العربية إضافة إلى اعتناقهم الإسلام. هذه المسألة شغلت العديد من أعمالي؛ لأني كنت أراها حولي، حيثما ذهبت وأينما حللت، من خلال خلط بعض العرب المسلمين بين الدين ومفاهيمه وقيمه من ناحية، والثقافة العربية وقيمها ومفاهيمها الخاصة بها من ناحية أخرى. وهو السؤال نفسه الذي أثاره سعي الطلبة

الخليجيين فرض عاداتهم وتقاليدهم المحلية على المسلمين في كل مكان سافروا إليه وحلوا فيه. وهو السؤال نفسه الذي أثاره رؤية الفتيات التايلنديات يلبسن البرقع في غابات تايلندا عالية الرطوبة.

كانت المحاضرة الأولى عامة، وقد جرت مساء يوم الجمعة في جامعة طوكيو، دارت حول موضوع الفكر وعلاقته بالثقافة والحضارة. ولكن البرنامج الرسمي بدأ يوم السبت بمحاضرة صباحية قدمتها في الجامعة، ومحاضرة مسائية للدكتور مصطفى الذي رافقني في الرحلة. أُثيرت خلالها قضايا تتعلق بعلاقة القيم الأخلاقية بالبحث الاجتماعي، والدور المباشر وغير المباشر الذي تلعبه في النظريات الاجتماعية في تقديم الحلول والتغلب على العقبات. انتقلنا في اليوم الثالث لوصولنا إلى مدينة كيوتو في وسط الجزيرة، والتي وصلنا إليها بركوب قطار سريع، يعرف هناك بقطار الطلقة؛ بسبب سرعته البالغة وشكله الشبيه بطلقة البندقية، استغرقت الرحلة قرابة النصف ساعة. استضافنا في كيوتو المركز الدولي الذي يديره رجل أعمال سوري اسمه نبيل المغربي. والمركز مبنى تاريخي جميل زُيِّن بالتحف الشامية التقليدية. يحتوي المركز أيضاً على قاعة كبيرة في جانب من المبنى حوّلت إلى مسجد جميل. أخبرنا نبيل أن المبنى بقي صامداً رغم تهاوي العديد من المباني من حوله عند حصول زلزال كوبي الشهير عام (1984). الزلزال ترك شقّاً واضحاً في واجهة المبنى الحجرية، دون أن يؤثر في بنيته. وآثرت إدارة المركز ترك الشق دون ترميم للحفاظ على ذكرى الحدث الجلل الذي أصاب المدينة.

جولات الفكر وتقلبات الفعل

في شهر نيسان من عام (1997) سافرت لحضور الحفل السنوي للمدارس الإسلامية في مالبورن في جنوب أستراليا، وكانت تلك زيارتي الثالثة لأستراليا خلال إقامتي في ماليزيا، والأولى لمالبورن. جاءت الدعوة من رئيس مجلس إدارة المدارس عمر الحلاق؛ وهو مهاجر لبناني من

منطقة البقاع، يمتلك مطبعة كبيرة، ويمتلك رؤية استراتيجية لمساعدة الجاليات الإسلامية للتأقلم مع مجتمعهم الجديد دون التخلي عن تعاليم الدين الإسلامي. المشروع عكس فهماً عميقاً وإحساساً مرهفاً لمشكلة الجالية الإسلامية وطريقة علاجها. فكرة المدرسة كانت رائدة؛ لأنها على عكس كثير من المدارس الإسلامية في المهجر لم تكن محصورة بالمسلمين، بل كانت منفتحة على جميع الراغبين بتسجيل أبنائهم فيها؛ مسلمين كانوا أو غير مسلمين. كما أن طاقمها التدريسي لم يكن من المسلمين؛ بل كان طاقماً مختلطاً جمع المسلمين بغيرهم من أبناء البلاد. ما يميز المدرسة وجود قواعد أخلاقية وسلوكية ملزمة للطلبة، إضافة إلى دروس خاصة بالمسلمين في موضوعات الدين والأخلاق الإسلامية. ألقيت كلمة قصيرة بعنوان «التراث الإبراهيمي»، أكدت فيها التراث الأخلاقي المشترك الذي تعاقبت على تكريسه الرسالات الإبراهيمية التوحيدية. وشددت في حديثي على أهمية تأسيس قاعدة أخلاقية تشكل كلمة سواءً، تجمع أتباع الديانات الإبراهيمية الثلاث على قيم التعاون والعدل والمساواة والرحمة. تبع المحاضرة عشاء وأحاديث متبادلة بين الحضور. أمضيت بعض الأيام مع عمر تعرفت خلالها على جهوده وعلى الجالية. والتقيت هناك بطالبتي شريفة ألونتو الفلبينية الأصل؛ التي التحقت بطاقم المدرسة الإداري، وتزوجت من أسترالي مسلم، وأقامت في مالبورن.

اهتمامي بتطوير المناهج الدراسية الذي قادني إلى مالبورن للمشاركة في النشاط السنوي لأكبر مدارسها الإسلامية، انعكس أيضاً في جهدي لتطوير المدرسة الإسلامية التابعة للجامعة العالمية في الفترة نفسها. فقد كلفت عام (1997) بالإشراف على المدرسة الإسلامية العالمية التي أنشأتها الجامعة؛ لتوفير نظام دراسي مناسب لأبناء الأساتذة في الجامعة. كانت عميدة كلية التربية روسناني هاشم عضواً في لجنة الإشراف التي ترأستها، والتي ضمت أيضاً فريدة الشما، المستشارة التربوية للمدرسة، إضافة إلى مديرة المدرسة فريال الخالدي. كان تطوير المنهج الدراسي المناسب تحدياً كبيراً، وقمت بالتعاون مع فريدة بتطوير مصفوفة من المفاهيم التي يحتاجها الطالب

للحصول على منظومة تصورية وأخلاقية مناسبة للقيام بدور إيجابي في تطوير المجتمع والحياة، إضافة للمعارف النظرية والمهارات العملية التي يفترض في النظام المدرسي توفيرها. وعملنا أيضاً على ربط المفاهيم بالمستوى الإدراكي للطالب. وتم توزيع المهام بين فريق من التربويين للبحث عن الكتب المدرسية المناسبة لتحقيق مصفوفة القيم، وتكليف مدرسين تربويين لتأليف الكتاب المدرسي المناسب حال غياب الكتاب الجاهز للاعتماد. استمر دوري في رئاسة لجنة الإشراف على المدرسة حتى مغادرتي ماليزيا، ولكن تطورات عام (1998) أثرت في مشاركتي. كما أثر مغادرة فريدة وفريال المبكرة إلى الولايات المتحدة سلبياً على تطوير المناهج. تولى بعد سفر فريال الدكتور موهياني رازقين إدارة المدرسة، ثم انقطعت نهائياً عن نشاطاتها مع إنهاء أعمالي في الجامعة العالمية في منتصف سنة (1999).

لم تكن جميع الرحلات التي قمت بها في ماليزيا رحلات عمل، بل تخللها بين الحين والآخر رحلات أسرية، إلى شواطئ ماليزيا الجميلة، غالباً برفقة أصدقاء أو زوار أو مع فريق المعهد. كان الأولاد قد بدؤوا يشبوا ويطالبوا بأوقات خاصة بهم، وكنت أحاول تعويض عملي الطويل وسفري المتتابع بنزهة أسبوعية، وكان المكان المفضل للأولاد المطاعم التي تحتوي على قسم لألعاب الأطفال. كما كان الأولاد يحصلون على ألعاب مع وجبتهم الغذائية. وكنا أحياناً نذهب إلى منتجع يبعد حوالي الساعة بالسيارة على قمة جبل شاهق قرب كوالالمبور اسمه «كانتنغ هايلند» أو مرتفعات كانتنغ. كانت المنطقة ساحرة، شاهقة الارتفاع يبلغ ارتفاعها (1700) متراً عن سطح البحر، وتقع على قمة جبل أخضر. كان المنتجع كبيراً يحتوي على العديد من الفنادق، ومدينة للملاهي. كان الأولاد - والكبار أيضاً - يستمتعون بجولات على المركبات السريعة التي تثير ركابها بالتفافاتها المفاجئة الصاعدة والهابطة والملتفة حول نفسها. كنا نأخذ معظم الزوار من الأهل والأصدقاء لزيارة المكان والهروب من حرِّ المدينة المستمر. كان الهواء معتدلاً في المنتجع المطلِّ على مدينة كوالالمبور. ولكن ارتفاع المنتجع فوق الغيوم كان يحجب رؤية المدينة في كثير من الأوقات. قمنا كذلك برحلات إلى منتجعات

جزيرة بينانغ المشهورة. وكان المعهد ينظم رحلات ترفيهية لأهالي العاملين فيه، وبعض الضيوف من الأساتذة والطلبة المشاركين بنشاطات المعهد. من الضيوف الذين رافقونا في زياراتنا للمنتجعات الجبلية والبحرية، والدتي التي زارتني عدة مرات، وكذلك أختي لينا. أما أخي عامر فأمضى عندي قرابة الشهر بعد التحاقه بمعهد اللغة في كوالالمبور. كذلك حضر لزيارتي حماي وحماتي اللذان أمضيا أياماً في ماليزيا الخضراء الجميلة.

هذه الأوقات العائلية كانت تعطي الحياة طعماً خاصّاً لذيذاً، وتتناوب فيها لحظات السعادة والحبور بلحظات الحزن والأسف. أولادي زوَّدوني بمعرفة مباشرة عن الطبيعة الإنسانية التي كنت أتأمل فيها نظرياً. المفاجأة الجميلة الأولى ارتبطت بتنوع الطبائع والسجايا التي تميز الأطفال منذ نعومة أظفارهم. فابنتي الكبيرة لبنى تميزت بعفوية تدفعها لإظهار مشاعرها دون تصنع، واتخاذ مواقف واضحة تعكس تلك المشاعر. كما تميزت بحبها للفنون؛ فكانت تتقن الأغاني والأناشيد التي تتعلمها في المدرسة، وتحرص على تنظيم فقرات ترفيهية في مناسبات مختلفة، تقدم فيها ذخيرتها من الأغاني الكثيرة التي تحفظها، وتدرِّب أختها على إنشادها. كما أظهرت في المرحلة الإعدادية اهتماماً بالكتابة الأدبية والشعرية، وقامت بتحرير صحيفة أسبوعية حافلة بأخبار الأسرة وقصص وقصائد كانت تكتبها وتضيف إليها مقابلات مع أفراد الأسرة. وكانت تعد نسخ الصحيفة الأسبوعية على الحاسوب، وتستخدم برنامجاً خاصّاً لترتيب الصحيفة، وإضافة إلى الصور المناسبة، ثم تقوم بطباعتها على الطابعة المنزلية وتوزيعها على أفراد الأسرة الصغيرة.

أما رهف فكانت تمتلك قدرة كبيرة على الحوار والإقناع، كما كانت مفاوضة من الطراز الأول. بدأت الكلام بسنٍّ مبكر، وكانت قادرة - وهي دون الثانية من العمر - على الحديث بجمل كاملة، وإقناعي ببعض اقتراحاتها. طلبت مني في ذاك العمر المبكر، بعد أن حملتها ووضعتها في السرير في إحدى الأمسيات، أن أبدل سريرها ذي الحواجز الجانبية العالية المخصصة للأطفال

الصغـار، بسريـر مشـابه لسريـر أختهـا لكـي تسـتلقي عليـه دون مسـاعدة منـي. وكانـت شـخصيتها القيـادة واضحـة في عمـر مبكـر، وكانـت خلافـاً لأختهـا الكبـيرة تتعامـل معـي بمرونـة وحصافـة. مهاراتهـا الطبيعـة المتميـزة حوَّلتهـا إلى مفاوضـة رسـمية تنـوب عـن إخوتهـا في الحـالات التـي تتطلـب تعديـلات عـلى الجـدول اليومـي، وتأخـير سـاعة النـوم بسـبب برنامـج تلفزيـوني متأخـر خـلال عطلـة نهايـة الأسـبوع. كانـت تعـرض اقتراحاتهـا بهـدوء وتحـاول تقديـم بدائـل لـدى رفـضي أحـد مقترحاتهـا. وكانـت تتراجـع بوجـه بشـوش، وابتسـامة هادئـة مرتسـمة عـلى وجههـا، عنـد إصراري عـلى الالتـزام بالجـدول اليومـي المعتـاد. شـخصيتها القياديـة دفعتهـا للتطـوع في المنظـمات الأهليـة ولعـب دور قيـادي فيهـا. أسسـت وهـي في سـنوات الجامعـة الأولى فرعـاً لمنظمـة أكسـفام التـي تقـدم معونـات إلى المجتمعـات الفقـيرة.

منـير ابنـي الثالـث وأول أبنائـي الذكـور؛ تميـز منـذ نعومـة أظفـاره بهـدوء وصـبر ورباطـة جـأش لا يمكـن لأحـد تعامـل معـه أن يخطئهـا. حـضرت يومـاً إلى البيـت بعـد اتصـال طـارئ مـن زوجتـي، فوجدتـه يعـاني مـن ضيـق في التنفس واضـح نتيجـة تحسـس ربـوي أصابـه في سـنواته الأولى. كان يتنفـس بصعوبـة ولكـن دون جـزع أو ذعـر، ولم يكـن آنـذاك يتجـاوز الثـلاث سـنوات. حملتـه إلى الطبيـب فوضعـه لمـدة سـاعة تحت جهـاز تنفس لتعويـض الانخفـاض الحـادّ من الأكسـجين بسـبب الحالـة التـي أصابتـه. وكان يبتسـم عنـد تلقيـه الإبـر اللقاحيـة التـي تعطـى للأطفـال في سـنواتهم الأولى، بطريقـة كانـت تدهـش الممرضـات اللـواتي اعتـدن عـلى بـكاء الأطفـال عنـد تلقيهـم نغـزة الإبـرة. طـوَّر مهـارات في برمجـة الحاسـوب في سـنٍّ مبكـر، وتعلـم لغـة «الجافـا» وهـو في الصـف التاسـع مـن خـلال قـراءة كتـاب وجـده في مكتبتـي، وأتقنهـا مـع بلـوغ الصـف العـاشر.

أمـا مكـين الـذي جـاء في نهايـة الركـب؛ فقـد أظهـر قبـل دخولـه المدرسـة شـكيمة مبكـرة وقـدرة عـلى الدفـاع عـن مسـاحته الشـخصية، ومواجهـة مـن يحـاول تجاهـل احتياجاتـه ومطالبـه. كـما أظهـر ميـلاً للقـراءة في الكتـب التـي توفر معلومـات طبيعيـة وعلميـة، ونفـوراً مـن قـراءة القصـص والروايـات. فـكان

يميز بين أنواع الديناصورات وخصالها المتميزة، كما امتلك في مرحلة مبكرة معلومات تفصيلية عن المجموعة الشمسية، وميَّز بين أقمار المشتري الأربعة، ومعلومات تفصيلية عن المناخ الخاص بكل منها، إضافة إلى معلومات عن المجرات والكواكب.

التعامل مع الأولاد غيَّر اعتقادي السابق بأن سلوك الإنسان ناجم عن التطبع، وأظهر لي بطريقة عملية ومباشرة وجود طباع متميزة، وسجايا خاصة سابقة على التطبع والاستجابة إلى التوجيهات التربوية. اختلاف سجايا أولادي وطباعهم كان واضحاً، ومحبَّباً، أعطى كل واحد منهم شخصيته المتميزة، وجملة من الاهتمامات الخاصة التي لم تتكرر. فاهتمت لبنى بالأدب والفنون، ورهف في العمل القيادي في المنظمات الأهلية والخدمية، ومنير في البرمجة الحاسوبية، ومكين في الفلك والعلوم. وكنت أشجعهم على المضي في اختياراتهم، وأوجههم إلى أهمية التركيز وتنظيم الوقت، والعمل ضمن دائرة التأثير والاهتمام، واختيار المهنة والتخصص الموافق للاهتمامات والمواهب الخاصة.

في عام (1997) عكفت على إعداد كتابي الثاني باللغة العربية (**إعمال العقل**)؛ الذي أنجزته خلال أشهر قليلة. كنت أعتزل الساعات الطوال في غرفة خاصة في جناح مركز الأبحاث، وأتفرغ للكتابة بعيداً عن مكتبي الرسمي. أنهيت الكتاب في خريف تلك السنة وأرسلته لرئيس المعهد طه جابر العلواني؛ لاعتقادي بأن الكتاب يقع في صلب رسالة المعهد، لكنه أرسل لي رسالة اعتذر فيها عن عدم قدرته على الاطلاع على الكتاب بسبب حالته الصحية. تواصلي معه عبر سنوات عديدة أكَّد لي أنه لم يكن متحمساً كثيراً لطروحاتي وكتاباتي. اتهمني في إحدى الحوارات بيننا بغزارة تأليفي، ونبهني إلى أن الزيادة الكمية تؤثر سلباً على الجودة النوعية. المبدأ النظري الذي أثاره لا يستند إلى تبرير علمي، فقلة الإنتاج في أي دائرة إنسانية لا تترجم إلى جودة في الإنتاج، كما أن غزارة الإنتاج العلمي يرتبط بالدرجة الأولى بعناصر الإبداع والاجتهاد. علق سلباً على كتابي (**العقيدة والسياسة**)،

دون تحديد مواطن الضعف التي دفعته لاتخاذ هذا الموقف السلبي من الكتاب، بل اكتفى بمشاركتي ببيت جميل من أبيات المتنبي يقول فيه:

"ولم أرَ من عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام"!

وكان الرجل قليل الكتابة، يعتمد على طلبته لإعداد بعض كتاباته. فكان يملي ما يريد كتابته على طلابه، أو يكلفهم بالكتابة نيابة عنه بعد إعطائهم عنوان الموضوع وبعض الأفكار حوله.

توقفت العلاقة التي جمعتنا على الندوات واللقاءات التي كان ينظمها ويدعو إليها نخبة من المفكرين في العالم العربي، وكانت تلك اللقاءات مثيرة للتفكير والحوار وتوليد الأفكار. لم يتطور بيننا تعاون بحثي لأسباب تتعلق بأسلوب عمله. من الباحثين الذين لازموه ردحاً من الزمن ثم ثاروا على طريقته في توظيف مساهماتهم ضمن أعماله شاب اسمه هشام العارم، كان طالباً في الجامعة الإسلامية، لكنه لم يشعر بالراحة فيها، وكان له مواقف ناقدة شديدة من الثقافة الماليزية. لازم هشام الشيخ طه فترة من الزمن أثناء إقامته الأخير في ماليزيا، وكان يساعده في أعماله العلمية. وسافر معه إلى الولايات المتحدة، ثم انقلب عليه ونقده نقداً شديداً. ومنهم الدكتور نصر عارف الذي لازم طه خلال نشاطاته في القاهرة. وكانت القاهرة التي درس فيها مكانه المفضل. لكن نصر غادر جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية التي أسسها طه في ولاية فرجينيا، بعد عمل استمر عدة سنوات محبطاً، لينتقل للعمل في جامعة زايد في الإمارات. ولم يتمكن محمد مختار الشنقيطي من العمل معه طويلاً لأسباب تتعلق بشعور طه أن ما يكتبه طلابه نتيجة نقاشات تدور بينه وبينهم، أو عقب توجيهاته لهم بالكتابة في موضوع ما، يعتبر نتاجاً لصيقاً به لا بالطلاب.

لعب طه جابر العلواني دوراً إيجابياً تحريضياً للطروحات النقدية للتراث، وإثارة قضايا الفكر والمجتمع، خلال زياراته المتكررة، والتي كان يصطحب فيها مجموعات من المفكرين العرب. أهم المناسبات التي أثارت

حـوارات عميقـة، بـل وزوبعـة كبـير تحولـت إلى نقاشـات حـادة، حلقـة نقاشـية عقـدت في قاعـة الطـبري في الجامعـة، حضرهـا العديـد مـن أسـاتذة الجامعـة، وضمـت لفيفـا مـن المفكريـن المؤثريـن. أذكـر منهـم أبـو القاسـم الحـاج حمـد الـذي نـشر لاحقـاً كتابـه المهـم "العالميـة الثانيـة"، وخليـل الشـقاقي مديـر مركـز الدراسـات العربيـة في الضفـة الغربيـة، ومنـير شـفيق وعبـد الوهـاب المسـيري؛ المفكرَيـن المعروفَـين اللذيـن تحـولا مـن الخـط القومـي اليسـاري إلى الخـط الإسـلامي التجديـدي. وحـضر اللقـاء عـلي جمعـة، الـذي أصبـح لاحقـاً مفتيـاً للجمهوريـة في عهـد حسـني مبـارك، ثـم وزيـراً للأوقـاف، وتحـوَّل إلى أحـد أشـد المنافحـين عـن سياسـات السـيسي. تحـدث الضيـوف في مسـائل عديـدة، ولكـن العاصفـة الفكريـة أثارهـا خليـل الشـقاقي، الـذي أعلـن بوضـوح ودون مقدمـات أن الدراسـات الشرعيـة في شـكلها الحـالي غـير مجديـة وغـير مفيـدة، وأنهـا إضاعـة للوقـت والجهـد، وحمـل بشـدة عـلى المناهـج الدراسـية، وأعلـن أنـه قـرر في مطلـع حياتـه الجامعيـة بعـد الـشروع بدراسـتها التحـول عنهـا؛ لأنهـا لا ترتبـط بالواقـع المعـاصر في شيء. وللقـارئ أن يتخيـل طبيعـة الجـدل الـذي أعقـب هـذا الإعـلان الإنـكاري؛ الـذي لم يُبـقِ ولم يـذَر، بـل لم يـترك مجـالاً للجـدل خاصـة عنـد خريجـي الكليـات الشرعيـة؛ الذيـن كان لهـم نصيـب وافـر مـن نقـده الـلاذع. الموقـف السـلبي الكامـل أثـار عـدداً مـن الزمـلاء، بـل كاد أحدهـم؛ وهـو شـاب فلسـطيني الأصـل تخـرج مـن جامعـة الملايـو حديثـاً؛ أن يحيـل الـصراع إلى شـجار. النقاشـات التـي كان يقودهـا طـه جابـر كانـت ثريـة، والنخـب الفكريـة التـي اختارهـا كانـت متميـزة دائـماً؛ والتـي شـملت إضافـة إلى الأسـماء الأخـرى عـدد مـن المفكريـن الذيـن جمعتنـا لقـاءات علميـة وحـوارات ثقافيـة عديـدة؛ مثـل عـماد الديـن خليـل، وفتحـي عثـمان، وأنـس الزرقـا، وسـيف عبـد الفتـاح، ومنـى أبـو الفضـل، ونـاديـا مصطفـى، وغيرهـم كثـير لا يتسـع المقـام هنـا لذكرهـم جميعـاً.

كتـاب (**إعـمال العقـل**) الـذي تـردد طـه في نـشره، كـما تـردد سـابقاً في دعـم كتـاب (**العقيـدة والسياسـية**)، ووضـع عراقيـل عديـدة لمنـع ترجمتـه إلى الفارسـية، رغـم وجـود رغبـة آنـذاك للقيـام بالمهمـة مـن جامعيـين إيرانيـين، وجـد اهتمامـاً

من مدير دار الفكر؛ الأستاذ محمد عدنان سالم الذي أرسلت إليه كتابي مع ابنه الشاب حسن عندما زار مكتبي في ماليزيا. كنت أعتقد بأن الكتاب لن يمرَّ عبر قراءة الرقيب السوري التابع لوزارة الإعلام المشهورة بمحاربة كل الأعمال التي تدعو إلى التفكير الناقد للجهود القومية والتغريبية الفاشلة. ولكنه أكَّد لي أن هذا لن يخلق مشكلة، فوقعت عقداً معه على نشر الكتاب من خلال دار الفكر. نشر الكتاب خلال عام (1998)، ونفدت طبعته الأولى خلال العام نفسه، وأُعيد نشر طبعة ثانية. وأثنى عليه العديد من المفكرين، لعل أبرزهم الدكتور رضوان السيد، والأستاذ خيري العمري.

في عام (1998) ذهبت إلى الكويت تلبية لدعوة من رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة الكويت الدكتور أحمد البغدادي. تواصل معي أحمد في مطلع ذلك العام، وأرسل لي رسالة يدعوني فيها للحلول ضيفاً على كلية العلوم الإدارية في الكويت، والتحدث في موضوع إسلامية المعرفة. لم نكن التقينا من قبل، ولم أكن أعرف الكثير عنه، ولكنني أرجح أن استضافتي تمت بناء على توصية من وكيل كلية العلوم الإدارية؛ الذي حلَّ ضيفاً على الجامعة الإسلامية العالمية في العام السابق. كنت مشغولاً في الشهرَين الأولَين من السنة، واتفقنا بعد عدة مراسلات على الحضور في الشهر الثالث. وفعلاً حضرت إلى الكويت، وألقيت محاضرتين: الأولى بعنوان (أسلمة المعرفة: الدلالات والمحددات)، والأخرى بعنوان (الأزمة النقدية في شرق آسيا). كانت المحاضرة الأولى عامة في قاعة كبيرة، ملأ الحضور مقاعد محدودة منها. وتبين لي أن الجامعة لم تعلن عنها إلا صباح يوم إلقائها. وكانت عادتي أن أحاضر دون الالتفات للعدد؛ لأن المحاضر لا يعلم أين تقع معاني كلماته وأطروحاته. فقد يتلقى الكلمات شخص واحد يتفاعل معها ويحولها من خلال همته ونشاطه إلى واقع عملي ملموس، وقد يتلقاها آلاف الأشخاص ولكنها تعجز عن التأثير فيهم، ثم تتلاشى مع تفرق الجمهور الكبير. وعلمت لاحقاً من خلال لقاءات خاصة مع بعض الأساتذة في الجامعة وأصدقاء خارجها أن أحمد البغدادي يواجه معارضة شديدة داخل

الجامعة وخارجها؛ بسبب انتقاداته الشديدة التي يوجهها للحركة السلفية الكويتية، ولعله أراد من دعوتي إثارة قضايا جدلية وتوليد حوار داخلي. دعيت خلال زيارتي للكويت إلى أمسية بعنوان "المثقف العربي وتداعيات الأزمات الإقليمية"، التقيت خلالها بالدكتور شفيق الغبرا، أكثر المثقفين الكويتيين شهرة، ورئيس تحرير مجلة دراسات العلوم الاجتماعية التي كانت رائدة في مجالها.

أمضيت أسبوعاً في الكويت لقضاء وقت مع أختي لينا وأخي عامر المقيمَين هناك منذ سنوات، والتقيت أيضا بوالدتي الحبيبة التي تزامن حضورها وزيارتي. في اليوم الثاني لوصولي أصبت بإعياء شديد وارتفعت حرارتي، ثم خالجتني نوبات من البرد الشديد لم أشعر بها من قبل ذلك اليوم أو بعده. كنت أشعر بالبرد عميقاً في جسدي. كان الإعياء شديداً، فكنت أكافح للقيام من مقعدي. كانت محاضرتي الأولى في اليوم الثاني، وكان لدي جدول عمل طويل. في صباح اليوم التالي أخذتني لينا إلى طبيب مشهور في الكويت. بعد الكشف علي أعطاني ورقة وطلب مني نقلها إلى الممرضة، وتجنب الإجابة عن أسئلتي حول تشخيص المرض ونوع الدواء. أعطتني الممرضة حقنة لم تصرح لي بنوعها رغم سؤالي، ولكنني خلال ساعة من الوقت عدت إلى نشاطي بصورة مفاجئة، واختفت جميع الأعراض تماماً. وتمكنت من استئناف جدول عملي. رجحت أن تكون المادة التي حقنتني الممرضة بها هي الكورتيزون؛ إذ إن الأثر كان سريعاً للغاية. المهم أن الإبرة فعلت مفعولها السحري الذي كنت بحاجة ماسة إليه.

تقلبات السياسة واضطراب المعرفة

في شهر تموز من عام (1997) بدأت بوادر الأزمة النقدية تظهر في بلدان جنوب شرق آسيا، بدءاً من تعويم تايلند لعملتها التي كانت مرتبطة بالدولار. خلال أشهر قليلة بدأت الأزمات المالية تظهر متأثرة بعامل تضييق خطوط الائتمان، وعجز الشركات والأسواق المالية عن

تحصيل ديون إضافية، والمراهنات على أسعار العملات المحلية من شركات المضاربة المالية الكبيرة. مع نهاية ذلك العام بدأت المشكلات المالية تنعكس على الاستقرار السياسي لتلك البلدان؛ التي بدأت تعاني من تضخم شديد نتيجة الانخفاض الحادِّ للعملات المحلية مقابل الدولار، وعجزت دول المنطقة عن الدفاع عن قيمة عملاتها بالمقارنة مع الدولار. هذا ما ضاعف بصورة مفاجئة من قيمة الديون وكلفة خدمتها، وأدخل الاقتصادات المحلية بحالة ركود. ضربت الأزمة إندونيسيا بصورة خاصة، بسبب التضخم الكبير في أسعار المواد الغذائية، وانعكس ذلك على الوضع السياسي مع بدء الاضطرابات. وأخيراً استقال الرئيس الإندونيسي سوهارتو تاركاً الرئاسة لنائبه حبيبي للمساهمة في تهدئة الإضرابات العمالية والطلابية التي هزت البلاد.

بعد أسابيع قليلة من استقالة سوهارتو، التقيت بأنور إبراهيم خلال مؤتمر حول القيادة والإدارة نظمه المعهد، وقام بالتحضير له وإدارته الدكتور عمر الكسولي؛ الطبيب الذي عمل طويلاً في تنظيم برامج المعهد التدريبية في القارة الإفريقية. في إحدى اللقاءات غير الرسمية بوجود عبد الحميد وجمال، أبدى أنور خلال حديثه مخاوفه من استخدام الحكومة للصناديق الخاصة بالائتمانات الشعبية، مثل صندوقَي الحج والتأمينات الاجتماعية؛ لمواجهة الأزمة والحيلولة دون انهيار شركات خاصة يملكها رجال أعمال مقربين من مهاتير. كان أنور آنذاك وزيراً للمالية إضافة لتولِّيه منصب نائب رئيس الوزراء ونائب مهاتير في الحزب الحاكم. ورغم أن أنور لم يُشر في ذلك الحديث العابر إلى خطوات يسعى لتحقيقها، لكن اعتراضه على سياسات مهاتير كانت ظاهرة جلية. التوتر بين أنور ومهاتير استمر بالتزايد، ويبدو أن أنور قد شعر بالتطورات ضمن الحزب الحاكم، واحتمالات قيام صراع سياسي داخلي، فشجع جمال على مغادرة البلاد؛ لأن الأخير كان يقيم في منزله الخاص؛ الذي أخلاه بعد انتقاله إلى المنزل المخصص لنائب رئيس الوزراء. وكنت أرى جمال قبل رحيله يجلس في مكاتب المعهد الساعات الطوال بعد انتهاء الدوام لتصفية الالتزامات المالية. وفعلاً سافر جمال

خلال ربيع عام (1998) قبل أشهر قليلة من انفجار الأزمة السياسية بين مهاتير وأنور. في مطلع شهر أيلول أصدر مهاتير قراراً بعزل أنور من مهامه الرسمية. وفي اليوم التالي اعتقلت الشرطة شقيق أنور وصديقه منور أنيس؛ أحد الكتّاب المقربين منه، ليخرجا بعد بضعة أيام بعد أن وقعا على اعتراف بممارسة الشذوذ الجنسي مع أنور. حاول المتهمان لاحقاً رفع دعوة ضد الشرطة متهمَيْنِها بإرغامهما على التوقيع تحت التعذيب والتهديد، ولكن محكمة الاستئناف والمحكمة العليا رفضتا النظر في طلبيهما. واعتقل أنور يوم 29 أيلول من العام نفسه، وتعرض للضرب من قبل رئيس الشرطة، وترك الضرب بقعة سوداء واضحة على عينه اليسرى، في أول ظهور له أمام المحكمة بعد أيام من الاعتقال. وانفجرت المظاهرات مرة أخرى في كوالالمبور تطالب بالإفراج عنه، ولكن مهاتير ومعاونوه كانوا مصرِّين على إنهاء أنور والقضاء على الحركة الإصلاحية التي قادها؛ والتي تضمنت أعضاء مؤيدين من الحزب الحاكم.

التطورات هذه أثرت مباشرة على عمل الجامعة والمعهد، فقد كان أنور داعماً رئيسياً لهما، وعضواً فاعلاً فيهما. بعد تداول حول وضع المعهد مع عبد الحميد كان القرار هو إغلاق مكاتب المعهد، ونقل الموظفين إلى مواقع أخرى حتى تتبين وجهة التطورات. وأصدر عبد الحميد، بعد التشاور معي حول التكليف الجديد المناسب لي ضمن الجهاز الجامعي، أمر بتعييني عميداً لمركز البحوث. وبدأت مهمتي الجديدة في خريف ذلك العام، بمساعدة فريق متعاون تألف من الدكتور ساما سهاري، نائباً للعميد، ووان نجيهة، مديرة تنفيذية. صادف تعييني في المركز انتقال المكاتب من الحرم الجامعي القديم إلى الحرم الحالي الواقع في منطقة كومبك؛ والذي يتسع اليوم لأربعين ألف طالب. المباني مصممة على الطراز الأندلسي؛ وهي في غاية الجمال في أجمل مناطق كوالالمبور، على سفح الجبل المؤدِّي إلى قمم كنتنغ هايلاند. وكان تصميم المباني بكل تفاصيلها الشغل الشاغل لعبد الحميد، الذي حشد لها خيرة المهندسين، واختار الطراز الأندلسي في البناء.

كان عملي الجديد ممتعاً ومناسباً، وكانت حالتي المالية مريحة بعد سلسلة من الترفيعات التي ضاعفت دخلي أضعافاً متعددة منذ أن التحقت بالجامعة. كانت ميزات منصب العميد كبيرة، ولكنني بعد أشهر من تولي مهامي الجديدة بدأت أشعر بضرورة مغادرة المكان. كان بعض المساعدين يأتونني بين الحين والآخر ليشتكوا عدم تعاون الأقسام الإدارية الأخرى بسبب وجودي على رأس المركز. كان معظم الأساتذة الماليزيين من أعضاء الحزب الحاكم؛ الذي يمثل مصالح الأغلبية الماليزية ويتمتع بولائها. وكانوا يمارسون ضغوطاً على مساعدي الماليزيين لدفعهم لعدم التعاون معي. بدأت أشعر بارتباك نائبي الدكتور سهاري واعتذاره عن العديد من المهام. طلب مني إعفاءه من مهامه فقبلت، ثم أقنعت الدكتور حزيزان محمد نور؛ وهو أستاذ متخصص في علم الاجتماع، بتولي مسؤولية نائب العميد، فقَبِلَ بعد تردُّد، وكانت تربطنا صداقة وتعاون لسنوات. كان الوضع مشابهاً مع المديرة التنفيذية، وان نجيهة، وهي ماليزية الجنسية؛ وكانت امرأة فاضلة مجدة في عملها. كنت بطبيعة الحال أتمتع باحترام واسع في صفوف الأساتذة والطلبة، وتربطني علاقات ودية مع مدير الجامعة الجديد؛ الدكتور كمال حسن الذي تولى إدارة الجامعة بعد استقالة عبد الحميد في نهاية عام (1998). كنت قادراً على تحصيل الدعم اللازم من إدارة الجامعة لمتابعة عملي، ولكنني بعد تفكير وتأمل في الوضع العام شعرت بأن أجواء ماليزيا تغيرت بصورة كبيرة خلال الأشهر القليلة الماضية، وأن قدرتي على الدفع بالمشروع الذي ارتبط اسمي به ضمن الجامعة آيلة إلى التراجع بالتدريج.

بدأت التفكير جدّياً بمغادرة الجامعة في الأشهر الأخيرة من عام (1998)، وطلبت من عبد الحميد الموافقة على تقصير مدة عقدي حتى نهاية شهر حزيران (1999)، بعد عودته من إجازة طارئة استمرت لشهرين رافقت فترة اعتقال أنور وقبيل تقديم استقالته. فقد كان عقدي الذي جددته الجامعة ينتهي مع نهاية شهر آب من عام (2000). اتصل بي قبل عودته من الرياض للسؤال عن الأحوال العامة في الجامعة والبلد،

ولاستشفاف رأيي في حضوره إلى كوالالمبور. شجعته على القدوم وطلبت منه موافاتي بموعد طائرته، وخرجت إلى المطار لاستقباله. أخبرني في طريق العودة من المطار عن استعداده للاستمرار في موقعه حال موافقة رئيس الوزراء، ولكن كان لديه شكوك حول الأمر. وأخبرني لاحقاً في لقائنا قبل سفره أنه عرض على مهاتير، خلال تواصله معه، استعداده للمضي في إدارة الجامعة، وقدم في الوقت نفسه رسالة استقالته، فاختار مهاتير الموافقة على الاستقالة دون تردد. في شهر آذار من عام (1999) التقيت كمال حسن مدير الجامعة الجديد، وأكدت له عزمي على المغادرة مع انتهاء عقدي، فسألني بدايةً عن الأسباب الكامنة خلف قراري، وأبدى تفهماً لرغبتي بالمغادرة عندما أدرك أن قراري نهائي. زوجتي لم تشعر بالراحة للقرار؛ فقد بدا واضحاً أننا نتحرك نحو المجهول دون وجود خطة عمل بديلة. حاولت أن تثني عزيمتي عن المغادرة بعد أن تحسنت أحوالنا المعيشية واستقر بنا الحال، وكوَّنا علاقات اجتماعية خاصة. ثم ما لبثت أن تفهمت ظروف مغادرتي، وبدأت تعدُّ العدَّة للعودة إلى أمريكا. كان لدي وقت كاف لإنهاء المعاملات مع جهاز الجامعة الإداري ووداع الأصدقاء، وهما عمليتان متناقضان تماماً، تحرك الأولى مشاعر الضيق والشفقة والازدراء لما تحمله من تنغيصات، وتعامل مع بعض النفوس الشحيحة التي تنتشر في الجهاز الإداري. وتحرك الأخرى أحاسيس متضاربة تختلط فيها مشاعر الحزن على فراق الأصدقاء، والاعتزاز باللحظات الجميلة التي جمعتنا خلال السنوات المثمرة الماضية.

بين رحيل ورحيل

قمت خلال الأشهر الأخيرة بمراسلة العديد من الأصدقاء، وإرسال سيرتي العلمية إلى جامعات مختلفة، ولكن كانت جميع الردود غير مشجعة، وكان أبلغها وأكثرها وقعاً ما قرأته في جواب الصديق الدكتور عبد المجيد النجار؛ الذي تسلمته في نهاية شهر آذار من عام (1999)؛ وكان يعمل في جامعة قطر. ومما جاء فيها: "وقد أسفت شديد الأسف مما ذكرتم من تقلب الأمور؛ الذي سيضرُّ لا محالة ضرراً بالغاً بالمشروع الحضاري الذي

كانت تقوم عليه الجامعة. وأما فيما يتعلق بالاستفسارات التي طرحتموها في الرسالة، فإنني أفيدكم بأن الجامعات في هذه المنطقة عموماً هي جامعات "مهنية" يشعر العامل فيها أنه يؤدي مهنة، وربما يفيد بعض الفائدة من خلالها، ولكن ما طرحته مما فهمت منه مواصلة المشروع الرسالي الذي رأيته في جامعتكم هناك، أو في المعهد، فهو أمر بعيد في مثل هذه الجامعات، وذلك بالإضافة إلى المستوى الضعيف للطلاب وللمنهج التلفيقي الضارب، وذلك كله كثيراً ما يصيب أصحاب الرسالات بإحباط كبير". رسالة عبد المجيد جاءت بعد أيام من وصول رسالة من أحمد البغدادي، رئيس قسم العلوم في جامعة الكويت، يعتذر فيها عن عدم إمكانية قبولي أستاذاً في القسم، لعدم تحقيقي "لشرط التسلسل الأكاديمي وفقاً لشروط التعيين في جامعة الكويت، والتي تنصُّ على أن يحوز المتقدم للعمل على التسلسل الأكاديمي (بكالوريوس - ماجستير - دكتوراه فلسفة) في التخصص المطلوب"، والتي لا تسمح لذلك بتعيين أستاذ علوم سياسية حاصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة المدنية.

الرسالتان الأخيرتان اللتان كتبتهما قبل مغادرة ماليزيا كانتا من نصيب الدكتور شاندرا مظفر؛ نائب رئيس حزب العدالة، والسيدة "وان عزيزة" زوجة أنور ورئيسة حزب العدالة. رسالتي لشاندرا؛ الذي عرفته مفكراً وزميلاً في العديد من الندوات والنقاشات، ومن خلال تعاملي مع "حركة تطوير عالم عادل" التي كان يترأسها، كانت للتعبير له عن أسفي لقرار فصله من جامعة ملايا التي يعمل فيها بسبب مواقفه السياسية المعارضة لسياسات الحكومة، ولتأكيد تأييدي لمواقفه الأخلاقية والإنسانية النبيلة في الظروف الصعبة التي كانت تمرُّ بها ماليزيا. كما هنأته على المشاركة في تأسيس حزب العدالة المعارض لحكومة مهاتير في ظروف صعبة. رسالتي لزوجة أنور حملت مشاعر التقدير للصعوبات التي تمر بها أسرتها؛ بدءاً بأنور، واستنكاري للحكم الذي أصدرته المحكمة ضده. كما عبرت في رسالتي عن حزني للوضع السياسي العام الذي خلفه عزله واستبعاده عن الحياة السياسية، وحملتها السلام له وتمنياتي بالفرج القريب.

اتصفت الأسابيع الأخيرة بلقاءات الوداع على المستوى الشخصي بين الأصدقاء الكُثُر؛ الذين تعرفت عليهم خلال السنوات السبع الماضية، وعلى مستوى المؤسسة التي أنتمي إليها. أنا بطبيعتي لا أحبُّ المراسيم الاحتفالية، ولكنني كنت سعيداً بلقاء أصدقاء أحببتهم، وسعدت بالتعرف عليهم والعمل معهم. نظم قسم العلوم السياسية حفلة وداع خاصة بأعضاء الهيئة التدريسية في القسم، كانت مناسبة لي لشكرهم على روح الأخوة والتعاون. ونظمت إدارة الجامعة حفل وداع رسمي، دعت إليه عدداً كبيراً من طلبتي وأساتذة الجامعة، وشارك فيه مدير الجامعة، الصديق كمال حسن الذي سبق وورطته برحلة مندناو. تكلم مدير الجامعة وبعض الأساتذة كلاماً طيباً في لحظات الوداع الصعبة، وتحدثت عن اعتزازي وتقديري للمؤسسة التي ساهمتُ مساهمة متواضعة في تطويرها، وبالصداقات الكثيرة التي كونتها داخل الهيئة التعليمية والإدارية، ومع عديد من الطلاب الذين لعبوا دوراً مهماً في الجامعة وخارجها. وقدم لي الدكتور حزيزان؛ الذي كلف أن يكون عريف الحفل؛ سفينة مصنوعة من مادة القصدير نيابة عن الهيئة التعليمية في الجامعة، وهي رمز تفاؤل في الثقافة الماليزية؛ لأن من يحملها معه في رحلته يعود بها إلى ماليزيا مهما طال الزمن!

حان وقت الرحيل، وبدأ العدُّ التنازلي لطيٍّ مرحلة أخرى من حياتي وبدء مرحلة جديدة. وعادت المشاعر والأفكار التي ترافق ساعات الرحيل عن المكان الذي أَلِفْناه وأَلِفَنا، وساهمنا ساعة من الزمن في بنائه وتجميله وتحسينه. وقبل رحيلي بأيام ودَّعت رجلاً كريماً عرفته لسنوات، وتبادلنا مشاعر الاحترام والتقدير، واشتركنا بنقاشات عديدة حول قضايا الجامعة خلال جلسات المجلس الأعلى للجامعة. في شهر نيسان رحل عميد كلية القانون أحمد إبراهيم عن عمر يناهز الثالثة وثمانين عاماً. كان رجلاً محترماً مجتهداً، استمر يعمل بهمة الشباب حتى لحظة وفاته. شاركت في جنازته، وألقيت النظرة الأخيرة عليه وهو مسجىً في قبره، في يوم حزين، وفي مشهد حزين يذكرنا دائماً بأن الناس التي تغادر هذا العالم لا تحمل معها شيئاً من مقتنياتها، ولا تترك خلفها أثراً يدل على وجودها إلا العمل الصالح في خدمة

الإنسـان، والذريـة الصالحـة التـي تسـاهم في تنميـة الحيـاة وتطويرهـا. كان رحيلـه الأخـير إلى زمـان ومـكان مختلفـين تمامـاً عـن زماننـا ومكاننـا، وكان رحيـلي داخـل الزمـن الـذي ألفتـه وإلى مـكان مألـوف لـدي، ولكـن في سـياق ظـروف جديـدة ومسـتقبل مجهـول. مشـاعري التـي رافقـت رحيـلي عـن ماليزيـا كانـت في جـزء مهـم منهـا مشـاعر حـزن عـلى الفـراق، ولكنهـا كانـت في جـزء آخـر مشـاعر ترقـب وأمـل ببـدء صفحـة جديـدة، والسـعي لبنـاء لحظـات أخـرى جميلـة ومفيـدة. كانـت وجهتـي إلى ولايـة فيرجينيـا حيـث تقـع مكاتـب المعهـد. كنـت أحمـل الكثـير مـن الأفـكار والمشـاريع التـي بـدأت التحضـير لهـا قبـل سـفري، وفي مقدمتهـا مـشروع إنشـاء مركـز يهتـم بقضايـا التنميـة في البلـدان التـي تعـاني مـن تحديـات الفقـر ونقـص المـوارد، في إفريقيـا وجنـوب آسـيا وجنـوب شرق آسـيا. حـضرت الأوراق والميزانيـة والبنيـة الهيكليـة لتأسـيس مركـز التـوازن التنمـوي، وبقـي القيـام بالخطـوات العمليـة والإجـراءات الفعليـة؛ لتحويـل الفكـرة إلى حقيقـة في محطتـي القادمـة.



6

اختلاجات الفكرة وإشكاليات الممارسة

(2003 – 1999)

غادرت مطار كوالالمبور بصحبة زوجتي وأولادي الثلاثة، حطت بنا الطائرة في مطار أتلانتا في جنوب الولايات المتحدة؛ فقد قررنا أن تمكث رزان والأولاد وقتاً عند أختها المقيمة في تلك الولاية، بينما أمضي الوقت في فرجينيا للبحث عن المكان المناسب لإقامتنا. اشتريت سيارة متوسطة الحجم بعد وصولي بعدة أيام، وركبتها باتجاه مدينة هرندن في ولاية فرجينيا حيث تقع مكاتب المعهد. عندما وصلت كان عبد الحميد وجمال خارج البلدة، والتقيت بأحمد التوتنجي، وفتحي الملكاوي الذي عين مديراً تنفيذياً للمعهد. انشغلت في الأيام الأولى في البحث عن بيت مناسب، ولم تكن المهمة بالبساطة التي توقعت. فكانت جميع طلبات الاستئجار تُرفض لعدم حصولي على الدرجة الكافية في تقريري المالي. وأدركت بعد فترة وجيزة أن التقرير المالي يتطلب مستوى أعلى من تعاملات القروض والأداء المصرفي لم أكن أملكه بعد غياب طويل تبع تخرجي من الجامعة؛ لذلك انتهى البحث بالحصول على شقة في مساكن مدعومة من حكومة الولاية مخصصة لذوي الدخل المحدود. كان بطبيعة الحال دخلي محدوداً ومدخراتي ضئيلة، ولم يكن لدي عرض عمل، وكنت أسعى لتأسيس مركز التوازن التنموي غير الربحي بالمبلغ القليل الذي ادَّخرته؛ والذي كان يكفي لبضعة أشهر.

سجلت أولادي في المدرسة الابتدائية العامة القريبة من البيت. كانت مدارس شمال فرجينيا من المدارس المتميزة في الولايات المتحدة، زودت كل منها بوحدة خاصة لمساعدة الطلبة الجدد القادمين من ولايات أخرى،

أو من دول أخرى، على تحسين قدراتهم للوصول إلى المستوى الدراسي المقبول. تمكنت ابنتي لبنى من الاستمرار في المستوى الدراسي الذي أتمته في ماليزيا، في حين اضطرت رهف بعد فترة تجريبية إلى الانتقال إلى مستوى دراسي أدنى لتحسين أدائها. لم تلبث لبنى أن واجهت صعوبات في التأقلم اجتماعياً مع الجو الجديد، مما اضطرنا إلى إخراجها فترة سنتين، وتسجيلها في مسار التعليم المنزلي الموازي للتعليم العام. التعليم المنزلي في فرجينيا كان متقدماً؛ فقد كانت هناك رابطة لأسر الأولاد الخاضعين لهذا النوع من التعليم تقوم بنشاطات بديلة. كذلك وفرت حكومة ولاية فرجينيا مناهج وامتحانات لمساعدة الأولاد وأسرهم على التحصيل العلمي دون المشاركة في المدارس الرسمية. وكنت أتعاون مع صديق مقيم في حي قريب لتعليم ابنتَيْنا؛ فكنت أوفر لهما درسين أسبوعيين في علوم اللغة والتاريخ، وكان يوفر درسَيْن في الرياضيات والفيزياء. كانت ابنتي لبنى تحضر دروساً خاصة يومية باللغة العربية في المركز الإسلامي. كما التحقت بمؤسسة للتعليم الخاص تقدم دورات لتطوير مهارات الكتابة الأدبية. وكانت رابطة التعليم المنزلي في ذلك الحي تنظم رحلات إلى المتاحف الكثيرة الموجودة في العاصمة؛ لتزويد الأولاد بمعلومات عن التاريخ الطبيعي والفلك. استمرت الأمور بهذه الطريقة لمدة سنتين قبل أن تعود إلى التعليم الرسمي للتابع دراستها بتفوق.

قبيل عودة لبنى إلى المدرسة العامة قررت التزام الحجاب، والذي أصبح في المجتمعات الغربية رمزاً للهوية الإسلامية، فضلاً عن كونه فعلاً إيمانياً لدى العديد من الفتيات المسلمات. بادرتني يوماً قائلة:

- بابا، أريد أن ألبس الحجاب مثل صديقتي مريم.

تفاجأت من طلبها لبس الحجاب في سنٍّ صغير نسبياً. كنت حريصاً على أن تكون واعية بمعنى ما تقوم به، فسألتها:

- هل فكرت جيداً بالأمر؟ أرجو أن تأخذي وقتاً كافياً ولا تتعجلي.

لم يدفعها كلامي للتردد، بل قالت بلهجة أكيدة:

– نعم فكرت في الموضوع، وتحدثت مع ماما، وأنا مستعدة لذلك.

التزمت لبنى باللباس الذي تحول إلى شعار يميز المسلمات في المجتمع الأمريكي ذي الأغلبية المسيحية. ثم تبعتها رهف بعد سنتين، في عمر مقارب، وخلال المرحلة نفسها. بعد أشهر عديدة من اختيارها الزي الجديد الذي ميزها عن زميلاتها في المدرسة، جاءت إلى البيت بعد انتهاء الدوام المدرسي، وهي غاضبة لتخبرني بأن إحدى زميلاتها التي تشترك معها في باص المدرسة حاولت خلع حجابها بالقوة، قبل أن تستسلم تلك الفتاة وصديقاتها إلى نوبات الضحك الكيدي. رفعت سماعة الهاتف واتصلت بالشرطة وأعلمتهم برغبتي في تسجيل محضر عن الحادثة. جاءت شرطية إلى البيت وأخذت الإفادة من لبنى عما جرى. في اليوم التالي ذهبت ولبنى إلى مدرستها والتقينا بالموجهة المسؤولة عنها، وطلبت من لبنى شرح ما حصل. بالفعل شرحت لبنى الأمر بهدوء، وأخبرت الموجهة أنها مستاءة من عمل الطالبة، وغير راضية عما حدث. بدوري أخبرت الموجهة أنني سجلت محضراً وحفظته لدى الشرطة المحلية، ولكنني أفضل أن تقوم المدرسة باتخاذ الإجراء الرادع. طلبت الموجهة بعض الوقت لمناقشة الموضوع مع الإدارة وإعلامي بالقرار. في اليوم التالي اتصلت بي وأعلمتني أن إدارة المدرسة قررت منع الطالبة من استخدام الباص الذي كان يقلُّ لبنى عقاباً تأديبياً لها على اعتدائها. شكرت الإدارة على اتخاذ قرار مناسب، وشعرت بارتياح لأن قرار المدرسة سيعيد ثقة لبنى بنفسها، وبقدرتها على التصدي لاعتداء أي شخص آخر عليها، وسيكرس لديها نهجاً لمواجهة المشكلات بفعالية. في مساء اليوم تحدثت مع لبنى، وأكبرت فيها اتخاذها الموقف الصحيح بدفاعها عن حقوقها، وتقديمها شكوى رسمية. ثم أخبرتها بالإجراء الذي اتخذته المدرسة استجابة لشكواها. بدت علامات الرضا والارتياح على محياها لدى سماعها قرار المدرسة. شعرت لبنى من خلال تجربتها الشخصية، وفي مرحلة مبكرة من عمرها، أن ثمة إجراءات تستطيع القيام بها للأخذ بزمام المبادرة والدفاع عن حقوقها. وبالفعل ساهمت تلك التجربة المبكرة في تنمية ثقتها بنفسها، وأعطتها الشعور بالقدرة على حماية نفسها.

كانت لبنى ورهف تشعران بهويتهما الخاصة، ولكنهما لم يترجما هذا الاختلاف إلى انعزال عن النشاط المدرسي، وانطواء عن محيطهم الاجتماعي. على العكس، دفعهما اختلاف الهوية إلى الاندماج في الأنشطة الطلابية بصورة واضحة. فانتسبتا إلى مجلس الطلاب في المدرسة، وشاركتا في معظم لقاءاته ونشاطاته، وتحملتا كامل المسؤوليات المرتبطة بتلك العضوية، من خدمات ومهمات تطوعية. كما ساهمتا في فريق المناظرة المدرسي، وفي الأعمال المسرحية والنشاطات الرياضية. عندما لم تتمكن رهف من الالتحاق بفريق كرة السلة في المرحلة الإعدادية، تطوعت في إدارة فريق المصارعة الرومانية؛ فكانت ترتب جداول التدريب، وتنظم المباريات مع الفرق الأخرى. وكنت ووالدتهما نشجع مشاركتهما وندعم قراراتهما. بالإضافة إلى المشاركة في نشاطات المدرسة، شاركت لبنى ورهف في تنظيم الحفل السنوي الذي كانت الجالية الإسلامية في بلينفيلد تعدُّه لتعريف طلاب المدرسة بالدين الإسلامي، وأوجه تشابهه مع الديانة المسيحية واختلافه عنها. وكنت حريصاً على دعم خياراتهما، وتدريبهما على تحمل المسؤولية منذ فترة مبكرة. وبذلك تحولت هويتهما الخاصة إلى مصدر للفخر والثقة، ورغبة في المساهمة في الحياة المدرسية، والتفوق في الدراسة. وانعكست لاحقاً على نشاطاتهما الطلابية والاجتماعية بعد انتهاء المرحلة المدرسية.

مع بلوغ لبنى ورهف المرحلة الجامعية، واطلاعهما على حوار زميلاتهما المسلمات حول الحجاب، واطلاعهما على اختلاف المواقف والآراء، كان سؤال الإلزام والاختيار يتردد في أذهانهما. كانت لبنى بصورة خاصة مهتمة في معرفة حكم الحجاب، بعيداً عن الأعراف والعادات السائدة. وكنت أبين لها الخلاف القديم المتجدد حول حدوده والقدر الواجب من الحشمة في اللباس، وأسعى إلى وضعه ضمن السياق الحقيقي حول ارتباط شكل الحجاب بالأعراف. كنت بطبيعة الحال أرفض محاولات بعض المتشددين لتحويل الحجاب إلى مسألة كفر وإيمان، أو هداية وضلال! فكنت أؤكد لهما بأن لبس الحجاب وشكله ومدى إلزامه مسألة تعود إلى قناعة المرأة، وأن ثمة قدر من الخلاف على كيفياته، يتعلق باختلاف تفسيرات النصوص، وباختلاف السياق

الاجتماعـي والعـادات والأعـراف. وكنـت أطلـب منهـما البحـث في هـذه المسـألة بالرجـوع إلى الكتابـات المتنوعـة حولـه، واتبـاع قناعاتهـما الشـخصية وتقديمهـا على إرضـاء النـاس أو الأهـل أو الأصدقـاء. فالرضـا المطلـوب هـو رضـا الحـقّ جـلّ وعـلا، والضمـير الهـادي إليـه. كـما كنـت أؤكـد لهـما أن عـدم التـزام مسـلمات بغطـاء الـرأس لقناعـة مختلفـة، أو بسـبب ضعـف متصـل بسـياق اجتماعـي خاص، لا ينفـي الإيـمان عنهـن، ولا يقلـل مـن طاعـات أخـرى يلتزمـن بهـا، ولا يلغـي سـلوكياتهن الأخلاقيـة والتزامهـن المبدئـي، ولا ينفـي سـعيهن للتقـرب إلى الله. فالحجـاب وتحقيـق الحشـمة في نهايـة الأمـر هـو فعـل أخلاقـي إيـماني، ومسـؤولية للمـرأة، وليـس أداة بيـد الرجـل أو المجتمـع يفرضـه كيـف يشـاء، ودون احـترام لخطـوط الاختـلاف والتنـوع والخصوصيـة والقـدرة الشـخصية.

تجاذبات المعرفة وتضارب الرؤى

بعـد إحضـار أسرتي إلى هرنـدن، بـدأت أذهـب بانتظـام إلى مكتـب المعهـد، ولم يكـن لـدي عـرض للعمـل هنـاك. وكنـت شـخصياً أعتقـد بـأن وجـودي في مكتـب المعهـد مرحلـة مؤقتـة ريثـما أتمكـن مـن تأسـيس مـشروع أعـددت خططـه وأوراقـه خـلال الشـهور الأخـير قبـل مغـادرتي ماليزيـا. طلبـت مـن أحمـد التوتنجـي في الأسـبوع الأول مـن وصـولي مكتبـاً لجلـوسي، فاعتـذر لضيـق المـكان، لكـن الدكتـور فتحـي شـعر بالحـرج مـن الموقـف وعـرض عـلي إعطائـي مكتبـه. كان عرضـاً كريمـاً مـن فتحي، وشـكرته على بادرتـه الكريمـة، وأصررت أن يبقـى في مكتبـه. ولم أكـن بطبيعـة الحـال أسـعى إلى منافسـته عـلى مكتبـه أو موقعـه. وتحـول البحـث عـن مكتـب إلى مشـكلة تتطلـب حـلاً. حاولـت مشـاركة أحـد العاملـين في المعهـد اسـمه طـارق، وكان عنـد وصـولي يعمـل في المعهـد موظفـاً بـدوام جزئـي؛ يحـضر يومـين في الأسـبوع ولمـدة لا تتجـاوز السـاعات القليلـة، رأيتـه يومـا جالسـاً إلى مكتبـه، فألقيـت عليـه التحيـة، ثـم قلـت:

– ممكن استخدام مكتبك في أوقات غيابك بعيداً عن العمل؟

نظـر إلي وهـو يحـاول فهـم دلالـة مـا أقـول، ثـم تقطـب جبينـه وارتفـع صوتـه، وأجابنـي بنـبرة حـادة:

– كيـف تجلـس في مكتبـي.. أخـي لـن أسـمح لـك بأخـذ مـكاني.. أرجـوك ابحـث عـن مـكان آخـر!

تفاجـأت بإجابتـه المتوتـرة، وأدركـت أنـه ذهـب في تفكـيره بعيـداً، ورأى في طلبـي غـير مـا قصـدت. صوتـه المرتفـع وغضبـه عكـس مخاوفـه، فـرأى في سـؤالي هـذا تهديـداً للعمـل الـذي كان يعتمـده لتغطيـة حاجاتـه وحاجـات أسرتـه المعيشـية. نظـرت إليـه بإشـفاق وقلـت لـه بهـدوء:

– حصل خير.. واضح أني أخطأت بسؤالك.. أرجو أن تنسى الموضوع.

عزمـت عـلى تجاهـل ردود فعلـه الحـاد والتمسـت لـه عـذراً، لكنه لم يسـامحني عـلى طلبـي هـذا الـذي اعتـبره إسـاءة شـخصية لـه، وشـارك في أوهامـه أصدقـاء آخريـن. قـررت أخـيراً أن أنشـئ مسـاحة جديـدة لتكـون مكتبـي في نهايـة ممـرٍّ مغلـق، وكلفـت موظـف الخدمـات بوضـع طاولـة في ذلـك المـكان قـرب مكتـب صغـير تجلـس فيـه مسـاعدة إداريـة؛ هـي السـيدة حاجّـة أبـو جديـري. لكـن حاجّـة؛ وهـي أرملـة أحـد رواد العمـل الإسـلامي في أمريـكا، كانـت إنسـانة كريمـة؛ بـكل مـا للكلمـة مـن معنـى، فرفضـت جلـوسي في الممـرّ، وأصرَّت عـلى إعطائـي مكانهـا الصغـير؛ لتنتقـل هـي إلى المـكان الـذي اخترتـه لنفـسي. طبعـاً كان ذلـك يحصـل دون أن يحـاول مديـر المكتـب آنـذاك الدكتـور أحمـد التوتنجـي توفـير مـكان مناسـب لي، ربـما بسـبب مشـاغله الكثـيرة، وربـما لأنـه لم يكـن يـرى لوجـودي في مكاتـب المعهـد فائـدة ترتجـى. طلـب منـي بعـد أيـام مـن عمـلي في المكتـب القيـام بترجمـة رسـالة كتبهـا فتحـي ملـكاوي، فاعتـذرت منـه لأن الترجمـة تحتـاج إلى مهـارة لم أُعِـدّ نفسي لهـا. لم يكـن ذلـك تكـبراً للقيـام بترجمـة رسـالة، فلـم يكـن هـذا ديـدني. كنـت لا أجـد عمـلاً خدميّـاً لا يليـق القيـام بـه، مهـما انخفضـت قيمتـه في عيـون النـاس، عنـد بـروز الحاجـة إليـه، أو عنـد غيـاب الشـخص المكلـف بـذاك العمـل. وكنـت أعتـبر خدمـة النـاس شرف عظيـم. وكنـت أسـعد بالتطـوع للقيـام بالخدمـات العامـة، وأتقـدم سـعيداً للتطـوع لخدمـة المحتاجـين، والقيـام بالأعـمال الخدميـة البسـيطة عنـد الحاجـة. كان اعتـذاري لشـعوري بـضرورة تنبيـه أحمـد إلى أن لـلإدارة أصول، ولاسـتخدام

المهارات المتوفرة قواعد ومعايير، وأن استجابتي لطلباته العفوية تضييع لأصول العمل وأولويات توزيع المهام والمسؤوليات. لكن الرسالة لم تصل، وعلاقتي بأحمد بدأت تتدحرج نحو القيعان. قررت إثارة الموضوع في جلسة بين مديري المعهد، وأعلنت بالصوت الملآن بأنني لم أشعر منذ أن وصلت إلى المعهد بأنني في مركز فكري، بل في مكتب خدمات يديره أحمد التوتنجي.

لم يكن ثمة خلاف شخصي مع أحمد، فقد كنت أُكنُّ له التقدير والاحترام لجهوده في خدمة الأقليات المسلمة في آسيا وإفريقيا. وكنت على دراية بالجهود الكبيرة التي كان يبذلها في جمع التبرعات لبناء المدارس والمستوصفات وإعانة المحتاجين. وكنت في أسفاري إلى آسيا وإفريقيا أسمع الكثير من الثناء عليه وعلى جهوده الخيرة في كل مكان أذهب إليه، ويحملني قادة منظمات المجتمع المدني سلامهم إليه. ولكنني كنت أعتقد بأن نشاطاته تلك على أهميتها خارج إطار رسالة المعهد. وقعت كلماتي أخيراً على آذان مصغية، ووافق كلامي هوى عبد الحميد؛ فطلب مني تقديم تصور لإعادة هيكلة المعهد. قدمت التصور خلال أيام، وقام عبد الحميد بتعديله. المخطط التنظيمي الجديد أعطى عبد الحميد مسؤولية رئاسة المعهد، وجعل جمال نائباً للشؤون العلمية، وهشام نائباً للشؤون الإدارية، وأحمد أميناً للسر. كما تَمَّ تسميتي مديراً للأبحاث، وتسمية محيي الدين عطية مديراً للنشر. وخصص المعهد لي راتباً شهرياً ضئيلاً لأسباب لم أطَّلع عليها ولم أسأل عنها، وكان من الضآلة بحيث تساوى مع الراتب الذي خصصته لأول مساعدة لي وظفتها في المعهد بعد حصولها على الإجازة الجامعية! عقدت عدة اجتماعات للعصف الفكري مع مديري المعهد، ثم عكفت على تطوير مقترح ووضع أهداف لخطة البحوث، وتحديد أولويات البحث. ثم استكملت الجهد بوضع خطة بحثية تقوم على تعاون مكاتب المعهد المنتشرة في أوربا وإفريقيا وآسيا لتحقيقها. وزعت المقترح وفوجئت بأحمد يقول بعد عرضي للخطة بأنه لم يفهم شيئاً منها، ووافقه هشام، وسكت عبد الحميد وجمال وفتحي. كنت أعلم أن أحمد لا يملك خبرة في الدراسات الاجتماعية والفلسفية، وغير قادر

على تقييم الأعمال الفكرية. قرأ مرة بحثاً كتبه باحث شاب متميز؛ فقال لي: «لم أجد في المقالة شيء مهم»، وأضاف: «أستطيع أنا أن أكتب مقالة مثلها»! وكان متفرغاً للعلاقات العامة وجمع التبرعات، وكان ماهراً في ذلك. ولكنني فوجئت بأنني أغرد خارج السرب؛ فالسكوت في معرض الكلام رضا. خطتي البحثية كانت تسعى إلى إحداث نقلة من التركيز على المسائل المنهجية إلى البحث في القضايا الحيوية التي تشغل المجتمعات الإسلامية، وتطوير أدبيات تسلط الضوء على البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتعمل على تطوير حلول نظرية وعملية في تلك الميادين.

تمنيت أن اللجنة المخولة بتقييم مقترحي تألفت من متخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية والشرعية، لكنني لم أستسلم لسلبية غير المتمرس، ولا لصمت العارف؛ فقمت بإعداد خطة تفصيلية من اثنتي عشرة صفحة لتوضيح ما عرضته في الجلسة السابقة. أرسلت الخطة لمديري المعهد، وحددت يوم 11 كانون الثاني (2000) لمناقشتها. الخطة الجديدة حافظت على الأبحاث المتعلقة بتوضيح المنهجية وتطويرها، التي ركز المعهد عليها منذ تأسيسه، لكنها ضمت إليها محاورَ ترتبط بهموم المجتمعات الإسلامية ومشكلاتها العملية. وسعت الخطة إلى تعميق الفهم في قضايا نظرية الوجود والمعرفة والتاريخ، والتركيز على تقديم نماذج لتجاوز القصور التعليمي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي. كما قدمت الخطة توصيفاً لعدد من المشاريع البحثية، وحددت أسماء باحثين محتملين للمشاركة في فرق بحثية مكونة من خيرة علماء الاجتماع والشريعة في العالم الإسلامي. وشملت المشاريع، على سبيل المثال، دراسة "بنية وطبيعة المجتمع المدني التاريخي"، ودراسة "الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة، وتطوير خريطة للقيم والمفاهيم السائدة"، ودراسة "النماذج القرآنية الاجتماعية وعلاقتها بالمجتمع المعاصر"، ودراسة "أنساق التبادل الثقافي بين الحضارة الإسلامية والغربية"، وجملة مشابهة من المحاور البحثية. لم يؤدِّ اللقاء إلى تفاهم، واستمر الموقف الرافض لمقترحاتي دون تقديم تعديل واحد، أو ذكر سبب معين للرفض. الرفض جاء هذه المرة من عبد الحميد.

كان عبد الحميد أبو سليمان أكثر الناس رفضاً – هذه المرة – للخطة الجديدة، ولاقتراحات لاحقة هدفت إلى تطويرها. وبعد أخذ وردٍّ معه لعدة أسابيع لم أقنعه، ولم يقدم هو بديلاً واضحاً لما كنت أضع من أهداف وخطط؛ بل رفض فكرة أساسية اقترحتها في أن ندعو إلى مؤتمر لبحث آفاق العمل الفكري في المرحلة القادمة، وكنت أشعر بأن تركيز قيادة المعهد على اللقاءات الإدارية للمستشارين لا تتعاطى مع رسالة المعهد واستراتيجيات عمله. بعد عقدين من عمل المعهد كانت مسألة تقييم مساره ومراجعة أولوياته وخططه أمراً ضرورياً. رفض عبد الحميد كلَّ الاقتراحات التي تقدمت بها، وكان هو عالم الاجتماع الوحيد في الفريق الإداري، والشخصية المهيمنة في إدارة المعهد. لم يلبث بعد أسابيع من رفضه الخطة أن فاجأني بتعييني مديراً للنشر، وتعيين محيي الدين عطية مديراً للأبحاث. هذا القرار أظهر لي بأن المعهد توقف عن العمل بصفته مؤسسة معرفية، وتحوَّل إلى مكتب يتحكم بتوجهه من يتولى رئاسته وتمويله. بدأت أشعر أنني أتحرك عكس التيار، وأن بنية المعهد الأساسية التي تقوم على أساس مستشارين علميين هي في حقيقتها بنية إدارية هرمية؛ تسعى لتحقيق أولويات من يقف على رأس الهرم، ويأخذ قراراته بعيداً عن الحوار والقرار الصادر عن مجلس علمي. ابتعدت عن ملف الأبحاث وأنا غير راضٍ عن المقاربة التي اختارها فريق المعهد؛ والتي تعوِّل على رغبة عبد الحميد بتكريس الأولويات التي وضعت في منتصف الثمانينيات. كنت أرى ضرورة البناء على تلك الأولويات، وتطوير أولويات جديدة أكثر تفاعلاً مع احتياجات اللحظة وتطور الفكرة. تطوير الأولويات كان في تقديري ضرورياً لتطوير عمل المعهد، والانتقال إلى خطة عمل أكثر فاعلية، تبني على الإنجازات المهمة التي حصلت نتيجة لأولويات تبنّاها المعهد قبل عقدين، والتي نجمت عن مداولات وتبادل آراء علماء قديرين، لا عن إداريين بعيدين عن الحوارات القائمة في الدوائر العلمية والمعرفية في الشرق والغرب. منذ اللحظات الأولى لتسلمه ملف الأبحاث، تحكم عبد الحميد به تحكماً كاملاً، واستخدم ثقله ونفوذه الكبير لتمرير الأولويات التي ارتآها؛ إذ لم يكن محيي الدين باحثاً

أو كاتباً أو متخصصاً في قضايا الفكر؛ بل كان شاعراً مرهفاً، وإدارياً منظماً، ومثقفاً مهتماً، ساعد عبد الحميد في تمرير تصوراته، دون أن يطالبه بالرجوع إلى مجلس بحثي من المتخصصين. بينما كان ملف النشر الذي كلفت به تحت سيطرة الصديق جمال البرزنجي، بوصفه رئيسَ لجنة النشر ونائب الرئيس للشؤون العلمية. ولم يكن لدي الكثير لأساهم به في هذا المجال، سوى تقديم الرأي حول الأبحاث المقدمة خلال لقاءات لجنة النشر. ولم يمضِ وقت طويل حتى قدم محيي الدين استقالته، وقرر ترك المهمة المستحيلة التي كلف بها.

حلم التوازن التنموي بقي حلماً

عكفت بعد قرار إخراجي من دائرتي الطبيعة، دائرة إدارة البحث العلمي، على العمل على ملفات ثلاثة رئيسية: مركز التوازن التنموي، ورابطة علماء الاجتماعيات المسلمين، والمجلة الأمريكية لعلوم الاجتماعيات الإسلامية. بعد وصولي بأشهر قليلة بدأت بتأسيس مركز التوازن التنموي، وسجلته في ولاية فرجينيا في خريف عام (1999)، وشكلت مجلس إدارة شمل كلًّا من ممتاز أحمد، أستاذ السياسة في جامعة فرجينيا، ومازن هاشم رئيس مركز الحضارة والثقافة؛ الذي كان انتهى حديثاً من تقديم أطروحة الدكتوراه في علم الاجتماع، وسليمان نيانغ رئيس قسم الدراسات الإفريقية في جامعة هاورد في العاصمة الأمريكية. وعمد المجلس لاختياري مديراً تنفيذياً باعتباري صاحب المبادرة. وتم كذلك إنشاء مجلس استشاري دولي للمساعدة في تطوير الأهداف والخطط والعلاقات، كان من أعضائه مفكرين وناشطين في الخدمة المدنية؛ منهم علي المزروعي، وجان أسباسيتو، وأحمد داود أوغلو، ومنظور عالم، وآخرين. وسجل المركز بوصفه «مؤسسة ثقافية خيرية عالمية تسعى إلى خدمة المناطق النامية». وتم تحديد أهداف ستة للمركز:

1- نشر الوعي بالتحديات التي تواجه المجتمعات النامية، وخلق حوار بين المهتمين لفهم حقيقة التفاوت التنموي بين المجتمعات، وآليات تجاوزه أو الحدّ من آثار السلبية.

2- تطوير دراسات لتفهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المرتبطة بظاهرة التخلف.

3- توفير الدعم المالي وتدريب المعلمين في المجتمعات النامية

4- المساهمة بتحريك الموارد البشرية لدعم برامج التنمية، من خلال جمع التبرعات، وتدريب فرق محلية ودولية لمساعدة المناطق التي تعاني من نقص في الموارد والإمكانيات.

كما تم تحديد ست دول مستهدفة بجهود المركز هي: ألبانيا، والبوسنا، والهند، والفليبين، وبنغلاديش، وتايلاند. وكنت على معرفة مباشرة بالأوضاع المحلية لمعظم تلك الدول، والصعوبات التي كانت تمر بها، وأتلقى تقاريرَ دورية من منظمات هيئة الأمم المتحدة، ومنظمات المجتمع المدني المعنية بمسائل التنمية وحقوق الإنسان. وبدأت فعلاً بالتعريف بالمركز ودعوة قياديي مؤسسات المجتمع المدني المحلية، ونخبة من المثقفين، إلى ورشات لتوفير دعم لهذا الجهد. جمع المال لم يكن خبرة نامية عندي، ولم يسبق لي أن شاركت بأنشطة سابقة مرتبطة به مباشرة، بل ارتباطي بهذا الموضوع من باب المشاركة الخطابية والفكرية. لكنني مع ذلك بدأت حملة لجمع التبرعات، وحصلت على دعم مالي أولي لتأسيس نواة مركزية، أثمرت ما يكفي لتغطية بعض النفقات الإدارية البسيطة، وتغطية تكاليف الموقع الشبكي للمركز والمراسلات الخاصة بمجلة دورية علمية نشرت على الشبكة العنكبوتية، ونشرة دورية مطبوعة اسمها «الاتجاهات العالمية». استمر المركز بضع سنوات، ونجح جزئياً في تحقيق الهدفين الأول والثاني، وبالتحديد مهمة التوعية، وإثارة مواضيع ترتبط بحقوق الإنسان وحاجات الدول النامية، من خلال ندوات نظمها المركز وعبر الدوريات التي أصدرها. ولكنه لم يتمكن من تحقيق الهدفين العمليين الثالث والرابع، بسبب غياب الدعم المالي، وبسبب انشغالي بعدد من الملفات الأخرى حالت دون التفرغ لتحصيل الدعم الضروري. طلبت دعماً من فريق المعهد، وحاولت إقناع جمال بدعم المشروع. وبعد أخذ وردّ سألني جمال إذا كنت أسعى

للقيام بالعمل بصورة مستقلة عن المعهد أو من خلاله، فأجبته بصراحة بأن الاحتفاظ باستقلالية المشروع هو الخيار الأفضل. اعتذر جمال في نهاية الأمر عن دعم المشروع، ولم أتمكن من معرفة الأسباب الحقيقة لاعتذاره، فقد كان دائماً مقتصداً في كلماته.

في مطلع عام (2001)، وبعد مرور عام ونيف على إنشاء المركز، وقعت مذكرة تفاهم مع مؤسسه اسمها «عملية سفاري للتغذية»، يرأسها شاب من أصول كينية هو عمر ديفز للتعاون بين المؤسستين. كما تم إجراء تفاهمات أولية للتعاون مع مؤسسة «مساعدات الشمال»؛ التي يرأسها عبد الله عابدي لدعم مشروع تقوم عليه في كينيا. ولكن أحداث الحادي عشر من أيلول، وانشغالي المتزايد في التزامات متعلقة بتداعيات الأحداث على الجالية والمعهد، وبمسؤوليات رابطة علماء الاجتماعيات المسلمين، وتحرير المجلة الأمريكية لعلوم الاجتماعيات الإسلامية، والتزامات عديدة أخرى أدت إلى تجميد المشروع بدءاً من عام (2002)، ثم إلى توقفه الكامل عن العمل مع حلول عام (2003)، وانتقالي إلى إنديانا لتأسيس مركز التنمية القيادية بالتعاون مع الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية.

من المهام التي كلفت بها مع مطلع عام (2000) إدارة تحرير المجلة الأمريكية لعلوم الاجتماعيات الإسلامية. كان شرفاً لي أن أتولى تحرير المجلة التي كنت أعتز بها، والتي فتحت لي صفحاتها منذ كتاباتي الأولى، وأنا في مرحلة التحضير لشهادة الماجستير. كانت المجلة تقوم على تقاليد راسخة، طوَّرها عدد من علماء الاجتماع والمفكرين؛ مثل الأصدقاء ممتاز أحمد وسليمان نيانغ وسيد سعيد. اخترت أعضاء هيئة التحرير، بالتشاور مع إدارة المعهد، وقمت بإعادة تشكيل المجلس الاستشاري، وضم شخصيات فاعلة على الساحة العلمية. وكانت هيئة التحرير المسؤولة عن المضمون العلمي تضم ممتاز أحمد وسليمان نيانع وأنس الشيخ علي وديلنواز صديقي وفتحي الملكاوي. وكان يساعدني في التحرير مدير التحرير إعجاز أكرم ومحررة المراجعات الدكتورة كاترين بولاك. أنشأت كذلك لأول مرة موقعاً

للمجلة على الشبكة العنكبوتية، سهَّل للقرَّاء الحصول على الأعداد القديمة من المجلة. كما وقعت عقداً مع مجموعة "لكساس نكساس" المشهورة في الأوساط العلمية، والتي توفر منشورات علمية رقمية للمكتبات وللمشتركين فيها، وذلك لتوسيع دائرة انتشار المجلة. وبدأت تقليداً جديداً في المجلة بإضافة زاوية المحرر لكتابة ملاحظات تتعلق بالبيئة المعرفية وعلاقتها بالمشكلات المجتمعية، حيث كنت أثير قضايا وإشكاليات في دائرة تقاطع البحث المعرفي والحراك المجتمعي، مثل إشكاليات تحديات التعدد الثقافي، والتطرف والصراع السياسي، وقضايا مرتبطة بمسألة الإرهاب التي أصبحت حديث الساعة بعد هجمات الحادي عشر من أيلول.

رابطة علماء الاجتماعيات بين الفكر والمجتمع

قسم كبير من وقتي أمضيته في نشاطات رابطة علماء الاجتماعيات المسلمين، بعد انتخابي نائب رئيس خلال اجتماعها السنوي عام (1999)، وانتخاب ممتاز أحمد رئيساً لها. لم يبد ممتاز اهتماماً كبيراً في مهمته الجديدة لأسباب غير واضحة، وتوليت شخصياً أعباء مسؤوليات الرئيس. ما لبث أن قدم ممتاز استقالته عام (2000) وتوليت أنا رئاستها بالإنابة، ثم انتخبت رئيساً للرابطة في عام (2001)، وبقيت في رئاستها حتى انتهاء الفترة عام (2003). كانت أولوياتي خلال سنوات عملي مع المعهد تحويل الرابطة إلى مؤسسة علمية تضاهي في تأثيرها الروابط العلمية الكبرى في الولايات المتحدة. وكان هذا يتطلب تحسين نوعية الأوراق التي تطرح في مؤتمراتها السنوية، وتوسيع دائرة المشاركة بعدما تحولت مؤتمرات الرابطة الأخيرة إلى لقاءات للتواصل الاجتماعي، وبدأت المساهمات العلمية بالتراجع. كان من ضمن خطتي لرفع الأداء دعوة باحثين شبان ناشطين في البحث والحوار في دائرة الدراسات الاجتماعية والإسلامية، وتشجيع الباحثين غير المسلمين من المهتمين في قضايا الفكر والمعرفة الإسلامية بالمشاركة. وقررت تطوير ندوات إقليمية لربط الجهود المعرفية لعلماء الاجتماع باحتياجات الجالية، وتوظيف قدراتهم المعرفية لخدمتها. كانت أولويتي المباشرة التحضير لمؤتمر الرابطة

القادم. ساعدني في مهامي عدد من الباحثين الشبان، الذين ساهموا في تطوير أبحاث جمعت بين الاهتمام العلمي المنهجي، والالتزام بحاجة المجتمعات والجاليات التي ينتمون إليها. ساعدني في مهمتي الصديق مقتدر خان الذي يعمل اليوم أستاذاً للعلوم السياسية في جامعة ديلوير، وكان آنذاك طالب دكتوراه في جامعة جورج تاون، يعدّ أُطروحته تحت إشراف جون أسبازيتو. وساعدني كذلك إبراهيم كالين الباحث التركي الذي أصبح مستشاراً سياسياً لرئيس الجمهورية التركية، وكان يحضر للدكتوراه في جامعة جورج واشنطن تحت إشراف سيد حسين نصر. وكانت الأولوية بعد تسلمي مسؤوليتي في قيادة الرابطة التحضير لمؤتمرها العام التالي. واعتمدت كذلك على مساعدتين إداريتين؛ ليلى حسين وكايلي أحمد. ليلى حسين كانت امرأة أمريكية من أسرة لبنانية تنحدر من قرية في جنوب شرق لبنان اسمها «خربت روحا». كان اسم القرية طريفاً، فكنت أسألها مازحاً بين الحين والآخر باللهجة العامية اللبنانية «ليش خربت روحا؟».

أرسلت في نهاية العام رسالة إلى أختي لينا أهنئها فيها بالتخرج والحصول على إجازة في الأدب الإنكليزي من جامعة دمشق، بعد سنوات من تأجيل التخرج بسبب إقامتها في الكويت وأشغالها الكثيرة. وأخبرتها أني علمت بخبر تخرجها من خلال رسالة أرسلتها الوالدة. ثم شاركتها بالانطباع الذي تولد عندي بعد قراءة الرسالة بما حملته من شعور الوحشة بعد ابتعاد أبنائها عنها. وختمت رسالتي بإشارة إلى عزمي على القدوم إلى الكويت لرؤيتها، وجمع تبرعات لمركز التوازن التنموي الذي بدأت آنذاك العمل على تطويره.

في نهاية عام (1999) شاركت في حلقة نقاش نظمها مركز دراسات الإسلام والديمقراطية، خلال المؤتمر السنوي لجمعية دراسات الشرق الأوسط المعروفة في الأوساط الجامعية (ميسا)، ودعيت إلى الحديث فيها إلى جانب جون أسبوزيتو وعلي المزروعي. وكانت حلقة النقاش بعنوان «هل ثمة مستقبل للديمقراطية في العالم الإسلامي؟». وتعرفت في ذلك اللقاء

على عدد من علماء الاجتماع المهتمين بالشرق الأوسط؛ أذكر منهم تشالز باتروورث، ولويس كانتوري، وتمارة سون. وكان ذلك التعارف بداية لصداقة شخصية وزمالة علمية ومعرفية.

تلقيت في العام نفسه رسالة من رضوان زيادة، الناشط السياسي السوري المعروف. وكان نشاطه المعرفي واهتمامه بالفكر هو حلقة الوصل الأولى بيننا. أعلمني رضوان في رسالته تلك أنه قرأ كتابي (**إعمال العقل**) الذي صدر حديثاً، وعمد إلى مراجعته في مجلة الملتقى. ودعاني إلى الكتابة في تلك المجلة وتقييم عدد من أعدادها أرفقه مع الرسالة. كانت تلك المراسلة بداية لحوارات بيننا في القاهرة وفي دمشق وفي الولايات المتحدة في زيارات مختلفة، وإلى شراكة في دعم جهود المعارضة السورية الرافضة للاستبداد السياسي.

شهد عام ألفين عدداً من النشاطات العلمية بادرت إلى تنظيمها أو شاركت فيها، لعل أهمها مؤتمر نظمه مركز الحضارة للدراسات السياسية؛ الذي كانت تترأسه آنذاك الدكتورة ناديا مصطفى؛ والذي عقد في القاهرة، والمؤتمر السنوي لرابطة علماء الاجتماعيات الذي قمت بتنظيمه بالتعاون مع مركز التفاهم الإسلامي المسيحي في جامعة «جورج تاون»؛ الذي يديره الدكتور جون أسبوزيتو. مؤتمر القاهرة جرى في نهاية شهر تموز وبداية شهر آب من عام (2000)، واستمر لخمسة أيام، تعرفت خلاله على ثلة من المثقفين وعلماء الاجتماعيات الشبان، أذكر منهم عماد الدين شاهين وهبة عبد الرؤوف من مصر، ورضوان زيادة وسامر الرشواني من سورية. سامر، الذي كان يدرس في جامعة القاهرة، كتب فيما بعد أحد أهم مراجعات كتابي (**العقيدة والسياسية**). والتقيت هناك بمجموعة من المفكرين المصريين المرموقين، مثل عبد الوهاب المسيري الذي ربطتني به صداقة سابقة تعود إلى أيام نشاطي العلمي والسياسي خلال زياراته المتكررة للولايات المتحدة، ثم زياراته المتكررة أيضاً للجامعة الإسلامية ومكتب المعهد العالمي في ماليزيا بعد انتقالي إليها. وحضر المؤتمر أيضاً الصديق نصر عارف الذي توطدت علاقتي به بعد انتقاله للعمل في جامعة الدراسات الإسلامية والاجتماعية؛ التي أسسها طه جابر العلواني في شمال فرجينيا؛ حيث كنت أعمل خلال

تلك الفترة مع المعهد. معرفتي بعماد شاهين توطدت خلال نشاطات عديدة شاركنا فيها، أهمها مشروع موسوعة أوكسفورد حول الإسلام الذي ترأس تحريرها، وكان يدعوني باستمرار للكتابة فيها.

كانت زيارة القاهرة مناسبة لي للالتقاء بوالدتي وأختي لينا وأخي عامر الذين حضروا للالتقاء بي، وأمضينا عدة أيام معاً بعد انتهاء المؤتمر نتعرف على معالم القاهرة. وكانت أمي تعشق القاهرة وتزورها باستمرار، لكنها لاحظت خلال تلك الزيارة اختلافاً كبيراً، وتراجعاً واضحاً في مستوى الحياة والخدمات. مظاهر الفقر والفوضى كانت واضحة لا يمكن للزائر أن يخطئها. زرنا الأهرامات ووفرت لي الزيارة الفرصة لركوب الخيل المعروض للإيجار في منطقة الجيزة. امتطيت فرساً عربياً وأرخيت له العنان في الصحراء، لأكتشف بأن مهارة ركوب الخيل لم تتفلت مني رغم تطاول الزمن. كان الفرس عربياً أصيلاً، يمكن تمييزه من حركته الرشيقة واستقرار جذعه، وثباته لدى المطاردة، وبلوغه سرعة عَدْوٍ عالية. أمضينا يومين معاً، تجولنا خلالهما في المدينة ورأينا معالمها الأثرية، وجلسنا مرات على ضفاف النيل للاستمتاع بهوائه العليل في أمسيات القاهرة الجميلة. كانت شوارع القاهرة مزدحمة وتعاني من فوضى السيارات وفوضى العمران. مضت لحظات لقاء الأهل سريعاً، ككل اللحظات الجميلة، وغادرت القاهرة عائداً إلى أسرتي الصغيرة في فرجينيا.

مواجهة التطرف وحوار السلام

شاركت في ذاك العام في مؤتمر نظمته المؤسسة المتحدة للبحوث والدراسات بالتعاون مع مركز التفاهم الإسلامي المسيحي التابع لجامعة جورج تاون في واشنطن، خلال أيام (28-26) من شهر نيسان (2000). ركز المؤتمر الذي كان عنوانه «مؤتمر الإسلام والحقبة الجديدة» على موضوعات عدة شملت قضية العلاقة بين الدين والسياسة، وقدمت خلاله ورقة بعنوان «الدين والسياسة في ماليزيا». كان موضوع العلاقة بين الدين والسياسة قد بدأ يأخذ مزيداً من اهتمامي، وبدأت أعمل النظر في الموضوع

وأسعى إلى تحليله بعيداً عن عموميات الطرح التي كانت سائدة في الأدبيات السياسية. وكانت الورقة فرصة لي للنظر في مسألة توظيف الدين من خلال شعارات جذابة تتجاهل تعقيد الحياة الاجتماعية والسياسية. رفضت في تحليلي الذي قدمته التعاطي الجزئي مع التصورات الدينية من خلال الاستخدام الانتقائي لها، وتوظيفها في الدفاع عن مصالح حزبية وسياسية ضيقة. وانتقدت في الورقة المقاربات التي تسعى للعب على أوتار الحس الديني للشعوب المسلمة، والسعي لتحريك الشارع دعماً لمواقف تحتاج إلى بحث هادئ وحوار علمي، بعيداً عن الانفعالات وإثارة المشاعر الدينية. كان طرحي امتداداً للنقد الذي بدأته في مطلع التسعينيات حول خلط العديد من الحركات الإسلامية بين الحاجة إلى ربط القيم الإسلامية بجهود بناء المجتمعات الوطنية والإنسانية من جهة، وتوظيف التراث الإسلامي دفاعاً عن الهوية الخاصة بالمسلمين، وتجاهل مسائل الشراكة السياسية بين أتباع الديانات المختلفة من جهة أخرى.

شاركت أيضاً في عام (2000) بحوار فكري سياسي حول مسار العولمة، نظمته مؤسسة الأخلاق والمعنى التي كان يترأسها آنذاك مارك لافين؛ وهو شاب ذو ميول يسارية كان يحضر آنذاك للدكتوراه في جامعة إيطالية، وعمل بعد تخرجه أستاذاً للعلوم السياسية في جامعة جنوب كاليفورنيا. كان المؤتمر تظاهرة معرفية شعبية تضمنت حلقات نقاش ومحاضرات، لعدد من المفكرين والناشطين الاجتماعيين المنتقدين لتوجهات العولمة، وسياسات العولمة التي تقودها مؤسسات اقتصادية دولية، مثل المصرف الدولي وصندوق التنمية الدولي. كان مارك لافين مهتماً بالشرق الأوسط وثقافته التاريخية، والتطورات الفكرية والسياسية فيه. وكان يرى فيه نموذجاً مهماً لمقاومة محاولات فرض رؤية العولمة الليبرالية، ومشروعاً لتطوير نموذج ناقد لتلك الرؤية. وكانت الحركة التي يمثلها مارك لافين تسعى إلى تقديم بديل يساري جديد للرؤية الاشتراكية الماركسية يربط بين الروحي والسياسي، ويوظف القيم الدينية في خدمة جهود تحقيق عدالة اجتماعية في المنظومة الدولية، وهو توجه تطابق كثيراً مع نشاطي وأُطروحاتي الفكرية. تعرفت في المؤتمر على مايكل لرنر؛

الحاخام اليهودي اليساري الذي نذر نفسه للدفاع عن حقوق الطبقات المسحوقة في المجتمع الحديث، ومن منتقدي حركة الاستيطان التي يقودها اليمين الصهيوني المتطرف. على مدى أعوام وقف لرنر إلى جانب حقوق الجالية العربية والإسلامية في أمريكا في صراعها مع اليمين الصهيوني، خاصة بعد أحداث (2001).

في خريف ذلك العام عقد مؤتمر رابطة علماء الاجتماعيات تحت عنوان «الإسلام والمجتمع في القرن الحادي والعشرين»، وكان دخول عام (2000) لحظة مناسبة للحديث عن أثر جدلية الإسلام والمجتمع المعاصر على التطورات داخل المجتمعات المسلمة، وعلى علاقتها بالحضارة الغربية في القرن الواحد والعشرين. طبعاً لم نكن ندرك آنذاك أن هذه العلاقة ستأخذ منحىً خطيراً بعد عام تقريباً من تاريخ انعقاد المؤتمر، نتيجة أحداث الحادي عشر من أيلول وتداعياتها على العلاقات الدولية. كانت الدوائر الفكرية لا زالت تبحث، بكثير من الشَّك والاستغراب، أطروحة صومائيل هانتنغتون، «صراع الحضارات»؛ وهو صراع فرض نفسه بقوة على الساحة السياسية على الأقل، بدءاً من أحداث أيلول عام (2001). شارك في المؤتمر مفكرون من مختلف أنحاء العالم؛ منهم عبد الكريم سوروش، أستاذ الفلسفة في جامعة طهران، وكان آنذاك أستاذاً زائراً في جامعة هارفرد، ومدير مؤسسة الدراسات المعرفية في طهران. وشارك كذلك أكبر أحمد أستاذ علم الإنسان الزائر في جامعة برنستن، وسفير الباكستان السابق في بريطانيا. كما شارك مراد هوفمن المفكر الإسلامي المعروف والسفير السابق لألمانيا في عدد من الدول العربية. كانت أجواء الحرية والانفتاح في الولايات المتحدة مكاناً متميزاً لطرح الأسئلة الصعبة وتناولها بهدوء ومنهجية، هذا ما جعلها محطّاً لعدد كبير من المفكرين والعلماء العرب والمسلمين؛ الذين آثروا الانتقال إليها للاستفادة من فرص الإنتاج المعرفي والحوار الفكري، كما فعل عبد الكريم سوروش على سبيل المثال، أحد أهم المفكرين الإيرانيين.

لعل أهم حدث في حياتي الشخصية في ذلك العام ولادة أصغر أبنائي؛ مكين؛ في تشرين الأول من تلك السنة. لا شيء يذكرنا بمعجزة الحياة مثل

رؤيـة روح جديـدة تنضـم للركـب البـشري. المعجـزة تظهـر واضحـة لحظـة مشـاهدة الجسـد الطـري الهامـد بعـد خروجـه مـن الرحـم، عقـب سـاعات طويلـة مـن المخـاض. تظهـر المعجـزة بجـلاء عنـد رؤيـة الجنـين الضعيـف يتنفـس الهـواء بعـد ثـوانٍ مـن خروجـه، ومـع استشـعار قدومـه إلى عالمـه الجديـد لحظـة بـدء الـصراخ بلهجـة إنسـانية لا تختلـف في نغمتهـا وطريقتهـا مهـما اختلفـت لهجـات وثقافـات العائـلات التـي يلتحـق بهـا في عالمـه الأرضي. جـاء مكـين عـلى فـترة مـن الزمـن نسـيت وأمـه خلالهـا طريقـة التعامـل مـع الرضـع، فـكان مجيئـه مناسـبة لنـا لاسـتعادة معلوماتنـا وخبراتنـا المفقـودة! اعتـماد الطـرق الأمثـل للعنايـة بالأطفـال والاهتـمام بهـم ليـس أمـراً فطريـاً، بـل ظاهـرة ثقافيـة ومهـارة مكتسـبة وجهـد مسـتمر. مـرة أخـرى جهزنـا حاجيـات وأدوات الأطفـال بعـد أن تركناهـا خلفنـا في ماليزيـا قبـل عودتنـا إلى الولايـات المتحـدة. ولكـن الـسرور الـذي أضافـه مكـين إلى الأسرة الصغـيرة، كان أعظـم مـن أي جهـد إضـافي يتطلبـه رعايـة الطفـل، وهـو جهـد دائـماً يقـع في شـطره الأعظـم عـلى الأم، ويشـارك فيـه الأب بقسـط أصغـر يتفـاوت بتفـاوت الأسر والمشـاغل والثقافـات.

التقيـت في مطلـع عـام (2001) بالناشـطة الحقوقيـة الدكتورة عزيـزة الهبري؛ خـلال نـدوة دعتـي إليهـا المنظمـة التـي كانـت تترأسـها آنـذاك، منظمـة محاميـات مسـلمات مـن أجـل حقـوق الإنسـان التـي أقيمـت في شـهر شـباط في جامعـة جـورج تـاون. تحدثـت في تلـك النـدوة عـن «حقـوق الإنسـان ولـزوم الوسـاطة الثقافيـة»، وأكـدت عـلى أهميـة انبثـاق الحقـوق التـي ينافـح عنهـا المجتمـع مـن داخلـه، وحـذرت مـن محـاولات فـرض هـذه الحقـوق مـن الخـارج، ومخاطـر اسـتخدام السـلطة عـلى تراجـع الحقـوق؛ لأن الالتـزام بالحقـوق مسـألة مرتبطـة بقيـم النـاس لا بالأشـكال السياسـية والاجتماعيـة المفروضـة بالقـوة العاريـة. كانـت عزيـزة آنـذاك أسـتاذة الحقـوق في جامعـة فرجينيـا، وكانـت متفاعلـة مـع الجاليـة الإسـلامية المتناميـة وقضاياهـا الحيويـة. وكان هـذا اللقـاء بدايـة لتعـاون اسـتمر لسـنوات في الدفـاع عـن حقـوق الجاليـة العـربي والإسـلامية، والدخـول في حـوارات مـع مؤسسـات المجتمـع المـدني الأمريكيـة. بـدأت اهتمامـاتي بحقـوق الإنسـان تتبلـور خـلال السـنوات الأخـيرة مـن عمـلي مـع الجامعـة الإسـلامية

العالمية في ماليزيا، وقمت بتدريس مواد تتعلق بالقانون الدولي والعدالة الاجتماعية، وقضايا التفاوت الاقتصادي والفقر. وكان قراري تأسيس مركز التوازن التنموي لحظة وصولي إلى الولايات المتحدة الأمريكية ناجم عن هذا الاهتمام. وكنت قد نشرت بحثين حول الإسلام وحقوق الإسلام أثناء إقامتي في ماليزيا، «حقوق الإنسان والإصلاح القانوني» و «حقوق الإنسان وحوار الثقافات». كما شاركت في العديد من الندوات والنشاطات المرتبطة بحقوق الإنسان بالتعاون مع الصديق شاندرا مظفر، رئيس مركز العدل العالمي في ماليزيا. في السنة الأولى من وصولي إلى الولايات المتحدة ظهرت لي مقالة في دورية متخصصة بحقوق الإنسان اسمها «منصة حقوق الإنسان»، كانت تنشر من مانيلا في الفليبين. الورقة التي نشرت تحت عنوان «الإسلام وحقوق الإنسان» في نهاية عام (2000)، ركزت فيها على ضرورة إصلاح المقاربة القانونية في المجتمعات المسلمة، وتوسيع دائرة الاهتمام بالحقوق لتشمل النساء وغير المسلمين، ودعوت إلى تجاوز المفاهيم ذات الطبيعة الثقافية التاريخية. وعدت فتحدثت بالموضوع نفسه في محاضرة نظمتها جامعة تكساس خلال شهر حزيران بعنوان «الإسلام وحقوق الإنسان». كنت في كتاباتي منتقداً للمقاربة السائدة في المجتمعات الإسلامية التي تعمل على توظيف العقائد الإسلامية التاريخية لإضعاف المنظومة الحقوقية، بإعطاء الأحكام الفقهية التي تعكس العلاقات الاجتماعية الفقهية أولوية على حقوق الإنسان الكلية. لكنني في الوقت نفسه كنت أرفض الجهود الاستشراقية الساعية إلى تجاهل موقع الإسلام في المنظومة الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية، والدور الأساسي الذي يقوم فيه بتحفير جهود الإصلاح. حديثي في جامعة تكساس جرى على هامش مؤتمر إقليمي لرابطة علماء الاجتماعيات المسلمين في مدينة دالاس، الواقعة في ولاية تكساس، في شهر حزيران من عام (2001). الورقة التي قدمتها في مؤتمر الرابطة كانت بعنوان «مواجهة الانقسام الديني العلماني ومساهمات الإسلام الحضارية»، نشرت في السنة التالية ضمن كتاب حرره الدكتور بشير أحمد؛ أحد أبرز قادة الجالية الإسلامية في ولاية تكساس.

شاركت في المؤتمر السنوي لمركز دراسة الإسلام والديمقراطية في الشهر الرابع من عام (2001)، وعرضت ورقة بعنوان "الإسلام والدولة العلمانية"، قدمت فيها خلاصة قراءاتي للعلاقة المعقدة بين الإسلام والعلمانية. فندت في دراستي الفكرة التي انتشرت في بعض الأوساط الإسلامية؛ والتي تؤكد أن الإسلام يدعو إلى تأسيس دولة دينية. كما سعيت إلى إظهار ارتباط بدايات العلمانية بحركة الإصلاح الديني في الغرب، وأن المجتمعات الغربية لم تكن ترى حالة عداء بين الدين والدولة. ولكن صياغة هذه العلاقة كانت غاية في الصعوبة؛ بسبب التجربة العلمانية في المجتمعات الإسلامية التي تأثرت بالقراءة الماركسية للدين، وبسبب الممارسات الاستبدادية للأنظمة التي حملت لواء العلمانية. كانت مقاربتي في تلك الورقة تسعى إلى ربط الفكرة بسياقها التاريخي وإظهار أثر التجربة التاريخية على فهم العلاقة بين الديني والسياسي، وعلى صعوبة التفاهم حول معانيها ودلالاتها عبر الثقافات.

مشاركات فكرية في عالم المواجهات الحضارية

زرت في مطلع صيف عام (2001) المغرب للمشاركة في مؤتمر دعت إليه المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة والتعاون، بدعوة من مديرها العام الدكتور عبد العزيز التويجري. عقد المؤتمر في مدينة الرباط، وحضره عدد من الباحثين والمفكرين العرب والغربيين، وتعرفت خلاله على المفكر المسلم مراد هوفمان الألماني الأصل، وكنت أعرفه ويعرفني من خلال كتاباتنا، ولكن المؤتمر أعطاني الفرصة للتعرف عليه عن قرب. وقام مراد بعد سنتين من هذا اللقاء بمراجعة كتابي الثالث باللغة الإنكليزية (**توترات وتحولات في العالم الإسلامي**)؛ الذي صدر عام (2003). كانت الزيارة مناسبة لتبادل الرأي حول مواضيع عديدة تتعلق بحالة الضعف والتخلف التي أصابت المجتمعات المسلمة. كنا نشترك برؤيتنا للطبيعة الثقافية والحضارية للمشكلة، وكان يُحمّل المسؤولية لضعف أداء القيادات السياسية، وكنت أعطي مسؤولية أكبر للمثقف العربي والمسلم؛ الذي انكب على التقليد وترك مهمة الاجتهاد والإبداع وتقديم الحلول الاجتماعية. وكنت قد قدمت ورقة في المؤتمر بعنوان

«المثقف والنهضة والحضارة»، تدور حول فكرة مسؤولية المثقف، والآثار المترتبة على تشتت جهوده وإغفال مسؤولياته.

زرت مكتب المعهد في الدار البيضاء أثناء تواجدي في المغرب، وحضرت لقاءات فكرية رتبها الصديق جمال السعيدي مع أساتذة وطلاب جامعة المغرب. وكان كتابي (**العقيدة والسياسية**) قد ذاع صيته بين المفكرين المغربيين الشباب، ولاقى قبولاً واسعاً ضمن الأوساط العلمية، فكانت محاضرتي متعلقة بموضوع الكتاب. تميز مثقفو المغرب بتعطشهم للفكر التجديدي، وكانوا أقل تعلقاً من أبناء المشرق ومفكريه بالنظر التراثي التاريخي، وأكثر استعداداً للتفكير خارج صندوق الفكر السائد. بل كان مفكرو المغرب في طليعة المجدِّدين في إطار اللغة العربية التي انفتحت على أيديهم في العصر الحديث، واستوعبت من خلال جهودهم في الكتابة والترجمة فيضاً من المصطلحات الحديثة التي نحتها العلماء والمفكرون المغاربيون.

سافرت في صيف عام (2001) إلى لبنان للمشاركة في مؤتمر بعنوان «تيارات الفكر الإسلامي المعاصر وقضايا الإصلاح والتجديد»؛ الذي نظمه مكتب المعهد في بيروت في شهر نيسان، بالتعاون مع جمعية المقاصد الخيرية. صادف المؤتمر نهاية زيارتي لدمشق، فسافرت منها برّاً برفقة زوجتي إلى بيروت. شارك في المؤتمر عدد من الزملاء الباحثين. موضوع المؤتمر يقع ضمن أولوياتي البحثية والعملية، ولكنني لا أذكر اليوم كثيراً من التفاصيل حول النقاشات التي دارت والبحث الذي قدمته. ما أذكره أني التقيت هناك بالصديق العزيز محمود رشدان وزميلي في المعهد فتحي الملكاوي؛ اللذين حضرا إلى بيروت مع أسرتيهما؛ فكانت فرصة للقيام بجولة سياحية رتبها مضيفنا الشاب توفيق العوجي؛ مدير مكتب المعهد العالمي في بيروت، شملت منطقة حريصا الجميلة. وكانت تلك الزيارة الأولى بعد مرور قرابة عقدين على زيارتي السابقة. ولاحظت تغيراً كبيراً في المدينة، واختفاء أجزاء واسعة من الجبل الأخضر الجميل الذي امتد إليه العمران، لتحل الأبنية الأسمنتية محل غاباته الجميلة الخضراء التي عرفتها قبل سنين.

نظم الصديق توفيق العوجي، بعد انتهاء المؤتمر ومغادرة زوجتي إلى دمشق، عدداً من المحاضرات والندوات واللقاءات، شملت لقاء شبابي مع نخبة من الشباب الجامعي اللبناني المثقف. كما شملت محاضرة في مركز شيعي في الضاحية الجنوبية. كان الحضور في المركز كثيف، وكان كثير من الشباب على اطلاع على كتابي (**إعمال العقل**). كنت من مؤيدي الحوار السني - الشيعي، أو ما سمي بالتقارب السني - الشيعي، والرافضين لتسييس الخلاف بين الطائفتين. تطرق الحديث إلى التجربة الإيرانية أثناء فترة المناقشة، فأبديت تحفظات على شكل الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وعجزها عن تطوير مجتمع إسلامي يقوم على قيم الحرية والكرامة والمساواة؛ التي هي أعمدة أساسية في جميع الرسالات السماوية؛ انتهاء برسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وقعت كلمتي هذه كالصاعقة على الحضور، وأسرع العديد منهم نحوي واقتربوا من طاولتي، كوسيلة وحيدة لهم للحيلولة بيني والاستمرار في الحديث. الشباب الذي اندفع ليجادلني عن قرب ويتبين دلالات ما صرحت به؛ لم يكن غاضباً مني، ولكنهم بدوا مذعورين مما قلت، وغير راغبين في استمرار الحديث في هذا الاتجاه خوفاً من ردود أفعال الراعي الإيراني، خاصة أن الملحق الثقافي الإيراني كان حاضراً الندوة.

التقيت في زيارتي تلك مفتي زحلة والبقاع الشيخ خليل الميس؛ استضافني وتوفيق في مكتبه الكائن في أطراف مدينة زحلة، وتحدثنا عن وضع لبنان والتحديات التي تواجه اللبنانيين عموماً، والطائفة السنية بشكل خاص. وتوجهت بصحبة توفيق في رحلة إلى الجنوب اللبناني للاطلاع على أحواله، وكانت المنطقة قد تحررت حديثاً من السيطرة الإسرائيلية بعد سنوات من المقاومة التي قادها حزب الله. كانت المنطقة تمرُّ بمرحلة نهضة عمرانية واضحة، نتيجة تدفق استثمارات المغتربين اللبنانيين في الخارج بعد تحرير الجنوب، ونتيجة المعونات الإيرانية من خلال حزب الله. المفارقة بين القرى السنية القليلة والقرى الشيعية والمارونية المنتشرة في الجنوب لم تكن لتخفى على الزائر. نهضة عمرانية ونمو في قرى الشيعة، وفقر مدقع في قرى السنة. لم أفهم أسباب هذا التفاوت إلا بعد مضي سنوات عديدة،

توقفنا عند باب فاطمة في أقرب نقطة من الوجود العسكري الإسرائيلي على المناطق الحدودية، ومررنا على الطريق إلى الجنوب بقرية «خربة روحا»؛ التي انحدرت منها ليلى حسين مساعدتي الإدارية؛ كانت القرية على مسافة ثلاثة أميال إلى الجهة الشرقية من الطريق، وكتب اسمها بحروف سوداء واضحة على لوحة بيضاء على كتف الطريق. وتابعنا السير إلى أقصى نقطة في الجنوب اللبناني؛ لأكتشف أن خط الحدود اللبناني مع فلسطين يقع على هضبة مرتفعة تطل على السهل الساحلي لفلسطين، وكنت أرى من هذه النقطة المتقدمة ملامح مدينة يافا القريبة من الحدود اللبنانية. رأيت بضعة مستعمرات ملاصقة للشريط الحدودي، لا يفصلها عنه سوى حاجز من الأسلاك الشائكة. لم أكن أرى أحداً في المستعمرات، ولم تكن ثمة مظاهر ملحوظة للحياة على الطرف الآخر من الشريط. ومع غروب الشمس، عدنا إلى بيروت عبر الطريق الساحلي مروراً بصيدا.

حديث الأربعاء وأحاديث أخرى

سبق زيارة لبنان، والنشاط الواسع الذي قمت به هناك، أسابيع أمضيتها في دمشق؛ حيث التقيت خلالها بالأهل والأصدقاء. كانت زوجتي قد سبقتني إلى دمشق بصحبة الأولاد؛ الذين كانت دمشق محطتهم السنوية خلال فصل الصيف. استمتعت بصحبة الأسرة الكبيرة، وتمتعت بولائمهم العديدة، وجلسات السمر اللطيفة في أمسيات دمشق الخلابة. والتقيت برضوان زيادة الذي أتى لزيارتي لدى علمه بوصولي إلى دمشق، ثم دعاني إلى منزله في حي داريا؛ حيث التقيت بوالده وشقيقه. كما التقيت هناك بثلاثة شباب من المشتغلين بقضايا الفكر والإصلاح الفكري، ومن مؤسسي الملتقى الفكري، أذكر منهم عبد الرحمن الحاج؛ الذي توطدت العلاقة بيننا بعد سنوات عديدة من ذاك اللقاء، خلال سنين الثورة، ومعتز الخطيب الذي كان يعمل آنذاك في فضائية الجزيرة الحديثة التأسيس؛ والذي أصبح لاحقاً زميلي في جامعة حمد بن خليفة، وأحد أهم الباحثين المجددين في فهم الشريعة والأخلاق وعلاقتهما بالمجتمع المعاصر. كما التقيت خلال

زيـارتي بالصناعـي والمعـارض السـوري المعـروف ريـاض سـيف، وأحـد أبـرز وجـوه المعارضـة آنـذاك، وكان عضـوا في مجلـس الشـعب السـوري. عـرض علي ريـاض ملفـاً أعـده، يحمـل وثائـق تظهـر أحـد ممارسـات الفسـاد في المؤسسـات السـورية، المتعلقـة بسـعي رامـي مخلـوف إلى اسـتخدام قربـه مـن القـصر الجمهـوري للحصـول عـلى امتيـازات شـبكة الهاتـف الخليـوي (الجـوال). وكان منتـدى ريـاض سـيف مـن أبـرز المنتديـات التـي تكاثـرت عـام (2000) بعـد انتخـاب بشـار الأسـد فيـما عـرف بربيـع دمشـق. تحدثنـا قليـلاً حـول الخطـوات المطلوبـة لتجـاوز مركزيـة النظـام، ومسـاعي تغيـير الدسـتور. نصحتـه بعـدم فتـح كل الملفـات دفعـة واحـدة، والبـدء بمطالـب تسـاهم في إيجـاد مدخـل لمشـاركة سياسـية شـعبية؛ مثـل قانـون تعـدد الأحـزاب وحريـة الصحافـة، بـدلاً مـن الدفع باتجـاه تغيـير الدسـتور قبـل الرفـع مـن وتـيرة المشـاركة السياسـية. وشـجعته عـلى طـرح ملـف (الخليـوي) الـذي أعـده، عـلى اعتبـار أنـه مـن الأعـمال التـي يمكـن أن تسـاعد في تحديـد هويـة المعارضـة، والخـط السـياسي الـذي تتبعـه. وكان رياض متحمسـاً جـداً لملـف (الخليـوي)، وجمـع عـدداً كبـيراً مـن الوثائـق لدعـم اتهاماتـه بحـالات الفسـاد في تأسـيس شركـة (سـيرياتل). كنـت أعتقـد آنئـذ أن النظـام قـد يتفاعـل مـع مشـاركة تسـعى للحـدِّ مـن الفسـاد؛ الـذي يمكـن أن يزلـزل الحيـاة السياسـية في البـلاد مـن قواعدهـا، ولكننـي كنـت مخطئـاً؛ فقـد أدت جهـود ريـاض الإصلاحيـة بـه إلى السـجن لمـدة خمسـة أعـوام، خـرج منهـا في حالـة صحيـة صعبـة. وبـدلاً مـن الاسـتفادة مـن مشـاركة شـخصية سياسـية معتدلـة في تطويـر الحيـاة السياسـية، وخلـق هامـش أوسـع مـن الحريـات، اسـتخدم النظـام قضيـة (الخليـوي) ليلقـن المعارضـة درسـاً، ويرسـل لهـا رسـالة واضحـة بـأن العمـل السـياسي الإصلاحـي نشـاط غـير مقبـول.

قبـل عـودتي إلى فرجينيـا بأيـام اسـتضافني أنـس الأزرق، الإعلامـي في التلفزيـون السـوري الرسـمي، في برنامجـه «حديـث الأربعـاء» لمناقشـة كتـابي (**إعـمال العقـل**). أنـس الأزرق كان محـاوراً قديـراً، أبـدى اطلاعـاً عـلى أطروحـات الكتـاب الفكريـة، وأظهـر فهـماً لطبيعـة التحديـات التي تتعامـل معهـا أطروحاته. تفاعـل الأزرق مـع إشـكاليات الكتـاب منحـه قـدرة عـلى طـرح الأسـئلة المهمـة

للمشاهد العام. تطرق الحديث إلى قضايا الفكر والإصلاح الفكري وتراجع الأمة الحضاري، وموضوعات أخرى عديدة، ثم انتهى إلى الحديث عن العولمة. سؤال أنس الأخير، سؤال العولمة لم يكن دقيقاً في توصيف حقيقتها، ولكنه استخدمه بذكاء لإثارة مسألة تتعلق بالحركات الإسلامية ذات التوجه الأممي. سألني محاوري سؤالاً مهماً يشغل أذهان العديد في العالم العربي فقال:

- هناك من يخشى من العولمة على الثقافة العربية، هل تشارك هؤلاء مخاوفهم؟

وجدت في سؤال محاوري فرصة لتقديم تصوري لمسألة العولمة، خاصة وأنها من الموضوعات التي شغلتني في دراساتي وأبحاثي، فأجبته:

- العولمة تحدٍّ وفرصة في آن. هي تحدٍّ بسبب إمكانية اختراق الشركات المتعددة الجنسيات الأسواق بهدف التحكم بها؛ ولأن نجاح تلك الشركات في تحقيق اختراقات قد يساعدها في توليد ثقافة استهلاكية في البلاد العربية. ولكنه في الوقت نفسه فرصة للتنمية وتطوير القدرات المحلية للمجتمعات العربية.

ثم تطرقت إلى التجربة الماليزية كمثال على جهود مجتمع ذي خصوصية ثقافية مشابهة للمجتمعات العربية، نظراً لوجود أغلبية سكانية مسلمة فيه، وتابعت:

- ويمكن الاعتماد على التراث الأخلاقي الإسلامي، كما فعل المجتمع الماليزي، لتطوير ثقافة تقوم على العمل والجد واحترام التعدد.

قاطعني أنس ليطرح سؤالاً غريباً:

- لكن هناك من يخشى من إسلام العولمة.

شعرت أن محاوري يريد إقحام إشكالية ترتبط بالإسلام من خلال الحديث عن العولمة، فطلبت منه التوضيح قائلاً:

- ما سمعت بهذا الكلام من قبل. ماذا تقصد بذلك؟

أجاب أنس بسرعة:

– أقصد أنه يمكن أن يوظف الإسلام لإحداث اختراقات ثقافية واقتصادية.

بدا لي أن محاوري يطرح مشكلة الصراع بين التراث والمعاصرة، ولكنه عمد إلى قلب العلاقة رأساً على عقب، فقلت له مبيناً رؤيتي:

– قراءتي للمسألة تظهر أن من يحمل راية الإسلام اليوم يقف في وجه العولمة. ولكنني أعتقد أنه من خلال الحوار يمكن ترشيد الخطاب الإسلامي، وتوظيفه في خدمة عملية التنمية بتأكيد قيم التفاني والتعاون والإخلاص للوطن.

انتهى الحديث عند مسألة العولمة دون أن أدري، أو يدري محاوري، أن الإسلام سيتم إقحامه في مسألة العولمة بعد بضعة أيام من حديثنا، ومن خلال أحداث الحادي عشر من أيلول. وأن مخاوفي حول وجود تيار معادٍ للعولمة ستتحول إلى صراع يقوده تنظيم القاعدة ضد المجتمعات الغربية والمجتمعات الإسلامية القريبة منها، وأن السنوات اللاحقة ستشهد تغيرات جذرية في طبيعة العولمة ومساراتها. قفلت عائداً إلى فيرجينيا في نهاية شهر آب، عبر مطار بيروت، وبعد وقفة طويلة ومليئة بالنشاطات. تواصل معي إبراهيم كالين، في نهاية شهر آب، ليخبرني عن ترشيحي من قِبَل الدكتور سيد حسين نصر لتدريس مادة حول الشرق الأوسط في جامعة جورج واشنطن. وبالفعل تعاقدت مع الجامعة، وبدأت محاضراتي في قسم علم الإنسان في الجامعة.

الإسلام وتحدي الإرهاب

مع مطلع الأسبوع الثاني من شهر أيلول وقعت الواقعة التي هزَّت المجتمع الأمريكي، وعقدت العلاقة بينه وبين الإسلام عموماً، والجالية الإسلامية في أمريكا بشكل خاص. تفجيرات الحادي عشر من أيلول، التي استهدفت مباني تجارية في نيويورك وبناء قيادة القوات المسلحة الأمريكية

في فرجينيا، شكلت لحظة مزلزلة في حياة الأمريكيين، تركت آثاراً عميقة في الولايات المتحدة وخارجها. كنت عائداً في ساعة مبكرة من مكتبي، بسبب تعبٍ انتابني وشعورٍ بالإعياء. بعد وصولي بساعة، شغلت جهاز التلفزيون لمتابعة الأخبار اليومية؛ لأفاجأ بصورة حية لمبنى التجارة العالمية في نيويورك وهو يحترق. كان المذيع يتحدث عن اصطدام طائرة ركاب بأحد أعلى بنائين في مدينة نيويورك. ثم تتالت المشاهد التي بدت غريبة، وكأنها فيلم من أفلام هوليود. اصطدام الطائرة الثانية ببرج مبنى التجارة العالمية الثاني.. المدنيين يتأملون في الحرائق من حولهم، وقد غلب الذعر والقلق على وجوههم.. قدوم فرق الإنقاذ.. انهيار المبنى الأول.. انهيار المبنى الثاني. وعلى الرغم من الصدمة وغرابة المشهد، أدركت بسرعة أنني أشهد عملية هجوم انتحارية على المباني من تنظيم حركات إسلامية متطرفة. الأسلوب الانتحاري، أو الاستشهادي كما يصفه البعض، كان يحمل بصمات انتحاريين متشددين يسعون إلى انتقام أهوج دون اعتبار حرمة الأرواح التي دمرتها تلك الهجمات.

كان موقفي واضحاً ومبدئياً بخصوص أحداث الحادي عشر من أيلول.. تنديد كامل بالهجوم الذي استهدف مبنى مدنياً، ورفض لأطروحة الحرب المفتوحة بين الإسلام والغرب التي كانت منظمة القاعدة واليمين المسيحي يروِّجان لها. كنت بالتأكيد مدركاً لطبيعة التدخلات العسكرية الأمريكية في الشرق الأوسط، ومتابعاً لسعي الإدارات الأمريكية المتلاحقة الحثيث للدفاع عن عمليات إسرائيل العدوانية ضد الفلسطينيين، وضد دول المنطقة العربية الداعمة لهم. كتبت العديد من الأبحاث والمقالات لبيان مثالب وسقطات التوسع الاستعماري الأوربي، وسعي الولايات المتحدة لدعم أنظمة استبدادية، والتوظيف الانتقائي لحقوق الإنسان. ولكنني كنت أرفض كلياً التعاطي مع الأخطاء في السياسات والمواقف الغربية التي انتقدتها بأخطاء مشابهة لها، وأستنكر التجاوزات التي تقوم بها دول وجماعات باسم الرَّد على العدوان. كنت كذلك أرفض خلط الجماعات الإسلامية المتطرفة للأوراق، عبر سعيها لتأجيج صراع ديني مدمر باسم

العدالة والحقوق الضائعة. بتاريخ 13 أيلول (2001) صدر بيان باسم رابطة علماء الاجتماعيات التي كنت أترأسها يندد بالهجوم الإرهابي، ويستنكر استباحة دماء الأبرياء، ويدعو إلى وقوف الجميع، بغضِّ النظر عن خلفيتهم الدينية، صفّاً واحداً في وجه الأعمال الإرهابية.

ذهبت في الأسبوع التالي إلى جامعة جورج واشنطن لإلقاء محاضرتي الأسبوعية ضمن مساق الشرق الأوسط، وكان وقع صدمة الحادي عشر من أيلول بادياً على الجميع، خاصة على طالبتين مسلمتين في الفصل الذي كان يضم نحو خمسة وعشرين طالباً. كانت إحدى الطالبتين؛ وهي من أسرة مسلمة مهاجرة، قد نزعت حجاباً كانت تضعه، في حين بقيت طالبة أخرى حديثة العهد بالإسلام محافظة على غطاء الرأس الذي دأبت عليه. شعرت بضرورة إثارة موضوع ما جرى في بداية الفصل، وحثّ الطلبة على إبداء ملاحظاتهم وآرائهم. تحدثت قليلاً عن العمل الإجرامي الذي استهدف مدنيين أبرياء في نيويورك، وأكدت أن ما قامت به المجموعة الإرهابية يتعارض مع قيم الإسلام وتعاليمه.

الحدث وقع كالزلزال على الجاليات الإسلامية ومراكزها الدينية والثقافية؛ فقد أدرك الجميع أن ما حدث سيوظَّف من قِبَل قوى اليمين المسيحي والصهيوني لعزل المسلمين الأمريكيين عن بقية المواطنين، وتحميل الدين الإسلامي مسؤولية الهجوم الإرهابي على الأراضي الأمريكية. وكنت نتيجة عملي في واحدة من أكبر مؤسسات الجالية، ونتيجة ظهوري الإعلامي المتكرر في الخندق الأول لتوضيح موقف الجالية التي أمثلها، والدفاع عن حقوق العرب والمسلمين. كنت أسعى أيضاً إلى وضع الإرهاب في سياقه الدولي، والدعوة للعمل على مواجهة جذور الإرهاب ذات الطبيعة السياسية. كنت من أوائل من ظهر على الإعلام من أبناء الجالية العربية والإسلامية للتعليق على الأحداث التي بدأت تتزايد؛ والتي شملت العنف في وسط آسيا وفي بعض الدول الإفريقية. وكنت أتحدث في اللقاءات العامة وفي الجامعات، ومن خلال برامج الحوار لتوضيح قيم الجالية والجهود التي

تبذلها منظمات المجتمع المدني الإسلامي؛ مثل الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية (إسنا)، ومجلس التعاون الإسلامي الأمريكي (كير)، ولجنة العمل السياسي الإسلامية (امباك)، لتحقيق اندماج سلس للمسلمين في المجتمع الأمريكي، والدفاع عن حقوق المجتمعات الإسلامية التي تعاني من عدوان على حقوقها ووجودها. كنت أتحدث عن المظالم التي تواجه العرب والمسلمين، وتجاهل المنظومة الدولية لها، مثل قضايا الكفاح الفلسطيني للدفاع عن الأرض والحقوق، وانتفاضة الشعب الكشميري في سعيه لتقرير مصيره والاستقلال عن الهيمنة الهندية، والظروف الصعبة التي تواجهها شعوب أخرى ترزأ تحت وطأة الأنظمة الاستبدادية والاستعمارية في مندناو والبوسنا ووسط آسيا.

خلال شهر من أحداث أيلول عقدت رابطة علماء الاجتماعيات مؤتمرها السنوي في مدينة ديربورن، وفقاً للموعد المحدد قبل الهجوم الإرهابي بأشهر طويلة. كانت هناك بعض الأصوات داخل قيادة الرابطة تطالب بإلغاء المؤتمر بسبب الوضع العام، وتأثر الرحلات الجوية به، وتزايد الإجراءات الأمنية في المطار. ولكن اللجنة التنفيذية رأت بالإجماع ضرورة المضي في عقد المؤتمر في موعده. مكان المؤتمر في ديربورن حمل رمزية خاصة، باعتبار أن المدينة تضم أكبر تجمع عربي وإسلامي في أمريكا. مكان المؤتمر حمل رمزية خاصة بالنسبة لي أيضاً؛ لأن ديترويت هي المدينة التي أمضيت فيها سنوات عديدة في التحصيل المعرفي، وحصلت من أكبر جامعاتها على درجة الفلسفة في السياسة والعلوم الإنسانية. وهي كذلك المدينة التي أعطتني الفرصة لتطوير المهارات الاجتماعية والإدارية والتنظيمية. أثر العملية الإرهابية على المواطن الأمريكي كان واضحاً من خلال العدد القليل من الركاب في الطائرة التي نقلتني من واشنطن إلى ديترويت، رغم مرور شهر على أحداث الحادي عشر من أيلول.

حضر المؤتمر عدد كبير من المفكرين والباحثين، أذكر منهم عبد العزيز سشادينا وتوني سولوفان؛ اللذين أصبحا بعد سنتين من ذاك اللقاء زميلين

في مجلس إدارة مركز دراسة الإسلام والديمقراطية. وحضره أحمد داود أوغلو وعبد الرشيد متين اللذين جمعتني بهما سنوات من الزمالة في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، وثلة كبيرة من أصدقاء العمل الفكري؛ منهم شرمان جاكسون، وروبرت كرين، وسليمان نيانغ، ومستنصر مير، وزاهد بخاري، وغيرهم. وكان عنوان المؤتمر مناسباً للحظة الراهنة «الدين والحياة العامة في عصر العولمة»، وكانت النقاشات مرتبطة بتحديات الساعة، ودور الفكر والقيم في ترشيد المجتمع.

بدأ الاهتمام بالإسلام والمؤسسات الإسلامية يتزايد بالتدريج في المجتمع الأمريكي، فصدمة الحادي عشر من أيلول أثارت رغبة المواطن الأمريكي بمعرفة المزيد عن الإسلام وعقائده وقيمه وممارساته، خاصة بعد بدء الجدل حول علاقة الإسلام بالإرهاب. تعالت أصوات طرفي الحوار؛ فحفزت الكثيرين للبحث عن المزيد من المعلومات. لكن الكتابات لم تكن أكثر عوناً؛ لأن ما كتب عن الإسلام في سياق صراع سياسي لم يكن على الأغلب صادراً عن جهات علمية تبحث بهدوء عن الحقائق، بينما كان الكثيرون مدفوعين بأجندات سياسية لِلَيِّ الحقائق والترويج لموقفهم السياسي. في نهاية تشرين الأول حضر إلى المعهد حيث أعمل براين سانت بول؛ رئيس تحرير مجلة «الأزمة»، لإجراء مقابلة مع جمال ومعي حول الإسلام والعنف، نشرت في مطلع عام (2002)، تحت عنوان «الهلال والسلاح». كان الحوار صريحاً حول الصراعات العسكرية المنتشرة في مناطق وجود الأغلبية الإسلامية في آسيا وإفريقيا، وعن حدود السلم والحرب في الإسلام. وكان مختصر النقاش أن الصراعات العسكرية يجب أن تفهم من خلال ظروفها التاريخية والسياسية، وأن العنف يرتبط بصورة أساسية بتلك الظروف التي تتضمن احتلالاً عسكرياً لمناطق الأغلبية الإسلامية، ووجود أنظمة عسكرية متسلطة مدعومة خارجياً، وأن دور الإسلام هنا محدود بشرعنة حقّ الدفاع عن النفس، وضرورة رفض الظلم والعدوان والتسلط، مع التنويه أن التعاليم الإسلامية تدعو إلى اختيار السلم، إذا كان هو خيار العدو، وبالتالي جعل الصراع العسكري ضرورة تفرضها الحاجة لمواجهة العدوان لا خياراً يبادر المسلم إليه مع توفر خيار السلم.

شاركت في نهاية العام في مؤتمر كبير نظمته الجالية الإسلامية في مدينة أورلاندو في وسط فلوريدا، حيث تقع مدينة ديزنيلاند. كانت مشاركة الجالية في فلوريدا متميزة، عكَست حاجة المسلمين الأمريكيين إلى رصّ الصفوف، والتعاون لمواجهة تحديات اللحظة؛ خاصة وأن الأصوات المعادية للمسلمين استمرت بالبروز والتزايد. التقيت في المؤتمر بسيد سعيد ومحمد السنوسي، وتعرفت على إمام الجالية محمد المصري، وهو سوري الأصل، وعلى مجموعة من الناشطين. كانت تلك مناسبة للتعرف أكثر على محمد السنوسي الشاب السوداني المتميز بعلاقاته العامة، وابتسامته التي لا تفارق وجهه الهادئ المطمئن. لعب السنوسي دوراً إيجابياً متميزاً في تنظيم برامج الحوار مع المؤسسات الدينية والسياسية، والذي أصبح جزءاً أساسياً من ربط الجالية بمحيطها الكبير، وقطع الطريق على اليمين المتطرف الساعي إلى عزل المسلمين الأمريكيين عن المجتمع الأمريكي الواسع.

شاركت بين عامي (2000) و (2002) في سلسلة من اللقاءات لتطوير مشروع "جامعة الهلال" الذي دعيت إلى الانضمام إلى مجلس أمنائه في العام السابق، بالتعاون مع عدد من الأكاديميين. ترأس مجلس الأمناء الصديق الدكتور علي المزروعي، رحمه الله، وتفرغ لتطويره وتولي العمل التنظيمي الدكتور تاج هارغي. رتبت للقاء بين تاج هارجي وعبد الحميد أبو سليمان وجمال البرزنجي في مطلع عام (2002). عرض تاج مشروع الجامعة، ودعا المعهد لدعمه، لكن اللقاء لم يكن مثمراً، وعاد تاج إلى مكتبه في ولاية نيويورك دون الحصول على أي الدعم من المعهد. كان تاج شديد الحماس للمشروع كما كان غاية في النشاط، لكنه كان حاد الطبع سريع الانفعال؛ وهما صفتان تسلبان المرء القدرة على التأثير والحفاظ على شبكة علاقات فعالة. أذكر مهاوشة كلامية تمت بين تاج المنحدر من جنوب إفريقيا، وصديق جنوب إفريقي آخر هو فريد إسحاق، خلال مؤتمر رابطة علماء الاجتماعيات عقد في جامعة جورج مايسون في خريف (2003). جاءني فريد إلى حيث كنت أجلس في مؤخرة المدرج الجامعي الكبير وقال:

– ثمـة رجـل يجلـس في المـدرج ويرمقنـي بحـدة، تبـدو علامـات الغضـب في وجهـه.. لا أشـعر بالراحـة مـن نظراتـه.

نظرت إليه مستغرباً وقلت:

– من ذاك الرجل الذي تتحدث عنه.. أين هو؟

أشـار فريـد نحـو رجـل يجلـس في منتصـف المـدرج عـلى الطـرف الآخـر، وكان الشـخص الـذي أشـار إليـه فريـد ينظـر باتجاهنـا، كأنـه يريـد أن يستشـف مـن بعيـد طبيعـة الحـوار. كان الرجـل المقصـود تـاج، وكان ينظـر وعلامـات الغضـب باديـة عـلى وجهـه، فالتفـت إلى إسـحاق وقلـت لـه:

– هوِّن عليك.. هذا صديق أعرفه جيداً اسمه تاج الهارغي.

مـا إن أتممـت تلـك العبـارة حتـى رأيـت تـاج قـد انتقـل مـن مـكان جلوسـه وأصبـح قريبـاً منـي. كان تـاج رجـلاً طويـلاً متينـاً ذا تعابـير قاسـية. حاولـت أن أعرفهـما عـلى بعـض، ولكـن تاجـاً سـارع إلى التنفيـس عـن غضبـه قائـلاً:

– هل تعرف من هذا الشخص الذي يقف أمامك؟

ثم تابع كلامه قبل أن أجيبه قائلاً:

– إنـه فريـد إسـحاق.. عرفتـه في جنـوب إفريقيـا، وكان يأتينـا وأصدقـاؤه ليكيـل لي ولأصدقائـي التهـم، ويعرضنـا للخطـر مـع أبنـاء الجاليـة التـي نعيـش في وسـطها.

ومـضى تـاج يعـد المشـاكل والمتاعـب التـي سـببها لـه فريـد، ويـزداد غضبـاً وتهيجـاً كلـما ذكـر المزيـد منهـا.. كنـت قـد طلبـت منهـما الخـروج مـن البـاب الخلفـي للمـدرج الكبـير إلى ردهـة قريبـة؛ لنتحـدث دون أن نزعـج الحضـور الذيـن كانـوا يسـتمعون إلى ورقـة مـن أوراق المؤتمـر. حاولـت الإصـلاح بينهـما، ولكـن تـاجَ كان محتقنـاً مـن الغضـب، لا يسـتمع إلى كلامـي، ولم يـترك فرصـة لفريـد لإيضـاح حقيقـة الأمـر أو حتـى الاعتـذار. وقـف الأخـير يسـتمع بهـدوء دون أن ينبـس بكلمـة واحـدة. ثـم غـادر المـكان دون أن يدافـع عـن نفسـه ضـد

التهم التي ساقها تاج، ودون أن يعترف بها أو يعتذر عنها. كان تاج يتحدث عن فترة الإضرابات التي جرت في جنوب إفريقيا قبل الإفراج عن مانديلا وبدء عملية المصالحة.

سألت عن فريد إسحاق في جلسة العصر؛ فقيل لي: إنه غادر مكان المؤتمر في الصباح، ولم يعد للمشاركة في جلسات المؤتمر اللاحقة. كان فريد عندما عرفته رجلاً هادئاً، جريئاً في نقده لبعض الممارسات الفجة للحركات السلفية، بل ومتقدماً عن غيره في هذا المجال. وجاء نقده هذا بعد تبني المقاربة السلفية لفترة من الزمن ثم رفضها والابتعاد عنها. شعرت بالتعاطف مع تاج، ولكنني وجدت في طريقة عرضه للموضوع، وإسرافه في الخصومة والردح، وغضبه الذي لم يتمكن من ضبطه أو السيطرة عليه، مظاهر غير مطمئنة أثارت قلقي. في قاموسي كان الحِلْم دائماً سيد الأخلاق، وكان كذلك وصفٌ ضروريٌّ لمن يتولى القيادة والمسؤولية. وكما بدا لي واضحاً في تلك اللحظة الحزينة، فإن الشدة التي غلبت على تاج وعجز عن ضبطها فعلت فعلها أخيراً، ولكن في سياق مختلف تماماً. نشب خلاف حاسم في عام (2003) بين تاج مدير مشروع الجامعة، والممول الرئيسي لذاك المشروع؛ علي جاود؛ كان رجل أعمال ناجح في ولاية نيويورك. الخلاف الذي اطلعت عليه من طرَفَي الصراع نشأ حول حاجة علي لمعرفة تفاصيل تتعلق بالمشروع كان تاج يخفيها عنه. رفض تاج بحماسته وانفعاله المعتادَين جهود علي لتحري تفاصيل كان يعتبرها خاصة به. وانتهى الصراع بسحب الممول امتيازات المكان وميزانية التشغيل، وغادر تاج نيويورك عائداً للتدريس في بريطانيا، ولينتهي مشروع الجامعة التي بقي فكرة لم تتحقق.

محاربة الإرهاب وتوظيفه

في الشهر نفسه بدأت فصول صراع طويل بين سامي العريان واليمين الصهيوني المتطرف، وداعميه من قوى اليمين المسيحي. فقد أصدرت رئيسة جامعة جنوب فلوريدا قراراً بفصل سامي من وظيفته التدريسية، بدعم من حاكم الولاية جوب بوش؛ الأخ الشقيق لرئيس الجمهورية آنذاك

جورج بوش. كان ثمة ضغوط خفية على رئيسة الجامعة لاتخاذ من هذا القرار، تعود على الأرجح إلى معلومات سربها مكتب المدعي العام في ولاية فلوريدا عن عزمه ملاحقة سامي قضائياً. في يوم 15 كانون الثاني (2002) أرسلت رسالة إلى مديرة الجامعة جودي غنشاف، بوصفي رئيس رابطة علماء الاجتماعيات، استنكرت فيها قرار فصله وإصدار حكم بإدانته من قِبَل الجامعة قبل أن تثبت التهم الموجهة إليه قضائياً. وطالبت في الرسالة أن تعيد رئيسة الجامعة ومجلس أمنائها النظر في القرار الذي يشكل سابقة غير محمودة لإضعاف حرية التعبير ضمن الجامعات. المديرة ومجلسها أصرا على القرار؛ الذي بدا واضحاً لكل مراقب أنه نتيجة لضغوط كبيرة من جهات مؤثرة داخل الحكومة الأمريكية وحكومة الولاية، وربما من خلال متبرعين رئيسيين للجامعة.

شاركت في شهر شباط من ذلك العام في "مؤتمر الصحافة" الذي نظمته جامعة ريجنت في شمال فرجينيا. وكنت قد دعيت للتحدث في جلسة تناقش موضوع الإسلام والتسامح، وكان زميلي في الجلسة أستاذاً في الجامعة التي أسسها القسيس البروتستانتي بات رابرتسن؛ أحد زعماء اليمين المسيحي، اسمه جوزيف كيكاسولا. كانت سياستي في الدخول في حوار مع كل الجهات الفكرية والدينية والسياسية حول مواضيع تهمني وتهم المجتمع، حتى عندما يكون المحاور خصماً معادياً. أهم الحوارات هي مع الخصوم والأشخاص الذين نختلف معهم، لا الأصدقاء الذين نتفق معهم على القيم والأفكار والمبادئ. كان الحوار مؤدباً بيننا رغم اختلافنا الجذري على الصعيد الفكري؛ فقد كان يريد تأكيد عداء الإسلام للنصرانية، وكنت أحاول أن أُبين أن احترام التعددية واجب ديني على كل مسلم، وأن هذا الواجب يشمل احترام أتباع الديانات الكتابية التوحيدية، واحترام حقهم في اتباع الديانة التي آمنوا بها. في منتصف الحوار انقلبت استراتيجية محاوري إلى محاولة إبعادي عن التيار المجتمعي الإسلامي، واعتباري أني لا أُمثِّل الأغلبية المسلمة في أُطروحاتي الداعية إلى احترام التعدد الديني، وأنني حالة خاصة لا يمكن القياس عليها! كنت أسعى من طرفي إلى بيان أن التشدد الديني

هو حالة طارئة على الاعتدال الإسلامي على مستوى الاعتقاد والممارسة، وأن العنف الذي نشهده يعود إلى ظروف سياسية معقدة، وعقيدة متطرفة تعتنقها مجموعات هامشية في المجتمع. ترأس الجلسة صحفي يعمل في مجلة "واشنطن تايمز" اليمينية المحافظة؛ اسمه جورج أركيبلد، وكان يمتلك موقفاً متفهماً للإسلام، وأبدى خلال حديث دار بيننا تحفظه على المواقف الحدية التي يتخذها بعض قادة اليمين المسيحي.

كان البحث العلمي والندوات والمنشورات العملية هي النشاطات الأساسية في المعهد مع دخول شهر آذار. ولكن حدثاً مفصلياً جرى في النصف الثاني من ذاك الشهر غيَّر حال المعهد، وغيَّر أيضاً كثيراً من اهتمامات الجالية الإسلامية؛ فكان ناقوس الخطر الذي قُرع في فرجينيا ووصل إلى مسامع العرب والمسلمين الأمريكيين في كل مكان. في صباح العشرين من آذار، حوالي الساعة التاسعة صباحاً، دخل رجل أمن مدني وآخر بلباس الشرطة الموحد إلى مكتبي، وكنت أردُّ على بعض الرسائل. طلب رجل الأمن مني الخروج إلى الردهة، ثم طُلب من جميع الموظفين في المكتب التجمع في غرفة الاجتماعات الكبيرة. أعلمني رجل الأمن، عندما سألته عن سبب هذه المداهمة، أن لديهم إذناً قضائياً بتفتيش المكاتب. طلبت نسخة من إذن التفتيش، فألح علي للانتقال إلى مكان التجمع ووعدني بتوفير صورة عن الإذن خلال دقائق.

وصلت إلى غرفة الاجتماعات وكانت ممتلئة بالموظفين، ووجدت في الغرفة أحمد التوتنجي وفتحي الملكاوي. جلسنا ردحاً من الوقت، وجلس معنا في الغرفة خليط من رجال الأمن، بعضهم من الشرطة المحلية، وبعضهم من إدارة الهجرة، والبعض الآخر من الأمن التابع لوزارة الخزانة. طلبت من ضابط الأمن السماح لنا بالاتصال بمحامي المعهد للحضور، فأكد أنه يحتاج إلى دقائق قليلة قبل أن يتمكن من السماح لأحد باستخدام الهاتف. بعد مرور ساعة من الزمن وأثناء حديثي مع أحمد وفتحي شاهدت أحد رجال الأمن يقتاد موظفة لأخذ صورة شخصية لها، فوقفت وناديته بصوت آمر:

- توقف وامتنع عن التصوير.. أنت لا تملك الحق بفعل ذلك.. مذكرة التفتيش التي لديك لا تخولك الحق بتصوير أحد.

تفاجأ رجل الأمن من تدخلي، والتفت إلي وقال بصوت مرتفع:

- اجلس مكانك.. أنا أفعل ما أريد.

بقيت واقفاً في مكاني، وتابعت حديثي معه باللهجة الآمرة نفسها:

- أنت تتصرف الآن خارج دائرة صلاحياتك وخارج دائرة القانون.. كفّ عن تصوير الموظفين وأحضر لي مذكرة التفتيش.

كنت أعلم أن الرجل يتصرف خارج صلاحياته، وأنه يستخدم أسلوبه هذا ظنّاً منه أن المجموعة التي يتعامل معها غير ملمّة بالقانون الدستوري؛ الذي يحمي المواطن الأمريكي من تقديم معلومات خاصة دون وجود تهمة واضحة مصحوبة بمذكرة اعتقال من قاضٍ مخول. وكان هو بطبيعة تدريبه يعلم أن رجل الأمن يمكن أن يخضع للمساءلة القانونية حال عدم تقيده باللوائح القانونية والدستورية. تابعت حديثي بلهجة أكثر إصراراً لإيقافه عند حدِّه:

- أريد حضور محامي المعهد الآن.. كما أريد أن أتحدث إلى قائد الكوكبة الأمنية حالاً!

في تلك اللحظة تدخل بعض زملائه الأمنيين، ثم غادر القاعة ليعود بعد دقائق بصحبة قائد الكوكبة الأمنية، وكان شاباً ثلاثينياً، مسؤولاً في الوحدة الأمنية التابعة لوزارة الخزانة التي كانت تقود تلك المداهمة، فتكلم معي بهدوء وقال: سنغادر المكان خلال دقائق، وباستطاعتكم عندئذ الخروج من المكان والاتصال بالمحامي.

كانت الخطوة الأولى في ذاك اليوم الاجتماع بالجالية الموجودة في شمال فرجينيا، بعد انتشار أخبار المداهمة، وإحساس العديد من أبنائها بالقلق. فالمداهمة شملت مكاتب المعهد العالمي، والمجلس الأعلى للإفتاء في أمريكا،

وجامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية. كما شملت أيضاً مكاتب المجلس الإسلامي الأمريكي الذي أسسه عبد الرحمن العمودي، والناشط في الدفاع عن مصالح الجالية وحقوقها في الكونغرس والجهاز التنفيذي. كان الاجتماع عاصفاً، دعوت فيه الجالية للتواصل مع ممثليهم في الكونغرس، والتصدي لحملات اليمين الصهيوني الذي وقف خلف العملية. تحدثت الناشطة منال عمر وشرحت طبيعة المؤسسات المستهدفة، وتداعيات استهدافها على حقوق المسلمين. ونقلت الجلسة عبر المحطات التلفزيونية. وشكل المعهد فريقاً قانونياً لمتابعة الإجراءات القانونية. تبين لاحقاً أن المداهمة لم تستند إلى أي معلومات دقيقة، بل قامت على خطة تستخدمها الأجهزة الأمنية الأمريكية تسمى "حملة صيد"، وهو مصطلح قانوني حول المداهمات التي تأمل الحكومة من خلالها بالحصول على معلومات تدين الجهة المستهدفة بناء على الوثائق المصادرة. بين ليلة وضحاها تحولت مهامي من مدير في مؤسسة علمية إلى ناشط إعلامي وحقوقي؛ للدفاع عن حق الجالية، والتعريف بجهود المؤسسات التي استهدفها الجهاز الأمني للرأي العام، فأصبح ظهوري الإعلامي ولقاءاتي مع مؤسسات سياسية وحقوقية يستغرق معظم أوقاتي بعد أن كان متباعداً.

كانت الأشهر التي تلت المداهمة عصيبة؛ فقد بدا واضحاً أن اليمين الصهيوني، الذي تقوده شخصيات معادية متربصة بالمؤسسات الإسلامية، قد نجح أخيراً عقب أحداث أيلول من إقناع إدارة بوش باستهداف مؤسسات الجالية تحت عنوان محاربة الإرهاب. كان في مقدمة المؤسسات التي تفرغت لمحاربة الإسلام والجالية المسلمة في أمريكا شبكة من الناشطين من اليمين الصهيوني والمسيحي المتطرف، أهمهم فرانك غافني، مدير مركز الدراسات الأمنية، وستيف أمرسون، مدير مبادرة محاربة الإرهاب، وروبرت سبنسر، صاحب مدونة "مواجهة الجهاد"، ومؤلف متخصص بمعاداة المسلمين، ودانيل بايب، مدير منصة الشرق الأوسط، وديفيد هاراوتس، محرر مجلة الصفحة الأولى. وكان ستيف أمرسون ومساعدته ريتا كرتس المهاجرة حديثاً من إسرائيل خلف المداهمة، بالتعاون مع موظف أمني في وزارة الخزانة

اسـمه ديفيـد كلـين؛ هـو الـذي قـاد الكوكبـة الأمنيـة التـي قامـت بتفتيـش مكاتـب المعهـد، واسـتحوذت عـلى وثائـق المعهـد، التـي كانـت تتألـف بصـورة أساسـية مـن أبحـاث وتقاريـر تحكيـم أبحـاث. وتفرغـت للكتابـة في الصحـف والحديـث إلى وسـائل الإعـلام، والمشـاركة في النـدوات، لمواجهـة اليمـين الدينـي المتطـرف الـذي حـزم أمـره عـلى العمـل عـلى تهميـش المسـلمين في أمريـكا عـبر القضـاء عـلى مؤسسـاتهم العلميـة والحقوقيـة. ولكـن الـذي حصـل هـو العكـس تمامـاً؛ إذ أدى الهجـوم المفتـوح عـلى مؤسسـات الجاليـة إلى تزايـد عـدد المنظـمات الحقوقيـة التـي تمثـل الجاليـة، وإلى توسـع كبـير في منظمتهـا الحقوقيـة الأولى المنافحـة عـن حقـوق المسـلمين، والتـي عرفـت باسـم "كـير". الضغـط النفسي الكبـير دفـع بي للعـودة إلى ممارسـة الرياضـة بانتظـام؛ فقـد كنـت بحاجـة إلى نشـاطات تبعـدني بشـكل دوري عـن أجـواء التوتـر وسـاحات المواجهـة القانونيـة والإعلاميـة والسياسـية. تعلمـت خـلال الأشـهر اللاحقـة رياضـة التزلـق الخطـي عـلى العجـلات، فكانـت لحظـات ممارسـتها تبعـدني ذهنيـاً عـن السـياق السـياسي والقانـوني العـام، وتمنحنـي لحظـات لتجديـد نشـاطي وحيويتـي. طبعـاً دفعـت ثمـن اختيـار رياضـة خطـرة؛ بسـبب احتـمال السـقوط عـلى الأرض أثنـاء الحركـة السريعـة، بكـسر في رسـغي احتـاج إلى تجبـير اسـتمر ثلاثـة أشـهر، وإلى تمـزق في أربطـة الركـب. ولكـن الله يـسَّر، فتجـاوزت الرضـوض والكسـور، واحتفظـت برياضـة ممتعـة محفـزة، مارسـتها خـلال السـنوات التسـع اللاحقـة، حتـى مغـادرتي الولايـات المتحـدة عـام (2011) إلى الدوحـة.

العمل لمدِّ الجسور في الداخل والخارج

في شـهر نيسـان، وبعـد حـادث المداهمـة بشـهر، دعيـت إلى جامعـة نوترديـم في ولايـة انديانـا لحضـور مؤتمـر بعنـوان "أصـوات متعـددة: تحديـات وفـرص بنـاء السـلام بعـد أحـداث الحـادي عـشر مـن أيلـول". كان المؤتمـر مناسـبة جيـدة لبحـث آليـات التعامـل مـع التطـورات الدوليـة، وتقديـم تصـورات حـول الطريقـة الأمثـل للتعامـل معهـا. حـضر المؤتمـر خالـد أبـو الفضـل، أسـتاذ الشريعـة في جامعـة جنـوب كاليفورنيـا، والـذي سـاعدت كتاباتـه الأكاديميـة

والصحفية بإيضاح معنى الشريعة وأبعادها، بعيداً عن المهاترات التي كانت تصبُّ في دائرة تعميق الفجوة بين الشرق والغرب. وحضرتها كذلك أسماء افسرديـن؛ أستاذة الدراسات الإسلامية في الجامعة المضيفة، ومحمد أبو النمر، أستاذ دراسات السلام في الجامعة الأمريكية. وكان منسق المؤتمر عبد الرشيد عمر طالباً يحضر الماجستير في جامعة نوترديم، وهو شخصية متميزة لا يزال يلعب دوراً مهماً في بناء الجسور بين أتباع الديانتين المسيحية والإسلامية في موطنه جنوب إفريقيا. أظهر المؤتمر أيضاً خطة اليمين الديني المتطرف في الغرب؛ إذ فاجأنا أحد المشاركين القادمين من ألمانيا بأطروحة تقول بأن خطاب أسامة بن لادن يعبر عن الرؤية الإسلامية بأمانة، وأن الخطر ليس مصدره التطرف الإسلامي؛ بل الإسلام نفسه. ارتفعت حدة الحوار بعد تلك المداخلة، ولكنها قرعت جرس إنذار لي ولزملائي، ونبهتنا إلى الاستراتيجية القادمة والتحديات المستقبلية.

سافرت في شهر نيسان لحضور ورشة عمل نظمها مكتب المعهد العالمي في باريس. وكان في استقبالي الدكتور محمد المستيري، رئيس مكتب المعهد هناك. شاركت خلال إقامتي القصيرة في ورشة نقاشية حول مسألة التكامل المعرفي، وعلاقة الإسلام بالمعرفة الحديثة. شارك في الورشة طارق رمضان، وأخذ موقفاً ناقداً لفكرة إسلامية المعرفة، ولكنه مداخلته انصبت بصورة أساسية على صفة الإسلامية في عنوان المقاربة ولم يناقش المضمون. فكان تعليقي أن الاعتراض في مداخلة طارق شكلي وظاهري لا حقيقي؛ لأن إسلامية المعرفة لا تهدف في حقيقة الأمر إلى حصر المعرفة بالإسلام، بل ربط الجانب المعياري منها بالمعيارية الإسلامية. كما شارك فيه عبد المجيد النجار؛ الذي غادر الدوحة كما ذكر لي في رسالته التي تلقيتها قبل بضع سنوات، وانتقل للحياة في فرنسا، حيث كان يصبو إلى حرية افتقدها في عالم المسلمين، لكنه لم يحقق من خلال تلك النقلة طموحه، كما اتضح لي خلال نقاش جانبي عندما أبدى استياءه من الضعف التنظيمي للجامعة الخاصة التي التحق بها، والتفاوت بين الواقع والطموح. التقيت خلال زيارتي تلك برهان غليون، وذهبت بصحبة مضيفي محمد المستيري لزيارته في منزله. كان

اللقاء قصيراً بسبب جدول العمل المزدحم، ولكن برهان أبدى عدم ارتياحه للتطورات السياسية في سورية في معرض إجابته على سؤالي عن التطورات في البلاد. تفاجأت في باريس بالحضور الكبير للأقليات المغاربية والإفريقية في المدينة. كانت تلك زيارتي الأولى لفرنسا. كما تفاجأت بالاختلاف الكبير في المستوى التنظيمي والمعيشي بين المسلمين في فرنسا وفي أمريكا. كانت هذه الأفكار تدور في رأسي وأنا أتجول في مسجد باريس الكبير، ذي الطابع المغربي الأندلسي، بعد محاضرة قدمتها، تلاها نقاش قصير مع أبناء الجالية. بدا لي واضحاً أن قدرة المهاجرين المسلمين الجدد على التأقلم مع المجتمع الأمريكي لا تعود فقط لانفتاح ذلك المجتمع، ولكن للمستوى التعليمي المتميز لأبناء الجالية، مقارنة مع مسلمي أوربا الذين ينتمون إلى طبقات اجتماعية أقل تعليماً وأكثر فقراً.

سافرت صيف (2002) إلى بيروت للمشاركة في ندوة بعنوان «الأمير شكيب أرسلان عطاؤه الفكري ومنهجه الإصلاحي»، نظمها مكتب المعهد العالمي بالتعاون مع المعهد العالي للدراسات الإسلامية في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية. يعود اهتمامي بفكر شكيب أرسلان إلى مرحلة مبكرة من عمري مع بدء اهتمامي بفكرة الإصلاح. كان شكيب في طليعة المفكرين المعاصرين الذين أدركوا طبيعة التحدي الذي يواجه المجتمعات الإسلامية، وفي مقدمة من أثار في كتاباته الحاجة إلى التركيز على التطور الثقافي في معركة الإصلاح؛ لذلك اخترت هذا الجانب من مساهمته موضوعاً لورقتي التي كانت بعنوان «الإصلاح في فكر شكيب أرسلان»، ناقشت فيها طبيعة الفترة التي عاشها أرسلان إبان سقوط الدولة العثمانية؛ والتي شكلت مرحلة تحولات تاريخية كبرى، كما شددت على تركيزه في كتاباته على الإصلاح العلمي والأخلاقي والسلوكي، بوصفه مقدمة للإصلاح السياسي والتطور الحضاري. كان حضور رضوان السيد مستمراً منذ بداية الندوة التي افتتحها، وعرَّف بها بالتعاون مع أمين الداعوق، رئيس جمعية المقاصد، واختتمها بالترحيب بالزعيم الدرزي المعروف وليد جنبلاط؛ الذي حضر جلسة الختام. تحدث جنبلاط في كلمته المرتجلة عن والدته مي أرسلان،

واسترجع ذكريات شخصية من حياتها وأثرها في تنشئته. وتحدث عن فكر جدّه شكيب أرسلان الذي قاربه بعاطفة هادئة. وشارك في الندوة ثلة من المفكرين اللبنانيين المؤثرين، وفي مقدمتهم وجيه كوثراني وسعود المولى.

دعيت في شهر تموز من ذلك العام، وقبل سفري إلى سورية ولبنان، إلى إلقاء محاضرة ضمن سلسلة محاضرات سنوية تحت عنوان «كرسي العالم»، نظمها المجمع الإسلامي لمقاطعة الأمير جورج الجنوبية في ولاية ميريلاند. كان المجمع تابعاً لمنظمة أسسها المسلمون السود، وكان موضوع المحاضرة: أشكال الدفاع عن حقوق الإنسان؛ وهو موضوع استمر يشغل حيزاً مهماً من محاضراتي العامة، إضافة إلى موضوع السلام. ارتفعت في عام (2002) الأصوات المطالبة بالسلم، وزادت فيه أحاديث السلام على مواضيع ندوات ومحاضرات ومؤتمرات المطروحة. فقد كانت إدارة بوش تدقُّ طبول الحرب في العراق، وكنت من المعارضين لهذا التدخل، والمحذرين من تداعياته. شاركت في مظاهرة كبيرة في العاصمة الأمريكية واشنطن، نظمت لرفض فكرة الحرب التي كان يروِّج لها المحافظون الجدد. وصحبتني ابنتايّ الصغيرتان لبنى ورهف؛ فقد رغبتُ أن تكون هذه المناسبة فرصة لهما لتتعلما أهمية المشاركة في جهد عام وهدف نبيل. ولم تكن هذه المرة الأخيرة التي ترافقني فيها ابنتاي في نشاط عام. كنا نذهب معاً باضطراد إلى مؤتمر الاتحاد السنوي، وكانتا تشاركان في النشاطات الطلابية. اهتمام رهف في النشاطات الحقوقية بدأ يتبلور في المرحلة الإعدادية. أذكر أنها أبدت رغبة في مرافقتي في زيارات مرتبطة بنشاطي الحقوقي والعلمي بعد أن عرضت عليها ذلك. صحبتني في زيارة لشيكاغو عام (2005) للمشاركة في اجتماع مع مجلس منظمات الجاليات الإسلامية هناك. حضرت الاجتماع وكانت تصغي للحديث المتعلق بتطوير قدرات قيادات الجالية التواصلية والإدارية. كما رافقتني إلى ندوة علمية دعيت إليها في جامعة ولاية ميشيغان في مدينة ايستلانسنغ بتاريخ 20 نيسان (2007) بدعوة من اندرو مارش أستاذ العلوم السياسية، والمهتم بالدراسات الإسلامية والشرق أوسطية. زرنا بعد انتهاء المؤتمر مدينة ديترويت حيث قمنا فيها بجولة شملت الأحياء الفقيرة

التي يعيش فيها الأمريكيون السود. كما قمنا بجولة مشابهة في أحياء مدينة شيكاغو الفقيرة التي تقطنها الأقلية السوداء في زيارة لتلك للمدينة بعد سنة من ذلك التاريخ، وكان جميع أفراد العائلة بصحبتنا. حيث أذهلت مظاهر الفقر الشديد والأحياء المهملة زوجتي وأولادي، ولكنها كانت مناسبة جيدة لإطلاعهم على ظروف الأمريكيين السود الصعبة، ومناقشة قضايا الفقر والتمييز العنصري بعد رؤية آثار هذه المفاهيم بصورة عملية.

شاركت في شهر آب من ذلك العام في محاضرتين خلال المؤتمر السنوي للاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية الذي عقد ذاك العام في مدينة واشنطن، بعد أيام من عودتي من دمشق. وجرى نقل وقائع المحاضرتين اللتين قدمتهما على قناة سيسبان؛ التي تبث في الولايات المتحدة أهم النشاطات واللقاءات العامة. وتلقيت إثر ذلك عدة رسائل من مشاهدين في ولايات مختلفة؛ بعضهم من الولايات الجنوبية، ومن محافظين مسيحيين تفاعلوا مع ما سمعوه عن احترام الإسلام للحرية الدينية منذ ألف وأربع مئة سنة. أبدت الرسائل ردود فعل إيجابية نظراً لتعارض الكلام مع الانطباع العام الذي كان يتلقاه كثير من المواطنين من الإعلام، بسبب ربطه المستمر الإسلام بأحداث العنف والإرهاب.

وقمت بتنظيم ورشة عمل من خلال رابطة علماء الاجتماعيات، في الشهر الأخير من (2002) في الجامعة الأمريكية، بالتعاون مع منظمة الإيسيسكو التي كان يترأسها عبد العزيز التويجري. دارت الورشة حول موضوع "الإسلام والسلام وطبيعة الصراعات الدولية". كانت الغاية توضيح قيم الإسلام لتنوع معتقدات المسلمين في أمريكا والعالم، وإظهار رفض الأغلبية المسلمة في العالم للأعمال الإرهابية ضد المدنيين؛ التي ينفذها المتطرفون باسم الإسلام. ودُعي عدد كبير من الأمريكيين غير المسلمين لحضور المؤتمر والحوار مع المسلمين الأمريكيين.

بعد انتهاء مؤتمر السلام بأسبوع دعيت إلى أول مؤتمر تقويمي وتخطيطي واسع، في مدينة كنساس من ولاية ميزوري في وسط الولايات المتحدة،

نظمته الجالية المسلمة في المدينة وحضره معظم قيادات المنظمات المدنية المهتمة بالجاليات الإسلامية على امتداد أمريكا. كانت الغاية من المؤتمر وضع استراتيجية على مستوى الجاليات المسلمة في أمريكا؛ لتطوير أداء مؤسساتها وبناء الجسور مع مؤسسات المجتمع المدني. حدد الحضور مواطن القوة والضعف في الجالية، كما حددوا الفرص والمخاطر في محيطها الاجتماعي والسياسي. وتم بناء على ذلك تحديد عدد من الأولويات. انقسم الحضور بعد تحديد الأولويات لتطوير استراتيجيات للتعامل مع كل أولوية منها على حدة. قاد النقاشات في ذلك اللقاء الصديقين ديلنواز صديقي ورفيق بيكون المتخصص في شؤون الإدارة والتخطيط. وحضر اللقاء عدد كبير من قيادات الجالية؛ منهم سيد سعيد، وعبد الله إدريس، وإحسان باغبي، ومها الجنيدي، وانغرد ماتسون، وسيد امتياز أحمد، وجمال بدوي، ومزمل صديقي، وآخرين. وطلب مني في المؤتمر إدارة حلقة نقاشية لإعداد تصور لتطوير القيادة داخل الجالية، فقمنا بوضع التصور الذي أصبح لاحقاً نواة لتأسيس مركز التنمية القيادية؛ الذي ترأسته لعدة سنوات، بعد الالتحاق بأمانة الاتحاد في بلينفيلد من ولاية انديانا عام (2004).

شهد بداية عام (2003) لحظة فراقي مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بعد سنوات من العمل المشترك، وبعد سنة كاملة من توظيف قسم كبير من وقتي للدفاع عنه، في مواجهة حملات التشويه والشيطنة، والتي شهدت مشادة تلفزيونية حامية في منتصف سنة (2002) مع الإعلامي الاستفزازي اليميني المشهور "بيل أوريلي"، وأحد أقطاب الهجوم على الجالية الإسلامية ومؤسساتها في الإعلام الأمريكي. دعاني جمال إلى اجتماع حضره هشام الطالب ويعقوب ميرزا للحديث عن وضع المعهد المالي، وحاجته إلى تخفيض النفقات، وطلب مني البحث خلال الأشهر القادمة عن فرص عمل أخرى، وعرض علي بأدبه المعتاد المساعدة في ذلك. لم أقتنع بالأسباب التي ذكرها في الحديث؛ فلم تكن ثمة تكلفة عالية في القسم الذي أديره، سوى المرتب المحدود الذي كنت أتقاضاه. اعتقدت بدءاً أن يكون

الاختلاف في مواقفي وآرائي حول خط المعهد أحد الأسباب. ولكنني رجحت لاحقاً أن يكون ورود اسمي في محاكمة سامي العريان؛ التي بدأت عام (2003)؛ السبب الأقرب بالنظر إلى سياق القرار. ترجيح البعد القانوني في قرار إبعادي عن المعهد يعود أيضاً إلى تطورات الملفّ القانوني، وبالنظر إلى معرفة الفريق الاستشاري الذي يعمل مع جمال بقرار المدعي العام وضع الحوار الهاتفي الذي جرى مع سامي على قائمة الأدلة الواردة في المحاكمة. المقطع الذي عرضه المدعي العام من الحوار يتعلق بسؤال سألته لسامي عن أثر المرسوم الرئاسي الذي أصدره الرئيس كلينتون بتسمية عدد من الفصائل الفلسطينية؛ مثل الجهاد الإسلامي؛ منظمات إرهابية على بيت الخبرة الذي يترأسه. أشار سامي في جوابه إلى دور جماعات الضغط الصهيونية في حثّ كلينتون على إصدار المرسوم، ووافقته بدوري على تقييمه. وأي كان الأمر، فقد كان واضحاً في ذهني أن القرار اتخذ بصورة مفاجئة، ولم تسبقه أية مقدمات تشير إلى رغبة فريق المعهد في إنهاء العلاقة معي.

تفهمت موقف جمال، وطلبت منه إمهالي بضعة أيام للإجابة على طلبه. بعد تقليب الأمر والتأمل في التطورات أرسلت له رسالة استقالة فورية. شعرت بشيء من المرارة، ولكن المبادئ التي صاحبتني طوال الخلافات مع المؤسسات التي عملت بها هي أن لا أتمسك بالعمل في مؤسسة لا تهتم بخدماتي، وأن القرارات التي تولد الحزن وخيبة الأمل قد تخفي خلفها خيراً كثيراً مغيباً، وأن "الخيرة فيما اختاره الله". تفرغت خلال الأشهر المتبقية من سنة (2003) لمشروع مركز دراسة الإسلام والديمقراطية، والذي سبق أن بدأت جهود لتطويره بالتعاون مع رضوان المصمودي قبل ثلاثة أعوام، بعد انضمامي إليه بوصفي أحد مديريه المؤسسين. ابتعادي عن المعهد أعطاني وقتاً إضافياً، فتفرغت للعمل على تأسيس مكتب رسمي للمركز في مدينة واشنطن. انتهى الجهد بتحوله إلى مركز نشط يوظف العديد من الناشطين في عمله، وارتفعت ميزانيته بعد التوقيع على عدد من المشاريع، مما سمح لرضوان بالاستقالة من عمله مع جامعة جون هابكنز والتفرغ للمشروع.

تابعـت نشـاطاتي المرتبطـة ببنـاء السـلم الأهـلي بـين المهاجريـن المسـلمين والأغلبيـة المسـيحية، فشـاركت في العديـد مـن اللقـاءات والنـدوات للمـضي في هـذا العمـل، لعـل أهمهـا قبـول دعـوة مـن منظمـة مهتمـة بقضايـا السـلم الأهـلي اسـمها "شراكـة مـن أجـل السـلم"؛ التـي كان يرأسـها بشـير أحمـد، وهـو رجـل أعمال يقيـم في مدينـة ديتـون؛ التـي اسـتضافت مؤتمـر السـلام المتعلـق بمفاوضات البوسـنا. وصلتنـي دعـوة مـن رئيـس المؤتمـر لأكـون المتحـدث الرئيـسي لتلـك السـنة، وأرفـق مضيفـي بالرسـالة قائمـة بأسـماء المتحدثـين الرئيسـيين السـابقين في هـذا المؤتمـر السـنوي لتحفيـزي عـلى أخـذ الدعـوة بجديـة، وكانـت القائمـة تشـمل الرئيـس الأمريكـي الأسـبق جيمـي كارتـر، ورئيـس جنـوب إفريقيـا الأسـبق نيلسـون مانديـلا، وقـسّ الجنـوب الإفريقـي المعـروف ديزمـن توتـو، والحاخـام مايـكل لرنـر الـذي التقيتـه قبـل سـنتين في نيويـورك، والصديـق سـيد سـعيد أمـين عـام الاتحـاد الإسـلامي لأمريـكا الشـمالية. قائمـة المتحدثـين في مؤتمر السـلام كانـت لافتـة، ولكنـي لم أكـن بطبيعـة الحـال أحتـاج إلى تحفيـز للتحـدث فيـه، فقـد كان موضوعـه يتعلـق بإحـدى أهـم القضايـا التـي شـغلت بـالي ووقتـي خـلال السـنوات القليلـة الماضيـة، والتـي كانـت موضـوع آخـر كتـاب نشرتـه بالإنكليزيـة قبـل سـنتين، حمـل عنـوان (**السـلم وحـدود الحـرب**). كان المؤتمـر فرصـة لي أيضـاً للتعـرف عـلى أصدقـاء وحلفـاء في الـصراع ضـد مسـاعي اليمـين المتطـرف الراغـب في تهميـش المسـلمين الأمريكيـين، وإنعـاش بـذور الخـلاف الدينـي بـين الـشرق والغـرب.

شـاركت بعـدد مـن النشـاطات في ذاك العـام هدفـت إلى تطويـر مؤسسـات الجاليـة وعلاقاتهـا مـع المكونـات الأمريكيـة الأخـرى، وشـملت نـدوة حـوار إسـلامي مسـيحي يهـودي في ولايـة كنكتكـت، نظمتهـا جامعـة سـيكريدهارت في شـهر نيسـان، ومؤتمـر حـول التطـرف في جامعـة تكسـاس، وزيـارة للجاليـة الإسـلامية في مدينـة مانفيـس ضمـن أعـمال "الشـهر الإسـلامي"؛ الـذي أعلنـه عمـدة المدينـة تكريـماً للجاليـة الإسـلامية هنـاك. حـضرت مؤتمـر الحـوار الدينـي الـذي حمـل عنـوان "طـرق السـلام في الملـة الإبراهيميـة"، وشـاركت مـع الزميلـة عزيـزة الهـبري في المـداولات. وقدمـت خـلال المؤتمـر ورقـة تـم نشرهـا لاحقـاً

بكتاب يحمل عنوان الندوة. وجرى نقاش حاد مع حاخامَين حضرا من فرنسا، واتخذا موقفاً متشدِّداً من الحقوق الفلسطينية، التي كنت من المدافعين عنها عبر العقود الماضية، ولكن الجو العام للحوار كان جيداً ومفيداً.

مؤتمر التطرف عقد في شهر آب من ذاك العام، وحضره نخبة من المفكرين والناشطين؛ منهم الصديق كمران بخاري الباحث المتخصص بشؤون الإسلام والشرق الأوسط، وزاهد بخاري أحد أبرز قادة الدائرة الإسلامية في أمريكا الشمالية (إكنا)، كما تحدث به عدد من الأكاديميين الأمريكيين؛ منهم مارك إلياس وتشالز بلنغر. والتقيت خلال المؤتمر بالدكتور يوسف قاوقجي إمام مسجد أرفينغ، وهو أكاديمي تركي هاجر إلى الولايات المتحدة في الثمانينيات، ووالد مروة قاوقجي أول عضوة تدخل مجلس النواب التركي وهي تلبس الحجاب، وكان ذلك سبباً لإخراجها من قاعة المجلس من قِبَل الأحزاب العلمانية المتطرفة الحاكمة آنئذ، ثم فصلها عن البرلمان قبل وصول حزب العدالة والتنمية للسلطة.

النشاط الأكثر متعة كان في مدينة مانفيس أثناء فعاليات الشهر الإسلامي الذي أعلنه عمدتها. إضافة للمحاضرات والندوات، تميزت الزيارة بنشاطات فنية وترفيهية. وكانت المرة الأولى التي ألتقي بها بالشاب الفكاهي الصاعد أزهر عثمان، وكان قد تخرج حديثاً من كلية الحقوق، ولكنه اختار التفرغ للعمل في مجال النقد الساخر. هذا النوع من النقد الفكاهي معروف في الولايات المتحدة باسم "ستاند آب كوميدي"، أو "فكاهة النهوض"؛ لأن الفكاهي يطلق نكاته الساخرة وهو في وضعية الوقوف أو النهوض؛ ولأنه يواجه المثالب الاجتماعية ويتصدَّى لها. هذا الفنُّ مهم جداً؛ لأنه يسمح بنقد الممارسات الاجتماعية والسياسية بطريقة جذابة للمشاهدين بعيداً عن الوعظ والتوجيه. دور الفنان هنا هو إظهار التناقضات والزلات والأخطاء في السلوك الاجتماعي بأسلوب فني فكاهي وساخر. أسلوب النقد الفكاهي فعّال؛ لأنه يسمح للفكاهي بالنقد اللاذع للسلوك، ولكن في سياق أُنسٍ واسترخاءٍ يحول دون توليد ردود أفعال غاضبة، ويسمح للمستمع ملاحظة

الخطأ عندما يعرض عبر المفارقات التي تولد حالة الضحك. لذلك فإن "فكاهة النهوض" طريقة ناجعة للنقد الاجتماعي، تترك أثراً عميقاً في وعي المستمعين ونظرتهم إلى تلك الأخطاء.

شاركت أيضاً في منتصف ذلك العام بالحملة التي هدفت إلى منع تسمية دانيال بايب لعضوية مفوضية الحريات الدينية من قبل حلفائه داخل إدارة جورج بوش الابن. فقد كان بايب في مقدمة المعادين للإسلام، وكانت مهمة المؤسسة التي أنشأها، وتحمل اسم "مراجعات الشرق الأوسط"، الترصد لمنظمات الجالية المسلمة والعمل على تقويضها، وتحريض المواطنين والجهات الحكومية ضدها. وكان يعاونه في مهمته شبكة من أنصار اليمين الديني في الغرب. كتبت مقالات عديدة لإظهار مواقفه العنصرية التي تعتمد على خلط الأوراق، والتعميم من حالات التطرف إلى واقع المسلمين عموماً. وأرسلت في منتصف العام رسالة إلى الرئيس الأمريكي أطلب منه سحب ترشيحه لبايب لعضوية مفوضية الحريات الدينية؛ لأن المرشح معادي في حقيقة الأمر للحرية الدينية للمسلمين الأمريكيين. جاءني ردٌّ على رسالتي من دينا باول، مساعدة الرئيس، تؤكد أن الإدارة تنظر في الاعتراضات على تسميته لعضوية المفوضية. معنى الكلام باللغة الدبلوماسية أن إدارة بوش مستمرة في دعم بايب. وفعلاً بعد شهر من تسميته، صوَّت مجلس الشيوخ ضدّ تعيينه في المنصب، لكن إدارة بوش عادت وشملته بتعيينات العطلة السنوية، وهي تعيينات مؤقتة تنتهي تلقائياً بانتهاء سنة التعيين، وهذا ما حصل لاحقاً.

شاركت في مطلع عام (2003) في ملتقى فكري نظمته شيرين هانتر؛ الزميلة في مركز الدراسات الاستراتيجية والعالمية، تناول موضوع اندماج المسلمين في أوربا والولايات المتحدة. شارك في الحوار عدد من المهتمين بالموضوع داخل الجالية الإسلامية وخارجها. أذكر منهم شريفة الخطيب، الناشطة الحقوقية في منطقة واشنطن الكبرى؛ والتي كانت تصدر سنوياً دليلاً بأسماء المنظمات والمراكز والخدمات الإسلامية في منطقة واشنطن، ووافتها المنية في عمر مبكر بعد عامين من ذلك اللقاء. كما شارك سليمان نيانغ وزاهد بخاري، إضافة إلى طارق رمضان وبيتر ماندفيل وإيفون حداد

وآخرين. وكان ذاك اللقاء هو ثاني لقاء يجمعني مع طارق؛ الذي كان يعدُّ العدَّة للانتقال إلى جامعة نوتردیم، ولكن اليمين المتطرف نجح باستخدام قوانين الإرهاب للحيلولة دون ذلك. صدرت أوراق ملتقى اندماج المسلمين في المجتمعات الغربية في كتاب باللغة الإنكليزية يحمل عنواناً متناسباً (**اندماج الجاليات الإسلامية في أوربا والولايات المتحدة**). الدكتورة شيرين هانتر وزميلة مشتركة لنا هي الدكتورة تمارة سون، كانتا من المهتمين بنشاطي الفكري النظري والحقوقي العملي، والمتابعين لجهودي الإصلاحية. قامتا بتقديم نشاطاتي وأعمالي بوصفها نموذجاً إصلاحياً للفكر الإسلامي في كتاب صدر عام (2008)، بعنوان (**أصوات إصلاحية في الإسلام: التوسط بين الإسلام والحداثة**)، صدر عن مؤسسة روتردج المعروفة للنشر.

مركز دراسة الإسلام والديمقراطية

الحصة الأكبر من نشاطاتي ذاك العام ذهبت نحو تأسيس مركز دراسات الإسلام والديمقراطية، حيث تفرغت لتطوير برامجه بالتعاون مع رضوان مصمودي بعد استقالتي من المعهد. مغادرتي للمعهد كانت مفاجئة لمتابعي المشروع، نظراً لارتباطي الطويل بفكرة التكامل المعرفي على مستوى الجهود التنظيرية، وعلى مستوى إثارة الفكرة في الدوائر الأكاديمية. ولكن مغادرتي كانت أيضاً متوقعة، بسبب بنيته الداخلية وآليات عمله والمركزية المفرطة في إدارته. لم يتحول المعهد إلى مؤسسة، رغم الحديث عن إعداد للجيل الثاني، بل بقيت فكرته وأولوياته ونشاطاته لصيقة بأعضاء مجلس أمانته الخمسة المؤسسين. تركت المعهد دون أي شعور بالأسف أو المرارة، بل بشيء من خيبة الأمل. ولكنها خيبة أمل تتعلق بما يمكن أن يكون لا بما حصل. خيبة أملي انحصرت في آليات العمل وأساليب قيادة المشروع، ولكنها خيبة لا تقلل من قيمة الخدمات الأساسية التي قدمها المعهد للحركة الفكرية الإصلاحية في العالم الإسلامي، ولا تتجاهل أو تنكر فضل هذه المؤسسة المهمة على توفير الفرص التي ساهمت في تطوري الفكري، وتفاعلي مع شبكة واسعة من المفكرين والعلماء الناشطين في قضايا التنمية والإصلاح.

مغادرتي للمعهد أعطتني فرصة للعمل على واحدة من القضايا الحيوية التي احتلت اهتمامي لسنوات، قضية الديمقراطية في علاقتها بقيم الإسلام، بوصفها مبدأ سياسياً ضرورياً للحفاظ على حقوق المواطنين، ومساءلة المؤتمنين على السلطة السياسية. اهتمامي بالأساس الإسلامي لقيم الديمقراطية في المجتمعات العربي والإسلامية كان موضوع مقابلة صحفية، أجراها معي بريان هاندويرك لحساب مجلة (ناشيونال جيوغرافيك) في 24 تشرين الأول (2004). نشرت المقابلة تحت عنوان "هل تعايش الإسلام والديمقراطية ممكن؟". جوابي عن سؤال المقابلة الأساسي أن الإسلام شرط ضروري للتأسيس للحياة الديمقراطية في الدول ذات الأغلبية المسلمة؛ لأن الديمقراطية ليست إجراءات وحسب، بل ترتكز في المقام الأول إلى جملة من القيم الأخلاقية. القيم الأخلاقية الضرورية لقيام نظام ديمقراطي ليست جزءاً من ثقافة معظم الشعوب الإسلامية، ولكنها جزء أصيل من قيم الإسلام الذي يدعو إلى العدل والمساواة وحرية الدين والعقيدة والرأي، كما يدعو إلى التعددية الدينية والقومية، وهذه قيم أساسية وأصيلة لأي نظام ديمقراطي. نبهت أيضاً إلى أثر الاختلافات في التركيبة السكانية والثقافة السياسية على اختلاف أشكال الأنظمة الديمقراطية؛ لذلك أكدت على أن الديمقراطية في المجتمعات الإسلامية قد تأخذ أشكالاً خاصة بها.

قمت خلال تفرغي للعمل في مركز دراسة الإسلام والديمقراطية بعشرات الزيارات واللقاءات مع مؤسسات مدنية متخصصة بقضايا الحقوق والقانون والتنمية ودعم انتشار الديمقراطية وحقوق الإنسان. كما قمت برحلات إلى العديد من الدول لإنشاء برامج تعاون، شملت الفلبين ونيجيريا والأردن ولبنان. وكنت في جميع تلك الرحلات والنشاطات بصحبة رضوان المصمودي صاحب المبادرة والمشروع، الذي بدأ يشغل مساحة متزايدة من وقته، ويحول بينه والقيام بمسؤولياته في جامعة جون هابكنز، مما دفعه في نهاية العام إلى الاستقالة والتفرغ للمشروع، وسمح لي بالانتقال للعمل في مشروع آخر هو مشروع "التنمية القيادية" لناشطي الجالية ومتطوعيها والمتفرغين لنشاطاتها.

شملت رحلاتنا في ذاك العام زيارات للفلبين ونيجيريا والأردن ولبنان. كانت الأجواء في الأردن ولبنان غير مناسبة لطرح قضايا الديمقراطية والحريات من وجهة نظر مضيفينا. لقاؤنا في الأردن مع الدكتور إسحاق فرحان لم يثمر عن شيء، فقد كانت التدخلات الأمريكية في العراق تلقي بظلها الثقيل على المجتمع الأردني؛ الذي تحول إلى ملجأ كبير للمهاجرين الهاربين من الصراع العسكري الذي ولده التدخل الأمريكي في العراق. ولم يكن الحال أفضل في لبنان الرازح تحت الهيمنة العسكرية للنظام السوري، وهيمنة حزب الله على مفاصل الحياة السياسية. وتبين لي أن مخاوف الأصدقاء في لبنان كانت أشدّ من مخاوف السوريين لنظامهم القمعي. وانتهت زيارتنا التي شملت لقاءات مع توفيق العوجي ورضوان السيد وأحمد موصللي دون الوصول إلى تفاهمات للتعاون على مشاريع تدريبية مشتركة.

قمنا كذلك بزيارة لنيجيريا، وكان الهدف من الزيارة الإعداد لمؤتمر يناقش مسألة تطبيق الشريعة؛ التي أخذت منحى واضحاً في البلاد مع زيادة المطالب بتطبيقها، بوصفها المخرج من حالة الفاسد المستشري في نيجيريا. كان مضيفنا في تلك الرحلة أستاذ علوم الكومبيوتر في جامعة بيارو الدكتور بشير غالادانشي؛ والذي تولى وزارة التقنية والبحث العلمي في حكومة ولاية كانو عام (2010). وشملت الزيارة لقاء مع حاكم ولاية كانو، مالام إبراهيم شكارو، ولقاءات في العاصمة أبوجا مع أكاديميين ورجال أعمال. كان الأمر اللافت للنظر الفقر الشديد في مناطق المسلمين في شمال نيجيريا. وكان لافتاً للنظر كذلك العدد الهائل من بائعي الوقود على امتداد الطرق في مناطق التجمعات السكانية. كان البائعون يحملون زجاجات وحاويات بلاستيكية مملوءة بالبنزين، في حين كانت محطات البنزين مغلقة لأسباب لم نتمكن من معرفتها من خلال مضيفنا؛ ولكنني رجحت أن توفر البنزين لبائعين متجولين بأسعار زهيدة عبر مهربين، أجبر المحطات الرسمية على إغلاق أبوابها لعجزها عن منافسة أسعار البنزين المهرب. هذا الواقع الغريب عكس استشراء الفساد في البلاد؛ والذي لحق حتى بالأجهزة الأمنية التي يفترض أنها الجهة الأساسية في محاربة السرقة والفساد. كنا نشاهد على

الطريق بين كانو عاصمة الشمال، وأبوجا عاصمة نيجيريا الرسمية حواجز عديدة، وفي بعض المناطق على مسافات لا تتجاوز كيلو متراً واحداً؛ بسبب الاضطرابات والهجمات المتبادلة بين مجموعات الانتقام المسلحة من مسلمين ومسيحيين. وصلنا بعد جولة قصيرة في البلاد إلى المطار لنفاجئ برجال الأمن يطلبون رشوة بطريقة علنية مبتذلة. تجاهلنا مطالبهم واتجهنا إلى بوابة الطائرة لنعود أدراجنا إلى واشنطن. الدعوة لتطبيق الشريعة في نيجيريا كانت دعوة عاطفية؛ لأن الشعب لم يكن يدرك معنى الشريعة وتطبيقاتها. بالنسبة للناس شعار "تطبيق الشريعة" شكل صرخة شعبية للخلاص من الفساد المستشري الذي ارتبط بالأذهان بتطبيق قوانين الدولة الحديثة. كان ثمة حاجة إلى إثارة نقاشات في أوساط المثقفين حول معنى الشريعة وعلاقتها بالمجتمعات المعاصرة، وكانت الخطة لتحقيق ذلك هو عقد مؤتمر حول تطبيق الشريعة لإثارة النقاشات الضرورية، وتحديد أسباب الفساد الحقيقي، الذي انتشر حتى بين "حماة" الشريعة وبعض دعاتها.

لعل أكثر الرحلات تنظيماً ذاك العام كانت زيارة الفلبين بدعوة من المجلس الفلبيني للإسلام والديمقراطية، في شهر أيلول من عام (2003)، نظمته رئيسة المجلس أمينة رسول. اشتمل برنامج الزيارة على سلسلة من اللقاءات في مانيلا، وفي ثلاثة مدن من جزيرة مندناو التي أصبحت مألوفة لي بعد العديد من الزيارات السابقة في منتصف التسعينيات. شملت الزيارة مدن مراوي وكوتاباتو وزانبونغا، وكانت تهدف إلى المشاركة في حوارات مع زعماء الأغلبية المسلمة في الجنوب حول ضرورة العمل، وتطوير القدرات للمشاركة السياسية، واستخدام مؤسسات المجتمع المدني والنظام الديمقراطي للدفاع عن حقوق المسلمين وتحقيق مصالحهم المشتركة مع الأغلبية المسيحية. وكانت المقاومة المدنية والمسلحة هي الفكرة الأساسية السائدة بين السكان. كانت محطتنا الأولى العاصمة الفلبينية مانيلا، حيث شاركنا في ندوة حول الإسلام والديمقراطية في معهد الدراسات الإسلامية في جامعة الفلبين، وتحاورنا في لقاء نظمه المعهد الآسيوي للإدارة (أيم) مع قادة المنظمات العالمية غير الحكومية؛

التي تقوم بنشاطات مختلفة في البلاد تتراوح بين الدعم المالي ونشاطات التوعية والتدريب والدفاع عن حقوق الإنسان.

سافرت والصديق رضوان المصمودي إلى الجنوب، وتحدثنا خلال محطتنا الأولى في مدينة مراوي إلى جمع من الأكاديميين والطلاب في الجامعة، في لقاء استضافته الجامعة، تبعه لقاء عام استضافته بلدية المدينة. ثم انتقلنا بسيارة إلى مدينة كوتاباتو؛ إحدى مدن منطقة الحكم الذاتي. كانت الخطة أن نعود إلى مانيلا على متن طائرة ثم السفر مرة أخرى إلى كوتوباتو من هناك، نظراً لخطورة الطريق، ولكننا رفضنا الخطة وآثرنا قطع المسافة القصيرة التي لا تتجاوز ساعتين، وتحمل مخاطر الرحلة. فقرر محافظ المنطقة إرسال سيارة عسكرية تحمل مدفعاً رشاشاً لتوفير الحماية. دعيت في اليوم الأول من وصولنا والذي صادف يوم الجمعة، إلى إلقاء خطبة الجمعة في مسجد المدينة، وبحضور رئيس بلدية المدينة وقادة المجتمع المدني. وشاركنا بعد الظهر في لقاء موسع مفتوح ضمَّ مئتي رجل وامرأة من أبناء المدينة الصغيرة. وشدَّدت في حديثي على ضرورة تبني العمل السياسي، وتطوير القدرات الضرورية لفهم النظام السياسي، والاستفادة من الفرص التي يمنحها من أجل تمكين المسلمين في مناطقهم. وشدَّدنا على رفض الممارسات التي تتعارض مع قيم الإسلام الأساسية، بما في ذلك العنف ضد المدنيين والخطف وأخذ الرهائن. وكانت المنطقة قد شهدت عدداً من عمليات خطف السياح الأجانب، قامت بها مجموعات متطرفة مثل "جماعة أبو سياف". قدم المشاركون من سكان المدينة آراء عكست تنوعاً لافتاً، وتراوحت بين التشدد والمحافظة والانفتاح. ورغم التنوع الكبير في وجهات النظر، بقيت المناقشات مهذبة وودية، واتصف الحوار بالصراحة والانفتاح، تخلله لطبيعة الموضوع حماسة في النقاش في بعض الأحيان. ومن بين الهموم الرئيسية التي عبر عنها المشاركون، غياب الفرص الاقتصادية، وعدم وجود استثمارات كافية في مناطق المسلمين، وفشل الحكومات المتعاقبة في الوفاء بالوعود، وضعف الميزانية المحدودة التي خصصتها

الحكومة المركزية لمناطق المسلمين. اجتماع كوتاباتو نظمه رجال الأعمال وقادة منظمات المجتمع المدني، وحضره عمدة المدينة ونحو 150 من الرجال والنساء. شارك في اللقاءات أيضاً جمهورٌ متنوع من نحو 150 طلاباً، وأعضاءُ هيئة التدريس، وقادةُ المجتمع؛ مسيحيون ومسلمون، في جامعة سيدة اللويزة. وجرى في كوتاباتو لقاء مع علماء الدين؛ الذين أصروا على إجراء المناقشة باللغة العربية؛ فقد كانت لغة دراستهم الجامعية. تركزت المداخلات على انتقاد حكومة مانيلا، وعلى موضوع تدهور أوضاع المسلمين في ظل الحكومات الديمقراطية المتعاقبة؛ التي تولت السلطة منذ الإطاحة بفرديناند ماركوس في عام (1986). بالنسبة لهؤلاء كان الحكم على الديمقراطية بنتائجها العملية لا بأسسها النظرية.

كان أكبر تجمع التقيناه في آخر مدينة زرناها في جزيرة مندناو، وبالتحديد مدينة زامبوانغا؛ فبعد لقاء صغير مع رجال الأعمال، انتقلنا إلى ملعب لكرة السلة يتبع للجامعة المحلية، كان قد امتلأ بآلاف المشاركين من أكاديميين وطلاب في جامعة جنوب غرب ميندناو. وكان هذا أكبر تجمع نشاهده خلال رحلتنا. انتهت زيارتنا لجنوب الفلبين بلقاء قصير مع رئيس بلدية المدينة، وزيارة لمؤسسة ماغاساكيتا المهتمة بمحو الأُمية، والتي أسستها عائلة أمينة ذات النفوذ والاحترام الواسع في مندناو.

مرَّ طريق العودة إلى واشنطن بالعاصمة الفلبينية مانيلا، أمضينا فيها يومين، والتقينا بالرئيس الفلبيني السابق الجنرال فيدل راموس في بيته؛ حيث دعانا إلى العشاء. تحدث راموس بصراحة كاملة عن الفساد المستشري في الفلبين، وأثار موضوع عودة الفساد إلى المؤسسات العامة، وعجز الثورة البيضاء التي قادها بالتعاون مع كارازون أكوينو، ضد حكم ماركوس عام (1986) عن الوصول إلى أهدافها في القضاء على الفساد. أجبرت الثورة ماركوس على الاستقالة، وانتخبت أكوينو أول رئيسة للفلبين. انتخب راموس رئيساً عام (1992)، واستمر حتى عام (1998)، ووقَّع اتفاقية سلام مع الثوار المسلمين في الجنوب أعطتهم حكماً ذاتياً في جزء من جزيرة مندناو.

عدت إلى أمريكا لأشهد تداعيات الصراع؛ بين أُمناء المجلس الإسلامي الأمريكي ومديره التنفيذي عبد الرحمن العمودي؛ الذي أنهى دور العمودي في المجلس. نشأ الخلاف بسبب خطبة نارية ألقاها العمودي تأييداً لحماس وحزب الله قرب البيت الأبيض. كانت حماس قد شملت بقانون الإرهاب الذي صدر خلال ولاية كلينتون. استقال العمودي وبدأ المجلس بالبحث عن بديل، وجرى نقاش معي حول تولي إدارة المجلس في صيف ذاك العام. ولكن الدكتور سيد سعيد أمين عام الاتحاد الإسلامي، اتصل بي يطلب مني رفض أي عرض؛ لأن دخولي في ذاك المعترك وفي تلك المرحلة سيدخلني في دوامة، وسيحول بيني وبين المشاركة بالنشاطات الثقافية والفكرية. ثم لم يلبث بعد أيام قليلة، تشاور خلالها مع مجلس أمناء الاتحاد، أن عرض علي الانضمام للاتحاد؛ لتأسيس مركز التدريب القيادي الذي طورت فكرته خلال لقائنا خريف العام الفائت في مدينة كنساس. وبالفعل سافرت لإجراء لقاءات مع عدد من أعضاء مجلس الأمناء، وكنت آنئذ عضواً في المجلس بصفتي رئيس رابطة علماء الاجتماعيات المسلمين. ونجم عن هذا اللقاء تعاقد على البدء في العمل مع نهاية العام الحالي. وبالفعل أعلمت رضوان بعزمي على الالتحاق بمهمة جديدة، واستقلت من مهامي التنفيذية في المركز لأبقى عضواً في مجلس الأمناء.

رحلات البحث عن الأرضيات المشتركة في المشرق

كان سفري الأخير ذاك العام تلبية لدعوة من مركز للحوار بين الشرق والغرب اسمه "مشروع البحث عن أرضية مشتركة"، وسافرت على أثرها إلى الأردن، مكان الاجتماع، بصحبة زوجتي. حللنا في الأردن ضيوفاً على مؤسسة آل البيت التي يشرف عليها الأمير حسن بن طلال؛ والذي كرس وقته، بعد عزله من منصب ولي العهد وانتقال السلطة إلى ابن أخيه، لقضايا الحوار الحضاري والديني. كان اللقاء أقرب إلى العصف الفكري، وبدا واضحاً غياب الأرضيات المشتركة لحوار بين مؤسسات مجتمعية فاعلة في الشرق والغرب. هذا اللقاء أكد لي بأن النشاطات التي ترعاه بعض

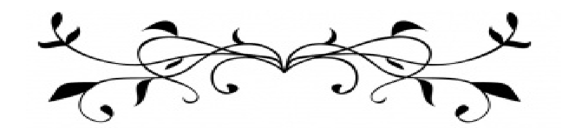
منظمات "الحوار" الغربية لم تكن تسعى إلى الدفع نحو حوار حقيقي، بل للقيام بجهد تجميلي دعائي يشعر المشاركين أنهم جزء من حوار، ولكنه كان في حقيقة الأمر حوار مبتور؛ لذلك تجنبت كثيراً من النشاطات الحوارية اللاحقة؛ التي كانت تعقد بغزارة في الشرق الأوسط، وبشكل خاص في عمان والدوحة ودبي.

بعد انتهاء اللقاء القصير غادرت عمان لزيارة دمشق وقضاء بضعة أيام بين الأهل في الشام. زياراتي لدمشق كانت تجمع دائماً بين الراحة والاستمتاع باللقاءات الأسرية والاجتماع مع الأصدقاء من جهة، وبعض لقاءات العمل للدفع بجهود خلق أجواء تسمح بالتحول نحو المشاركة السياسية. هذا اللقاء الذي استغرق بضعة أيام بسبب التزامات مسبقة في أمريكا شكل استثناء. اقتصر نشاطي على الزيارات العائلية وزيارة المكتبات للتعرف على آخر الكتب المنشورة. وكانت مكتبة دار الفكر التي يديرها الناشر القدير محمد عدنان سالم المكان المفضل لذلك. في ذاك العام قررت زيارة الشيخ سعيد رمضان البوطي في بيته في حي ركن الدين. لم أعد أذكر اليوم تفاصيل ترتيب اللقاء، ولكن كنت أرغب في الاستماع إلى رؤيته حول الوضع السوري. اتصلت به على هاتف منزله، وعرفت بنفسي وطلبت موعداً للقائه في اليوم التالي. وصلت إلى بيته بعد العصر، وصعدت درج المبنى الصغير، وقرعت الجرس، فتح الشيخ الباب بنفسه، ودخلنا إلى حجرة الضيوف، كانت الغرفة صغيرة بسيطة الأثاث. عرفته بنفسي ونشاطي، فلم أكن أعلم مدى معرفته بخلفيتي واهتماماتي. وقدمت له نسخة من كتابي (**إعمال العقل**)؛ وهو كتاب يقف في مقاربته للتعامل مع أصول الفقه وقراءة النص القرآني على النقيض من الأصول التي اعتمدها ونافح عنها في كتاباته. وكان – رحمه الله – يعتقد أن الأصول قد اكتملت ولا حاجة للاجتهاد فيها، إلا على مستوى اللغة وطريقة العرض. سألته عن الوضع في البلاد، وآفاق المستقبل، ومطالب الإصلاح وكيفية التعامل معها. لم يجبني عن سؤالي مباشرة، ولكنه أشار إلى استجابة النظام بين الحين والآخر لجهود الإفراج عن المعتقلين، ومساهماته في الوساطة نيابة عن أسرهم.

كما أنه أبدى تفاؤلاً حذراً بتحسن الوضع العام في البلاد. سألني أسئلة سريعة عن حال المسلمين في أمريكا، وتحدث قليلاً عن زيارته لها قبل عقد ونيف. ثم ودعته وغادرت المنزل إلى شأني. بدا لي خلال الزيارة حرص البوطي على الحفاظ على التقاليد التي ترسخت عبر السنين لدى الفقهاء في الفصل بين المرجعية الدينية والسياسية، والابتعاد عن مواجهة السلطان. المعادلة التي نوَّه إليها البوطي في لقائي السريع معه، والمتمثلة في الوقوف على مسافة بعيدة بما يكفي لتجنب الاختلاط بالسلطان، وقريبة بما يكفي لإيصال حاجات الناس إليه ومساعدتهم على حلِّها، لم تكن معادلة سهلة بسبب تجاوزات النظام الكثيرة، وتزايد أعداد الناس الذين اكتووا بمظالمه. ومع تصاعد العنف والعنف المضاد وجد البوطي نفسه في مكان لا يحسد عليه؛ فالمسافة التي وقفها من أطراف الصراع بدأت في التباعد التدريجي من الطرفين، وبقيت على مستوى من الخطاب منخفض كثيراً عن حاجة طرفي الصراع وتوقعاتهم.

عدت إلى الولايات المتحدة للانتقال إلى مكان عملي الجديد. وغادرت شمال فرجينيا في مطلع شهر كانون الثاني بصحبة أسرتي إلى بيتنا الجديد في مدينة بلينفيلد؛ وهي ضاحية من ضواحي مدينة انديانابولس عاصمة ولاية انديانا. وكنت قد اخترت البيت في رحلة خاطفة صحبني فيها ابنتي رهف وابني منير خلال عطلتهما الانتصافية. كان البيت الجديد أكبر بيت نقيم فيه بعد أن كبرت الأسرة وكبر الأبناء. كانت لبنى في بداية المرحلة الثانوية، ورهف في نهاية المرحلة المتوسطة، ومنير في الابتدائية، بينما كان مكين دون سن الدراسة الرسمية. كان العنصر الحاسم في اختيار موقع البناء مستوى المدارس؛ فالمدارس في بلينفيلد من أفضل مدارس ولاية انديانا. وكانت الثقافة المحافظة التي ميزت المدينة تعني ارتفاع المستوى التربوي والأخلاقي، ولكنها كانت تعني أيضاً مزيداً من الاحتكاك مع بعض المسيحيين المتشددين. وصلنا المدينة على دفعتين؛ فقد سافرت زوجتي بصحبة لبنى ومكين بالطائرة لإعداد المكان، وسافرت ورهف

ومنير بسيارة شاحنة حملت عفشنا الذي أحضرناه من فرجينيا، وحملت خلفه سيارتي المقطورة. كانت قيادة الشاحنة على الطرق الجبلية بحملها الثقيل خبرة جديدة ومثيرة، تطلبت حذراً مستمراً. ولكن أليست الحياة نفسها في تحليلها النهائي سلسلة من الخبرات؟ السفر في شاحنة تجر سيارة مقطورة كانت خبرة جديدة، والحياة التي تنتظرنا في بلينفيلد حيث مركز الاتحاد خبرة مختلفة في جوانب عديدة عما سبقها من خبرات.



7

الرؤية الإصلاحية وعوائق تحقيقها

(2010 – 2004)

وصلنا، بعد رحلة استغرقت يوماً كاملاً، إلى المنزل الجديد في ضاحية بلينفيلد من ولاية إنديانا. كان المنزل خالياً من الأثاث سوى البراد والغسالة والنشافة، وبعض أدوات المطبخ التي حملناها معنا من فرجينيا. كانت الحمولة التي ملأت شاحنة متوسطة الحجم، تنقسم بين الملابس والأدوات الكهربائية والكتب... كثير من الكتب. كان المنزل واسعاً سمح لابنَتَيَّ بالحصول على غرفة مستقلة لكل منهما، وسمح لي بغرفة مكتب خاصة، كنت أمضي فيها الساعات الطوال بعد عودتي من العمل في التفكير والقراءة والكتابة، بعيداً عن مشاغل الأسرة. وكان البيت يتضمن حديقة خلفية فسيحة. شعر ابني الصغير الذي لم يتجاوز الرابعة من العمر بالوحشة في بيت لا يحتوي على أثاث، وبدأ يطالبني بالعودة إلى المنزل السابق في فرجينيا. ثم توقف بعد أيام بعد أن علم أن الرجعة ليست خياراً، وبعد أن بدأ يشاهد أثاث المنزل الجديد يملأ الغرف الفارغة.

بدأت عملي في شهر كانون الثاني، وأمضيت بضعة أيام أتلمس التفاصيل الإدارية لمكان مألوف لي منذ عقدين؛ والذي تحول إلى خلية نحل من العمل الدؤوب لا تعرف السكون بعد انتقال الصديق سيد سعيد لتولي مهام إدارته. كان سيد شخصية فعالة ناشطة اجتماعياً على جميع الأصعدة. أعاد توليه مسؤولية الأمانة العامة تحريك العمل في مركز الاتحاد، وأدى بعد سنوات من العمل الدؤوب إلى زيادة عدد المنتسبين له والمشاركين في مؤتمره السنوي. ارتفع عدد المشاركين فيه من الألف في الثمانينيات إلى خمسة عشر

ألفاً يوم التحقت بإدارته، وتوليت مسؤولية إدارة ملف التنمية القيادية فيه. كانت الأمانة العامة مقسمة إلى مكاتب عديدة.. مكتب المؤتمرات يقوده شاب درس الإدارة العامة اسمه بشارة، ومكتب خدمات المراكز والمدارس يديره مختار أحمد، ومكتب جمع تبرعات وتطوير صندوق الادخار يدير أحمد الحطاب، أقدم المديرين فقد التحق بالاتحاد في منتصف الثمانينيات، وبقي ناشطاً ضمن أمانته العامة. خدم أحمد بصفة أمين عام لفترة من الزمن قبل انتقال سيد سعيد إليه.

التردد حول مهمة الإرشاد ومسؤوليات المجيز

أبلغني سيد سعيد عن قرار مجلس الأمناء بتكليفي بالإشراف على برنامج المرشدين العاملين في المؤسسات الخدمية الحكومية، خاصة السجون والجيش. لم أشعر بالارتياح لإضافة هذه المهمة الجديدة، فلم يكن لدي خبرة في هذا المجال التخصصي، إضافة إلى حجم العمل المطلوب لدعم المرشدين كان كبيراً. وكنت أخشى كذلك أن تؤثر مواقفي الداعمة للحقوق الفلسطينية، والناقدة للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، ولعمليات الجيش الأمريكي في العراق ومناطق أخرى من العالم، على عمل المرشدين. من ناحية أخرى، كان ثمة حاجة لتغطية هذه الدائرة المهمة، خاصة بعد التزام العديد من أفراد الجالية بالعمل في اختصاص صعب مليء بالتحديات، وإغلاق مكاتب المجلس الإسلامي الأمريكي الذي رعى شؤونهم في الماضي. بعد تقليب الأمور والنظر في الإيجابيات والسلبيات، قررت قبول التحدي وتوظيف منسقين لتغطية الجهد الإداري الكبير، والتركيز على مسؤولية تطوير رؤية لعمل هؤلاء، وتوفير البرامج التدريبية المناسبة. ولم أكن أدرك بطبيعة الحال أن هذه المسؤولية؛ التي ترددت في قبولها؛ ستكون سبباً في إنهاء علاقتي بالمنظمة التي رافقت تطورها على مدى ثلاثة عقود، بدءاً من منتصف الثمانينيات.

كانت المهمة الأولى التي واجهتها في مطلع عام (2004) النظر في تهمة أثارها أحد المرشدين العاملين في القوى الجوية، وكان برتبة ملازم

أول، اسمه قمر، تجاه مرشد عسكري آخر اسمه سيف الإسلام، كلاهما كان من المهاجرين الجدد ومن أصول بنغالية. كان الرجلان يعملان تحت إشراف الاتحاد، وكان النظام المعتمد في المؤسسة العسكرية أن يتولى مسؤولية إجازة المرشدين مؤسسات تمثل الأديان الرئيسية في البلاد. وكان الاتحاد أحد مؤسستين تشرفان على المرشدين المسلمين. كان المرشد الديني العامل في المؤسسات العامة في التقاليد الأمريكية يقدم خدمات هامة لطلبة الجامعات، وللمعتقلين والمساجين، وللجنود العاملين في القوات المسلحة. لم يكن المرشد الديني مقاتلاً في الجيش، ولم يكن يسمح له بالمشاركة بالعمليات العسكرية؛ بل كانت مهمته توفير التوجيه والخدمات الدينية للجنود التابعين للديانة التي يمثلها. أكد قمر الذي زار مقر المعهد خصيصاً لتحذيرنا من تجاوزات سيف، وإعلامنا بأن دعوى قضائية قد أُعدت ضده، وأنه أراد بزيارته أن يستبق الدعوى لحماية الاتحاد من تداعيات القضية. التهمة التي ألصقها قمر بسيف هي أن الأخير خالف القانون بالتدخل في توظيف زوجته في مشفى عسكري. شكلت على الفور لجنة تحقيق من ثلاثة أعضاء التقت بسيف، الذي تم استدعائه للتحقيق في مكتب الاتحاد. بعد لقاء طويل تم خلاله الاستفسار وطرح الأسئلة حول الموضوع، تبين أن التهم الموجهة غير دقيقة. كما تبين من معلومات وصلت إلى لجنة التحقيق بأن قمراً، الذي التحق بقسم الاستخبارات العسكرية، قد توقف عن ممارسة الإرشاد الديني، وأنه يخدم القسم في المسائل الأمنية! أعلنت اللجنة التي ترأستها، وضمت إحسان باغبي وعبد الرشيد محمد أعضاء لها، أن التهم لا ترقى إلى مستوى إدانة سيف وسحب الإجازة منه، والتي كان سحبها سيضع نهاية لعمله في القوات المسلحة.

كان علي تأسيس المركز الذي كلفت بإدارته من الصفر. لم يكن ثمة مكاتب أو موظفين لمساعدتي، بل ميزانية تكفي لعام واحد. وضعت المخططات بالتعاون مع مقاولين، والكلفة التقديرية لتقسيم مساحة واسعة، كانت مملوءة بالرفوف الخشبية المتبقية من وقت ماض، كان فيه المبنى مخصصاً ليكون مكتبة. قمت باختزال المكتبة إلى جزء من تلك المساحة

الكبيرة، وتحويل المكان المتبقي إلى مكتب لي، ومكتب لمساعدتي الإدارية، ومكتب لمدير البرامج، وغرفة واسعة للمحاضرات والورشات التدريبية، وغرفة أخرى واسعة لاستخدامات متنوعة، إضافة إلى غرفة مخزن صغيرة. وبدأت كذلك مهمة وضع البنية الإدارية للمركز؛ فعينت مساعدة لي؛ هي ناديا بيرزادة، وكانت خريجة جامعية حديثة وناشطة في مؤسسات الجالية. كما شرعت بالإعلان عن وظيفة مدير للبرامج. وكنت قد بدأت المشاورات لاختيار مجلس أُمناء للمركز لفصل إدارة المركز عن إدارة أقسام الاتحاد المختلفة. وتم تحديد خريف عام (2004) موعداً للاجتماع الأول للمجلس الجديد. وبدأت كذلك بتنظيم أول برنامج تدريبي للعاملين في مؤسسات الجالية الإسلامية ومراكزها. عقد البرنامج الذي استمر ثلاثة أسابيع تحت عنوان "المعهد القيادي الصيفي" في نهاية شهر حزيران. كان المعهد الصيفي أطول برامج المركز؛ فكان على المشاركين الإقامة في مدينة بلينفيلد؛ حيث يقع المركز؛ لمدة ثلاثة أسابيع، والمشاركة في محاضرات وورشات عمل تنتهي بتقييم ينالوا بموجبه شهادة مشاركة رسمية. كان المعهد القيادي الصيفي واحداً من جملة من المشاريع التي وضعتها على جدول عمل مجلس الأمناء للمناقشة، ولاتخاذ القرار المناسب بشأنها.

أمضيت معظم سنة (2004) بتأسيس مركز التنمية القيادية لخدمة الجاليات الإسلامية، والبرنامج الإرشادي لتنظيم عمل المرشدين الدينيين في القوات المسلحة والسجون والجامعات. وقمت بعدد من الزيارات للعاصمة للاجتماع مع مسؤولي برامج الإرشاد الديني في القوات المسلحة وإدارة السجون. وكانت مديرة إدارة الإرشاد الديني في السجون سيدة اسمها سوزان بيلي، قد لعبت دوراً مهماً في إفشال مساعي اليمين الديني المتطرف؛ الذي أشاع أن المرشدين الدينيين المسلمين مسؤولون عن تزايد التشدد الديني في السجون. تم تشكيل لجنة تحقيق فدرالية استدعت سوزان للإدلاء بشهادتها، فرفضت تلك الاتهامات، وشهدت بالإعداد الجيد للمرشدين المسلمين، وأشادت بدورهم الإيجابي في منع التشدد في السجون. قمت خلال السنة نفسها بتعيين بلال عبد الله منسقاً لبرنامج المرشدين لمساعدتي

في تنظيم البرنامج والتواصل مع المرشدين. كما وضعت خطة لتطوير مؤتمر سنوي للقاء المرشدين، وشكلت مجلساً خاصاً لمتابعة أعماله، تألف من مومنة كوبانسكي، مرشدة في سجون ولاية بانسلفينيا، ويحيى الهندي مرشداً في جامعة جورج تاون في واشنطن، وعبد الرشيد محمد، مرشداً في القوات المسلحة. قمت في تلك السنة بزيارة مكاتب رئيس وحدة الإرشاد في الجيش والبحرية في واشنطن.

كان الاتحاد في العقود الأولى من تأسيسه ينظر إلى العلاقة بين الجالية المسلمة والمجتمع الأمريكي على أنها علاقة خارجية، علاقة تعايش مع الاحتفاظ بمسافة اجتماعية وأخلاقية وسياسية. لكن مثل هذه النظرة التي تنفع طلبة مقيمين لفترات قصيرة في أمريكا، أضحت ضارة جداً بمستقبل الإسلام والأجيال الناشئة بعد تزايد هجرات المسلمين إلى أمريكا. بعد نقاشات طويلة بدأ الاتحاد وقيادات الجالية بتطوير نظرة جديدة لتلك العلاقة. النظرة التي تبناها الاتحاد، نظرة من الداخل يرى فيها المسلم الأمريكي أن المجتمع الذي يعيش فيه هو مجتمعه، وأن واجبه السعي لتطويره ودعمه وإصلاحه وتحمل مسؤوليته. كنت من مؤيدي هذه النظرية والمنافحين عنها والداعين إليها، على مستوى الكتابات العلمية والصحفية، وعلى مستوى الخطاب والتنظيم. كنت أدفع بتطوير أجيال من الشباب الذي نشأ في المجتمع الأمريكي للشعور بالانتماء إلى ذلك المجتمع، والمساهمة في تعريف المصالح العامة وفق قيم الإسلام الإنسانية، التي تتوافق مع مبادئ أصيلة في المجتمع الأمريكي، مثل مبادئ العدل والمساواة والحرية والتراحم ومساعدة الضعيف.

كنت على قناعة أيضاً بنجاعة المبادئ الدستورية، وقدرتها على توفير مستوى متقدم من المشاركة، وعملت من خلال المؤسسات الكثيرة التي تعاملت معها، ومن خلال أعمالي الفكرية، على إظهار التوافق بين قيم الإسلام والنظام الديمقراطي الأمريكي، ومبادئ حقوق الإنسان التي تشكل حجر الزاوية في ذلك النظام. كانت ثمة اعتراضات كثيرة، بطبيعة الحال، على السياسة الخارجية الأمريكية المتحيزة لإسرائيل على حساب

حقوق الشعب الفلسطيني. وكانت برامج مركز التنمية القيادية تهدف إلى تحليل المبادئ الدستورية، وتمكين الطلبة من معرفة حقوقهم وواجباتهم الوطنية وأسسها الأخلاقية، ضمن منظومة القيم الإسلامية. وسعيت إلى تطوير مفهومَي "التضامن العقدي" و "التضامن التعاقدي" لشرح الفرق بين التضامن على أساس الدين وحدوده، والتضامن على أساس العقود والتعاقد وأولويته. وكنت أؤمن بأن العقد الاجتماعي الذي يلتزم به المرء يحظى بأولوية تستند إلى تجربة مجتمع المدينة الذي أسسه الرسول، وعلق على حدود الولاء فيه القرآن، فجعل الولاء التعاقدي الذي يجمع المسلمين في المدينة واليهود، مقدم على الولاء الديني، استحضاراً للمبدأ القرآني ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: 8/ 72]. هذه الرؤية القائمة على أولوية التضامن التعاقدي، ضمن حدود مبادئ العدل والمساواة والرحمة، جعلت عمل المرشدين في المؤسسات الأمريكية الرسمية أكثر تماسكاً وصدقية؛ لأنها مكنتهم من تحقيق تصالح بين واجباتهم الدينية والتزاماتهم الوطنية، القائمة على مبادئ الدستور.

أفضل الممارسات

الخطوة الأولى لرفع أداء مؤسسات الجاليات وتعاون مراكزها، ركزت على تطوير جملة من المعايير والقواعد الإدارية والسلوكية الحاكمة لأداء القيادات وممارسة أعضاء الجالية. عكفت في عام (2004) على تطوير دليل يحدد أفضل الممارسات في المراكز الإسلامية؛ لتحويلها إلى مكان يسهم في تطوير الجالية، ويحيلها إلى مراكز تساهم في إثراء الحياة الأخلاقية والاجتماعية والدينية لأبنائها. المسودة الأولى لهذه الوثيقة اكتملت في شهر تشرين الثاني من ذاك العام، وتضمنت ثمانية أقسام؛ يحتوي كل منها على قواعد إرشادية لتطوير المراكز، ومرفقة بعدد من الخطط والإجراءات الأساسية للمساعدة في تحقيق تلك المبادئ بصورة عملية. الأقسام الثمانية لدليل "أفضل الممارسات" هي:

1- الحوكمة الرشيدة

2- تطوير الوعي والمهارات المدنية

3- تجنب النزاع وحل الخلافات

4- المشاركة النسائية

5- التفاعل الشبابي

6- العلاقات العامة

7- إعداد برامج وأنشطة الحوار الثقافي والديني

8- بناء قاعدة مالية سليمة

القواعد الإرشادية للقسم الأول، الحوكمة الرشيدة، على سبيل المثال، ركزت على ضرورة اعتماد المركز على ضوابط تنظيم النشاطات المختلفة، والالتزام بإجراءات منصفة وواضحة لإدارة المركز، وحثّ قيادة المراكز على الالتزام بتلك الإجراءات وتقديم نماذج عملية. كما ركزت على ضرورة التشاور مع الأعضاء خلال لقاءات دورية قبل القيام بأي تعديل لتلك القواعد، وأهمية توظيف أشخاص مؤهلين علمياً وأخلاقياً للقيام بالمهام الخدمية وفق لوائح واضحة. وركزت كذلك على ضرورة التزام مسؤولي المركز بميثاق أخلاقي متفق عليه. وقام مركز التنمية القيادية الذي أشرفت عليه لاحقاً بتطوير نموذج لميثاق أخلاقي لهذا الغرض.

القسم الثاني من "أفضل الممارسات" المتعلق بتطوير الوعي والمهارات المدنية، ارتبط بالحاجة إلى توفير مادة إرشادية، وتنظيم دورات تدريبية لتزويد نشطاء المركز بفهم للخلفيات الدينية للجماعات السكانية الأمريكية؛ كالمعتقدات اليهودية والمسيحية الأساسية. ومعرفة حول لحظات تاريخية مهمة وأسس دستورية، وطريقة التعامل مع مؤسسات محلية مثل جهاز الشرطة والنواب المنتخبين. هذه المعرفة ضرورية حتى لمن نشأ في المجتمع الأمريكي؛ لأنها تسمح بعرض جوانب مرتبطة بعمل المراكز والجاليات، ولكنها كانت على بالغ الأهمية للمهاجرين الذين حمل الكثير منهم معرفة نمطية غير صحيحة عن المكان الذي اختاروه ليكون وطناً لهم ولأبنائهم.

وبالمثل ركزت القواعد الإرشادية للقسم الثالث على ضرورة استيعاب احتياجات الأعضاء المشاركين في المركز، والسعي لتنظيم حوار لتبادل

وجهات النظر، ووضع أرضيات مشتركة في حال قيام خلافات حول طبيعة تلك الحاجات وآليات تحقيقها. وتضمنت الإرشادات دعوة إلى عقد ندوات وورشات نقاش حول المسائل التي تستقطب الجالية، ودعوة متخصصين في تلك المسائل. وكذلك دعت إلى تدريب متطوعين على أساليب فضّ النزاعات.

انتهيت من إعداد المسودة الأولى من "أفضل الممارسات" في تشرين الأول من عام (2004)، بعد سلسلة من زيارات، شملت جاليات في مدن مختلفة ونقاشات مع قياداتها. ثم قمت بإعداد نسخة معدلة من المسودة في شهر شباط من عام (2005)، أرسلتها إلى حوالي أربعين ناشطاً وقيادياً، وصلني ثمانية عشر ردّاً، يتضمن ملاحظات نبَّهت إلى بعض مواطن عدم الوضوح، وقدمت اقتراحات مفيدة تم إدراجها. لكن أحد التعليقات التي تلقيتها وضع الأصبع على الجرح. فقد أبدى المعلق استغراباً للحديث عن مواثيق ومدونات أخلاقية في مراكز إسلامية يفترض أن تلتزم قياداتها بقيم الإسلام وتعاليمه. نعم كان ذاك السؤال "البدهي" يشير إلى أصل المشكلة، والبون الشاسع بين الخطاب العام والممارسات العملية. فالخطاب العام الذي يكرره الجميع كان يتجه نحو تأكيد قيم الصدق والعدل والتعاون والتضامن والتكافل والتراحم، ولكن الآفة كانت في تحويل تلك القيم العامة إلى ممارسات عملية فعلية على أرض الواقع. كان إمام المسجد، على سبيل المثال، يكرر على مسامع الناس، في خطبة الجمعة، قيم العدل، ويضرب أمثلة عن عدل الفاروق عمر والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، ولكن الإمام المسكين كان يعود في نهاية الخطبة إلى واقع ظالم يرعاه مركز إسلامي يتفاخر بقيم العدل. نعم كان هذا الخطيب يتلقى راتباً بسيطاً في كثير من المساجد، ولكنه راتب لا يكاد يسد رمقه ورمق أسرته. وكان مطالباً بالعمل ساعات طويلة خلال أيام الأسبوع وعطلة نهاية الأسبوع؛ حيث يتوافد أعضاء الجالية للقيام بنشاطات مشتركة. أخبرني أحدهم في لقاء جمعنا أنه تلقى يوماً اتصالاً من أحد أفراد الجالية في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، يطلب منه المساعدة في مشكلة تتعلق بالتوصيلات

الصحية في بيته! هذا ما دفعني لاحقاً إلى تطوير وثيقة خاصة بحقوق الإمام وواجباته ومؤهلاته، والطريقة الأمثل لاختياره.

كانت مسألة ترجمة القيم الكلية إلى إجراءات وخطوات وأدوات عملية، أولوية للتعامل مع التحديات التي تواجه الجالية الفتية، القادمة من مجتمعات تفتقد القدرات التنظيمية، والتي تتحرك في وسط اجتماعي أمريكي حول التنظيم والإدارة إلى علم يدرس، وأبحاث متطورة، تترجم نتائجها في فاعلية اجتماعية متفوقة. ترجمة القيم هذه لم تكن بطبيعة الحال مسألة لغوية أو فنية، بل مسألة ثقافية وفكرية. وكنت أدرك بحكم تخصصي في الدراسات الاجتماعية أن المشكلة ترتبط بالرؤية التصورية والتفسيرات العقدية والخبرات العملية. كما كنت أدرك أيضاً من خلال نشاطي الاجتماعي والمدني والسياسي أن جزءاً من التعامل مع تلك المشكلة يرتبط بتطوير البنى والمؤسسات والعلاقات. وبالتالي فإن الصيغة المطلوبة لتجاوز التحدي تتطلب ربط النظرية بالتطبيق، والمبنى بالمعنى، والفكرة بالعمل، والنموذج بالأدوات الضرورية لتحقيقه. لذلك عكفت، عبر الجهد الشخصي حيناً، وبالتعاون مع ناشطين آخرين أحياناً، على تطوير الأدوات والوسائل والنماذج والمواد المناسبة لتسهيل عملية تطبيق الإرشادات في الدوائر الثمانية؛ التي اعتمدت في دليل "أفضل الممارسات". استكملت عناصر الدليل عبر سنوات عملي الخمسة في قيادة المركز، وتكاملت أدواته ووسائل تحقيقها، وتم توفير الأدوات والمعلومات والإرشادات الضرورية للقيام بكل جانب من تلك الجوانب. كما وفر المركز دورات تدريبية لتطوير المهارات القيادية. من المواد الأساسية التي ساهمت في توفيرها للمراكز المواد الآتية:

* **النظام الداخلي النموذجي** الذي يحدد الهيكل والإجراءات التنظيمية اللازمة لتشغيل عادل وفعال للمركز الإسلامي.

* **الميثاق الأخلاقي** الذي يتضمن قواعد أخلاقية مستمدة من تعاليم الإسلام للعاملين في المركز.

* **دليل عمل الأئمة** الذي تضمن نصائح وإرشادات لمساعدة الجاليات في اختيار الإمام، والتحقق من مؤهلاتهم، وتحدد حقوقهم وواجباتهم، ومعايير تقييم أدائهم.

* **إجراءات لفضِّ النزاعات وحلِّ الخلافات،** مع دليل للخبراء في هذا الموضوع، وكيفية التواصل معهم.

* **دليل آداب الخطبة** الذي يحدد أهداف الخطبة، ومسؤوليات الخطيب الأخلاقية.

* **دليل الأنشطة التعليمية** والاجتماعية المختلفة التي تحتاج الجالية لتنظيمها لرفع الوعي والأداء.

* **دليل المتحدثين** وطرق الاتصال بهم وبخبراء بارزين ومستعدين لمعالجة مختلف المواضيع التي تهم الجالية.

* **قائمة بالمنظمات المهنية** التي يمكن أن توفر المواد والبرامج التعليمية.

* **دليل استقبال الوافدين الجدد** يتضمن معلومات ونصائح حول تطوير برامج تساعدهم للتأقلم في حياتهم الجديدة.

* **دليل الشباب** ويتضمن خططاً مفصلة لتنظيم مدرسة نهاية الأسبوع، وبرنامج تعليم الشباب بعد المدرسة، كما يحتوي على نماذج من دورات تعليمية، وموضوعات مواد قراءة مناسبة، وأنشطة ونقاط الاتصال مساعدة، والذي استفدت فيه من تجربة الصديق مازن هاشم مع الجالية الإسلامية في جنوب كاليفورنيا.

* **دليل حوار الأديان** يتضمن مبادئ إرشادية لحوار الأديان، تم وضعه بالتعاون مع محمد أبو نمر ومحمد شفيق.

مع اقتراب الاجتماع الأول لمجلس أمناء مركز التنمية القيادية، كانت استراتيجية العمل قد اكتملت في شكلها الأساسي. اجتمع مجلس الأمناء في نهاية عام (2004)، وتشكل المجلس من ستة أشخاص هم: رئيس الاتحاد محمد نور عبد الله، ونائبه انغرد ماتسون عن الولايات المتحدة

وسيد امتياز أحمد عن كندا، بالإضافة إلى سيد سعيد الأمين العام، وإحسان باغبي عضو مجلس أمناء الاتحاد، وأستاذ جامعي متخصص بمواضيع الجالية الإسلامية. كان الاجتماع مثمراً لتطوير بعض جوانب الخطة السنوية للعام القادم ومناقشة نشاطات المركز. وكان من بين الفقرات بند حول إنشاء معهد تخصصي لتدريب أئمة المساجد داخل الولايات المتحدة بدلاً من التعويل على الأئمة القادمين غالباً من جامعات تدرس منهاج تعليم سلفية، وتحول بين الخريج والتعامل مع الحياة في سياق المجتمع الأمريكي ومتطلباته. كان ثمة حاجة إلى إعداد خريجين قادرين على الاجتهاد لتوجيه الحياة في الولايات المتحدة، بدلاً من العمل على إعادة إنتاج الثقافة العربية والخليجية في مجتمعات مختلفة في ثقافاتها وأعرافها وعاداتها. هذا الطلب لم يلقَ دعماً من إنغرد، التي سبق وأسست في الجامعة التي تدرس فيها برنامجاً خاصّاً لتحضير المرشدين الدينيين. بقي هذا البند نقطة خلاف لسنوات إلى أن تمكنت إنغرد من إقناع مجلس أمناء الاتحاد بالتخلي عن فكرة إنشاء معهد تدريبي، والاكتفاء بالبرامج الجامعية القائمة حالياً، وبشكل خاص البرنامج الذي تعمل فيه.

كانت في مقدمة القضايا التي أثرتها في اجتماع عام (2004) مسألة مشاركة أعضاء مجلس الأمناء في نشاطات ترويج عمل مركز التنمية القيادية لدى الجاليات الإسلامية المختلفة بصورة عامة، والمساعدة في تطوير تفاهمات وعلاقات شراكة مع المراكز المختلفة. لم تكن المراكز الإسلامية المنتسبة إلى الاتحاد خاضعة لسلطة مركزية، بل كانت العلاقة في جوهرها علاقة خدمية تعاونية لا سلطوية هرمية. وكان ثمة حاجة لإقناع القيادات المحلية برؤية الاتحاد لموضوع القيادة وآليات تطويرها، فقد وجدت تردداً لدى كثير من المراكز في إرسال موظفيهم لفترات تستمر لأيام أو أسابيع؛ إما لجهلها بفائدة البرامج التدريبية، أو بسبب مخاوف حول أهداف تلك البرامج، وعلاقتها بتطوير القدرات القيادية لدى موظفيها. ولكن هذا المطلب بقي صرخة في واد لأسباب يتعلق بعضها ربما بالمشاغل الكثيرة لأعضاء مجالس الأمناء التابعة للاتحاد، وطبيعة عملهم الطوعي في المؤسسة.

المرأة وصدام الثقافات في فرجينيا الغربية

سافرت بعد الاجتماع إلى مدينة مورغنتاون في ولاية فرجينيا الغربية، عقب اتصال من إسراء النعماني؛ الصحفية السابقة في مجلة "وول ستريت" وابنة طبيب ورائد في تأسيس الجالية في تلك المدينة. جاءت الزيارة في الأسبوع الأول عقب صدام بينها وبين بعض أعضاء المركز الإسلامي في المدينة. كانت إسراء أم لطفل رضيع أنجبته نتيجة علاقة غير شرعية خارج مؤسسة الزواج. هذه الصفة كانت كافية لإيجاد فجوة كبيرة بينها وبين الجالية المحافظة. لكن الأمر لم يتوقف عند تلك الصفة. فقد كانت طريقة عمل إسراء التصادمية، وتوقعاتها في تغيير الجالية وفق رغباتها تحول بينها وبين التفاهم حتى مع أكثر أعضاء الجالية رغبة في الإصلاح والتغيير. كان سلوك إسراء المتمرد على أعراف وتقاليد الجالية الإسلامية المحافظة جزءاً من المشكلة؛ التي تحولت بسبب قدراتها الإعلامية إلى خبر انتشر في الصحافة المحلية وعبر الصحف الأمريكية المختلفة. قررت السفر لفهم أبعاد المشكلة والتعاطي معها. وشعرت بالقلق مما يجري في مورغنتاون عندما قدَّم ثلاثة أعضاء من اللجنة التنفيذية، بما في ذلك كريستين العرجا، استقالاتهم احتجاجاً على أسلوب إدارة المركز. وزاد قلقي بعدما علمت باستقالة ناشطة أخرى في الجالية؛ هي كيمبرلي بيركنز، وكنت أتواصل معها في فترة سابقة لدعم جهدها للتحضير لندوة حول "مكانة المرأة في المسجد والجالية".

تحدثت خلال زيارتي، مع العديد من أعضاء الجالية على طرفي النزاع، كما التقيت أعضاء مجلس الأمناء واللجنة التنفيذية، وأمضيت بعض الوقت مع الدكتور هاني عمار رئيس اللجنة التنفيذية، والدكتور حسن غازي رئيس مجلس الأمناء، لفهم موقفهما من الخلاف الدائر داخل الجالية. كما التقيت مع مجموعة من السيدات الناشطات، والأعضاء الأربعة الذين استقالوا مؤخراً احتجاجاً على طريقة عمل اللجنة التنفيذية. بدا لي في نهاية لقاءاتي أن الجالية منقسمة على نفسها بين مجموعتين مختلفتين جذرياً حول طريقة إدارة المركز وقواعد السلوك داخله. موضوع الخلاف الأساسي الذي

أدى إلى الصراع المفتوح دار حول مكان جلوس المرأة في المسجد، ومشاركتها في نشاطات الجالية. أدى الخلاف حول هذا الموضوع إلى انقسام واضح بين مجموعة يمثلها مجلس الأمناء وعدد كبير من الطلاب الوافدين؛ والتي كانت تصرُّ على الفصل الصارم بين الرجال والنساء في قاعة الصلاة وفي جميع المناسبات، وتميل إلى إبعاد النساء عن المشاركة الفعالة في النشاطات الاجتماعية. أما المجموعة الثانية فكانت تمثلها اللجنة التنفيذية، وتضمُّ مسلمين نشؤوا في الولايات المتحدة، وكانت تسعى إلى رفع مستوى مشاركة المرأة وتحسين طريقة تقسيم قاعة الصلاة بين الرجال والنساء.

الخلاف في أساسه يرتبط بالاختلافات الثقافية بين ثقافة سلفية ذات جذور مشرقية، تصرُّ على الفصل الكامل بين الرجال والنساء، وتسعى إلى فرض نفسها في سياق ثقافة أمريكية ترى النساء شقائق الرجال. لكن السبب الأساسي لاحتدام الخلاف إلى صراع مفتوح نجم عن غياب اللوائح التي تحدد صلاحيات مجلس الأمناء والمجلس التنفيذي، وسعي بعض أعضاء مجلس الأمناء إلى التدخل بصورة شخصية في قرارات اتخذتها اللجنة التنفيذية، دون وجود إجراءات وآليات واضحة. مجلس الأمناء، على سبيل المثال، لم يسمح بإجراء انتخابات جديدة للجنة التنفيذية، رغم حلول موعد الانتخابات. إلى جانب غياب اللوائح والإجراءات المناسبة لحلِّ الخلافات، كان واضحاً غياب الاحترام المتبادل لاختلاف الآراء، وغياب آداب الحوار في الجلسات الهادفة إلى توضيح المواقف وتبادل الآراء. لمست هذا شخصياً أثناء لقاء جرى في قاعة المسجد الرئيسية، عندما انفجر أحد قادة المجموعة الرافضة لمشاركة النساء غاضباً عندما رأى كمبرلي؛ المسلمة الأمريكية الشابة؛ تنتقل من الصفوف الخلفية للجلوس في مقدمة الصفوف، واتهمني بأنني أتحمل مسؤولية التجاوزات التي تجري بحضوري. بل بلغ غضبه من الشدة أنه استمر بمقاطعتي بصوت عالٍ كلما أردت الكلام، رافضاً سماع جوابي على اتهاماته المتكررة. فكان يصرُّ على منعي من الكلام برفع صوته والصراخ الذي لا يليق بأستاذ جامعي. لم يلبث أن طلب مني التوقف عن متابعة حديثي ومغادرة المكان. توقفت عن الحديث معه وتوجهت إلى الحضور سائلاً إذا كانوا أيضاً

يرغبون بخروجي من مسجدهم. كان جواب معظم الحضور بالنفي، وعندئذ تقدم رئيس مجلس الأمناء إلى الرجل وطلب منه مغادرة المكان لتهدئة الموقف. كانت تلك المواجهة، التي انتهت بخروج زعيم التيار المتشدد من المسجد، آخر المحاولات لعرقلة مهمتي في الوصول إلى حلٍّ يقوم على التشاور، وتبادل الرأي، والعمل وفق النظام الداخلي للمركز.

كان موقف الأستاذ الجامعي المتشدد مليئاً بالتناقضات، يعكس رغبته في فرض الأعراف التي نشأ عليها في وطنه الأصلي قبل هجرته إلى الغرب؛ وهي أعراف لا يشترك فيها جميع المهاجرين المسلمين في مواطنهم الأصلية، وتختلف بين الشعوب العربية والأتراك والمسلمين الأفارقة والمسلمين المنحدرين من جنوب شرق آسيا. لم يكن هناك ما يمنع من جلوس النساء في صفوف متقدمة أثناء نقاش عام حول مسائل عامة تهمُّ النساء كما تهمُّ الرجال. كان اللقاء حول موضوع مكان المرأة في المسجد، وهو موضوع أقرب إلى هموم النساء من الرجال، ولم يكن لدي أساس ديني أو أخلاقي للطلب من الفتاة الرجوع إلى الصف الخلفي، حتى لو شاركت هذا الرجل المتشنج رأيه. بل كان موقف خصمي ينمُّ عن شيء من النفاق الواضح والتمييز العنصري؛ لأنه لا يطالب بمثل هذا الفصل الكامل في تعاملاته اليومية في مختلف مناحي المجتمع الذي يعيش فيه. إذ لم يكن لهذا الأستاذ أن يطالب الفتيات في الفصول الجامعية بالجلوس في الخلف وإعطاء الذكور الصفوف الأولى. ولم تكن أي من النساء في الجالية يطالبن باختلاط الصفوف أثناء الصلاة، أو انتقال النساء للصلاة في الصفوف الأولى. كانت المطالب بتحقيق قدر من العدل والمساواة بين الرجال والنساء ترتبط بالنشاطات التعليمية والاجتماعية. كما أن التعاليم الإسلامية لا تدعو إلى فصل النساء عن الرجال في الأماكن العامة، بل تحذر من الخلوة الكاملة بين رجل واحد وامرأة واحدة في أماكن معزولة وخاصة. ولكن المتشددين؛ الذين لم يكن لديهم حجة سوى العادات التي نشؤوا عليها؛ كانوا رافضين لبحث الموضوع والدخول في نقاش هادئ وعلمي حول الأسس الدينية والعقلية لهذا الموقف المتشدد. ولم أكن شخصياً من دعاة فرض إجراء أو ترتيب محدد

على الجالية من الخارج، بل كنت معارضاً لمثل هذه المقاربة التي أرادت إسراء مني القيام بها. كان حرصي على الوصول إلى القرارات وفق إجراءات عادلة، تحقق شروط الشورى بين أعضاء الجالية، وتمنع التحكم التعسفي لفرد أو مجموعة بقرار الأغلبية.

حصلت في نهاية الزيارة على وعود من المجموعتين بانتخاب لجنة تنفيذية، والالتزام بالحقوق والواجبات الإدارية وفق نموذج النظام الداخلي؛ الذي أعده الاتحاد واعتمده المركز يوم تأسيسه. وطلبت منهم تبني التوصيات الست التي تركتها خلفي؛ والتي نجمت عن بضعة أيام من النقاش والبحث في الحلول. كما دعوتهم إلى التحضير لندوة تناقش مسألة دور المرأة في الجالية، ومكانها في نشاطات المسجد، ووعدتهم بمساعدتهم في إحضار متحدثين ملمِّين بهذا الموضوع، وعُدْت أدراجي إلى مركز عملي في انديانا. كنت أعتقد أن التعاطي مع مشاركة المرأة في المراكز الإسلامية أمرا ضروريا، وأن المساعي لعزلها لا تتعلق بالمبادئ الإسلامية، بل بالأعراف الثقافية التي حملها بعض الطلبة القادمين من مجتمعات محافظة. لكنني كنت أدفع باتجاه حلِّ المشكلة من خلال الحوار والتشاور، لا من خلال قرارات إدارية يمكن أن تولِّد صراعات داخلية لا تنتهي. وبالتالي كانت فكرة الندوة، ودعوة قيادات مجتمعية ودينية للحوار حول المسألة يمكن أن توسع آفاق أعضاء المركز، وتطلعهم على الأساس المعياري الذي يؤسس لمشاركة حقيقة في دائرة الحياة العامة بين الرجال والنساء.

لم يكن لدي شك، وأنا أراجع شريط الأحداث في ذهني أثناء قيادتي السيارة في طريق العودة الطويل إلى مقرِّ عملي، في أن سوء الإدارة، وغياب نظام حوكمة رشيدة، سبب أساسي في انتقال الخلافات إلى صراع مفتوح. ولم يكن لدي شك أيضاً أنني أمام حالة من الصدام الثقافي بين مجموعتين تريدان الالتزام بالمعاني الدينية، ولكنهما تتحركان ضمن جملة من المفاهيم المتضاربة؛ نتيجة تضارب الخبرة الثقافية للمجتمعين اللذين تنتميان إليهما. زادتني الزيارة أيضاً قناعة بأهمية العمل لفصل فهم الدين عن أُطره الثقافية، وإعادة تنزيل قيم الإسلام الكلية في سياق ثقافي واجتماعي مختلف عن سياقاته التاريخية.

احتكاك مع مكتب التحقيق الفدرالي

تلقيت نهاية عام (2004) اتصالاً هاتفياً من ضابط في مكتب التحقيق الفدرالي (إف بي أي)، فرع إنديانا بولس، اسمه جيفري كروغر، قال: إنه يريد القيام بزيارة مجاملة بصحبة زميل له اسمه جون هوفمان للتعريف بأنفسهما، والحصول على مساعدتي لفهم بعض المسائل وطرح بعض الاستفسارات. بعد التشاور مع سيد سعيد؛ أمين عام الاتحاد، وأحمد الحطاب؛ مدير العلاقات، علمت أن جفري اتصل بأحمد لترتيب مقابلة مشابهة. بعد السؤال عن الضابطين من خلال اتصال بمدير مكتب التحقيق في انديانا بولس، وتأكيد الأخير عمل الضابطين في مكتبه، اتفقت مع سيد وأحمد على أن أقابلهما على انفراد ودون وجود أحمد معي أولاً لمعرفة طبيعة اللقاء. وكانت نصائح المحامين المعروفة لكل خبير تؤكد ضرورة استدعاء محامٍ لحضور الاجتماعات؛ لأن حضور أحد رجال مكتب التحقيق للزيارة يؤشر عادة على استهداف ضمني. من ناحية أخرى كانت وجهة نظر الأمين العام أن ضباط مكتب التحقيق يقومون بزيارات مجاملة لمسؤولي منظمات المجتمع المدني؛ لتوطيد العلاقات وطلب المساعدة في بعض التحقيقات، فلم يكن مناسباً تصعيد العلاقة، خاصة أن مدير المكتب كان يتردد على مركز الاتحاد للاطمئنان على أمن وسلامة المؤسسة، والتعامل مع أي تهديدات للمراكز الإسلامية من متطرفين يمينيين.

حضر الضابطان، وجلسا في مكتبي، وبدأ جون بالاستفسار، وركز على مسألة استخدام العنف وموقف الإسلام من ذلك، أجبته عن سؤاله، وأوضحت له قراءتي لموقف الإسلام المندِّد بالعدوان على المدنيين، وحصر استخدام العنف للدفاع عن النفس والوطن. وأعطيته نسخة من كتابي (**السلم وحدود الحرب**) (منشور باللغة الإنكليزية). وشملت الأسئلة استيضاحات حول قضايا تتعلق بالجالية، وأخرى ببعض الناشطين الذين تعرضوا لملاحقة قضائية من قِبَل الحكومة الفدرالية. فأجبته باختصار عن تساؤلاته. لم يلبثا أن غادرا شاكرين على مساعدتهما في فهم هذه الأمور! لكن

اللقـاء أعطـاني شـعوراً مخالفـاً لتأكيـدات الضابطـين، وبـدا واضحـاً لي أن الأسـئلة لم تكـن بالـبراءة التـي ادَّعاهـا المحقِّقـان، وأن بعضهـا كان يهـدف إلى البحـث عـن خيـوط وثغـرات. وتأكـد هـذا الشـعور عندمـا أرسـل لي جـون سـؤالاً خبيثـاً، عبر البريـد الإلكـتروني، سـعى فيـه إلى وضـع بعـض الـشروط التـي تبيـح القتـال، والتـي قرأهـا في كتـابي، في سـياق عمليـات القاعـدة والجهـاد الفلسـطيني. لم يكـن مـن الصعـب ملاحظـة أن المحقـق يسـعى إلى سـحب النقـاش العـام المتعلـق بالقواعـد الكليـة ومشروعيـة الدفـاع عـن النفـس والممتلـكات مـن سـياقه العـام إلى خصوصيـة العمليـات الإرهابيـة.

أجبتـه في رسـالة بعبـارات واضحـة، لا شـك أنهـا أظهـرت امتعـاضي مـن محاولتـه البائسـة لسـحبي إلى ثقبـه الأسـود الـذي ابتدعـه. شـدَّدت في ردِّي أن عليـه التمييـز بـين المبـدأ والفكـرة، وطـرق تفسـيرها التـي يمكـن أن تحرفهـا عـن معانيهـا الأساسـية، وهـذا سـلوك المتشـددين في جميـع الأديـان. وقلـت في ردي بـأن "كتـاب **(السـلم وحـدود الحـرب)** عمـل أكاديمـي، يتعامـل مـع المبـادئ والمعايـير النظريـة، لا ورقـة لتحديـد الموقـف، أو بيـان سـياسي تجـاه أحـداث معينـة". وأضفـت قائـلاً: "إذا كنـت تبحـث عـن موقـف قيـادات الاتحـاد مـن الإرهـاب، فسـتجده في البيـان المنشـور عـلى موقعـه الشـبكي، وفي نـصِّ الحملـة الشـعبية الوطنيـة لمكافحـة الإرهـاب، التـي سـلمتك نسـخة منـه خـلال زيارتك". وتابعـت كلامـي فأكـدت عـلى أني "لا أرى أن مـن حـقِّ الفلسـطينيين اسـتهداف المدنيـين اليهـود، كـما أني لا أرى أن الإسرائيليـين يمتلكـون أي حـق في اسـتهداف المدنيـين الفلسـطينيين. ولا أعتقـد كذلـك بامتـلاك أي الطرفـين الحـق في التهجـير القـسري، أو التطهـير العرقـي، خـارج إطـار القانـون الـدولي".

كان هـذا آخـر عهـدي بالاتصـال بهذيـن المحققـين، ولكـن الزيـارة أقلقـت مجلـس الأمنـاء؛ الـذي بعـث رسـالة للأمـين العـام يطلـب منـه عـدم السـماح في المسـتقبل لأيـة مقابلـة مـع الأجهـزة الأمنيـة دون إعـلام المجلـس، ودون وجـود محـامٍ أثنـاء المقابلـة. وأعتقـد أن القـرار كان صائبـاً، نظـراً لأن الزيـارة السـابقة أظهـرت اسـتهداف مكتـب أنديانابولـس للاتحـاد وقياداتـه. كانـت الزيـارة جرس

إنـذار، وبدايـة لمواجهـة مـع هـذا المكتـب الـذي ضـمَّ عـلى مـا يبـدو عـدداً مـن أنصـار اليمـين الدينـي المتطـرف.

تأكـدت الظنـون في امتـلاك بعـض العاملـين في مكتـب التحقيـق الفـدرالي، في انديانابولـس، رؤيـةً سـلبيةً مـن المسـلمين في مطلـع عـام (2007)، بعـد ثـلاث سـنوات مـن لقائـي بضابطَـي مكتـب التحقيـق، عندمـا علمـتُ أن مكتـب التحقيـق الفـدرالي قـد رتـب لبرنامـج تدريبـي، يديـره روبـرت سـبنسر خـلال عطلـة نهايـة الأسـبوع، ينظـم ورشـة تدريبيـة لأعضـاء فريـق مكافحـة الإرهـاب التابـع للمكتـب. اتصلـت بمديـر المكتـب كيـث لـوردو للاستفسـار عـن حقيقـة دعـوة أحـد رمـوز العـداء للإسـلام إلى مكتـب التحقيـق، فأقـرَّ بحضـوره، ولكنـه نفـى أن يكـون حضـوره إشـارة إلى قبـول أُطروحاتـه، فقـال:

- نحـن في مكتـب التحقيـق نتحـدث مـع جهـات متنوعـة، بـما فيهـا جهـات نختلـف معهـا.

لم يقنعني جوابه، فتابعت الحديث معه:

- لكنك دعوت سبنسر لورشة تدريبية لا لحديث عابر.

تفاجـأ كيـث بجـوابي الأخـير، وأسـقط في يـده حـين أدرك أن غايـة الزيـارة التـي سـعى لإخفائهـا باديـة للعيـان في سـياقها وطبيعـة ترتيباتهـا، وأن المعلومـات التـي أملكهـا عـن زيارة سـبنسر أكثـر مما توقـع، فنحـى منحـىً اعتذاريـاً في حديثه، وحـاول أن يقلـل مـن قيمـة الزيـارة وأثرهـا. فأعلمتـه أن حضـور سـبنسر سيكون لـه وقـع سـيئ عـلى الجاليـة. وأنهيـت حديثـي وأنـا عـلى قناعـة بـأن حـواري معـه لم يكـن كافيـاً لتغيـير موقفـه. بعـد دقائـق مـن إنهـاء الحديـث اتصلـت بروبـرت كنـغ؛ الصحفـي المختـص بالتحقيقـات في جريـدة "إنديانابولـس سـتار"، صحيفة انديانـا الأخباريـة الرئيسـية، وأطلعتـه عـلى دعـوة مكتـب التحقيـق لروبـرت سـبنسر، وبمضمـون تواصـلي مـع رئيـس مكتبهـم في المدينـة. وكان كنـغ عـلى معرفـة قريبـة بنشـاطات الاتحـاد، وكنـت حريصـاً عـلى دعوتـه لحضـور نشـاطاته العامـة بـين الحـين والآخـر. فاهتـم بالموضـوع وطلـب مزيـداً مـن المعلومـات. ثـم تواصـل مـع مكتـب التحقيـق لأخـذ بياناتهـم حـول ملابسـات الموضـوع. ونـشر

الخبر في اليوم التالي في صحيفة "انديانابولس ستار" التي يعمل فيها؛ وهي أكبر صحيفة في ولاية إنديانا. ونقل الصحفي في مقالته تحفظاتي على دعوة سبنسر، كما نقل عني تحذيري بأن "إحضار شخص معادٍ للإسلام والمسلمين يجعل من الصعب على الجالية الإسلامية في انديانا النظر إلى مكتب التحقيق الفدرالي؛ الذي يتلقى معلوماته من متطرفين معادين للإسلام؛ على أنه جهة محايدة". كان هذا الخبر كافياً لسحب الدعوة، ومنع سبنسر من الحضور للحديث إلى أعضاء مكتب التحقيق.

دعيت في نهاية تشرين الثاني إلى المشاركة في ندوة عنوانها "الصراع الفلسطيني الإسرائيلي" في جامعة انديانابولس، نظمها اتحاد الطلبة المسلمين. وكانت نائبة رئيس اتحاد الطلبة، مريم خان، قد دعت أيضاً ممثلاً عن الجالية اليهودية اسمه نورمان سيدر للمشاركة. كانت مشاركتي فرصة للعودة بالذاكرة إلى عقد ونصف من الزمن؛ لاستحضار البرامج العديدة التي نظمتها عندما كنت رئيس اتحاد الطلبة المسلمين في ديترويت. أشرت في كلمتي إلى أوضاع الفلسطينيين الصعبة تحت الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، وإصرار الدولة الصهيونية على المضي في خطتها للتوسع داخل الأراضي الفلسطينية وقضم ما تبقى منها. وأكدت في كلمتي على ضرورة التخلي عن التفسيرات المتباينة بين الفلسطينيين والإسرائيليين ذات الطبيعة الدينية التأويلية، والتركيز على القيم الإنسانية التي يؤمن بها أتباع الأديان الإبراهيمية، والتي تدعو إلى احترام حقوق الإنسان، ومبادئ المساواة والعدل في التعامل. وأكدت على أهمية احترام الحريات الدينية للجميع، والإصرار على المساواة أمام قانون عادل يعامل جميع السكان على قدم وساق. وأكدت في النهاية أن المطلوب اليوم الإصرار على المبادئ الرسالية التي أكدتها اليهودية والمسيحية والإسلام، بدلاً من التنازع حول النبوءات الدينية التي يوظفها البعض سياسياً، ويعتمد عليها لدعم موقفه وتجاهل حقوق الآخرين. هذه الفكرة تحوَّلت بعد ثلاث سنوات إلى كتاب نشرته باللغة الإنكليزية يختزل هذا الموقف، بعنوان (**فلسطين المبادئ لا النبوءات**)، صدر عن دار أوتسكيرت للنشر في منتصف عام (2009).

تدعيم جسور التواصل

شهدت سنة (2005) تأسيس عدد من النشاطات المحلية والدولية تهدف إلى بناء علاقات تعاون ضمن الجالية الإسلامية، شاركت فيها مع ممثلين لعدد من مؤسسات المجتمع المدني. فقد شهدت تلك السنة إطلاق عدد من المبادرات التي هدفت إلى رفع مستوى التعاون بين المنظمات الأهلية في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، من أهمها مبادرة معهد الشرق والغرب الذي يمثل يمين الوسط في أمريكا، ومعهد بروكنغز الذي يمثل يسار الوسط. كما شهد ذلك العام تأسيس المجلس السوري الأمريكي بالتعاون مع عدد من الأصدقاء، وفي مقدمتهم طلال سنبلي. شاركت في التاسع من كانون الثاني من ذلك العام بلقاء عنوانه "جسور التواصل"، نظمه معهد بروكنغز بمبادرة من الصديق مقتدر خان؛ الذي يعمل زميلاً غير مقيم مع بروكنغز. أثار اللقاء عدداً من الأسئلة حول السياسة الخارجية الأمريكية، والإرهاب وأسبابه والمبادرات الإسلامية لمحاربته، ودور العلماء والتقنيين الوافدين المتخصصين في تفعيل خيوط التواصل والتعاون. حضر اللقاء نخبة من الأكاديميين وقادة مؤسسات المجتمع المدني ومنظمات حقوقية، وشاركت في محور المبادرات لمواجهة الإرهاب. الحديث في موضوع الإرهاب كان حديث الساعة ضمن الدوائر المعرفية في الجامعات، وكان الحديث في هذا الموضوع يرتبط بعنوان بناء السلام، ومحاولة فهم جذور الإرهاب وأسبابه. وكان الإرهاب حديث الساعة أيضاً ضمن دوائر الناشطين الحقوقيين، على اعتبار أن مسألة الإرهاب تحولت إلى مسألة تحديد هويته، والتصدي لمحاولات اليمين الديني المتطرف، الساعي إلى خلق حالة من المساواة الكاملة بين الإسلام والإرهاب في أذهان الغربيين.

بناء الجسور بين الشرق والغرب كان موضوع سلسلة من اللقاءات في ذاك العام، نظمها معهد الشرق والغرب الذي يترأس مجلس إدارته جورج راسل، رئيس مجلس إدارة شركة راسل الاستشارية الشهيرة، وصاحب مؤشر راسل للأسهم المالية. شاركت في اللقاء الأول الذي جرى في نيويورك في

مطلع شهر أيلول، وضم عدداً من قيادات الجالية، وشارك في الحوار جورج راسل وعدد من أعضاء معهد الشرق والغرب. من الأصدقاء الذين جمعني معهم اللقاء مها الجنيدي، رئيسة مجمع الشبكة الإسلامية، وشبير منصور مدير مجلس التعليم الإسلامي، وأحمد يونس مدير مكتب مجلس الشؤون العامة، ونهاد عوض مدير مؤسسة كير، وآخرين. بحث اللقاء آليات تجنب الصراعات الدينية التي تسعى إلى تأجيجها منظمات متطرفة غربية وشرقية. وبحث كذلك طرق إيصال صورة الجالية الإسلامية الحقيقية للرأي العام الذي كان يتلقى يومياً أخباراً تربط الإرهاب بالإسلام. اللقاء الآخر جرى بعد شهر من اللقاء الأول في مدينة لندن، وشمل على كلمة ألقيتها أثناء لقاء مجلس إدارة معهد الشرق والغرب في العاصمة البريطانية. الكلمة تعرضت بالنقد الشديد لسياسات إدارة بوش الابن، وتورطها في حرب العراق، وأثر تلك الحرب في تأزيم العلاقة بين الشرق والغرب. ولعلها فاجأت مضيفي الذي كان ذو ميول جمهورية، وأدت لاحقاً إلى وقف الدعوات لي لحضور اللقاءات التي ينظمها معهد الشرق والغرب.

المجلس السوري الأمريكي

ربما كان الحدث الأهم في عام (2005) تأسيس المجلس السوري الأمريكي بالتعاون مع نخبة من الناشطين السوريين في الولايات المتحدة، منهم طلال سنبلي ومحيي الدين قصار. وأدت سلسلة من اللقاءات والحوارات لإعلان ولادة هذه التجربة الجديدة في الولايات المتحدة. تم الإعلان عن تشكيل المجلس في اجتماع في مدينة هيلسايد القريبة من مدينة شيكاغو يوم 25 أيلول (2005)، بهدف توحيد جهود السوريين في المهجر للدفاع عن حقوق السوريين المدنية، ودعم مساعيهم لتحقيق العدالة والديمقراطية. وقد نتج عن الاجتماع تشكيل لجنة تأسيسية، أوكل إليها العمل على وضع النظام الداخلي للمجلس السوري الأمريكي، والتحضير للمؤتمر التأسيسي الذي يزمع عقده في العشرين من شهر نوفمبر القادم في منطقة شيكاغو. تم اختياري في اللجنة التحضيرية، وعهد إلي رئاستها. تم تحضير

الأوراق التنظيمية والنظام الداخلي، وحددنا أهدافاً ثلاثة للمجلس هي:

1- دعم حقوق الإنسان والحريات المدنية والديمقراطية للشعب السوري.

2- تعزيز العلاقات الودية بين الشعبين السوري والأمريكي.

3- تشجيع التعاون الدولي القائم على القوانين والعدالة الدولية.

وتم تحديد خمس أولويات للوصول إلى الأهداف وهي:

1- تطوير تصور للإصلاحات السياسية والإدارية والقانونية المطلوبة.

2- الدفاع عن حقوق وحريات السوريين داخل البلاد وخارجها، ودعم الجهود الإصلاحية الرامية إلى تطوير دولة القانون ذات التوجه الديمقراطي.

3- تنشيط الحوار بين أبناء الجالية السورية الأمريكية حول التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في سورية، وبحث سبل دعم وترشيد العملية الإصلاحية هناك.

4- فتح أقنية للحوار والتشاور مع المؤسسات الحكومية والأهلية السورية؛ بغية ترشيد ودعم الجهود الإصلاحية.

5- فتح أقنية للحوار والتشاور مع المؤسسات الحكومية والأهلية الأمريكية؛ للحيلولة دون التدخل العسكري أو الحصار الاقتصادي الذي يضر بالشعب السوري ويؤدي إلى فوضى سياسية.

وتم إقرار الوثائق التأسيسية في اجتماع موسع لأعضاء المجلس، وانتخبت لجنة تنفيذية ومجلس أمناء، وانتخب الصديق طلال سنبلي رئيساً للجنة التنفيذية، وانتخبتُ رئيساً لمجلس الأمناء. وضم مجلس الأمناء عدداً من الناشطين السوريين المعروفين؛ منهم يحيى باشا، ومنى الجندي، وطلال سنبلي، وياسر تبارة، وخالد صالح، وحسام أيلوش. كانت الخطوة الأولى للمجلس عقد مؤتمر لبدء حوار بين النظام والمعارضة، وتم تكليفي برئاسة اللجنة التحضيرية. وبعد التشاور تم تحديد 27 أيار من عام (2006) موعداً لعقد المؤتمر. وكلفت لجنة يشرف عليها طلال سنبلي ومحيي الدين قصار بالعمل لترتيب مكان المؤتمر، وإرسال الدعوات والقيام بالدعاية له. وكلفتُ

بإعداد البرنامج والتواصل مع المتحدثين. كانت الخطة تنظيم مؤتمر للحوار الوطني يجمع النظام والمعارضة بدعوة ممثلين عن الطرفين. تواصلت مع السفير السوري آنذاك عماد مصطفى، ودعوته ووزيرة المغتربين بثينة شعبان للمشاركة في المؤتمر الأول للمجلس السوري الأمريكي. وزرته في مكتبه في السفارة أثناء إحدى زياراتي لواشنطن. وبدا لي تردده في الحضور بسبب وجود ممثلين عن المعارضة، وطلب سحب الدعوة من نجيب الغضبان، وكان قربه من جماعة الإخوان السورية، ومشاركته في الجبهة الوطنية مع عبد الحليم خدام، سبباً لهذا التردد. وقبل المؤتمر بأسبوع اتصل بي السفير ونقل لي اعتذاره واعتذار بثينة شعبان عن الحضور لأسباب طارئة، كما وصفها. وقررت عندئذ دعوة الدكتور محمد حبش بوصفه عضواً في مجلس الشعب، وكان آنذاك من المقربين من السلطة، وكانت تربطني به صداقة تولدت عن لقاءات متكررة خلال زياراتي لسورية، فوافق على المشاركة.

عقد في (2006) المؤتمر الأول بعنوان «دور الجالية السورية في الإصلاح السياسي والاقتصادي في سورية»، بحضور واسع من أفراد الجالية الذين توافدوا من العديد من الولايات، وبمشاركة من شخصيات سورية من داخل البلاد ومن المغتربين. فقدم الدكتور مرهف جويجاتي؛ خبير شؤون الشرق الأوسط، ومدير دراسات الشرق الأوسط بجامعة جورج واشنطن، عرضاً لتغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية خلال العقدين الماضيين. وتحدث الدكتور ديفيد ليش؛ أستاذ تاريخ الشرق الأوسط والخبير بالشؤون السورية بجامعة ترينيتي في تكساس حول حكم بشار الأسد ومجال التغيير. وتحدث من دمشق عبر الهاتف الأستاذ جاد الكريم الجباعي، المفكر والناشط السوري، عن العقبات التي تقف في وجه التغيير. ووجد النائب محمد حبش نفسه في أوساط ناقدة للنظام، فتحدث مدافعاً عن النظام السوري وخياراته؛ ليؤكد أن النظام القائم في دمشق هو خيار الشعب؛ لأن البديل هو الفوضى السياسة التي نشهدها اليوم في العراق. شدد حبش، من ناحية أخرى، على أهمية تكريس العمل الديمقراطي، ودافع عن مبدأ حرية الصحافة والرأي المعارض. رفض نجيب الغضبان؛ وهو أستاذ

العلوم السياسية في جامعة أركنسا، الطرح الذي قدمه حبش معتبراً أن فكرة جعل النظام بديلاً عن الفوضى ليست استراتيجية؛ لأنها تفتح الباب على تقييد الحريات وإحباط جهود السوريين الراغبين بحياة حرة ديمقراطية. وتحدث رضوان زيادة؛ مدير مكتب دمشق لدراسات حقوق الإنسان، على ضرورة العمل لإعادة سيادة القانون في سورية، وأهمية احترام حقوق الإنسان. وكرست الجلسة الأخيرة للنقاشات العامة حول المجلس السوري الأمريكي، وتناوبت مع طلال سنبلي على توضيح فكرة تأسيس المجلس السوري الأمريكي وأهدافه، وتبع ذلك نقاشات حيوية وحارة شارك فيه العديد من الحضور.

نشط المجلس خلال عامي (2006) و (2007) من خلال ندواته الدورية؛ التي كانت تسعى إلى تثقيف الجالية عن الوضع السوري، وتثير نقاشات حيوية حول الطريقة المناسبة للدفع باتجاه الانفتاح التدريجي. ودُعِيَ إلى الندوات متخصصون أمريكيون وناشطون سوريون، وشملت الدعوات جاش لاندز وسمير العيطة وهيثم المناع ومرهف جويجاتي. كما نشطت شخصياً وأجريت سلسلة من اللقاءات في دمشق خلال زياراتي الصيفية. وقمت بزيارات لبعض المدن؛ حيث توجد كثافة سكانية للمغتربين السوريين داخل الولايات المتحدة لتنشيط الجالية السورية، وإنشاء فروع للمجلس شملت مدن واشنطن العاصمة، ومدينتي بنما وتامبا في فلوريدا، ولوس أنجلس في كاليفورنيا، وفيشر وجيري في انديانا، وشيكاغو وديترويت. كانت الجاليات السورية خامدة ومنعزلة، وكانت معظم نشاطاتها تقتصر على المشاركة في أندية وفعاليات اجتماعية وبرامج ترفيهية. وتمكنّا خلال عامين من إنشاء فروع في أورلاندو في ولاية فلوريدا، وواشنطن العاصمة، وشيكاغو وديترويت ولوس أنجلس.

زرت دمشق في النصف الثاني من شهر آب من عام (2006)، في رحلة معتادة لزيارة الأهل، ولكنني أعلمت قيادة المجلس السوري الأمريكي عن رغبتي في التواصل مع شخصيات في النظام لسبر إمكانية السماح للمجلس بتنظيم برامج للتوعية السياسية والتدريب الإعلامي، ولبدء الحوار حول

السماح بنشاط سياسي وحريات صحافة بشكل متدرج. كانت الأجهزة الأمنية على علم بنشاط المجلس بعد مؤتمره السنوي الأول في ربيع ذاك العام، وغالباً بسبب تقارير من السفارة السورية حول المركز وأنشطته. وربما بسبب بدء ظهوري على الإعلام للحديث عن الوضع السوري، وحثّ حكومة بشار الأسد على الانفتاح، والسماح بالعمل السياسي خارج دائرة حزب البعث.

في اليوم التالي لوصولي ذاك العام، تلقيت اتصالاً من ضابط في الأمن السياسي خيرني بين الحضور إلى مكتبه أو المجيء لزيارتي في البيت. دعوته للحضور إلى بيتي وتحدث بلهجة ودية، واتصفت أسئلته بالعموم، وتركزت على أهداف المجلس، وطبيعة نشاطاته، والأشخاص القائمين عليه. وبدا واضحاً لي خلال الحوار أنه كان على دراية بأعمال المؤتمر والمتحدثين فيه؛ فقد سألني - على سبيل المثال - عن المحاضرة الهاتفية لجاد الكريم الجباعي، وسبب اختيار هذا الأسلوب في التواصل. وأصبحت زيارة ضباط من فرع الأمن السياسي إجراءً عادياً كلما أتيت إلى سورية، وكانوا حريصين على إشعاري بمتابعة نشاطاتي السياسية، بل قام أحدهم بمراجعة أسماء بعض أفراد أسرتي في ورقة كان يحملها!

تعود لقاءاتي الأولى مع رموز المعارضة السورية إلى عام (2001)، وكانت من خلال الصديق رضوان زيادة، الناشط آنذاك في صفوف المعارضة. شملت تلك الزيارة لقاءات مع ناشطين سوريين، خاصة أعضاء مجموعة الملتقى الفكري. توسعت لقاءاتي عام (2006) في أعقاب سياسات التضييق التي انتهجها النظام في سعيه لإخماد نشاطات ربيع دمشق. واطلعت من خلال النقاشات على القيود العديدة المفروضة على نشاطات المثقفين، واستشعرت خيبة الأمل والإحباط الشديد المسيطرة على أجواء المعارضة. واجتمعت في زيارة قمت بها في صيف (2006) بعدد من قيادات إعلان دمشق، منهم رياض سيف، وأكرم البني، وياسين الحاج صالح، وعمر كوش، وفواز تللو. وكان الحديث صريحاً. بدا لي إصرار المعارضة على الدفع باتجاه تحرير العمل السياسي من قبضة الأجهزة الأمنية، رغم الصعوبات

والتضييق الشديد على قياداتها. وتبين لي من خلال الحديث عدم وجود قناعة لدى الحضور حول جدوى توجه الجبهة الوطنية التي أسسها عبد الحليم خدام مع الإخوان ومعارضين مستقلين، وعدم اقتناعهم بفكرة إسقاط النظام التي حملتها الجبهة. كان هناك تفاعل مع فكرة العمل التدريجي لتوسيع دائرة الحريات السياسية، وأبدى الحضور استعدادهم للتعاون مع جهود المجلس السوري الأمريكي في هذا الاتجاه.

بالإضافة إلى اللقاء مع بعض رموز المعارضة، تحاورت مع مجموعة من المثقفين والقيادات السياسية الموالية للحكومة، خلال لقاء دعاني إليه الدكتور سمير التقي؛ مدير مركز الشرق للعلاقات الدولية. تحدثت خلاله عن الاستقطاب الإسلامي الغربي، ودور المؤسسات العربية والإسلامية في أمريكا في مواجه الحملات الإعلامية المعادية، وبناء الجسور مع المجتمع المدني الأمريكي والمؤسسات الحكومية. وتحدثت عن أهداف المجلس السوري الأمريكي ونشاطاته. وقدم لي سمير صورة عن تقرير تقييمي لعمل المجلس السوري الأمريكي سبق أن قدمه المركز إلى وزارة الخارجية. ولكنه أضاف بأن لدى الخارجية السورية موقف سلبي من المجلس.

لقاءاتي مع الجانب الرسمي شملت وزيرة المغتربين بثينة شعبان، المقربة من بشار الأسد، التي التقتني في مكتبها في حي المزة، وشرحت لها باستفاضة أهداف المجلس، ثم سألتها:

– كنا ننتظر تلبية الدعوة التي أرسلناها لك للمشاركة في مؤتمر المجلس في نيسان الماضي.

نظرت إلي وكأنها تتأكد من كلامي، أو تفكر في الجملة التي سمعتها آنفاً، ثم قالت:

– لم تصلني الدعوة.

أجبتها موضحاً:

– أرسلنا لك الدعوة في شهر شباط عبر السفير السوري في واشنطن.

ثم أردفتُ للخروج من دوامة التأكيد والإنكار:

- لا بأس.. سندعوك لحضور لقاء قادم.

حديثي عن دعوة جديدة ساعدها على استرجاع الملف الأمني الذي بدا واضحاً من جوابها أنها اطّلعت عليه، فأرادت إبعادي عن فكرة دعوتها من جديد إلى لقاء آخر، فقالت دون تردد:

- المعلومات المتوفرة لدينا هنا أنكم جزء من المعارضة.

أجبتها موضحاً طبيعة عمل المجلس، ومؤكداً طبيعة المهمة التي نسعى إلى تحقيقها:

- المجلس مؤسسة سورية أمريكية، غايتها المساعدة في تطوير المشاركة السياسية في سورية، وتحقيق استقرار سياسي أفضل.

تبين لي بوضوح خلال الزيارة أن وزارة الخارجية ووزارة المغتربين عاجزتان عن التحرك على مسار الحوار السياسي بين النظام والمعارضة، وأن الأمر يحتاج إلى لقاء من نوع آخر. فأرسلت طلباً إلى القصر معرفاً بنفسي وطالباً الالتقاء برئيس الجمهورية. بعد مرور أسبوع على طلبي، وقبل موعد سفري بأيام قليلة، اتصل بي رجل عرف بنفسه على أنه المساعد السياسي الخاص للأمين القطري لحزب البعث وطلب لقائي، فدعوته إلى منزلي، فحضر وبدأ حديثه موضحاً أنه مكلَّف من القصر بالتواصل معي ومعرفة أسباب طلبي اللقاء. عرفته بالمجلس، وقدمت له النشرة التعريفية التي توضح أهداف المجلس وبنيته ونشاطاته. وأخبرته عن قلق قيادات الجالية من تطورات الأحداث في العراق، ورغبة المجلس الذي أمثله بطرح مبادرات تسهم في التحول التدريجي نحو نظام يحقق شراكة وطنية، ويسمح برفع مستوى المشاركة السياسية والحريات المدنية، وأن هذه الخطوات ضرورية لمنع تكرار أحداث العراق في سورية. اتصل بي في اليوم التالي ليعلمني عن ترتيب لقاء مساء ذاك اليوم مع الأمين القطري المساعد سعيد بخيتان؛ نظراً لازدحام جدول مواعيد الرئيس خلال تلك الفترة. لكنه ما لبث أن أعلمني، ونحن

في السيارة في طريقنا إلى اللقاء، أنه فكر في الأمر ووجد الشخص الأفضل لبحث موضوع اجتماعي، وأنه رتب لقاء مع العميد مناف طلاس في منزله.

كنت على علم بالصداقة التي تجمع مناف وبشار منذ أيام الدراسة، وعن قرب مناف الذي كان آمراً لأحد كتائب الحرس الجمهوري المنتشرة في محيط القصر الرئاسي. كان اللقاء إيجابياً، والتحق باللقاء بعد نصف ساعة من بدئه عضو في القيادة القطرية، لم أعد أذكر اسمه. تركز اللقاء على أهداف المجلس، وبالتحديد بناء جسور تعاون بين المجتمع المدني الأمريكي والسوري، ومسألة التحول الديمقراطي وتوسيع هامش الحريات السياسية. وأكد طلاس رغبة الحكومة السورية بالإصلاح، وشدَّد على أن بشار هو صوت الإصلاح داخل الحكومة، ولكنه تعلل بأن تأخير الإصلاح يعود إلى الوضع الأمني العام في المنطقة، وبالضغوط الخارجية التي تمارسها أمريكا على سورية. وأكدتُ بدوري على أن تمكين المجتمع المدني، وإشراك المواطن بحمل المسؤولية العامة، هو خير ضمان للحفاظ على الاستقرار، وعلى ضرورة اتخاذ الخطوات المبدئية في هذا المجال. وانتهى اللقاء باقتراح تشكيل وفد يمثل المجلس، وإعداد أوراق تفصيلية حول المسائل التي ناقشناها. ووعد طلاس بعرض الموضوع على الرئيس، وترتيب لقاء مشترك بين الوفد وفريق عالي المستوى من جانب الحكومة السورية. ولكن بقي الوعد دون تحقيق حتى قيام الثورة بعد عدة أعوام.

الموقف من جانب أعضاء المجلس السوري كان أفضل بقليل؛ إذ إن عدداً قليلاً من قيادات المجلس كانوا معارضين لعملية انتقالية تدريجية، وداعين إلى المطالبة بتنحي بشار الأسد، وكأن العمل السياسي يمكن أن يقلص إلى قائمة من الأمنيات نضعها على الورق ونتوقع تحققها. لم تظهر آنذاك أية إرهاصات لانتفاضة شعبية ضد الأسد، يمكن التعويل عليها، بل كانت المعارضة في حالة من التفرق والفردية يرثى لها. ولم يكن لدى هؤلاء الأعضاء أي مشروع أو خطة سياسية بديلة تظهر كيف يمكن تغيير النظام بهذه الطريقة السحرية! كنت أعتقد أن التحول التدريجي، وتوسيع

هامش الحريات في البلاد، هو المسار الأفضل والأسلم. بل بدا من الطريف اعتراض أحد قيادات المجلس السوري على مشروع للانتقال التدريجي، كنت عكفت عليه سنة (2008) يضع خطة انتقال تدريجي، تؤدي إلى حصر الفترات الرئاسية وصولاً إلى انتهاء ولاية بشار الأسد مع نهاية مع بداية (2014). أدى الاختلاف مع عضو مجلس الأمناء هذا إلى توتر كبير، انتهى باستقالته عام (2008).

فكرت في تلك السنة بتأسيس جامعة في سورية؛ للاستفادة من فتح الحكومة السورية الباب لتأسيس جامعات خاصة، وتحقيقاً لرغبة الوالدة من الاقتراب منها. طورت مشروعاً لجامعة تحمل اسم «جامعة العلوم الإدارية» تختص في مجالات الإدارة والاتصالات. وحدَّدت التخصصات الرئيسية في الجامعة بخمسة: إدارة إعمال، وإدارة عامة، وإدارة مصرفية، وإعلان وتسويق، ونظم تقنية ومعلومات. واشتمل التصور الرئيسي على سبعة تخصصات فرعية، منها: اقتصاد سياسي، وعلم نفس، وأخلاق، وديانات مقارنة، وقانون مقارن. ووضعت تصوراً للهيئة التدريسية ومجلس الأمناء، وعقود توأمة مع جامعات أمريكية. والتقيت ببعض الأصدقاء لمناقشة التصور الأولي، وتطوير اقتراحات إضافية، وتقديم أسماء للمساهمين. وضمت مجموعة التشاور الدكتور موفق دعبول والدكتور محمود ربداوي والأستاذ محمد عدنان سالم. اكتشفت في نهاية اللقاءات أن الإجراءات العملية والأوراق المطلوبة لم يتم تحديدها من قبل الوزارة رغم صدور المرسوم الجمهوري. ولم أتمكن من تكليف شخص لمتابعة القضايا الإدارية، لانشغال القادرين بالتزامات خاصة. وكنت قد قمت بمحاولة في تلك الأثناء للبحث عن عمل تدريسي في جامعة القلمون، استجابة لرغبة الوالدة التي كانت تطلب مني العودة إلى دمشق، والبقاء قريباً منها. زرت الجامعة، والتقيت بعميدة كلية العلوم الدولية والدبلوماسية أمل اليازجي، وبرئيسها سليم دعبول، وناقشت نمط العمل وساعات التدريس والدوام والخدمات المتوفرة للأساتذة. وتبين لي أن مستوى التوقعات وطريقة العمل لا ترقى إلى مستوى التعليم الجامعي المتطور، وأنها مرتبطة بشروط فضفاضة وتوقعات

رئيس الجامعة، مما يجعل الحياة الجامعية أقرب في النصاب التدريسي إلى المدارس الثانوية؛ من حيث عدد الساعات والمرافق التي توفرها الجامعة للأساتذة والطلبة. وتفاجأت بحجم مكتبة الجامعة التي لم تكن تزيد كثيراً في حجمها عن مكتبتي الشخصية.

مكافحة الإرهاب

ساهمت في عام (2006) بعدد من اللقاءات؛ التي كانت تهدف إلى التعاطي مع تزايد حملات المعاداة للإسلام؛ التي تقودها منظمات اليمين الديني المتطرف، من خلال بناء تحالفات مع مؤسسات دينية ومدنية أمريكية، والدخول في حوارات مع المؤسسات الحكومية المكلفة بمحاربة الإرهاب في الولايات المتحدة. شملت اللقاءات اجتماعاً نظمته اللجنة الديمقراطية الوطنية التابعة للحزب الديمقراطي، دعاني إليه رئيس اللجنة وحاكم ولاية ميريلاند هاورد دين في منتصف شهر نيسان. وكان بين الحضور نواب وصحفيين وأمنيين وممثلين لوزارات معنية بمكافحة الإرهاب، إضافة إلى قيادات من منظمات الجالية العربية والمسلمة في أمريكا. كان اللقاء مناسبة لتبادل الآراء حول السياسات المعتمدة من الحكومة الاتحادية لمكافحة الإرهاب، وتحدثت حول أهمية تشاور الجهات الرسمية مع قيادات الجالية العربية والإسلامية، نظراً للخبرة التي تملكها في منع اختراق متطرفين لمؤسساتها ومراكزها، وأشرت إلى الجهود التثقيفية التي تبذلها لمنع لمواجهة الفكر المتطرف. وحذرت خلال كلمتي من أخطار التعامل مع الجالية بقسوة وفظاظة، ودون تمييز بين من يسعى إلى خلق قلاقل داخلية، ومن هو ملتزم بالقوانين والمصلحة العامة، وأثر ذلك في تقوقع أبناء الجالية، وسحب إرادة التعاون مع الجهات الرسمية. شمل اللقاء حواراً مع روبرت ميلر، رئيس مكتب التحقيق الفدرالي، تركز حول التضييقات التي تمارسها الأجهزة الأمنية التابعة لمكتبه على قادة منظمات الجالية. وكان اسمي، من بين أسماء عدد من الحاضرين في الاجتماع، قد وضع ضمن قائمة المراقبة عقب زيارة المحققين من مكتب انديانابوس التابع لمكتب التحقيق الفدرالي.

فكان يطلب مني الانتظار جانباً للحصول على موافقة مكتب أمني خاص قبل ركوب الطائرة، وأثناء العودة إلى الولايات المتحدة. وكنت أتعرض لتفتيش دقيق في كل مرة أدخل فيها البلاد. بل وصلت الأمور أن رجال الأمن كانوا يرافقوني من باب الطائرة إلى غرفة التفتيش والتحقيق التابعة لأمن المطار.

ناقش اللقاء الحالة الأمنية التي أعقبت أحداث الحادي عشر من أيلول، ووفر المدعوون من ممثلي الجالية معلومات حول جهود الجاليات لمنع حدوث اختراقات للمراكز الإسلامية من أشخاص ذوي خلفيات أو ميول مشبوهة. وشارك ممثلو الجالية الحضور العديد من المشكلات التي تواجهها نتيجة سياسات رسمية غير مدروسة بعناية. وكان لقاء المساء مع رئيس مكتب التحقيق الفدرالي روبرت ملر؛ الذي سمع شكاوي عديدة من الحضور حول قوائم المراقبة التي تتضمن أسماء معظم قيادات الجالية. وبدا وجه الرجل ممتقعاً في نهاية اللقاء، لكنه وعد بالنظر في تلك المشكلة. وبالفعل خلال أسابيع من ذاك اللقاء، تغيرت السياسات المعتمدة لدى أمن المطار، وتم وقف الإجراءات السخيفة التي وضعت من بعض الجهات المتنفذة في الدولة، وذات الميول اليمينية المتطرفة لأسباب كيدية تتعلق بجعل حياة المسلمين وتنقلاتهم صعبة!

والتقيت خلال زيارتي تلك لواشنطن بأنور إبراهيم بعد سنوات عديدة من لقائنا الأخير في كوالالمبور. جرى اللقاء خلال زيارة لمكتب المعهد العالمي، وكان أنور نشيطاً كالعادة، عالي الطموح. وبدا لي أنه يعدُّ نفسه لمواصلة نشاطه السياسي الذي انقطع بسبب الفترة التي قضاها في السجن، وحكم أصدرته المحكمة بمنعه من ممارسة النشاط السياسي لمدة خمس سنوات. كان يقيم في واشنطن في تلك الآونة بعد خروجه من السجن، ويعمل أستاذاً زائراً في مركز التفاهم الإسلامي المسيحي في جامعة جورج تاون. تحدثنا عن خطته، وأخبرني أنه ينوي العودة إلى قيادة المعارضة في ماليزيا بعد انتهائه من التزاماته التدريسية العام التالي. وتحدثنا قليلاً عن نشاطي وكتاباتي، وأعلمني عن سروره بقراءة كتابي الأخير، الذي صدر

عن مطبعة الجامعة الأمريكية قبل عامين، بعنوان (**التوترات والتحولات في العالم الإسلامي**) (نشرته بالإنكليزية مطبعة الجامعة الأمريكية عام 2003). وتطرق الحديث إلى الجامعة الإسلامية العالمية التي رأسها لسنوات قبل نشوب الصراع مع مهاتير، وأبدى خيبة أمله بالطريقة التي تعاملت بها معه إدارة الجامعة، والموقف السلبي الذي اتخذه كمال حسن تجاهه بعد توليه مسؤوليات الإدارة.

كانت تلك السنة مناسبة لتصعيد العمل في بناء الجسور مع المؤسسات الأمريكية العامة، في جهد يهدف إلى ربط الجالية بالتيار الرئيسي للمجتمع، وقطع الطريق على محاولات العزل والتهميش والشيطنة التي يقوم بها اليمين المتطرف. ففي مطلع ذلك العام تعرفت على ضابط سابق في سلاح البحرية من أصول مصرية اسمه هشام إسلام. كان هشام مستشاراً سياسياً لدى نائب وزير الدفاع جوردون انجلاند. وتم التنسيق معه لدعوة انجلاند لمؤتمر الإسنا السنوي المنعقد في شيكاغو ذاك العام. تمت الزيارة والتقى نائب الرئيس بقيادات الجالية الإسلامية، وألقى كلمة في المؤتمر. بطبيعة الحال أثارت الزيارة حفيظة اليمين المتصرف، وبادر بالهجوم على هشام إسلام، واتهمه بدعم الإرهاب لتعاونه مع الاتحاد. وكانت تلك المناسبة نقطة تصعيد اليمين الديني ضدي، وبدء حملة شيطنة اعتقاداً منهم أن مثل تلك الحملة ستضعف من نشاطي، وتحرج مسؤولي المنظمات الحكومية والأهلية القريبين مني.

هل يستطيع الحوار إسكات العنف؟

موضوع العنف والإرهاب كان موضوع محاضرة ألقيتها في الأسبوع الأخير من شهر آب من ذلك العام، في قاعة ممتلئة بالضباط والدبلوماسيين الأمريكيين في الكلية الحربية، دعاني إليها ريتشرد جاسكوت، وهو ضابط برتبة أدميرال في البحرية الأمريكية، ومدير الكلية الحربية. كانت المحاضرة بعنوان "الحرب العادلة"، وكان بين الحضور ضباط عرب من السعودية والأردن ومصر. تحدثت في المحاضرة حول موضوع القتال، وقواعده

وحدوده في أدبيات الجهاد التاريخية، والجهود المعاصرة لفهم الموضوع في سياق دولي جديد. وبحثت الخلافات حول بعض القواعد والحدود، وسوء توظيف عقيدة الجهاد في العصر الحديث، خاصة في سياق مساعي منظمة القاعدة لتوظيفه خارج سياقه المعروف. كما تحدثت عن رفض العلماء والمفكرين المسلمين الأوسع تأثيراً استهداف المدنيين باسم الجهاد، وأن هذا النوع من العنف يقع خارج دائرة الحرب العادلة والمشروعة.

كما شاركت في منتصف شهر حزيران بلقاء عقدته الأمانة العامة لشؤون الحوار الديني العالمي في مكاتب الاتحاد في بلينفيلد، بعنوان "الوحي: نظرة كاثوليكية وإسلامية"، ونشر على أثره بحثاً مشتركاً في موضوع اللقاء، بالتعاون بيني وبين القسيس فرانسيس تيسو. وشاركت كذلك بندوة عالمية نظمتها الجامعة الإسلامية العالمية في كوالالمبور، بعنوان "مقاصد الشريعة وسبل تحقيقها في المجتمعات المعاصرة"، شاركت فيها بورقة حول اعتماد مقاربة المقاصد للتأسيس لمنظومة حقوق إنسان على القيم الأخلاقية والدينية للمجتمعات الإسلامية، في جهد لمتابعة ما بدأته في السنوات الأخيرة لعملي داخل الجامعة نفسها قبل مغادرتها بعد سبع سنوات من تاريخ مغادرتي. وكان شريكي في الجلسة الدكتور وائل الحلاق، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة ماكيل الكندية، الذي بدأت كتاباته في تلك الآونة تثير انتباه الدوائر العلمية والمعرفية في الجامعات الإسلامية. وترأس الجلسة الصديق قطب سانو؛ الذي أصبح خلال السنوات القليلة التي تركت فيها الجامعة أستاذ كرسي ونائب مدير الجامعة. وشارك في المؤتمر العديد من الأصدقاء منهم: عبد المجيد نجار، ومعتز الخطيب، ومحمد بن نصر، وإبراهيم الزين، وجاسر عودة، كما شارك طلاب سابقون أصبحوا بعد سنوات قليلة زملاء في العمل العلمي منهم: الطاهر الميساوي، وبدران حسن، وبشير ويونس صويلحي.

ضمَّت نشاطاتي ذاك العام زيارة لسنغافورة في الأسبوع الأول من شهر آب لعام (2006)؛ تلبية لدعوة المجلس الإسلامي السنغافوري الأعلى،

بالتعاون مع مؤسسة دار الأرقم التي يترأسها رضوان واو. رضوان صديق قديم عرفته منذ إقامتي في ماليزيا، وهو سنغافوري صيني، اعتنق الإسلام منذ سنوات طويلة. كانت تلك هي المرة الثانية التي توجه إلي الجالية المسلمة في سنغافورة دعوة لزيارة مدينتهم الناهضة. فقد جاءت الدعوة الأولى شهر أيلول عام (2002)، ولكنني اعتذرت بسبب مشاغلي الكثيرة ذاك العام، وانشغالي بمتابعة التطورات السياسية عقب مداهمة قوى الأمن مؤسسات الجالية في مطلع العام لبيت الدعوة، وشمل برنامج الزيارة عدد من اللقاءات والمحاضرات استمرت لأسبوع تقريباً، زرت فيها مكاتب المؤسستين الداعيتين. كما التقيت بوزير الشؤون الإسلامية الدكتور يعقوب إبراهيم، وكان يشغل أيضاً منصب وزير البيئة والمياه. وألقيت أثناء الزيارة عدداً من المحاضرات أمام رابطة المسلمين الاحترافيين، ومعهد الدراسات الآسيوية حول مسائل الإصلاح الثقافي والديني، والتوترات الثقافية داخل المجتمعات الإسلامية، ومستقبل الإسلام في المجتمع المعاصر بين المشاريع الدينية والعلمانية. كما ألقيت محاضرة عامة بعنوان "نحو تقاليد إسلامية لحقوق الإنسان" في قاعة سنغافور للمؤتمرات، وحضر حشد غفير. وتخللت اللقاءات لقاء خاص بالشباب، دار النقاش فيه حول مشاكل الشباب والتحديات المعاصرة.

بدت طبيعة الحياة والمجتمع في سنغافورة، في أول زيارة لها، قريبة في بعض جوانبها من الحياة في ماليزيا. الفرق الكبير كان في التوزع السكاني، وتحول الأغلبية المسلمة في ماليزيا إلى أقلية في سنغافورة، وتحول الأقلية الصينية إلى أغلبية في سنغافورة. ولكن وضع الأقلية المسلمة في البلاد كان مختلفاً تماماً عن تلك التي تعيشها الأغلبية المسلمة في ماليزيا. كانت الصورة مختلفة في كثير من تفاصيلها، وبشكل خاص على مستوى العلاقات بين أفراد الجالية المسلمة. التسامح والانفتاح على التنوع الديني والعرقي بدا عنصراً مشتركاً بين البلدين؛ إذ بدا واضحاً احترام الأغلبية الصينية لحقوق الأقلية المسلمة في سنغافورة، بصورة تحاكي تعامل الأغلبية المسلمة مع الأقلية الصينية هناك.

حوار الطرشان في ألمانيا

كانت سنة (2007) مزدحمة بالنشاطات المتعلقة بلقاءات مع قيادات الجالية؛ لبحث التحديات المرتبطة بتداعيات سياسات مكافحة الإرهاب على الجاليات الإسلامية، وتقديم اقتراحات حول الطرق الأمثل لمواجهتها. وشملت النشاطات برامج تدريبية، ومحاضرات كانت تهدف إلى توعية الجالية حول الفرص التي تملكها، والتحديات والأخطار التي تحيق بها. كما شهدت نشاطات خارج الولايات المتحدة، لعل أهمها زيارة للجالية التركية في ألمانيا، ومشاركة في برامج التوعية الثقافية لضباط القوات المسلحة الأمريكية، وزيارة لعدد من الدول العربية للتحضير لحوارات بين الشرق والغرب حول التطورات الدولية. بدأتُ العام بزيارة لألمانيا شملت المشاركة في برنامجين؛ الأول نظمه المرشد العسكري عبد الرشيد محمد في منتجع غارميش؛ الذي يبعد 100 ميل عن ميونخ، والثاني تضمن زيارات لمركزَين إسلاميَّين في مدينة ميونيخ بالتعاون مع القنصلية الأمريكية في ميونيخ، ولقاء مع مسؤولين في الحزب الديمقراطي المسيحي الحاكم.

شاركت أولاً في ورشة نقاشية حضرها المرشدون العسكريون العاملون في ألمانيا وأسرهم في منتجع غارمش الواقع على سفوح جبال الألب الجميلة. حضر الورشة نحو 55 مشاركا مع أسرهم. تحدثت في اللقاء عن مفهوم السلام في الإسلام، وناقشت حدود استخدام العنف في الحروب. وتحدث عبد الرشيد محمد، المرشد المسلم الأول في الجيش، في موضوع يرتبط بتحسين الحياة الأسرية للمرشدين، بعنوان "سبعة عادات لجعل الحياة الأسرية ناجحة". وشارك في الندوة نهاد عوض؛ المدير التنفيذي لمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير)، في موضوع حقوق الإنسان، واستعرض إحصاءات حول حوادث التمييز العنصري ضد المسلمين في الولايات المتحدة، وقدم النصائح حول كيفية التعامل معه.

غادرت ونهاد عوض منتجع غارمش بعد انتهاء الورشة إلى مدينة ميونيخ، والتقينا حال وصولنا مع القنصل العام الأمريكي في ميونيخ،

السيد إيريك نيلسون، حسب التقاليد المتبعة. وكانت القنصلية قد تعاونت في ترتيب جملة من اللقاءات مع ممثلين عن الحكومة الألمانية لتقديم نموذج الجالية الأمريكية للمسؤولين الألمان، أملاً في أن تساهم هذه اللقاءات بتحسين العلاقة بين الجالية الإسلامية في ألمانيا والمؤسسات الرسمية. أعقب اللقاء زيارة مركزَين إسلاميَّين في ميونخ وبنزبرغ، عقدنا خلالها لقاءات مع قادة الجالية، وأطلعناهم على تجاربنا في أمريكا، واطلعنا كذلك على تجربتهم في ألمانيا. كانت الندوة في مركز بنزبرغ مشتركة، حضرها ممثلون عن الجالية الإسلامية وناشطون في الحوار مع الجالية من ممثلي الأغلبية المسيحية. وكان بين الحضور نائبة رئيس بلدية نبزبرغ ريجينا بارتوتش، التي تحدثت عن ضرورة تزويد الشباب المسلم بتعليم متوازن، وتوفير المنصات المناسبة للتعبير عن أنفسهم، وتوجيه طاقاتهم من خلال نشاطات تساعد في تحسين أوضاعهم، وإشعارهم أنهم جزء من المجتمع الألماني الواسع. وتحدثت في اللقاء عن دور الجالية في المشاركة بأنشطة للتعريف بهويتهم واهتماماتهم، وبتقديم البرامج والخدمات التي تساهم في خدمة بلدهم الذي يحتضنهم منذ عقود.

التقينا في نهاية الزيارة بمارتن نوميار، عضو البرلمان البافاري والمسؤول عن العلاقات مع الجالية الإسلامية عن الحزب المسيحي الديمقراطي. تركزت المناقشات حول مسألة اندماج المسلمين في ألمانيا. وأطلعت السيد نوميار على جهود الاتحاد في السعي للوصول إلى تكامل بين القيم الخاصة بالجالية والثقافة الأمريكية المحيطة. وشددت في حديثي معه على الحاجة إلى وضع سياسات وبرامج لمساعدة الأقلية المسلمة لتعلم اللغة والمهارات التي يحتاجونها للمشاركة المدنية والمؤسسات الحكومية، ومحاربة التعصب والتمييز. وأعقب الاجتماعُ مؤتمراً صحفياً حضره مراسلي الصحف البافارية والتركية. ما لفت نظري خلال الزيارة تضخم النزعات القومية بين أفراد الجالية والمسؤولين الألمان. فقد كان العلم التركي مرفوعاً في المركز الإسلامي في ميونخ، مع غياب العلم الألماني! كما كانت صورة كمال أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة على جدار القاعة الرئيسية في المركز. وكان الإمام التابع لرئاسة

الشـؤون الدينيـة التركيـة قـد التحـق قبـل ثـلاث سـنوات بالمركـز، ولكنني تفاجـأت حـين أخـبرني أن مهمتـه انتهـت، وعليـه العـودة إلى تركيـا لإرسـال إمـام آخـر للمكـوث مـدة أقصاهـا ثلاث سـنوات. هـذه المعلومـة فـسرت لي التناقضات التـي لمسـتها. فالإمـام يخـدم مصالـح المؤسسـة الدينيـة التركيـة لا مصالـح الجالية التركيـة الألمانيـة، والتغيـير المتكـرر للإمـام يمنعـه مـن تفهـم الثقافـة الألمانيـة، والتعامـل مـع مشـكلات الجاليـة بفعاليـة. بالمثـل، لم يبـد ممثـل الحـزب المسـيحي الديمقراطـي الحاكـم أي حمـاس لمسـاعدة الأتـراك عـلى الاندمـاج في الثقافـة الألمانيـة، وبـدا مقتنعـاً أنهـم ضيـوف سـيعودون إلى تركيـا، رغـم مـرور جيلـين عـلى إقامتهـم في ألمانيـا!

الحركات المعادية للإسلام

شـاركت ذاك العـام في برنامجَين مـن برامـج التوعيـة الثقافيـة لضبـاط الجيـش الأمريكـي؛ الأول في فـورت لويـس في ولايـة واشـنطن، والآخـر في فـورت درام في ولايـة نيويـورك. برامـج التوعيـة هـذه كانـت جـزءاً مـن نشـاطاتي منـذ عـام (2004)، في السـنة التـي كلفـت فيهـا بـالإشراف عـلى برنامـج مرشـدي الجيـش المسـلمين في أنديانابولـس. كنـت أنظـر إلى مشـاركتي في تلـك البرامـج بوصفهـا جـزءاً مـن جهـود التصـدي لمحـاولات الشـيطنة المنهجيـة للإسـلام والمسـلمين؛ التـي كان يقودهـا اليمـين الدينـي المتطـرف في الولايات المتحـدة. كانت مشـاركاتي في تلـك البرامـج تهـدف إلى تعريـف أفـراد المؤسسـة العسـكرية؛ التـي كانـت آنـذاك مسـؤولة عـن بنـاء مؤسسـات المجتمعَـين الأفغـاني والعراقـي، بالثقافـات والمجتمعـات التـي تتعامـل معهـا، وبمبـادئ الديـن الإسـلامي الـذي كان يتعـرض لشـيطنة ممنهجـة مـن اليمـين الدينـي القريـب مـن المؤسسـة العسـكرية. كنـت عـلى اطـلاع عـلى جهـود اليمـين الدينـي لخلـق عـداء ضـد الإسـلام داخـل المجتمـع الأمريكـي والمؤسسـات السياسـية والعسـكرية. كانـت مشـاركاتي جـزءاً مـن برنامـج متخصـص في التدريـب الثقـافي والحضـاري اسـمه "برنامـج التنميـة القياديـة والتعليـم مـن أجـل السـلام المسـتدام"، ويديـره فريـق تابـع للكليـة البحريـة للدراسـات العليـا الواقعـة في مدينـة مونتـيري في ولايـة كاليفورنيـا. كان

البرنامج يستعين بأكاديميين ومسؤولين في مؤسسات المجتمع المدني في برامجها التوجيهية والتدريبية. من بين المؤسسات التي شاركت في البرامج، وسعت إلى التأثير في رؤية القيادات العسكرية الأمريكية، منظمة المشروع الأمريكي (أميريكان انستيتيوت)؛ التي تسيطر عليها حركة المحافظين الجدد، ومنصة الشرق الأوسط (ميديل إيست فوروم)؛ التي يقودها دانيل بايب. وكان مايكل روبن، أحد الشخصيات التي تدعى إلى برامج التوعية، وكنت أعتقد أن حضوري لبعض تلك البرامج يساهم في إيجاد توازن في العرض. وكان روبن يشدد على التناقضات الأخلاقية والسلوكية داخل المجتمعات الإسلامية، ويعمل على تشويه الحقائق بانتقائية عجيبة. وكنت أقدم تقارير تفصيلية ودورية إلى مجلس أمناء الاتحاد حول مشاركتي في برامج "التعليم من أجل السلام". وكانت مداخلاتي في تلك البرامج تقلق روبن وعدد من ممثلي تيار اليمين الديني، الذي لم يخف انزعاجه من مشاركتي في العديد من التصريحات الصحفية.

كان اليمين الديني يلعب على الصراع القائم في الشرق الأوسط، ويحاول أن يستفيد من غياب فهم حقيقي لدى المواطن الأمريكي لأثر السياسات الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط في تغذية التطرف والعنف. التماهي الكامل مع سياسات الاستيطان والتوسع الإسرائيلية ولَّد صعوبة شديدة في التعامل مع قضايا الصراع بين الشرق والغرب. ففي كل من الشعبين المتصارعين من يسعى إلى البحث عن مخرج إيجابي للصراع. لكن كان ثمة من يرى منفعة شخصية أو قومية من استمرار الصراع وتصاعد العدوان والاقتتال. الحراك الجمعي الراهن في الشرق الأوسط يجعل مهمة من يسعى لتأجيج الصراع أكثر فعالية ونجاعة من الساعين إلى بناء الجسور. بناء الجسور يتطلب بروز كتلة حرجة بين الجماعات السكانية المتصارعة، وهذا حدثٌ يرتبط غالباً بطبيعة الحراك نفسه لا رغبات الأفراد. وكان اليمين الديني يسعى إلى خلط الأوراق وتضليل الرأي العام الأمريكي بربط الإرهاب بالدين الإسلامي. وكان الخلط متاحاً وسهلاً بسبب جهل الأمريكيين بواقع العالم الإسلامي، والدور الذي تلعبه السياسات الخارجية

الأمريكية الداعمة للاستبداد في إيجاد المناخ الذي ولد الحركات السياسية التي اعتمدت العنف لتحقيق أهدافها. طبعا لم أكن أبرر سلوك المنظمات التي تستبيح استخدام العنف ضد المدنيين لتحقيق أهدافها، وكنت أعتبر ذلك السلوك إرهاباً يجب منعه وإيقافه. ولكنني كنت أصر على أن القضاء على الإرهاب غير ممكن بالاعتماد كليّاً على القوة والعنف، وتجاهل جذوره الاجتماعية والسياسية.

قدمتُ طرحي هذا لمشكلة العنف السياسي والإرهاب في المناظرة التي دعتني إليها كلية المجتمع التاريخي في دبلن، عاصمة إيرلندا. جرت المناظرة في كلية ترينيتي التاريخية؛ والتي أسست مطلع القرن الثامن عشر. الجمعية المتخصصة في تنظيم مناظرات تثير باستمرار أسئلة حول مواضيع جدلية، ويعود تأسيسها في عام (1770) إلى جهود الفيلسوف الإيرلندي أدموند برك. الجمعية ذات تاريخ عريق في المناظرات، استضافت خلال نصف القرن الماضي عدداً من الشخصيات المؤثرة منها ديزموند توتو، الناشط الحقوقي خلال الثورة ضد التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، وشيرين عبادي، محامية حقوق الإنسان الحائزة على جائزة نوبل للسلام، ونعوم تشومسكي، المنظر السياسي اليساري، وونستون تشرشل، رئيس الوزراء البريطاني السابق، وإدوارد كينيدي، عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، وماري روبنسون، الرئيسة السابقة لأيرلندا ومفوض الأمم المتحدة السامي السابق لحقوق الإنسان.

تحدثت خلال المناظرة في موضوع "العنف السياسي والإرهاب". وأكدت على ضرورة اعتماد سياسة واضحة وثابتة في التعامل مع الإرهاب بمختلف أنواعه، بدءاً من إرهاب الدولة. وشددت في حديثي على ضرورة إدانة العنف الذي تمارسه الحكومات القمعية ضد المدنيين، والحاجة إلى اعتماد معايير عالمية متأصلة في القانون الإنساني الدولي، ومن ثم تطبيق المعايير باستمرار على الجهات الفاعلة الحكومية وغير الحكومية على السواء. كما أكدت بأن استخدام العنف وسيلة وحيدة للتعاطي مع مشكلة الإرهاب أدى عملياً إلى زيادة الإرهاب بدلاً من تقليصه، مستحضراً إحصائيات وفرها المعهد

التذكاري لمنع الإرهاب، والتي تشير إلى أن عدد الحوادث الإرهابية ارتفع في جميع أنحاء العالم من (2013) حادثاً في عام (2002) إلى (3646) حادثاً في عام (2004)، ليصل إلى رقم مذهل يبلغ حوالي (6500) في عام (2006).

الأمر الآخر الذي شغلني خلال عام (2007) هو موضوع "الإسلاموفوبيا" أو معادة الإسلام، والخطاب العدواني المتصاعد ضد المسلمين ومؤسساتهم وقياداتهم الفاعلة، والمرتبط جزئياً باليمين الديني. شاركت في ندوة ضمن مساعي مواجهة حركة معاداة الإسلام، نظمها المركز الإسلامي في مدينة ملواكي بعنوان "مكافحة الإسلاموفوبيا". جرت الندوة بتاريخ 20 أكتوبر (2007)، بالتعاون مع جامعة ملواكي وتحالف النساء المسلمات في ميلواكي. تولى التحضير للندوة والدعوة إليها الناشطة الحقوقية جنان نجيب، رئيسة منظمة التحالف من أجل المرأة. حضر الندوةَ أكاديميون وطلبة جامعيون، كما حضرها صحفيون وإعلاميون، وبعض المسؤولين الأمنيين في المدينة. وشارك معي في الحوار حسين إيبش، المدير التنفيذي لمؤسسة هالة مقصود للقيادة العربية الأمريكية، وإيدينا لاكوفيتش، مديرة الاتصالات في لجنة العمل السياسي الإسلامية (أمباك). ربطت في طرحي ظاهرة العداء للإسلام، أو الإسلاموفوبيا، بجهود قديمة تسعى إلى تقديم الإسلام بوصفه جملة من التقليد التاريخية المناوئة للتطور والتحديث الذي يقوده الغرب، وهي جهود تعود إلى الحركة الاستشراقية القديمة التي برزت في القرن الثامن عشر. وأشرت إلى أن الحركة المعادية للإسلام التي نواجهها اليوم أكثر عدائية وإيغالاً في الشيطنة وتشويه الحقائق، وتسعى إلى تكريس العداء والاقتتال بين الشرق والغرب. ونبهت إلى أن الخطاب العدائي يهدف في الدرجة الأولى إلى تقويض الحقوق المدنية، بتحويل الحرب على الإرهاب إلى حرب على الإسلام، وهو بذلك يساهم في تقويض كل الجهود المخلصة التي تهدف إلى التعامل بفاعلية مع التطرف والإرهاب.

أتى هذا البرنامج الهادف إلى إلقاء الضوء على معادة الإسلام في أمريكا، في سلسلة من اللقاءات التي شاركت فيها، بدءاً من عام (2005)، حيث

حضرت برنامجاً يعالج الموضوع نفسه، نظمه مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية (كير) في واشنطن، خلال شهر آب من ذلك العام، وقدمت فيه ورقة بعنوان "الحقيقة والغرور في معاداة الإسلام وأمريكا"، نشرت لاحقاً في عام (2007)، في كتاب صدر عن دار أمانة للنشر، تحت عنوان **(العداء للإسلام ولأمريكا)**. تبعه لقاء عقده معهد بروكنكز حول "العداء للدين، خطره المتزايد وتحديات السياسات المناسبة"، في مطلع الشهر الأخير من عام (2006). كما نشرت لاحقاً مقالة مفصلة في مجلة "آفاق إسلامية" الواسعة الانتشار في أمريكا الشمالية.

اهتمامي بموضوع معاداة الإسلام، وتوظيف تفسيرات متشددة للحكم على الدين الذي يتبعه خمس سكان الأرض تجلى في الدراسة التي أعددتها بطلب من "معهد السياسات والتفاهم الاجتماعي"؛ والتي سعت إلى تقييم تقرير كتبته شيريل بينارد، ونشرته مؤسسة راند في أواخر عام (2003)، تحت عنوان "المدنية والديمقراطية والإسلام". وجهت بينارد في تقريرها باللائمة، فيما يتعلق بزيادة التعصب والميول المعادية للديمقراطية والإرهاب، على جميع الجماعات السكانية التي تتمسك بقيم الإسلام وتعاليمه. ودعا تقرير راند علناً إلى "إعادة بناء الدين الإسلامي" باعتباره السبيل الوحيد لمواجهة الإرهاب.

كان ردِّي من خلال تقرير أعددته بعنوان **(اتهام الإسلام)**، ونشره معهد السياسات والتفاهمات الاجتماعية في 16 تشرين الثاني (2006)، يتلخص في أن الدراسة التي نشرتها راند تستخدم الالتزام الإسلامي كشماعة لتجنب الدخول في تقييم جدي حول مسؤولية القوى العالمية في توليد التطرف، وصعود الجماعات ذات التفسير الراديكالي. وشددت على أن التطرف لا يمكن تفسيره فقط على مستوى العقيدة الدينية، بل يجب النظر إلى علاقة ظهور التطرف بصعود الأنظمة الاستبدادية في المجتمعات الإسلامية. وأشرت في تقريري إلى أن الأنظمة الشرق أوسطية السلطوية التي تقمع الحريات، وتحول دون قيام مجتمع مفتوح، تتمتع منذ فترة

طويلة بدعم من الإدارات الأمريكية المتعاقبة. ودعوت إلى وقف دعم الأنظمة التسلطية من أجل تجفيف منابع التطرف والإرهاب. وحذرت من مخاطر التدخل الخارجي المباشر للتأثير في حركة الوعي للمجتمعات الإسلامية. ونوهت إلى التداخل الكبير والمتغير بين المجموعات التي اختارتها بينارد، واقترحت كمقاربة أكثر فاعلية وأقل تخبطاً أن تبني الولايات المتحدة مواقفها على التزامات الحركات السياسية بقيم الحرية والمساواة، بدلاً من النظر إلى نمط الحياة والالتزام الديني. وأشرت إلى أن توصيات بينارد ليست سوى إعادة تدوير للسياسات الخارجية القديمة التي أوصلتنا إلى المخاطر الحالية، وولدت التطرف في الشرق الأوسط.

ثم أشرت في تقريري إلى مشكلة عميقة في المقاربة التي اتبعتها كاتبة تقرير "الإسلام المدني الديمقراطي"؛ والتي تقوم على أساس الكيل بمكيالين؛ واحد للمسلمين، والآخر لغيرهم؛ لأنها تقيم الحراك السياسي في المجتمعات المسلمة على أساس عقدي ديني في حين أنها لا تجرؤ على فعل ذلك في المجتمع الأمريكي. وضربت مثلاً في عدم استخدام الباحثين نمط الحياة والالتزام الديني لتقييم الأفراد والأحزاب في الغرب. ونوهت إلى أن الغرب لا يقيّم، من الناحية العملية، التوجه الديمقراطي بالنظر إلى الممارسات الدينية للسياسيين. فمثلاً بينارد لا تستطيع استخدام المنطق نفسه عند الحديث عن جو ليبرمان؛ عضو مجلس الشيوخ الأمريكي؛ الذي يتبع العقيدة اليهودية الأرثوذكسية المتشددة.

من برد الشمال إلى دفء الخليج

شاركت في تلك السنة بجولة زرت خلالها أربع دول خليجية، خلال شهر تشرين الثاني، استمرت عشرة أيام، شملت جدة وصنعاء ودبي والدوحة. كانت الغاية من الرحلة توقيع مذكرات تفاهم ضمن برنامج تبادل ثقافي مع مؤسسات محلية لاستقبال وفود من قادة منظمات المجتمع المدني الأمريكي، وإرسال وفود عربية إلى الولايات المتحدة، للتعرف على نشاطات الجاليات العربية والإسلامية، والمشاركة في حوارات مع ناشطين

أمريكيين. نظم الرحلة المؤسسة الوطنية للسلام بالتعاون مع الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية، وشارك في وفد الزيارة سحر طومان ومنال رضوان. صحبتني زوجتي إلى جدة للقيام بمناسك العمرة خلال زيارة السعودية لتعود هي إلى بلينفيلد، وأتابع أنا جولتي مع أعضاء الوفد. قمنا خلال الجولة بلقاءات مع عدد من المنظمات الأهلية، وتم تحديد عدد من المرشحين من تلك البلدان، انقسموا بين أساتذة جامعات وقضاة ورجال دين. كانت تلك المرة الأولى التي أزور فيها صنعاء ودبي والدوحة. وانتابتني مشاعر متضاربة لدى زيارتي لليمن؛ فعراقة البلد وماضيه التليد لا يمكن أن يخطئه زائره، خاصة مبانيه التاريخية القديمة التي يعود تاريخها إلى مئات السنين، والتي ترتفع إلى عدد من الطوابق يتجاوز بعضها العشرة. المناطق الأثرية كانت رائعة؛ زرت قصر الصخرة، أو دار الحجر؛ الذي تم بناؤه على صخرة كبيرة. القصر بناه الإمام منصور علي بن العباس، في منتصف القرن الثامن عشر، في وادي ظهر القريب من صنعاء، ويرتفع سبعة طوابق فوق الصخرة التي تشكل قاعدة بنيانه، ويتصل القصر ببئر لجلب المياه حفر ضمن الصخرة نفسها.

لفت نظري ثقافة التسامح الديني المتجذرة في الوجدان اليمني. كان عدد اليمنيين اليهود لافت للنظر، بلباسهم التقليدي، والذوائب المتدلية أمام آذانهم. أحببت في إحدى الجولات اختبار سائق (التكسي) الذي كان يقلني، فسألته بلهجة مستفزة عندما صادفنا يهودياً يمنياً يعبر الشارع:

- كيف تسمحون لليهود بالبقاء بينكم؟ أليس من الأفضل إبعادهم إلى إسرائيل؟

أجابني مستغرباً، ولكن بلهجة واثقة:

- كيف نبعدهم؟ هؤلاء يمنيين مثلنا.. واليمن أرضنا وأرضهم.

هذا هو الموقف الذي توقعت من هذا اليمني؛ الذي تشكل وعيه من خلال تراث التسامح الديني الذي كنت أعرفه بوضوح في الثقافة الشامية عندما كنت شاباً صغيراً. هذه هي القيم الإنسانية التي غرسها

الوحي وكرّسها في قلوب الشعوب التي تفاعلت معه في فترات النهوض والازدهار، وبقيت آثاره حتى يومنا هذا. الفهم التراثي المنفتح يتناقض تماماً مع نزعات الإقصاء وزرع بذور الصراع والخلاف بين أصحاب العقائد والديانات المختلفة. الفهم الذي ساد المجتمع لقرون طويلة مناقض بانفتاحه للعقلية الدينية التي ولدت دولة إسرائيل المعاصرة؛ حيث الدين يفرق الناس وفق ثنائية السادة والعبيد. في حين يرفض هذا اليمني البسيط إبعاد يهود اليمن إلى إسرائيل، كنت أجد في فندق (الشيراتون) الذي أقمنا فيه في العاصمة اليمنية زواراً غربيين يلتقون بعائلات يمنية يهودية لتحفيزهم على الهجرة إلى إسرائيل. ولعل الحرب المدمرة في اليمن اليوم ساهمت في تحقيق حلم المنظمات الصهيونية في نقل يهود اليمن إلى إسرائيل.

المشهد المحزن طبعاً تمثل في رؤية عدد كبير من اليمنيين وقد أنهكهم القات؛ الذي تبدو علامات تخزينه في وجوههم المرتخية؛ التي تبدو وكأنها تراخت نتيجة فالج دماغي أفقد النصف الذي يستخدم في التخزين الحراك كلياً. والذي كان لافتاً للنظر الصمت الكامل لرجال الدين والمثقفين اليمنيين حول هذا الاستخدام المنهك للجسم، المفتر للذهن، والمضيع للثروات. نبات القات حلَّ في اليمن مكان البن اليمني المشهور. فتحول مزارعو البن الذي كان يشكّل أعلى صادرات اليمن قبل أربعة عقود، إلى زراعة القات الذي يستهلك كميات كبيرة من المياه، ويسلب الناس قوت يومهم بسبب أسعاره المرتفعة، كما يسلبهم أوقاتهم وأعمارهم بسبب جلسات التخزين الطويلة التي تضيع خلالها ساعات العمر هدراً، فضلاً عن أضرار القات الصحية البادية للعيان.

الوقفة التالية في الرحلة كانت في دبي، يوم 22 تشرين الثاني، أُتيح لي خلالها اللقاء ببعض الأصدقاء، أذكر منهم الصحفي والناشط السوري أيمن عبد النور، الذي أقام سنوات في دبي قبل هجرته إلى الولايات المتحدة، وكان حريصاً على لقائي بعد سنوات من لقائنا السابق في دمشق، وبعد أن اضطر لمغادرة البلاد بعد محاولة غير مثمرة للدفع نحو إصلاح حزب البعث. والتقيت خلال زيارتي بصديقين عزيزين بعد غياب طويل؛

نصر عارف والتيجاني عبد القادر. قضينا أمسية جميلة معاً في أحد مطاعم دبي، نقلب الأمور ونقيم التطورات الاجتماعية والسياسية في المنطقة العربية. وعندما سألت عن الأوضاع في المنطقة العربية، كان الجواب حاضراً بأننا نتجه نحو دولة فاطمية ثانية، في إشارة إلى توسع النفوذ الإيراني في المنطقة. ضحكت لسماع ما بدا نكتة أو دعابة، ولكنها دعابة تعكس سخرية الواقع العربي، الغارق في لحظة من اليسر والترف غير ملتفت للتحركات العميقة في الصفائح الانفلاقية (التكتونية) العميقة تحت مياه الخليج الهادئة. عقد الفريق الذي صحبني في رحلتنا الاكتشافية عدة لقاءات مع ممثلين عن المجتمع المدني في دبي، وانتقلنا في اليوم التالي إلى الدوحة لنعيد الكرة هناك. كما قمنا بزيارة مكاتب قناة الجزيرة، التي سيكون لي سلسلة طويلة من الزيارات واللقاءات فيها في بضع سنين مع قيام الثورة مطلع عام 2011.

سافرت في الأسبوع الثاني من شهر كانون الأول إلى اسطنبول للمشاركة في مؤتمر الإسلاموفوبيا الذي دعيت إليه من اتحاد منظمات المجتمع المدني التركية. والتقيت هناك للمرة الأول بهيثم المناع، الحقوقي المعارض السوري. وكان هذا التعارف مقدمة لدعوته للمشاركة في برنامج نظمه المجلس السوري الأمريكي قبل أشهر قليلة من انفجار الثورة السورية. لكن الثورة وضعتنا على جانبين مختلفين من المواقف السياسية حول كيفية التعاطي مع التحركات الشعبية الهادفة إلى التخلص من واقع الاستبداد. كما التقيت فيها بالصديق التركي عمر الخطاب؛ الذي أخبرني بأنه انتهى من ترجمة كتاب العقيدة والسياسية إلى اللغة التركية، ولكن الترجمة اختفت، ولذلك لن يتمكن من نشر الكتاب.

دُعيت في مطلع سنة (2008) لزيارة وينابيغ في كندا، في منتصف شباط، والمشاركة في سلسلة من المحاضرات للسنة الثانية على التوالي، في موضوع "إدارة المنظمات المدنية ومعايير التحول الثقافي". وكنت قد شاركت في العام المنصرم بسلسلة من المحاضرات في مواضيع القيادة والمشاركة في المسؤوليات العامة، نظمتها شبكة الخدمة الاجتماعية التي ترأستها الناشطة الاجتماعية

شاهينة صدّيقي. وصادف حضوري إلى المدينة الكندية القريبة من القطب الشمالي بداية فصل الشتاء القارس. شهر شباط من أكثر الأشهر برودة في كندا؛ إذ تصل درجة الحرارة فيها الـ (40) درجة تحت الصفر؛ وهي درجة حرارة يمكن أن يصاب بسببها الإنسان بحمى التجمد (أو الهايبرثرميا) القاتلة بعد زمن قصير من التعرض لها. استقبال الأصدقاء الحارّ في كندا جعلني لا أكترث ببرودة الجو، وحفزني للحضور في هذا الوقت من العام خلال السنوات الثلاثة الأخيرة التي أمضتها في أمريكا قبل مغادرتي إلى الدوحة. وكانت الحفاوة لا تقتصر على الجهة المنظمة، بل تظهر في دعوات أبناء الجالية، واستضافتي في لقاءات خاصة للمؤانسة والتعارف. كانت الجالية الإسلامية في كندا أحدث عهداً بالتنظيم وإنشاء المؤسسات، وكانت السيدة شاهينة صدّيقي، صاحبة الدعوة، على درجة عالية من التنظيم والفاعلية. وكانت تملك شبكة علاقات واسعة مع المؤسسات المدنية والحكومية، وتتلقى منحاً حكومية تستخدمها لمساعدة المهاجرين الجدد من مختلف الخلفيات الدينية والعرقية، ولكنها أيضاً مرتبطة بعلاقات تعاون مع الجالية التي تنتمي إليها.

كندا تجمع بين حرارة الإنسان وبرود الطبيعة

زياراتي إلى كندا كانت متكررة، فكنت أزورها بعد انتقالي للعمل مع الاتحاد بمعدل زيارتين كل عام. كانت الزيارة الأولى في عام (2006)، بدعوة من اتحاد الطلاب في جامعة تورنتو. سبق وزرت تورنتو في منتصف شهر شباط عام (2006)، وألقيت محاضرة مساء يوم الجمعة بعنوان "حقوق الإنسان في المجتمع الإسلامي" في جامعة تورنتو، نظمتها رابطة الطلاب المسلمين في الجامعة، وحضرها نحو 180 مشاركاً من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس. شاركت في صباح اليوم التالي في ورشة عمل في الجامعة نفسها، نظمها مركز الشباب الإسلامي، ومقرّه مدينة هاميلتون. دارت جلسات الورشة الثلاث حول موضوع القيادة الرحيمة ونماذجها التاريخية، ووسائل تحويل التحديات إلى فرص للبناء والتطوير. وخصصت الجلسة الأخيرة منها لمناقشات عامة حول التحديات التي تواجه الجالية. وكنت سعيداً لرؤية

وجوه شابة متحمسة للعمل لتطوير حياتها الشخصية وحياة من يحيط بها.

تحدثت في اليوم الثالث في المعهد الإسلامي؛ الذي أسسه المربي الكندي أحمد الكوتي، حول موضوع أصبح ملازماً لكتاباتي وأحاديثي، هو مشاركة المرأة في الحياة العامة. وكان الموضوع الذي اختاره المضيف بعنوان "المرأة والشريعة". ساهم في تنظيم اللقاء رئيس المعهد فريد أمين، وشاب نشيط هو فرهاد كاظم. لاقى طرحي ترحيباً من السيدات، خاصة المسلمات الكنديات اللواتي اعتنقن الإسلام حديثاً، بينما قابله بعض المهاجرين بشيء من الحيرة والحذر. أُطروحتي شدَّدت على أن الشريعة تساوي تماماً بين الرجال والنساء في الحياة العامة. وأن الفروقات المبثوثة في كتب الفقه تعود إلى اختلاف الأعراف والتقاليد الاجتماعية.

عدت وزرت كندا مرة أخرى، في العام نفسه، بدعوة من المنتدى العالمي للسلام خلال شهر تموز، للحديث حول موضوع التعددية الدينية. عقد المنتدى هذه المرة في مدينة فانكوفر الواقعة على الساحل الغربي من كندا، وكان عنوان ورقتي "الإسلام والتعددية الدينية". وكانت تلك المرة الثانية التي أزور فيها فانكوفر. وكنت قد زرت مقاطعة كولومبيا البريطانية في غرب كندا؛ حيث تقع مدينة فانكوفر، في نهاية شهر تشرين الثاني عام (2004)، للمشاركة في ندوة بعنوان "نضال مسلمي كندا للحفاظ على قيمهم الإسلامية"، جرت في مدينة رتشموند القريبة من فانكوفر. السؤال المطروح كان حول كيفية بقاء المسلمين مخلصين لقيمهم؟ شددت في محاضرتي على أهمية التمييز بين قيم الإسلام والتقاليد الثقافية في البلد الأُم، وبالتالي التمسك بالقيم الكلية، والاستعداد للتكيف مع التقاليد والأعراف المحلية طالما وافقت القيم الإسلامية. نوهت في حديثي إلى أن المجتمعات الغربية تمتلك منظومة من التقاليد المهمة التي تتوافق وقيم الإسلام، مثل أخلاق العمل، والانفتاح الثقافي على التنوع. هذا الكلام تفاعل معه وأعاد تأكيده شاب يدرس العلوم السياسية، بوسني الأصل اسمه زياد ديليش، كان يعمل إماماً في المركز الإسلامي لمدينة فانكوفر أثناء دراسته.

شبكة الاحترافيين والجيل الثاني

من المشكلات التي واجهتني خلال عملي في مكتب الاتحاد؛ الفجوة بين ثقافة المهاجرين المسلمين المستوردة من الوطن الأم، وثقافة أبنائهم التي هي مزيج من ثقافة الآباء والثقافة السائدة، والتي كانت تعكس محاولة الأبناء للجمع بين العناصر الإيجابية في الثقافتين. كان الشباب المثقف يجد صعوبة في التعامل مع أساليب إدارة مراكز الجاليات بطريقة هي مزيج من التسلط المتجذر في ثقافة الآباء، والشورى التي هي المبدأ المعتمد في الأنظمة الداخلية للمراكز. عانى الأبناء، الذين ترعرعوا في مجتمع يعتز بقيم الحرية والمساواة، أيضاً من الأبوية القيادية؛ التي تجعل من أعضاء المراكز المؤسسين آباء يتوقعون أن يطاعوا بسبب تقدمهم في العمر، وليس بناء على جدارة وأولوية القرارات التي يعتمدونها. الثقافة "الأبوية" جعلت عدداً كبيراً من الشباب الناشط والمعتز بهويته ودينه يختار البقاء بعيداً عن مراكز الجالية.

للتغلب على هذه المشكلة دعوت عدداً من الناشطين الشباب في شؤون الجالية الإسلامية إلى مكاتب الاتحاد في بلينفيد لبحث آليات التعاون لتطوير شبكة من الشباب أصحاب الخبرات الفنية والمهنية، للتعاون في تقديم خدمات لمراكز الجالية دون الحاجة للانضمام لهيكليتها الإدارية. النموذج المقترح للتعاون كان يتطلب الاتفاق بين لجان الجالية المنتخبة ومكتب مركزي يمثل هؤلاء الشباب، ويقوم بالتعاقد مع اللجنة التنفيذية للمساهمة في خدمة الجالية على أساس العلاقات الطوعية غير الربحية. اختير اسم "شبكة الاحترافيين المسلمين" عنواناً لتلك الشبكة، وعقد اجتماع تأسيسي في المبنى الرئيسي للاتحاد بتاريخ 5 أيار (2008). حضر الاجتماع ثماني ناشطين؛ أذكر منهم أميرة حسين؛ عضوة سابقة في اتحاد الشباب المسلم في جامعة جورج واشنطن، وكانت آنذاك تعمل في جامعة أي اند إم في تكساس؛ وعطيفة اللطيف شيراغ؛ التي كانت تعمل محللة أولى للأنظمة في إحدى الشركات، وسبق أن انتخبت لرئاسة اتحاد الطلبة في جامعة نيومكسيكو؛ ومنهاج صدّيقي؛ الطبيب الشاب الناشط في خدمة الجالية؛ وهند مكي ابنة

القيادي السوداني، وآخرين. وتم الاتفاق على أن يكون الهدف من المشروع تعزيز التعاون بين المراكز الإسلامية والشباب المهني، وكذلك تبادل الأفكار حول الوسائل المفيدة لتوظيف قدرات الشباب لتطوير الجاليات المسلمة، وجعلها أكثر حيوية وفعالية.

وكنت قد أثرت فكرة إنشاء "شبكة الاحترافيين المسلمين" قبل أشهر، في كلمة ألقيتها خلال ندوة دُعيت إليها في مدينة سنسيناتي، في 13 نيسان من ذلك العام، نظمها المركز الإسلامي في المدينة تحت عنوان "الأسرة والمجتمع القضايا التي تواجه المسلمين الأمريكيين". أثرتُ في كلمتي مسألة مشاركة الشباب المهني في الأنشطة والخدمات التي تقوم بها المراكز، وشددت على أهمية إشراك الشباب في نشاطات الجالية المحلية. قدمت الشبكة المقترحة خلال حديثي على شكل مبادرة مهمة لتطوير أوضاع الجالية، وتوظيف خبرة أبنائها في عملية التطوير هذه، وحثت قيادة المراكز، بدءاً بمركز سنسيناتي على دعم المبادرة.

في نهاية سنة (2008) صدر كتابي (**الخطاب القرآني**) عن دار غرين وود للنشر؛ إحدى أكبر دور النشر الأمريكية. فكرة الكتاب نجمت عن محاولة قمت بها لتقديم الرسالة التي يحملها القرآن، من خلال النظر في جملة من المفاهيم الرئيسية التي تدور حولها موضوعات القرآن مثل: الإيمان، والعدالة، والتكليف، والمسؤولية، والحرية الدينية، والتعاون على الخير، ومواجهة الفساد والانحراف بالنهي عن المنكر، والسلم والحرب، والتعددية الدينية، واحترام الاختلافات العقدية. تولدت تلك المحاور عن ملاحظات دونتها عند التحضير لخطب الجمعة التي كنت أدعى لإلقائها، خلال زياراتي المختلفة للمراكز الإسلامية في المدن الأمريكية، وفي المراكز المحيطة بمكان إقامتي.

سؤال الأمن القومي والحريات المدنية

سؤال الأمن القومي والحريات المدنية، في سياق حملة تسعى إلى الخلط بين الدين الإسلامي والإرهاب، استمر في إلقاء ظلاله بعد سبع سنوات من

أحداث الحادي عشر من أيلول، وكان موضوع الحلقة النقاشية التي دعيت للمشاركة فيها خلال الأشهر الأولى من عام (2008). الحلقة النقاشية التي جرت في جامعة يايل تركزت حول الحاجة لتحقيق توازن بين مبدأي: "الأمن القومي" و "الحريات المدنية". وكان مجلس دراسات الشرق الأوسط؛ الذي نظم الحلقة النقاشية تحت عنوان ''العدل وقضايا الأمن والحقوق بعد الحادي عشر من أيلول''؛ قد دعا أيضاً فاليري كابروني؛ كبيرة مستشاري مكتب التحقيق الفدرالي، إضافة إلى متحدثين آخرين. ركز النقاش حول تأثير الإجراءات الأمنية المعمول بها في أعقاب هجمات أيلول على الحريات المدنية والخصوصيات الفردية. فاليري دافعت عن استخدام مكتب التحقيق لسلطات إضافية لحماية المواطن، وأكدت على بدء جهود لفعل ذلك بالتوازي مع احترام الحريات الشخصية. أكدت من جانبي على أن الأمن الوطني هو واحد من أهم أولويات الحكومة الاتحادية، وأن الأميركيين يتوقعون من زعمائهم حماية الأمن دون التفريط بالحريات الشخصية. وشدّدت في حديثي إلى ضرورة تحقيق توازن بين مبدأي الأمن والحرية، وسلطت الضوء على عدة تجاوزات قامت بها الجهات الأمنية، أخلت بحماية الحقوق الدستورية للمواطنين. وضربت مثلاً على ذلك السلطة التي منحها قانون "باتريت" لمكتب التحقيق الفيدرالي بإصدار ما يسمى بـ"رسائل الأمن القومي"؛ التي تلزم الجهات التي تتسلمها بتقديم معلومات خاصة عن مواطنين غير متهمين بتجاوزات قانونية. وأكدتُ أن هذه السلطة تتعارض مع مبدأ الرقابة القضائية على المؤسسات التنفيذية، ومع التعديل الدستوري الذي يحدُّ من صلاحيات الحكومة في التفتيش وجمع المعلومات دون إشراف قضائي. كما دعوت إلى عدم استخدام السلطة بطريقة تضعف الثقة بين السلطات الأمنية والجاليات الإسلامية التي يمكن أن تلعب دوراً مهماً في مواجهة الإرهاب وحصاره. وكان بين الحضور الناشط الشاب ياسر القاضي؛ الذي لمع نجمه في الأوساط الشبابية، وفي الحوارات التلفزيونية حول العلاقة بين الإسلام والإرهاب. اشتكى ياسر من تجاوزات مكتب التحقيق الفدرالي، ونوَّه إلى التضييق الذي كان

يتعرض له شخصياً في تنقلاته، وإلى متابعة مكتب التحقيق الفدرالي له عبر لقاءات متكررة دون وجود سبب واضح. وكان ياسر ناشطاً معروفاً في ولاية تكساس، يدرس الماجستير في جامعة يال. ثم سألني ياسر عن رأيي في اعتقال سامي العريان وبقائه في المعتقل بعد تبرئته. أخبرته أني أستنكر الملاحقة التي يتعرض لها، ودعوت الحضور إلى رفض واستنكار استهداف الأمن للأفراد خارج الإجراءات القانونية العادلة. كذلك انتقدت الاستمرار في اعتقال سامي بعد أن برأته المحكمة، ودعوت السلطات الأمنية إلى الإفراج عنه.

ازدادت مشاركتي في حوار "الأمن القومي والحريات المدنية" بعد تكليفي بتولي ملف الاتصالات في مطلع عام (2009)، وتعييني مديراً للاتصالات في الاتحاد بالتوازي مع مسؤولياتي في مركز التنمية القيادية. عكفت ذلك العام على تطوير نظام البيانات الصحفية، وسعيت إلى رفع التعاون بين المنظمات الحقوقية الممثلة للجاليات الإسلامية في أمريكا؛ مثل كير وأمباك والمنافحين المسلمين. دعوت إلى لقاء بالتنسيق مع سلام مرياتي مدير اللجنة الإسلامية للشؤون العامة. جرى اللقاء في مكاتب اللجنة في لوس أنجلس، حضره ممثلون عن المنظمات الحقوقية أذكر منهم: سلام مرياتي وماهر حتوت من اللجنة، وفرحانة خيرة، والتي كانت آنذاك في خضم تأسيس منظمة ظهرت جديداً على الساحة تحت اسم "المنافحين المسلمين". وحضر اللقاء زيد شاكر من جامعة الزيتونة. تم خلال اللقاء الذي استمر يوماً كاملاً تطوير إطار للتنسيق بين المنظمات المشاركة لتبادل المعلومات حول المسائل الحقوقية، والتعاون في حملات إعلامية لمواجهة جهود اليمين الديني المتطرف الساعي لشيطنة الجاليات العربية والإسلامية.

وشاركت أيضاً في لقاءات في واشنطن نظمها مكتب الاتحاد مع ممثلين عن وزارة الخزانة؛ للبحث في موضوع الإجراءات التي وضعتها الوزارة لمنع وصول التبرعات إلى منظمات إرهابية؛ والتي أثرت كثيراً على المؤسسات الخيرية الإسلامية في جهدها لإيصال التبرعات إلى المناطق المنكوبة. كانت

الإجراءات التي فرضتها وزارة الخزانة تعجيزية، فكانت على سبيل المثال تحمل المؤسسات الخيرية مسؤولية التحقق من هوية جميع من يتلقى الأموال في الخارج؛ وهو أمر مستحيل يحتاج إلى ميزانيات دول لا مؤسسات صغيرة. وبالتالي كان الحوار حول مسؤولية وزارة الخزانة في وضع لائحة بأسماء المنظمات الخيرية الموثوقة في البلدان الإسلامية، أو حصر المسؤولية في انتقال الأموال لمنظمات محظورة من الوزارة. ولم يكن الأمر هيناً فقد كانت الوزارة تتردد في اتخاذ أي قرار ينقل المسؤولية كاملة لموظفيها.

لإظهار حجم المشكلة والصعوبات التي تحيط بالعمل الخيري، نشر الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية (جامعة كاليفورنيا) دراسة تفصيلية بعنوان "حجب الإيمان وتجميد الخير"، في منتصف عام (2009)، أظهر فيها اعتماد وزارة الخزانة على أدلة سرية وإجراءات غير شفافة في التعامل مع الجمعيات الخيرية الإسلامية الأمريكية، وبيّن أثر قوانين تمويل الإرهاب؛ التي أصدرها الكونغرس في السنوات الأخيرة؛ على تقييد حرية المسلمين الأميركيين في ممارسة واجبهم الديني في توزيع أموال الزكاة. وقدم التقرير توصيات مفصلة إلى السلطتين التنفيذية والتشريعية، ودعا إلى مراجعة السياسات والممارسات الحكومية، لحماية الحريات المدنية للمسلمين الأمريكيين. روج الاتحاد لهذا التقرير، وربطه بخطاب الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما الذي ألقاه في القاهرة، والذي اعتبر فيه أن «الحرية الدينية هي الحرية الأساسية التي تمكن الشعوب من التعايش معاً». واعترف أوباما ضمنياً بالصعوبات التي ولدتها قوانين الإرهاب قائلاً: «إن القواعد التي تنظم التبرعات الخيرية تشكل صعوبة على المسلمين في تأدية فريضة دينية». سارعت بعد صدور الدراسة هذه إلى إصدار بيان رسمي باسم الاتحاد، صدر بتاريخ 12 حزيران (2009)، أشرت فيه إلى اعتراف الرئيس الأمريكي بالأثر السلبي للقوانين الحالية على تأدية المسلمين لفريضة الزكاة، وطالبت الرئيس بالالتزام بوعوده خلال خطاب القاهرة في «العمل مع الأمريكيين المسلمين لضمان تمكينهم من تأدية فريضة الزكاة».

التدافع الداخلي وتعدد المصالح والرؤى

عكفت في صيف عام (2009) على تطوير استراتيجية لرفع أداء الاتحاد، على مستوى التواصل الداخلي والخارجي، من خلال تطوير إجراءات للتواصل واتخاذ القرارات. كان هذا العمل استمراراً لجهود سابقة لتطوير آليات اتخاذ القرار، فقد كانت مداولات أعضاء مجلس الاتحاد بطيئة وطويلة ومتشعبة، وشبيهة في كثير من جوانبها بجلسات تبادل القصص والآراء لا اتخاذ القرارات. سعيت بعد تحولي إلى الإدارة إلى إدخال نظام قواعد صنع القرار، وفق نموذج روبرت الشهير. كنت على دراية منذ حضوري إلى الاتحاد بأن العديد من الموظفين يلجؤون إلى الهمز واللمز في الخفاء للتأثير في قرارات أشخاص نافذين ضمن قيادة الاتحاد. وكنت أظنها عادة مقتصرة على بعض ضعاف النفوس، وأن الأشخاص في موقع القيادة كانوا من الوعي بحث لا يمكن أن يحكموا على زملائهم دون السماع من الطرفين وتبين الحقائق. لكن رسالة جاءتني من ألطاف حسين؛ الذي أصبح آنذاك عضواً في مجلس أمناء الاتحاد، غيرت انطباعي. فقد أثار ألطاف معي مسألة وجهة مركز التنمية القيادية وعلاقته بالاتحاد، ونقل شكوكاً ومخاوفَ سمعها من بعض من سماهم بـ «المساهمين». والكلمة تعني في علم الإدارة كل من له مصلحة في تطوير المنظمة، مثل الأعضاء والمتبرعين والموظفين وأعضاء مجلس الإدارة. بينت لألطاف أن ما نقل له يتعارض مع كل نشاطات المركز، والذي يفترض أنه يتلقى تقاريره دورياً بوصفه عضواً في مجلس أمناء الاتحاد. وأشرت إلى أن برامج مركز التنمية تتوجه إلى الجاليات ومؤسساتها، والتي تتضمن دورات التدريب القيادي، ونشاطات المرشدين. شعرت بأن من تحدث إلى ألطاف لم يكن يبحث عن تطوير المركز، بل للإيقاع بيني وبين مجلس الأمناء، وهو الشعور نفسه الذي كان ينتابني لدى سماعي بعض عبارات إنغرد؛ التي لم تكن تخفي شكوكها حول تطابق وجهة المركز الذي أديره والاتحاد الذي أعمل على تحقيق أولوياته الاستراتيجية. الصداقة القديمة التي بيننا دفعت به إلى مشاركتي ما سمع، فبادرت إلى إسماعه شعوري بالأسف من أسلوب

الدسائس، الذي بدأ ينتقل إلى أعلى المستويات في المؤسسة، فكتبت في ردّي: «أتساءل ما الذي يمنع المساهم من التواصل معي بدلاً من إثارة الشبهات والشكوك؟». ثم أضفت: «للأسف، هذا مثال لثقافة الدسائس التي يجب أن نتغلب عليها أولاً كي نصبح قادرين على نقل أدائنا إلى المستوى الأعلى الذي نطمح إليه».

كان تعييني مديراً للتواصل فرصة لي لتطوير نظام التواصل والقرار، ووضع استراتيجية لاعتمادها من مجلس الأمناء خلال اجتماعاته نصف السنوية. قمت بالتعاون مع الصديق مازن هاشم بتطوير دراسة حول موضوع التواصل، شملت عينة عشوائية من المشاركين في مؤتمر الاتحاد السنوي. ثم أعددت دراسة مفصلة من ثماني صفحات، ومؤيدة بمعطيات ورسوم بيانية وإجراءات محددة لرفع أداء الاتحاد. وجاء الرفض الكامل للدراسة، واحتجَّ بعض أعضاء مجلس الأمناء بأنها معقدة وصعبة الفهم. في حين لم تبد رئيسة الاتحاد آنذاك أي اهتمام بموضوع من صلب عملها. كانت ردود الفعل مخيبة للأمل، خاصة أن التعليقات أظهرت أن أحداً لم يأخذ الوقت الكافي لقراءة التقرير؛ ولأن بعض المعترضين لم يطلبوا إيضاحات، ولم يثيروا أسئلة قبل اتخاذ ردود أفعال عاطفية.

مشكلة علاقة العمل مع رئيسة الاتحاد تعود إلى بداية تسلمي مسؤولية مركز التنمية، التي كانت دائماً ناقدة له دون تقديم أية مساهمات عندما كانت نائبة لرئيس الاتحاد. لكن المشكلة بدأت بالتفاقم بعد توليها الرئاسة وإبعادها سيد سعيد؛ الأمين العام السابق، ثم سعيها لإخضاع مركز القيادة التنموية لسلطة الأمين العام الجديد منير فريد. كانت علاقتي جيدة بمنير، وكان التعاون بيننا متميزاً. كانت رغبتي في الاحتفاظ باستقلالية المركز تعود إلى مخاوفي في أن يؤدي إخضاعه للأمانة إلى إضعاف دوره الخاص، وإدخاله في أولويات الأمانة العامة. ولكنني في النهاية وافقت على الترتيبات الجديدة التي أحالت المركز إلى قسم في الأمانة لإدراكي ضرورة مسايرة الإجماع الجديد داخل مجلس الأمناء. تسلمي مسؤوليات الاتصالات والإعلام

ساهم أيضاً في تغيير موقفي بسبب تعاملي القريب مع الأمين العام والرئيس في موقعي الجديد. العلاقة توترت في النصف الثاني من عام (2008)، إثر تبدل واضح في مواقف قيادة الاتحاد من القضية الفلسطينية، وسعي إنغرد إلى الابتعاد عن أي نقد لإدارة بوش أو لإسرائيل. في شهر كانون الأول لعام (2008) أوقفت رئاسة الاتحاد بياناً صحفياً يطالب إسرائيل برفع الحصار عن غزة. أصدرت الرئاسة بعد ذلك بياناً صحفياً يندد بحركة حماس. اعترضت على هذين الموقفين؛ لأن حماية الحقوق الفلسطينية واجباً أخلاقياً متوقعاً من منظمة تفتخر بقيمها الإسلامية؛ التي تؤكد ضرورة حماية حقوق المستضعفين، ولأن التنديد بحماس كان كاملاً دون التطرق بكلمة واحدة إلى تجاوزات إسرائيل في غزة والضفة. أتى ذاك التغيير ضمن جهود إنغرد لتحسين العلاقة مع منظمات يهودية أمريكية ذات مواقف متشددة من الفلسطينيين. لم أكن شخصياً ضد تطوير العلاقة مع منظمات المجتمع المدني الأمريكي اليهودية، بل كنت من الرواد في المشاركة بلقاءات الحوار الديني. ولكني كنت معارضاً لفعل ذلك دون اعتماد قواعد ومبادئ واضحة وعادلة. لم يكن لدي مشكلة في التنديد بالعمليات الانتحارية التي كان يقوم بها بعض الفلسطينيين ضد المدنيين في القدس وتل أبيب، ولكنني اعترضت على التنديد بمنظمة فلسطينية أساسية تعمل في ظروف احتلال صعبة للغاية. غياب أي تنديد بالتجاوزات الإسرائيلية، والاكتفاء بالتنديد بالفلسطينيين، كان أمراً غير مفهوم وغير مقبول.

استمر دعمي للقضية الفلسطينية دون تغيير، لكن تصوري للحلِّ تغير بعض الشيء بسبب آفاق السياسات الدولية من جهة، ولأنني شعرت أن المقاربة القومية لمسألة الصراع العربي الإسرائيلي وصلت إلى طريق مسدود، بل أصبحت شماعة بيد الأنظمة المستبدة تستخدمها لابتزاز شعوبها، وتكريس استبدادها باسم الدفاع عن فلسطين. تصوري لحل الصراع شرحته في كتاب انتهيت من كتابته في مطلع عام (2009)، ونشرته باللغة الإنكليزية في العام نفسه بعنوان (**فلسطين المبادئ لا النبوءات**). وكانت مشاركتي في مداخلة عن فلسطين ذاك العام مناسبة لعرض المقاربة واختبار ردود الفعل

عليها. دعيت في نهاية شهر كانون الثاني عام (2009)، للحديث في ندوة حول الصراع الفلسطيني الإسرائيلي نظمتها جامعة مانيتوبا الكندية، تحدث فيها أيضاً إيريز روتيم ممثل الصندوق الوطني اليهودي، والدكتور مارتن بونتون أستاذ الشرق الأوسط في جامعة فكتوريا الكندية. قدمت في المؤتمر رؤيتي، ودعوت في محاضرتي إلى إقامة دولة القانون في فلسطين التي تحترم حقوق المواطنين دون النظر لخلفيتهم الدينية. فاجأ طرحي ممثل الصندوق الوطني الذي تحدث عن مساعي إسرائيل لإقامة سلام مع الفلسطينيين، والتي انسحبت من شريط غزة لإظهار رغبتها الصادقة لإقامة السلام. جرى بيننا حوار ساخن رفضت فيه فكرة سعي إسرائيل للسلام، وأشرت إلى أنها بعد انسحابها من غزة حولت القطاع إلى سجن كبير. نقلت جريدة الجالية اليهودية، «وينابيغ جويشرفيو» مقاطع مجتزأة من كلامي، وادَّعت أني أدعو إلى مقترح انتحاري، وأنكر حقَّ اليهود بالوجود. ويبدو أن الجزء الرئيسي من كلامي الذي أثار حفيظة كاتبة المقالة، ورندا سبيفاك؛ وهي ناشطة صهيونية في كندا؛ أنني أكدت على حقِّ الفلسطينيين في العودة إلى قراهم ومدنهم. مرة أخرى تحول الضحية إلى جلاد، وتحول مقترح يدعو إلى دولة القانون واحترام الحقوق والحريات إلى عدوان على اليهود.

دعيت في المساء إلى العشاء في بيت أحد أمناء جامعة ميناتوبا في حي هادئ من أحياء ونابيغ قرب الحرم الجامعي. كان البيت قديماً، مبنياً من الخشب على نمط البناء الإنكليزي، يتكون من طابقين. وكان الأثاث قديم لكنه بقي محافظاً على رونقه، يعود إلى منتصف القرن الماضي. تناولنا عشاء خفيفاً، وتبادلنا أحاديثَ عامة، تخللها بعض الموضوعات المرتبطة بالمسألة الفلسطينية. اتفقنا في بعض الجوانب واختلفنا في جوانب أخرى، ولكن الحديث بقي هادئاً بعيداً عن الانفعال. وخرجت في نهاية اللقاء إلى الشارع باتجاه السيارة القريبة للعودة إلى الفندق. كنت معتاداً في أسفاري أن لا أكثر من الملابس. وكنت أكتفي بكنزة قطنية ألبسها تحت معطف سميك. كان هذا النوع من اللباس كافياً لاحتفاظي بالدفء في حركتي بين الأبنية المدفأة مركزياً والسيارة. تأخر الصديق الذي كان يقود السيارة في

تلك الليلة الشديدة البرود، واضطررت لانتظاره دقائق قليلة قبل وصوله ليفتح لي باب السيارة. شعرت ببرودة الجو، ولكن البرودة بلغت أوجها لحظة جلست جنب السائق في المقعد الأمامي. كانت برودة الجو قد بلغت أشدها في ساعات الليل المتأخرة، ولعلها كانت ليلة أشدّ برودة من الليالي السابقة. أحسست بالبرد يتغلغل داخلي ويخترق عظامي وينتشر في كياني، وبدأ جسمي يهتز برجفات لا إرادية. كان شعوراً غريباً أحسست لدقائق أن نفسي كاد يتوقف. احتجت إلى ساعة من الزمن للاسترخاء والتخلص من انفعال جسمي بسبب البرد القارس، وأعانني على ذلك فنجان من الشاي تناولته حال وصولي الفندق.

تابعت إنغرد ماتسون، خلال ذاك العام، جهدها لإعادة ترتيب إدارة الاتحاد وفق رؤيتها لأولويات الجالية الإسلامية في شمال أمريكا. كان منصب رئيس الاتحاد الذي شغلته ماتسون بدءاً من عام (2006) يتعلق بتوجيه السياسات العامة. وكان المنصب طوعياً، لا يوفر للرئيس تعويضاً مالياً للتفرغ. وكانت ماتسون تعمل أستاذة الدراسات الإسلامية في جامعة هارتفورد، ومشرفة على أكبر برنامج تدريبي للمرشدين المسلمين في الولايات المتحدة. وكانت نشيطة مهتمة بشؤون الجالية، لكنها سعت إلى التحكم بتفاصيل القرار داخل الأمانة العامة بصورة لم يسبقها إليها أحد سوى أحمد زكي حمد؛ والذي سببت رئاسته هزة شديدة للاتحاد. الثغرة في النظام الداخلي التي سمحت لزكي حمد بالهيمنة الكاملة على المنظمة، قبل عقدين من الزمن، بقيت دون تغيير، وعادت ماتسون لتدخل منها لتوسيع سلطات الرئيس على حساب الأمين العام، ولتحيل الأمين العام إلى أمين سرّ لها. وعندما فشلت في ذلك مع الدكتور سيد سعيد، عملت على إخراجه من الأمانة وتعيين منير فريد بدلاً عنه، ثم تعيين صفاء زرزور بعد أن طفح الكيل بالدكتور منير نتيجة غياب الصلاحيات، وانعدام القدرة على تطوير العمل بسبب تدخلات أنغرد والفريق المحيط بها المستمرة في عمله. كنت على معرفة بصفاء قبل اختياره لمنصب الأمين العام، ومنذ أن كان مديراً لمدرسة ابتدائية في مدينة شيكاغو. كما عرفته ناشطاً في الجالية ومتحدثاً في

عـدد مـن ندواتهـا ومؤتمراتهـا، ومـن خـلال عملـه القريـب مـع اللجنـة التعليميـة في الاتحـاد. رحبـت باختيـاره أمينـاً عامـاً، ولكنـي اعترضـت عـلى رفضـه الانتقـال إلى مدينـة بلينفيلـد. أدى هـذا القـرار إلى حـوار هاتفـي حامٍ مـع إنغريـد، اعترضت خلالـه عـلى سـماحها للأمـين العـام الجديـد بالحفـاظ عـلى مـكان إقامتـه الرئيـسي في مدينـة شـيكاغو بعيـداً عـن موقـع عملـه. اسـتمر الحديـث لفـترة مـن الوقـت، ثـم أرادت تخفيـف حـدة موقفـي والنقـاش بالقـول بـأن هـذا الإجـراء مؤقـت. لم تكـن إنغـرد صادقـة معـي، واسـتمر مـكان إقامـة صفـاء الدائـم عـلى مـدى عملـه في الاتحـاد في مدينـة شـيكاغو.

طعنة من الخلف

التحـق صفـاء بعملـه، وكنـت في البدايـة متفائـلاً بقدومـه، متأمـلاً بتعـاون يرفـع أداء المؤسسـة التـي تضمنـا. فقـد عرفتـه مـن خـلال بعـض النشـاطات الثقافيـة التـي جمعتنـا، وكنـت أُقـدّر فيـه نشـاطه، وهمتـه العاليـة التـي دفعتـه لدراسـة القانـون أثنـاء عملـه الـدؤوب مـع الجاليـة الإسـلامية في شـيكاغو. وكنـت عـلى معرفـة باهتماماتـه في دائـرة التعليـم المـدرسي، وبتجربتـه المتميـزة في إدارة إحـدى المـدارس الإسـلامية الناجحـة في ضاحيـة بريدجفيـو القريبـة مـن شـيكاغو. كان انطباعـي عنـه أنـه رجـل منفتـح وتـوّاق لتطويـر أوضـاع الجاليـة العربيـة والإسـلامية. لكـن الأمـور بـدأت بالتدريـج تأخـذ منحنـى مختلفـاً لتوقعـاتي، وظهـور فروقـات كبـيرة في فهمنـا لطبيعـة عمـل الاتحـاد والعلاقـة التي تجمعنـا. فقـد كان يتعامـل مـع الأمانـة العامـة كـما لـو أنـه لا يـزال يـمارس عمله في المدرسـة التـي كان يديرهـا، والتـي ينتظـم فيهـا الـدوام في سـاعات محـددة. وكنـت أتعامـل مـع مـكان عمـلي بوصفـه التزامـاً بتحقيـق أهـداف تتطلـب العمـل طـوال سـاعات اليـوم، وخـارج سـاعات الـدوام، وعـبر العطـل الأسـبوعية والإجـازات الرسـمية، كـما كان ديـدني وديـدن مديـري الأقسـام المختلفـة. الخطـوة الأولى التـي اتخذهـا كانـت مطالبـة مديـري الأقسـام باسـتخدام السـاعة الرقميـة لتحديـد أوقـات دخولهـم إلى المبنـى وخروجهـم منـه. كانـت الفكـرة غـير عمليـة نظـراً لأن معظـم المديريـن لا يقومـون بعمـل مكتبـي، بـل يقضـون معظـم الأوقـات في

اجتماعات في أماكن مختلفة من المدينة، ولأن عملهم يتطلب أسفاراً عديدة. لم تكن المشكلة التي يعاني منها المديرون قلة ساعات العمل، بل على العكس كثرتها، واستمرارها خلال أيام العطلة الرسمية. حاول صفاء إثارة قضايا أخرى، من بينها اعتراضه الحادّ على قيامي بتدريس مادة في جامعة انديانا لمدة ساعتين في الأسبوع. اعترضني يوماً وأنا عائد من درسي الأسبوعي في الجامعة وسألني بوجه عبوس:

- بحثت عنك منذ ساعتين ولم أجدك؟

بدا سؤاله غريباً، فهو لم يبدأ حديثه بموضوع محدَّد منعه غيابي في ساعات الظهير عن بحثه معي؛ إذ لم يكن عنده موضوع يبحثه ذاك اليوم، بل كان هدف الحديث إثارة مسألة تدريسي في الجامعة. أجبته بهدوء:

- كان عندي درس في الجامعة.

لكن جوابي لم يعجبه، فأردف متسائلاً:

- هل أخذت موافقة على التدريس في الجامعة؟

سؤال بدا لي خارج سياق المهمة المكلّف بها؛ والتي تتوقف على إنجازات لأهداف يتم التفاهم حولها، لا الجلوس في المكتب خلال ساعات الدوام، فأجبته بهدوء ولكن بتململ ظاهر:

- بدأت التدريس قبل التحاقك بعملك، وأنا أدرس ساعتين في الأسبوع، هذا لا يعيق عملي.

مرة أخرى لم تلق إجابتي القبول، فعاد ليعبر لي عن موقفه من عملي الأكاديمي من خلال محاضرة أسبوعية في الجامعة:

- عملك في الجامعة يتعارض مع عملك في الاتحاد.

هنا شعرت بأن صفاء لا يسعى إلى اتخاذ موقف عادل يلزم نفسه به، ولكن يسعى للتعالي والترفع وإثبات سلطته بطريقة فجة واعتباطية، فأجبته بصراحة:

– غريب أن تقول أنت هذا الكلام، وأنت تدرس مادة في جامعة في مدينة شيكاغو. كيف يكون التدريس مناسباً لك وغير مناسب لي؟

توقف الحديث هنا، ولم يعجب كلامي صفاء؛ لأنه أراد مساءلة من جانب واحد، ولعله ظن أنني لا أعلم بتدريسه مادة في القانون في الجامعة الكاثوليكية في شيكاغو. ترك الحوار الذي جرى بيننا ذاك اليوم انطباعاً لدي بأن صفاء لم يكن مستعداً للخضوع للقوانين التي أراد فرضها على المؤسسة، وبدا واضحاً لي أنه يكيل معي بمكيالين، ويعتقد بأن موقعه يعطيه امتيازات في العمل والحركة ويحرم منها زملاء يشاركونه في المسؤولية والمساهمة. لم يكن مقبولاً عندي أن يفرض صفاء قواعد على زملائه في الاتحاد ويعفي نفسه منها. سلوك صفاء أظهر مشكلة أعمق، عكست طريقة في التفكير مألوفة لدي شهدتها في عدد ممن تولى مسؤوليات قيادية، وقاد منظمته إلى الفشل، وبالتحديد مشكلة الإدارة بأسلوب اللجم والسيطرة بدلاً من القيادة والريادة. هذا الأسلوب في القيادة معروف في أدبيات الإدارة والقيادة، وكتبت عنه في كتابي (**القيادة الرحيمة**)؛ الذي صدر بالإنكليزية في عام (2008)، قبل الالتقاء بصفاء بعام واحد. شعرت بأن صفاء لا يدرك تماماً طبيعة الموقع الذي يشغله، ودور الأمين العام القيادي، والحاجة إلى تبني نموذج القائد مقابل نموذج الرقيب، بما يحمله كل من النموذجين من خصائص متباينة في العمل. فالقائد يهتم بالأشخاص، ويسعى إلى تمكينهم وتحفيزهم، ويركز على الأهداف، في حين يهتم الرقيب بالإجراءات، ويسعى إلى السيطرة والتوجيه، ويركز على الأوامر والتعليمات. استغربت ضيقه بتدريسي في الجامعة نظراً لأهمية هذا النشاط في خلق فرص لتعاون الاتحاد مع الهيئات التعليمية والجامعات، وزيادة احترام المجتمع لقيادات الجالية، وكسر الخناق الذي سعى اليمين المسيحي والصهيوني لضربه حول الجاليات العربية والإسلامية.

شعرت أنني أواجه مشكلة في التواصل مع الأمين العام الجديد، واستشعرت تداعيات أسلوبه السلبية على عمل الأمانة منذ الأسابيع الأولى لتعيينه. العاملين في الأمانة لم يكونوا موظفين يعملون في ساعات محددة، بل

إداريـين يحملـون مسـؤوليات قياديـة، وبأمـس الحاجـة إلى قائـد يسـير أمـام الجميـع لا إلى رقيـب يسـعى إلى ضبطهـم وتقييـد حركتهـم بلجـام مـن الخلـف. تمنيـت لـو أنـه بـدأ عملـه بتطويـر خطـة واسـتراتيجية عمـل، وحـدد أهدافـاً لتحقيقهـا خـلال السـنة أو السـنتين القادمتـين، بـدلاً مـن الاهتـمام بإحصـاء تحـركات زملائـه في العمـل، والتركيـز عـلى شـكليات فارغـة. موقـف صفـاء المتوجـس، واختيـاره مقاربـة التحكـم بـدل التعـاون، وضعـت العلاقـة بيننـا عـلى مسـار خاطـئ. قررت أن أعتمـد الصـبر والحلـم لعـلّ الأيـام القادمـة تهـدئ مـن روعـه وهواجسـه، وتدفعـه إلى البحـث عـن علاقـات التعـاون والتكامـل لا التنافـس والتحكـم.

في الرابـع مـن تشريـن الثـاني عـام (2009) قـام ضابـط برتبـة رائـد في الجيـش الأمريكـي، مـن أصـول عربيـة اسـمه نضـال حسـن، بإطـلاق النـار عـلى جنـود في قاعـدة فـورت هـود في وسـط تكسـاس. أدى الاعتـداء إلى مقتـل ثلاثـة عـشر جنديـاً وإصابـة ثلاثـين آخريـن بجـروح. كنـت في برنامـج للتوعيـة الثقافيـة نظمهـا برنامـج التعليـم مـن أجـل السـلام مسـتدام في "فـورت بلـس" عـلى بعـد ثـلاث مئـة ميـل إلى الغـرب مـن ولايـة تكسـاس. وصلنـي النبـأ قبـل مغـادرتي "لفـورت بلـس"، وأدركـت أن الهجـوم كان قبيحـاً، بشـكل خـاص لأنـه ينطـوي عـلى غـدر قـام بـه ضابـط مؤتمـن مـن قِبَـل رفاقـه العسـكريين الذيـن يعملـون معـه جنبـاً إلى جنـب في القاعـدة نفسـها. اتصلـت مـن مـكان تواجـدي في فـورت بليـس بمكاتـب الاتحـاد لتوجيـه مسـاعدي لإصـدار بيـان تنديـد بالحادثـة، وقمـت بترتيـب إجـراءات السـفر إلى العاصمـة واشـنطن بـدلاً مـن العـودة إلى إنديانـا، حيـث عقـدت مؤتمـراً صحفيـاً في نـادي الصحافـة نـددت فيـه بالحادثـة، ونقلـت مشـاعر العـزاء إلى أهـالي الضحايـا. شـارك في المؤتمـر الصحفـي زمـلاء مـن عـدة منظـمات حقوقيـة، كـما شـارك فيـه محمـد ماجـد نائـب رئيـس الاتحـاد، وعبـد الرشـيد عبـد الله ممثـلاً عـن مكتـب المرشـدين العسـكريين المسـلمين. بعـد عـودتي إلى مكاتـب الاتحـاد أجريـت اتصـالات هاتفيـة بعـدد مـن قيـادات الجاليـة في تكسـاس وواشـنطن، وتـم الاتفـاق عـلى إنشـاء صنـدوق مسـاعدات لأهـالي الضحايـا، وأعلنـت عنـه في بيـان صحفـي وفي لقـاء تلفزيـوني.

سعيت خلال الأسابيع التالية إلى تهدئة الأجواء؛ فزرت آمر قاعدة فورت هود في صباح 2 كانون الأول (2009)، كما التقيت بمنسق رابطة خدمات عائلات ضحايا العملية الإرهابية، وقدمت دفعة من تبرعات أعضاء الجالية الإسلامية بقيمة عشرة آلاف دولار. في اليوم التالي بدأت شبكة اليمين الديني المتطرف والمحافظين الجدد حملة إعلامية ضدي أطلقها أندرو مكارثي؛ وهو يميني متطرف كان يعمل مدعياً عاماً في إدارة بوش الأب، الذي كتب في المجلة اليمينية "ريبابليكون ريفيو" مقالة يهاجمني فيها، ويعيد تدوير انتقادات سابقة من ناشطي اليمني الديني المتطرف، مثل روبرت سبنسر، وستيف إمرسون، ودانيال بايب. كما أعاد في تلك المقالة الاتهامات التي وجهها قبل ثلاث سنوات ستيفن كافلين؛ مستشار هيئة الأركان المشتركة، لي ولهشام إسلام، عقب زيارة وكيل وزارة الدفاع جوردون إنجلاند، والتي انتهت بإقالته من البنتاغون عام (2008). علمت لاحقاً من مقالة كتبها فرانك غافني على موقعه بأن الحملة الموجهة ضدي بدأت بمعلومات نقلها مايكل والر، وكان آنذاك عضواً في هيئة تدريس برنامج تدريب القادة من أجل السلام المستدام، إلى إحدى مواقع اليمين المتطرف الشبكية، ثم أتبعها برسالة إلى عضوين في لجنة الأمن القومي التابعة لمجلس الشيوخ جوزيف ليبرمان وسوزان كولينز في 11 أيلول (2010)، ورسالة إلى الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية حيث كنت أعمل. لم يخبرني زرزور بالرسالة، ولم يتطرق إليها أحد من الفريق الإداري بالاتحاد، رغم أن جهود إبعادي عن الاتحاد ساوق زمنياً تحركات الأمين العام ورئيسة الاتحاد ضدي. ولا زلت إلى اليوم أجهل محتوى تلك الرسالة، ولكن الخبر يثير أسئلة حول ظروف إخراجي من الاتحاد، والدور الذي لعبه اليمين الديني، ولجنة الأمن القومي في هذا الصدد. أشار غافني في الخبر الذي أورده على موقعه أن كلية الدراسات العليا البحرية أبعدت والير عن التدريس بسبب إثارته تلك المشكلة. وبقي سؤال تأثير اليمين الديني وحلفائه داخل المؤسسة الرسمية في إبعادي من دائرة عملي المؤثر داخل الاتحاد عالقاً في ذهني، دون امتلاكي معطيات للوصول إلى إجابة جازمة. "هل ساهم اليمين الديني في إبعادي من دائرة

التأثير بمساعدة بعض قيادات الاتحاد؟". سؤال قد تظهره الأيام القادمة، وأرجو أن يكون النفي هو الجواب عن هذا السؤال.

اليمين الديني يصعد الهجوم

لم يهدأ اليمين الديني المتطرف خلال الأسابيع والأشهر اللاحقة، بل تتابعت المقالات المهاجمة، وتتابعت ردودي في الصحف وعبر المقابلات التلفزيونية. لم يكتف اليمين الصهيوني بالحملة الإعلامية، بل استخدم نفوذه لدى بعض أعضاء الكونغرس، فأرسل ثمانية نواب رسالة إلى وزير الدفاع روبرت غيت، يوم 17 كانون الأول (2009)، يطالبونه بمنعي - ومنع أي ممثل آخر للاتحاد - من التحدث إلى الضباط، أو زيارة أماكن تابعة للوزارة. تبع ذلك مقالة هجومية نشرتها جريدة دالاس الرئيسية، يوم الأحد 7 فبراير (2010)، تحت عنوان "أمريكا منقسمة بين خطر المسلمين وحكمتهم". المقالة التي كتبها صحفي اسمه بروكس إيغرتون أثارت أسئلة حولي وحول الاتحاد الذي أمثله، واستخدمت لغة استفزازية خلطت فيها الحقائق بأكاذيب اليمين الديني، واحتوت على كثير من الغمز واللمز. وتعرضت الصحيفة لحواري مع سامي العريان واتهمتني بالعداء للسامية. كما سعى الكاتب إلى الإلقاء بظلال من الشك على برنامج المرشدين المجازين من الاتحاد. أرسلت خلاصة صحفية لأعضاء الاتحاد في تكساس، وطلبت منهم الاحتجاج لدى الصحيفة. كما اتصلت مع مديرة تحرير الصحفية التي وافقت على نشر ردّ مني على المقالة. نشرت الصحيفة ردي في 11 من الشهر نفسه الذي فندت فيه تهم التعاطف مع الإرهاب والعداء للسامية، واستنكرت وصف الصحيفة لي بأني أعمل مقاولاً مع برنامج إعداد القادة والتعليم من أجل سلام مستدام، وبينت أنني كنت أحضر بعض نشاطات البرنامج بناء على دعوات رسمية. وقفت إنغرد موقفاً إيجابياً داعماً في هذه المواجهة، كما وقف زملاء آخرون موقفاً مشابهاً.

ذهبت في منتصف كانون الثاني، كما اعتدت خلال السنوات الثلاثة الماضية، إلى مدينة وينابيغ في كندا، في أكثر شهور السنة برودة. شاركت في

برنامج نظمته شاهينة صدّيقي. اتصل بي صفاء في 21 كانون الثاني (2010) أثناء تواجدي في مدينة وينابيغ في شمال كندا، وأبدى رغبة في تغيير عبارات في بيان صحفي سبق أن أعددته. وافقت على التغييرات دون تردد. ثم اتصل مختار أحمد بي بعد أسبوع وطلب تغيرات إضافية في البيان الصحفي. سألته: لماذا تأخر صدور البيان لمدة أسبوع؟ فقال: إن صفاء طلب منه الحصول على موافقته في جميع البيانات. فاستغربت هذه الطريقة في الإدارة التفصيلية في موضوع يقع في دائرة مسؤوليتي. في اليوم التالي لتواصلي مع مختار أرسل صفاء رسالة إلي، وأرسل نسخة منها إلى انغرد؛ ليؤكد أنه لا يسعى إلى التدخل في تفاصيل عملي، بل فقط التأكد من دقة البيانات. ردّدت على رسالته، وأكدت على ثقتي بصدق نيته، ولكنني نبهته أن طلب الموافقة على كل بيان هو عملياً تدخلي تفصيلي في عملي. ثم أعلنت استعدادي للاستقالة من مهمتي هذه، وتسليم ملف الاتصالات كاملاً له ليختار من يشاء لهذه المهمة.

زرت صفاء في الثامن من مارس في مكتبه، وطلبت منه عقد اجتماع لمناقشة استراتيجية الاتصالات، والاتفاق على الإجراءات. وأعدت شفهياً تأكيد ما كتبته قبل أسبوع حول رغبتي في التعاون معه، واستعدادي للتنحي طوعياً ليتصرف كيف يشاء في ملف الاتصال. ابتسم ابتسامة باردة واعتذر عن اللقاء بسبب مشاغله، وأعرب عن استعداده للاجتماع حال عودته. ابتسامته ونظرته تركت انطباعاً سلبياً عندي، ولكني قررت أن أتجاوزها ولا أعطيها أهمية، وعدت إلى الاستغراق في مسؤولياتي وأعمالي. اتصل بي صفاء بعد أسبوع وطلب مني لقاءه في صباح اليوم التالي تمام الساعة العاشرة، وأخبرني أنه دعا محمد ماجد نائب الرئيس للحضور إلى مكتبه في ذلك الاجتماع. لم أعط زيارة ماجد كثير انتباه، واعتقدت فعلاً أن غاية الاجتماع مناقشة إجراءات ملف التواصل الداخلي.

صباح يوم السابع عشر من آذار عام (2010) التقيت بصفاء ومحمد ماجد، بحضور حبيبة علي مساعدة صفاء التي كلفت بتدوين محضر الاجتماع. المفاجأة كانت في طبيعة الاجتماع، إذ بدأ صفاء حديثه بتوجيه تهمة مباشرة لي قائلاً:

– أنـت تعمـل مـع برنامـج التعليـم مـن أجـل سـلام مسـتدام، ووقعـت معهـم عقـد عمـل دون الحصـول عـلى موافقـة الاتحـاد.

استغربت هذا الوصف، وأجبته موضحاً:

– أنـا لا أعمـل مـع البرنامـج، بـل أشـارك في محـاضرات توعيـة ثقافيـة أدعـى إليهـا بـين الحـين والآخـر، فأشـارك في بعضهـا طوعـاً، وأعتـذر عـن البعـض الآخـر، دون وجـود أي التـزام مسـبق.

لم يقنعـه جـوابي، فحمـل في يـده كشـوفاً ماليـة حصـل عليهـا مـن برنامـج السـلام المسـتدام ثـم قـال:

– هـذه كشـوف ماليـة تثبـت أنـك كنـت تتلقـى أُجـوراً عـلى مشـاركتك في تلـك البرامـج.

اسـتغربت مـرة أخـرى توصيفـه لعلاقتـي ببرنامـج السـلام، وأجبتـه مبينـاً طبيعـة المبالـغ الماليـة التـي تتضمنهـا الكشـوف:

– المبالـغ التـي تلقيتهـا تتعلـق بتكاليـف السـفر ومصاريـف الإقامـة والتنقـل وتعويـض السـفر. أنـت تعلـم أن هـذه المبالـغ يتلقاهـا أي محـاضر يدعـى لتقديـم محـاضرة، ولا يمكــن اعتبارهــا عمــلاً إضافيــاً. العمــل الإضــافي يرتبــط بعقــد ترتــب عليـه واجبـات والتزامـات.. زيـاراتي ترتبـط مبـاشرة بمهمتـي الرسـمية التـي كلفنـي بهـا الاتحـاد، وحملنـي مسـؤولية الإشراف عـلى المرشـدين، والمبالـغ التـي وفرهـا برنامـج السـلام المسـتدام خففـت عـن الاتحـاد تكاليـف سـفري لزيـارات المرشـدين والمشـاركة في برامـج التوعيـة.. أعتقـد أن هـذا يسـتدعي الشـكر لا الاتهـام.

عاد صفاء ليتهمني ويشكك في صدقية إجاباتي:

– مشـاركتك في برنامـج السـلام المسـتدام تمـت دون الحصـول عـلى موافقـة مـن رئاسـة الاتحـاد، وهـذا يخالـف القانـون الداخـلي للاتحـاد.

أدركـت أن ثمـة مشـكلة. وأن مـن يتحـدث معـي ليـس صديقـاً يبحـث عـن إيضاحـات، بـل خصـم متربـص يسـعى إلى الإيقـاع بي، فأجبتـه موضحـاً:

– لست بحاجة إلى موافقة خاصة لمشاركة هي جزء من مسؤولياتي. جميع الزيارات التي قمت بها خدمة تهدف إلى تيسير عمل المرشدين. ثم إني أقدم تقارير دورية عن مشاركاتي في برنامج السلام المستدام إلى رئاسة الاتحاد ومجلس الأمناء. بإمكانك الرجوع إليها في ملفات اللجنة التنفيذية ومجلس الأمناء.

لم ترضِ ردودي صفاء، ولم يبدِ رغبة في الاستيضاح حول تفاصيل إفاداتي، بل طلب من محمد ماجد؛ نائب الرئيس، الحديث معه على انفراد. فخرجا لتبادل الرأي خارج المكتب. سلوك صفاء لم يكن مريحاً، إذ بدا واضحاً أنه لم يكن يسعى إلى معرفة حقيقة ما جرى، بل القيام بخطوات ضرورية لتحقيق قرار اتخذ مسبقاً. جوابي وضع تهمة العمل دون موافقة الاتحاد في سياقها الصحيح. تغطية برنامج السلام المستدام لتكاليف سفري وتنقلي وإقامتي كان عرفاً شائعاً في كل الدعوات، ووجود خلاف حول توصيف علاقتي كان يستوجب استيضاحاً أو إيضاحاً لا هروباً إلى خارج المكتب.لم يكن تصرف صفاء عادلاً بل غريباً، ولكنني لم أكن أملك وسيلة لمنعه أو التأثير فيه؛ فقد كان في ذلك الموقف يجمع صفتي الخصم والحكم، وكان واضحا أنه مفوض بالقيام بذلك من إنغريد والفريق المحيط بها.

عاد صفاء ومحمد بعد دقائق إلى المكتب لمتابعة "الاستجواب"، لكنه لم يسع إلى استيضاح إفادتي حول التقارير، بل انتقل لتوجيه اتهامات جديدة.

– لدي كشوف مالية تثبت أنك استخدمت بطاقة الائتمان الخاصة بالاتحاد في رحلات لم تكن مقررة ضمن جدول أعمالك.

استغربت هذا الاتهام الجديد الذي لم يسبق أن أثير معي من قبل، فأجبته مستنكراً:

– أنا لا أذكر أني فعلت ذلك، وإذا كان اتهامك هذا بناء على كشوف مالية، فإنني أحتاج إلى رؤية الكشوف الخاصة ببطاقتي الائتمان للإجابة عن ما تدعي.

اعتـذر صفـاء عـن تقديـم الكشـوف دون الحصـول عـلى موافقـة "القيـادة"، ووعـد بالعـودة لي بعـد مناقشـة طلبـي معهـم. محمـد ماجـد لم يسـأل سـؤالاً واحـداً، ولم يبـدِ أي اعـتراض عـلى تهـم صفـاء، ولم يسـعَ لاسـتيضاح جـوابي.

اعترضـت بوضـوح عـلى طريقـة مسـاءلتي، وطلبـت أن أحصـل عـلى صـورة مـن الأوراق التـي اعتمدهـا صفـاء لاتهامـي، وأن تكـون هنـاك لجنـة تحقيـق تكلـف مـن مجلـس الأمنـاء، وأن أعطـى وقتـاً لمناقشـة التهـم والأدلـة واحـدة تلـو الأخـرى. أكـد محمـد ماجـد في ذاك اللقـاء أنـه سـيكون لـدي فرصة للاطـلاع على الكشـوف، والدفـاع عـن نفـسي ضـد التهـم، واسـتئناف أي قـرار يتخـذ ضـدي بعـد التـداول. هنـا أعلمنـي صفـاء أن رئاسـة الاتحـاد اتخـذت قـراراً بإعطائـي إجـازة مدفوعـة إلى أن تسـتكمل الإجـراءات، وطلـب منـي مغـادرة المبنـى حـالاً، ورفـض السـماح لي بحمـل الحاسـوب والهاتـف الخليـوي عـلى اعتبـار أنهـما مـن ممتلـكات الاتحـاد. اعترضـت عـلى اتخـاذ قـرار قبـل تشـكيل لجنـة مـن مجلـس الأمنـاء، وإعطائـي الوقـت الـكافي لتبـين حقيقـة المسـتندات التـي اسـتخدمت لتوجيـه التهـم لي، ولكـن محمـد ماجـد دعـاني إلى الاسـتجابة للطلـب، ووعـدني بالقيـام بتحقيـق أتمكـن مـن خلالـه مراجعـة أي أوراق ومسـتندات يملكهـا الأمـين العـام.

أرسـلت في اليـوم التـالي الواقـع في 18 آذار (2010) رسـالة إلى إنغرد ماتسـون، بوصفهـا رئيسـة الاتحـاد، وإلى مجلـس الأمنـاء، طلبـت فيهـا اللقـاء معهـم لمناقشـة هـذه التهـم المفاجئـة، ومراجعـة الكشـوفات التـي اسـتخدمها صفـاء أساسـاً لاتهاماتـه. في مسـاء اليـوم نفسـه اسـتلمت رسـالة فصـلي مـن الاتحـاد تحمـل توقيـع صفـاء زرزور. لم يسـتجب أحـد في مجلـس الأمنـاء لطلبـي مواجهـة لجنـة تحقيـق محايـدة، بـل وصلتنـي رسـالة مهينـة مـن صفـاء نعتنـي فيهـا "بتفريطـي بمسـؤولياتي" و "تضييعـي للأمانـة"، وأضـاف إلى هـذه النعـوت تهديـداً غريبـاً عـن "احتفـاظ رئاسـة الاتحـاد بالحـق بمقاضـاتي عـلى تضييـع وقـت المنظمـة". كان وقـع الكلـمات مريـراً وصادمـاً، بشـكل خـاص لأننـي كنـت أعمـل سـبعة أيـام في الأسـبوع وأقـضي السـاعات الطـوال ليـلاً لإتمـام الأعـمال والواجبـات، وإعـداد

الوثائق والأوراق، والتخطيط للنشاطات القادمة، إضافة إلى الأسفار العديدة خلال عطلة نهاية الأسبوع والعطل الرسمية، والتي كانت تبقيني بعيداً عن أسرتي، وكنت أقوم بها مختاراً دون السؤال مرة واحدة عن تعويض سفر. لم يكتف صفاء بالإهانات، بل ادّعى في رسالته: أنه "أتاح لي الفرصة العادلة للإجابة على التهم الموجهة ضدي!". جاءت الرسالة لتضيف إهانة إلى سوء المعاملة، ولتصبَّ الملح على الجرح، ولتدَّعي زوراً أني أعطيت الفرصة للرَّد على التهم الموجهة إلي، رغم أني لم أستلم وثيقة واحدة تتعلق بتلك التهم، ولم أواجه لجنة تحقيق مستقلة كما تقتضي الإجراءات العادلة.

موقف قيادة الاتحاد ضدي كان صادماً لم أُعدَّ نفسي لمثله. كنت أعددت نفسي لمواجهة أعداء متربصين، ولكن لم يخطر ببالي يوماً أن أتلقى ضربة كهذه من أصدقاء ظننت أني أتمتع بدعمهم وحمايتهم. بعد تأملي في الرسالة، وفي المستوى الوضيع الذي وصلت إليه علاقتي برفاق الأمس، قررت أن أُعرض عن الرَّد على الإهانات وأمضي في سبيلي. التهم والإهانات التي تلقيتها خلال أيام قليلة أقنعتني بأن القرار المناسب هو الابتعاد بهدوء، والبحث عن مكان آخر أتابع فيه رسالتي؛ لأن الخيار الآخر كان يقتضي الدخول في صراع قانوني علني يفرح الأعداء ويحزن الأصدقاء. قرار فصلي كان أيضاً قراراً بإلقائي في العراء. توقيت التخلي عني، ونعتي "بالتفريط" و "تضييع الأمانة" أتى في سياق حملة مسعورة من اليمين المتطرف لإبعادي عن دائرة التأثير، وتحريض الدوائر الرسمية والأمنية ضدي. لم يتورع خصومي من استخدام نواب في الكونغرس لمنعي من التصدي لحملة الشيطنة والتهميش. فكان قرار الفصل خطوة حاسمة في تحقيق رغبات الأعداء المتربصين. وفعلاً كان برنامج الإشراف على المرشدين الدينيين الذي أثار اليمين المسيحي المتطرف الضحية الأولى لإبعادي، فقد تواصل معي المقدم عبد الرشيد محمد بعد بضعة شهور من عزلي ليخبرني بأن صفاء أهمل البرنامج ورفض اقتراحات قدمها له لمتابعة العمل على توجيه المرشدين وإجازتهم.

اتخـذت قـراري مسـاء ذلـك اليـوم بـترك الاتحـاد نهائيـاً، ولكننـي كنـت مـصرّاً عـلى الالتقـاء بلجنـة تحقيـق تعينهـا قيـادة الاتحـاد لإتاحـة الفرصـة لي للـرَّد عـلى التهـم الموجهـة ضـدي. تحدثـت مسـاء ذلـك اليـوم مـع محمـد ماجـد، نائـب الرئيـس، وإحسـان باغبـي، عضـو مجلـس الأمنـاء، ووعـدا بترتيـب لقـاء لهـذا الغـرض. أخبرتهـما بأننـي لا أسـعى إلى العودة إلى الاتحـاد، ولا أرغب في الاسـتمرار في موقعـي بغـض النظـر عـن قـرار اللجنـة. لكننـي أردت إجـراءً عـادلاً في مسـألة تسـيء إلي إسـاءة مباشـرة وشـخصية. طلبـت منهـما، كـما طلبـت مـن صفاء، كشـفاً بالمبلـغ الـذي ادّعـى الاتحـاد أني اسـتخدمتها خـارج دائـرة الاسـتحقاق. قلـت لهـم بصراحـة أنـه إذا كانـت التهـم الموجهـة إلي صحيحـة، فمـن واجـب مسـؤولي الاتحـاد اسـترداد المبلـغ الـذي أسـأت اسـتخدامه لأنـه يعـود للصالـح العـام، وبالتـالي لا يحـق لأحـد مـن أعضـاء الاتحـاد الصفـح عنـه، أو تجاهلـه. حاولـت التواصـل مـع إنغـرد مـرات عديـدة ولكنهـا تجاهلـت الاتصـالات، كـما تجاهـل أعضـاء آخـرون في اللجنـة التنفيذيـة ومجلـس الأمنـاء اتصـالاتي ومطالبـي.

كنـت أعلـم أننـي لم أسـتخدم بطاقـة الائتـمان خـارج المصاريـف المـصرح بهـا، والخاصـة بالعمـل الـذي اؤتمنـت عليـه، وأن أي خلـل في ميـزان الاسـتحقاقات الماليـة سيكون لمصلحتـي لا لمصلحـة الاتحـاد. كنـت أتجنـب – في معظـم الأحيـان – اسـتخدام بطاقـة الائتـمان الخاصـة بموقعـي كمديـر تنفيـذي لمركـز التنميـة القياديـة لـشراء الطعـام، أو لتغطيـة مصاريـف سـيارات الأجـرة، أو تكلفـة مواقف السـيارات المرتفعـة في المطـار أثنـاء أسـفاري الكثـيرة. وهأنـذا أُتهـم بصفاقـة بأننـي أسـتخدم البطاقـة بـدون حـق، ثـم تمنـع عنـي الوثائـق التـي اعتمـدت لتوجيـه التهمـة إلي. لم أكـن أتقـاضى في أسـفاري تعويـض سـفر، وهـو مبلـغ يدفـع عرفـاً في جميـع المؤسسـات الأمريكيـة العامـة والخاصـة لمـن يكلـف بمهمـة تتطلـب السـفر إلى مدينـة بعيـدة عـن مـكان إقامتـه.

يـوم 22 آذار أخـبرني إحسـان أن اللقـاء الـذي وعـد بـه لـن يحـدث، "وأن الكشـوف لـن تقـدم لي؛ لأنهـا ليسـت السـبب في عـزلي!". وأنهـى حديثـه بالقـول أنـه مـن الأفضـل تـرك الأمـور عـلى هـذا الحـال، وأنـه مـن الصعـب إظهـار الخطأ

والصـواب عندمـا تحـدث اختلافـات في الـرأي والتقديـر في مثـل هـذه الأمـور. محمـد ماجـد أخـبرني بـأن مثـل هـذه الخلافـات تحـدث في جميـع المنظـمات، وأن فصـلي لا ينعكـس عـلى شـخصي وخدمـاتي. وأنـه يعلـم أن الكثـير مـن القياديـين المتميزيـن فصلـوا دون اسـتحقاق مـن المؤسسـات التـي عملـوا بهـا بسـبب خلافات داخليـة! أدركـت أن محـاولاتي لإجـراء تحقيـق في ملابسـات هـذه التهـم المفاجئـة لإبعـادي عـن مسـؤولياتي أصبحـت مسـتحيلة بعـد تراجـع محمـد ماجـد وإحسـان باغبـي عـن وعودهمـا، وأن قـرار فصـلي دبـر بليـل، وأن وراء الأكمـة مـا وراءهـا.

دعـوت زوجتـي وابنتـي رهـف، التـي كانـت في السـنة الأخـيرة مـن المرحلـة الثانويـة، للجلـوس معـي مسـاء اليـوم التـالي. كانـت ابنتـي الكبـيرة لبنـى تتابـع دراسـتها بعيـداً عـن البيـت في جامعتهـا، ولم يكـن منـير ومكـين في السـن المناسـب لمثـل هـذا الحديـث. تحدثـت معهـما عـن قـرار رئاسـة الاتحـاد بإنهـاء خدمـاتي، وأخبرتهـما أني سـأبدأ في اليـوم التـالي البحـث عـن عمـل جديـد، وأن الأمـور سـتكون بخـير بحـول الله. لم يسـعد كلامـي زوجتـي التـي شـعرت بالمـرارة، وطلبـت منـي اللجـوء إلى المحكمـة للتعامـل مـع هـذا القـرار التعسـفي. وشـعرت ابنتـي بغضـب شـديد مـن قـرار الاتحـاد، وقـررت الاسـتقالة مـن اللجنـة الشـبابية التابعـة للاتحـاد. أخـبرت زوجتـي أننـي لسـت بصـدد الدخـول في صراع قانـوني مـع المؤسسـة التـي سـاهمت في خدمتهـا ودعمهـا عـلى مـدى عقديـن مـن الزمـن، وفي هـذه الظـروف التـي تمـرُّ فيهـا الجاليـة. وطلبـت مـن ابنتـي الاسـتمرار في عملهـا التطوعـي في لجنـة الشـباب، وطلبـت منهـا فصـل عملهـا ومسـؤولياتها عـن عمـلي ومسـؤولياتي.

أثـار قـرار فصـلي اسـتغراب الكثيريـن في الاتحـاد وضمـن معـارفي داخـل الجاليـة وخارجهـا. فقـد كنـت خـلال السـنوات العـشرة الماضيـة أحـد وجـوه الاتحـاد والجاليـة الإسـلامية، وكنـت أقـف دائـماً في الصـف الأول في تعريـف المجتمـع الأمريكـي بالجاليـة، وفي الصراعـات الدائـرة مـع تيـار اليمـين المتطـرف. وكان ردُّ فعـل العديديـن، خاصـة الشـباب في الجاليـة متعاطفـاً جـداً. وتأثـر العديـد مـن الناشـطين في الاتحـاد مـن الشـباب، ممـن يعـرف عـن قـرب

طبيعة الخدمة التي كنت أقدمها للمؤسسة والجالية، تأثراً شديداً بطريقة خروجي من الائتلاف. التقيت بعد إبعادي العديد من قيادات مجلس الاتحاد، وكانت ردود أفعالهم تتصف بالاعتذار مما جرى، والتعبير عن عدم ارتياحهم للقرار. هذا الموقف لم أره من مديري الاتحاد العاملين في الأمانة العامة؛ الذين تجنبوا الاتصال بي، ولم يبد أحد منهم أسفه لما حصل حتى عبر اتصال هاتفي! استغربت الموقف وشعرت بشيء من الأسف. لم يكن لدي مدخرات أعتمد عليها في الأسابيع والأشهر التالية، بل كان لدي ديون سرعان ما تراكمت مع ابتعادي عن الاتحاد وحصولي على عمل مؤقت. ولكنني لم أكن قلقاً، توكلت على الله، وأيقنت أن الرزق ليس أمراً فائضاً عن كرم الناس، بل عطاء ممن بيده ملكوت كل شيء.. الذي يجير ولا يجار عليه.. هذا كان إيماني وديدني كلما وجدت نفسي أقف على منعطف مفاجئ أو على حافة الهاوية!

التصالح مع الذات والتوكل على الحكيم

انتشر الخبر في الجالية الإسلامية في أنديانابولس. وجاء عدد من الأطباء السوريين لزيارتي من ضاحية قريبة كانت تقيم فيها جالية سورية صغيرة. وعرض رئيس مركز الهدى علي العمل مديرا لمدرسة ابتدائية أنشأتها الجالية قبل بضع سنوات، مقابل راتب مغرٍ يزيد قليلاً عما كنت أحصل عليه من عملي في المعهد. طلبت منه وقتاً للتفكير بعرضه، وبعد تقليب الأمور لأيام عدت إليه معتذراً عن قبول العرض. كنت فعلاً بحاجة إلى العمل، وكان قبولي لهذا العرض المغري سيخرجني من اللحظات الصعبة التي كنت أمر بها، كنت أعيل أسرة لها متطلباتها الكثيرة، ولم يكن لدي من المدخرات ما أعتمد عليه. لكن العرض وضعني على مفترق طرق، ودفعني لمراجعة وجهتي ومسيرتي؛ هل أقبل العرض وأتخلى عن الرسالة التي بدأتها قبل عقود لأتجنب مخاطر البقاء دون عمل وتعريض أسرتي لظروف خانقة؟ أم أمضي في الطريق الذي اخترته وهيأت نفسي للسير فيه، وتخليت في سبيل ذلك عن مهنة الهندسة؟ عندما نظرت إلى القرار من هذا المنظار لم أجد

صعوبة في رفض العرض المغري الذي يضع حدّاً لمخاوفي ومخاوف أسرتي، ولكنه يأخذني بعيداً عن الهدف الذي اخترته.

كنت أعلم أن الأمر لن يكون سهلاً، وأن الجامعات كانت تعتمد بصورة متزايدة على أساتذة ملحقين، نظراً لوجود أعداد كبيرة من حملة الدكتوراه المستعدين للتدريس بعقود زهيدة. كنت أعلم ذلك من تدريس مقرر الشرق الأوسط في جامعة أنديانا؛ فقد كان عدد الأساتذة المنصبين في الجامعة قليل ضمن الهيئة التدريسية التي تعتمد على عقود يقبلها العديد على مضض بانتظار لحظة واعدة. وكما حدث مراراً في الماضي جاءني عرض من حيث لا أحتسب. صاحب العرض كان الدكتور جون أسبوزيتو مدير مركز التفاهم الإسلامي المسيحي التابع لجامعة جورج تاون. فقد أخبرني في مراسلة جرت بيننا بوجود شاغر لمنحة زمالة لمدة سنة دراسية واحدة. شعرت بأن دعائي استجيب ورجائي في فرج قريب قد تحقق، وأن رزقاً أتاني من حيث لا أحتسب. أرسلت الأوراق، وجاءني عرض القبول، وقبلته دون تردد، وحملت أمتعني في شاحنة كبيرة استأجرتها تزيد في حجمها بمقدار الضعف عن الشاحنة التي نقلت أغراضي في نقلتي السابقة من واشنطن إلى إنديانا. وعدت أدراجي إلى فرجينيا بعد سبع سنوات من مغادرتها، وبعد أن كبر الأولاد الذين حملتهم معي صغاراً. لم ترجع الأسرة جميعاً هذه المرة إلى فيرجينيا. رجعتُ وزوجتي بصحبة منير ومكين، وبقيت لبنى ورهف في جامعة انديانا لإتمام دراستهما الجامعية.

استبدلت بالبيت الواسع الذي احتوانا في بلينفيلد شقةً صغيرةً في إحدى ضواحي واشنطن، على بُعد ميل من البيت الذي سكنت فيه قبل سبع سنوات. كانت المسافة بين البيت والجامعة طويلة نسبياً، ولكني لم أكن أذهب إلى العمل بشكل يومي، بل كنت أقضي معظم أيامي منكبّاً على كتابة بحث حول العلاقة التاريخية بين الإسلام والغرب؛ وهو الموضوع الذي حصلت على منحة صغيرة لكتابته، وكانت تكفي لتغطية نصف نفقاتي، واستعنت على النصف الآخر بمنحة أخرى حصلت عليها من المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وصلت إلى منطقة واشنطن في مطلع فصل الخريف الدراسي.

وتحولت حياتي اليومية إلى حركة بين مكتبة الجامعة بحثاً عن الكتب المناسبة لموضوع بحثي، ومكتبي الجامعي حيث ألتقي بالأساتذة وعدد قليل من الطلبة أشرف عليهم في الجامعة، ونشاطات المجلس الوطني السوري بعد تأسيس شبكة علاقات خاصة به في واشنطن. تخللت إقامتي هناك رحلتان قمت بهما بحثاً عن عمل دائم، لعلمي أن عرض جامعة جورج تاون ينتهي خلال أشهر قليلة. قمت بزيارة جامعة الزيتونة التي أسسها الصديق حمزة يوسف حديثاً، في مدينة سان فرانسيسكو، بدعوة من إدارتها لإجراء مقابلات تتعلق بوظيفة مدير الجامعة. التقيت خلالها بأصدقاء جمعتني معهم صحبة قديمة، وفي مقدمتهم حمزة يوسف مؤسس الجامعة ورئيسها، وزيد شاكر شريك حمزة في تطوير الجامعة وتأسيسها، وحاتم بازيان أستاذ العلوم السياسية في جامعة بركلي، والناشط الحقوقي في الدفاع عن حقوق الفلسطينيين في الولايات المتحدة. أمضيت عدة أيام قدمت خلالها رؤيتي للجامعة. ولكنني لم أتلق في ختام اللقاءات عرضاً من مجلسها.

وسافرت أيضاً إلى أبو ظبي بدعوة من علي الجفري، لإجراء مقابلة حول إدارة مؤسسة متخصصة بالحوار الحضاري والديني. كنت على اطلاع بميول الشيخ الصوفية، ولكن صوفيته بدت لي أقرب إلى الاعتدال خلال لقاءاتنا التي استمرت لثلاثة أيام. كنت أومن بحاجة الثقافة العربية إلى تطوير الحوار وبناء البعد الروحي، بعد أن حولها الفكر الإحيائي إلى ثقافة تدور حول قواعد الحلال والحرام والشعائر التعبدية وقراءات سطحية للنصوص الدينية. الجانب الصوفي الذي رفضته وأنكرته ارتبط بالعقلية الأبوية التي تولدت تاريخياً داخل الطرق الصوفية. تعرفت على عمل المؤسسة التي أنشأها، وعلى الرؤية للمركز الذي كان يسعى لتأسيسه. وغادرت أبو ظبي بعد ذلك إلى الكويت لزيارة والدتي وأختي وأخي. كانت الوالدة كالعادة تجد سعادة بجهودي للحصول على عمل قريب منها، واستبشرت بزيارتي، وسرها أنني زرت الإمارات بحثاً عن العمل. عدت إلى الولايات المتحدة لأتلقى خلال أيام قليلة من عودتي عرضاً أقرب إلى قلبي؛ لأنه يعيدني إلى العلاقة مع الأبحاث والتدريس الجامعي وحلقات البحث التي أحبها.

جاء العرض الذي نقلني النقلة الواسعة السابعة من الولايات المتحدة إلى الدوحة. جاء هذه المرة من الدكتور حاتم القرنشاوي عميد كلية قطر للدراسات الإسلامية. جاء العرض قبيل انتهاء عقدي مع مركز التفاهم الإسلامي المسيحي بشهر واحد، وبعد اندلاع الثورة السورية التي جذبتني إلى دوامتها كما يجذب الثقب الأسود الكتل الفلكية التي تقترب منه. التقيت بأعضاء المجلس السوري الأمريكي الموسع، الذي ضم ثلة من الشباب الناشط، في مدينة شيكاغو، قبل سفري بأسبوع. وتم إقرار فريق قيادي يضم وجوهاً شابة ودماً جديداً، وودعتهم بعد ست سنوات من قيادة المجلس السوري الأمريكي بالتعاون مع الصديق طلال السنبلي. انتابني شيء من القلق خلال الاجتماع الأخير من قيام توتر بين طلال والأعضاء الجدد في إدارة المجلس، فقد شهدت بوادره في الجلسة الأخيرة. طلبت من طلال، عندما جلسنا منفردين لتبادل الآراء حول بعض القضايا التنظيمية، التعامل بهدوء مع الأعضاء الشباب، وطمأنني بأن الأمور ستسير على ما يرام. ولكنني كنت في الوقت نفسه مطمئناً إلى أني أترك المجلس في أيدٍ أمينة؛ فقد ولدت علاقتي مع طلال خلال السنوات الست الماضية انطباعاً إيجابياً، ولم يكن لدي أدنى شك في التزامه بأهداف المجلس، وبالقضية التي عملنا معاً لدفعها. لم يكن طلال يبخل بماله أو وقته لدعم المشروع، ولعب دوراً أساسياً في المحافظة عليه، وتذكيري بأهمية المشروع كلما تنازعتني الشكوك حول مستقبله.

في شهر أيلول من ذاك العام، انتقلت وأسرتي - في خضم النشاطات المستعرة لبناء المجلس الوطني السوري - إلى الدوحة. وكان في التوقيت تيسير عجيب. وكانت تلك بداية مرحلة جديدة ومهمة من حياتي. العرض الجديد الذي أعادني للحياة الجامعية أخرجني من حالة الضيق المالي في فترة تراكمت خلالها الديون. لأول مرة مذ تركت العمل الجامعي في كوالامبور، أحسست بسعة وضعت حدّاً للديوان، وسمحت لي بتغطية نفقات الأسرة المتزايدة، وأغنتني عن الاعتماد على دعم مالي من داخل دوائر المعارضة والثورة بعدما كرست سنين من عمري لثورة الحرية والكرامة، مما جعل

عملي لدعم حقوق الشعب السوري داخل صفوف الثورة والمعارضة عملاً طوعيّاً حرّاً. كان في ابتعادي عن الاتحاد خيراً لم يتضح لي مباشرة، بل احتاج إلى صبر سنة ونصف السنة. لم يخالجني شك للحظة واحدة خلال تلك الفترة في أن الخيرة فيما اختاره الله، ولم تكابدني الظنون في الحكمة الكامنة في التوكل عليه والقبول بقضائه وقدره. كنت أعلم يقيناً أنه جل وعلا نعم المولى ونعم النصير. ولم تغير الصدمات والعثرات وخيبات الأمل يقيني في الحكمة العظيمة التي آمنت بها في قلبي ووجداني قبل أن اختبرها في حياتي العملية مرات ومرات، حكمة الأمل بالله والتوكل عليه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 65/ 3].



8

وقفة في عين الإعصار وسنوات الثورة

(2011 – 2017)

انـدلاع الثـورة السـورية، في منتصـف شـهر آذار عـام (2011)، كان مفاجئـاً لي بـكل مـا للكلمـة مـن معنـى. كنـت أتابـع آنـذاك ثـورات الربيـع العـربي التـي بـدأت في تونـس ومـصر واليمـن، ووقفـت موقفـاً مؤيـداً وداعـماً لهـا في مقـالات الـرأي، ومـن خـلال موقعـي في المجلـس السـوري الأمريكـي. ولم أكـن أتوقـع أن تصـل نـيران الثـورة إلى سـورية. في جـواب عـن سـؤال وجهـه لي أحـد الإعلاميـين حـول توقعـاتي بقيـام ثـورة مشـابهة لثـورات الربيـع العـربي في سـورية، قلـت: إن أي مطالـب شـبيهة بمطالـب التحـركات الشـعبية في بلـدان الربيـع العـربي سـتتطلب عـلى الأقـل أربـع أو خمـس سـنوات. كنـت مخطئـاً في تكهنـاتي، ربـما لأننـي اعتمـدت عـلى الحسـابات السياسـية ولم أتوقـع جيـداً حجـم الاحتقـان داخـل المجتمـع السـوري. ولكننـي رغـم تفاجئـي بالأحـداث لم أتـردد في اتخـاذ الموقـف الـذي التزمـت بـه عـبر جهـودي تجـاه سـورية عـلى مـدار السـنوات السـت الماضيـة، وبالتحديـد دعـم الحـراك الديمقراطـي، والدفـاع عـن حـق السـوريين بالمشـاركة الحقيقيـة في الحيـاة العامـة. لم أكـن شـخصياً أحبـذ النهـج الثـوري لعلمـي بصعوباتـه وتبعاتـه، وكنـت أفضـل تحقيـق نقلـة عبر مسـار إصلاحـي. كنـت أدرك مخاطـر الثـورة مـن خـلال تخصـصي في العلـوم السياسـية، وأعلـم بالصعوبـات والعقبـات العديـدة في طريـق نجاحهـا، وأثرهـا التدمـيري في الحيـاة العامـة. وخـلال أعوامـي السـابقة كنـت أدعـو إلى الإصـلاح المتـدرج، وأسـعى بكتابـاتي ونشـاطي للوصـول إليـه. ولكـن مـا بـدا لي مسـتحيلاً قبـل أيـام

تحـول إلى واقـع أعيشـه وأشـاهده، وأصبـح لزامـاً عـلي اتخـاذ موقـف واضـح تجاهـه والسـعي للدفـع بالاتجـاه الـذي يرشـد حـراك الثـورة، ويعـين في تحقيـق إصـلاح حقيقـي في البـلاد.

شكوك في قدرات المعارضة

كانـت لـدي شـكوك حقيقيـة حـول قـدرات المعارضـة وطرائـق عملهـا، أبديتهـا في كتـاب شـاركت بكتابـة أحـد فصولـه عـام (2005)، وخـلال محـاضرة ألقيتهـا خـلال المؤتمـر السـنوي لمركـز دراسـة الإسـلام والديمقراطيـة عـام (2008). موقفـي الأول مـن المعارضـة السـورية بينتـه مـن خـلال إسـهامي في كتـاب (**الإصـلاح في سـورية**)؛ الـذي حـرره الصديـق رضـوان زيـادة، ونشرتـه مؤسسـة أقـلام حـرة عـام (2005). شـارك في كتابـة فصـول الكتـاب زمـلاء نشـطوا لاحقـاً في صفـوف الثـورة؛ منهـم سـمير سـعيفان، ومرهـف جويجـاتي، وسـمير العيطـة، وبرهـان غليـون. وكان الفصـل الـذي سـاهمت فيـه بعنـوان «الإصـلاح في سـورية: الخطـة والمحـددات». وضحـت خـلال مسـاهمتي النقديـة للمعارضـة أهميـة الـدور الـذي يمكـن أن تلعبـه في جهدهـا لنقـد ممارسـات النظـام، وإظهـار الفسـاد وسـوء اسـتخدام السـلطة، ولكنـي نوَّهـت إلى التبايـن الواضـح بـين تنامـي قـدرات النظـام السـوري عـلى كبـح جمـاح المعارضـة بقـوة وحنكـة، وانحصـار قـدرات المعارضـة في أسـاليب الرفـض والتمـرد والتحليـل.

كنـت أعتقـد أن المعارضـة لم تـدرك بعـد أن التغيـير السـياسي ليـس موقفـاً عاطفيـاً، ولا هـو سـجال كلامـي، بـل عمـل دؤوب مديـد، ذو أهـداف مرحليـة، وخطـوات محـددة تأخـذ الواحـدة منهـا برقـاب الأخـرى. دعـوت المعارضـة وقتهـا إلى توسـيع دائـرة نشـاطها، بالانتقـال في عملهـا مـن بيانـات التنديـد والاسـتنكار واسـتعراض أخطـاء النظـام، إلى العمـل عـلى تطويـر مؤسسـات المجتمـع المـدني الأساسـية لأي تحـول ديمقراطـي حقيقـي. كـما أثـرت وقتهـا مشـكلة المواقـف الحديـة والعموميـة، واعتبرتهـا مشـكلة الثقافـة السياسـية السـورية التـي تتصـف بغيـاب الحـس السـياسي في التعامـل مـع الاتجاهـات السياسـية المغايـرة، أي غيـاب القـدرة عـلى حـلِّ المشـكلات عـبر التحـاور والتناصـف، وغلبـة الحديـة في التعامل

مع الخصوم السياسيين، بدءاً من التنديد بهم وتهميشهم، وانتهاءً بتخوينهم والقضاء عليهم. في المقابل كنت مقتنعاً بأن النظام يتحمل مسؤولية إفشال جهود الإصلاح، وغياب الرغبة في تحقيق مشاركة سياسية وشراكة وطنية، وتساءلت عن آليات التغيير المحتملة في المرحلة القادمة: «هل تتشكل مطالب الإصلاح الشعبي ضمن عملية متدرجة ترعاها الحكومة السورية بالتعاون مع المعارضة، أم تحت تزايد الضغوط الاقتصادية والسياسية في الداخل والخارج؟».

جاء الجواب عن سؤالي هذا بعد ست سنوات من طرحه. لم يبد النظام أي استعداد حقيقي، بعيداً عن الالتفافات والمواقف الاستعراضية التي يجيدها، والتي اختبرتها شخصياً من خلال وعوده الخلبية التي سمعتها خلال لقاءاتي مع مناف طلاس وعمران الزعبي وبثينة شعبان. وجاءت الثورة نتيجة الضغوط الاقتصادية التي عانى منها، خلال العقد الماضي، أبناء القرى التي تحولت إلى حاضنة قوية للثورة، ومن خلال الاستبداد السياسي الذي تجاهل حريات المواطنين وكرامتهم. لم يكن لدي شك خلال جهدي الطويل لتحريك الأمور باتجاه الإصلاح بأن النظام يتحمل مسؤولية تردي الأوضاع، باعتماد وسائل شراء الولاءات، ومكافأة القوى والأشخاص الملتحمين عضوياً به، وقيادة البلاد إلى حافة الهاوية خلال العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، ثم دفع البلاد أخيراً نحو الهاوية بعد تجاهل المطالب الشعبية عام (2011). ولكنني كنت خلال الفترة نفسها أدرك أن مسؤولية تردي الواقع السوري تتحملها نخب سياسية ومدنية واسعة.. يتحملها رجال الأعمال والتجار في المدن الكبرى، خاصة دمشق وحلب، لدخولهم في شراكات تقوم على أساس شراء الذمم لتسهيل أعمالهم وتجارتهم.. ويتحملها رجال الدين بتحولهم إلى مبررين لانتشار الفساد، ولاستعدادهم للتغاضي عن تجاوزات النظام الأخلاقية والقانونية مقابل السماح لهم بإنشاء المدارس والحلقات الدينية.. ويتحملها مثقفون تجاهلوا ضرورة ارتباط خطابهم بمشكلات المجتمع الحقيقية بدلاً من ترديد شعارات الوحدة العربية والإسلامية، وكلام فارغ عن التنمية الاقتصادية

والعلمية بعيداً عن أي جهد حقيقي لتحصين الإنسان من تجاوزات التسلط والاستبداد والفساد.

استيائي من غياب سعي حقيقي لدى النخب الاجتماعية لتطوير ثقافة وطنية وسياسية ناجعة أبديته في ورقة عن «التحديات الثقافية للإصلاح الديمقراطي في سورية»، قدمتها قبل اندلاع الثورة بسنتين ونصف السنة، خلال مؤتمر مركز دراسة الإسلام والديمقراطية؛ الذي عقد في واشنطن عام (2008)، أشرت في ورقتي تلك إلى البُعد الثقافي للمشكلة، وعزوت غياب الجهود الحقيقية في دعم الخط الديمقراطي إلى الطبيعة المحافظة لطبقة المثقفين ورجال الأعمال من أبناء المدن السورية الكبرى. ورأيت وقتها ترابطاً بين تأخر بروز تيار ديمقراطي حقيقي إلى الثقافة السائدة وغياب الشروط الضرورية لقيام حياة ديمقراطية ودولة القانون، وبالتحديد غياب قيم أساسية ثلاثة لتطوير حياة ديمقراطية: احترام القواعد والقوانين، الإيمان بتساوي الجميع أمام القانون، واحترام التنوع الاجتماعي والسياسي. تحدثت في تلك المحاضرة عن مركزية مفاهيم «البطولة» و «المجد» و «القوة» في المناهج التربوية والمؤسسات التعليمية والتوجيهية، وغياب مفاهيم «القانون» و «المصلحة العامة» و «الأخلاق العامة» عن تلك المناهج والمؤسسات. وكنت أرى غياب «العقلانية المقصدية» وهيمنة «العقلانية الوصولية» في الثقافة، وأثرها في انتشار الفساد وتدمير ما تبقى من احترام للأخلاق العامة والقوانين المعتمدة. وأشرت إلى دور المؤسسة الدينية في تكريس هذه الظاهرة بدلاً من محاربتها بالتعامل معها من خلال مقولة «الضرورات تبيح المحظورات».

النقاش الذي تلا المحاضرة كان مثيراً. فقد تتالت التعليقات التي اختلفت معي حول تحليلي لقدرات المعارضة، وأبدى بعض المتدخلين استغراباً من قراءتي لواقع الحراك السياسي السوري الذي اتصف بالسلبية. دافعت عن وجهة نظري، وشددت على أن مهمتي في تلك الورقة النظر إلى الخبرة العملية لا الاعتماد على قراءة عاطفية متفائلة. وحاولت خلال ردي ضرب أمثلة تظهر الطبيعة النخبوية للمعارضة، وفقدان الارتباط بين النخب

المثقفة والقواعد الشعبية. لم تقنعني الاعتراضات بخطأ تحليلي، ولكنني تمنيت أن يكون تحليلي خاطئاً.

وقفة مسؤولة دعماً لثورة الحرية والكرامة

إذن انطلقت الثورة بشكل مفاجئ، وتلاحقت الأحداث خلال اليومين الأولين بسرعة، وصولاً لأول علمية إطلاق نار واسعة على المتظاهرين في 22 آذار في مدينة درعا، سقط نتيجتها أول شهداء الثورة. ورغم إدراكي لمحدودية المعارضة وشكوكي في قدراتها، شعرت بمسؤوليتي الأخلاقية في دعم الجهود الشعبية العفوية التي انطلقت لرفض استبداد السلطة، وإنكار الفساد والتسلط. كان هذا الموقف مشتركاً لدى معظم الأصدقاء في المجلس السوري الأمريكي، وموقف الكثير من أبناء الجالية. تواصلت مع طلال السنبلي ويحيى باشا وأعضاء آخرين في قيادة المجلس لتكوين تصور مشترك حول كيفية دعم الجهود؛ لدفع الحكومة السورية للتفاعل إيجابياً مع مطالب المتظاهرين. ونجم عن المشاورات اليومية المتتابعة سلسلة من النشاطات؛ شملت لقاءات مع الجاليات للإضاءة على التطورات وتبادل الآراء حول مجريات الأحداث في سورية، وشملت كذلك مظاهرات داعمة لمطالب الثورة في واشنطن والمدن الأمريكية الرئيسية، ولقاءات مع أعضاء الكونغرس وإدارة أوباما؛ لدفع الحكومة الأمريكية للضغط على النظام؛ الذي كان يسعى جاهداً للتقرب منها، لوقف أعمال العنف.

كانت الخطوة الأولى التي قام بها المجلس السوري الأمريكي هو الدعوة إلى مؤتمر صحفي في واشنطن؛ لإيضاح موقف المجلس من تطورات الأحداث. تحدثت في المؤتمر الصحفي وطالبت الحكومة السورية بوقف استخدام الرصاص الحي لتفريق المتظاهرين، واتخاذ خطوات حسن نية بدءاً بمحاسبة الأجهزة الأمنية المسؤولة عن سفك الدماء وقتل المتظاهرين. شاركني المنصة عضوان ناشطان في المجلس هما: ياسر تبارة الذي شارك أيضاً بالإجابة عن أسئلة الصحفيين، وسعيد المجتهد الذي

اكتفى بموقف التأييد. لكن سعيد المجتهد لعب دوراً فعالاً في تنظيم لقاءات الجالية بأعضاء الكونغرس، وكان على خبرة جيدة بتقاليد الكولسة (اللوبي كما تعرف في أمريكا)، ويمتلك علاقات واسعة في واشنطن نتيجة لنشاطه السياسي القديم. وزعنا خلال المؤتمر بياناً باسم المجلس يندد بأعمال القتل وإزهاق دم أبناء الوطن، ووجهنا فيه نداءً إلى الحكومة السورية للتعامل بحكمة مع الظرف السياسي الحساس. ودعا البيان «الحكومة السورية إلى تطبيق العقوبات القصوى لردع من تسول له نفسه استخدام السلاح في وجه المواطنين العزل». كما دعونا القيادة السياسية في سورية إلى السماح للمواطنين بتنظيم المسيرات السلمية تعبيراً عن الرأي، والدخول في حوار مع الناشطين السياسيين، والتعامل بجدية مع مطالبهم العادلة والمشروعة. وأشدنا في بيان لاحق بالوساطة الإيجابية التي قامت بها لجنة الحوار التي قادها فاروق الشرع، ودعونا إلى الإفراج عن التلاميذ المعتقلين في سجون الأجهزة الأمنية، ومحاسبة محافظ درعا والمسؤولين الأمنيين فيها. كما دعونا الحكومة السورية للإفراج عن معتقلي الرأي واحترام حق المواطنين في انتقاد الممارسات الخاطئة والفساد الإداري والمالي.

تفاعل السوريون في أمريكا مع التظاهرات ومطالب الإصلاح، وبدأت الجالية السورية بتنظيم المسيرات والتظاهرات الداعمة للثورة في مختلف المدن الأمريكية. وشهدت المدن الأمريكية الرئيسية مظاهرات قادتها الجالية السورية في شيكاغو ونيويورك ولوس أنجلس. أهم المظاهرات وأكبرها جرت في العاصمة الأمريكية واشنطن، نظمها الفرع المحلي للمجلس السوري الأمريكي الذي أنشأته بعد انتقالي إلى واشنطن، قبل شهور قليلة من اندلاع الثورة، بالتعاون مع بعض الناشطين السوريين المقيمين هناك. ساهم فرع واشنطن الجديد بتنظيم زيارات لأعضاء الكونغرس؛ لحثهم على استخدام النفوذ الأمريكي الكبير والضغط باتجاه وقف الأعمال العسكرية ضد المتظاهرين السلميين، ودفعهم لدعم مطالب السوريين المشروعة. وبدأت الجاليات السورية في مختلف المدن الأمريكية بالانتساب إلى المجلس الذي تضاعف عدد فروعه وأعضائه خلال أشهر قليلة.

قمت بجولات في عدد من المدن الأمريكية لدعم الجهود المتعلقة بإنشاء فروع جديدة للمجلس السوري الأمريكي. وتزايدت طلبات الصحافة لتوضيح التطورات، ومعرفة موقف الجالية السورية في أمريكا. كان التحدي الذي واجهني وواجه العديد من الناشطين هو انقسام الجالية السورية، ومساعي داعمي النظام إلى خلط الأوراق، وترويج الرواية الرسمية في الصحافة وأجهزة الإعلام. لم تكن الجالية السورية الأمريكية تقف صفاً واحداً خلف مطالب الإصلاح والتغيير؛ فقد كان للنظام العديد من الأصدقاء. وكانت الأقليات المسيحية تتأرجح بين الوقوف على الحياد أو دعم النظام اتباعاً لموقف الكنيسة الرسمي. وكان موقف الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية مؤيداً للنظام، ومشككاً في الثورة. وانعكس الموقف المؤيد على مؤسسات تمثل الجالية العربية، مثل اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التمييز.

كان صفا رفقة، رئيس اللجنة العربية الأمريكية، أحد داعمي النظام الأساسيين. كان مقرباً من السفير السوري عماد مصطفى، ورافضاً لاتخاذ موقف مندد من أعمال القتل والخطف التي تقوم بها قواته الأمنية. وكان موقفه يعكس مفارقة ساخرة. فاللجنة أنشئت لمكافحة التمييز ضد الأمريكيين العرب، والدفاع عن حرياتهم المدنية وحقوق الإنسان. وها هي ترفض التعاطف من سوريين يواجهون تجاوزات لحرياتهم تفوق بمرات أي تجاوزات في الولايات المتحدة. ولم تكتف اللجنة بذلك، بل قررت في بداية شهر حزيران سحب الدعوة التي أرسلتها للموسيقي السوري المعروف مالك الجندلي، بعد علمها أنه ينوي عزف مقطوعة لحنها حديثاً بعنوان «وطني أنا». اتصلت بمالك للتأكد من الخبر، فأكد لي صحة ما سمعت، وأخبرني أن اللجنة المنظمة خيرته بين تغيير الأغنية أو سحب الدعوة فاختار الأخير. أرسلت في اليوم نفسه بياناً صحفياً، التقطته مجلتا «بولوتيكو» و «الأتلانتك» الواسعتا الانتشار في الأوساط السياسية. وتواصلت المجلتان مع الجهات المعنية ومع محللين سياسيين، وخرجتا بتقريرين حول موقف اللجنة العربية الأمريكية أظهر وجود صداقة حميمة بين عماد مصطفى، السفير السوري في واشنطن، وصفا

رفقة، رئيس اللجنة العربية الأمريكية. كما قام المجلس السوري الأمريكي بتعميم الخبر على الجاليات العربية والإسلامية، وأدان قرار اللجنة العربية، مما سبب إحراجاً شديداً لصفاء وفريقه. اتصل «بي جاي» سلقيني أحد أعضاء اللجنة التنفيذية المحيطة بصفا، ودعاني إلى لقاء مع صفاء رفقة لمناقشة الموضوع. فأعلمته بأن الأمر لا يحتاج إلى نقاش، ودعوته إلى التراجع عن القرار واحترام اختيار مالك لمعزوفة «وطني أنا». وعدني بمناقشة الموضوع مع صفا واللجنة التنفيذية وإعلامي بالقرار النهائي. لم أسمع منه، وعلمت لاحقاً أنه استقال بعد عام من ذلك الاتصال احتجاجا على رفض اللجنة العربية الأمريكية إصدار بيان يندد بمجازر قام بها النظام ضد المدنيين.

كان فريق صفا يعتقد أن باستطاعته فرض الأمر الواقع بسحب الدعوة من مالك. لكن سيلاً من رسائل الاستنكار التي تلقاها مساعدو رئيس اللجنة العربية دفع بهم إلى عزف المقطوعة خلال مؤتمرهم السنوي، على الرغم من عدم حضور مالك. وأدخلهم في مشكلات قانونية بعد قيام مالك برفع دعوة أمام المحكمة لقيام اللجنة بمخالفة حقوق النشر وعرض شريط الأغنية دون إذنه، انتهت بالصلح خارج القضاء.

كان الصراع في سورية قد أخذ في تلك الأثناء منعطفاً جديداً، مع انتشار المظاهرات السلمية من درعا إلى حمص إلى طرطوس، وبدأت تعمُّ المناطق السورية، وبدأت كذلك أعداد القتلى بالتزايد. لكن الانتفاضة الشعبية استمرت بمنهجها السلمي. أحداث العنف اقتصرت على هجوم على مراكز أمنية في محافظة إدلب، ولكن معظم المناطق السورية استمرت بالتعبير عن مطالبها الإصلاحية سلمياً. بعد شهرين من بدء الأحداث أرسل إلي بشر المولى، مساعد بشار الأسد الخاص، رسالة في 4 أيار (2011) يسألني فيها عن رأيي ورأي المجلس فيما يجري. أكد المولى في رسالته أن أعمال القتل تقوم بها عصابات مجهولة، وأن السلطات الرسمية غير مسؤولة عن أعمال العنف. أجبته أن جميع التقارير التي اطلعت عليها توجه أصبع الاتهام نحو قوات الأمن، وشددت على ضرورة تحرك رئيس الجمهورية لتطويق الأزمة

والقيام بخطوة رئيسية للتعاطي مع مطالب الإصلاح. وقلت له: إن الخطوة الأولى تبدأ بمحاسبة المسؤولين عن اعتقال الطلبة، والدعوة إلى حوار وطني صادق وصريح مع المعارضة الوطنية في سورية، ضمن لقاء موسع يدعو إليه الرئيس بنفسه، ويكون مقدمة لخطة إصلاحية تحقق تضامناً وطنياً لمواجهة المرحلة القادمة المليئة بالتحديات. تفاجأت بخطاب الأسد يوم 22 من الشهر نفسه إلى مجلس الشعب الذي تجاهل فيه المطالب الشعبية كليّاً، ووصف معارضي سياسته بالإرهابيين، وتوعد الرافضين لنظامه؛ الذي كرس حالة الفساد والاستبداد؛ بالويل والثبور وعظائم الأمور.

بلغ نشاط المجلس أوجه في 24 أيار مع تنظيم برنامج «يوم الحرية من أجل سورية» في واشنطن العاصمة. عملنا عدة أسابيع مع فريق المجلس السوري في واشنطن للتحضير لبرنامج «يوم الحرية» ونشاطاته المتعددة؛ التي شملت احتجاجاً أمام السفارة السورية، وحشداً شعبياً كبيراً أمام البيت الأبيض، واجتماعات مع مكاتب الكونغرس. أعرب المتظاهرون في صباح ذلك اليوم عن رفضهم سياسات النظام في وقفة احتجاجية أمام السفارة السورية في واشنطن. وبدا غضب المتظاهرين في شعاراتهم وكلماتهم التي لم تقف فقط عند التنديد بفشل الأسد في الوفاء بوعوده بالإصلاح، ولكن أيضاً دارت حول استخدامه للقوات المسلحة وقوى الأمنية ضد المتظاهرين السلميين، وتعريض البلاد لخطر الفوضى العارمة. وبعد مفاوضات أجريناها مع المسؤولين الأمنيين في السفارة، اخترنا وفداً للقاء السفير وتسليمه مطالب الجالية، ترأسه طلال سنبلي، وشارك فيه عبد المجيد الجندي. استقبل السفير عماد مصطفى وفد الجالية، وقدم لهم رواية النظام التي سبق أن نقلها لي قبل أشهر بشر المولى. رفض الوفد رواية النظام التي أحالت مسؤولية سفك الدماء على عصابات مسلحة مجهولة تقوم بأعمال القتل، وحمل بشار الأسد وقواته الأمنية المسؤولة عن عمليات القتل. وشملت نشاطات ذلك اليوم زيارات قام بها أعضاء المجلس مع نوابهم في الكونغرس، حثوا خلالها حكومة الولايات المتحدة على سحب الدعم السياسي لنظام الأسد، واتخاذ مواقف مبدئية واضحة في سورية.

اتسمت الفترة الواقعة بين بداية الثورة في شهر آذار حتى انتقالي إلى اسطنبول في شهر آب للمساعدة في تنظيم صفوف المعارضة بنشاط محموم، تضمن لقاءات في العديد من المدن الأمريكية الكبرى لتوضيح مجريات الأحداث، وبيان موقف المجلس السوري الأمريكي. وشملت نشاطاتي في تلك الفترة زيارة قمت بها لأنقرة؛ كانت الأولى في سلسلة من الزيارات المتتالية التي استمرت حتى استقالتي النهائية من الائتلاف الوطني السوري في منتصف عام (2014). زيارة أنقرة جرت في الأسبوع الثالث من شهر حزيران، تحدثت خلالها في «المركز الاستراتيجي لتركيا الجديدة»، بدعوة من رئيس مجلسه الدكتور يحيى أكاي. استعرضت خلال محاضرتي عناصر الصراع السياسي في سورية وتاريخه. وتخللت الزيارة لقاء بالصديق القديم أحمد داود أغلو؛ الذي عين في تلك الفترة وزيراً للخارجية التركية، والصديق إبراهيم كالين الذي جمعنا عمل مشترك في رابطة علماء الاجتماعيات في أمريكا قبل تعيينه مستشاراً سياسياً لرئيس الوزراء. شاركت بعد عودتي في ندوة نظمتها الجالية السورية في شيكاغو، ضمن فعاليات «يوم الدعم السوري»، وشارك فيها هيثم المناع. في تموز زرت لوس أنجلس وشاركت في برنامج شبيه يحمل نفس الاسم «يوم الدعم السوري» هناك.

الانعطاف الخطير بدأ في شهر تموز إثر قرار بشار الأسد استخدام الجيش النظامي لقمع الانتفاضة الشعبية. دخلت قوات من الجيش محافظات حماة وإدلب وحمص. كان قرار عسكرة الصراع حاسماً في التحول التدريجي للاحتجاجات ضد النظام من احتجاجات مدنية إلى صراع مسلح، وبدء الانشقاقات في صفوف القوات المسلحة. جرت أول عملية انتقام ضد قوى الأمن في إدلب، في شهر تموز من ذلك العام، نتيجة تصعيد النظام مستوى العمليات العسكرية؛ حيث قامت مجموعات مسلحة بمهاجمة قوى الأمن بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة انتقاماً لعمليات حصار مدينة جسر الشغور، وقتل 10 مدنيين من سكانها. بلغت حصيلة العمليات ضد قوات النظام 120 قتيلاً. لكن المظاهرات السلمية بقيت هي التعبير الأساسي لرفض النظام. في شهر تموز بدأت المطالب الشعبية تتحول من مطالب إصلاحية

إلى مطالب بتغيير النظام. التظاهرة الكبيرة في ساحة الساعة في مدينة حمص؛ التي زاد عدد المشاركين فيها على عشرة آلاف متظاهر؛ رفعت لأول مرة شعار «الشعب يريد إسقاط النظام».

مؤتمر الإنقاذ ومساعي حثيثة لإنقاذه

في شهر تموز دعتني اللجنة المنظمة لمؤتمر الإنقاذ للمشاركة في أعماله، واتصل بي الصديق أسامة القاضي ليؤكد حضوري، ويشدد على أهمية دعم جهود تنظيم صفوف الكيانات الثورية. تم الاتفاق على تنظيم المؤتمر في اسطنبول ودمشق في الوقت نفسه، وأعددت شاشات كبيرة في قاعة المؤتمر في اسطنبول لنقل مجريات اللقاء الموازي في دمشق. ولبيت الدعوة وذهبت لاسطنبول للمشاركة لأول مرة بثالث مؤتمر كبير للمعارضة، بعد تغيبي عن المؤتمرَين الأَولين؛ مؤتمرَي أنطاكيا وبروكسل. كنت في الأيام الأولى للثورة أسعى لدعم جهود الثورة والمعارضة السورية من موقعي في أمريكا، ولم يكن لدي نية في الانخراط في مؤتمراتها. كنت أظن أن التظاهرات ستدفع النظام إلى الاستجابة للمطالب الشعبية. ولكن النظام لم يستجب، ولم تتمكن المعارضة، رغم تكرار المؤتمرات، من رصِّ صفوفها وتنظيم لجانها وكتلها. شعرت بخطورة ما يجري، وتشكلت لدي قناعة بالحاجة إلى إعداد كيان يتحدث باسم الثورة والمعارضة لضبط الأمور. وصلت إلى اسطنبول يوم 14 تموز، قبل يومين من بدء جلسات المؤتمر. تعرفت على العديد من الناشطين السوريين، وعلى اللجنة المنظمة التي كان يقودها عماد الدين رشيد. كان المؤتمر في الواقع «عراضة» سورية بامتياز. كانت فقرات المؤتمر في بداياتها منتظمة، واحتوت على كلمات من بعض شخصيات المعارضة التي تحدثت من قاعة المؤتمر في اسطنبول، وأخرى تحدثت عبر الهاتف من دمشق بعد لجوء السلطات إلى إغلاق قاعة المؤتمر، مستخدمة العنف المفرط الذي أدى إلى وقوع 18 قتيلاً. أجواء المؤتمر في اسطنبول بدأت بالتغير عندما شرعت اللجنة المنظمة بتنظيم انتخاب لجنة تنفيذية لتمثيل الثورة. هنا بدأت الأصوات ترتفع والنقاشات تزداد حدة. وقُدمت قوائم مرشحين

عديدة، وقامت اللجنة بفرز الأصوات، واختيرت إحدى القوائم. لكن هيثم المالح رئيس المؤتمر اعترض عليها، وأصر على دعم قائمة رشحها عدد من الشخصيات المحيطة به. وكان المالح قد خرج من دمشق حديثاً لحضور المؤتمر، وعين رئيساً فخرياً له تقديراً لمواقفه. وعندما أصرت اللجنة المنظمة على القائمة المنتخبة، خرج هيثم من الجلسة غاضباً، وخرج معه ثلة من المدعوِّين. ثم عقدت اتصالات لتهدئة الوضع، ووافق رئيس اللجنة وعريف اللقاء عماد الدين رشيد على قبول قائمة المالح وإبعاد القائمة المنتخبة. وبدأ الهرج والمرج في القاعة الكبيرة، أعقبها كولسات ومماحكات جانبية انتهت بـ «التوافق» على اللجنة التي اختارها هيثم المالح.

اجتمعت في المؤتمر بهشام مروة؛ وهو محام حاصل على الدكتوراه في الشريعة والقانون، ونشأت بيننا صداقة أدت إلى تأسيس الكتلة الوطنية بالتعاون مع أديب الشيشكلي الذي دعم جهود تأسيس المجلس مالياً ومعنوياً، وأسامة القاضي؛ وهو اقتصادي يحمل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، وتعود صداقتنا إلى سنوات سابقة، وعبد الرحمن الحاج الذي تربطني به صداقة يعززها اشتراكنا في نشاطات فكرية وسياسية تعود إلى عقد مضى. عملت مع هشام على إعداد البيان الختامي لمؤتمر الإنقاذ اعتماداً على مسودة كتبها مشعل تمو. ولكن إصرار هشام على تحويل الوثيقة السياسية، المليئة بعبارات تحرك العاطفة والحماس، إلى وثيقة قانونية لا يفهمها إلا رجال القانون، أثار غضب ممثل القوى الكردية؛ الذي لم يجد ربطاً بين النص الجديد والنص الذي أرسله مشعل، وهدد بالانسحاب. ولم يلبث مشعل أن انسحب من المؤتمر بعد اطلاعه على أسماء اللجنة التنفيذية التي أنتجها، قبيل اغتياله من قبل عناصر مجهولة، رجحت القوى المحيطة به أنها من حزب الاتحاد الديمقراطي. التزام هشام بالمبادئ القانونية أضاف بعض التوازن على عمل مؤسسات المعارضة، وهو جانب كنت أقدره له. ولكن اهتمامه بالتفاصيل القانونية على حساب السياق السياسي العام، في صراع يتطلب في المقام الأول تحركات سياسية، كان مصدر بعض التوترات والخلافات التي

ظهـرت بيننـا في لحظـات قليلـة. ولكـن علاقـة التعـاون والتفاهـم اسـتمرت حتـى لحظـة اسـتقالتي مـن الائتـلاف، في منتصـف عـام (2014).

ولم تلبـث هشاشـة العمليـة الانتخابيـة التـي رافقـت مؤتمـر الإنقـاذ، والتـي تحولـت إلى عمليـة تفاوضيـة أو «توافقيـة» كـما كان يحلـو للصديـق سـمير نشـار وصفهـا، أن ظهـرت في اليـوم التـالي مـع إدخـال تعديـلات إضافيـة عـلى القائمـة التـي تـم إقرارهـا إرضـاء لهيثـم والمجموعـة المحيطـة بـه، والتـي ضمـت عـلي البيانـوني، المرشـد العـام للإخـوان وابـن هيثـم الصغـير أويـس المالـح. بـدأت الخلافـات تشـتد مـع سـعي أويـس المالـح إلى إدارة جلسـات اللجنـة المنتخبـة والتحكـم في توجيـه القـرار، عـلى الرغـم مـن أنـه لم يكـن مـن المنتخبـين. سـلوكه أثـار حنـق بشـار الحراكـي؛ الـذي كان يجلـس بجانبـي في إحـدى اللقـاءات؛ وقـال لي والغضـب عـلى وجهـه:

– لم نخرج على الأسد الابن لنجد في المعارضة توريثاً مشابهاً للسلطة!

شـعرت بحرقتـه وبفظاظـة تعامـل أويـس؛ الـذي لم أكـن أعلـم سـبب حدتـه وانفعالـه في التعاطـي مـع الجميـع؛ وقلـت لـه مطمئنـاً:

– دعنـا نـرى أيـن تتجـه الأمـور. لا يمكـن تنظيـم عمـل المعارضـة بهـذه الطريقـة.

انتهـت محاولـة إخـراج قيـادة موحـدة تمثـل الثـورة إلى الفشـل، بسـبب المواقـف والقـرارات الاعتباطيـة. والتقيـت في مسـاء اليـوم التـالي للمؤتمـر مـع ثلـة مـن الناشـطين وأعضـاء اللجنـة المنظمـة لتقييـم هـذه التجربـة، ووصلنـا جميعـاً إلى قناعـة بـأن مؤتمـر الإنقـاذ قـد فشـل. وقـال البعـض متهكـماً: «المطلـوب اليـوم إنقـاذ مؤتمـر الإنقـاذ". أكـدت مشـاركتي في مؤتمـر الإنقـاذ قناعـاتي السـابقة في غيـاب الثقافـة السياسـية الضروريـة لتحقيـق نقلـة ديمقراطيـة. ولكنّنـي شـعرت في تلـك اللحظـة، ومـع انفجـار الوضـع في سـورية، أن نجـاح الثـورة، رغـم محدوديتهـا ومثالبهـا، هـو الخيـار الأفضـل للدفـع باتجـاه المشـاركة والمسـاءلة السياسـية. كنـت مقتنعـاً بـأن نظامـاً يعتمـد عـلى أقليـة مذهبيـة ودينيـة يشـكل عقبـة كأداء في طريـق التحـول الديمقراطـي، في حـين يمكـن مـن خـلال خلـق

توازنـات داخـل المجتمـع، بعـد سـقوط النظـام، التحـرك تدريجيـاً باتجـاه حمايـة الحريـات، والمشـاركة السياسـية، ومسـاءلة السـلطة، وإحـداث تغيـير ثقـافي، وبنـاء مجتمـع مـدني يشـكل خطـوت مهمـة نحـو التحـول المنشـود. وكنـت أدرك أيضـاً أن التحـول الشـوري أو الديمقراطـي ليـس حركـة سـحرية تولـد النتائـج المرجـوة بضربـة عصـا، بـل يحتـاج إلى زمـن لخلـق الثقافـة والسـلوك المناسـبين.

المجلس الوطني السوري وتجاذبات التأسيس

دعـوت المجموعـة التـي شـاركت في تنظيـم مؤتمـر الإنقـاذ إلى البحـث عـن مقاربـة مختلفـة لتشـكيل جسـم ممثـل للثـورة. المقاربـة الجديـدة التـي اقترحتهـا ركـزت عـلى القيـام بالتحضـير لمجلـس يشـكل البنيـة التنظيميـة المطلوبـة لقيـادة الثـورة، ومـن ثـم دعـوة القـوى الناشـطة والمعارضـين الحقيقيـين للقيـام بمسـؤولياتهم. وشـددت في مداخـلاتي عـلى أن المقاربـة التـي اقترحتهـا سـتقدم نموذجـاً تنظيميـاً ناجعـاً بـدلاً مـن الاسـتمرار بالطريقـة الحاليـة؛ التـي تقـوم عـلى أسـاس الدعـوة المفتوحـة دون اعتبـار للخـبرة العمليـة للمشـاركين. أبـدى الحضـور في نهايـة النقـاش ترحيبهـم بالفكـرة واسـتعدادهم للتعـاون لتحقيقهـا.

عـدت مـن اسـطنبول إلى فيرجينيـا، ودعـوت إلى لقـاء لقيـادات المجلـس السـوري الأمريكـي، وطرحـت فكـرة تقديـم الخـبرات التنظيميـة المتوفـرة لدينـا لدعـم قـوى الثـورة والمعارضـة، والعمـل عـلى تكويـن مجلـس سـياسي للثـورة السـورية. وكلفـت خـلال اللقـاء بقيـادة الجهـود للتأسـيس لنـواة للمجلـس المطلـوب. بعـد عـدة لقـاءات اسـتطعنا الحصـول عـلى دعـم مـن أحـد رجـال الأعـمال لتغطيـة تكاليـف اجتـماع ناشـطين حقوقيـين وسياسـيين ضمـن أُطـر المعارضـة. بعـد تشـاورات قمـت بتشـكيل لجنـة تنظيميـة للتواصـل، وأرسـلت دعـوات رسـمية باسـم اللجنـة المنظمـة إلى «لقـاء التنسـيق الديمقراطـي» في مدينـة اسـطنبول، في منتصـف شـهر آب مـن عـام (2011). حـددت رسـالة الدعـوة غايـة اللقـاء الأساسـية في «توحيـد صفـوف المعارضـة السـورية في هيئـة ذات صدقيـة وطنيـة قـادرة عـلى تمثيـل القـوى السياسـية الأساسـية» و «وضـع خارطـة طريـق للتحـول الديمقراطـي».

حضر اللقاء خمسة وعشرون ناشطاً، وضم الحضور العديد من الأشخاص الذين لعبوا دوراً مهماً في السنوات اللاحقة؛ منهم أديب الشيشكلي، وأسامة القاضي، وخالد صالح، وعماد الدين الرشيد، وفداء المجذوب، وحسان الشلبي، وعبد الرحمن الحاج، وياسر تبارة، وهشام مروة، ومصطفى الصباغ، ونجيب غضبان، ووائل مرزا، وعبد الباسط سيدا، وبدر جاموس، وخالد الحاج صالح، وبسمة قضماني، ومنى الجندي، وطلال سنبلي، ومريم الجلبي. وضعنا خلال اللقاء الوثائق الأساسية وقائمة بأسماء قوى المعارضة الرئيسية لدعوتها إلى لقاء موسع. شملت القائمة الهيئات الآتية:

* لجان التنسيق المحلية (عمر إدلبي ورزان زيتونة).
* اتحاد التنسيقيات الثورية (عامر الصادق وسهير أتاسي).
* مؤتمر أنطاليا (عمار القربي وخولة يوسف وعمرو العظم).
* مؤتمر الإنقاذ (هيثم المالح).
* الإخوان المسلمون (رياض شقفة وعلي البيانوني).
* إعلان دمشق (رياض الترك ورياض سيف).
* التجمع الوطني الديمقراطي (حسن عبد العظيم، رجاء الناصر).
* لجنة إحياء المجتمع المدني (فايز سارة وميشيل كيلو).

كما تم وضع تصور عام لأهداف وبنية المجلس الوطني، وتم الاتفاق على أن مهمته الأساسية هي تمثيل القوى السياسية والاجتماعية من أحزاب ونقابات وشخصيات مستقلة إلى جانب القوى الشبابية، ويلتزم بتحقيق الأهداف الآتية:

* دعم الثورة والعمل على تحقيق انتقال ديمقراطي.
* إعداد رؤية مشتركة للخروج بالبلاد من المأزق الذي وضعها فيه النظام؛ القائم بإصراره على الحسم العسكري.

* التوافق حول القضايا المركزية للإصلاح التي خرج الشارع من أجلها.

* وضع المقترحات اللازمة للإصلاح الدستوري.

* اعتماد استراتيجية وطنية للإصلاح تضع البلاد على المسار الديمقراطي المستند إلى ثوابت الدستور الجديد والميثاق الوطني، وتحول دون ارتكاس المسار الديمقراطي لمرحلة ما بعد الثورة.

وتم وضع جدول زمني ومهام محددة تنتهي بإعلان المجلس خلال منتصف شهر أيلول، بعد شهر من عقد الاجتماع الأول.

التقينا في اسطنبول على هامش اجتماعات لقاء التنسيق الديمقراطي بعدد من الناشطين الساعين إلى لعب دور في قيادة الثورة، منهم نوفل الدواليبي الابن الأكبر لمعروف الدواليبي، رئيس وزراء سورية الأسبق. وكان يقود ثلة كبيرة من الناشطين القادمين من السعودية، أذكر منهم محمد علوش وسليمان الحراكي. في الاجتماع الذي تم مع وفد نوفل بدا واضحاً أن الرجل جاء ليعلن عن قيام مجلس برئاسته، وبعضوية الوفد المرافق له. أطلعنا نوفل على الجهد الذي نقوم به، ودعوناه إلى الانخراط في المجلس الوطني السوري الذي نعد له، فرفض الانضمام، وعرض علينا الانضمام إلى مجموعته التي قال: «إنها تمثل ٪70 من الشعب السوري!». وانتهى اللقاء بدون توافق. بعد أيام أعلن نوفل من اسطنبول قيام «المجلس الوطني السوري الموحد» برئاسته، ليحمل الاسم الذي اخترناه، مع إضافة كلمة «الموحد» لتمييز مجلسه. وانتهى المجلس في اليوم الذي أعلن فيه، فلم يكن رئيسه ومعظم أعضائه معروفين لدى قوى الثورة أو المعارضة. وكانت شهرة نوفل مستمدة من شهرة والده معروف الدواليبي، آخر رئيس وزراء قبل استيلاء البعث على السلطة.

كما التقينا أحمد رمضان الذي كان يترأس مجموعة العمل الوطني التي اجتمعت في الآونة نفسها لتنظيم مشروع مشابه، تضمنت عبيدة النحاس، وياسين النجار، ومحمود عثمان، وسداد العقاد، وآخرين. أبدت المجموعة اهتماماً بالتعاون مع مجموعة «لقاء التنسيق الديمقراطي»، وقمنا بتشكيل لجنة

مشـتركة للإعـداد لمجلـس وطنـي، عـلى أن يتـم بحـث تفاصيـل الاندمـاج مـع لجنة متابعـة خاصـة باللقـاء التنسـيقي. وبالفعـل طلبـتُ مـن عـماد الديـن الرشـيد أن يـترأس اللجنـة، ولكنـه اعتـذر رغـم إلحاحـي الشـديد ولأسـباب لم تكـن واضحـة لي؛ فعلاقاتـه الواسـعة داخـل صفـوف المعارضـة في سـورية، وقيادتـه لجهـود مؤتمـر الإنقـاذ تجعلـه أفضـل مـن يتـولى رئاسـة اللجنـة. اختـار عـماد أسـلوب القيـادة مـن الخلـف، وكان هـذا النمـط هـو المفضـل لـدى معظـم قيـادات المعارضـة. ونتيجـة إصراره طلبـت مـن وائـل مـرزا تـرؤس اللجنـة فوافـق. وغـادرت اسـطنبول عائداً إلى فرجينيـا، وأنـا أعتقـد أننـي لـن أعـود إلا خـلال الشـهر القـادم للمشـاركة في اللقـاء الموسـع الـذي سـيضم ممثلـين عـن قـوى المعارضـة والثـورة.

الإثنين، ١٥ آب ٢٠١١

إلى أعضاء لقاء التنسيق الديمقراطي،
سلاما وتحية.

أود أولا أن أشكر جميع المشاركين في لقاء التنسيق الديمقراطي أصالة عن نفسي ونيابة عن أعضاء اللجنة التحضيرية للجهد الكبير الذي بذل خلال يومي السبت والأحد وما سبقه من جهود حثيثة للإعداد للقاء والحرص على نجاحه وتحقيق أهدافه.

أعتقد أننا تمكنا من خلال روح التعاون التي سادت جلسات اللقاء الانضباط الكامل بجدول أعماله وأهدافه من الوصول إلى رؤية واضحة لتوحيد أطياف المعارضة السورية في هيئة وطنية وآليات محددة للوصول إلى تلك الغاية. كما تمكن اللقاء من اختيار لجنة متابعة بدأت مباشرة أعمالها لإنجاز الرؤية والعمل بالآليات، وهي لا تزال عاكفة في اسطنبول للتشاور مع قوى المعارضة المتواجدة هناك. وأود أن أتوجه بالشكر الجزيل لكل من وائل وأسامة وياسر وبسمة وعبد الباسط، مع حفظ الألقاب للجميع، لمبادرتهم إلى تمديد فترة إقامتهم في تركيا حرصا على استكمال المشاورات وكسبا للوقت. وبطبيعة الحال فإن الشكر والامتنان للزملاء في اللجنة التحضيرية للدور المهم الذي قاموا به للإعداد للقاء خلال الأسابيع الماضية.

تحدثت اليوم مع د. وائل الذي اختير منسقا للجنة المتابعة الذي أكد لي بأنه سيرسل تقريرا عن اللقاء مع المجموعات السورية التي اجتمعت بالتوازي في اسطنبول. وللاستمرار بالتواصل والتعاون بين اللقاء واللجنة المنبثقة عنه، فإنا أقترح أن تقوم اللجنة بالخطوات التالية:

١. تقديم تقارير دورية عن نشاطاتها تتضمن الإنجازات والعقبات (تقرير أسبوعي على أقصى تقدير).
٢. إصدار بيان صحفي لشرح أهداف اللقاء واستراتيجية عمله.
٣. البدء بتشكيل اللجان الفرعية، وخاصة لجنة النظام الداخلي.

مع التحية لكم جميعا ولكل الأحرار في سورية والنصر لشعب سورية البطل.

لؤي صافي

في اليوم الأخير من اللقاء حضر الدكتور إبراهيم كالين، مستشار رئيس الوزراء في زيارة مجاملة. قمت بالتعريف به في اجتماع ضمَّ أعضاء لقاء التنسيق، ودعوته للتحدث إلى الفريق. رحب بنا في تركيا خلال كلمة قصيرة ألقاها على الحضور، وأكد دعم الحكومة التركية لجهود الإصلاح السياسي في سورية، وحمل إلي دعوة من وزير الخارجية أحمد داود أغلو للقاء مشترك؛ فشكلت وفداً صغيرا للمشاركة في اللقاء، ولكني واجهت ثورة عارمة بعد إعلانه من صديقين مقربين واجهوني بغضب شديد لأنني لم أضمهما إلى الوفد. قمت بتعديل بسيط على الوفد لاستيعاب المعاتبين، وكنت أعتقد أنهما لن يهتما كثيراً بحضور لقاء مجاملة رتبته لتعريف الوزير بالتنوع القائم داخل المجموعة المنظمة، ستتبعه بالتأكيد لقاءات أكثر أهمية. لكن سوء الظن واللجاجة والتسرع حالوا دون بناء تضامن داخلي قوي يحمي الكيان الجديد من هزات صبيانية لا ضرورة لها، وأدى تكرارها المتتالي لاحقاً من شخصيات كنت أتوقع منها نضجا أكبر إلى تشرذم العمل، وتفتت الجهود، وإضعاف مؤسسات الثورة.

كلفت وائل مرزا بتولي مسؤوليات منسق لجنة المتابعة، وطلبت منه تقديم تقرير أسبوعي، فوافق على ذلك. وأعددت رسالة قبيل العودة إلى فرجينيا شكرت فيها أعضاء لقاء التنسيق، وعبرت عن ارتياحي لنتائج الاجتماع، واقترحت أولويات ثلاثة لعمل اللجنة؛ أهمها تشكيل لجان فرعية لتطوير الخطة التي اتفقنا عليها، خاصة لجنة النظام الداخلي.

بعد أقل من أسبوع على عودتي من اسطنبول اتصل بي الصديق ياسر تبارة ليعلمني أن الأمور تسير بخلاف الإطار الذي اتفقنا عليه، وأن حضوري السريع ضروري لمنع تدهور الوضع. وبدا لي بعد عودتي أن وائل مرزا واجه صعوبة في ضبط التوترات المتزايدة بين مجموعتين؛ يقود الأولى منهما أحمد رمضان، ويتزعم الثانية عماد الدين رشيد. بدأت مباشرة بإجراء التواصل مع القوى السياسية الأساسية، بعد انتخابي رئيساً للجنة التحضيرية للمجلس، بالتعاون مع عماد الدين وأحمد. تواصلنا مع رياض

الترك، المناضل السياسي المعروف ورئيس حزب الشعب، وكان آنذاك يتزعم قوى إعلان دمشق. وشارك في الحوار ماهر سليمان عيسى، عضو حزب الشعب، وهشام مروة؛ اللذان لعبا دوراً محورياً للوصول إلى تفاهمات. كما تواصلنا مع برهان غليون، وكانت تجمعني به صداقة فكرية لتقارب أفكارنا فيما يتعلق بالرؤية السياسية لمستقبل سورية. وساهمت بسمة قضماني وخالد الحاج صالح في عدد من الحوارات التي أقنعت برهان بالانضمام إلى المجلس.

قبل الإعلان عن المجلس بأسبوعين عاد التوتر بين عماد وأحمد ليهدد من جديد تماسك اللجنة التحضيرية. كان ثمة اعتراض كبير على مشاركة عماد وزميل مقرب له هو فداء المجذوب من قبل أحمد وزميله عبيدة النحاس، منذ الجهد الذي بذلته لتشكيل لجنة التنسيق الديمقراطي. سعيت بجهد كبير للحفاظ على تماسك اللجنة. تراكب هذا التوتر مع توتر آخر متصاعد من جهة وائل لم أكن أفهمه وأدرك أبعاده آنذاك. كان وائل يتصرف معي بتشنج لم أعهده من قبل، رغم الثقة الكاملة التي وضعتها فيه، وكنت أعتقد أنه سيتابع قيادة اللجنة دون الحاجة إلى عودتي من جديد. كان يسعى إلى منافستي في إدارة الجلسات، خاصة جلسات التفاهم مع القوى السياسية الأخرى، مما أثار حفيظة أحد الزملاء فطلب منه تخفيف مداخلاته، خاصة عندما لا تضيف جديداً للحوار. بعد سلسلة من الاتصالات واللقاءات مع ناشطين مستقلين ومع ممثلي قوى الثورة والمعارضة، تمكنا من عقد لقاءين تأسيسيين؛ الأول في منتصف أيلول، انتهى بالمؤتمر الصحفي الذي نقلته الصحافة العربية والأجنبية يوم 23 آب (2011)، وأعلنا فيه تأسيس المجلس الوطني السوري. وشاركني المنصة خلال ذاك المؤتمر كل من أديب الشيشكلي، وعبد الباسط سيدا، وخالد الحاج صالح، وحسان الشلبي، وحسان الهاشمي، وأحمد رمضان. عرضنا في المؤتمر الصحفي رؤية المجلس وأهدافه دون تقديم أسماء، ووعدنا بتقديم الأسماء خلال أسبوع.

كان سبب تأخير الأسماء الرغبة في ضم التجمع الوطني الديمقراطي الذي يقوده حسن عبد العظيم، والحاجة إلى متابعة المفاوضات معه. أعقب

الإعلان الأول يوم 23 آب، لقاء في الدوحة مع أعضاء التجمع الوطني، ولكن اللقاء لم ينته باتفاق، بل سارع أعضاء التجمع إلى تشكيل هيئة التنسيق الوطني. ولم تفلح المحاولات التي شارك فيها الصديق حازم نهار في تجاوز الخلافات. عقدت اللجنة التحضيرية لقاء على أثر ذلك، وقررنا إعلان القوى المشاركة وأسماء الأعضاء، وحددنا يوم 15 من أيلول تاريخاً للإعلان. تم التفاهم مع برهان على ترأس المؤتمر الصحفي، ولكنه بعد وصوله رفض لأسباب غير واضحة المشاركة في المؤتمر. بعد نقاش قصير وافقت بسمة أن تكون المتحدثة الرسمية في المؤتمر الصحفي، ودعوت كل من أحمد رمضان وعبد الباسط سيدا وعماد الدين الرشيد للمشاركة. وتم في ذلك اليوم الإعلان عن أسماء أعضاء المجلس الوطني والقوى السياسية المشاركة فيه، وأعلنا في المؤتمر الصحفي عن 2 تشرين الأول موعداً للقاء الأول لأعضاء المجلس.

مفاجآت في الدوحة

غادرت اسطنبول بعد يومين من المؤتمر الصحفي متوجهاً إلى الدوحة لأبدأ عملي الجديد في برنامج السياسات العامة في جامعة حمد بن خليفة. وصلت إلى الدوحة يوم 18، ولحقت بي أسرتي القادمة من الولايات المتحدة في اليوم التالي. تدهور صحة والدتي التي كانت تقيم في الكويت دفعني إلى مغادر الدوحة بعد أيام من وصولي، وبعد إعطائي المحاضرة الأولى في الجامعة. أمضيت ثلاثة أيام بصحبة الوالدة في المشفى، وكانت حالتها الصحية متدهورة، ولكنها كانت بكامل وعيها وقادرة على الكلام والحوار والتعبير. شعرت بالقلق من حالتها الصحية، ولكنني اعتقدت أنها نكسة مؤقتة تعود بعدها إلى حالها المعتاد. ودعتها ووصلت إلى المطار استعداداً للرحيل إلى الدوحة ولكنني أخطأت البوابة، ولم ألحق بطائرتي التي غادرت لتوها عند وصولي إلى البوابة. عدت إلى منزل أختي في الكويت للسفر بالطائرة المغادرة في اليوم التالي.

قررت صباح اليوم التالي زيارة والدتي مرة أخرى في المشفي قبل رحيلي.

وكان المشهد مفاجئاً وصادماً. كانت أمي في غرفة العناية المشددة، وقد وضع الأطباء جهاز تنفس صناعي، وأنبوباً للتغذية يمر من خلال المري، منعها من الكلام. لكنها كانت يقظة، وكان وجهها يشع حيوية ونشاطاً. أرادت محادثتي، وبدا من تعابيرها أن عندها الكثير من الكلام لتقوله. لكنها لم تكن قادرة على الكلام بسبب الأنبوب الذي يمر من فمها إلى معدتها. كانت تتكلم بكلمات صامتة، أراها في حركة وجنتيها وعينيها وجبينها، ولكنني لم أكن أسمع صوتها المخنوق بالأجهزة الطبية. أعطيتها ورقة وقلماً لتكتب ما تريد أن تقوله، ولكنها لم تستطع تحريك يديها وأصابعها. لم أستطع أن أتمالك مشاعري وأنا أراها في تلك الحالة؛ فخرجت من الغرفة مسرعاً إلى ممرِّ المشفى كي لا ترى دموعي تسيل على خدي. شيء ما بداخلي أشعرني أنني أشهد لحظاتها الأخيرة، وأن اقترابي منها بعد نأي طويل لم يكن سوى لحظة عابرة وأمنية قلب كوته لوعة الفراق. عدت إلى غرفة العناية المشددة لأُودعها وأُقبل يديها الطاهرتين، وأعدها بالعودة خلال أيام بعد الانتهاء من المحاضرة الثانية. وقبل أن يحين موعد العودة، وصلني خبر وفاتها. صادف بداية رحلتي في منطقة الخليج نهاية رحلتها الموقوتة، ونهاية حياتها في عالمنا الأرضي.. عالم المفاجآت والتحديات والآمال وخيبات الأمل. كان أملي أن تكون إقامتي في الدوحة سبباً لتقاربنا الجغرافي، ولكن القدر كان يخبئ أمراً لا علاقة له بآمالي ورجائي.

حصلت مفاجأة أخرى أكدت من جديد المفارقة بين الأمل وأشكال تحقيقه على أرض الواقع. الخبر الذي وصلني من اسطنبول في ذلك اليوم بدا غريباً وساخراً في آن؛ فقد وصلني بعد وفاة الوالدة ببضعة أيام أسماء أعضاء الكتلة الوطنية الذين انضموا أثناء تغيبي عن الاجتماع إلى الأمانة العامة للمجلس. لم يكن اسمي ضمن ممثلي الكتلة الوطنية الخمسة، والتي كانت تعرف بكتلة الـ (74)، التي أسست المجلس، وترأستها خلال شهرين من عمليات التحضير.. تم اختيار خمسة ممثلين عن المجموعة؛ هم عماد الدين رشيد، ووائل مرزا، وأحمد رمضان، ونجيب الغضبان،

وبسمة قضماني. أرسلت رسالة إلكترونية للأعضاء الخمسة أستوضح فيها ملابسات الاختيار وسبب استبعادي، طلبت كذلك إيضاحاً لسبب عدم اعتماد آلية الانتخاب الديمقراطي لاختيار ممثلي الكتلة. لم أتلق جواباً أو إيضاحاً من أي من الأصدقاء الخمسة. بينما أبدى عماد الدين رشيد أسفه، خلال اتصال هاتفي اعتذار خلاله لطريقة الاختيار، وأكد اعتراضه الشخصي على استبعادي. ثم علمت لاحقاً من اتصال بالصديقين عبد الرحمن وهشام بأن أعضاء المجموعة التي انضمت إلى الأمانة، تجاوزت المهمة التي كلفت بها في التفاوض نيابة عن الكتلة، وأنها قدمت أسماءها إلى عضوية الأمانة دون تشاور أو انتخاب للقيام بمهمة تمثيل الكتلة لفترة ستة أشهر!

انتهت الستة أشهر وجاء استحقاق الانتخابات لتعيين ممثلي الكتلة. لكن الأعضاء الخمسة رفضوا دخول الانتخابات، وظنوا أن بمقدورهم تجنب الاستحقاق. لكن الكتلة بادرت إلى إجراء الانتخابات، وشرعت بالمطالبة بتغيير ممثليها في الأمانة العامة والمكتب التنفيذي. بلغ الاختلاف أوجه في اجتماع الأمانة العامة للمجلس الذي عقد في روما في أيار (2012)، وأدى إلى تجميد عضوية الكتلة بانتظار الحصول على رسالة بالتمثيل الرسمي من الكتلة. اغتنم أحمد رمضان حالة البلبلة التي نجمت عن رفض ممثلي الكتلة بتنفيذ قرار استبدال ممثليها، وحصل على قرار من المكتب التنفيذي بالانضمام رسمياً إلى عضويتها، ممثلاً لمجموعة العمل الوطني التي لم تتحول رسمياً آنذاك إلى كتلة مستقلة.

جرت اتصالات مع المكتب التنفيذي للمجلس قادها عبد الرحمن الحاج وهشام مروة، وتمت دعوة ممثلين عن المكتب لحضورها انتخابات الكتلة الوطنية، خلال اجتماعها في اسطنبول بتاريخ 9 حزيران (2012)، تم انتخابي خلالها وصديقين آخرين هما أسامة شربجي وخالد الصالح لتمثيل الكتلة في الأمانة والمكتب التنفيذي. وتم استبدال وائل مرزا ونجيب الغضبان، وتثبيت ممثلي الكتلة المنتخبة في رسالة رسمية حسب الأصول.

تشرذم رفاق الدرب وقيود الذات

خلال أسابيع من تأسيس المجلس طلب أحمد رمضان إخراج المجموعة التي أحضرها من الكتلة الوطنية المؤسسة بعد عمل مشترك استمر شهرين. ولم تنفع محاولاتي لإقناعه بالتراجع عن موقفه، فانفصلت مجموعته لتشكل مجموعة العمل الوطني. أحمد سياسي محنك وإعلامي متمرس، وصاحب خبرة طويلة في مجال الإعلام، وشخصية متميزة بنشاطها وحضورها وهدوئها، عملنا معاً على تأسيس المجلس بنجاح، لكن العلاقة بيننا بدأت تتراجع مع استكمال تأسيس المجلس، ثم توترت بسبب سعيه الدائب إلى زيادة عدد ممثلي الإخوان داخل المجلس خارج الأطر المتفق عليها، واعتراضي على تحركه في ذاك الاتجاه. لكن رفضي لإغراق المجلس بممثلي الإخوان لم يجدِ نفعاً؛ فقد وجدت قيادات الإخوان طريقة أخرى لزيادة العدد بالتفاهم مع قيادات إعلان دمشق، في آلية طريفة ولعبة سياسية أطلقت عليها الكتل المتنفذة اسم «عملية التوافق». ومن خلال عملية التوافقات هذه، والتي لم تكن في جوهرها سوى تبادل المصالح بين من أعطوا الثقة لتولي مواقع قيادية في المجلس. ومن خلال تبادل المصالح الضيقة هذه تحول المجلس إلى دائرة نفوذ لمجموعتي الإخوان وإعلان دمشق (التي تقلصت لتتحول لمجموعة رياض الترك)، ومهد الطريق لتحطيم المجلس من خلال تجاوز آليات القرار الديمقراطي، التي استمد المجلس شرعيته من الدفاع عنها والسعي لتحقيقها، والتخلص من نظام الأسد الذي يحتقر القرار الديمقراطي ولا يعيره أي اهتمام.

تقلص عدد أعضاء الكتلة الوطنية المؤسسة بعد انسحاب مجموعة العمل الوطني إلى 56، وقمت بالتعاون مع بعض الأصدقاء، بمؤازرة من رجل الأعمال مازن صواف، بترتيب لقاء لإعادة تنظيم صفوفها. اجتمعت الكتلة في اسطنبول في السادس من أيلول عام (2012)، وتم انتخاب عبد الرحمن الحاج وأديب الشيشكلي لعضوية أمانة الكتلة، وانتخب هشام مروة أميناً عاماً لها. كما تم انتخاب ممثلين عن الكتلة في الأمانة العامة، وتم استبدال

وائل ونجيب اللذين لم يحضرا الاجتماع، وتغيب كذلك مصطفى صباغ رغم وجوده في اسطنبول. غياب وائل ونجيب كان احتجاجاً على رفض الكتلة لرغبتهما في الاحتفاظ بمقاعدهما في الأمانة العامة وفق آلية «القسمة لمن حضر» التي اتبعوها. ما لم يكن واضحاً عندي آنذاك هو سبب تغيب مصطفى صباغ عن لقاء الكتلة. لم أكن أدرك آنذاك طبيعة علاقة مصطفى بوائل ونجيب. كنت أعلم أن وائلاً هو الذي دعاه إلى لقاء التنسيق الأول. تحدثت إلى مصطفى هاتفياً، ولكنه أصرَّ على البقاء بعيداً عن الاجتماع، ولم يظهر لي أسباب تغيبه، ورغبته في الابتعاد عن الكتلة، وتبين لي بعد عام من مشاركته في لقاءات متفرقة أن مصطفى كان يسعى منذ اليوم الأول إلى لعب دور رئيسي في قيادة المعارضة، من خلال نادي رجال الأعمال الذي أسسه في قطر، وأن جهد وائل المحموم للتحرك إلى الصف الأول في لقاءات المعارضة كان بتكليف من مصطفى ونيابة عنه. وتذكرت في تلك المرحلة دلالة عبارة رددها مصطفى أمامي في حديث خاص، خلال اجتماع لقاء التنسيق، ذكر فيه أن نادي الأعمال خصص مبلغ مليون دولار لتوظيفه في دعم الثورة، وأنه على استعداد لاستخدامه لدعم تأسيس المجلس. أثنيت آنذاك على جهده المشكور في خدمة الوطن، وطلبت منه بحث الموضوع مع وائل، ومضيت في شأني دون أدراك أبعاد تلك العبارة البسيطة، لكن كلماته بقيت عالقة في ذهني. تحدثت إلى مصطفى هاتفياً، ولكنه أصر على البقاء بعيداً عن الاجتماع ولم يظهر لي أسباب تغيبه ورغبته في الابتعاد عن الكتلة.

الأمور بدأت تنجلي بعد أسابيع، خلال اتصال عبر السكايب مع وائل ومصطفى، واطلاعي على خطة طلبا مني دعمها. عرض مصطفى فكرة تشكيل جسم سياسي جديد لتمثيل المعارضة، اعتماداً على دعم مالي سخي من رجال أعمال سوريين، ودعم أكيد من بعض الشخصيات في الحكومة القطرية. الاتصال أظهر بوضوح التراتب الحقيقي بين مصطفى ووائل، وأطلعت قيادة الكتلة الوطنية بحضور هشام؛ الذي كان حتى تلك اللحظة يؤكد لي أن مصطفى يعمل مع الفريق الذي يقوده وائل. قلت لهم: إن مصطفى هو الذي يقود الفريق، وإن جهود وائل كانت لخدمة

مشروع يعمل عليه مصطفى. بالفعل بدأت خطة مصطفى تتضح بجلاء في نهاية العام، بعد تأسيس الائتلاف الوطني وظهور مواقع اللاعبين. انتقل مصطفى إلى مقعد القيادة باستخدام إمكانيات نادي الأعمال، وسارع إلى توظيف مجموعة من أصحاب الخبرة والكفاءة الفنية الذين تعرف عليهم أثناء مشاركته في اجتماعات المعارضة، ضمت زملاء متميزين بقدراتهم الإدارية والتواصلية، وفي مقدمتهم نجيب غضبان، ووائل مرزا، وغسان هيتو، وياسر تبارة، وعمار القحف. بعد تمكن مصطفى من الوصول إلى دفة القيادة، تراجع وائل إلى الصفوف الخلفية، واكتفى مصطفى بتكليفه بمهمة مساعدة غسان هيتو على تشكيل الحكومة المؤقتة في مرحلة لاحقة.

لم تمض أيام على انتخابات الكتلة الوطنية، حتى طلب عماد الدين الرشيد إخراج مجموعة أخرى من أعضائها بعد أن أصبحت جزءاً من كتلة جديدة مستقلة عرفت بالتيار الوطني. كنت على دراية بجهود عماد الدين رشيد وفداء المجذوب لتأسيس التيار الوطني، وكنت قد حضرت لقاء في القاهرة لتأسيسه، ودعيت لأكون عضواً في مكتبه السياسي. ولكني بعد تقليب الأمور اعتذرت، ودعوت عماد إلى تأجيل إعلان الكتلة إلى المرحلة قادمة لانتصار الثورة، وتركيز الجهد للعمل من خلال الكتلة الوطنية لدعم الثورة. كنت أشعر بالألم من مشهد تمزيق العمل إلى كيانات صغيرة، فقد كنت أتخوف من أن يتحول الأصدقاء المتعاونين إلى أصدقاء متشاكسين. الصعوبة في الوصول إلى موقف مشترك حول مسائل أساسية برز في حوار هاتفي مع عماد الدين رشيد حول انفصال كتلته قبل نجاح جهود الثورة، والذي أخذ في بعض أجزائه شكل حوار ساخن ارتفعت خلاله نبرة الحديث قبل أن تعود فتهدأ نحو نهاية الحوار. أصرَّ عماد على إنشاء كتلة سياسية مستقلة بقيادته، وتطوير برنامج خاص بها بحيث تتناسب مع شبكة علاقاته الخاصة. وكنت أشعر بأننا نعمل على تقسيم السلم الطويل - القادر على إيصالنا مجتمعين إلى المستوى المطلوب - إلى سلالم قصيرة لن يتمكن أي منها من الوصول إلى ذلك منفرداً. كانت الطريقة الوحيدة للوصول بعد الافتراق هي أن نربط السلالم الصغيرة مرة

أخرى ونستخدمها معاً لتحقيق الهدف. لكن الربط بعد التقسيم هو ربط ضعيف يحول الجسم الجديد إلى جسم مهتز غير ثابت. وهذا ما حصل عملياً خلال السنوات اللاحقة.

المشاركة السياسية والتوافق الإقصائي

استمرت مساعي أعضاء المكتب التنفيذي في السيطرة على المجلس الوطني وقيادته من الخلف، والدفع بشخصيات تحظى باحترام وتقدير شعبي بعيداً عنه. ولكن عمل المكتب التنفيذي أدى عملياً إلى تحجيم قدرته على القيادة، واعتماد أسلوب القيادة الجماعية، الذي أدى في نهاية المطاف إلى تجميد عمل المجلس. القيادة الجماعية من خلال مبدأ «التوافق» منحت كل كتلة ممثلة في المكتب التنفيذي القدرة على التحكم بقرار المجلس، من خلال استخدام حقها في رفض القرار، وممارسة حق النقض (الفيتو) على قراراته. أصبح العمل لإيجاد بديل عن المجلس أمراً ضرورياً لإنقاذ المعارضة من حالة الجمود، وأضحى البحث عن بديل فكرة متداولة بين قوى المعارضة السورية. تزايد عدد الناشطين والقوى السياسية المستبعدة عن المجلس وَفَّر لنقاد المجلس دعماً واسعاً. عجزُ المجلس وضعفُ أدائه السياسي نجم أيضاً عن غياب العمل السياسي، ورفض القوى المهيمنة على هيئته السياسية أي تحرك سياسي بعيداً عن شعار إسقاط النظام الذي أطلقه المتظاهرون في المدن السورية. إسقاط النظام كان تعبيراً عن رغبة عارمة لتحقيق تغيير سياسي يعيد إلى البلاد الشراكة السياسية الحقيقية بين مكونات الشعب السوري، وتعبيراً عن يأس السوريين من الوصول إلى إصلاح سياسي من خلال النخبة الحاكمة. ولكن كلمة «إسقاط» ليست بطبيعة الحال كلمة سحرية يمكن من خلال ترديدها بانتظام وباستمرار الوصول إلى الغاية المرجوة. كان ثمة حاجة لتطوير الخطط، وتوزيع الأدوار، وتوظيف القدرات المتناثرة عبر الساحة السورية، والاستعانة بناشطين وتكليف أعضاء المجلس بمهام. الهيئة السياسية – مع الأسف – كانت تفكر بمسألة واحدة أساسية؛ هي الاحتفاظ بالقرار من خلال تهميش الأعضاء والقوى التي تسعى إلى

المشاركة في القرار وفي العمل. أما استراتيجية تحقيق شعارات المتظاهرين فاقتصرت على زيارات المجاملة إلى عواصم عربية وغربية دون تقديم خطة سياسية أو تصور يساعد في تطوير مواقف المعارضة باتجاه حلٍّ سياسي مقنع وفعال.

حاولت من خلال رئاستي لمكتب السياسات والتخطيط؛ أحد مكاتب المجلس الرئيسية، الدفع باتجاه تنظيم عمل المجلس، واعتماد استراتيجية وخطة عمل، ولكن دون جدوى كبيرة. أُسس المكتب بناء على قرار الأمانة العامة، في اجتماع جرى بتاريخ 24 كانون الأول (2011)، وخلال لقاء جرى على هامش اجتماع الهيئة العامة للمجلس في تونس. تم تقسيم أعضاء الهيئة العامة، التي بلغت حدود المئة والتسعين عضواً، بين عدد من اللجان التي كلفت بتشكيل مكاتب تخصصية لمتابعة ثمانية حقائب هي: العلاقات الخارجية، والتخطيط والسياسات، والإعلام، والحراك الثوري، والاقتصاد والمالية، والإغاثة والإعمار، والقانوني، والجاليات. ترأست المكتب المختص بالسياسات والتخطيط، والتي تكونت من حوالي الثلاثين عضواً من الهيئة العامة. بعد نقاش طويل تم تسمية رئاسة المكتب، واختارت اللجنة بالإجماع ثلاثة أعضاء لإدارة مكتبها. انتخبت مديراً للمكتب، وانتخب عبد الله التركماني نائباً للمدير، وسعيد لحدو منسقاً. ووضعنا أهدافاً ثلاثة للمكتب هي:

1 - تقديم أوراق عمل تساعد المجلس في اتخاذ قراراته.

2 - تقديم دراسات وخطط لدعم الثورة ومواجهة النظام.

3 - تطوير خطة للمرحلة الانتقالية.

ساهم مكتب السياسات والتخطيط في تطوير وثيقتي «العهد الوطني» و «خطة المرحلة الانتقالية» اللتين اعتمدهما المجلس في اجتماع هيئته العامة، في صيف عام (2012) في اسطنبول، ثم اعتمدهما مؤتمر القاهرة بعد القيام بتعديلات شكلية. حضر اللقاءات التي انتهت بتطوير الوثائق أعضاء من المكتب، منهم عبد الله التركماني وسعيد لحدو. كما تم دعوة بعض الزملاء

للمساهمة من خارج المكتب منهم بسام قوتلي، وعقاب يحيى، وهشام مروة، وعبد الرحمن الحاج. ولكن الوثيقة المهمة التي سعيت إلى إقناع المكتب التنفيذي بتطويرها، ولم نتمكن من إنجازها، هي الخطة الاستراتيجية الأساسية لمساعدة المعارضة على الوصول إلى الانتقال الديمقراطي. فما الفائدة من تطوير خطط للعملية الانتقالية إذا عجزت المعارضة عن تحقيق الانتقال، خاصة وأن النظام لم يكن راغباً في إجراء أية إصلاحات حقيقية وعميقة في بنيته.

من الصعب وضع مسؤولية أداء المجلس كاملة على الإخوان وإعلان دمشق، فقد كانت ظاهرة التشرذم عامة، ظهرت في كل مساحات العمل السياسي السوري. لكن مسؤولية الإخوان والإعلان كانتا حاسمتين؛ نظراً لكونهما أكبر القوى السياسية السورية، وأكثرها تمثيلاً للتنوع السوري، وأكثرها ارتباطاً بتاريخ المعارضة. كنت أعتقد أن الإخوان سيلعبون دوراً أكثر إيجابية وفاعلية، بعد سنوات طويلة من الحياة خارج سورية، خاصة أن عدداً كبيراً من قياداتهم اتخذت من البلدان الأوربية والأمريكية ملجأ لها. لم يكن دور الإخوان قيادياً في تقديري، بل تهديئياً ودفاعياً. كان دورهم الأساسي المحافظة على مؤسسات المعارضة بالطريقة نفسها التي تحافظ فيها المرساة على السفينة، بمنعها من الحركة العشوائية الهوجاء. ولكن الإخوان لم يتعاملوا في تقديري كشركاء في صنع القرار، بل كانت قياداتهم تأتي إلى الاجتماعات محملة بقرارات جاهز، لعلها قرارات مجلس الشورى الخاص بهم، أو قرار مكتب المرشد العام، أو لعله قرار ممثل الإخوان وبعض داعميه فقط. ولم أشعر يوماً بانفتاح الإخوان على الحوارات التي كانت تجري في الأمانة العامة للمجلس، أو في هيئات الائتلاف لاحقاً، بل وصل التشرذم في المعارضة إلى داخل منظمة الإخوان وإعلان دمشق. كان الإخوان منقسمين بين مجموعتين كبيرتين، مجموعة حلب التي يقودها علي البيانوني، ومجموعة حماة التي يقودها فاروق طيفور ورياض شقفة. أما إعلان دمشق فهيمن عليه رياض الترك زعيم حزب الشعب، بعد إبعاد رياض سيف عنه وانسحاب معظم قياداته السابقة. وظهرت محاولات قيادات الإخوان

في التحكم بالمجلس من خلال عدد من الخطوات لا يمكن تفسيرها إلا من باب خلط الأوراق. لعل أبرزها المؤتمر الذي دعا إليه ملهم الدروبي عدداً من الناشطين بلغ المئة في الأسابيع الأولى لتأسيس المجلس الوطني دون تشاور مع اللجنة التحضيرية. وانتهى التفاوض بإضافة خمسين منهم إلى عضوية الهيئة العامة للمجلس، حملوا لفترة طويلة توصيف تحالف الإخوان، أذكر منهم رندة قسيس وعبد الإله ملحم.

فاروق طيفور كان الزعيم الإخواني الأكثر تأثيراً في المجلس، والذي اعتمد على جهود ملهم الدروبي، وتحالفات متعددة، لتكريس نفوذ الإخوان في المجلس. طيفور شخصية مخضرمة، عاش في ظروف قلاقل وانقلابات، وتنقل بين العراق والأردن والسعودية والسودان، وتأثر بطرائق العمل السياسي في تلك البلدان. كان شديد الدهاء والانضباط والشكيمة، وكانت الصفات الثلاثة حاضرة في نشاطاته وتحركاته داخل المجلس. كان يتحرك بزخم كبير للضغط على من يحيط به للوصول إلى قرار يناسبه. حصل احتكاك وصدام كلامي معه بعد انضمامي للأمانة العامة، بسبب محاولته تمرير قرارات بطريقة الدفع بقوة، وشعرت بضرورة الدفع المضاد لتهدئة الأوضاع قليلاً. وانتهت التصادمات بعدما وضعتُ قانون إدارة الجلسات، واتخاذ القرارات بتكليف من الأمانة العامة للمجلس، وقمت بعرضه على الهيئة التي صوتت على قبوله واعتماده. كان طيفور يفضل القيادة من الخلف، وكان داعماً لبرهان، لكنه لم يعطه فسحة كافية للقيادة، ولم يسع برهان إلى الحصول على تلك الفسحة عبر التعاون مع كتل المجلس السياسية. وبقدر تعاون طيفور مع القوى السياسية المختلفة إلا أنه كان رافضاً التعاون مع التيار الوطني، والأعضاء المتقاربين معه في الخط السياسي رغم تقاطع رؤيتهم السياسية العامة، وهو موقف اشترك فيه مع مجموعة أحمد رمضان وعبيدة النحاس بقوة.

بعد تجاذبات عديدة بين إعلان دمشق الممثل بسمير نشار وجورج صبرا، استقال برهان غليون من رئاسة الائتلاف في اجتماع الهيئة العامة يوم

19 أيـار (2012). وتـم تشـكيل «لجنـة اسـتحقاق رئـاسي»، نظمـت الانتخابـات في 10 حزيـران، وانتخـب عبـد الباسـط سـيدا رئيسـاً للمجلـس. انتخـاب رئيـس جديـد لم يغـير شـيئاً في عمـل المجلـس؛ لأن المجلـس كان يقـاد جماعيـاً مـن خـلال المكتـب التنفيـذي الـذي كان يقيـد عمـل الرئيـس؛ الـذي لم يكـن يسـتطيع اتخـاذ قـرار دون موافقـة أعضـاء المكتـب. كان المكتـب التنفيـذي يمثـل بصـورة رئيسـية المكونـات التاليـة:

1- إعلان دمشق ويمثله سمير نشار.

2- الإخوان المسلمون ويمثلهم محمد فاروق طيفور.

3- الحراك الثوري ويمثله مطيع البطين.

4- المنظمة الآثورية الديمقراطية ويمثله عبد الأحد اسطيفو.

5- الكتلة الكردية ويمثلها عبد الباسط سيدا.

6- مجموعة العمل الوطني ويمثلها أحمد رمضان.

7- كتلة المستقلين ويمثلها برهان غليون.

8- مقعد المرأة وتمثله بسمة قضماني.

9- الكتلـة الوطنيـة المؤسسـة التـي انضمـت إلى المكتـب التنفيـذي خـلال الاجتـماع ويمثلهـا خالـد الصالـح.

ولكـن بقـي التـوازن مائـلاً باتجـاه الحلـف القـوي بـين الإخـوان والإعـلان. المكتـب التنفيـذي المكـون مـن الكتـل السـابقة كانـت ممثلـة بشـخص واحـد، باسـتثناء إعـلان دمشـق الـذي مثلـه سـمير نشـار وجـورج صـبرة، والإخـوان المسـلمون الذيـن مثلهـم فـاروق طيفـور ونذيـر الحكيـم، وبدعـم واضـح مـن مجموعـة العمـل الوطنـي التـي يقودهـا أحمـد رمضـان القريـب مـن الإخـوان. كان ممثلـو الإخـوان والإعـلان يشـكلون الأغلبيـة في الهيئـة، وكان تحالفهـم القـوي سـبباً في إبقـاء قـوى ناشـطة رئيسـية مـن قـوى المعارضـة خـارج المجلـس. التنـازع المتزايـد داخـل مجموعـة إعـلان دمشـق أعطـى الإخـوان اليـد الطـولى، ومكـن قيادتهـم مـن الحصـول عـلى أصـوات داعمـة مؤكـدة.

بـدأت فكـرة تشـكيل كيـان سـياسي جديـد تنضـج مـن خـلال شـخصيات قياديـة في المعارضـة تـم اسـتبعادها مـن قيـادة المجلـس الوطنـي، بعـد تمكـن ممثـلي الإخـوان وإعـلان دمشـق مـن السـيطرة عـلى مكتبـه التنفيـذي. كان في مقدمـة هـؤلاء ريـاض سـيف وكـمال اللبـواني ووليـد البنـي وعـماد الديـن رشـيد. كـما دعـت المجموعـة ريـاض حجـاب للانضـمام إليهـا. وكان حجـاب قـد أعلـن انشـقاقه عـن النظـام مـن مـدة قريبـة، وكان رئيـس الـوزراء السـوري في حكومـة بشـار الأسـد، لكنـه فضـل الانشـقاق والخـروج مـن سـورية عـلى الاسـتمرار في دعـم نظـام تـورط في صراع دمـوي مدمـر. دفـع الجهـد الخارجـي، والانتقـادات مـن الـدول الداعمـة، المجلـس إلى اتخـاذ قـرار تشـكيل لجنـة إعـادة هيكلـة المجلس خـلال اجتـماع الهيئـة العامـة. وبعـد مشـاورات صوتـت الهيئـة عـلى تشـكيل لجنـة مشـتركة تمثـل مكونـات المجلـس الرئيسـية، إضافـة إلى مستشـارين ضمـت ممثلـين عـن الكتـل الآتيـة:

1- إعلان دمشق ويمثله سمير نشار.

2- الإخوان المسلمون ويمثلهم محمد بسام يوسف.

3- الحراك الثوري ويمثله جمال الورد وحسين السيد.

4- المنظمة الآثورية الديمقراطية ويمثلها عبد الأحد اسطيفو.

5- الكتلة الكردية ويمثلها موسى موسى.

6- مجموعة العمل الوطني ويمثلها عبيدة نحاس.

7- الكتلة الوطنية ويمثلها عبد الرحمن الحاج.

8- كتلة المستقلون ويمثلها مروان حجو.

9- شخصيات وطنية ويمثلها بسام إسحاق.

وسـمي هشـام مـروة مستشـاراً قانونيـاً، وماهـر العيسـى مستشـاراً إداريـاً. وكلفـت اللجنـة بــ «دراسـة مقترحـات اللجـان المشـكلة سـابقاً، والمشـاريع الأخـرى المقدمـة لإعـادة هيكلـة المجلـس وتعديـل النظـام الأسـاسي، وتقديـم تصـور واحـد للأمانـة العامـة لمناقشـته واعتـماده، وذلـك في مـدة

أقصاها 25 حزيران 2012». وتضمن القرار فقرة تلزم المكتب التنفيذي باحترام قرارات اللجنة والتنفيذ الفوري لها.

زرت في 16 آب (2012) سنغافورة تلبية لدعوة من معهد الشرق الأوسط التابع لجامعة سنغافورة الوطنية، للمشاركة في حوار حول الصراع في سورية. قام بترتيب الزيارة أستاذ الدراسات الدولية جيمس دورسي، زميل أول في مدرسة راجاراتنام للدراسات الدولية، وشارك في الحوار رمضان دوروف مساعد مدير معهد الدراسات الشرقية التابع للأكاديمية الروسية للعلوم، والنائب التنفيذي لرئيس مركز موسكو الدولي للدراسات الاستراتيجية والسياسية. كان عنوان الحوار «الحرب في سورية: وجهات نظر متضاربة»، الذي أداره رئيس المعهد بيتر سلوغليت. حاولت توضيح طبيعة الصراع بتحليل الواقع الدولي المعقد الذي جذب قوى دولية وإقليمية إلى سورية في سعي للتأثير بوجهة الصراع وإدارته. وبيَّنت أن المطالب الشعبية التي قامت الثورة على أساسها دفنت تحت طبقات من التدخلات الإقليمية والدولية. محاوري الروسي تحدث عن علاقات حميمة بين روسيا وسورية، وأكد اهتمام روسيا بدعم حرية الشعب السوري. لم يكن ثمة حوار بسبب تهرب رمضان من تقديم تحليل سياسي منهجي، والاستعاضة عنه بخطاب دبلوماسي. حضر الحوار الصديق رضوان واو رئيس مؤسسة دار الأرقم، بعد ست سنوات على لقائنا السابق خلال زيارتي السابقة لسنغافورة. فكانت مناسبة للاطمئنان عنه وعن الأصدقاء في المجلس الإسلامي الأعلى. كما دعاني الصديق القديم فريد عطاس؛ أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة سنغافورا، إلى عشاء في منزله بصحبة جيمس دورسي. وتخلل زيارتي تقديم محاضرة في جامعة سنغافورة حول التطورات في سورية، حضرها عدد كبير من الطلبة. صحبتني زوجتي خلال الزيارة، مما أتاح لنا القيام بجولة في سنغافورة والتعرف على معالمها السياحية. وأمضينا قسماً كبيراً من جولتنا في حديقة سنغافورة النباتية الجميلة.

عكفت في هذا العام على مناقشة مسألة العلاقة بين الديني والسياسي في

كتاب أعددته للتعاطي مع مشكلة بدت واضحة في سياق الثورة السورية، مشكلة توظيف الإسلام لتحقيق غايات سلطوية سياسية. الكتاب، الذي صدر بعنوان (الحرية والمواطنة والإسلام السياسي)، تعامل مع المفاهيم الثلاثة المحورية في عنوانه. مسألة الحرية وأسبقيتها على مسائل الإيمان وارتباطها المباشر بالكرامة الإنسانية. والمواطنة وربط المسؤولية السياسية بالعلاقات التعاقدية التي تجمع أبناء الوطن على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم وعقائدهم وأديانهم، وتعطي العقد الاجتماعي الذي يجمعهم أولوية على العقدية الدينية. وأخيراً الحركات الإسلامية التي خلطت بين المسؤولية السياسية القائمة على قيم دينية، والعمل السياسي وفق ولاءات دينية صرفة. وقدم الكتاب، الذي نشر عام (2013)، محاولة جديدة لتوضيح فكرة الرؤية الإنسانية والحضارية الثاوية في رسالة الإسلام، والتي تدفع المؤمن بتلك الرسالة للتحرك في اهتماماته السياسية خارج دائرة انتماءاته الدينية، ونحو الدائرة الإنسانية الواسعة، والولاءات المرتبطة بعلاقات تعاقدية داخل المجتمع السياسي الذي يعيش فيه.

توسعة المجلس تقود إلى استبداله

أثيرت مشكلة عدم تمثيل المجلس لأطياف أساسية في المعارضة في لقاء الأمانة العامة الذي عقد في استوكهولم، نهاية شهر أيلول، بدعوة من الحكومة السويدية. وناقش الاجتماع جملة من القضايا التنظيمية وعمل على تشكيل لجنة رقابة مالية، وتبني قواعد لاتخاذ القرارات والمساءلة، وأثيرت مسألة الحكومة المؤقتة لتنظيم شؤون المناطق المحررة. وتم مناقشة آليات للتنسيق بين المكتب التنفيذي والمكاتب التخصصية. ولكن القرارات والتوصيات واللجان لم تؤدِّ مهامها بسبب التشرذمات الداخلية، ولأنها كانت مبنية على «صفقات» بين القوى المختلفة التي تقوم على مبدأ تمرير رغبات مشتركة للقوى الفاعلة في الهيئة، وغياب الأجهزة الرقابية. وبدا واضحاً أن الثقافة السياسية وطرائق العمل الموروثة التي تحاكي العلاقات والتفاهمات العشائرية هيمنت على عمل المجلس.

وافقت جهود البحث عن بديل للمجلس الوطني، التي قادها رياض سيف، هوى الدول الداعمة وفي مقدمتها تركيا وقطر لأسباب تتعلق بضعفه التنظيمي، كما وافقت هوى دول أخرى شعرت بهيمنة الاتجاه الإسلامي بصورة عامة على المجلس، والحاجة لتحقيق توازن لصالح الاتجاه الليبرالي. وبدأت التصريحات الرسمية تتوالى حول عجز المجلس عن تمثيل المعارضة السورية، والحديث عن الإعداد لجسم جديد. ويبدو أن مجموعة العمل الدولية المتابعة للشأن السوري كلفت في لقاء لها، صيف ذاك العام، حكومة قطر للعمل على تنظيم عمل بديل. وحددت الحكومة القطرية موعداً لاجتماع أعدته مع ممثلين لقوى المعارضة في الدوحة في نهاية العام، بعد يوم واحد من انتهاء اجتماع الهيئة العامة الذي استضافته قطر أيضاً ذاك العام. في تلك الأثناء بدأت لجنة التوسعة اجتماعاتها برئاسة نذير الحكيم؛ والتي فاجأت الجميع بزيادة أعضاء الهيئة العامة من 150 إلى 664 عضواً. علمت بالتوسعة أثناء حضوري أحد اجتماعات لجنة التوسعة فصعقت. قلت للجنة: إن التوسعة هذه ستجعل عدد ممثلي المعارضة يتجاوز بمئتين وخمسين عضواً عدد أعضاء مجلس النواب والشيوخ الأمريكيين مجتمعين. المفارقة المضحكة في الزيادة تتضح أكثر عندما نلاحظ أن المعارضة السورية متفرقة في دول الشتات، وأن ميزانيتها التشغيلية لا تكاد تكفي لسداد احتياجات خمسة موظفين، وتفرغ بعض أعضاء المكتب التنفيذي، بينما أعضاء الكونغرس يمثلون 400 مليون مواطن أمريكي، وتمتلك دولتهم ميزانية هائلة.

وتبين لي، من خلال استيضاح كيف وصل العدد إلى هذا الحد، أن أعضاء في المكتب التنفيذي تدخلوا بإضافة لوائح مما ضاعف الأعداد التي اقترحتها اللجنة. ناقشت الموضوع بعد عودتي من قيادات الكتلة الوطنية، وقدم عبد الرحمن ممثل الكتلة في اللجنة توضيحات إضافية، واتفقنا على إصدار بيان نرفض فيه التوسعة بالشكل الذي وصلت إليه. وطالب البيان الذي صدر في مطلع تشرين الأول (2012) بمطالب أربعة هي:

1- اعتبار جميع الزيادات التي قام بها أعضاء المكتب التنفيذي لاغية إلّا ما تقرُّه اللجنة.

2- إعادة النظر في جميع الإضافات، واعتماد قاعدة أن الزيادة يجب أن تكون مشروطة بالفائدة في تمثيل حقيقي لقوى فاعلة غير ممثلة، أو ممثلة بشكل ضعيف في المجلس الوطني، وبشكل خاص الحراك الثوري في مؤسساته وتنظيماته الفاعلة ميدانياً، والمكونات السياسية ذات الأهمية.

3- دعوة لجنة إعادة الهيكلة إلى اجتماع عاجل في موعد أقصاه يوم السبت 13 تشرين الأول (2012) في اسطنبول؛ لإعادة النظر في القوائم وترشيقها إلى أدنى حد ممكن.

4- دعوة الأمانة العامة والهيئة العامة القديمة فقط لمناقشة الزيادات والنسخة النهائية للنظام الأساسي، وانتخاب أمانة عامة ومكتب تنفيذي، ورئيس مجلس ومكتب إداري للهيئة العامة وهيئة رقابة داخلية.

استجاب المكتب التنفيذي لمطالب تجميد التوسعة بالشكل المقترح، وحصر الحدَّ الأعلى للزيادة بحدود 300 مدعو، بعد تزايد الضغوط عليها من باقي الكتل. واجتمعت الهيئة العامة الموسعة بعد ترشيقها، والتي لم تتجاوز 350 شخصاً في الدوحة، في الفترة من 4 إلى 7 تشرين الثاني (2012)، وانتخبت أمانة عامة وهيئة تنفيذية جديدة. ونظمت الانتخابات واستغرقت يوماً كاملاً، وجاءت النتيجة مفاجئة في كثير من جوانبها. فمن جهة زاد عدد الشباب والسيدات ضمن الهيئة العامة الجديدة، لكن الانتخابات استبعدت بعض قيادات المعارضة المعروفة من المكتب التنفيذي والأمانة العامة، مثل جورج صبرا ومنذر ماخوس. وتم إعادة جورج إلى المكتب التنفيذي من خلال تنحي واصل الشمالي، عضو الحراك الثوري، لصالحه. ضَمُّ منذر ماخوس إلى المكتب التنفيذي، عن مقعد خصص للأقليات، أشعره بالحرج لأنه كان رافضاً لتنظيم المعارضة على أساس الانتماء الطائفي والعرقي. تم مناقشة فكرة تأسيس الائتلاف خلال اجتماعات المجلس الوطني، ولكنها لم تلق القبول بين أعضائه. وسعى رياض سيف، الذي كان شديد الحماس لتأسيس الائتلاف، إلى عقد لقاءات مع عدد من قيادات المجلس.

انتهى اجتماع المجلس الوطني لتبدأ اجتماعات بين وفد يمثل المجلس الوطني والمسؤولين القطَريين الممثلين برئيس الوزراء آنذاك حمد بن جاسم آل ثاني، ووزير الشؤون الخارجية خالد العطية، الذي تولى الملف السوري، ولعب دوراً رئيسياً في دعم الائتلاف. كان العديد من قيادات المجلس رافضة لفكرة تشكيل كيان جديد، وفي مقدمتهم إعلان دمشق والإخوان تخوفاً من فقدان الهيمنة على الكيان الجديد. جهود التوسعة أثارت قلقي بسبب تزايد عدد ممثلي الإخوان في المجلس، وتجربتي الأخيرة التي أظهرت أنهم يتعاملون مع المكونات الأخرى بوصفهم زملاء لا شركاء. شعرت بأن التوسعة حققت عكس الأهداف المرجوة منها، وبالتحدد توسيع دائرة تمثيل الطيف السياسي. لكنني كنت في الوقت نفسه أخشى تقلبات العديد من رواد البحث عن بديل. استمرت الاجتماعات مع القادة القطريين على مدى يومين، تلقت قيادة المجلس الوطني وعوداً كبيرة كان من الصعب تجاهلها. تم الحديث - على سبيل المثال - عن خطة متكاملة لإرغام النظام على التفاوض على الحل السياسي وفق بيان جنيف الصادر عن «مجموعة العمل الدولية من أجل سورية». كما تم الحديث عن تخصيص مبلغ ملياري دولار لمساعدة السوريين داخل البلاد وخارجها. وتأكيدات أن الأزمة ستنتهي خلال شهرين على أقصى حدٍّ، حال توحد المعارضة السورية من خلال الائتلاف الوطني السوري، الذي وضع نادي الأعمال هيكليته الأساسية، وقامت قطر باستخدام ثقلها في دعم الثورة لجذب عدد من المعارضين السوريين المعروفين لحضور المؤتمر التأسيسي، الذي كان من المفترض أن يبدأ في اليوم التالي لانتهاء لاجتماع المجلس، ثم أُجِّل ثلاثة أيام لإقناع قيادة المجلس بالانضمام إليه. اجتمع الوفد - الذي كنت أحد أعضائه - على انفراد يوم الأربعاء في العاشر من شهر تشرين الثاني، وبعد مداولات جرى تصويت مؤيد لقرار الانضمام إلى الائتلاف، مع الإبقاء على المجلس ممثلاً لقوى المعارضة التي لم يمثلها الائتلاف. كان الائتلاف جسماً رشيقاً بالقياس إلى المجلس، يتكون من 63 عضواً، تم إعطاء المجلس 22 مقعداً منها. واختار المجتمعون ممثلين للمجلس في الائتلاف.

التحق أعضاء المجلس في صباح يوم الخميس 11 تشرين الأول بالاجتماع الموسع للمعارضة، في قاعات المؤتمرات التابعة لفندق شيرتون في العاصمة القطرية. وكان الاجتماع قد بدأ بصورة غير رسمية قبل يومين من التحاقنا به. وتم الاتفاق على اسم اقترحه برهان غليون وعدل قليلاً أثناء النقاش. وجرى التوقيع في ذلك اليوم على وثائق الانضمام، والتوقيع على النظام الداخلي بالأحرف الأولى، نظراً لعدم اطلاع الحضور على نصه، مع وعد بتعديله لاحقاً. كانت علامات الارتياح بادية على الجميع لانضمام المجلس للائتلاف. وتحول المجلس مباشرة إلى قوة مؤثرة ليشكل الكتلة الأكبر داخل الائتلاف. جرت انتخابات في اليوم التالي ولم يترشح أحد من المجلس لرئاسة الائتلاف، وحصل أحمد معاذ الخطيب على كامل أصوات الأعضاء، وانتخب جورج صبرا نائباً للرئيس، ومصطفى الصباغ، الذي لعب دوراً مهماً في تشكيل الائتلاف ووضع وثائقه، أميناً عاماً.

خلط التجارة والسياسة

كنت منفتحاً في بدء تشكيل الائتلاف للتعاون مع مصطفى والمجموعة المحيطة به، وبشكل خاص وائل مرزا ونجيب الغضبان. ورغم مرارة التجربة الأولى مع وائل ونجيب فقد كنت مستعداً لتناسيها من أجل خدمة جهود وقف الصراع العسكري، والوصول إلى حلٍّ سياسي يضع البلاد على بداية العملية الانتقالية، وينهي معاناة الشعب السوري. ولم يكن لدي تحفظ على الفريق الذي كان يقوده مصطفى، ولا على قدرات مصطفى التنظيمية. لكنني لم أكن أرى أن خبرته السياسية تسمح له بتصدر المعارضة، وكنت أفضل أن يتحرك ضمن دائرة خبراته، بوصفه رجل أعمال ناشط في دعم الثورة، وتأمين قاعدة من الخبرات لدعم تحركاتها. جلست مع مصطفى بعد الانتخابات وتحدثنا بالتفصيل عن الخطوات المطلوبة، ونصحته بدعم جهد تعديل النظام الداخلي، والتراجع عن الخطة التي ناقشها معي حول الدور الذي أراد لعبه من خلال موقع الأمين العام. كان النظام الداخلي الذي وضعه يعطي الأمين العام سلطات تزيد عن سلطات الرئيس. كان هدف

مصطفى منذ البداية التحكم بالمجلس من خلال مكتب الأمين العام الذي اختار الترشح إليه، ودخل في صفقات وتفاهمات مع أعضاء الائتلاف، خاصة كتلة مجالس المحافظات التي نظمها ووفر لها التمويل، وتلقى دعماً كاملاً في الانتخابات السريعة والمفاجئة لأعضاء المجلس. كان الجميع يظن عند انتخاب الرئيس أنه سيتمتع بصلاحيات رئيس فعلي، لكن النظام الداخلي الذي أعدَّه مصطفى أعطى الرئيس سلطات شكلية، بوصفه رئيس الهيئة العامة للائتلاف، وأعطى الأمين العام جميع الصلاحيات التنفيذية. سألته في لقائنا:

- كيف ترى دور الأمين العام للائتلاف؟

فأجاب بوضوح مبيناً رؤيته لعمل الأمين العام دون تردد:

- الأمين العام في الائتلاف يكافئ عمل رئيس مجلس الإدارة في شركة تجارية.

أدركت أن مصطفى ليس له معرفة بالاختلافات الجوهرية بين قيادة مؤسسة تجارية ومؤسسة سياسية، فقلت:

- لكن الائتلاف ليس شركة تجارية بل هو جسد سياسي، ولا يمكن قيادة جسد سياسي وفق نموذج رئيس مجلس الإدارة. القرار السياسي يحتاج إلى توليد توافق بين الآراء للحفاظ على وحدة الكيان السياسي.

لم يقتنع مصطفى بجوابي فأردف:

- هذه الطريقة الأفضل لتجاوز عيوب المجلس.

شعرت مرة أخرى أن مصطفى يستقي دروساً خاطئة من تجربة المجلس، فأوضحت:

- مشكلة المجلس اعتماده على نموذج القيادة الجماعية، والخروج منه يتطلب انتخاب رئيس يمتلك صلاحيات تنفيذية. لكن النظام الداخلي للائتلاف يحجب هذه الصلاحيات عن الرئيس ويمنحها للأمين العام.

عاد ثانية لتأكيد قناعته في إمكانية تحويل الرئيس إلى واجهة سياسية لعمل الأمين العام:

- الرئيس يقوم بالمهام السياسية ولكن المهام التنفيذية من صلاحيات الأمين العام، وهذا يجعل الائتلاف أكثر فعالية.

أردت مرة أخرى أن أبين احترام العلاقة التراتبية بين الرئيس والأمين العام.

- يمكن تكليف الأمين العام بمسؤوليات تنفيذية طالما بقيت سلطاته دون سلطات الرئيس.

خرجت من لقائي مع مصطفى وأنا أدرك أن إصراره على ترأس عمل الائتلاف والمعارضة سيولد مشكلات كبيرة. ورجوت أن يراجع الكلام مع نفسه بعد مغادرتي، وأن يناقشه مع فريقه. بعد شهر من لقائنا هذا علمت من نجيب غضبان، وعمار القحف، عن اجتماع يضمهما ومصطفى ووائل في فندق الشيراتون في الدوحة. تواصلت معه ودعوته وفريقه للقاء نناقش فيه التطورات السورية والتعاون ضمن الائتلاف بحضور أديب الشيشكلي. فاقترح موعداً للقاء، ثم اتصل معتذراً عن الاجتماع بسبب مشاغله وارتباطاته.

لم يلبث الموقف الذي اتخذه مصطفى منذ اللحظة الأولى لتشكيل الائتلاف، وربما منذ لحظات سابقة تعود إلى لقائي الأول به، أن تحول إلى عامل استقطاب داخل الائتلاف. هل كان المشهد الذي بدأ يتفتق مع تأسيس الائتلاف هو الذي عمل عليه مصطفى منذ اللحظات الأولى لالتحاقه بالمعارضة؟ هذا أمر أرجحه ولا أستطيع أن أجزم به. ما أستطيع الجزم به أن مخاوفي حول مقاربة مصطفى للعمل السياسي، وتصوره لإمكانياته ودوره تحولت خلال أشهر قليلة إلى حقائق، قادت في النهاية إلى تشرذم الائتلاف وإضعاف دوره، وتفشيل العديد من خططه. بدأت المشكلات خلال الأشهر الأولى من عمل الائتلاف من النقطة التي حذرت مصطفى منها؛ فقد ساءت العلاقة بين مكتبي الرئيس والأمين العام، في الوقت الذي يحتاج الائتلاف لتعاونهما للنجاح في مهمته. فقد شعر معاذ الخطيب بسرعة أنه لم يكن قادراً - بوصفه الرئيس - على توجيه الأمين العام، بل احتاج إلى موافقة الأمين العام لاتخاذ القرارات التي يحتاج

إمضاؤها إلى تكاليف مالية! وكانت معرفتي بمعاذ تعود إلى عقد سابق على تعاوننا ضمن الائتلاف، وإلى لقاء جمع بيننا في دمشق تعرفت على نشاطه، وكان آنذاك خطيباً للجامع الأموي في دمشق، فقدم لي قرصاً يحمل خطبه السابقة، وحدثني عن إعجابه بكتاب (**إعمال العقل**) الذي صدر في نهاية التسعينيات عن دار الفكر. وكان يصارحني بالمتاعب التي يواجهها، خاصة في قضايا الصرف التي تحكم بها مصطفى. فكان على سبيل المثال يرفض زيادة عدد المساعدين في مكتب الرئيس، في الوقت الذي يقوم بتوظيف عدد كبير من المساعدين الإداريين والمستشارين لمساعدته ودعمه.

حدث الصدام الكبير في الأشهر الأولى من عام (2013)، بعد عودتي ومعاذ من لقاء مع أحمد داود أوغلو في مدينة اسطنبول، ضم الهيئة السياسية للائتلاف التي انتخب لعضويتها في مطلع عام (2013). التقينا بمصطفى وبعض أعضاء الائتلاف، وكانوا لتوِّهم خارجين من اجتماع مع مبعوث الأمم المتحدة وسفراء لدول مجموعة العمل الدولية. سأل معاذٌ مصطفى عن سبب إخفاء الاجتماع عنه، فأجابه مصطفى بأن رسالة الدعوة أرسلت من الخارجية التركية إليه بالطريقة نفسها التي أرسلت إلى رئيس الائتلاف، وحَمَّل معاذاً مسؤولية عدم التنبُّه إلى رسائله. أثار الموقف غضب معاذ الذي تحدث معه بحدة معبراً عن أسفه لطريقة تعامل الأمين العام مع الرئيس، ثم ابتعد عن مصطفى. استغربت هذه الطريقة في التعامل، فأخذت مصطفى جانباً وطلبت منه أن يتجاوز الصلاحيات التي وضعها في النظام الداخلي، ويدرك أن الأمين العام في أي مؤسسه سياسية أو خدمية يحتاج للعمل مع الرئيس لا منافسته، وأن هذه الطريقة في العمل تهدد مستقبل الائتلاف، وتضعف من احترام المؤسسات السياسية التي يتعامل معها. ولكن كلامي هذا لم يزد مصطفى إلا تصميماً على المضي فيما وطد نفسه عليه.

اتخذ الائتلاف في مطلع عام (2013) قراراً بتشكيل حكومة مؤقتة لإدارة المناطق المحررة وتقديم الخدمات لسكانها، بعد خروج محافظات الرقة وإدلب ودرعا والقنيطرة من سلطة النظام، إضافة إلى العديد من القرى في ريف حمص وحماة وأجزاء واسعة من محافظة دير الزور. ونُظمت انتخابات

لتحديد رئيس الحكومة في 18 من شهر آذار، حصل خلالها غسان هيتو على 35 من أصل 62 صوتاً. جرت الانتخابات في أجواء من التوتر؛ نجمت عن رفض مصطفى وفريقه الذي دعم غسان هيتو، والذي تكون بصورة أساسية من ممثلي اللجان المحلية بالإضافة إلى تحالف الإخوان وإعلان دمشق، تأجيل الانتخابات إلى اليوم التالي لإتاحة الفرصة لبقية أعضاء الائتلاف الذين لم يكونوا على معرفة بغسان بسبب إقامته الطويلة خارج سورية. كان الطلب محقّاً ومعقولاً، ولم يكن يحتاج سوى إلى تأخير يوم واحد، لكن مصطفى وحلفاءه رفضوا الطلب بمنتهى الغرور، ودفع بالانتخابات قدماً رغم الاعتراض الذي سجله عدد كبير من أعضاء الائتلاف. بعد قراءة نتائج الانتخابات سارعت المجموعة المعترضة إلى تعليق عضويتها في الائتلاف، وشملت كمال اللبواني، وأحمد الجربا، ومروان حجو، وبرهان غليون، ووليد البني، وسهير الأتاسي، وريما فليحان، وقاسم الخطيب، والتيار الليبرالي برمته. هذا الانسحاب وضع الائتلاف في حالة من الجمود والفوضى لأشهر عديدة، وخلال فترة حاسمة من مراحل الثورة، تمكنت خلالها داعش من ملء الفراغ السياسي الذي خلَّفه غياب مؤسسات المعارضة عن المناطق التي خرجت عن سلطة النظام. وأظهر هذا الشرخ بطبيعة الحال استحالة إدارة مؤسسة سياسية على طريقة إدارة الشركات، والاكتفاء باتخاذ القرارات، وتوقع أن ينفذ أعضاء الائتلاف قرارات الأمين العام بالطريقة التي ينفذ فيها موظفو الشركة قرارات رئيس مجلس الإدارة.

انتخبت في تلك الأثناء لعضوية الهيئة السياسية، واطلعت بصورة أقرب على مشكلات الائتلاف المركبة، وفي مقدمتها الفوضى المالية. رفض مصطفى مرات عديدة تقديم الميزانية والكشوف المالية للهيئة السياسية؛ بحجة أنها لا تملك صلاحيات تنفيذية وأن دورها استشاري. الادِّعاء لم يكن صحيحاً؛ لأن الهيئة السياسية انتخبت لتكون بديلاً عن الهيئة العامة بين اجتماعاتها التي كانت تتكرر مرة واحدة كل شهر أو شهرين، وفق قرار التكليف الذي صوَّت عليه الأعضاء. أضِف إلى ذلك أن الهيئة العامة لم تكن تمتلك الوقت للتدقيق في الميزانية؛ بسبب كثافة البنود على ورقة عملها،

واقتصـار اجتماعهـا لمـدة ثلاثـة أيـام إلى أربعـة. بهـذه الطريقـة لم يكـن مكتـب الأمـين العـام خاضعـاً لأي نـوع مـن أنـواع المسـاءلة، وأسـس هـذا السـلوك لتقليـد استـمر خـلال رئاسـة أحمـد الجربـا، وربـما الفـترات اللاحقـة التـي أعقبت اسـتقالتي. غيـاب الشـفافية والرقابـة الماليـة تعلـق أيضـاً بمشـكلة تداخـل وجهـة التحويـلات ومصـادر المـال الممنـوح؛ إذ كان مـن الصعـب معرفـة أيـن تذهـب المسـاعدات الدوليـة، وفي أي حسـاب كانـت توضـع. أذكـر أن الأمـين العـام قـام بتوزيـع مبالـغ ماليـة عـلى المجالـس المحليـة؛ التـي كانـت تتبـع نظـراً لعلاقاتـه الشـخصية مـع ممثليهـا، ولأنـه هـو مـن أحضرهـا إلى الائتـلاف. وكان يحـول إليهـا مبالـغ الدعـم المـالي. كان المبلـغ الـذي وزع منحـة مقدمـة مـن الحكومـة القطريـة كـما أخبرنـا في لقـاء سـابق. ولكـن في اجتـماع جـرى صيـف عـام (2013) أنكـر أن المبلـغ قـدم مـن الحكومـة القطريـة، وادَّعـى أنـه مبلـغ تـبرع بـه نـادي الأعـمال الـذي يترأسـه. جـاء هـذا التغيـير في مصـدر الأمـوال بعـد مناقشـة حاميـة في الهيئة العامـة اعـترض فيهـا بعـض الأعضـاء عـلى قيـام الأمـين العـام بتوزيـع المـال دون الحصـول عـلى موافقـة الهيئـة. هـذا الخلـط بـين المـال العـام والخـاص، تكـرر لاحقـاً بعـد تـولي أحمـد الجربـا الرئاسـة، وبـدأ بتلقِّـي أمـوال المسـاعدات مـن السـعودية. فقـد أدى التقليـد الـذي رسـخه مصطفـى خـلال إدارتـه للائتـلاف إلى اسـتمرار الخلـط بـين الحسـاب الخـاص والعـام، وغيـاب الرقابـة الماليـة عـلى الـوارد والصـادر.

استقطاب وطني وتمويل السياسي

سـعى التيـار الليـبرالي إلى زيـادة عـدد ممثليـه في الائتـلاف مـن خـلال إصراره عـلى توسـعته، وسـعى إلى إقنـاع الـدول الفاعلـة في المسـألة السـورية بالضغـط عـلى قيـادة الائتـلاف، التـي انتقلـت بعـد اسـتقالة معـاذ الخطيـب مـن رئاسـته إلى نائبـه جـورج صـبرا. في نهايـة الصيـف تـم توسـعة الائتـلاف لتشـمل خمسـة عـشر عضـواً جديـداً، أذكـر منهـم عليـاء منصـور، وبسـام الملـك، ومنـذر آقبيـق، وميشـيل كيلـو، وهـادي البحـرة، وموفـق نيربيـة، وفايـز سـارة، وزكريـا صقـال، ومحمـد الدنـدل، وأنـس العبـدة، ونـورا الأمـير. مـع انتهـاء عمليـة التوسـعة بـدأ

الإعداد لانتخابات جديدة. وبسرعة شرع كل من أحمد الجربا ومصطفى صباغ إلى اكتساب الدعم، وبدأت الاصطفافات تتشكل وفق محورين، ثم تنامت لتشكل حالة استقطاب داخل المجلس. لم أكن شخصياً متحمسًا للمرشحَين لانعدام الخبرة السياسية لديهما، واعتماد الطرفين على المال السياسي لاستقطاب الداعمين. حضرت إلى اسطنبول قبل بدء الانتخابات بأسبوع بإلحاح من الصديقين عبد الرحمن الحاج وهشام مروة. اجتمعت بممثلي المجلس الوطني في الائتلاف، وظهرت لي حالة الانقسام الواضحة بين التيار والحراك الثوري الداعم لمصطفى والإخوان، وإعلان دمشق الداعم لأحمد. تكلمت في الاجتماع عن خيبة أملي في الخيارات المتاحة، وطلبت من الحضور البحث عن خيار ثالث، واقترحت برهان غليون. أكد لي الحضور أن برهانَ رفض الترشح، واقترح الحضور اسم جورج، واسمي كمرشح ثالث بديل، وطلبوا من كلينا الجلوس معاً لبحث الموضوع؛ مَن منا أكثر استعداداً لخوض الانتخابات. لم يكن جورج مرتاحاً للاصطفافات، وأبدى لي شكوكه بضمان تصويت الأعضاء، وأن كلا الفريقين قد عقدا صفقات تفاهم مع المرشحين المتنافسين.

اقترح عبد الرحمن أن أرشح نفسي في الانتخابات، وأقنعني بأن هناك تأييداً واسعاً لترشيحي، وأن التيار والحراك أبديا استعداداً لدعمي. وأخبرني أصدقاء من داخل التيار الديمقراطي إلى وجود سخط لدى عدد من أعضائه بسبب إصرار رئيسه ميشيل كيلو على ترشيح أحمد للرئاسة. لم أكن متحمساً للترشيح، كنت أفضل البقاء في دائرة ترشيد عمل الائتلاف، ودعم الجهود التي تدفع به إلى الأمام. لكنني لم أكن راضياً عن الخيارين المتاحين، وشعرت بواجب البحث عن بدائل. طلبت من عبد الرحمن ترتيب لقاء مع بدر جاموس، وكان آنذاك ممثلاً للتيار الوطني في الائتلاف، والذي أبدى حماساً ودعماً لترشحي. كما تبادلت الرأي مع عدد كبير من أعضاء التيار الديمقراطي، ومنهم بسام يوسف وموفق نيربية، وأكدوا دعمهم لترشيحي واستعدادهم للتصويت لصالحي. بعد أيام من إضافة اسمي للائحة المرشحين بدأت تتضح حقيقة الدعم الذي تلقيته؛ فقد صارحني

بعض أعضاء التيار الوطني؛ الذي وعد رئيسه عماد الدين الرشيد بتصويت التيار لصالحي؛ بأن القرار داخل التيار هو دعم مصطفى. وتأكد لي صدق الخبر بعد لقائي مع بدر جاموس الذي أخبرني أن التيار لم يتخذ قراراً بدعم مصطفى، ولكنه أضاف أنه لا يشعر بالثقة في اختياري للرئاسة في تلك المرحلة «لأن سقف معارضتي للنظام منخفض!». واكتشفت كذلك في لقاء جمعني بأحمد أن موفق نيربية قد أكد التصويت لصالحه هو التزام بقرار التيار الديمقراطي، وأنه أخذ تعهداً خطياً منه بذلك. وعند مواجهة موفق بذلك الحوار لم ينفه، وأعلمني بأن ضغوطاً شديدة مورست عليه من قِبَل التيار للتصويت لأحمد.

أخبرت عبد الرحمن الذي كان يدير الحوارات مع الكتل حول ترشيحي عن موقف بدر وموفق نيربية، فأبدى استغرابه من تلك التطورات. عندئذ قررت أن أدعو أحمد ومصطفى إلى التنازل لبرهان غليون عن الرئاسة. وافق أحمد على فعل ذلك إذا تخلى مصطفى عن الترشيح، لكن مصطفى أصرَّ على المضي بترشيحه، مؤكداً لي أنه يمتلك الأصوات الضرورية للفوز. أدركت قبل بدء الانتخابات أن النتيجة محسومة لأحدهما، ولكنني بعد التشاور مع أعضاء من الكتلة الوطنية قررت الاحتفاظ باسمي مرشحاً؛ لإظهار الحالة المزرية التي وصلت إليها المعارضة بالاصطفاف خلف رجلين تميزا بالتحرك باسم دولتين إقليميتين، وامتلاكهما دعماً مالياً كبيراً منهما.

جرت الانتخاب يوم 3 تموز (2013)، وفاز أحمد الجربا بـ 65 من أصل 120 صوتاً، أدلى بها الأعضاء، وبفارق عدد قليل من الأصوات. مما عكس انقسام الائتلاف، وتحول المشهد بعد الانتخابات من حالة استقطاب إلى حالة انقسام في الائتلاف. رفضت مجموعة مصطفى وحلفاؤه المشاركة بأعمال الهيئة العامة، وقرروا المقاطعة. استنكرت موقف المقاطعة، وذهبت إلى القاعة التي كانت تجمعهم بعيداً عن قاعة اجتماع الهيئة لأطلب منهم العودة إلى قاعة اجتماع الهيئة، مذكراً إياهم بأن الالتزام الديمقراطي يتطلب القبول بالنتائج طالما بقيت الانتخابات حرة ونزيهة. عاد الجميع في اليوم التالي إلى قاعة الاجتماع، واستأنفت الهيئة العامة مداولاتها، وقامت بانتخاب

الهيئة السياسية الجديدة. لكن المناكفات استمرت وأخذت بُعداً جديداً في الأسابيع والأشهر التالية. تحولت كتلة مصطفى إلى كتلة تعطيلية. وسعت إلى تعطيل قيام حكومة مؤقتة جديدة بعد استقالة غسان من منصب رئاسة وزراء الحكومة المؤقتة، بعد اقتناعه بعدم توفر الأصوات الكافية لإعطاء الثقة للحكومة التي شكلها، ولكنها لم تمارس عملها بسبب انشغال الائتلاف بالتوسعة والانتخابات الرئاسية. وكنت طلبت من غسان التواصل معي بعد لقائي بالمصادفة في «استديوهات» تلفزيون أورينت في اسطنبول مع لؤي المقداد المتحدث آنذاك باسم الهيئة العامة للأركان، والمقرب من أحمد الجربا والتيار الديمقراطي. صارحني المقداد بأن سبب رفض أعضاء التيار الديمقراطي لحكومة هيتو لا تتعلق به، ولكن بسبب قربه من مصطفى، ولاعتقاد أعضاء التيار بأن الأخير يتحكم بالقرارات ويسعى لملء الحكومة بوزراء قريبين منه. وكان مصطفى قد عين وائل مرزا وياسر تبارة مستشارَين لهيتو. اتصل بي غسان فنقلت له الحديث الذي سمعته من لؤي المقداد، ودعوته لترك مسافة من مصطفى والتواصل مع التيار الديمقراطي للتفاهم معهم. لكنه صارحني بأن علاقته بمصطفى عميقة، وأنه ليس بصدد المساومة على تلك العلاقة. فقلت له: أتفهم قرارك وأحترم موقفك، فقط أردت أن أضعك في الصورة لفهم ما يجري واتخاذ القرار السليم. وفعلاً لم تمض أيام قليلة على انتخاب الجربا حتى قدم غسان استقالته.

أعيد انتخابي في الهيئة السياسية في منتصف شهر تموز في اجتماع الهيئة العامة الموسعة، التي ضمت فايز سارة، وبدر جاموس، وميشيل كيلو، وعبد الباسط سيدا، وموفق نيربية، وكمال اللبواني، وهادي البحرة، وأنس العبدة، وفايز سارة، ومنى مصطفى، وزكريا صقال، ونذير الحكيم، وأكرم العساف، ومنذر ماخوس، وأحمد رمضان، وحصلت على أعلى نسبة من الأصوات بين أعضاء الهيئة المنتخبين. وباستثناء ميشيل كيلو وزكريا صقال، فقد كنت على معرفة سابقة بالأعضاء. معرفتي بميشيل حتى تلك اللحظة اقتصرت على المشاركة في نقاشات تلفزيونية، وإطراء وحيد صدر منه خلال تبادل سريع بيننا هنأته فيه على انضمامه إلى الائتلاف. ولعل سبب الإطراء

يعـود إلى موقفـي المتعـاون مـع أحمـد الجربـا بعـد نجاحـه في الانتخابـات، ورفـضي موقـف كتلـة المجالـس المحليـة والحـراك الثـوري الراغبـة في مقاطعـة جلسـات الهيئـة. فقـد شـهد قبـل الانتخابـات بأسـبوع تبـادل حـاد بيننـا في اجتـماع جمـع ممثلـين عـن كتلـة المجلـس الوطنـي والكتلـة الديمقراطيـة. مثلـتُ كتلـة المجلـس إلى جانـب فـاروق طيفـور وعبـد الأحـد اسـطيفو، ومثـل الكتلـة أحمـد الجربـا وميشـيل كيلـو وكـمال اللبـواني. وحـضر اللقـاء مـن طـرف أحمـد جربـا عقـاب صقـر، السـياسي اللبنـاني المقـرب مـن سـعد الحريـري. كانـت الغايـة مـن الاجتماع الطلـب مـن أحمـد الانسـحاب مـن الترشـيح لصالـح شـخصية توافقيـة. وأصر أحمـد عـلى ترشـيح نفسـه، فسـألته مقاطعـاً:

- ألا تـرى أنـك أصبحـت بعـد الـصراع الداخـلي شـخصية اسـتقطابية في الائتـلاف؟

تفاجأ أحمد من السؤال وأجاب بعد قليل من الصمت:

- النظام الداخلي يخولني أن أترأس الائتلاف إذا فزت بالانتخابات.

لم يكـن محـطَّ سـؤالي حـول قـدرة أحمـد عـلى الحصـول عـلى الأصـوات، بـل حـول توليـده لحالـة اسـتقطاب داخـل الائتـلاف. ولكنـي لم أتوقـف عنـد جوابـه؛ لأن غايتـي مـن السـؤال تأكيـد للمشـهد السـائد في واقـع الائتـلاف المـاضي نحـو اسـتقطاب واضـح. طرحـت سـؤالاً آخـر يعكـس موقفـي السـلبي مـن ترشـيح أحمـد:

- هل ترى أنك مناسب لتكون واجهة المعارضة في الداخل والخارج؟

نظـر أحمـد إلى عقـاب صقـر الـذي كان يجلـس إلى يمينـه باحثـاً عـن حقيقـة هـذا السـؤال، ثـم التفـت إلي ليؤكـد مناسـبته لتمثيـل المعارضـة:

- نعم أستطيع تمثيل المعارضة إذا تم انتخابي.

وانتهـى الحديـث هنـا وغادرنـا المـكان عائديـن إلى مقـرِّ إقامتنـا. وكان ميشـيل متوتـراً خـلال اللقـاء، وكان يغـادر مقعـده في الجهـة المقابلـة بـين الحـين والآخـر ليخطـو بعـض الخطـوات ذهابـاً وإيابـاً في وسـط الغرفـة، ليعود بعـد ذلـك إلى مقعده.

لم يتوقع ميشيل أن أتخذ موقفاً داعماً للجربا بعد انتخابه، بعد الموقف المناوئ الذي شهده في غرفة الاجتماعات، وتفاجأ بدعوتي أعضاء الائتلاف للوقوف صفاً واحداً خلف القيادة المنتخبة، مما دفعه لمصافحتي بحرارة عندما التقينا بعد الانتخابات، وإطراء موقفي وطريقة عملي مع أعضاء الائتلاف. كان موقفي من الجربا يعكس فهمي لطبيعة العمل السياسي الديمقراطي، والحاجة لرصّ الصفوف خلف المرشح الذي اختارته الأغلبية. وبالمثل لم يكن موقفي المناوئ لأحمد تعبيراً عن موقف شخصي، بل رغبة في اختيار الشخص الأفضل لقيادة الائتلاف. أما الآن، وقد وقف غالبية أعضاء المجلس خلفه، فلم يعد هناك معنى للاستمرار في موقف يضعف المؤسسة الرئيسية للمعارضة في تلك اللحظة الصعبة من تاريخها. لكن الإطراء والإعجاب الذي أبداه ميشيل لم يستمر طويلاً؛ إذ سرعان ما أدت الاحتكاكات داخل الهيئة إلى ظهور توترات بينية انعكست سلباً على علاقتنا. كنت أقدر في ميشيل قدرته على ربط الأحداث المرحلية بالمسار الكلي لشريط الأحداث، وقدرته على التعبير عن هذا الترابط بوضوح. لم يكن يغرق في الجزئيات والتفاصيل، بل كانت لديه ملكة صحية على ربط التفاصيل بسياقها الكلي، والحكم عليها من خلال قدرتها على تحقيق الهدف. لكن شخصيته الحساسة جعلت الكلام معه في سياق عمل الهيئة صعباً. أذكر أنني طلبت منه متابعة ملف مساعي الصلح في مدينة عين العرب؛ التي شهدت توترات بين التركمان والكرد والعرب، فقد سبق وزار المكان واكتسب ثقة الناشطين هناك. فلم يعجبه الكلام، وطلب ألا يكلفه أحد بأي مهمة. وكان ذاك اللقاء نهاية قيام تعاون وتفاهم ضمن الهيئة السياسية.

لم يكن لدي مشكلة شخصية مع أحمد، بل كانت العلاقة الشخصية بيننا جيدة. كان متحدثاً لبِقاً، ويحمل بسبب خلفيته القبيلة، وانتمائه إلى أسرة الجربا التي تمثل إلى جانب أسرة الياور واحدة من أسرتين انحصرت فيهما قيادة قبائل شمر المنتشرة في العراق وشمال الجزيرة. وكان رجلاً حاذقاً في تعامله مع من يحيط به، وماهراً في إنشاء التحالفات وحلِّ الخلافات بطريقة ترضي معظم الأطراف المختلفة، وهي مهارة أخرى اكتسبها من اختلاطه

بشيوخ العشائر. امتاز الجربا بعدم امتلاكه نزعة قومية عروبية، رغم انتمائه لقبائل غارقة في عروبتها. كانت علاقاته جيدة بالأكراد؛ وهي علاقة تعود إلى تحالفات تاريخية بين الجماعات الكردية وقبائل الجزيرة، ولوجوده في محيط كردي كبير في مدينة الحسكة التي نشأ فيها. خلافي السابق مع الجربا يتصل بعدم امتلاكه البعد السياسي والرؤية السياسية التي تتناسب مع حاجة المرحلة من جهة، وإلى تحركه المرتبط مباشرة بسعيه للزعامة السياسية.

الصدام الكبير لم يكن من نصيب ميشيل بل بدر جاموس؛ الذي اصطدم في اللقاءين الأوليين من لقاءات الهيئة معي ومع فايز سارة. فقد شعرت في خلال اللقاءات الأولى أنه يحاول الاعتراض على حق الهيئة في اتخاذ عدد من القرارات، متعللاً بأنها قرارات خاصة بالهيئة العامة. فقلت له: إن القرارات هذه يمكن أن تناقش وتطور داخل الهيئة السياسية قبل عرضها على الهيئة العامة، فأصرَّ على أنه ليس من حقِّ الهيئة السياسية مناقشة مسائل الميزانية. وكان هذا ديدن مصطفى في لقاءات الهيئة عندما كان ممسكاً بملف الأمانة العامة. فقلت له، وضيقي بمحاولاته لعرقلة عمل الهيئة السياسية ظاهر:

- لماذا أشعر بأن مصطفى لا زال معنا في الهيئة السياسية؟

لم يعجبه كلامي وأبدى انزعاجه من السؤال. ثم دخل بعد ذلك في سجال أشد حدة مع فايز سارة، أدى إلى انسحابه من جلسة الهيئة. ثم حاول بعد ذلك تليين الأجواء، واعتذر عن ظهوره بمظهر الرافض لتحريك جدول الأعمال، وتعلل بأن فعله ذاك كان ردّاً على فعل الكتلة الديمقراطية التي كان يقودها ميشيل، وسعيها إلى التحكم بمسؤوليات الرئيس والأمين العام.

الحل السياسي أم الحسم العسكري

تتابعت لقاءات الهيئة دون أي تقدم يذكر، بل شعرت بأن المساعي الجارية لتحسين عمل الائتلاف ذهبت أدراج الرياح، وطلبت من أعضاء الرئاسة حضور لقاءات الهيئة لتطوير الخطط والتشاور حول التعامل مع الملفات

العديدة التي تتطلب معالجة سريعة، وفي مقدمتها ملف جنيف. حضر أحمد بعض اللقاءات ثم تغيب. ركزت الهيئة العامة خلال الأشهر على تشكيل الحكومة المؤقتة الجديدة برئاسة أحمد طعمة. ولكننا كنا قد أضعنا وقتاً ثميناً خلال الأشهر الخمسة الفاصلة بين انتخاب حكومة هيتو وحكومة أحمد، سمح لداعش بملء الفراغ السلطوي في محافظة الرقة، وازدادت الأمور لذلك تعقيداً. سافرت خلال شهر أيلول إلى نيويورك في وفد الائتلاف لحضور اجتماع الجمعية العمومية السنوي لمنظمة الأمم المتحدة، ضم أحمد الجربا وبرهان غليون وميشيل كيلو، وحضر نجيب الغضبان سفير الائتلاف في واشنطن الاجتماع. شاركنا بسلسلة من المداولات حول الملف السوري ضمت وزراء خارجية عدد من الدول الصديقة. التقينا في نيويورك بالأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية، وعبد الله بن زايد آل نهيان وزير خارجية الإمارات، وتميم بن خليفة أمير قطر الذي رافقه وزير خارجيته خالد العطية. كما التقينا بوزير الخارجية الأمريكي جون كيري، وكان لقاء مجاملة لم يترك انطباعاً إيجابياً. والتقينا كذلك بعدد كبير من الدبلوماسيين من دول مجموعة العمل الدولية لدعم سورية. أجرينا عدداً من اللقاءات الصحفية ومؤتمراً صحفياً واحداً. وكنت في تلك الآونة الناطق الرسمي باسم الائتلاف منذ توليت تلك المسؤولية، في الشهر الثالث من تشكيل الائتلاف. التقينا بالعديد من الناشطين السوريين، وبعض أعضاء المجلس السوري الأمريكي الذي استقلت منه بعد مغادرتي الولايات المتحدة إلى قطر، في خريف (2011). ازدادت قناعتي في تلك الزيارة بأن إدارة أوباما وحلفاءها لم يكونوا جادّين في دعم جهود الحلِّ السياسي، وأن تعقيد المشهد السوري، ودخول تنظيم القاعدة على الخط كان عاملاً أساسياً.

شاركت خلال الشهرين التاليين لعودتي من نيويورك في عدد من اجتماعات الهيئة السياسية التي تراجع مستوى المشاركة فيها، وغُيِّب دورها كلياً. وتحول العمل إلى دائرة صغيرة حول أحمد الجربا شملت منذر آقبيق وهادي البحرة. بدأ شعوري يتزايد بضعف تنظيم الائتلاف، وعبثية مشاركتي في تلك المؤسسة؛ التي حاولت بالتعاون مع العديد من الأصدقاء

تطوير أدائها دون جدوى. وكما توقعت زاد الاستقطاب وتواترات محاولات مصطفى وفريقه المساعد، خاصة عبد الإله فهد الذي تحول إلى السوط الذي يستخدمه مصطفى لمهاجمة من يخالفه الرأي. ولم يكن عند عبد الإله مشكلة بالردح والمهاترة للقيام بذاك الدور؛ فقد اتهمني خلال جلسة من جلسات الهيئة العامة بأني أدير الجلسات بطريقة تعسفية؛ لأنني لم أسمح له ولمصطفى بعرقلة جدول الأعمال. كانت جلسة متأخرة، تغيب عنها ثم دخل برفقة مصطفى قبل انتهائها بدقائق قليلة. طلب الكلام فأعطيته مجال للكلام، ثم طلب مصطفى الحق بالكلام فأعطيته وقتاً للكلام، وعاد مصطفى للكلام مرة أخرى فأعطيته المجال للكلام. ثم طلب مزيداً من الوقت للكلام، فأخبرته بأن الوقت المخصص للنقاش انتهى، وحان الآن الوقت للتصويت على القرار. فاهتاج عبد الإله، وقال بأنني أتصرف مثل الديكتاتور! طبعاً أنا كنت أعتمد قواعد إدارة الجلسات التي اعتمدها الائتلاف، فطرحت إنهاء النقاش، فصوَّت عليه أغلب الأعضاء، وقمت بإنهاء النقاش بطريقة نظامية.

رحلة إلى سراييفو ودرس البوسنا

وصلت في مطلع الشهر الأخير من ذاك العام إلى سراييفو، في الرابع من كانون الأول (2013)، في زيارة للمشاركة في ندوة حقوقية بعنوان «البحث عن المفقودين: الدروس المستفادة من البوسنة والهرسك». شاركت في اليوم الثاني لوصولي بالندوة التي نظمها معهد «كونراد أديناور» بالاشتراك مع «اللجنة الدولية للمفقودين». شرحت خلال محاضرتي طبيعة الصراع في سورية وأهدافه، وأثرت مسألة المفقودين والمختطفين خلال السنتين الماضيتين من الصراع الدموي الشرس. وأبديت أسفي واستيائي من الموقف الدولي الذي سمح باستمرار أعمال القتل والاعتقال التعسفي، دون القيام بجهود حقيقية لوقف العنف. شارك في الندوة مدير معهد كونراد المختص بمسائل المفقودين عمر ماسوفيتش شارحاً ملف المفقودين؛ الذي لا زال مفتوحاً بعد مرور عقد من الزمن على الحرب الأهلية. بعد انتهاء الندوة في سراييفو، زرت في اليوم التالي مشروع تحديد هوية المختطفين في توزلا. واطلعت على الإجراءات

المعقدة لتحديد هوية المفقودين بتحليل بقايا الجثث المنتزعة من المقابر الجماعية، والتقنية الحديثة المتبعة التي تعتمد على تحليل الحمض النووي.

لبَّيتُ في اليوم الثالث دعوة من جامعة سراييفو، وألقيت محاضرة في كلية العلوم السياسية بعنوان «الحل الديمقراطي من أجل سورية»، تحدثت خلالها عن ملامح الحلِّ السياسي للأزمة السورية الذي تضمنه بيان جنيف، مشيراً إلى أن الوصول إلى حلٍّ يتوقف على نجاح مؤتمر جنيف الثاني، ودعم المجتمع الدولي له. كما شملت الزيارة لقاء مع حارث سيلايديتش رئيس البوسنا ورئيس وزرائها الأسبق على العشاء، كما قمت بزيارة مجاملة لرئيس البوسنا الحالي بكر عزت باكوفيتش، وهو ابن علي عزت بكوفيتش رئيس البوسنا خلال فترة الصراع المسلح في أوائل التسعينيات. لقائي مع حارث استمر قرابة ساعتين، تحدثت خلالهما عن الصعوبات التي تواجه السوريين، وكان متابعاً للموضوع. كما حدثني عن مفاوضات ديتون للسلام الذي كان خلالها وزيرا لخارجية البوسنا، والصعوبات التي واجهها، والتنازلات المؤلمة التي كان على القيادة البوسنية تقديمها. كما حدثني عن أساليب الضغط التي اتبعها المفاوض الأمريكي ريتشارد هولبروك. وقدم لي بعض النصائح حول مفاوضات جنيف القادمة، بعد أن أعلن المبعوث الدولي الأخضر الإبراهيمي موعداً لها في منتصف شهر كانون الثاني. أخبرته بأن قرار المشاركة في المفاوضات لم يتخذ بعد، كما شاركته بشكوكي حول قدرة النظام على الدخول بمفاوضات.

كان الاهتمام الإعلامي واضحاً، ربما بسبب وجود تشابه بين الصراع في سورية والحرب البوسنية التي شهدت مجازر مروعة شبيهة بما كان يجري في سورية. أجريت مقابلات مع معظم الصحف الرسمية، والمحطات التلفزيونية الرئيسية، كما أجريت مقابلة مطولة تطرقت إلى مشروعي المعرفي وجهودي الفكرية مع الصحفي البوسني القدير ميرنيس كوفاتش؛ الذي أثار أسئلة مختلفة تتعلق بقضايا الإصلاح والتجديد والعلاقة بين الإسلام والحداثة والشرق والغرب، ونشر المقابلة في مجلة دورية محلية. وقام مؤخراً

بنشر المقابلة مع مقابلات أجراها مع عدد من زوار سرايفو خلال السنوات الماضية في كتاب بعنوان (**إسلام تحت الحصار**).

أمضيت في سرايفو أوقاتاً جميلة مع نخبة من طلابي الذين درستهم في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، منهم أحمد علي باستش أستاذ أصول الدين في كلية الدراسات الدينية في سرايفو، وعامر بوكفتش مدير مصرف البوسنا الدولي؛ اللذين قاما بتنظيم لقاء عشاء مع نخبة من خريجي الجامعة استرجعت فيها أياماً مميزة. كما التقيت الدكتور فكرت كارتش الذي كان زميلاً لي في الجامعة العالمية في كوالالمبور، وتعرفت على ابنه أنس الذي يعمل في تلفزيون «الجزيرة البلقان». وكانوا جميعاً خير مضيفين خلال الأيام القليلة الباردة التي أمضيتها هناك. كما شملت الجولة التي قمت بها في المدينة زيارة لمتحف البوسنا الذي وثق بعض أحداث الحرب الأهلية، وزيارة مجاملة لشيخ الإسلام في البوسنا، وهو بمقام وزير أوقاف ومفتٍ عامٍّ للمسلمين في البوسنا. وأخير التقيت بالجالية السورية في البوسنا، وأمضيت معهم أمسية تعرفت خلالها على أحوالهم ونشاطاتهم، وشاركتهم بهموم الائتلاف والمعارضة.

استقالة بعد إحباط وعودة مسؤولة

بعد عودتي إلى اسطنبول من زيارة البوسنا فوجئت بحالة فوضى كاملة في الائتلاف، واستمرار حالات التنافس والصراع العبثي بين قطبي الجربا – صباغ. فقررت في ختام لقاء الهيئة السياسية تقديم استقالتي والخروج من حالة التخبط والعبث وتضييع الأوقات تلك. أرسلت يوم الأربعاء 19 كانون الأول (2013) رسالة إلى رئيس الائتلاف وأعضاء الهيئة السياسية أعلنت فيها عن استقالتي من الائتلاف الوطني بمفعول فوري، وعدم رغبتي في الاستمرار بالعمل في مؤسساته، بعد العجز الكامل للائتلاف، رغم مرور عامين، على القيام بمسؤولياته التي حددها لها نظامه الأساس. كما أسفت لغياب الإرادة السياسية لتنفيذ الرؤية التي طورتها الهيئة السياسية. ودعوت في رسالتي أعضاء الائتلاف «إلى رصِّ الصفوف، وتقديم المصلحة الوطنية على المصالح الشخصية والحزبية، وإلى

دعم الحكومة المؤقتة التي يتوقف مستقبل الائتلاف على نجاحها في تنظيم الحياة في المناطق المحررة».

بعد يومين من تقديم استقالتي بدأت الاتصالات والرسائل تتتالى من أصدقائي في الكتلة الوطنية، وأصدقاء آخرين من الائتلاف، تدعوني للتراجع عن استقالتي، خاصة مع اقتراب استحقاق جنيف 2. وكنت من الداعمين للعمل باتجاه حلٍّ سياسي ينهي حمام الدم المستمر في سورية منذ سنتين ونيف. كنت أعطي أولوية للحلِّ السياسي طالما حقق العملية الانتقالية الديمقراطية الضرورية لتجاوز حالة الصراع في سورية. وكانت العديد من الاتصالات والرسائل تذكرني بضرورة متابعة الدفاع عن هذا الموقف داخل أروقة الائتلاف، خاصة أن ثمة رفضاً لدى عدد من الكتل المشاركة في جنيف. كنت أشعر بالمقابل بتهافت قوى المعارضة السياسية التي تكاثرت في الخارج، وضعف الائتلاف وعجزه عن التحرك سياسياً، بعد ثلاث سنوات من العمل الدؤوب وتقديم الاقتراح تلو الآخر والاستراتيجية تلو الأخرى. بدا لي أننا وصلنا إلى طريق مسدود. كانت لقاءات الهيئة العامة تدور في أجزاء مهمة منها حول الانتخابات، وإعادة الانتخاب والمحاصصات، والخلوات التي تعقدها الكتل لتقاسم الأدوار، في حين كانت الهيئة تقضي أوقاتاً قليلة في تطوير المشاريع والسياسيات والخطط.

الاستقطاب الذي حصل، بعد انتخاب الجربا وفشل صباغ، أخذ شكل صراع وتنافس بين مكتب الرئاسة ومكتب الأمانة، وبالتحديد بين تيارين كبيرين يدوران حول الجربا وصباغ، أدى إلى شلل كبير في التواصل والتعاون بين كتل الائتلاف وأعاق عمله. اتصل بي أحمد الجربا وطلب مني العودة عن الاستقالة، وأكد على أهمية مساهمتي في المرحلة القادمة. ووعد بإعادة ترتيب الأمور وتفعيل مكاتب الائتلاف ونشاطاته. وبعد أخذٍ وردٍّ بيننا عبر الهاتف، اتفقنا على لقاء لمناقشة الأسباب، وحالة الائتلاف، والاستماع لتصوري لآليات العمل. التقيت في اسطنبول ببعض قيادات الكتلة الوطنية التي أنتمي إليها، شملت هشام وعبد الرحمن، وتشاورنا

مع أعضاء فاعلين فيها، مثل أديب الشيشكلي، وأسامة القاضي، وحنان البلخي، ومنى الجندي. في لقائي مع أحمد أثرت معه مسألة غياب البنية المؤسسية من قرارات الائتلاف وعمله، وطلب مني اقتراحات لتجاوز ذلك، فقدمتها له، ووعد باعتماد آليات التشاور والقرار المحددة في لوائح الائتلاف، خاصة نظام التداول، والخطة التي طورتها الهيئة السياسية لرفع أداء الائتلاف. كما التقيت باثنين من أعضاء الائتلاف المقربين لأحمد آنذاك؛ منذر آقبيق وهادي البحرة، للتباحث حول آليات العمل المشترك، ووعدا خيراً، ولكنني أنهيت اللقاء معهما دون أن أشعر بكثير من الاطمئنان لإمكانية تجاوز طريقة عملهما الفردية. ورغم شكوكي تلك فقد عقدت العزم على المساهمة في فترة المفاوضات، سعياً لتطبيق النقاط التي اتفقت مع أحمد حولها، وكذلك لسبر حقيقة الوعود الروسية والأمريكية بالمضي في الحل السياسي. وكنت أدرك الأثر الإيجابي لتطبيق بيان جنيف على الحالة السورية، خاصة وأنه يتوافق مع أطروحات المعارضة في التحول الديمقراطي وإنشاء هيئة حكم انتقالية بكامل الصلاحيات التنفيذية لبدء عملية التحول نحو مشاركة سياسية ودولة القانون.

مفاوضات جنيف وأوهام الحل السياسي

شاركت في الاجتماعات التحضيرية التي نظمتها مجموعة «أصدقاء سورية»، وشارك فيها رؤساء خارجية الدول المعنية بالملف السوري في باريس، في منتصف شهر كانون الأول من عام (2013). عقدت الاجتماع في وزارة الخارجية الفرنسية، حضره وزراء خارجية فرنسا وبريطانيا وتركيا والسعودية وقطر والأردن ومصر والولايات المتحدة. وأبدى الوزراء دعمهم لجهود المعارضة للوصول إلى حلٍّ سلمي، ووعد وزير الخارجية الأمريكي جون كيري بوضع ثقل الولايات المتحدة لإنهاء الصراع العسكري، ودعم جهود الحلِّ السياسي. ثم شاركت في لقاء آخر مع وزير الخارجية الروسية لافروف، في مبنى السفارة الروسية في باريس، مع وفد ضم أحمد وميشيل وبدر. وأظهر لافروف في ذلك الاجتماع مواقف

متناقضة من النظام السوري بين موقف داعم وآخر محايد وثالث معارض. ووجهت إليه أثناء النقاش سؤالاً مباشراً:

– هل ستصرُّ على إلزام النظام باحترام بيان جنيف الذي وقعت عليه روسيا؟

نظر إلي متأملاً ثم قال:

– مهمتنا إلزام النظام بالحضور إلى جنيف، وأنتم ستفاوضونه حول البيان.

خرجت من اللقاء مقتنعاً بأن الموقف الروسي الداعم للنظام لم يتغير قيد أنملة، وغادرنا السفارة الروسية متوجهين إلى الفندق للقاء الأخضر الإبراهيمي. كان لقاء مجاملة تخلله بعض النقاش حول التحضيرات لجنيف 2. كان انطباعي نتيجة هذا اللقاء مع الإبراهيمي إيجابياً، وزاد عن توقعاتي السابقة عن موقفه وطريقة عمله. اجتمع وفدنا في نهاية زيارتنا إلى باريس لتبادل الرأي حول الزيارة، وكان يضم أحمد الجربا، ومدير مكتبه منذر آقبيق، وأمين عام الائتلاف بدر جاموس، ورئيس التيار الديمقراطي ميشيل كيلو، ونائب رئيس الائتلاف نورا الأمير. وكانت نورا شابة ناشطة في صفوف الثورة، شاركت في مظاهرات دمشق، واعتقلت لعدة أشهر، قبل أن تلتحق بالمعارضة في تركيا. وتداولنا موضوع انطباعاتنا عن الزيارة والمشاركة في جنيف. ولم تكن الهيئة العامة قد اتخذت قرارها بعد بالذهاب. وأبدى معظم المشاركين ميلاً للذهاب إلى جنيف. وأكدت في مداخلتي ضرورة المشاركة في جنيف رغم الاحتمال الضعيف في الوصول إلى نتائج إيجابية. وشدَّدت على أن غيابنا عن جنيف يصبّ في مصلحة النظام لأنه يعفيه من ضغوط الدخول في حلٍّ سياسي، ويحمل المعارضة مسؤولية استمرار الصراع؛ لأن النظام سيلقي باللائمة على المعارضة، ويدعي أنه كان مستعداً للدخول في مفاوضات الحل السياسي.

عقد اجتماع الهيئة العامة للائتلاف في 14 كانون الثاني عام (2014)، في أجواء من التشرذم والاستقطاب التي بقيت تعكس ظلالها الكثيفة على الجميع. وتفاجأ الجميع بانسحاب كتلة المجالس المحلية المدعومة من الصباغ،

وكتلة الحراك الثوري المتحالفة معه، في اليوم الأول من الاجتماع. لم أحضر الانتخابات التي جددت رئاسة أحمد الجربا إلى فترة رئاسة ثانية، وآثرت البقاء بعيداً عن الكولسات التي كانت تسبق انتخابات الائتلاف. التحقت بالجلسات التي أعقبت الاستحقاق الانتخابي، وتركزت على مناقشة مشاركة الائتلاف في مفاوضات جنيف، وتفاجأت بغياب عدد كبير من الأعضاء. أظهرت التشاورات وجود انقسام كبير حول المشاركة، لا بسبب طبيعة المفاوضات بل بسبب الالتفافات السياسية التي تعقب كل انتخابات. فقد انسحبت جماعة صباغ، المسماة المجالس المحلية، وانسحب معها كتل قريبة منها، مثل التيار الوطني، وقسم من كتلة الحراك الثوري. بدأت جلسات مناقشة المشاركة في جنيف وسط تغيُّب ثلث الأعضاء، بلغ 40 عضواً من أصل 120 عضواً. تحدثت في الجلسة وبيَّنت أهمية الذهاب، وطلبت من الجميع التعامل بمسؤولية مع القرار. وقلت: إن الذهاب واجب للبحث عن حلٍّ سياسي للصراع السوري، وشددت على أننا لن نخسر شيئاً بذهابنا، بل سنضع النظام في زاوية صعبة، ونظهر رفضه للوصول إلى حلٍّ سياسي. ونبهت إلى أن الخسارة ستكون من نصيبنا في حال عدم الذهاب؛ لأن النظام سيظهر بمظهر الراغب في الحل السياسي، وسيتَّهم المعارضة بالسعي للحسم العسكري. حضر أغلبية أعضاء الائتلاف النقاشات والمداولات، وكنا لذلك نملك النصاب اللازم لاتخاذ القرار. ولكننا قررنا انتظار باقي الأعضاء قبل البدء بالتصويت، لأهمية الخروج بموقف موحد وقرار بأغلبية كبيرة. بدأت الاتصالات مع صباغ وفريقه، ثم طلب رياض سيف الذهاب لإحضار المنسحبين. ولكنه عاد بعد ثلاث ساعات خالي الوفاض، معتذراً أنه لم يتمكن من إقناعهم بالحضور. قررت الهيئة بعد انتظار طويل المضي بالتصويت بعدما اتضح للجميع أن الغاية من الانسحاب تعطيل جلسات الهيئة العامة، سعياً للوصول إلى «صفقات سياسية» مع الأغلبية. كانت النتائج محرجة لمجموعة صباغ؛ لأن المكتبين الأساسيين؛ الرئاسة والأمانة خرجا من دائرة تأثيرهم. وضع اقتراح المشاركة في مفاوضات جنيف للتصويت، وحصل قرار الذهاب

على الأغلبية المطلقة رغم غياب أربعين عضواً. الموافقة على الذهاب بالأغلبية المطلقة أكد أن قرار الذهاب تلقى العدد النظامي من الأصوات وفق آليات الاختيار الديمقراطي؛ لأن غياب الأعضاء عُدَّ تصويتاً ضد قرار الذهاب، وأن الرافضين للذهاب كانوا دون نصف الأعضاء. غياب الأعضاء عن اجتماع الهيئة ترك أثراً سلبياً وظفه النظام لصالحه في محاولاته لإظهار اختلافات المعارضة وانقساماتها التي لا تنتهي. وكان بشار الجعفري يتلذذ خلال المؤتمر بحديثه عن «المعارضات» السورية.

ما إن انتهى التصويت لصالح المشاركة في مفاوضات جنيف، التي جرت قبل الموعد المحدد بأيام قليلة، حتى فاجأنا الأمين العام للأمم المتحدة؛ بان كي مون؛ بدعوة ممثل عن إيران للمشاركة. بعد مداولة سريعة اتخذ القرار برفض الذهاب إلى جنيف إذا أصرَّ الأمين العام على دعوة إيران. كان سبب الاعتراض هو تورط إيران في أعمال العنف ضد السوريين، ومشاركتها في المعارك الدائرة في البلاد. وضعنا شرطاً لقبول حضور إيران في المؤتمر هو قيامها بالتنديد باستهداف النظام للمدنيين، والتزامها بسحب مقاتليها من سورية. طبعاً لم تكن إيران لتقبل بهذا الشرط، وبعد يوم من الأخذ والرَّد سحب الأمين العام الدعوة. وبدأت الاستعدادات للسفر إلى جنيف. تم تسمية الوفد خلال لقاء للهيئة السياسية، وضم الوفد عشرة أعضاء من الائتلاف وخمسة مستشارين.

لم أكن أستطيع الذهاب من اسطنبول إلى جنيف مباشرة، بل كان علي السفر إلى الدوحة للحصول على إجازة بغير مرتب من عملي؛ فقد كنت آنذاك على رأس عملي؛ مديراً لمركز الحوكمة الرشيدة والسياسات العامة، وأستاذاً للعلوم السياسية في جامعة حمد بن خليفة. وافقت إدارة الجامعة على الإجازة بغير مرتب لمدة أربعة أشهر. وصلت إلى جنيف يوم 23 كانون الثاني، في اليوم التالي لافتتاح المؤتمر. المشكلة الأولى التي واجهتني بعد وصولي تنظيم المؤتمرات الصحفية والبيانات. كنت لم أزل الناطق الرسمي للائتلاف، وكان ضرورياً بالنسبة لي التحدث إلى العالم بصوت واحد، وحصر التصريحات الرسمية بشخص الناطق الرسمي. لكن منذر

آقبيق كان يعدُّ نفسه لتولي تلك المهمة، فاعترضت على طلبه نظراً لضرورة كون الناطق الرسمي مع فريق المفاوضات واطلاعه على القرارات السريعة والمتتالية. لم يقتنع منذر، وكان مقربا من أحمد الجربا، فطلب من مستشار إعلامي احترافي كان الائتلاف قد تعاقد معه لتنظيم الجوانب الفنية من عمل الفريق الإعلامي أن يرسل رسالة يؤكد فيها أن الشخص الوحيد الذي تم تحضيره للقيام بمهمة المتحدث الرسمي هو منذر آقبيق! اجتمعت مع أحمد بعد اطلاعي على الرسالة، وطلبت منه التدخل لإنهاء تلك المهزلة. وفعلاً استدعى منذر إلى مكان اجتماعنا وطلب منه التنسيق معي في مسائل المؤتمرات الصحفية. وتم التفاهم مع الفريق المفاوض على أني الشخص الوحيد المخول بالحديث في المؤتمرات الصحفية باسم الوفد. وتم تحديد عدد من أعضاء الوفد لإجراء مقابلات مع وسائل الإعلام للتعبير عن آرائهم ومشاهداتهم الشخصية، وإحالة الصحافة إلى الناطق الرسمي فيما يتعلق بموقف الائتلاف. وبذلك سُدَّ الباب على مسألة الفوضى الإعلامية.

كانت الخطة أن يشارك وفد المعارضة التفاوضي في المفاوضات التي كانت تجري وفق جلستين؛ واحدة في الصباح وأخرى بعد الظهر؛ وكان الوفد يلتقي بحلقة أوسع من قيادات الائتلاف ومستشارين سياسيين مساء كل يوم. كما تم الاتفاق على إبقاء أحمد الجربا خارج المفاوضات، وتكليف هادي البحرة بمهمة المفاوض الأول. ووضعت قواعد للحديث واتخاذ القرارات. وجد وفد النظام في عدم مشاركة أحمد الجربا حجة لعدم مشاركة رئيسه وليد المعلم، وعدم مشاركة آخرين من أعضاء الوفد، وتولى رئاسة الوفد المفاوض عن النظام بشار الجعفري، والذي كانت مهمته تعطيل المفاوضات، ورفض الدخول في جوهر بيان جنيف، وإبعاد النقاش عن العملية الانتقالية وتشكيل هيئة الحكم التي تقودها. بعد جولتين من المفاوضات جرت الأولى منهما في نهاية شهر كانون الثاني، والثانية في الأسبوع الثاني من شهر شباط، حصل ما كان متوقعاً ورفض النظام مناقشة ملفّ العملية الانتقالية وهيئة الحكم الانتقالي، بينما كانت قواته مشغولة بإلقاء براميل الموت على أحياء حلب وداريا والغوطتين.

خيبة أمل دولية وإقليمية

لم يتخذ مجلس الأمن والمنظمة الأممية أية قرارات ضاغطة على النظام لإرغامه على الدخول في عملية تفاوضية حقيقية، كما سبق ووعد وزراء خارجية الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي خلال مؤتمر باريس. وظهر جلياً أن الولايات المتحدة لا تعطي أولوية لوقف إطلاق النار، وأن إدارة أوباما منشغلة في مفاوضات الحدّ من تخصيب اليورانيوم مع إيران. أعاق الملف الإيراني المتداخل مع الملف السوري كل المساعي للدفع بالحلِّ السياسي. بدأنا نتحرك في الدائرة العربية، وقمنا بزيارة للسعودية والكويت ضمن فريق يمثل الائتلاف. زيارة الكويت جرت للمشاركة في اجتماع القمة العربية الخامس والعشرين الذي بدأ في 15 آذار. وتبين لنا بعد لقاء قصير مع وزير الخارجية الكويتي خالد الجار الله أن ثمة تغيراً في الموقف العربي تجاه الائتلاف والحكومة السوري، وأن مقعد سورية لن يمنح رسمياً للائتلاف بسبب اعتراضات من وزراء خارجية عرب لم يسمِّهم. ولكننا عرفنا لاحقاً أن وزير خارجية مصر وأمين الجامعة العربية، ووزراء خارجية العراق والجزائر ولبنان تبنوا الموقف المصري الرافض لتسليم مقعد سورية إلى الائتلاف. عقدنا اجتماعات مع عدد من الوفود العربية أهمها الوفد السوداني والليبي والتونسي والمغربي. ودعا البيان الختامي إلى «حل سياسي» للنزاع على أساس بيان مؤتمر جنيف. وطالب البيان النظام السوري بوقف جميع العمليات العسكرية ضد المواطنين «ووضع حدّ نهائي لسفك الدماء وإزهاق الأرواح»، لكنه لم يتخذ خطوات عملية لحماية المدنيين السوريين من عمليات القتل اليومية. كما التقينا بوفد من الجالية السورية في الكويت. ومكثت بعد المؤتمر بضعة أيام بعد حضور أسرتي من الدوحة، أمضيناها بصحبة أختي لينا وأخي عامر وأسرته المقيمين في الكويت، كما زرت قبر الوالدة. كانت مناسبة لِلَمِّ شمل الأسرة والأهل بضعة أيام. زيارة السعودية حصلت في 21 نيسان، واجتمع وفد الائتلاف في جدة. التقى الوفد بولي العهد سلمان بن عبد العزيز، وكان الملك عبد الله يعاني من أمراض حالت

بينه والقيام بمهامه. والتقينا بولي ولي العهد مقرن بن عبد العزيز في زيارة مجاملة. كما التقينا في اجتماع عمل مع سعود الفيصل وزير الخارجية الذي بدا عليه الإعياء. وتم الاتفاق على تقديم مساعدات للاجئين، ودعم الحكومة السورية المؤقتة، وشارك في الوفد رئيس وزراء الحكومة المؤقتة أحمد طعمة ووزير الدفاع آنذاك أسعد مصطفى.

في اجتماع الهيئة العامة في مطلع شهر نيسان شكك مروان حجو؛ عضو اللجنة القانونية؛ في عضويتي في اجتماع الهيئة العامة، وأضاف اسمي إلى أسماء ثلاثة أعضاء استقالوا خلال فترة انسحاب كتلة مصطفى صباغ. اعترضت على تصرف مروان غير المفهوم؛ إذ إنني شاركت خلال الشهور الماضية في جميع لقاءات الهيئة، ومثلت الائتلاف في جنيف، وترأست العديد من الاجتماعات التي اتخذت قرارات هامة. والآن بعد مرور عدة شهور على عودتي إلى الائتلاف أفاجأ بموقف متشنج من عضو في اللجنة القانونية. أرسلت بتاريخ 10 نيسان رسالة للجنة القانونية وللهيئة العامة معترضاً على التوظيف العشوائي والانتقائي للنظام الداخلي، وطلبت من اللجنة التحقيق في ملابسات الموضوع، والبتّ بصورة رسمية في الموضوع. تم استيعاب الأمر خلال الجلسة اللاحقة، وأكد هشام مروة عضو اللجنة القانونية شرعية عودتي، ووجود التباس في مرافعة مروان.

لكن جلسات الهيئة المستمرة في انعقادها أعادت شريط التطورات خلال الأشهر القليلة الماضية التي تلت مفاوضات جنيف. فقد بدا لي واضحاً استمرار الفوضى الإدارية، والاستقطاب السياسي، ولقاءات الهيئة العامة التي لا تتخذ القرارات الضرورية لترشيد عمل الرئاسة، ولا تقوم بمساءلة الجهات التنفيذية داخل الائتلاف، بل تمضي الساعات الطوال بالتشكي والندب والهرج والمرج والكولسات لتحقيق مصالح ضيفة، واصطفافات ليس لها معنى إلا الصراع على مواقع فرغتها السلوكيات من معناها. شعرت أنني أضيع وقتي في تلك الاجتماعات لمؤسسة لا تجيد التخطيط والتنظيم وتوظيف الطاقات، ولا تريد أن تستفيد من الخبرات، وأدركت أنني استنفدت كل ما أملك من

تأثير، واتخذت القرار هذه المرة بتثبيت استقالتي، التي بقيت موضع شك عند البعض بعد أشهر من المشاركة الفاعلة في نشاطات الائتلاف.

تلاحقت تلك الأفكار والمشاعر في إحدى الجلسات التي كنت أديرها، في لقاء جرى في منتصف شهر نيسان قرب اسطنبول. اتصفت الجلسة بمداخلات بلا غاية سوى الشكوى وتعميق الخلافات، وكل متدخل يغني على ليلاه ويطرح المسألة التي تهمه، وشكاوي متكررة من أعضاء بعدم استجابة الرئاسة لمطالبهم دون تقديم اقتراحات لمعالجة المسألة، ومداخلات يريد أصحابها التحكم في طريقة إدارة الجلسة. فاعتذرت للحضور عن الاستمرار في إدارة الجلسة، وطلبت من بدر جاموس إدارة ما تبقى منها بدلاً مني، وخرجت من قاعة الاجتماعات إلى غرفتي لإعداد حقيبتي، وكتبت رسالة مقتضبة من سطرين بتاريخ 14 نيسان (2014) طلبت فيها تثبيت الاستقالة الأولى التي أصبحت موضع شك. ثم خرجت من غرفتي وودعت الأصدقاء، وغادرت مستقلاً السيارة باتجاه المطار، ولتكون تلك الجلسة الأخيرة التي أحضرها من جلسات الائتلاف. تواصلت قبل رحيلي مع قيادة الكتلة الوطنية واتفقنا على اختيار عبد الرحمن الحاج ليمثل الكتلة بدلاً مني.

عودة إلى دائرة الفكر

رجعت إلى الدوحة لأكبّ على العمل العلمي، تأليفاً وتدريساً وإشرافاً ومساهمة في الندوات والنقاشات والمؤتمرات الفكرية والمعرفية. مشاركتي في الصراع السياسي لم تكن في أي لحظة من اللحظات من باب التحول من الرسالة الفكرية الإصلاحية إلى العمل السياسي. كان هذا الأمر واضحاً لي طوال سنوات الثورة. كنت أرى نفسي داخل الحراك الثوري من خلال العمل لدعم المبادئ التي آمنت بها، وتأكيدها وإيضاحها، وتحويلها إلى علاقات وممارسات. كانت مساهمتي من خلال السعي لترشيد العمل السياسي، وتطوير البنية والأطروحات، ولعبت دوراً رئيسياً في السعي للوصول إلى حلٍّ سياسي، وكنت أحد المنافحين عنه في وجه المعترضين داخل صفوف المعارضة والثورة. وكان الصدام بين المبادئ التي آمنت بها

والممارسات التي رأيتها السبب الرئيسي في الاستقالة من الائتلاف، بعد محاولات عديدة لإصلاح السلوك والممارسة.

في لقاء تلفزيوني في برنامج «الطريق إلى دمشق» جرى في الشهر الأخير من عام (2012)، قبل استقالتي بقرابة سنتين، سألني معدُّ البرنامج الصحفي والناشط الحقوقي، أيمن عبد النور، حول الدور السياسي الذي أريد أن أقوم به في سورية بعد انتهاء الصراع وعودة الحياة السياسية، فأجبته بأنني أريد العودة إلى مشروعي الفكري، والتفرغ للبحث والكتابة والتأليف. فتعجب محدثي وقال: كيف تترك العمل السياسي في مرحلة لاحقة للثورة، وقد يكون هناك حاجة إلى خبرتك. فأجبته بأنني سألبي بالتأكيد أي دعوة للمساعدة في جهود البناء، ولكنني أفضل أن أقوم بالخدمة العامة من خلال العمل العلمي والأكاديمي. لذلك لم أتردد في ترك العمل والعودة إلى مجالي الحيوي الفكري عندما وجدت أن قدرتي في التأثير في الحراك السياسي بدأت تتراجع؛ بسبب تخبط المؤسسة السياسية الرئيسية التي ساهمت في إنشائها وتطويرها.

لم أنقطع كلياً عن الكتابة في قضايا المعرفة والحوار الفكري، حتى في خضم العمل الثوري والارتباطات السياسية؛ فقد شاركت في مطلع عام (2012) في سلسلة من الحوارات في الجامعة الميثودية؛ التي استضافتي شهر كانون الثاني لتقديم قراءة في العلاقة بين الإسلام والمسيحية، والحديث عن معنى «الروحي» في الرؤية الإسلامية. تلقيت الدعوة من الدكتور ستيفن براي، أستاذ الأديان في الجامعة الميثودية، في منتصف شهر كانون الأول عام (2011)، دعاني فيها لأكون الأستاذ الزائر لتقديم محاضرة وماك السنوية، في مقر الجامعة في لافايتفيل في ولاية كارولينا الشمالية. سافرت في الأسبوع الثالث من شهر كانون الثاني إلى الولايات المتحدة، والتقيت ستيفن يوم 22 كانون الثاني حال وصولي إلى الحرم الجامعي، وأمضينا أمسية دعا فيها بعض الأساتذة لتعريفي بقسم الفلسفة والأديان الذي يرأسه. قدمت يوم 23 كانون الثاني (2012) محاضرة بعنوان «المواجهة

المسيحية الإسلامية: التبادل الثقافي والتقارب الكلامي»، ناقشت موضوع التبادل الثقافي والفلسفي والكلامي بين المسيحية والإسلام، وبحثت في الآثار المترتبة عن المواجهة الثقافية والدينية الراهنة بين هاتين الديانتين العالميتين. تبعتها في اليوم الثاني محاضرة بعنوان «الروحانية: الصلة الدائمة بين الله والإنسانية»، ناقشت فيها النصوص القرآنية التي تربط الروح الإنسية بروح الله، ومعنى الوجود الإلهي في التاريخ الإنساني من منظور إسلامي، وأثر العلاقة بين العلوي والإنسي في حياتنا وعلاقاتنا اليومية.

السنوات الثلاثة الماضية التي أعقبت خروجي من مؤسسات المعارضة أعطتني الفرصة لتأليف أربعةِ كتبٍ وديوانٍ شعريٍّ. نشرت كتاب (**المعارضة السورية**) بالتعاون مع الصديق حازم نهار عام (2014)، وكتاب (**الرشد السياسي وأسسه المعيارية**) عام (2015)، وكتاب (**الإنسان وجدلية الوجود والوجدان**) عام (2016)، وكتاب (**الشريعة والمجتمع**) عام 2017. الديوان الشعري الذي يحمل عنوان (**أوراق من الزمن القادم**)، يتضمن قصائد ترتبط بمعاني الإنسانية والوطنية، والثورة على الفساد والاستبداد، والحرية المسؤولية، والحب والإخلاص، والتضحية والشهادة، والتصميم والأمل الواعد، كتبتها خلال سنوات الثورة الخمس. وسبق أن نشرت كتاب (**الحرية المواطنة والإسلامي السياسي**) أثناء عملي في صفوف المجلس الوطني عام (2012). وأعدت نشر كتابي (أساس العلم) باللغة الإنكليزية في عام (2014)، الذي نشر لأول مرة عام (1997) أثناء عملي مع الجامعة الإسلامية العالمية. قمت بإدخال تعديلات مهمة على الطبعة الأولى، وأعدت كتابة الفصل الأول منه. كما انتهيت في النصف الأول من عام (2017) من كتابة أوسع كتبي إلى الآن؛ كتاب (الفكر والنهوض). وبذلك تكون سنوات عملي في جامعة حمد بن خليفة في قطر من أغزر سني حياتي كتابة وتأليفاً، إضافة إلى النشاط السياسي في صفوف المعارضة. السنوات القليلة الماضية شكلت لحظة متميزة وغير مسبوقة في لحظات نشاطي الفكري والعملي، وهذا فضل من الله أرجو أن يمتد لسنوات لاحقة لأفرغ ما في جعبتي من أبحاث وأفكار قبل الرحيل.

تطوير الفكر وإصلاحه كان ولا زال عشقي الأول، رغم عملي الميداني في تحويل الفكرة إلى واقع معرفي واجتماعي. لا أعتقد أن البحث والكتابة سيبعداني كذلك عن السعي لنقل الأفكار إلى مستوى الخبرة الإنسانية. العنصر الحاسم هنا الظرف والحاجة والفرصة. زيادة التركيز على البحث والتأليف وابتعادي عن النشاط الكثيف داخل دوائر الائتلاف والمجلس خفض بالتأكيد نشاطي السياسي والاجتماعي، ولكنه لم يخرجني كليّاً من التزاماتي العملية، فاستمرت اللقاءات والاستشارات المرتبطة بالشأن السوري، كما استمرت الجهود الدبلوماسية والتنظيمية لدعم الثورة التي آمنت بضرورتها، رغم كل أخطائها ومثالبها وزلاتها، ورغم خيبات الأمل في بعض من ظننت أنهم قادرون على الارتفاع إلى حجم التحدي ومستوى المسؤولية. قمت ببعض المحاولات لإعادة ترتيب أوراق المعارضة مع ثلة من الأصدقاء، ولكن الأجواء الدولية، والتجارب المريرة السابقة، وتحكم قوى دولية ودول إقليمية قوية بالملف السوري، أضعف الهمم وحال دون جمع من تفرقت بهم الدروب. المحاولة الأخيرة في تشكيل جسد سياسي يتجاوز مثالب الماضي كانت في المشاركة في تأسيس الهيئة العليا للمفاوضات في اجتماع الرياض عام (2015). الهيئة تواجه اليوم التحدي نفسه الذي واجهته جميع البنى والمؤسسات المرتبطة بالمعارضة، وتواجه كذلك مساعي دولية وإقليمية جديدة لتوسعتها سعياً لتغيير المبادئ التي قامت عليها، وفي مقدمتها رفض استمرار التسلط والاستبداد. التدخلات الخارجية ودخول الدول الكبرى في الصراع لإنهاء الثورة وخلط أوراقها، حققت تقدماً ملحوظاً خلال السنتين الماضيتين، ولكني على يقين أنها فترة ستمضي، وستلقن مدرسة الحياة أبناءها الدروس العملية، وستعود إلى بلاد الشام الحبيبة عزتها ورفعتها ودورها المهم في البناء والتطور والإصلاح.

